

مركز الدراسات في الدكتوراه
تكوين: الحوار الديني والثقافي
في الحضارة الإسلامية



أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان :

فقه قواعد العمران وعلاقته بالإنسان (دراسة تأصيلية تحليلية)

ج 1

إشراف الاستاذ :
الدكتور سعيد شبار

إعداد الطالب الباحث:
عبد الفتاح خياري
رقم التسجيل 04/2016

السنة الجامعية:
1442/1441 هـ - 2021/2020 م

إهداء

إلى والدي رمز المحبة والتضحية، والأدب والتربية!!
إلى مَنْ تجرّع الكأس فارغاً ليعطيني قطرة حب من نفسه النورية!!
إلى مَنْ حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق الفكر والعلم

والتربية!!

إلى زوجتي الحبيبة الوفية أم أولادي رفيقة الدرب في كل حال وبلية!!
إلى مشائخي وأساتذتي الذين علموني وقوموني في كل تصور أو قضية!
إلى الأصدقاء الأعزاء والإخوة الأوفياء! مَن محبتهم تونونحو السماء!
إلى الذين يحملون شعلة الفكر وهاجة ومصباح الثقافة وضياء

إلى مَنْ يحمل مشعل العمران ويفكر في مصلحة الإنسان!!
إلى هؤلاء جميعاً أهدي بحث فقهِ قواعد العمران وعلاقته بالإنسان!!

شكر وتقدير

أحمد الله وأشكره على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، فهو المحمود في الأولى والآخرة!

وعملاً بقول النبي ﷺ: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)، فإنني أتوجه بأسمى عبارات التقدير والامتنان النابعة من سويداء القلب، الممزوجة بأجمل المواجيد وأنبل الأحاسيس لأستاذي الكريم، الدكتور سيدي سعيد شبار على ما أولاني به من عناية ورعاية، وما أجاد عليّ من وقته الثمين رغم كثرة مشاغله ومشاريعه الفكرية، حيث لم يأل جهداً - حفظه الله ورعاه - في تشجيعي وإرشادي بتوجيهاته وإشاراته العلمية الرصينة التي كانت تمثل زادا وفيرا في طريقي نحو الهدف المنشود؛ فله مني الشكر الوفير، وله الجزاء الأوفى من العلي القدير!!

كما أشكر كلية الآداب بجامعة السلطان مولاي سليمان العامرة المتمثلة في عميدها وأساتذتها وأطرها الإداريين الذين يسهرون على أداء رسالتهم العلمية ومواكبة المشاريع الفكرية!!

كما أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لمدير مركز الدراسات في الدكتوراه (الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية) الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الرحمان العضراوي على حرصه في تقديم يد العون لطلبة العلم عموماً، وطلبة الدكتوراه على وجه الخصوص.

كما أشكر كل مَنْ ساعدني أو نصحني أو قدّم لي معروفاً، من قريب أو بعيد!!

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾

وقال تعالى:

﴿وَيَسْتَخْلِقَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

وقال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

المقدِّمة

الحمد لله الكريم المتّان، خالق الوجود والأكون، جعل في الأرض خليفة له سماه الإنسان، وأناط به مسؤولية إقامة العمران؛ والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، محمد معلّم الإنسان وباني العمران، وعلى آله وأصحابه أولي النهى والعرفان، وعلى التابعين السائرين على نهجهم بإحسان إلى يوم يقوم الناس للملك الديان.

وبعد، فإننا إذا رجعنا إلى قصة بدء الخليقة والنشأة الأولى كما عرضها القرآن العظيم وصورتها السنّة النبوية للنبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، نجد إشارات قوية إلى كون الإسلام اعتنى بعمارة الأرض ورعاية الكون عناية خاصة، وأولاها اهتماماً مشهوداً، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون وهياً فيه الظروف المثلى للحياة السعيدة المستقرة، ثم استخلف فيه الإنسان ليقوم بإعمارهِ وعمرانه على الوجه الأكمل الذي يحقق به مرضاة ربه وخدمة بني جنسه وإصلاح الكون من حوله؛ قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾¹!!

كما أشار - في سياق ذلك - إلى أن أكبر مهدد لعمران الأرض واستمرار الحياة الطبيعية على هذا الكوكب، إنما يأتي من إفساد الإنسان نفسه في الأرض؛ وهو ما استفهمته حوله الملائكة في قولها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾²، فالإفساد - الذي هو ضد الإعمار - أكبر خطر يمحق الوجود العمراني، لذا خشيت الملائكة وقوعه من لدن من كُلف بعمران الأرض؛ ومن استقرأ آيات القرآن الكريم ألفها محذرة بأشد العبارات من الوقوع في هذا الوصف الفظيع - أي الإفساد - من مثل قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾³، وقوله

¹ .هود: 61

² .البقرة: 29

³ .المائدة: 65

تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْقَبْسَادَ﴾⁴، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁵، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾⁶؛ وجرم إراقة الدماء - بغير حق - أيما تجريم، وحرّم الاعتداء على الممتلكات الخاصة أو على ماله، كل ذلك كان من أجل التحريض على القيام بالواجب العمراني والتعبدي والخلافي أيضا!

إن المسلمين الأوائل لما فهموا هذا وأدركوه سعوا في تحقيقه وتحصيله، فأنتمجوا حضارة بلغت في مجالات العلوم النظرية والعملية أعلى المنازل وأسمى المراتب، وكانت الحضارات تتبع المسلمين في تقدمهم وعلومهم، ولا تزال بعض الجامعات الغربية العريقة تعترف بهذا وتشهد له!!

إلا أن الانبهار ببريق الحضارة الغربية اليوم ألصق بالإسلام دعوات متهافئة أمام الحقائق التاريخية، كالربط بينه وبين التخلف والرجعية والجهل، مع أن من درس الإسلام بعمق وإنصاف ألفاه منهجا متكاملا وشاملا، جاء لإسعاد البشرية وانتشالها من غياهب الضلال والضياع والشقاء! فهو الدين الذي جمع بين العقيدة النقية، والأخلاق الراقية، والتشريعات السامية، كل ذلك من أجل القيام بمهمة الاستخلاف المتمثل في عمران الأرض!! إنه الإسلام الذي يدعو للأخذ بأسباب القوة ويحضّ على العمل ولو في أصعب الظروف وأحلكها، ولا أدلّ على ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)⁷! ولذا ساق القرآن الكريم نماذج من القصص في التخطيط العمراني والحضاري، كقصة ذي القرنين بأبعادها العمرانية، والهدد السليماني بأبعادها الإدارية والقيادية، والقصة اليوسفية بتدبيرها وتخطيطها الزراعي والاقتصادي، كل ذلك تعليمًا وتقريرًا لدور منهج الإسلام في

4 . البقرة: 205

5 . البقرة: 60

6 . الأعراف: 56

7 . رواه البخاري في الأدب المفرد رقم: 371، بسند صحيح..

الارتقاء بالناس وبناء عمرانهم وتشبيد حضارتهم..

وفعلا حينما استمسك المسلمون الأوائل بهذا المنهج، أنتجوا عمراننا بلغت أنواره مشارق الأرض ومغاربها، حيث مثل أنموذجاً فريداً في سياق التاريخ، ولما صدَفَ المسلمون عن هذا المنهج الفريد أصابهم ما أصابهم من تخلف وتدهور، وهو ما نعيشه في وقتنا الراهن ممّا لا يستطيع أحد إنكاره أو تجاهله!!

إنّنا إذا نظرنا إلى الحضارة الغربية المعاصرة التي تصدرت قيادة العالم اليوم وجدناها أوقعت الإنسانية في اضطراب نفسي وثقافت أخلاقي خطير، جعل من الإنسان وحشا كاسرا يفعل بأخيه الإنسان ما يندى له الجبين ويشمئز منها الوجدان!! بل آل الأمر إلى تدمير الإنسان نفسه بنفسه بما أوقع من فساد في البر والبحر، فاختل التوازن البيئي ووقعت الكوارث وحلّت المصائب التي لم تخطر على بال، كل ذلك - مع الأسف - وهو يزعم في الوقت ذاته أنه يسعى في إصلاح الأرض وعمرانها، وينشد حضارة تحقق للإنسان رفاهيته وتجلب له سعادته وراحته!!

إن الإنسان المعاصر في ظل اضطراب الموازين واختلال المفاهيم في حاجة ماسة إلى وقفة صادقة مع نفسه ومع مجتمعه، وقبل ذلك مع ربه، ليضع أفعاله في ميزان الشرع والعقل بعيدا عن ميولاته العاطفية وجشعه الشهواني، حتى تنقشع السحب المتراكمة التي حجبت عنه رؤية حقائق الأمور، فيرى الصلاح صلاحا فيقبل عليه وينشده، ويرى الفساد فسادا فيحذره ويجتنب عواقبه؛ كل ذلك من أجل المساهمة الفعّالة في بناء عمران وارف الظلال يسعد به العباد ويُصلح البلاد!!

وفي ظل هذه المعاني وتحقيقا لذلك الهدف السامي أقدمتُ بتوفيق الله تعالى - أولا وقبل

كل شيء - على اختيار موضوعي في مرحلة الدكتوراه بعنوان: (فقه قواعد العمران وعلاقته

بالإنسان؛ دراسة تأصيلية تحليلية)؛ وقد كان هذا الموضوع ثمرة لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية، أفصَحُ عنها وعن غيرها من المعالم الكبرى لهذا الموضوع من خلال النقاط

الآتية:

1. التعريف بالموضوع: إشكاليته وأهميته وآفاقه.

من المعلوم شرعا وعقلا أن الإنسان لم يُخلَق عبثا ولم يترك هملا؛ فلقد قدر الله عز وجل بمشيئته أن يكون الإنسان مستخلفا في الأرض ليقيم عمرائها، فكرّمه وعظّمه ورفع من شأنه، وأمر الملائكة أن تسجد له؛ فكانت تلك بداية التقدير له، بوضعه محورا لما سيجري على الأرض من أحداث جسام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁸؛ هنا بدأت القصة!! واستمرت حلقات مسلسلها، وانطلقت المهمة الشاقة التي أشفقت منها كثير من المخلوقات التي تبدو - من حيث عظمة الخلق - أقدَر لها من الإنسان، إلا أنه كان ما قد كان!! ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾⁹؛ ومن يومئذٍ والإنسان مستخلف في الأرض، باعتباره سيد المخلوقات، لما أوتي من خصائص أهّلته للقيام بتلك الوظيفة الثقيلة إن هو استرشد بهدايات المستخلف سبحانه وتعالى وفقا لنواميس الكون الذي كُلف بعمرانه.

إنّ الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض موضوع عميق الجذور، شديد التشعب، له علاقة وطيدة بالعمران الذي يعتبر مفهوما إسلاميا أصيلا يمتح دلالاته من القرآن والسنة ولغة العرب؛ فالإنسان وفقا للمنظور الإسلامي مستخلف في الأرض لعمارها وعمرانها على أسس وقواعد وأصول يجب فقها وفهمها فهما جيدا، ثم الالتزام بها والسير على منوالها، وإلا تحول العمران إلى خراب وبياب!! وصارت حياة الإنسان ﴿كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾¹⁰!!

8 - البقرة: 30

9 - الأحزاب: 72

إن العلاقة بين العمران وطبيعة الإنسان علاقة وثيقة وتفاعلية، حيث يتأثر العمران سلبا وإيجاباً بطبيعة هذا الإنسان الفكرية والثقافية والوجدانية، وما يعتقده من أفكار وتصورات، وما يتميز به من مبادئ وأخلاق وتصديقات؛ ولذلك كان الواجب يفرض فهم الاجتماع الإنساني وما يُبنى عليه من قواعد وأصول تُؤطر طبيعة هذا العمران، لِيتم تحويل هذا كَلِّه إلى آليات عمل ومشاريع بناءٍ وعمران للأرض والإنسان أيضاً، تُسهم في صياغة فعل إنساني يتخطى تدهور الواقع وغموض المستقبل؛ لهذا كان من اللازم واللائق بعلم العمران أن يُؤسَّس على قواعد وأصول الشرع والعقل، وأن يُؤطر بمقاصد الشارع سبحانه، الذي كلف هذا الإنسان بأمانة الاستخلاف ووظيفة العمران حتى يغدو هذا العمران حقيقياً لا وهمياً، وإيجابياً لا سلبياً..

إن تدمير الإنسان فكراً وسلوكاً وقيماً وعقائد هو تدمير للكون في حقيقة الأمر، وإعمار الإنسان بالإيمان والقيم السامية والأخلاق الراقية حصن حصين لعملية الإعمار والعمران، وعليه فإن العمران الإنساني في هذا الكون يحتاج إلى منهج قويم يسدده وينظمه؛ فهو لا ينفك عن المنهج الذي يستند إليه، والإنتاج المادي وحده لا يمثل عمراناً حقيقياً للأرض لما قد يؤول إليه من خراب ودمار، وهو ما نطقت به نصوص الشرع القويم، وأقره العقل المستقيم، وشهدت به أحداث ووقائع التاريخ، وعضده الواقع المعاصر، كما هو حال الحضارة الغربية اليوم حيث اتجهت إلى بناء الأبراج العالية، وناطحات السحاب، والبواخر العملاقة والمدن الضخمة...؛ كل هذا وهي غافلة عن بناء الإنسان بناءً صحيحاً، فساد الظلم وانتفى العدل، وتحقق الجور وعمّ الطغيان، وهذا مؤذن بخراب العمران وفساده حينما يصير مخالفاً لمنهج الاعتدال؛ ومصادماً لقوانين الله ونواميسه التي يخضع لها الكون مع الإنسان!!

وبناء على ما سبق تتضح معالم الإشكالية التي نُسجت خيوطُ هذا البحث للإجابة عنها، والتي يتولّد عنها سؤالان كبيران يحوم حولهما البحث برمته؛ يمكن صياغتهما وفق الآتي:

❖ هل يمكن صياغة وتأسيس قواعد كلية وأصول عامة مستنبطة ومستوحاة من

القرآن والسنة ومن التراث والفقه الإسلامي، تؤطر هذا العمران البشري كما هو الشأن بالنسبة للقواعد الكبرى في الفقه والأصول مثلاً؟!!!

❖ كيف يمكن لهذه القواعد العمرانية المنبثقة من الشريعة الإسلامية أن تسهم في إعادة بناء عمران الأمة الإسلامية وحضارتها من جديد، لتستأنف شهودها الحضاري وبناءها العمراني بعدما أصابها ما أصابها من جمود خطير وسبات عميق؟!!! وعن هذين السؤالين الرئيسيين تنبثق أسئلة فرعية تناولها هذا البحث بالدرس والتحليل، وقد جاءت في صيغ متعددة نذكر أهمها فيما يلي:

- ما المقصود بالعمران؟ وكيف تم تداوله تاريخياً؟ وأية علاقة تربطه بمصطلح كل من الحضارة والاستخلاف والعبادة؟
- ما أنواع العمران؟ وهل يتوقف على شروط يرتبط بها؟ وما هي أركانه التي تتكون منها حقيقته وتقوم عليها ماهيته؟
- ما الدواعي العلمية والموضوعية لاستخلاص ودراسة قواعد العمران البشري في ضوء الشريعة الإسلامية، وكذا من خلال التجربة الإنسانية؟
- ما مفهوم القواعد العمرانية؟ وما مصادرها؟ وأين تتجلى أهميتها؟
- كيف تتجلى علاقة هذه القواعد العمرانية بنصوص الشريعة الإسلامية ومقاصدها الكلية وأهدافها العامة؟
- ما طبيعة العلاقة بين العمران والإنسان؟
- ما هي أهم وسائل الإعمار التي يتوسط بها الإنسان لإقامة العمران؟
- هل من أثر إيجابي لهذه القواعد العمرانية على عمران الإنسانية بصفة عامة، وعمران الأمة الإسلامية بصفة خاصة؟
- ما أثر ذلك على انبعاث الأمة من جديد لتمارس مسؤوليتها الخلافية في الأرض، ثم تستعيد عافيتها فتحقق شهودها الحضاري وبناءها العمراني؟

■ وأخيراً أيُّ علاقة تربط بين هذه القواعد العمرانية ومجالات الإسلام المختلفة من عقيدة وعبادة وتصوف وسياسة واقتصاد؟!!

إن تعميق النظر في هذه الإشكالات المتعددة والأسئلة المختلفة ومحاولة الإجابة عنها ودراستها، جديرٌ ببيان أهمية هذا الموضوع وحاجة البشرية إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى، حيث إنّ الإنسان بين خيارين لا ثالث لها، فإمّا أن يُقيم عمرانه ويشيّد حضارته على أسس متينة وأصول قويمة، فتتحقّ سعادته في العاجل والآجل، ويُحصّل حاجاته في المعاش والمعاد؛ وإمّا أن يتمرّد على نواميس الوجود ويخالف قواعد العمران فيهلك الحرث والنّسل، ويدمرّ البلاد والعباد ﴿وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾¹⁰!

وبناء على ذلك يكون هذا الموضوع في حاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام والدراسة من لدن الباحثين حتى ينتشلوا الإنسانية من غياهب الظلمات التي تهوي إليها البشرية عموماً، والأمة الإسلامية على وجه الخصوص؛ وهذا ما تشرّب إليه أعناق المخلصين من العقلاء، وتهوي إليه أفئدة المخبتين من الحكماء!!

أمّا آفاق البحث فتتضح معالمه من خلال كونه يمهّد طريقاً ويفتح باباً لمناقشة موضوع فقه العمران البشري، ودراسة مفهومه وأنواعه، وشرائطه التي يتوقف عليها، وأركانه التي يقوم بها؛ ثم إبراز قواعده وأصوله التي ترجع إليها مسائله وفروعه وجزئياته؛ وما ينجم من مخاطر وآفات على الإنسان أولاً ثم العمران ثانياً حينما لا تُراعى تلك القواعد والأصول، فتختل الموازين وتضطرب المعايير! كل ذلك في إطار توضيح العلاقة التفاعلية بين الإنسان كفاعل حضاري أنيط به فعل العمران من لدن الرحيم الرحمان، وبين العمران كعملية استخلافية يقوم بها الإنسان باعتباره خليفة الله في أرضه، فيكون العمران بذلك الجانب التنزيلي أو الحركة التطبيقية لمبدأ الاستخلاف من لدن المكلف - الإنسان - لتنفيذ مراد الخالق سبحانه وتعالى..

2. دوافع اختيار الموضوع:

في ضوء ما تقدم بيانه، ونظرا لما لعلم التقعيد - بصفة عامة - من أثر كبير في ترشيد السلوك الفردي والمجتمعي، ولما للتقعيد العمراني - بصفة خاصة - من آثار إيجابية عظيمة في إقامة مجتمع سليم ذي حضارة إنسانية شاملة وكاملة، يكون الإنسان فيها مُظْهِراً لعدالة الله تعالى وحكمه في أرضه؛ وأزعم أن هذا هو السبيل الأنجع لاستعادة الأمة الإسلامية مكانتها القيادية في كل مناحي الحياة، وخاصة العمرانية منها والحضارية؛ في ظل ذلك تمّ اختيار هذا الموضوع!!

كما أنه لا أحد يماري أن طرق الباحث واصطفاءه لموضوع علمي معيّن ينمّ عن العلاقة الذاتية والموضوعية التي تدفع الباحث إلى خوض غمار ذلك الموضوع، وعلى هذا الأساس كان اختياري لهذا البحث، فلم يكن ذلك عفويا أو عبثيا، بقدر ما كان نابعا من يقيني العميق بأهمية الموضوع ومكانته العلمية، وأثاره على سلوك الفرد والأمة، بل والإنسانية جمعاء.

وقد شجّعني لهذا الاختيار أسباب عديدة أخرى، كان منها ما هو ذاتي، وما هو موضوعي، نسوق بعضا منها نراه من الأهمية بمكان، والله المستعان!

فأما ما هو ذاتي فيتمثل في:

- استثمار وتفعيل ما تحصّل لديّ من تراكم منهجي ومعرفي من خلال المراحل الدراسية الجامعية وغير الجامعية التي تلقّيت فيها من صنوف العلوم على أيدي أساتذتنا الفضلاء سواء في سلك الإجازة أو سلك الماستر أو غير ذلك ممّا استفدناه من مشايخنا الكرام في أطوار التعليم العتيق، وكذا من خلال المحاضرات والندوات العلمية في شتى جامعات مملكتنا الحبيبة، سواء في بني ملال أو في وجدة أو في مكناس أو في فاس... هذا من جهة.

ومن جهة ثانية هو ما يراودني من رغبة كبيرة في خوض هذا المجال المهم الذي هو

أساس كل قومة حضارية تشعّ بالصلاح والفلاح في الحال والمآل، والعاجل والآجل، إذ لا يخفى أن عمارة الأرض وعمرانها من أبرز مقاصد الخالق سبحانه وتعالى من خلقه لهذا الإنسان، الخليفة في الأرض: "فالخليفة آدم وخَلَفِيَّتُهُ قِيَامُهُ بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي"¹¹.

- الإسهام حسب الاستطاعة والطّول بإضافة لبنة متواضعة - راجيا من المعين سبحانه وقد أعان، أن تكون مفيدة - في الدراسات الإسلامية، وفتح باب البحث والتنقيب عن قواعد العمران البشري، وذلك للحاجة الشديدة والملحة في هذا الباب إلى مثل هذه البحوث، إذ الأمة الإسلامية تحتاج اليوم - أكثر من أي وقت مضى - إلى القيام بما يقتضيه الوقت الراهن من صراع الحضارات فيما بينها، ومن تسابق محموم من قبل الدول الغربية للسيطرة على البشرية وإذلالها، وإخضاعها لهيمنتها من خلال برنامجها العولمي الخطير! لذا نجد الغيورين من علماء الأمة وأساتذة أكاديميين يحثّون على طرق وإعداد البحوث في مثل هذا الموضوع¹²؛ ولم أجد - حسب اطلاعي المتواضع - بحثا علميا أكاديميا في تقعيد العمران وتأصيله، وإنما هناك مقالات هنا وهناك، وكذا بعض الندوات تطرقت إلى الموضوع على عجل، كما وجدت بعض الشذرات في بعض المؤلفات وهذا كله يصلح لأن يكون انطلاقة وأرضية للإقلاع ثم التحليق وربما الإبحار أيضا في خضم هذا الموضوع الذي أزعّم أنه ما زال في بواكير أيامه الأولى ولم ينضج بعد، ومن ثم أحببت أن أدلي بما في وسعي عساي أستطيع أن أقدم لبنة يبنى بها صرح الأمة العمراني.

وقد استشرت - بعد أن استخرت - ثلّة من العلماء والأساتذة الفضلاء في هذا الموضوع،

¹¹ ن: " تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد " للعلامة الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس سنة النشر: 1984م؛ (208/1).

¹² كما جاء في توصيات الندوة التي أقيمت بالقنيطرة يوم الخميس 23 ماي 2013م والتي كانت بعنوان: " دور القرآن في بناء الإنسان والعمران "، حيث أوصى الأستاذة والمشفرون على الندوة بتوجيه الرسائل الجامعية (ماستر، دكتوراه) للبحث في قضايا بناء الإنسان والعمران في القرآن الكريم كما أوصوا بفتح وحدة للدكتوراه تحت عنوان (القرآن والإنسان) ولا أدري هل فتحت هذه الوحدة أم لا؟!

فأشادوا بالفكرة وأعجبوا بالاختيار، ومنهم من سدّدي وأرشدني ببعض الإشارات¹³ وأعربوا عن عدم العلم بسبق في إنجازها، فشجّعني كل ذلك على خوض غمار هذا البحث الجديد والغوص في لججه وأمواجه، عساي أن أعبر مفازاته بأمن وسلام، وإن كنت في بداية الأمر تهيّيت منه لعدم اتضاح معالمه حينذاك، ولقلة المصادر والمراجع فيه!!

- التدرّب على الاشتغال المنهجي في قضايا العمران البشري من منظور إسلامي رباني، وبرؤية علمية رصينة بعيدة عن التبعية والإمعية والاستهلاكية السلبية، منطلقة من ثوابت الأمة منفتحة على كل نافع وصالح، فالحكمة ضالة المؤمن فهو أحقّ بها أنّ وجدها، وهذا كان يمثّل بالنسبة لي دافعا أساسيا ومشجّعا رئيسا، ساهم في عملية البحث بشكل كبير، بل ووجّهني القبلّة التي آتت أكلها بإذن ربها؛ والله الأمر من قبل ومن بعد! أما فيما يخص الدافع الموضوعي:

فلا يتعد كثيرا عن المقصد العام الذي ينظّم أغلب الدراسات والأطروحات، التي تروم البحث في مثل هذه المواضيع الأساسية في بناء التصورات والإدراكات الكبرى للإنسان نحو الخالق سبحانه وتعالى وكذا الكون والوجود بصفة عامة، إنه المقصد المتمثل في محاولة إبراز المنهج الرباني والنبوي في التعامل مع هذه الإشكالات والمواضيع، علما بأن موضوع القواعد أو التقعيد العمراني - في زعمي - من المواضيع التي لم تعط وتخطّ بما تستحقه من

¹³ - من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، أستاذي الفاضل المتواضع صاحب الفكر الثاقب والهمة العالية والأخلاق الربانية الدكتور سيدي سعيد شبار الذي غمرني برعايته وإرشاداته النيرة خلال مسيرة البحث.. وكذا شيخي وأبي الروحي صاحب الأخلاق العالية والعلم الرصين العلامة أبو عطاء الله سيدي عبد الله بلمديني الذي ما فتئ عن نصحي وإرشادي كلما سنحت الفرصة لذلك؛ فاستشرت معهما حول هذا الموضوع فشجعاني على هذا العمل وأفاض علي بأفكار حول الموضوع كانت بمثابة الخميرة التي انطلقت بها حتى ينضّ إناضة فاستوى على سوقه بإذن الله تعالى!! وكذا أستاذنا الفاضل الدكتور عبد الرحمان العضراوي صاحب الفكر المقاصدي والأخلاق الرقيقة والكرم الفياض، حيث أبدى - حفظه الله تعالى - إعجابه بالموضوع؛ والدكتور حسن بو كبير صاحب السمت العالي والأخلاق الرقيقة، أستاذ مركز تكوين الأساتذة بمكناسة الزيتونة، الذي أبدى استحسانه بالموضوع وأعجب بالفكرة، حيث شجّعني بكلمات كانت بمثابة وقود أولي في بداية الأمر فله مني جزيل الشكر؛ والدكتور زيد أبو شعراء الأستاذ الأصولي المبارك الذي رحب بالفكرة إلا أنه أشار إلى صعوبة الموضوع نظرا لقلّة المصادر فيه، فقال كلمة لا زال صدها يرن في أذني وهي: "هذا الموضوع يحتاج إلى قراءة كثيرة لكتابة شيء قليل!!"

الدراسة والقراءة من لدن المفكرين والمثقفين المتخصصين من المسلمين، بالرغم من أهمية هذا الموضوع في ترشيد تصور الإنسان وبناء رؤيته للخالق جلا وعلا وللكون والوجود... ومما يدخل في الدوافع الموضوعية أيضا لانتقاء هذا الموضوع واصطفائه أن بحثي في الإجازة كان في: "القواعد الأصولية وتطبيقاتها من خلال كتاب النكاح من بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد الحفيد؛ أما بحث الماستر فقد كان بعنوان: "القواعد الأصولية والمقاصدية والفقهية وتطبيقاتها في فقه المهجر"؛ وهذا يعني أن القبلة التي كنت أُمُّها وما زلت هي قبلة التقعيد والتأصيل، وهو منهج يُسهم بشكل كبير في بناء تصورات يقينية أو على الأقل راجحة الظن، بعيدة عن التخمين والتوهم، وهذا له أثره في فكر الإنسان وثقافته وسلوكه، لذا أحببت أن أتبع وأسلك نفس المنهج - منهج التقعيد أعني - إلا أنه هذه المرة هو تقعيد من طراز آخر، وخاصة أنه لم تُبذل لحد الساعة فيه جهود كبيرة!!

3. الدراسات السابقة في الموضوع:

سبق أن ذكرت أنني لم أجد كتابا أو بحثا تناول موضوع العمران بالخطوة التي نحتاجها في بحثي هذا، وأن الذين بحثوا في العمران إنما تناولوه من زاوية معينة، وأغلبهم تناول جانب البنين فقط، وحتى الذين تطرّقوا لبعض القواعد العمرانية إنما ركّزوا على بعض القواعد الفقهية كقاعدة "لا ضرر ولا ضرار"؛ لكن ذلك لا يعني أنّ من سبقني لم يبحث في الموضوع أصلا؛ بل لقد سبقني لهذا الموضوع قديما وحديثا من أنار لي الطريق وأرشدني إلى بعض من معالم بحثي فاهتديت بذلك بعد الله عز وجل إلى ما وصلت إليه!!

وأشير هنا إلى أهم المصادر والبحوث التي تناولت هذا الموضوع تناولاً خاصاً:

■ "المقدمة" لابن خلدون؛ وهي في مقدمة المصادر التي استفدت منها كثيرا؛ إلا أن المؤلف رحمه الله لم يتناول العمران بمفهومه الشامل الذي أصّل له في هذه الأطروحة، وإنما تناول الجانب الاجتماعي منه فقط، وما ارتبط به من سياسة

واقتصاد وعلوم، ثم إن تناوله لبعض القواعد التي جعلها عناوين لبعض الفصول من مقدمته¹⁴، لم يسلك فيها منهجية الأصوليين والفقهاء من التأصيل ثم التطبيق والتنزيل؛ وإنما عالجها بنظرة واقعية تجريبية معيشة، تغلب عليها المنهجية الوصفية التاريخية السردية؛ وسبب ذلك - فيما أظن - أن بحثه هذا غلب عليه الطابع التأريخي، ودليل ذلك قوله في بيان الغاية من هذا العلم: "وهو علم يُحوّل غاية المؤرّخ من سرد الأخبار وتصيّد الغرائب إلى السعي إلى فهم الاجتماع الإنساني"¹⁵؛ ومع ذلك كله كانت المقدمة من أروع ما ألف في هذا الميدان، وقد أشرت إلى هذا في ثنايا البحث.

■ **"علم العمران الخلدوني"** للباحث الجزائري الدكتور صالح بن طاهر بن مشوش؛ وهو كتاب طبع من المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الأولى سنة 2012م، ويُعتبر من وجهة نظر مؤلفه أول محاولة عنيت بدراسة الرؤية الكونية التوحيدية وأثرها في صياغة علم العمران البشري، الذي يعد إحياءه مطلباً علمياً وديناً وحضارياً، ذلك أن الأمة الإسلامية ستظل عاجزة عن النهوض ما لم تتمكن من تشخيص الداء، وصناعة الدواء المناسب، وقد حاول المؤلف إبراز العلاقة بين الفكر الخلدوني ومصادر الوحي من خلال الإجابة عن أسئلة مهمة حول وظيفة النظرة الكونية وأثرها المعرفي، وطرق الاستدلال التي سلكها في تفسير الظواهر العمرانية، ولكي يحقق هذه الأهداف التزم المؤلف تحليل النصوص من وجهة نظر أصولية، مستعيناً ببعض المدارس التي لها علاقة بعلم العمران،

¹⁴ - تناول ابن خلدون رحمه الله كثيراً من القواعد في "المقدمة" التي اجتهد فيها وجعلها عناوين لبعض الفصول، كقوله في الفصل: 18، من الباب الثاني: (أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم)؛ وكذلك في الفصل 24 من نفس الباب قوله: (أنّ الأمة إذا غلبت وصارت في مُلك غيرها أسرع إليها الفناء)؛ وكذلك قوله في الباب الثالث: (في أنّ الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية...)؛ ويقول في الفصل: 43 من نفس الباب: (أنّ الظلم مؤذن بخراب العمران)؛ وغيرها من القواعد العمرانية التي بنى عليها نظريته العمرانية!!

¹⁵ - ن: "المقدمة" لابن خلدون؛ دار الفكر بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ / 1988م؛ (33/1)

وحرص على التأكيد على البعد الديني في الفكر الخلدوني، وعرض بعض الجوانب الفكرية لحل المشكلات المعاصرة التي تواجه العالم الإسلامي.

■ **"الإنسان والعمران من خلال قصص القرآن"** دراسة في فقه القصص القرآني؛ للدكتور عبد الله طاهيري، وهو باحث مغربي، فقد تناول العمران من زاوية قصصية غلب عليه المنهج الوصفي الاستقرائي، وطغى فيه التنظير على التأصيل، حيث لم يتناول قط الجانب التقعيدي في كتابه.

■ **"سنن العمران البشري في السيرة النبوية"**؛ للباحث المغربي الدكتور عزيز البطيوي؛ وقد طبع في المعهد العالمي للفكر الإسلامي طبعته الأولى سنة 2018م، وقد طغت عليه النظرة الفلسفية التاريخية أكثر من تأصيل واستخراج السنن والقواعد بالمعنى التأصيلي التطبيقي، ولذلك كان التنظير فيه مهيمنا على التأصيل أيضا.

■ **"مقاصد الشريعة وتفعيلها في فقه العمارة"**، للباحث الدكتور حسني خيري طه؛ نشر الدار المغربية، الطبعة الأولى سنة 2017م، وهذا الكتاب تناول "نوازل ضرر البنين" بالدراسة والتحليل من خلال نوازل كتاب المعيار المعرب للإمام الونشريسي، وقد ركز فيه المؤلف على الجانب المقاصدي للفتاوى التي تعلقت بتلك النوازل، ومن ذلك يتبين أنه لم يتناول إلا جانبا واحدا من جوانب العمران المتعددة، وهو جانب البناء، ولم يتطرق للقواعد التي تؤصل للعمران على نحو ما نهجته في هذه الأطروحة، وإنما ناقش تلك الفتاوى من زاوية فقهية وأخرى مقاصدية، والكتاب ركّز كما ذكرت على الجانب المقاصدي.

■ **"العمران والبنين في منظور الإسلام"** للمهندس المعماري يحيى وزيري، وهو مصري، طبعته وزارة الأوقاف الكويتية الطبعة الأولى 2008م، وهو كتاب تناول جانب البنين فقط حسب النظرة الإسلامية، ولم يتناول الجوانب الأخرى من العمران البشري، ولم يعرّج على أي قاعدة عمرانية، وإنما اكتفى بتناول مميزات البناء في الإسلام، وركّز على أهمية توجيه البناء إزاء القبلة، ودور ذلك في تحقيق الراحة القلبية للإنسان، كما ركّز على مقاصد الإسلام في البنين من خلال قصص القرآن، كما بيّن خطورة الجنوح عن تلك

المقاصد.

■ **"التخطيط والبنيان في الفقه الإسلامي"** للباحث المغربي الدكتور زكريا المرابط، قدّم له د. الشاهد البوشيخي، نشر دار السلام، الطبعة الأولى سنة 2018م، وهو يشبه إلى حد كبير الكتاب السابق حيث تناول العمارة الإسلامية فقط دون الجوانب الأخرى للعمران، إلا أنه فصل أكثر حينما تناول الحديث عن الأسس والقواعد والضوابط التي حكمت ويجب أن تحكم تخطيط المدن وبنيتها، ودورها في صياغة المجتمع صياغة إسلامية؛ لتكون العمارة تعبيراً صادقاً عن الإسلام، وإنتاجاً مشبعاً بأخلاقه وآدابه، كما تناول بالدراسة والتحليل قاعدتين فقهيّتين تحكمان البنيان في الإسلام، وهما قاعدتا: "لا ضرر ولا ضرار"، و"العادة محكمة".

■ **"عمارة الأرض في الإسلام"** وهو كتاب الذي ألفه جميل عبد القادر أكبر (Jamel A. Akbar) عام 1992م، وطبع بدعم من سمو الأمير سلطان بن سلمان عبد العزيز وعلى نفقة شركة بن لادن الإسلامية؛ وقد شرح فيه المؤلف أسباب جمال وفعالية العمارة الإسلامية، التي استمدت من مبادئ الشريعة الإسلامية، وقد حاول وضع مقارنة بينها وبين العمارة الحديثة التي تأثر بها المسلمون.

■ **"على حاشية فقه العمران"** للباحث عمر سليم، وهو في نفس الموضوع، أي البنيان، وبنفس تناول تقريباً.

وهذا الجانب - أقصد البنيان - كثر فيه التأليف قديماً وحديثاً، وحتى الذين يتحدثون عن المؤلفات التي تناولت موضوع العمران إنما تجدها في موضوع البنيان فقط وما يتعلق به من ارتفاق؛ ولا شك أنّ هذا لا يمثل إلا جانباً صغيراً من موضوع العمران بالمفهوم الذي أوضحته في هذه الأطروحة؛ حيث جعلت العمران ينقسم إلى شقين كبيرين، أحدهما روحي سميته **بالعمران الروحي**، والآخر مادي أطلقت عليه **العمران المادي**؛ والبنيان هو جزء من هذا الأخير - أي العمران المادي - وجعلت **العمران الروحي** الذي يتعلق بوجود الإنسان وقلبه وروحه أصلاً **للعمران المادي** بكل أشكاله وألوانه وضروبه!!

4. منهجية البحث:

من استقرأ البحث وطاف بين جنباته ودروبه ألقاه بحثاً جمع بين الشقين النظري والتطبيقي التعديدي، كما جمع بين التأصيل والتحليل والتنزيل، وهو ما فرض على التنوع في المنهجية المتبعة في دراسة ومعالجة اشكالاته وقضاياها، ويمكن حصرها فيما يلي:

• منهج الدراسة المصطلحية:

حيث: تعتبر دراسة المصطلح البنية الأساس التي تصلح أن تكون أداة للفهم الأولي والتي عليها ينبنى فهم باقي التركيب للنص التراثي؛ وقد سلك هذا المنهج في دراسة كثير من المصطلحات التي اشتمل عليها البحث سواء في الباب الأول أو الباب الثاني؛ وإن كان ذلك بشكل أكبر في الفصل الأول من الباب الأول من الأطروحة؛ وقد أوضحت ما لهذه الدراسة من الأثر الكبير في مثل هذه البحوث الأكاديمية..

• المنهج الوصفي والاستقرائي:

من المعلوم أنّ المنهج الوصفي هو: منهج يُقدّم المادة العلمية كما هي في الواقع، فهو يعرض موضوع البحث عرضاً إخبارياً بلا تعليل أو تفسير؛ وقد وظّفت هذا المنهج في إحصاء أهم القواعد العمرانية المنصوص عليها -ولو بالمعنى دون لفظها- في القرآن الكريم، أو الأحاديث النبوية، وكذا في التراث الفقهي والأصولي، وكان ذلك قصد جمع تلك القواعد ودراستها من أجل بيان أثرها العمراني ودورها في إيقاظ الأمة من سباتها، الذي طال أمده، لعلها تعود مرة أخرى لتحقيق شهودها الحضاري...

• المنهج التحليلي:

وهو: منهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية المختلفة، تفكيكا، أو تركيباً أو تقويماً، أي تفسيراً ونقداً واستنباطاً، وقد استعملته عند النظر في عناصر الإشكالات المتعلقة بالعمران البشري، وعند دراسة بعض القواعد العمرانية لبيان وجهتها وأثرها في تقويم وتصحيح وترشيد بعض الاجتهادات أو التفسيرات التي عاجلت العمران البشري!! كما بيّنت بذلك دور هذه القواعد في الجانب الاستشاري لعمران الأمة!!

5. صعوبات البحث:

دأب الباحثون على أن يذكروا أهم الصعوبات والعوائق التي تحول دون تحقيق أهدافهم التي ينشدونها من خلال دراستهم في بحوثهم، إذ لا يخلو أي بحث في أي ميدان من مجموعة من العقبات والمشوشات، وسيرا على نهجهم سأذكر أهم تلك الصعوبات التي عاقت سيرتي أثناء البحث أو على الأقل أشعرتني بصعوبة الموضوع، لعل ذلك يرفع عني بعض الحرج فيما صدر مني من هفوات أو أخطاء في ثنايا بحثي؛ وسأكتفي بذكر أهم تلك الصعوبات.

• أول صعوبة واجهتني في بداية العمل واستمرت معي إلى نهايته هي قلة المصادر والمراجع حول هذا الموضوع، فلم أجد موضوعا تناول القواعد العمرانية بالدراسة والتحليل، وبيّن آثارها في البناء الحضاري، وتناولها بالشكل الذي تناولتها به، بل جل الذين ألفوا في موضوع العمران، إنما تناولوا جانب البنيان فقط، وقد ذكرت فيما سبق أن هذا يمثل جانبا صغيرا جدا من مفهوم العمران، ولذلك قسّمت العمران إلى قسمين كبيرين - باعتبار تعلّقهما بالإنسان¹⁶ - **عمران روحي** معتبرا إياه هو الأصل والأهم والمقدّمة، و**عمران مادي** وهو الفرع والنتيجة، ولذلك فهو يتأثر سلبا وإيجابا بالعمران الروحي، وهذا ما أكدت عليه مرارا وتكرارا في ثنايا بحثي؛ ولذلك قلت إنّ أغلب الذين ألفوا في هذا الموضوع إنما اهتموا بجانب البنيان الذي يمثل جانبا صغيرا من العمران المادي؛ عدا بعض المقالات هنا وهناك ذكرت بعض الإشارات الخفيفة إلى هذا الربط الوثيق بين العمران الروحي والمادي، ومن ذلك بعض الفقرات التي وردت في كتب الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله، خاصة في كتابه "**الفطرية**"; ومن هنا كانت المصادر والمراجع في هذا الموضوع شحيحة جدا، وهو ما أرهقني كثيرا، حيث اضطررت إلى الرجوع إلى المصادر الموسوعية

¹⁶ - هذا التقسيم الثنائي كان اجتهدا مني، وهو باعتبار الإنسان لأنه هو المقصود أولا وآخر من هذه الدراسة، لأنه يمكن تقسيم العمران إلى أقسام أخرى ولكن باعتبارات أخرى، فقد تختلف العبارات لاختلاف الاعتبار، كما يقال، ويمكن أن أتناول هذا في بحوث أخرى إن سمحت لي الفرصة بإذن الله تعالى.

من كتب التفسير وفقه الحديث والأصول والفقه وكتب السياسة الشرعية وكتب التصوف، وغير ذلك؛ وهو ما احتاج إلى وقت كثير في ملزمة أطراف الموضوع وتنسيق أجزائه وربط خيوطه!!

- ومن الصعوبات أيضا سعة الموضوع وتشعبه وكثرة مسائله وجزئياته، ففي بعض الأحيان كنت أتيه بين جوانح الأفكار فأجد صعوبة شديدة في ملزمة المعاني، وبلورة الأفكار التي كانت تختلج فكري ووجداني، وفي أحيان كثيرة كنت أكتب فقرات، ثم ما لبثت حتى أرى أن حذفها أرجح من تركها، وفي بعض الأحيان قد يصل الأمر إلى صفحات، وهو ما كان يؤزقني ويسحب بساط الوقت من بين يدي!!

- وثالثها التهييب من الموضوع، فموضوع العمران ليس موضوعا سهلا، فهو يرتبط بمقصد من مقاصد الخلق الكبرى، بل ربما أرى أنّ المقاصد كلّها تنضوي تحته، حتى العبادة ذاتها، وقد أشرت إلى هذا عندما تناولت مصطلح العمران وما يرتبط به من مصطلحات العبادة والاستخلاف وغيرها؛ أضف إلى ذلك ما ذكرته قبل من سعة الموضوع وتشعبه، وهو ما يجعل الموضوع مهيب الجنب؛ ولولا فضل الله أولا وقبل كل شيء، ثم ما كان لأستاذي المشرف الدكتور سيدي سعيد شبار من دور كبير في تذليل الصعاب وترتيب الأفكار بإرشاداته المباركة وتوجيهاته النيرة، فجزاه الله عني أحسن جزاء وأجزل ثواب!!

- صياغة تلك القواعد العمرانية فقد وجدت صعوبة شديدة في استخراج صياغتها، إذ من المعلوم أن صياغة القواعد لها شروطها وضوابطها، وهو ما يترتب عليه مشقة وكلفة! ثم إنّ ترتيب هذه القواعد عبر مجالات الحياة المختلفة، ودراستها عبر تلك المطالب المتنوعة وخاصة في بيان أهميتها ومجالاتها العمرانية وبيان آثارها الاستشرافية، يزيد من تلك الصعوبات؛ فكم عشت فترات بين المد والجزر، وبين الإقدام والإحجام، ولولا فضل الله تعالى وكرمه لانقطعت بي السبل وضاعت مني بوصلة البحث والدراسة!!

6. المجاور الأساسية للبحث:

يشمل هذا البحث إجمالاً على مقدمة، وباين اثنين، وخاتمة.

فأمّا المقدّمة فاشتملت على: التعريف بالموضوع، وذلك ببيان إشكالياته وأهميته وآفاقه؛ ودوافع وأسباب اختيار الموضوع؛ ثم ذكر بعض الدراسات السابقة في الموضوع؛ ثم الحديث عن منهجية البحث؛ ثم بيان بعض الصعوبات التي اعترضتني فيه؛ وأخيراً بيان خطة البحث.

وأمّا الباب الأول فقد تناولت في ثلاثة فصول جاءت على الشكل الآتي:

✓ الفصل الأول: تناولت في أهم المفاهيم والمصطلحات التي تضمّنها البحث، جاءت في ثلاثة مباحث

✓ الفصل الثاني: اشتمل على ثلاثة مباحث أيضاً، الأول تضمن الحديث عن أنواع العمران؛ والثاني عن شروطه؛ والثالث عن أركانه.

✓ الفصل الثالث: تناولت فيه الحديث عن الكون والإنسان وعلاقتهما العمرانية، وعن وسائل الإعمار في مبحثين اثنين.

أما الباب الثاني فقد اشتمل على دراسة بعض القواعد العمرانية في أربعة فصول جاءت على الشكل الآتي:

✓ الفصل الأول: تضمّن الحديث عن بعض القواعد العمرانية في مجال العقيدة وأصول الدين؛ حيث ضمّنته ثلاث قواعد عمرانية خصصت لكل واحدة منها مبحث مستقل يشتمل على أربعة مطالب.

✓ الفصل الثاني: تحدّث فيه عن القواعد العمرانية المرتبطة بالعبادات؛ حيث جعلت تحته قاعدتين اثنتين، استقلت كل واحدة بمبحث خاص، تحت كل واحد أربعة مطالب.

✓ الفصل الثالث: اشتمل على ثلاثة قواعد عمرانية متعلّقة بمجال التصوف والسلوك؛ حيث جعلت - كالعادة - كل قاعدة في مبحث مستقل، تمّت دراستها عبر مطالب أربعة أيضاً.

✓ الفصل الرابع: تَضَمَّن الحديث عن القواعد العمرانية المرتبطة بالسياسة الشرعية، وكان عدد القواعد كذلك ثلاثة، استقلت كل قاعدة بمبحث تحته أربعة مطالب كالعادة. وأما **الخاتمة**: فتتضمَّن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذه الرحلة الفكرية، كما تشتمل أهم التوصيات التي رأيتها مفيدة للباحثين مثلي.

وفي ختام هذه المقدمة أقول إن البحث في العمران البشري بالمفهوم الذي تناولته في هذه الدراسة صعب للغاية، خاصة جانب التعقيد والتأصيل فيه، فقد أُلْفِيَتْهُ ذَا كَلْفَةٍ ومشقة كبيرتين؛ وبالتالي فالبحث في هذا الموضوع ما يزال في أمس الحاجة إلى البحث الحثيث المتواصل والمنظم عبر فريق عمل بمؤسسات البحث الأكاديمي، إذ العمل الفردي لمثل هذا العمل الجبار - الذي تنوء به العصابة من الباحثين - لا يفي بالغرض المقصود بتمامه وكماله! وإنما كانت هذه المبادرة الشخصية المتواضعة بمثابة بداية الانطلاق في هذا السبيل، لتحقيق هذا الهدف والمقصد النبيل!!

هذا والله أسأل أن يسدّدي ويلهمني الصواب والرشاد، ويجنّبني الزيف والفساد؛ وأن يجزي عني كل مَنْ ساعدني أو نصحني أو قدّم لي معروفاً، وأخص بالذكر أستاذي الدكتور سعيد شبار الذي ما فتئ - حفظه الله تعالى - يرشدني ويصوبني ويشجعني ويقوّمني حتى بزغ هذا العمل في صورته الياضعة البهية!! فبارك الله في علمه وعمره.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على محمد أشرف المخلوقات.

الباب الأول

العمران: مفهومه، أنواعه،
شروطه، أركانه، وسائله.

وعلاقته بالإنسان !!

إن فقه وفهم طبيعة العمران وتقعيده وتأصيله - الذي هو موضوع بحثنا - قد نَضَبَ معيْنُه دهرًا من الزمن بعد ما أسَّسه العلامة ابن خلدون¹⁷ في مقدمته الشهيرة تحت عنوان (العمران البشري)، مبينا أنه: "ذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا"¹⁸ ثم بيَّن الغاية من هذا العلم قائلا: "وهو علم يُحوِّل غاية المؤرخ من سرد الأخبار وتصييد الغرائب إلى السعي إلى فهم الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال (...). وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"¹⁹ وهذا المنهج الذي سلكه ابن خلدون - رحمه الله - من النظر في تحليل واقع المجتمعات ودراسة أسباب التغير في أحوال الفرد والمجتمع، أَرَعُمُ أنه من أعظم الطرق الإصلاحية لأي مجتمع يريد تغيير ظروفه وعلاج أزماته، ولعلَّ الظروف التي عاشها ابن خلدون وما شهده من نكبات عدّة في الأندلس والمغرب العربي، قد دفّته إلى البحث في طبائع العمران وتأثيرها على بني الإنسان!!

والغرض من البحث في هذا الميدان هو بيان العلاقة الوثيقة والمطرّدة بين طبائع الإنسان كفاعل عمراني وما يُنتجه من مظاهر عمرانية تتعدّد أشكالها وتختلف أنواعها؛ ثم فهم الاجتماع البشري وذلك بربطه بقواعده وأصوله التي تجمع كل مسائله وجزئياته

¹⁷ - هو العلامة عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون الإشبيلي (1332 - 1406م)، ولد في تونس وشب فيها وتخرّج من جامعة الزيتونة، وليّ الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان بقوق قضاء المالكية. ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من أهم المصادر للفكر العالمي من أشهرها كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

¹⁸ - ن: "المقدمة" لابن خلدون؛ مصدر سابق (33/1)

¹⁹ - المرجع السابق (32/1)

المختلفة، ليتّم تحويل هذا كَلِّه إلى آليات عمل يتّم بها عمران الكون والإنسان معاً²⁰!!

إن الإنسان يمثل المحور الأساس وقطب الرّحى في عملية العمران، فعمارة الأرض وعمرانها يتأثر سلباً وإيجاباً بطبيعة هذا الإنسان الفكرية والثقافية والوجدانية، وما يعتقده من أفكار وتصورات، وما يتميز به من مبادئ وأخلاق وتصديقات..

إن القرآن الكريم لم يأمر بمجاهدة الكافرين والمنافقين إلا بعد أن بيّن من سلوكهم ومعتقداتهم ما كان سبباً لتدمير حياة الإنسان على الأرض، وتحويل مهمة إعمار الأرض وعمرانها إلى فساد وإفساد، وتصييرها خراباً يباباً، وهو ما بدا واضحاً في ضوء نصوص الوحي من سلوك المتمردين من المنافقين والكافرين، فتدمير الإنسان فكراً وسلوكاً وقيماً وعقائد هو تدمير للكون في حقيقة الأمر، وإعمار الإنسان بالإيمان أمان وحصن حصين لعملية الإعمار والعمران، وعليه فالإنتاج المادّي وحده لا يمثل عمراناً حقيقياً للأرض لما قد يؤول إليه من خراب ودمار، كما بيّن القرآن الكريم ذلك في غير ما آية وفي أكثر من سياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَأَيُّ مِّنْ فَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّبَهِيمٍ خَاوِيَةٍ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾²¹؛ فالعروش والآبار والقصور كلها منجزات مادية هلكت بفساد المنهج الذي سلكته تلك الأقوام في عمارة الأرض، وهكذا يكون مآل كل عمران مخالف لمنهج الاعتدال؛ ومصادم لقوانين الله ونواميسه التي يخضع لها هذا الوجود!!

إن العمران الصحيح والناجح الذي يُسعد الإنسان ويتناغم مع قوانين هذه الأكوان

²⁰ - إن العمران لا يقتصر على الأرض فحسب، ولا على الجانب المادي فقط، بل يشمل الأرض والإنسان معاً، كما يُعَمّ الجانب الروحي والمادي، بل عمران الإنسان هو المنطلق الأساس لعمران الأرض، وخراب الإنسان هو خراب للأرض أيضاً، وإنما عمران الإنسان يبدأ بعمران روحه، وهذا هو العمران بمفهومه الشامل الأعم، وهو ما سألينه بإذن الله تعالى عند الحديث عن مفهوم العمران في المبحث الثاني من هذا الفصل في هذا الباب الأول..

²¹ - الحج: 43

ونواميسه، هو ذلك العمران ذو المنهج القويم، الذي يُنشئه ذلك الإنسان السالك صراط الله المستقيم، والمستنير بأسرار ومقاصد كتاب الله الكريم، والمتأسي بأخلاق القائد العظيم، محمد رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهذا ما توخيته وقصدته من خلال هذه الرسالة، ولذلك جعلت هذا الباب تنظيراً لما أشرت إليه في هذا التمهيد المقتضب، بادئاً بمفاهيم ومصطلحات هذا الموضوع، ومُردفاً الكلام عن أنواعه وضروبه، مبيناً شروطه التي يتوقف عليها، وأركانه التي يقوم بها، ثم طبيعة العلاقة الرابطة بين الإنسان والكون، وفي الأخير أختتم الباب بإيراد وسائل وآليات العمران.. ذلك ما كان، والله المستعان!! ثم إليك البيان.

الفصل الأول:

مفاهيم ومصطلحات مركزية

لا مِرية ولا ريب في كون المصطلح ذا جسامة كبيرة من حيث حملته المعرفية ودلالته المفاهيمية، وما ينجم عن ذلك من سلوك حضاري وأثر عمراني، سواء تعلّق الأمر بالجانب الفكري الوجداني الانفعالي، أو الجانب العملي الامتثالي، وخاصة المصطلح الشرعي لما له من خصائص ومميزات بما ارتبط بالخطاب الشرعي للعلوم الشرعية الواصفة للدين، والموجهة لتدوين المخاطبين، فهما وتنزيلا، تعبدا وسلوكا وتوجّها لله الواحد القهار!!

إن الأمة - أيّ أمة - لا يمكن أن تحقّق شهودها الحضاريّ وتطورها العمرانيّ إلا بالعلم المحقّز للعمل والمصحّح له أيضا، إذ لا عمل صحيح بغير علم، ولا علم إلا وهو دافع للعمل، وكل علم ليس تحته عمل فلا قيمة له ولا وزن، كما قرّر شيخ المقاصد الشاطبي²² لله درّه من خلال كتابه الموافقات²³ وإن العلم أيّ علم لا طريق لتحصيله على حقيقته إلا عن طريق: "معرفة اصطلاحات أهله"²⁴، فالمصطلح هو الخطوة الأولى لولوج بحار العلم والغرفّة الفاتحة للشرب من معينه الزلال، فإذا نظرنا في طبيعة أيّ علم واستقرّنا مراحلها التي يمرّ عبرها في نشأته الطبيعية نجد أنه يمرّ عبر ثلاث محطات رئيسة، أو إن شئت فقل مراحل متتالية مركزية، تبدأ بالمصطلح ثم تمر عبر القاعدة وتنتهي بالمنهج²⁵، فأما المصطلح فأول ما يتبلور منه المفهوم. فهو أول ما يولد من العلم - الذي يمثّل باكورته الأولى، ثم بعد ذلك يأخذ المفهوم أشكالا لفظية إلى أن يستقرّ في مصطلح واحد؛ وللخروج من هذا العموم ومزيد من الإيضاح نمثّل بالقياس، فلو نظرنا إليه كمصطلح

²² الشاطبي (ت 790 هـ / 1388 م)، هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية؛ من أشهر كتبه (الموافقات في أصول الفقه) و(الاعتصام)، و(شرح الألفية) سماه (المقاصد الشافعية في شرح خلاصة الكافية).. نقلا عن الأعلام للزركلي بتصرف

²³ ن: "الموافقات"؛ المقدمة السابعة والثامنة؛ للشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م؛ (1/ 60 - 77).

²⁴ نفس المرجع (1/ 97)

²⁵ ن: مثلا: "المصطلح الأصولي عند الشاطبي" د فريد الأنصاري، دار السلام، الطبعة الأولى 1431هـ / 2010م؛ ص: 59 وما بعدها

أصولي عمراني بدأ في أول الأمر مع النبي ﷺ واستعمله الصحابة رضي الله عنهم من بعده بألفاظ متعددة من مثل: ما روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (ماذا تصنع إن عرض عليك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ على صدر معاذ، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله).²⁶ فهذا يدل على إقرار الرسول العمل بالرأي؛ والقياس من الرأي؛ وروي أن عمر- رضي الله عنه - قال: (صنعت اليوم يا رسول الله أمراً عظيماً، قبّلت وأنا صائم، فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم: أرايت لو تضمضت بماء، وأنت صائم؟ فقال: لا بأس بذلك، فقال رسول الله: ففيم)²⁷؟ أي في أي أمر هذا الأسف؛ فالرسول ﷺ قاس الثبلة التي هي مقدمة الوقاع على المضمضة التي هي مقدمة الشرب في أن كلاً منهما وسيلة إلى المقصود فلا يفسدان الصوم؛ وهكذا استعمل الصحابة هذا المفهوم في اجتهاداتهم بعدة مصطلحات لها نفس الدلالة تقريباً، فها هم أولاء قاسوا خلافة أبي بكر رضي الله عنه على تقديم الرسول ﷺ له في إمامة الصلاة، وبينوا أساس القياس بقولهم: "رضيه رسول الله ﷺ لدينا أفلا نرضاه لدينانا؟" وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري حينما ولاه على البصرة، يقول فيه: اعرف الأشباه والنظائر وقس الأمور برأيك، إلى آخر ما ذكر في اجتهادات الصحابة والتابعين من بعدهم، فكان ذلك بمثابة ارهاصات لمصطلح القياس في دلالته

²⁶ أخرجه: والترمذي رقم: (1327)، وأبو داود رقم: (3592)؛ وأحمد في المسند (22007)، وابن عبد البر في جامع بيان العالم وفضله (2/ 1592)، وقال ابن الجوزي في العلل (2/ 758) "لا يصح وإن كان الفقهاء كلهم يذكرونه في كتبهم ويعتمدون عليه، وإن كان معناه صحيحاً؛ بيد أن ثمة علماء من أهل التحقيق ذهبوا إلى تصحيحه، منهم ابن العربي في عارضة الأحوذى، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه، والجويني في البرهان، وشيخ الإسلام ابن تيمية في المجموع (364/13)، وغيرهم، فإنهم مالوا إلى القول بصحّته ...

²⁷ أخرجه أحمد في المسند (1/ 52 21) وأبو داود في السنن (2/ 311)، رقم: 2385؛ والنسائي في السنن الكبرى (2/ 198)، وابن عبد البر في التمهيد (5/ 113).

الجديدة مع الأئمة المجتهدين، وهذا ليس خاصا بهذا المصطلح، ولا بعلم أصول الفقه فحسب، بل قس على ذلك مصطلحات علم الحديث وغيرها من مصطلحات العلوم؛ وهكذا تتشكل مصطلحات العلم - أي علم - لتمثل بذلك أوصافا لمفاهيم بسيطة، فهي لا تعدو أن تكون إدراكات تصويرية - على حد قول المنطقة - فتكون بذلك أول مرحلة من مراحل العلم قبل مرحلتَي التعيد والمنهج، وهما - طبعاً - من الإدراك التصديقي، لذلك كان من الطبيعي جدا البدء بمرحلة المصطلح، لأن التصور مقدّم على التصديق جبلة وطبعاً، كما أشار إلى ذلك الأخضري صاحب السلم²⁸ في منظومته المنطقية بقوله²⁹ :

إدراك مفرد تصورا علم ودرك نسبة بتصديق وُسم

وقدّم الأول عند الوضع لأنه مقدّم بالطبع

ويقول سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي³⁰ صاحب مراقي السعود في منظومته³¹

الإدراك من غير قضا تصوّر ومعه تصديق وذا مشتهر.

²⁸ - هو عبد الرحمن الأخضري الجزائري المالكي: (920-953هـ / 1512-1545) العالم العلامة والشاعر النّاطم الجيّدُ فارسُ المعقول والمنقول، له تآليف كثيرة منها: السلم في المنطق وغير ذلك.. نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة، بتصرف.

²⁹ - ن: "شرح نظم السلم المنورق" في المنطق للأخضري؛ تأليف الشيخ حسن درويش القويسني، راجعه أبوظلحة مراد المهرومي، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، ط: 1431هـ/2010م؛ ص: 16

³⁰ - ولد رحمه الله بعد منتصف القرن الثاني عشر الهجري، من علماء شنقيط بموريتانيا، له مؤلفات كثيرة منها: مراقي السعود ألفية في أصول الفقه. نشر البنود وهو شرح على مراقي السعود يقع في جزئين طبع مرتين بالمغرب، وغير ذلك من المصنفات..

³¹ - ن: "نثر الورود على مراقي السعود"، شرح الشيخ محمد الأمين صاحب "أضواء البيان" تحقيق وإكمال تلميذه الدكتور ولد سيدي ولد الحبيب الشنقيطي، نشر دار ابن حزم بيروت، ط: 3؛ 1423هـ/2002م؛

ويقول ابن عاصم الغرناطي³² في منظومته الأصولية:

أول ما ندركه تصوّر وعنه تصديق له تأخّر³³

فتعريف المصطلح هو بمثابة المدخل الذي يلجّه الباحث للوصول إلى المادة أو الموضوع الذي سيتناوله بالدرس والتحليل، وهذه خصيصة تشترك فيها جميع الحقول العلمية، فأني علم كائن ما كان لا بد فيه من ضبط لمصطلحاته وتدقيق النظر فيها، حتى يحوم الباحث في فلكها فينجو بنفسه من التّيه والتخبّط والوقوع في الاضطراب حتى تختلط عليه الفهوم، وربما يخلط حتى بين العلوم.

ثم إن تصور أي علم يتوقف على معرفة حدّه أو رسمه أو لفظ مرادف له، فهذه هي المعرّفات الثلاث التي يحصل بها تصور أي علم، كما قال الأخضري:

معرف على ثلاثة قسم حدّ ورسمي ولفظ علم³⁴.

وهكذا يكثر تداول المصطلحات بما هي أوصاف لمفاهيم بسيطة إلى أن تصل إلى مرتبة التعقيد فتدعو الحاجة إلى سبكها في نسق مركّب، وهو الموسوم بـ"القاعدة"، وهي المرحلة الثانية من مراحل العلم؛ وتتجلى وظيفة القاعدة في حل الإشكالات المركبة التي نتجت عن تراكم المصطلحات كحال التعارض بين مصطلح الإباحة والحظر مثلاً، الوارد في حالة أكل الميتة للمضطر فهو مخاطب بمصطلح النهي عن أكل الميتة، و مخاطب أيضاً

32 - ابن عاصم الغرناطي (760 - 829 هـ / 1359 - 1426 م)؛ هو: محمد أبو بكر ابن عاصم الغرناطي: قاض، من فقهاء المالكية بالأندلس. مولده ووفاته بغرناطة.

له كتب منها: هذه أرجوزة (مرتقى الأصول إلى علم الأصول) في أصول الفقه، و(تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام) في الفقه المالكي، وغيرها من الأراجيز (في الأصول) و(النحو) و(القرآت)... نقلاً عن: الأعلام للزركلي

33 - ن: "نيل السؤل على مرتقى الأصول إلى علم الأصول" للعلامة محمد يحيى الولاقي الموريتاني (ت 1330 هـ)، تحقيق أبي محمد بن محمد بن محمد الحسن، نشر مكتبة الولاقي لإحياء التراث الإسلامي نواكشط موريتانيا، ط: 3، 1427 هـ/ 2006 م؛ ص: 22

34 - ن: "شرح نظم السّلم المنورق"؛ مرجع سابق؛ ص: 28،

بمصطلح الأمر بالحفاظ على نفسه من الهلاك، وحينئذ لا يمكن الجمع بين المصطلحين المتعارضين من حيث الامتثال، وبه يقع المكلف في إشكال تكليفي لا يُطيقه، فكان من الضروري إزالته، إذ من المعلوم أن التكليف بما لا يطاق في الشريعة محال، فنتجت قاعدة: "الضرورة تبيح المحظورات"، وهكذا الشأن في باقي القواعد العلمية في سائر العلوم وخاصة الشرعية منها؛ ثم مع تراكم العلم يتراكم استعمال قواعده فيحصل نوع من التركيب على التركيب السابق للمصطلحات، فتبرز إشكالات أكثر تعقيدا من الإشكالات الأولى التي كانت القواعد لحلها، مما يجعل القاعدة لا تستطيع معالجة هذا الإشكال لأنه يفوق حمولتها وقوتها، ومن ثم تدعو الحاجة إلى تضافر القواعد ذات النسق الواحد فيتكون منها نسقا منتظما ومركبا، وهو المسمى: بـ "المنهج"، أو ما يسمى بـ "النظرية العلمية"، ومن ثمّ فالحديث عن منهج علمي معيّن هو حديث عن نسق من قواعد مركبة تركيبيا منظما، لحلّ إشكال بالغ في التعقيد والتركيب أيضا، وتلك وظيفة المنهج، وبالتالي تلك المرحلة الأخيرة من مراحل العلم وهي مرحلة النضج والتمام... ومن هنا كانت دراسة المصطلح من الأهمية العلمية بمكان، ولنستمع إلى الدكتور الشاهد البوشيخي في هذا الصدد قائلا: "إن الدراسة المصطلحية من أوجب الواجبات و أسبقها وأكدها على كل باحث في أي فن من فنون التراث، لا يقدر - ولا ينبغي له أن يقدر - عليها تاريخ ولا مقارنة، ولا حكم عام ولا موازنة؛ لأنها الخطوة الأولى للفهم السليم، الذي يبنى عليه التقويم السليم والتاريخ السليم"³⁵، ومن هنا كان السبق إلى دراسة قواعد أي علم دون دراسة مصطلحاته المفتاحية ضربا من العشوائية، ذلك أن البنية الأساسية للقاعدة هي المصطلح كما بيّنت قبل، ثم إن القاعدة هي من قبيل التصديق والمصطلح من قبيل التصور، والتصديق متوقف على التصور إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وإن شئت فخذ القواعد وجردّها من مصطلحاتها، فما يبقى منها شيء من العلم إلا أطلاله !!

³⁵ - ن: "مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ"، للدكتور الشاهد البوشيخي، ط: 2، دار

القلم بالكويت (1415هـ / 1995م) ص: 13

ومن جهة ثانية فإننا نعيش عصرا مليئا بالصراعات الحضارية الضارية والخطيرة أيضا، تعددت أشكالها وتنوعت حلقاتها، كان من أهمها - إن لم تكن أهمها على الإطلاق - ما يمكن أن نسميه حرب المفاهيم والمصطلحات التي أخذت أشكالا متنوعة وصنوبا مختلفة، كان أساسها الرئيس اضطراب المفاهيم وفضفضة المصطلحات..

ثم إن ما تعانيه أمتنا الإسلامية من خلافات خطيرة بين نخبها ومفكرها، بله ما يكون بين العوام من أفرادها، أظلت بسحبها القائمة الساحة الفكرية والحضارية مما أثر سلبا في مسارها الحضاري وتقدمها العمراني، وزادها نكوصا وعلة حتى أزدأها ضعفا وخورا؛ وللخروج من هذا النفق الحضاري المسدود كان لزاما علينا جميعا - كل منا حسب إمكانياته وطاقته - أن نطرق هذا الباب، فأول خطوة على درب تحقيق التنمية وانتشال المجتمع من هذا الواقع المؤلم المرير، والمستنقع الآسن، هو ضبط الأمور ووضعها في نصابها، وأولى الأمور بذلك، المصطلحات والمفاهيم - إذ بها يحصل التواصل والتحاور - التي يجب تحديدها وتجليتها بما لا يدع مجالا للريبة واللبس، وهو ما يسمى الآن في عصرنا "دراسة المصطلحات"، وذلك أن ضبط المصطلحات هو أول خطوة في الطريق لتحديد الهدف المنشود نحو مستقبل حضاري وعمراني زاهر، نعم ألم يكن أول شيء أُلهمه آدم عليه السلام الخليفة عليه السلام، - وقد أنيطت به مسؤولية الخلافة والإعمار - وعلمه من لدن العليم الخبير هو أسماء المسميات، قال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾³⁶؛ وهو ما يجب أن نتمثله في ضبط المصطلحات وتحرير المفاهيم، والخروج من هذه الفوضى الخلاقة - إن صح التعبير - التي تعجُّ بها الساحة الفكرية، حتى آل الأمر إلى هدم الإسلام باسم الإسلام، على حدّ قولهم: "بيدك أطمك" ومعناها: أن البعض قد يستعمل بعض المصطلحات الشرعية لهدم الشرع نفسه، كمصطلح الاجتهاد المتحرر مثلا .. وهذا ما أشار إليه الدكتور أحمد الريسوني، وقبله العلامة الدكتور يوسف القرضاوي حيث بيّن -

حفظه الله - في كثير من كتبه³⁷؛ خطر هؤلاء على الإسلام والمسلمين، وسمى هؤلاء "المعطلة الجدد" الذين يحاولون أن يهدموا الدين باسم الدين، بذريعة أن الدين جوهر لا شكل، وحقيقة لا صورة، إلى غيرها من الشبهات الفكرية التي يريدون من ورائها زعزعة الثوابت الدينية، ونقض ما أجمعت عليه الأمة منذ فجر الإسلام حتى الآن ..

وهنا لا بد أن أذكر بكلمة مشرقة للعلامة المهدي المنجرة، حيث يقول: "نحن نعيش أزمة وضوح الأفكار والمبادئ، وحتى عندما تتضح هذه الأفكار نجد في بعض الأحيان أن من جاءوا بهذه الأفكار يحرفونها عند التطبيق، وبذلك نحتاج إلى النور الإلهي، الذي يوضح للإنسان دوره في المجتمع، وما هي مقاصده وما هي أهدافه في الحياة"³⁸؛ وإذا رجعنا مرة أخرى إلى القرآن - ونحن دوماً مع القرآن - حيث أشار إشارة لطيفة إلى مثل هذا الذي ذكرت، وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نَنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾، وذلك أن لفظة "راعنا" - كما قال المفسرون - استغلها اليهود لسبِّ النبي ﷺ، لأن هذه اللفظة فيها شبهة بكلمة الرعونة التي تعني عند اليهود السب والشتم، فجاء القرآن الكريم فقطع الطريق عن اليهود، وذلك بإبدال تلك اللفظة التي تحمل إساءة بمصطلح دقيق وهو: (انظرونا) ؛ لأجل هذا وغيره جعلت هذا التمهيد لأعرب فيه عن مقصدي من دراسة المصطلحات الأساس من هذا البحث، فضبط مصطلحات هذا الموضوع بمثابة المنطلق الأساس للإقلاع والإبحار في عباب هذا البحر العذب الفرات لاستخراج درره ولآله، ومن ثم كان لا بد من هذا الفصل في هذا البحث

³⁷ ن: "دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية" للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق القاهرة، ط: 4، 2012م، وقد تحدث فيه عن تناول مقاصد الشريعة لدى مدارس ثلاثة، وسم الأولى بالظاهرية الجدد، والثانية بالمعطلة الجدد، والثالث بالمدرسة الوسطية، وهي التي كانت وسطاً بين الإفراط والتفريط، وقد تحدث عن تلاعب المعطلة الجدد بالمصطلحات، حيث اعتبرها تعطل النصوص باسم المصالح والمقاصد زعموا..

³⁸ حاوره عبدلاوي لخلافة. إسلام أونلاين. نت الاثنين 9 ماي 2008 م

الموسوم بعنوان : (مفاهيم ومصطلحات مركزية)، حتى يكون الكلام مبنيا على قواعده العلمية، وليس كلاما مرسلا لا قدم له ولا زمام؛ راجيا من الله عز وجل أن يعينني على تحقيق ذلك، وما ذلك على الله بعزيز!!

وسيدور هذا الفصل حول المصطلحات المركزية النازمة للموضوع في الهيئة الآتية:

المبحث الأول: فقه القواعد: المفهوم والسياق

المبحث الثاني: العمران، المفهوم والتداول التاريخي

المبحث الثالث: مصطلحات ذات صلة بالعمران

المبحث الأول: فقه القواعد: المفهوم والسياق

وأول مصطلح ننطلق منه هو لفظ (الفقه)، من أجل استكشاف دلالاته ومفهومه باعتبار سياقه المؤجّه لعنوان الأطروحة وموضوعها؛ والمتأمل لعنوان بحثنا الذي نحن بصدده يجد لفظ (الفقه) أول مصطلح مُكوّن لعنوان الأطروحة؛ فما دلالاته المقصودة في هذا النسق الموضوعي؟!!!

وللجواب عن هذا السؤال كان لابدّ من النظر إلى هذا المصطلح من زاويتين اثنتين: لغوية واصطلاحية، نخصّص لهما مطلبين اثنين نظرا لحمولته المعرفية التي طرأ عليها التغيير حسب التداول التاريخي لهذه الكلمة!

ونظرا لاتصال مفهوم الفقه بمصطلح آخر وهو (القاعدة) ندرس هذا الأخير في مطلب ثالث نضمه إلى المطلبين السالفين ضمن هذا المبحث على الشكل الآتي:

- المطلب الأول: مفهوم الفقه
- المطلب الثاني: السياق التاريخي لمفهوم الفقه
- المطلب الثالث: مفهوم القاعدة

المطلب الأول: مفهوم الفقه

وستناول في هذا المطلب الفقه كمفهوم بدلالته اللغوية حتى تتضح حقيقته وتتجلى ماهيته؛ فما معنى الفقه لغة؟

الفقه لغة:

فأما المعنى اللغوي له فنجد كلمة الفقه تعني في أصل الوضع اللغوي العلم بشيء والفهم له وإدراكه، وهو ما أفصحت عنه المعاجم اللغوية؛ يقول ابن فارس³⁹ في معجمه⁴⁰: (فَقَّهَ) الْفَاءُ وَالْقَافُ وَالْهَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى إِدْرَاكِ الشَّيْءِ وَالْعِلْمِ بِهِ. تَقُولُ: فَقَّهْتُ الْحَدِيثَ أَفْقَهُهُ. وَكُلُّ عِلْمٍ بِشَيْءٍ فَهُوَ فِقْهٌ. يَقُولُونَ: لَا يَفْقَهُ وَلَا يَنْقَهُ. ثُمَّ اخْتُصَّ بِذَلِكَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ، فَقِيلَ لِكُلِّ عَالِمٍ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ: فَقِيهٌ. وَأَفْقَهُتُكَ الشَّيْءَ، إِذَا بَيَّنَّنْتُهُ لَكَ .

وقال ابن منظور⁴¹: "الفقه: العلم بالشياء والفهم له، وغلب على علم الدين، لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كله"⁴²؛ وقد ذهب كل من الراغب الأصفهاني والقرافي وابن القيم إلى أن الفقه أخص من العلم، فذهب الراغب الأصفهاني⁴³ في

39 - ابن فارس (329 - 395 هـ / 941 - 1004 م)؛ هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب، من أهم تصانيفه (مقاييس اللغة).. نقلا عن الأعلام للزركلي بتصرف

40. ن: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395 هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر: 1399 هـ - 1979 م؛ بتصرف؛ (4/ 442)

41 - هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، من أشهر كتبه (لسان العرب) عشرون مجلدا، جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعا. توفي: 711 هـ.. نقلا عن: الأعلام للزركلي بتصرف..

42 - ن: "لسان العرب" لابن منظور نشر: دار صادر؛ بيروت؛ الطبعة: الثالثة - 1414 هـ؛ (13/ 522) وما بعدها بتصرف

43 -.. الراغب الأصفهاني (ت: 502 هـ / 1108 م)؛ هو الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء؛ من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي؛ له مؤلفات كثيرة في فنون عديدة منها كتاب "المفردات في غريب القرآن"؛ نقلا عن: الأعلام للزركلي بتصرف

المفردات⁴⁴ في غريب القرآن إلى أن الفقه هو: "التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم" - وهذا في نظري - نوع من الاستنباط الذي يشمل الاجتهاد عند الفقهاء والقياس عند المناطق.

أما القرافي فقد نقل عن أبي إسحاق الشيرازي أن الفقه هو، إدراك للأشياء الخفية، فتقول: فَفَقِهْتُ كَلَامَكَ، ولا نقول فَفَقِهْتُ السَّمَاءَ والأَرْضَ .

وأما ابن القيم⁴⁵ فقد ذهب في إعلام الموقعين إلى أن الفقه أخص من الفهم لأن الفقه هو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهو قدر زائد على مجرد فهم ما وضع له اللفظ.. وإذا نظرنا إلى أوزانه الصرفية نجدها مثلثة عين الماضي ومثناة عين المضارع على النحو التالي: من فقه بكسر عين الفعل في الماضي، يَفْقَهُ بفتح عينه في المضارع، أي فهم فهما دقيقا؛ ومن فقه يَفْقَهُ بالضم في الماضي والمضارع معا، ومعنى ذلك رسوخ ملكة الفقه في النفس حتى تصير كالطبع والسجية، وأضاف الحافظ ابن حجر⁴⁶ لغة ثالثة وهي: فقه يَفْقَهُ بالفتح، بمعنى إذا سبق الفهم غيره⁴⁷..

إذن مما سبق يتضح أن الفقه معناه في أصل الوضع يدور حول فهم الشيء والعلم به

44 - ن: "المفردات في غريب القرآن"؛ الراغب الأصفهاني؛ المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ؛ (1 / 642)

45 - ن: "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، لشمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م، (1 / 167)

46 . ابن حجر العسقلاني (773 - 852 هـ / 1372 - 1449م، هو أحمد بن علي بن محمد الكنايني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة.. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرها لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره، قال السخاوي: (انتشرت مصنفاته في حياته وتحدثها الملوك وكتبها الأكابر، ولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل).

له مصنفات كثيرة منها: فتح الباري في شرح صحيح البخاري - التلخيص الحبير في تخریج أحاديث الرافعي الكبير - بلوغ المرام من أدلة الأحكام..

47 - " فقه " بفتحها، فقد ذكرها الحافظ ابن حجر في: " فتح الباري: لغة ثالثة، ويظهر أنها من فائت المعاجم اللسانية المنتشرة في أيدي الناس اليوم، والله أعلم (1 / 165).

مطلقاً، أو يختصّ بفهم الأشياء الغامضة والمسائل الدقيقة، أو السَّبْق إلى الفهم؛ ومن ثمّ فهو فهم خاص، فبينه وبين العلم عموم وخصوص مطلق - على حدّ تعبير المناطقة - فكلّ فقه علم ولا عكس، ولا يختصّ بالدين إلا عرفاً، وبناءً على هذا فإن مصطلح (الفقه) من الناحية اللغوية له أبعاد أكثر بكثير ممّا استقر عند الفقهاء المتأخرين الذين يَقتُرونه على العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية؛ ومن ثمّ فقد يلتبس الأمر على البعض؛ ولإيضاح هذا المعنى أكثر نُلقِي الضوء عليه من الزاوية الثانية المتعلقة بمفهومه الاصطلاحي وهو ما نخصّص له المطلب الموالي:

المطلب الثاني: السياق التاريخي لمفهوم الفقه

ولبيان مدلول هذا اللفظ في الاصطلاح واستكناه حقيقته المصطلحية كان لابد من النظر فيه من زوايا متعددة ومن أجل ذلك خصصنا له مطلباً خاصاً نظراً لطوله.

لقد عرف الفقه - كغيره من المصطلحات - تطوراً مفاهيمياً عبر سياقه التاريخي، وهو ما سنوضحه عبر مسائل متعددة نسوقها فيما يلي:

المسألة الأولى: تضيق مفهوم الفقه وأسبابه

أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع كلمة " الفقه " في الاصطلاح هو كونه علماً بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية⁴⁸، أو ما يسمى العلم بالحلال والحرام، حتى آل الأمر أنه إذا أطلق هذا اللفظ لا يفهم منه إلا ذاك وحسب، وهذا تعريف غير جامع لجميع دلالات اللفظ ومعانيه، كما سيأتي بيانه بعد قليل..

وأزعم أنّ من آثار هذا التقزيم وذاك الانزياح ما وقع من صراع دارت رحاه بين الفقهاء والمتصوّفة حتى فرّق بعضهم بين الشريعة (الفقه) والحقيقة (التصوف) فجعل الشريعة للأحكام الفقهية العملية، على أن الحقيقة إنما تتعلق بالسلوك إلى الله تعالى وبفقه القلوب، وجعلوا ذلك خاصاً بقوم آخرين لا علاقة لهم بالفقه ولا بالفقهاء سموهم متصوّفة؛ وما كان لأحد أن يفرّق بينهما إلا جهلاً أو عدواناً..

فإذا كان الفقه هو العلم بالحلال والحرام، فإن ذلك لا ينفع إلا إذا كان مبنياً على صدق التوجّه إلى الله عز وجل، ممزوجاً بالمعاني الربانية والمواجيد الرحمانية، وإلاّ

48- ن: "نشر البنود على مراقي السعود"، عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي؛ تقديم: الداوي ولد سيدي بابا - أحمد رمزي: مطبعة فضالة بالمغرب، (بدون طبعة) (بدون تاريخ) (19/1).

ومن المعلوم أن الشنقيطي يعتمد في نظمه غالباً على جمع الجوامع لابن السبكي، ولفظ جمع الجوامع (والفقه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية) بشرح المحلي وحاشية البناني (32/1-33)

فصاحبه ليس بفقيه ولا حظّ له من الفقه على المعنى الصحيح الوارد في الكتاب والسنة، فما أَلَفْنَا أبدا القرآن والسنة - كما سَأَبَيْنَ بإذن الله تعالى - عبْرًا بالفقه عن الفروع الفقهيّة فحسب، بل هي فيهما جزء من الفقه، بل الجزء الأصغر، وإِنّما الفقه في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يشمل كل أنواع الفقه بما فيه فقه الأحكام، وفقه النفس، وفقه الكون، وفقه الواقع، وفقه السنن، وفقه السياسة وغيره من أنواع الفقه. وكل ذلك أحسبه ينضوي تحت مسمى فقه العمران موضوع هذه الأطروحة ..

وكذا الذين تعبّدوا وسلّكوا إلى الله - زعموا - بأذواق القلوب تركا للشرعية وأحكامها وفقهها ونصبوا العداء للفقه والفقهاء، فهؤلاء جهلة وهم إلى الضلال أقرب منهم إلى الصواب، إذ أنّ الله لا يعبد بالجهل بل بالعلم، ولقد أحسن البخاري - رحمه الله و رضي عنه - حين بَوَّبَ في صحيحه باب العلم قبل القول والعمل⁴⁹، فلا قول إذن ولا عمل - كيفما كان العمل قلبيا أو قَالِيَا - إلا بالعلم، وهذا الانفصام المجانب للصواب بين ظاهر الشريعة وباطنها، ما قام به أصلا إلاّ الزنادقة عبر تاريخ الأمة الإسلامية، ومع الأسف انطلت هذه الحيلة على كثير من الناس، ففرّقوا بين ظاهر الدين وباطنه، وإِنّما الدين كلٌّ لا يتجزأ، فتأمل وأبصر !!

وهناك قول يُنسب للإمام مالك - لله دره - في هذا المقام، وإن كان المحققون من أهل العلم ضعّفوا نسبته إليه، والذي يهمننا هو دلالة القول وبصائره لمن أبصر وتذوّق حقيقته!! ونصه: "من تصوف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن

⁴⁹ - ن: "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"

أي "صحيح البخاري"؛ لمحمد بن إسماعيل البخاري؛ المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)؛ الطبعة: الأولى، 1422هـ؛ (1/ 24)

جمع بينهما فقد تحقق⁵⁰، وقد أوضح ذلك الشيخ زروق⁵¹ - رحمه الله - في القاعدة الرابعة من قواعده في كلمة مثلها تشد الرحال !! قال: " لا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجميع لتلازمها كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها كما لا كمال له إلا بها فافهم !!"⁵².

ولنستمع إلى شيخ الإسلام ابن تيمية⁵³ واصفا هذا الانفصال القاتم، إذ يقول رحمه الله: "كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة، كل منهما ينفي طريقة الآخر ويدعى أنه ليس من أهل الدين، أو يعرض عنه إعراض من لا يعدّه من الدّين فتقع بينهما العداوة والبغضاء، وذلك أن الله أمر بطهارة

50 - ن: " حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزبة في الفقه المالكي"، لعلي بن مكرم الله العدوي، تحقيق أحمد مصطفى الطهطاوي، نشر: دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط: 1، سنة: 1440 هـ / 2019 م؛ بتصرف (3/ 195) وهذا الكلام صحيح في معناه، دقيق في مبناه، لكن الذي يستوقف الباحث هو مدى صحة نسبته إلى الإمام مالك الذي عاش ما بين 93 و179 هـ أي في وقت مبكر من تاريخ التصوف؟

51 - ولد بتازة بالمغرب سنة 846 هـ، مات أبوه وهو رضيع فنشأ يتيماً وتولى جده لأمه تربيته، وكانت أمه تُعرف بالزهد والتقوى والصلاح. زروق هو لقب جده، ومن ثم أطلقت على ذريته من بعده.؛ كان مالكي المذهب، وكان محباً للتصوف فأخذ الطريقة على يد الشيخ المسلك عبد الله المكي وغيره. وتوفي بمدينة مصراتة (غرب ليبيا) سنة 899 هـ، شذرات الذهب (547-548/9) بتصرف

52 - ن: "قواعد التصوف" لأحمد زروق الفاسي (ت 899 هـ) تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط: 2 سنة 1426 هـ - 2005 م، ص: 22.

53- ابن تيمية (661. 728 هـ / 1263. 1328 م)؛ هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحارثي الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، أعتقل مرات عديدة، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته؛ كان كثير البحث في فنون الحكمة؛ آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان؛ أما تصانيفه ففي الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد... نقلا عن: الأعلام للزركلي، بتصرف

القلب وأمر بطهارة البدن، وكلا الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه⁵⁴.

ويقول في موطن آخر: " أنت تجد كثيرا من المتفقهة إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئا ولا يعدهم إلا جهالا ضلالا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئا، وترى كثيرا من المتصوفة والمتفكرة لا يرى الشريعة والعلم شيئا، بل يرى أن المتمسك بهما منقطع عن الله وأنه ليس عند أهلها شيء مما ينفع عند الله، والصواب أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حق وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا باطل " ⁵⁵

ويقول العلامة المناوي⁵⁶: " ولو سئل فقيه عن نحو الإخلاص والتوكل أو وجه التحرز عن الرياء لما عرفه مع كونه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه، ولو سئل عن اللعان والظهار يسرد من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج لشيء منه " ⁵⁷

وقد سُقت هذا الكلام وأطلت النفس فيه قصد إدراك ما طرأ على هذا المفهوم من التعصية والتجزئة، وما أصاب هذا اللفظ - الفقه أعني - ما أصاب كثيرا من الألفاظ القرآنية أو النبوية من الانزياح والابتعاد قليلا أو كثيرا عن المفهوم الأصلي الذي كان زمن التنزل⁵⁸، فوقع له من التقليل والتحجيم والتخصيص - بل وحتى التشويه القميء في

54 - ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م؛ (15/1)

55 - نفس المرجع

56 - المناوي (952 - 1031 هـ / 1545 - 1622 م)؛ هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين، من كبار العلماء بالدين والفنون.. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تأليفه. له نحو ثمانين مصنفًا، منها الكبير والصغير والتام والناقص، عاش في القاهرة، وتوفي بها.

57 - ن: " فيض القدير شرح الجامع الصغير " المناوي القاهري، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر الطبعة: الأولى، 1356هـ؛ (242/6)

58 - لقد تحدّث الدكتور القرضاوي . حفظه الله . في كثير من كتبه عن هذه المسألة وجعلها ضابطا من أهم ضوابط المنهج الأمثل في فهم الكتاب والسنة، من ذلك ما ذكره في كتابه: " كيف نتعامل مع القرآن العظيم " في فصله الثاني معالم وضوابط،

بعض الأحيان - بعد أن كان أشمل وأوسع لكل ما ينبغي فهمه مما يتعلق بمصالح العباد والبلاد في المعاش والمعاد؛ وهو ما قصده من إضافته للفظ العمران في هذه الأطروحة.

والفقه بوصفه مفهوما مركزيا في الرؤية القرآنية، فإنه كغيره من المفاهيم - كما ذكرت آنفا - تعرض للتغيير والتبديل ولعل أول من انتبه الى هذا الانحراف في الالفاظ كما أسس لها الوحي الإمام أبي حامد الغزالي⁵⁹، حيث أشار أن "منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة الى معان غير ما أراد السلف الصالح والقرن الأول وذكر من ذلك خمسة الفاظ هي الفقه والعلم والتوحيد والذكر والتذكر والحكمة.. وحاول الغزالي رد كل لفظ الى معناه الاصلي الذي كان يدل عليه دلالة شاملة وعامة، ثم ذكر ما طرأ عليه بعد ذلك من معان في استعمالات المتأخرين عن طريق ما يسميه (التصرف بالتخصيص)"⁶⁰

المسألة الثانية: مفهوم الفقه في العصر الأول

ولنترك الإمام أبا حامد الغزالي مرة أخرى يجلي لنا هذا الأمر فيقول رحمه الله في كتاب العلم في بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم الشرعية: "ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب، ويدللك عليه قوله عز وجل: ﴿لِيَتَّبِعْفَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

حيث اعتبر الأخذ بمطلق اللغة من أهم هذه الضوابط لحسن فهم كتاب الله؛ كما حذر من المصطلحات الحادثة وتنزيل النصوص الشرعية عليها في الباب الثالث من كتابه: "كيف نتعامل مع السنة النبوية" وهذا ما قصده هنا، وهو من الأهمية بمكان لذا وجب تنبيه إليه؛ والله المستعان!!

⁵⁹ الغزالي (450 - 505 هـ / 1058 - 1111 م)، هو محمد، أبو حامد، حجة الإسلام؛ فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف؛ مولده ووفاته في الطابران (قصبه طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلده؛ نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة، من قرى طوس (لمن قال بالتخفيف)

⁶⁰ - يراجع في ذلك كتاب "المصطلحات والمفاهيم في الثقافة الإسلامية بين البناء الشرعي والتداول التاريخي" لأستاذنا الدكتور سعيد شبار؛ من إصدارات مركز دراسات المعرفة والحضارة ط: 3؛ سنة: 1438 هـ / 2017 م؛ ص 32 و33 و34

يَحْذَرُونَ ﴿٦١﴾، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والستلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يُقَسِّي القلب وينزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له ، وقال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾⁶² ؛ وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى؛ ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً. قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁶³، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه، وليس ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، وإنما هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم؛ أي معرفة الآخرة ودقائق آفات النفوس .

ثم قال رحمه الله: "ولست أقول: أن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان متناولاً له بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر"⁶⁴.

ومن ثمَّ فقد اتَّضح من كلام هذا الإمام، أنَّ المتأخرين تصرفوا في اسم "الفقه" بالتخصيص لا بالنقل والتحويل؛ إذ خصصوه بمعرفة فروع الحلال والحرام والأحكام في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها؛ وكان هذا التخصيص بعد أن انقرض السلف الصالحون، وذهب أهل القرون الفاضلة الأولون، وانقلبت العلوم كلها صناعاتٍ بعد أن كانت مقاصدَ وغاياتٍ؛ ولذا وجب التنبيه إلى ضرورة تجاوز هذا الخلط الذي ورثناه والذي قَزَم كثيرا من المعاني التعبدية، واعطى -

⁶¹ - التوبة: 122

⁶² - الأعراف: 179

⁶³ - الحشر: 13

⁶⁴ - ن: "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي، تحقيق سيّد عمران، دار الحديث القاهرة، ط: 1425هـ/ 2004 م؛

في المقابل - تنزيهاً و قدسية لكثير من المعاني والمفاهيم التراثية، فمع أهمية المصطلح التراثي إلا أنه لا ينبغي أن يحتل كل مساحة الدلالة الشرعية التي الأصل فيها الكلية والاستيعاب والإطلاق، فالفقه في اصطلاح المدارس الفقهية لا يعني إلا جزءاً من مفهوم الفقه في الاستعمال القرآني والنبوي العام.⁶⁵

وعلى هذا المنهج في عموم كلمة الفقه وشمولها جاء التعريف المنقول عن أبي حنيفة رحمه الله بأنه "معرفة النفس ما لها وما عليها" أي : ما تنتفع به النفس وما تتضرر به في الدنيا والآخرة، أو ما يجوز لها وما يجب عليها وما يحرم، وهذا يتناول الأحكام الاعتقادية كوجوب الإيمان ونحوه، والأحكام الوجدانية الأخلاقية مما حثّ عليه الإسلام كالصدق والأمانة والوفاء ونحوها، ويشمل أيضاً الأحكام العملية كالصلاة والصوم والبيع ونحوها، كما يشمل فقه السنن والقواعد التي ينتظم بها اجتماع الناس وعمرانهم، وكذا كل ما يتعلق بفقه الأكوام وفقه التاريخ وفقه الحياة و فقه المجتمعات، أمور كثيرة جداً لا علاقة لها بفقه الأحكام من الحلال والحرام .. كل هذا وغيره ينضوي تحت متعلق الفقه في القرآن وكذا في السنة المطهرة، ولا أدلّ على ذلك من أنّ القرآن الكريم حذف مفعول هذه المادة في أغلب سياقاتها حتى يظلّ مدلول الفقه مطلقاً يعمّ كل شيء ينبغي فهمه!!⁶⁶

لقد بدا واضحاً من خلال هذا النص المفهوم الاصطلاحي للفقه في العصر الأول، حيث

⁶⁵ - يُنظر في ذلك كِتَابِيَّ "المصطلحات والمفاهيم في الثقافة الإسلامية" مرجع سابق ص: 28 و 29؛ و "الاجتهاد والتجديد في الفكر الاسلامي المعاصر دراسة في الاسس المرجعية والمنهجية" لأستاذنا الدكتور سعيد شبار، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الاسلامي ط1 2007م

⁶⁶ - وليبيان ذلك نقوم باستقراء تام لهذه المادة في مختلف سياقات القرآن ولو على سبيل الإيجاز والاختصار، فقد جاء لفظ الفقه في قوله تعالى في سورة الأنعام، الآية 65: (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) ، وقوله سبحانه في الأعراف، الآية 179: (لهم قلوب لا يفقهون بها)، وقوله أيضاً في الأنعام الآية 98 : (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)، وفي سورة الحشر الآية 13: (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون)، وفي المنافقون الآية 3 (فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)؛ وفي نفس السورة الآية: 7 (ولكن المنافقين لا يفقهون)؛ و في الفتح، 15 (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً)؛ و في التوبة الآيات: 81 و 87 و 127(قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون)، و (و طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)، و (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) ، وفي الأنفال ، 65(بأنهم قوم لا يفقهون)، فهذه إحدى عشر موضعاً لم يُذكر فيه مفعول الفقه ولم يقيّد به، بل أطلق ليظلّ واسع الدلالة شاملاً لكل ما يجب

كان يتعلق بحياة الإنسان وجوانبها كلها، إذ لم يطرأ عليه بعدُ التخصيص أو التقزيم الذي عرفه عند المتأخرين.

ويزداد الأمر وضوحا وبيانا حينما نقرأ للحجوي⁶⁷ - رحمه الله - ما نصّه : "ولما جاء الإسلام لم يجد لدى الأمة العربية فقها كافيا سماويا ولا وضعيا، بل وجدها في ظلمة الجهل

فقهه وفهمه حسب ما يتطلبه العصر وتقتضيه الحاجة لتحصيل مصالح العباد ومنافع البلاد في المعاش والمعاد، كما ذكرت مادة الفقه مرتبطة بفقه القرآن وفقه الآيات في خمسة مواضع، وإن كان الحديث مع من لا يفقه بسبب كفرهم وعنادهم، وذلك في قوله تعالى في الأنعام، الآية: 25 (و جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه)، ومثلها الآية: 46 من الإسراء، ومثلها الآية: 57 من الكهف، وكذا ارتبطت المادة بفقه الآيات القرآنية بعد سياق الآيات الكونية، و ذلك في موضعين من الأنعام؛ الآية: 65 (انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون)، وقوله تعالى من الآية 98 (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) ليفقه المتلقي النوعين معا من الآيات لارتباطهما ببعضها ودلالة إحداها على الأخرى، فالقرآن كون ناطق والكون قرآن صامت وكلاهما يجب فقحه، وكذا أية التوبة: (ليتفقهوا في الدين) فالدين يحوي كل أمور الإنسان زمانا ومكانا، طولا وعرضا، عمقا وسطحا، روحا وجسما، جوهرًا وشكلا، أصولا وفروعًا، بل حياة وموتًا ودنيا وآخرة... ولذلك جاءت في هذه الآية . بخلاف السياقات الأخرى . على صيغة التفعّل التي تفيد تكلف حصول الفقه، أي الفهم في الدين. وفي هذا إيماء إلى أن فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة نظرا لمجالاته المتنوعة والمختلفة، ولذلك جاء في الحديث الصحيح «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»؛ وبالتالي فهذا هو المنهج المتكامل الذي يؤهل العلماء ليكونوا فعلا قادة في البلاد وبين العباد (لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)، وبالتالي يحقّقوا للأمة عمرانها المنشود ويُعيدوا لها حضارتها المفقودة، وهذا لعمري هو ما يصبو إليه ويتمناه كل مسلم غيور على دينه وأمتّه، فيا ليت قومي يعلمون!! أما بقية المواطن التي ذكرت فيها مادة الفقه فقد جاءت مرتبطة مرة بالتسبيح في موضع واحد، الآية: 44 من الإسراء (ولكن لا تفقهون تسبيحهم)، وتارة أخرى ارتبطت بالقول وذلك في موضعين، الأول من الآية: 91 من هود (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا ممّا تقول)، والثاني من الآية: 28 من طه (واحلل عقدة من لساني يفقهو قولي)؛ وتارة ثالثة ارتبطت بالحديث وذلك في موضع واحد من النساء الآية: 78 (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)؛ إذن هذه مواطن أربعة فقط ذكر فيها الفقه مقيدا، لكن بأي شيء قيّد؟! إنه القول وما في معناه من الحديث أو التسبيح، وذلك لما تحتاجه هذه الأشياء من دقة الفهم والإدراك، أضف إلى ذلك دلالة السياق القرآني الذي وردت فيه المادة حيث كان الخطاب موجها إلى قوم بلّد الكفر أحاسيسهم وغطّى مشاعرهم حتى صاروا كالأنعام بل هم أضلّ؛ لذا كان حريا بهم ألا يفقهوا شيئا ولو كان أبسط الأشياء...!!!

⁶⁷ - هو محمد بن الحسن ابن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي، ولد يوم رابع رمضان سنة 1291 هـ بمدينة فاس. تلقى في المرحلة الابتدائية والإعدادية مجموعة من العلوم الضرورية لطالب تلك المرحلة، دخل إلى جامع القرويين، فتلقى العلوم التي تدرس فيها، ولازم أساتذتها الكبار، وله أزيد من 95 مؤلفا، توفي رحمه الله عام 1376 هـ بالرباط، ودفن بفاس.. أنظر الأعلام للزركلي (96/6)

بالحقوق، فأفاض عليها نور الفقه وهذب الأخلاق وصان الحقوق وحررها وبينها، فأصبحت الأمة فقيهة بالفقه الإسلامي المؤسس بالوحي الإلهي المبين، في آيات القرآن العظيم وسنن النبي الكريم، عليه أفضل صلاة وتسليم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾⁶⁸؛ وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ..﴾⁶⁹ "70؛ ومن ثم فقد كان الفقه قد أحاط بجميع مناحي الحياة، إذ لم يدع شاذة ولا فاذة إلا تناولها، وهنا يحضرنى حديث صحيح مريح يُبرز هذا المعنى بجلاء، وهو ما أخرجه الإمام مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: أن المشركين قالوا لهم (لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال أجل إنه نھانا أن يستنجي أحدنا يمينه أو نستقبل القبلة، ونھانا عن الروث والعظام..)⁷¹ الحديث، فهذا الحديث يشير بل يصرح أنّ الفقه الإسلامي تناول كل شيء حتى أبسط الأشياء التي قد يتصور البعض أن الإسلام لا يُلقي لها بالا، وعليه فقد نظم هذا الفقه العلاقة بين الإنسان وخالقه بتوضيح أنواع العبادات بعد تعريفه إياه جلّ جلاله، كما نظم العلاقة بينه وبين بني جنسه، بل ومع كل مكونات هذا الكون الفسيح، فكان الفقه بذلك أشمل و أوسع ممّا اصطُلح عليه عند المتأخرين..

"فالفقه الإسلامي نظام عام للمجتمع البشري، لا الإسلامي فقط (....) وهو القانون الأساسي لدول الإسلام والأمة الإسلامية جمعاء، وإنّ انتظام أمر دول الإسلام في الصدر الأول، وبلوغها غاية لم تدرك بعدها في العدل و النظام لدليل واضح على ما كان عليه

68 - النحل، الآية: 89

69 - النحل، الآية: 44

70 - ن: "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" الحجوي، مكتبة دار التراث. القاهرة. نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ط: 1396 هـ؛ (9/1)

71 - ن: "المسند الصحيح المختصر" رقم الحديث: 262، كتاب الطهارة، باب الاستطابة)، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت (223 /1)

الفقه من الانتظام؛ وصراحة النصوص وصيانة الحقوق، ونزاهة القائمين بتنفيذ أوامره مما لا يوجد الآن (...) و ما دخلت الأمم الكثيرة في الإسلام أفواجا، و اتسعت دائرة الإسلام (...) في زمن قليل إلا باحترام الحقوق والعمل بقواعد الفقه الإسلامي والتسوية بين جميع أجناس البشر التي كانت تحضنها في العدل وجمع شتات مكارم الأخلاق ومحاسن المعتقدات⁷²؛ هذا هو الفقه حقا بمعناه الشمولي العمراني المرتبط بقوانين الحركة التاريخية والمتعلق بسنن الله النازمة للتاريخ والإنسان والعمران.

المسألة الثالثة: مدلول الفقه في السياق القرآني

ولتأصيل وتقعيد ما ذكرناه قبل كان لزاما علينا أن نستقرئ مادة هذا اللفظ في سياقاتها القرآنية المختلفة، فلقد وردت هذه المادة - مادة الفقه أعني - في القرآن الكريم في جميع سياقاتها ومواردها عشرين مرة كلها كانت فعلا مضارعا وجميعها على وزن فَعَّه عدا الآية 122 من سورة التوبة فقد جاءت على وزن تَفَقَّهَ (تَفَعَّلَ)، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَبَرَ مِّنْ كُلِّ بَرَقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَّبَعَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾⁷³.

ولتكن البداية إذن من هذه الآية ذات السياق الفريد والدلالة المبصرة إذ حوت من اللطائف والبصائر العجيبة في القرآن التي يجب أن تفهم على وجهها الصحيح فليست محصورة على فقه الأحكام العملية الجزئية فحسب كلا، ولا هي متعلقة بفقه العقائد والقلوب فقط، كلا، بل هي على مفهومها القرآني الشمولي المستوعب لكل ما ينبغي فهمه مما يعود نفعه على الإنسان المستخلف عاجلا أو آجلا، مما يُسَنَّم في بناء مستقبل الأمة المنشود وعمرانها المحمود، ولذلك جاء بصيغة التفقه التي تفيد حركة الإنسان المكلف

⁷² - ن: "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" الحجوي، مرجع سابق، بتصرف قليل؛ (13/1)

⁷³ - التوبة: 122

بالاستخلاف لطلب الفقه، ذلك أن الفقه هو نتيجة التّفقه الذي هو طلب الفقه على وزن قوله عليه الصلاة و السلام: (من تصبّر يُصبره الله)⁷⁴؛ ومن ثمّ كان التّفقه في الدين هو طلب الفهم فيه فهما دقيقا عميقا، ثمّ هذا الفقه لا يمكن أن يكون إلا مرتبطا بفقه الواقع⁷⁵، إذ لم ينفصل فقه الدين عن فقه الواقع، بل هذا من ذاك عن طريق اللزوم والاقتضاء، طبعاً من زاوية التنزيل لا التأصيل، وقصص الأنبياء فيه بيانٌ لحركة الدين في الواقع، أما الدين نصاً معزولاً عن الواقع فهذا لا أثر له، ولأجل هذا كان لا بد من نوع ثالث وهو فقه كيفية تنزيل وإحلال نصوص الدين على واقع الإنسان المتدين، وهو ما يسمّيه الأصوليون تحقيق المناط الخاص.. إذن هذه أنواع ثلاثة من الفقه وهي ضرورية وكلّها دلّت عليها الآية الأنفة الذكر، فالإنذار الوارد في الآية هو الدليل على ربط الدين بالواقع، والحذر المذكور فيها هو أثر الربط بين الدين والواقع، وهذا دال على فقه كيفية تنزيل نصوص الدين على الواقع، إذن تلك ثلاثة من أنواع الفقه أراها ضرورية لبناء مستقبل الأمة الموعود وعمرانها المنشود..

المسألة الرابعة: الشيخ رضا يوضح مدلول الفقه في السياق القرآني

ثم إنّ الموارد الأخرى لهذه المادة يُمكن أن تُجمل معانيها وأسرارها ومراميها - وذلك

⁷⁴ - جزء من حديث صحيح، متفق على صحته، رواه البخاري (رقم: 1469)، ومسلم: (رقم: 105) أن أبا سعيد الخدري: أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفذ ما عنده، فقال لهم حين نفذ كل شيء أنفق بيديه: (ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر)..

⁷⁵ - يقول ابن القيم في إعلام الموقعين (مصدر سابق): "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فقه الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده، واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً."

ثم قال: "فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع، والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله ورسوله." (1 / 26.2)

من أجل الاختصار ما أمكن - فيما تبين للشيخ رضا⁷⁶ رحمه الله في تفسيره الموسوم بـ تفسير المنار أن المراد بالفقه: "نوع خاص من دقة الفهم، والتعمق في العلم، الذي يترتب عليه الانتفاع به، وأظهره نفي الفقه عن الكفار والمُنَافِقِينَ؛ لأنهم لم يدركوا كونه المراد مما نفي فقهه عنهم، ففاتهم المنفعة من الفهم الدقيق، والعلم المتمكن من النفس"⁷⁷، وهنا إضافة جديدة ولطيفة أيضا لما سبق بيانه، إذ ذكر هنا رحمه الله أثر الفقه في المتفقه وثمرته، وهو ما يظهر على صاحبه من الصلاح والإصلاح وهو ما ينتظم به عمران الناس فيسلمون من الهلاك والخراب واليباب!! وهو ما أفادته آية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾⁷⁸

وقد حاول رحمه الله أن يرصد لنا معاني ومفاهيم هذا المصطلح في كل سياقاته القرآنية انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوذِيَكَ كَلَّا تَتْلُم بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾⁷⁹، أي لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتتزكى به أنفسهم من توحيد الله المطهر لها من الخرافات والأوهام، ومن المهانة والصغار (...)

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات، والحرص على أعمال

⁷⁶ - محمد رشيد رضا (1282 - 1354 هـ / 1865 - 1935 م)، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي؛ من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير..

أشهر آثاره مجلة (المنار) أصدر منها 34 مجلدا، و (تفسير القرآن الكريم) اثنا عشر مجلدا منه، ولم يكمله، وغير ذلك..

نقلا عن: الأعلام للزركلي

⁷⁷ - ن: "تفسير القرآن الحكيم" (تفسير المنار)؛ لمحمد رشيد رضا؛ الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م؛ (9 / 353) وما بعدها بتصرف حذف وإضافة

⁷⁸ - هود: 117

⁷⁹ - الأعراف: 179

الخيرات مناطُ سعادة الدنيا، وبها مع الإيمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة، (...) ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية، واللذات المعنوية، والسعادة الأبدية، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَلِيظُونَ﴾⁸⁰.

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات، (...) كالعلوم الإلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية، وأخبار الغيب الماضية والآتية، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات، ويتكلفون لها غرائب التأويلات؛ ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات: ﴿قُلْ هُوَ الْفَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْفِكُمْ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾⁸¹؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾⁸²؛ ﴿وَقَالَ فِي عَدَمِ فَهْمِهِمُ لِلْقُرْآنِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾⁸³؛ وهذه الآية جمعت حرمانهم لهداية القلوب والأسماع والأبصار، (..) والتي هي وسائل لحصول الفقه، ومثلها في سورتي الإسراء والكهف (..).

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها أسباب النصر على الأعداء من روحية وعقلية،

80 - الروم: 6

81 - الأنعام: 65

82 - الأنعام: 98

83 - الأنعام: 25

واجتماعية وآلية، التي نصر الله بها المؤمنين على الكافرين (..)، وجعل العشرة منهم أهلاً لغلب المائة في طور القوة، والمائة أهلاً لغلب المائتين في طور الضعف، وعَلَّل ذلك بأن الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾⁸⁴؛ وقال في سورة الحشر: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁸⁵؛ فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أفقه من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية، وأكمل اتصافاً بها، وتمتعا بثمرها، فأين هذا الإيمان، من مسلمي هذا الزمان؟ .

ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها سنن الله تعالى في الاجتماع، وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات، (...) ، ولا يفقهون بها إدالة الله لأهل الحق من أهل الباطل، بل يحكمون في ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر، دون ما وراءها من الفقه الباطن، كما حكاه الله تعالى عن المنافقين في آخر سورة التوبة (...)، حتى إذا ما أنزلت سورة فروا من سماعها فراراً، لا يخافون أن يراهم الله، ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون ﴿وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ فُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁸⁶ وما حكاه تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم ؛ إذ توهموا أنهم يقنعون المؤمنين من الأنصار بترك الإنفاق على إخوانهم المهاجرين، وأن ذلك كاف في انفضاضهم من حول الرسول ﷺ ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْبَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁸⁷، أي لا يفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفالاته لهم، ولا يفقهون أن سبب إنفاق الأنصار

84 - الأنفال: 66

85 - الحشر: 13

86 - الأنعام: 127

87 - المنافقون: 7

الأبرار - رضوان الله عليهم - هو الإيمان الصادق، الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته، (...) لا يفقهون هذا، لأنهم محرومون من وجدان الإيمان، وإيثار ما عند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع".⁸⁸

المسألة الخامسة: خلاصة واستنتاج

وخلاصة القول وزيدته: أن نفي الفقه - في القرآن الكريم - عن الكفار والمنافقين ومن سار على منوالهم يشمل كل ما ذُكر قَبْلُ، وما في معناه من أمور الدين وأمر الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس؛ وبناء على هذا فإن المسلمين اليوم لا يفقهون في دين الله ولا دنياه - بالمعنى الذي أشرت قبل - إلا قليلا قليلا!! ولذلك نالهم من الشرور والضعف وخراب العمران ما نالهم بسبب ذلك، ولو فقهوا لكان خيرا لهم! ف: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)⁸⁹ و(خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا)⁹⁰، وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: (اللهم فقه في الدين)⁹¹

وفي المقابل نجد كثيرا ممن ليسوا مسلمين يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضها في القرآن والسنة ما لا يفهمه المسلمون، كأسباب النصر في الحرب وانتظام العمران؛ ولذلك نرى الدولة لهم، والنصر حليفهم، (...) ثم إن لدى هؤلاء من العلم وأخلاق الإيمان أكثر

⁸⁸ - ن: "تفسير المنار"؛ مرجع سابق، (9 / 353)، وما بعدها بتصرف حذف وإضافة،

⁸⁹ - جزء من حديث رواه البخاري؛ باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم الحديث: 3116، رواه مسلم في كتاب الزكاة من صحيحه..

⁹⁰ - جزء من حديث رواه البخاري؛ رقم الحديث: 3374

⁹¹ - وقال الحميدي في الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم: عن عبيد الله بن أبي يزيد المكي عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى الخلاء فوضعت له وضوءا فلما خرج قال: من وضع هذا؟ فأخبر. في كتاب مسلم قال: اللهم فقهه. وفي كتاب البخاري قال: اللهم فقهه في الدين. وحكى أبو مسعود قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. ولم أجده في الكتابين، وروى البخاري من حديث الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال: ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة. وفي رواية وهيب: علمه الكتاب. اهـ

مما عند المسلمين اليوم، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الإيمان الإسلامي الكامل، ثم إن المؤسف بعد ذلك أن يعتبر المسلمون جهلهم وخذلانهم وانحطاطهم بسبب إسلامهم ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَفُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾⁹²؛ ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر، والترقي والتقدم العمراني؛ ذلك بأنهم قوم - ومع الأسف - لا يفقهون حقيقة الإسلام، ولا أسباب النصر والتمكين ولا سنن وقواعد العمران!!

وأخيرا وليس آخرا أقول: إن الفقه بالمدلول القرآني والنبوي لم يكن يدور حول الحلال والحرام والأمور العملية الشرعية فقط، بل كان يعني (الفقه الحضاري العمراني)، بكل ما تشمل كلمة عمران وحضارة من أبعاد، إنه الفقه الذي يؤطر كل مناحي الحياة البشرية تناسباً مع شمولية الدين الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان وإنسان.

ومن ثمّ فالملقصود بالفقه هنا هو: الفهم المفسّر لقوانين وقواعد الحركة البشرية العمرانية، الضاربة في العمق الزماني والشمول المكاني

المطلب الثالث: مفهوم القاعدة

للعمران البشري الذي أروم دراسته في هذه الأطروحة قواعد وقوانين تحكمه وتؤطره وتسدده؛ ومن خلالها يمكن أن نستشف مستقبل الأمة وآفاقها العمرانية والحضارية، لهذا وغيره كان لابد من الاهتمام ودراسة هذه القواعد والقوانين، ومن ثم مراعاتها لمعالجة ما يلحق عمران الأمة من اختلالات وضعف، وبالتالي استثمار ما يمكن استثماره من تلك القواعد للسير قدماً بالأمة إلى بر الأمان ...

فما المقصود بالقاعدة؟ وما مدلولها في هذا السياق؟!

وللجواب عن هذا كان لابد - كما سبق - من دراسة هذا المفهوم لغة واصطلاحاً.

وليكن البدء من الجانب اللغوي:

المسألة الأولى: تعريف (القاعدة) في اللغة:

قال ابن فارس: لَقَافٌ وَالْعَيْنُ وَالْدَّالُّ أَصْلٌ مُطَرِّدٌ مُنْقَاسٌ لَا يُخْلَفُ، وَهُوَ يُضَاهِي الْجُلُوسَ وَإِنْ كَانَ يُتَكَلَّمُ فِي مَوَاضِعَ لَا يُتَكَلَّمُ فِيهَا بِالْجُلُوسِ. يُقَالُ: قَعَدَ الرَّجُلُ يَقْعُدُ قُعُودًا. وَالْقَعْدَةُ: الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ. وَالْقَعْدَةُ: الْحَالُ حَسَنَةً أَوْ قَبِيحَةً فِي الْقُعُودِ. وَرَجُلٌ ضُجْعَةٌ قُعْدَةٌ: كَثِيرُ الْقُعُودِ وَالِإِضْطِجَاعِ. وَالْقَعِيدَةُ: قَعِيدَةُ الرَّجُلِ: امْرَأَتُهُ. قَالَ:

لَكِنْ قَعِيدَةٌ بَيْنَتِهَا مَجْفُوءَةٌ؛ بَادٍ جَنَاحَيْنِ صَدْرَهَا وَبِهَا جَنَاءٌ، وامرأة قاعدة: إن أردت القعود، وقاعدٌ عن الحيض والأزواج. والجمع: قواعد، قال الله تعالى: "والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً"⁹³؛ والقَعْدُ: القوم الذين لا ديوان لهم، فكأنهم أقعدوا عن الغزو، والثدي المقعد، الناهد، كأنه أقعد في ذلك المكان، وذو القعدة: شهر كانت العرب تقعد فيه عن الأسفار (..) وقواعد البيت: أساسه "⁹⁴؛ وللزمخشري مزيد تفصيل في القاعدة،

⁹³ - النور: 60

⁹⁴ - ن: " معجم مقاييس اللغة" لابن فارس، مادة (قعد). (109-108/5) ومثله (مجلد اللغة)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1406 هـ / 1986 م (760/1)، و (صالح العربية) (527525/2) للجوهري، و (لسان العرب) لابن منظور (364.357/3)

قال: " .. وبني بيته على قاعدة وقواعد، وقاعدة أمرك واهية"⁹⁵.

يتبين من خلال كلام ابن فارس أن القاعدة هي: الأساس، إذ قال: "وقواعد البيت أساسه".

ويتضح من كلام الزمخشري⁹⁶، أن القاعدة في اللغة تشمل ما كان حسيا (كقاعدة البيت) وما كان معنويا، (كقاعدة الأمر)، إذ قال: (وبنى بيته على قاعدة وقواعد، وقاعدة أمرك واهية).

إذن فالقاعدة في اللغة: هي الأساس سواء كان معنويا أم كان حسيا.

المسألة الثانية: القاعدة في الاصطلاح

القاعدة في الاصطلاح لها تعاريف كثيرة، متقاربة في الغالب نكتفي منها بما يلي: قال الشريف الجرجاني⁹⁷: القاعدة: " قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها"⁹⁸

وقال مسعود بن عمر التفتزاني: القاعدة: "حكم كليّ ينطبق على جزئياته، ليتعرف أحكامها منه"⁹⁹

⁹⁵ - ن: "أساس البلاغة" لجار الله الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت؛ لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م؛ مادة (فعد) (9190/2).

⁹⁶ - الزَّمَخْشَرِي (467 - 538 هـ / 1075 - 1144 م) هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم؛ من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها؛ له مؤلفات كثيرة؛ وكان معتزلي المذهب، مجاهرا، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشف وغيره.. نقلا عن المكتبة الشاملة

⁹⁷ - الجرجاني (740 - 816 هـ / 1340 - 1413 م)، علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني: فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مصنفا، منها (التعريفات).. نقلا عن: الأعلام للزركلي

⁹⁸ - ن: "التعريفات" للشريف الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1؛ 1403 هـ - 1983 م؛ (ص 171)

⁹⁹ - ن: "شرح التلويح على التوضيح" لمسعود بن عمر التفتزاني، مكتبة صبيح بمصر، بدون طبعة وبدون تاريخ (34/1)

وعرفها العلامة التهانوي بقوله: "هي الكلية التي يسهل تعرف أحوال الجزئيات منها"¹⁰⁰

وقبل أن أناقش هذه التعاريف يحسن بي أن أنبه إلى أمرين مهمين للمناقشة، الأمر الأول: أن هذه التعاريف تتناول (القاعدة) في الاصطلاح العام، من دون تقييدها بعلم من العلوم، فتشمل القاعدة الأصولية، والفقهية، والنحوية، والبلاغية والمنطقية والكلامية والعمرانية أيضا التي هي موضوع البحث؛ وغير ذلك من القواعد المتعلقة بسائر العلوم والفنون.

الأمر الثاني: أن هذه التعاريف استُخدمت في بنائها الدلالي مصطلحات منطقية لا توجد أصالة إلا في علم المنطق مثل: القضية - الكلية. الكلي - الحكم - الجزئيات.. وبالتالي فهي مشحونة بمفاهيم منطقية، لا بمفاهيم لغوية عادية، فتحتاج إلى استحضار تلك المفاهيم المنطقية لفهمها وتحليلها ثم مناقشتها، وبيان نقاط الائتلاف أو الاختلاف فيما بينها!!

ومن ثم فإننا نلاحظ في البداية أن كل تعريف من هذه التعاريف له شطران: الشطر الأول: يبين (طبيعة) القاعدة، وهو قولهم: القاعدة هي (قضية كلية) أو (حكم كلي) أو (هي الكلية) .

والشطر الثاني - وهو الباقي من التعريف - يبين (وظيفة) القاعدة، ولنبدأ بتحليل الشطر الأول.

من طبيعة القاعدة أن تكون (قضية) كما عبر الجرجاني، والقضية عند المنطقة: "قول

¹⁰⁰ ن: "كشاف اصطلاحات الفنون" للعلامة التهانوي؛ تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي

دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة: الأولى - 1996م. (176.1/5).

يصح أن يقال لقائله إنك صادق أو كاذب¹⁰¹ أو بعبارة أوضح: القضية مرادفة للخبر، قال العلامة عبد الرحمان الأخضرى في السلم:

ما اَحْتَمَلَ الصِّدْقَ لِدَاثِهِ جَرَى بَيْنَهُمْ قَضِيَّةٌ وَخَبَرًا

وقال العلامة القويسني في شرح هذا البيت: " (ما) أي: اللفظ الذي (احتمل الصدق) والكذب (لذاته جرى. بينهم) أي: المناطق (قضية وخبر) أي: يسمى بهذين الاسمين، فخرج بقوله: ما احتمل الصدق والكذب، ما لا يحتملها من الإنشاءات كاضرب فلا يسمى قضية"¹⁰²؛ إذن فالقاعدة لا تكون إلا قضية أي خبرا ولا تكون إنشاء أي: أمرا أو نهيًا أو استفهاما¹⁰³؛ أو تمنيا أو نحو ذلك مما لا يحتمل الصدق والكذب.

وأما التفتزاني¹⁰⁴ فقد عبر عن القضية بالحكم فقال: القاعدة (حكم كلي)؛ "لأن القضية من القضاء وهو (الحكم) لاشتمالها عليه"¹⁰⁵؛ ويبين هذا التلازم الحاصل بين القضية والحكم، ما قاله التفتزاني - نفسه - في سياق آخر: " اعلم أن المركب التام المحتمل للصدق والكذب يسمى من حيث اشتماله على الحكم قضية"¹⁰⁶؛ فلو قلنا مثلا: (الظلم مؤذن بخراب العمران) فإن هذا القول (القاعدة) يعتبر قضية لأنه يخبرنا

101 - ن: " معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم" للإمام السيوطي؛ تحقيق د محمد إبراهيم عبادة، نشر مكتبة الآداب القاهرة، ط:1، سنة: 2004/1424م؛ مصطلح رقم: 855؛ ص 120.

102 - ن: "شرح نظم السلم المنورق في المنطق"؛ مرجع سابق؛ ص 31

103 - قد ترد القاعدة على صورة الاستفهام كقولهم: (هل الأمر المطلق يفيد الوجوب أو الندب؟)؛ والمراد الإخبار عن وقوع الخلاف في مسألة تقول إلى قاعدتين اثنتين خبريتين، فتقدير المثال الذي أتينا به: أن بعضهم قال (الأمر المطلق يفيد الوجوب) والبعض الآخر قال: (الأمر المطلق يفيد الندب) فالاستفهام إلى الخبر كما ترى.

104 - هو سعد الملة والدين أبو سعيد مسعود التفتزاني السمرقندي الحنفي، الفقيه المتكلم النظار الأصولي النحوي البلاغي المنطقي. ولد بقرية تفتازان من مدينة نسا في خراسان في صفر سنة 722 هـ في أسرة عريقة في العلم حيث كان أبوه عالماً وقاضياً وكذا كان جده ووالد جده من العلماء.

105 - ن: المرجع السابق بنفس الصفحة.

106 - ن: " التلويح على التوضيح" لمسعود بن عمر التفتزاني، مصدر سابق (35/1).

عن شيء ما، ويصح أن يقال لقائله إنك صادق أو كاذب، وهذه القضية تشتمل على حكم وهو (الظلم مؤذن للخراب)، لأننا حكمنا على الظلم بهذه النتيجة ..

بينما التهانوي¹⁰⁷ لم يعبر لا بالقضية التي عبر بها الجرجاني، ولا بالحكم الذي عبر به التفتزاني وإنما اكتفى بقوله هي (الكلية)، والكلية هي: الحكم على جميع الأفراد، قال العلامة الأخضرى في السلم:

وحيثما لكل فرد حُكْمًا فإنه (كلية) قد علما

وقال الشيخ القويسني في شرح هذا البيت: "(وحيثما لكل) أي: على كل (فرد حكما فإنه) أي: الحكم أو القضية، وذكر الضمير لتأولها بالقول، (كلية قد علما) نحو: كل نفس ذائقة الموت"¹⁰⁸

ويتضح من كلام القويسني أن الكلية صفة من أوصاف القضية، كما اتضح من قبل أن القضية تشتمل على الحكم، وهذا يعني أنه ليس بينهم خلاف جوهرى حتى الآن؛ وإن كان تعبير الجرجاني والتفتزاني أوضح من تعبير التهانوي.

ومن طبيعة القاعدة أيضا أن تكون (كلية)، وقد تبين قريبا أنها هي: الحكم على كل الأفراد، مثل: (كل نفس ذائقة الموت)، بحيث لا يخرج فرد عن الحكم، وكل التعاريف عبرت بالكلية، ولكن هل صحيح أن القواعد مطلقا (كلية) بهذا المعنى المنطقي للكلمة؟ لا نتعجل الجواب الآن، لأننا سنتعرض إليه عند تحليل الشرط الثاني من التعاريف.

هذا ما يتعلق بالشرط الأول من التعاريف وهو طبيعة القاعدة، أما ما يتعلق بالشرط

¹⁰⁷ - التهانوي (ت. بعد 1158 هـ / بعد 1745 م) هو محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقى الحنفى التهانوي كاتب وعالم هندي، صاحب موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون؛ لا يعرف بالتحديد سنة وفاته، وقد رجح كفيل أحمد القاسمي أن وفاته كانت سنة 1191 هـ، استنادا على مقالة بالأردية كتبها نور الحسن راشد الكاندهلوي، وذكر أن توقيع القاضي التهانوي وجد في وثائق وفتاوى إلى سنة 1191 هـ، ولا يوجد له توقيع بعد هذه السنة..

¹⁰⁸ - ن: "شرح نظم السلم المنورق"، مرجع سابق؛ ص: 27

الثاني منها وهو وظيفة القاعدة، فقد أشاروا جميعا إلى أن وظيفتها هي "انطباقها على جزئياتها، أو تعرف أحوال الجزئيات منها"، ولكن هل انطباقها على جزئياتها وتعرف أحوال الجزئيات منها يكون على سبيل الاطراد، أم على سبيل الأغلبية؟ أم تارة على سبيل هذا، وتارة على سبيل ذاك؟ أما بالنسبة للتفتزي والتهانوي فقد أجملا إجمالا يستدعي الاحتمال، حيث قال الأول: (ينطبق على جزئياتها) وقال الثاني: (يسهل تعرف أحوال الجزئيات منها)، فيحتمل أنهما يريدان الاطراد وهو الأرجح، لأنهما عبرا بالكلية كما سلف، وليس معناها في المنطق إلا الحكم على جميع الأفراد من دون استثناء، ويحتمل أنهما يريدان الأغلبية فقط، من تلك الكلية، وهذا الاحتمال ضعيف لأنهما على وعي تام من المفهوم المنطقي لمصطلح الكلية، اللهم إلا أن يريدوا مخالفة الاصطلاح المنطقي، وعلى كل حال فالاحتمال يبقى قائما، ولا شك أنه من عيوب التعارف والحدود حتى وإن لم ينص علماء المنطق عليه بهذا اللفظ، فإنهم قد اشترطوا في الحدود أن تكون ظاهرة لا خفية، والاحتمال فيه نوع من الخفاء¹⁰⁹.

وأما بالنسبة للشريف الجرجاني فقد صرح بما يفيد أن القواعد مطردة، حيث قال: (منطبقة على جميع جزئياتها) والانطباق على جميع الجزئيات لا يعني إلا الاطراد، فهل صحيح ما ذهب إليه الجرجاني؟

نعم هو صحيح لكن في بعض القواعد دون بعض، فالقواعد العقلية المحضة على سبيل المثال. كقولهم "كل جزء فهو أصغر من الكل" وكل متناقضين فلا يجتمعان ولا يرتفعان" لا تكون إلا مطردة ولا يرد عليها أي استثناء عند جميع العقلاء، بينما بعض القواعد وخاصة الفقهية منها، كقولهم: "من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمان" لا تجدها مطردة بل ترد عليها الاستثناءات الكثيرة أو القليلة، وبالتالي فتعريف الجرجاني غير جامع،

109 - قال العلامة الأخضرى في سلمه وهو يثير إلى شرط الظهور:

وشرط كل أن يرى مُطردا منعكسا وظاهرا لا أبعدا.

انظر شرح البيت في المرجع السابق، ص: 29

لأنه لا ينطبق على بعض القواعد.

المسألة الثالثة: خلاصة واستنتاج

ويمكن أن نستفيد من تلك التعاريف كلها، ونصوغ تعريفا للقاعدة - سالما من "الاحتمال" الذي وقع في تعريف التفتزاني والتهانوي، ومن "عدم الجامعية" الذي عرض لتعريف الجرجاني، فنقول:

القاعدة في الاصطلاح: حكم كلي ينطبق على جزئياته على سبيل الاطراد أو الأغلبية؛
ليشمل كل القواعد

شرح قيود التعريف:

قولنا: (حكم)، المراد به هو: إسناد أمر إلى آخر إيجابا أو سلبا¹¹⁰ فالإيجاب كما في قاعدة: (العدل أساس الملك)، لأننا أسندنا الملك للعدل على وجه الإيجاب والإثبات؛ والسلب كما في قاعدة: (الظلم لا يدوم) حيث أسندنا الدوام للظلم على جهة السلب والنفي؛ وخرج بقيد (حكم) التصورات وهي: إدراك المفردات: من الذوات أو الصفات، (كالعدل) فقط، أو (أساس الملك) فقط، فلا يكون هذا قاعدة لأنه من قبيل التصورات أي إدراك المفردات، وليس من قبيل التصديقات، أي: إدراك النسب والأحكام¹¹¹، وبهذا يتبين أن القواعد من قبيل التصديقات وليس من قبيل التصورات.

وقولنا: (كلي) - نسبة إلى الكلية - لا نعني به خصوص الحكم على جميع الأفراد بدون استثناء فحسب كما هو؛ اصطلاح المناطقة الذي مر معنا قريبا، وإنما نعني به ما يشمل هذا، ويشمل أيضا الحكم لجميع الأفراد، فالأول مثل: (كل متناقضين لا يجتمعان ولا

110 - ن: "التعريفات" للشريف الجرجاني؛ مصدر سابق؛ ص: 92؛ وكذلك "معجم مقاليد العلم في الحدود والرسوم"

للإمام السيوطي، مصدر سابق، ص: 117

111 - قال العلامة الأخضرية . رحمه الله .

إدراك مفرد تصورا علم ودرك نسبة بتصديق وسم

ن: "شرح نظم السلم المنورق"؛ مرجع سابق. ص: 16،

يرتفعان)، فهذا حكم لجميع الأفراد بدون استثناء، وبالثاني مثل القاعدة الفقهية والعمرانية أيضاً: (من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه) فهذا حكم لغالب الأفراد فقط لكونه ترد عليه استثناءات، ويخرج بقيد (الكلي) ما كان جزئياً أي: ما يتعلق فيه الحكم بفرد واحد..

وقولنا: (ينطبق على جزئياته على سبيل الاطراد أو الأغلبية): يوضح مصطلح (كلي)، وأننا لا نريد به المفهوم المنطقي الضيق الذي أوضحناه قبل وإنما نعني به المفهوم الواسع، ليشمل القواعد الاطرادية، والقواعد الأغلبية¹¹²، حتى يكون التعريف، جامعاً مانعاً، وواضحاً لا احتمال فيه، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

هذا معنى القاعدة بصفة مطلقة؛ لكن ما معنى القاعدة العمرانية؟!!

وللجواب عن ذلك كان لا بد من تعريف العمران أولاً، ليكون تعريفي للقاعدة العمرانية تعريفاً إضافياً، ثم بعده نخلص إلى تعريفها اللقي..

وبعد دراستي لمفهوم الفقه والقاعدة، وقد أطلت النفس في ذلك لأهميته، أنتقل إلى مصطلح العمران إذ هو المكوّن الأساس لهذه الأطروحة وعليه مدارها، لذا كان لا بد من تجليله وسبر أغواره؛ فما معنى العمران؟! وما دلالاته المصطلحية؟!

والجواب عن ذلك جواباً شافياً يفرض علينا تخصيص المبحث القادم له؛ وهو ما نتنقل إليه مستعينين بالعلي القدير..

¹¹² - وإن كانت القواعد العمرانية يغلب عليها طابع الاطراد كما سيأتي عند دراسة نماذج منها في الباب الثاني من هذه

الأطروحة، بإذن الله تعالى..

المبحث الثاني: العمران، المفهوم والتداول التاريخي

يعتبر مصطلح العمران أهم مصطلح مكوّن لهذه الأطروحة، لذا وجب الاهتمام به من حيث حمولته المفاهيمية، وهو ما يُحتّم علينا دراسته عبر مطلبين اثنين تتخللهما مسائل متنوعة، علّنا نخلص إلى بيان حقيقته بما يتناسب مع رؤيتنا التي رسمناها في هذه الأطروحة.

وهذان المطلبان يأتيان كما يلي:

- المطلب الأول: مفهوم العمران اللغوي
- المطلب الثاني: العمران في الاصطلاح حسب السياق التاريخي

المطلب الأول: مفهوم العمران اللغوي

وجواباً على سؤالنا السابق يقتضي منا ويلزم النظر في مصطلح العمران من زاويتين اثنتين، إحداهما لغوية والأخرى اصطلاحية؛ ولنبدأ من الأولى:

العمران لغة:

يقول ابن فارس في معجمه: (عَمَرَ) الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى بَقَاءٍ وَامْتِدَادٍ زَمَانٍ، وَالْآخَرُ عَلَى شَيْءٍ يَغْلُو، مِنْ صَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ. فَالْأَوَّلُ الْعُمُرُ وَهُوَ الْحَيَاةُ، وَهُوَ الْعُمُرُ أَيْضًا. وَقَوْلُ الْعَرَبِ: لَعَمْرُكَ، يَحْلِفُ بِعُمُرِهِ أَيْ حَيَاتِهِ، (...) وَيُقَالُ: عَمَرَ النَّاسُ: طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ.

وَمِنْ الْبَابِ عِمَارَةُ الْأَرْضِ، يُقَالُ عَمَرَ النَّاسُ الْأَرْضَ عِمَارَةً، وَهُمْ يَعْمُرُونَهَا، وَهِيَ عَامِرَةٌ مَعْمُورَةٌ (...). وَالْإِسْمُ وَالْمَصْدَرُ الْعُمُرَانُ: وَاسْتَعْمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - النَّاسَ فِي الْأَرْضِ لِيَعْمُرُوهَا. وَالْبَابُ كُلُّهُ يُؤَوَّلُ إِلَى هَذَا.

وَأَمَّا الْآخَرُ فَالْعَوْمَرَةُ: الصِّيَاحُ وَالْجَلْبَةُ. وَيُقَالُ: اعْتَمَرَ الرَّجُلُ، إِذَا أَهْلًا بِعُمُرَتِهِ، وَذَلِكَ رَفَعَهُ صَوْتَهُ بِالتَّلْيِيَةِ لِلْعُمَرَةِ (...). وَمُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ الْحَيُّ الْعَظِيمُ يُسَمَّى عِمَارَةً لِمَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ جَلْبَةٍ وَصِيَّاحٍ..¹¹³

وقال صاحب الصحاح: "(...)، وأَعْمَرْتُهُ داراً أو أرضاً أو إبلاً، إذا أعطيته إياها وقلت: هي لك عُمُرِي أو عُمْرُكَ، فإذا مَتَّ رَجَعْتُ إِلَيَّ؛ قال لبيد: وما البرُّ إلا مُضْمَرَاتُ من التَّقَى * وما المالُ إلا مُعْمَرَاتُ ودَائِعُ - والاسم العُمَرَى..¹¹⁴

ولآبن منظور إضافات في لسانه لهذا المفهوم تمثل محددات رئيسة ومفاتيح لهذا المصطلح، إذ يقول رحمه الله: "(...) وَيُقَالُ: عَمَرَ اللَّهُ بِكَ مَنْزِلَكَ يَعْمُرُهُ عِمَارَةٌ وَأَعْمَرَهُ

¹¹³ - ن: "معجم مقاييس اللغة"، مصدر سابق؛ (4/ 140 وما بعدها) بتصرف

¹¹⁴ - ن: "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)، تحقيق:

أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين؛ بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ / 1987م، (2/ 756)، وما بعدها

جعلله أهلاً. وَمَكَانٌ عَامِرٌ: ذُو عِمَارَةٍ. (...) وَأَعْمَرْتُ الْأَرْضَ: وَجَدْتُهَا عَامِرَةً (...). وَعَمَرْتُ الْحَرَابَ أَعْمَرَهُ عِمَارَةً، فَهُوَ عَامِرٌ أَيْ مَعْمُورٌ، وَيُقَالُ لِسَاكِنِ الدَّارِ: عَامِرٌ، وَالْجُمُعُ عُمَارٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ؛ جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ بِإِزَاءِ الْكَعْبَةِ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَخْرُجُونَ مِنْهُ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ. وَالْمَعْمُورُ: الْمَخْدُومُ. وَعَمَرْتُ رَبِّي وَحَجَجْتُهُ أَيْ خَدَمْتُهُ، وَأَعْمَرَهُ الْمَكَانَ وَاسْتَعْمَرَهُ فِيهِ: جَعَلَهُ يَعْمُرُهُ؛ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، أَيْ أَذِنَ لَكُمْ فِي عِمَارَتِهَا وَاسْتِخْرَاجِ قَوْمِكُمْ مِنْهَا وَجَعَلَكُمْ عُمَارَهَا. وَالْمَعْمَرُ: الْمَنْزِلُ الْوَاسِعُ مِنْ جِهَةِ الْمَاءِ وَالْكَلِ الْالَّذِي يُقَامُ فِيهِ؛ (...) وَالْعِمَارَةُ: مَا يُعْمَرُ بِهِ الْمَكَانُ.. وَالْعُمَرَةُ: طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (...) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمَرَةَ لِلَّهِ، (...) وَقِيلَ: الْعُمَرُ هَاهُنَا الدِّينُ؛ عَمَرَ اللَّهُ إِذَا عَبْدَهُ، وَعَمَرَ فُلَانٌ رُكْعَتَيْنِ إِذَا صَلَّاهُمَا، وَهُوَ يَعْمُرُ رَبَّهُ أَيْ يُصَلِّي وَيُصُومُ. (...). يُقَالُ رَجُلٌ عَمَّارٌ إِذَا كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ كَثِيرَ الصِّيَامِ. وَرَجُلٌ عَمَّارٌ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْإِيمَانِ الثَّابِتُ فِي أَمْرِ التَّخِينِ الْوَرَعِ؛ (...) قَالَ: وَعَمَّارٌ الْمُجْتَمِعُ الْأَمْرَ لِلْجَمَاعَةِ الْحَدِيثُ عَلَى السُّلْطَانِ، مَأْخُودٌ مِنَ الْعِمَارَةِ، وَهِيَ الْعِمَامَةُ، وَعَمَّارٌ مَأْخُودٌ مِنَ الْعَمْرِ، وَهُوَ الْبَقَاءُ، فَيَكُونُ بَاقِيًا فِي إِيْمَانِهِ وَطَاعَتِهِ وَقَائِمًا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ. قَالَ: وَعَمَّارٌ: الرَّجُلُ يَجْمَعُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَأَصْحَابَهُ عَلَى أَدَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْقِيَامِ بِسُنَّتِهِ.. 115

إذن زبدة الكلام مما سبق أن مادة (ع.م.ر) تدور حول معان عدة أهمها:

- ✓ الحياة والزمن، يُقَالُ قَدْ طَالَ عَمْرُهُ وَعُمُرُهُ، أَيْ حَيَاتُهُ..
- ✓ وَالْعِمَارَةُ: مَا يُعْمَرُ بِهِ الْمَكَانُ مِنْ غَرْسٍ وَبِنَاءٍ وَكَائِنْ حَيٍّ، وَمِنْهُ عِمَارَةُ الْأَرْضِ وَكَذَا الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ..
- ✓ وَالْعَوْمَرَةُ: الصِّيَاخُ وَالْجَلْبَةُ.
- ✓ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، تَقُولُ: عَمَرَ رَبَّهُ عَبْدُهُ، وَرَجُلٌ عَمَّارٌ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْإِيمَانِ الثَّابِتُ فِي أَمْرِ التَّخِينِ الْوَرَعِ، وَمِنْهُ الْعُمَرَةُ..

- ✓ العُمري: وهي نوع من الهبة والعطية تعطى مدة حياة المعطي أو المعطى إليه...
- ✓ اجتماع الناس فينشئون مجتمعا قائما بذاته، له قوانينه وأسسها التي يقوم بها نظامه، ومنه القبيلة والعشيرة، هذا هو العمران البشري الذي قصده ابن خلدون.. ولذا قيل العِمارة: هُوَ الْحَيُّ الْعَظِيمُ الَّذِي يَقُومُ بِنَفْسِهِ..

وأكتفي بهذا القدر من البيان اللغوي لأننتقل إلى المعنى الاصطلاحي للعمران، والذي يمكن تجليته من خلال القرآن والسنة إذ استقرأ هذا المصطلح من خلال نصوصهما يلقى الضوء أكثر على حملته المفاهيمية كلها كما وردت في اللسان العربي كما بينت قبل.. ومن أجل تحقيق ذلك نخصص المطلب الثاني للمعنى الاصطلاحي في الصفحة الموالية.

المطلب الثاني: العمران في الاصطلاح حسب السياق التاريخي

من المعلوم لكل دارس أنّ لفظ (العمران) ليس مفهوما بسيطا فيمكن معالجته ببسر وبساطة، بل هو مفهوم مركب من مفاهيم عديدة يُكمل بعضها بعضا ويشد بعضها في بعض، إذ تتداخل فيما بينها لتمثّل حقلا دلاليا تترابط معانيه وتتكامل فيما بينها، ومن ثمّ كان تحديد هذا المفهوم من الأهمية والصعوبة - أيضا بمكان - وكثير ممّن حاولوا تعريفه لم يُعطوه ما يستحقّه من الجمع والمنع، وهو ما يكون من عيوب التعريف كما قرّر ذلك المناطقة، إذ من شروط التعريف أن يكون مطردا منعكسا، أي جامعا كل أفراد المعرّف مانعا دخول غيره فيه، وهو ما أشار إليه الأخضري في سلّمه: ¹¹⁶

وشرط كلّ أن يُرى مطردا مُنعكسا وظاهرا لا أبعدا

لأجل ذلك كان لابد من دراسة هذا المفهوم عبر سياقه التاريخي الذي عرف تحولا كبيرا، وهو ما سنعرّج عليه عبر المسائل الآتية

المسألة الأولى: العمران في السياق القرآني

وليكن البدء من القرآن الكريم، أصل الأصول ومصدر الوصول، فمن خلال سياقاته واستعمالاته لهذا اللفظ يمكن تجلية مفهومه واستكناه حقيقته؛ فقد جاءت مادة عَمَرَ في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة، وليس خمسا وعشرين، أو سبعا وثلاثين كما ذكر بعضهم ¹¹⁷..

¹¹⁶ - ن: "شرح السلم المنورق" القويسني؛ مرجع سابق، ص: 29 ،

¹¹⁷ . ن: "منظومة القيم العليا" للدكتور فتحي حسن ملكاوي أردني من مواليد 1943م، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي . فيرجينيا . ط: 1 سنة: 1434هـ / 2013م. ص: 128.

و "علم العمران الخلدوني" لصالح بن طاهر مشوش الجزائري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا؛ ط: 1؛ 1433هـ/2012م؛ ص: 135،

و "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث . القاهرة . طبعة سنة 1422هـ / 2001م

ثلاث منها جاءت على صيغة اسم علم "عمران"، المتلوة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹¹⁸، وقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾¹¹⁹، وقوله عز من قائل: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكِتَبْنَاهُ﴾¹²⁰؛ ويمكن أن نقول بناء على مذهب ابن الأعرابي¹²¹ الذي يقول أن الأسماء كلها معللة¹²²؛ أن اسم عمران يدل على صلاح صاحبه و عمران قلبه بالإيمان و معرفة الواحد الديان، ومما يؤكد هذا اصطفاء الله له، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹²³، والله جل جلاله لا يختار ويصطفى إلا الصالحين، إذ الصلاح سمة العمرانيين والربانيين ..

وجاءت مرتين اثنتين على صيغة العمرة النسك المعروف، وهي زيارة المسجد الحرام

118 - آل عمران: 33

119 - آل عمران: 35

120 - التحريم: 12

121 - ابن الأعرابي هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي، وهو إمام لغة ورواية وناسب علامة باللغة، له مصنفات أدبية كثيرة، ولد في 150 هـ الموافق 767 ومات بسامراء في 13 شعبان 231 هـ الموافق 845، يعد الأعرابي من أعلام أهل الكوفة وكان أحول، أبوه مولى للعباس بن محمد بن علي الهاشمي، قال ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مئة إنسان وكان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب ولزمته بضعة عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط ولقد أملى على الناس ما يحمل على إجمال ولم ير أحد في علم الشعر أغزر منه. (ن: المكتبة الشاملة ابن الأعرابي أبو عبد الله)

122 - يقول ابن الأعرابي: (الأسماء كلها لعل، خصت العرب ما خصت منها، من العلل ما نعلمه ومنها ما نجهله..). (ن: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م؛ (1 / 399)

123 - آل عمران: 33

العامر بالعابدين والمعتمرين، أي الذين عمروا المسجد الحرام عبادة وذكرًا واعتكافًا؛ قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.. إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِمَّنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾¹²⁴؛ وجاءت في ثلاث متعلقة بما تعمر به بيوت الله بناء وعبادة وعلمًا.. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(٤٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ -أَمَّنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^(٤٨) أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ -أَمَّنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ¹²⁵؛ كما جاءت مرة بذكر البيت المعمور، وهو البيت الذي تعمره الملائكة تسبيحًا وتقديسًا وعبادة في السماء فقال تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾¹²⁶، وجاءت مرتين تفيد الإقامة في الأرض واستثمارها واستدرار خيراتها وكل ما يؤدي إلى إنشاء حضارة قوية، وعمران عظيم؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾¹²⁷؛ وهذه آية مؤطرة لطبيعة العمران وموجهة للإنسان المستعمر؛ إذ العمران لا يكون عمرانًا على وجه الحقيقة إلا إذا ارتبط بالبينات التي جاء بها رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه،

124 - البقرة: 196

125 - التوبة: 17، 19

126 - الطور: 4

127 - الروم: 11

وعلى رأسها توحيد الله فقد كان كل رسول يدعو قومه قائلاً : ﴿ يَفْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، فإذا تنكّب هذا الإنسان المستعمر عن بينات الله آل عمرانه إلى يباب وخراب، فكان بذلك من الظالمين البائدين الخاسرين...

وجاءت مرة تشير إلى طلب عمران الأرض في آية تمثل الأصل المركزي في هذا الموضوع وهي قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْبِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾¹²⁸؛ ومعنى (استعمركم) فيها أي: جعلكم عمّارها أو طلب منكم أن تعمروها، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾¹²⁹؛ واستعمار الإنسان في الأرض - من لدن الخالق جل جلاله - يعني: تفويضه لعمارها بإصلاح حالها لتصير قابلة للانتفاع بها¹³⁰؛ ويستفاد منه أن الإنسان مستخلف في الأرض ومكلف بعمارها وفق شرع الله، وعلى منهاج رسل الله، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين؛ واستخلاف الإنسان في الأرض تشريف وتكليف له بتحمّل الأمانة العظمى، التي لم تستطع السماوات والأرض حملها، لذا كان الأحق بالاستخلاف هم المؤمنون الصالحون المصلحون، تبعاً لسنة الله في الأمم، فكلما أهلك الله أمة كافرة طاغية، أعقبها بأمة المؤمنين خلائف في الأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْفُرُوزَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾¹³¹!!

128- هود: 61

129 - الأنعام: 165

130 - ن: " الجامع لأحكام القرآن " (مثلاً)، لأبي عبد الله القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م

131 - يونس: 13

إن آية الروم السالفة الذكر هي الآية المؤطرة لهذا المفهوم والمحددة له والمجلية لأركانه¹³²؛ إذ ذكرت أركانه الأربعة، ثلاثة منها تصريحاً، أولها وأهمها المستعمر . أي الذي طُلب منه العمران - أو المعمر، وهو الإنسان القائم بفعل العمران.. وهو ما دل عليه كاف الخطاب وميم الجمع في كلمة (استعمركم)؛ ثانيها: الاستعمار، وهو فعل العمران.. المستوحى من فعل الطلب (استعمر)؛ ثالثها: مسرح العمران وفضاؤه وهو الأرض وما يتعلق بها، وقد جاء ذكرها واضحاً في الآية؛ أما الركن الرابع فقد أشارت إليه الآية تلميحاً لا تصريحاً، وهو الوعاء أو الظرف الزماني لفعل وعملية العمران، وقد صرّحت به آيات كثيرة، بل أكثر الآيات¹³³ التي ذُكرت فيها المادة تضمنت الحديث عن هذا الركن - الزمن أعني - وهذا ما يوضح مركزية وأهمية العامل الزمني للفعل العمراني¹³⁴؛ وبذلك كانت أركان العمران

¹³² - من خلال استقراي لهذا الموضوع وما يتعلق به من مباحث بدا لي واضحاً أن أركان العمران التي يمكن أن يقوم عليها وتتكون منها حقيقته هي هذه الأربعة: الإنسان المستعمر، وفعل العمران أو التعمير، ومحل العمران وهو الأرض، وزمان العمران وهو العمر؛ وسأتحدث عن هذه الأركان بالتفصيل في المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذا الباب

¹³³ - وهي 14 آية من مجموع 27 آية، بمعنى أكثر من نصف الآيات، وهو ما يدل على دور الزمن الرئيس في إنشاء العمران، وقد جاءت على الشكل الآتي:

جاءت مرتين من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَيْ يُعَمَّرُ﴾ ، ومرة من يونس ، وهي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، و مرة من الحجر ، وهي قوله عز وجل: ﴿لِعَمْرِكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ومرة من النحل وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ومرة من الأنبياء وهي قوله تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ومرة من الحج ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ومرة من الشعراء وهي قوله تعالى ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ومرة من القصص ، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وجاءت 4 مرات من سورة فاطر وهي قوله تعالى : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ ، ومرة من سورة يس ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؛ فلاحظ أن جميع هذه السياقات ذُكرت فيها مادة العمران بمفهومها الزمني وهو العمر، وهو ركن ضروري وحتمي من أركان العمران، إذ لا وجود للفرد ومنجزاته إلا بواسطة العامل الزمني أو ما سماه القرآن بالعمر، وكذا تحقيق المنجزات الجماعية وبناء المشاريع الحضارية والعمرانية وتكوين الشخصية الفكرية والروحية والإيمانية لا بد له من إطار عمري وزماني، ومن ثم كانت أكثر الآيات القرآنية التي ذُكرت فيها مادة العمران ذات دلالة زمانية عُمرية!!

¹³⁴ - سأفصل القول إن شاء الله تعالى عن هذا الركن في مواطن من هذه الأطروحة حسب المقام والحاجة والسياق..

أربعة، وقد ذكر مالك بن نبي أنّ عناصر الحضارة¹³⁵ التي تتكون منها ثلاثة، وهي: الإنسان والتراب والوقت، مبيّناً في الوقت ذاته أن هذه العناصر الثلاث لا تُنتج بالضرورة حضارة إلا إذا توفرت على طاقة روحية يتم بها تفعيل تلك العناصر¹³⁶؛ وهو ما أقرّه ووافق عليه الدكتور حسن ملكاوي¹³⁷؛ وفي نظري أن الطاقة الروحية أو ما نسميه الجانب الإيماني لا بد منه إن كان يقصد الحضارة البناء الصحيحة، كالحضارة الإسلامية التي أشرقت شمسها في أصقاع البلاد في العهد السالف، أما الحضارة المادية البحتة فلقد وجدت دون وجود الجانب الإيماني كالحضارات الإلحادية التي وجدت عبر التاريخ الإنساني؛ والحضارة الغربية المعاصرة قريبة من هذا إن لم تكن كذلك على التمام والكمال، لأن الجانب الإيماني عندها اليوم صار حبيس الكنائس والأديرة معزولاً عن الحياة الاجتماعية للناس وعمرانهم، وتلك هي النظرة العلمانية السائدة في الحضارة الغربية اليوم؛

¹³⁵ - الحضارة اختلف العلماء في مفهومها نظراً لاختلافهم في المنطلقات الفكرية، وقد زعم بعضهم وخاصة كثير ممن ترجموا مقدمة ابن خلدون أنها مرادفة للعمران؛ لكن فيما يبدو لي - والله أعلم - أن هذا الأخير - كما سأبين بإذن العلي القدير - يشمل الجانب الروحي والجانب المادي، بل جانبه الروحي هو الأصل والأساس، وإنما المادي فرع عنه وتابع له، بينما الحضارة في مفهوم أغلب من تناولوها يغلب عليها الجانب المادي المحسوس، وبناء على هذا التوجّه يصح أن نسمي ما وصل إليه الغرب حضارة دون تسميته عمرانا، إذ العمران يمتاز بخاصية الصلاح والإصلاح، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى يمكن أن أقول أن بينهما خصوص وعموم مطلق، كما يقول المناطقة، فكل عمران حضارة ولا عكس، فهو أخصّ من تلك، إذ الخاص ما ازداد قيداً وهو العمران هنا، الذي قيّدناه بالصلاح، والعام ما ازداد فرداً وهو الحضارة، فقد تكون الحضارة فيها من الفساد ما فيها، وفيها من الجنوح ما ينتج هلاكاً ودماراً، ولا أدلّ على ذلك ما وصلت إليه الحضارة الغربية من فساد أخلاقي وضياع روحي وترف فظيع، حتى بدت خراباً ويباباً أخلاقياً مدقراً؛ ومن ثمّ إذا ذكرت الحضارة تقيّد، فيقال الحضارة الإسلامية، أو الحضارة الغربية .. أما العمران فلا يكون عمرانا بالمفهوم القرآني الحقيقي إلا العمران الإسلامي الإيماني، وما يسميه البعض العمران الغربي إنما يكون على سبيل التجوز لا أكثر!! ولذلك كانت دعوة القرآن الكريم دعوة إلى عمران الأرض بمقتضى قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾، وربطه بعبادة الله المنشئ الخالق: ﴿قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾، ولم يدع إلى الحضارة إذ هي - في زعمي - يغلب عليها طابع الترف والطغيان، وهو ما نبّه إليه ابن خلدون في مقدّمته!!

وعلى أية حال سأتناول هذا المصطلح فيما بعد. بمزيد من البيان والإيضاح في المطلب 3، من المبحث 3، من هذا الفصل.

¹³⁶ - ن: "شروط النهضة لمالك بن نبي"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر ط: 1979 م، ص: 44.

¹³⁷ - ن: "منظومة القيم العليا" فتحي حسن ملكاوي، مرجع سابق، ص: 130.

أما العمران الذي أتحدثه عنه في هذا البحث فالجانب الروحي والإيماني لا يكون إلا جزءاً لا يتجزأ منه كما رأينا من خلال استقراء مفهومه، بل إن الجانب الروحي هو قلب العمران النابض وحياته؛ فإن غاب أو عُطِّل فماذا بقي إذن من العمران؟!!

○ العمران والعبادة¹³⁸

وبالعودة إلى الآية التي يمكن اعتبارها تأصيلاً لهذا المفهوم في جوانبه كلها: ﴿وَالْإِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفُومَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾¹³⁹، نلّفي أن هذا الخطاب يقرّر حدثاً مهماً من أحداث البدايات الأولى للوجود البشري، كما يُبرز السياق الذي ورد فيه - وهو سياق دعوة الأنبياء إلى توحيد الله تعالى في هذه السورة - أهمية الفعل المشار إليه (الاستعمار)، وهو ما يجسّد وظيفة الإنسان المستعمر، ومكانته المركزية في القيام بها، وقد جاءت الآية في صورة خطاب حجاجي يربط بين الأمر بعبادة الله عزّ وجل، والأمر بعمران الأرض، وهو ما يُفضي في آخر المطاف إلى أن عبادة الله تعالى والعمران يرتبطان بواسطة التكليف الإلهي؛ بل سبق في المفهوم اللغوي للعمران أن من معانيه العبادة، كما مرّ بنا من خلال كلام ابن منظور في لسانه.¹⁴⁰

إذن (فالعمران) المؤسّس والنافع يتضمن العبادة الموحّدة إن لم يكن هو هي!! ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾؛ ومما يؤكّد هذا، تفسير الإمام القرطبي حيث قال في

138 - سأخصّص مطلباً للحديث عن العلاقة بين العبادة والعمران ضمن المبحث الثالث من

هذا الفصل، بإذن الله تعالى.

139 - هود: 60

140 - ن: "لسان العرب" مرجع سابق؛ (4/ 605) "وَقِيلَ: الْعَمْرُ هَاهُنَا الدِّينُ؛ عَمَرَ اللَّهُ إِذَا عَبَدَهُ، وَعَمَرَ فَلَانٌ رَّكَعَتَيْنِ

إِذَا صَلَّاهُمَا، وَهُوَ يَعْمُرُ رَبَّهُ أَيُّ يُصَلِّي وَيُصُومُ. (...); يُقَالُ رَجُلٌ عَمَّارٌ إِذَا كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ كَثِيرَ الصِّيَامِ. وَرَجُلٌ عَمَّارٌ، وَهُوَ

الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْإِيمَانِ الثَّابِتُ فِي أَمْرِهِ التَّحِيُّنُ الْوَرَعَ.."

بيانه لمعنى (استعمركم فيها) أي " خلقكم لعمارته"¹⁴¹؛ ومما هو معلوم أن الله خلق الخلق لعبادته، وهي الغاية التي خلق من أجلها هذا الذي به أنيط فعل العمران، أقصد الإنسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹⁴²؛ فتكون العمارة من خلال كلام الإمام القرطبي مجتمعة مع العبادة في تحقيق غاية الخلق؛ وهو ما أوكد عليه وأؤمن به، وسأفصل الكلام حوله في ثنايا هذا البحث بإذن الله تعالى¹⁴³..

إن صفة العبودية، صفة بدهية نشأت طبيعيا من فعل العمران، فهي الأصل الذي كان عليه المستعمر (الإنسان) لحظة فعل الاستعمار الأول، وأن ما وقع من انحراف بعد ذلك هو ما استدعى التذكير الذي جاء على لسان نبي الله صالح عليه السلام لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾¹⁴⁴؛ إن الآية تذكير بالعبودية باعتبارها أصلا، عبر التذكير بالأصل الأول لاستعمار الله للإنسان في الأرض، فهما كانا متلازمين في الأصل، وذلك ما ينبغي أن يدوم عليه الحال لأنه الحال الطبيعي والأصلي؛ ولهذا فسر القرطبي ما ورد في الآية مباشرة بعد الحديث عن العبادة والاستعمار، أي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾، بقوله "أي ارجعوا إلى عبادته"¹⁴⁵؛ والرجوع من دون شك عودة إلى ما كان، ولم يكن شيء تعرفه ثمود قبل مجيء صالح عليه السلام غير عبادة الأصنام فتعين أن المقصود بالعودة إنما هي عودة أهل ثمود إلى ما كان عليه المستعمرون الأولون في الأرض من عبادة الله؛ فلا عمران إذن من دون عبادة، وأي حال

141 - ن: "الجامع لأحكام القرآن" مصدر سابق (56/9)

142 - الذاريات: 56

143 - سبق أن ذكرت بأنني إن شاء الله سأخصص مطلباً لبيان العلاقة بين العبادة والعمران ضمن المبحث الثالث من هذا الفصل.

144 - هود: 60

145 - ن: "الجامع لأحكام القرآن" (58/9)؛ مرجع سابق

يتجسد فيها خلاف ذلك إنما هي حال انحراف إلى الوصف المقابل للعمران وهي الخراب واليباب!!

إذا ثبت هذا وهو كذلك لا ريب فيه، تقرر أنه لا عمران من دون عبادة وإيمان، وهو منطوق الآية السالفة الذكر، ويمكن أن نخلص إلى القول أن العمران له شقان: روحي وهو الأساس والأصل والمقدمة، والثاني مادي وهو فرع عن الأول ونتيجة له..

○ علاقة العمران بمقاصد الوجود

ولإدراك مفهوم العمران بأبعاده وظلاله المختلفة كان لابد من استحضار مقصد أساس من مقاصد وجود هذا الإنسان المستعمر، إذ حركته في هذه الحياة مؤطرة بثلاثة مقاصد ذكرها الراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة، حيث قال: "الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء: عمارة الأرض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره؛ وعبادته المذكورة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته، في أوامره ونواهيه؛ وخلافته المذكورة في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِقَكُمْ فِي﴾ ¹⁴⁶، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة، باستعمال مكارم الشريعة؛ ومكارم الشريعة هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم، والإحسان والفضل؛ والقصد منها: أن يبلغ بذلك إلى جنة المأوى، وجوار رب العزة تبارك وتعالى" ¹⁴⁷، ومن تأمل هذه المفاهيم الثلاث - الخلافة والعبادة والعمران أقصد - يصعب ولن أبعد الشقة إن قلت يستحيل الفصل بينها من حيث مجالاتها ومتعلقاتها - لا من حيث مفاهيمها الظاهرة فهي مختلفة طبعاً - إذ هي

¹⁴⁶ - الأعراف: 129

¹⁴⁷ - ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، تحقيق أبو زيد العجمي، ط: 1 نشر دار السلام، القاهرة، 2007م، ص: 82

متراطة فيما بينها ومتداخلة؛ وذلك أن الخالق جل جلاله جعل الإنسان خليفة في الأرض فكلّفه بعمارها - ماديا ومعنويا - وتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان المتجسّدة في العبادة بمفهومها الشامل الكامل؛ وهو ما سأحدّث عنه بمزيد من التفصيل في حينه¹⁴⁸

المسألة الثانية: العمران في السياقات الحديثة

ولزيادة هذا المفهوم إيضاحا وبيانا نقوم بإلقاء نظرة سريعة لسياقاته في الحديث كما جاء في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي¹⁴⁹؛ فأول مفهوم يحدده السياق لهذا المصطلح أن العمران ضد الخراب، فقد روى الإمام مالك في موطئه أن أبا بكر قال ليزيد بن أبي سفيان حين بعث الجيوش إلى الشام، وكان يزيد أمير ربع من تلك الأرباع: (إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ ، فَذَرَهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا، فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا ، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمَرًا ، وَلَا تُحَرِّبَنَّ عَامِرًا ، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً ، وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَا كَلَّةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُعْرِقَنَّه ، وَلَا تَغْلُلَنَّ ، وَلَا تَجْنُبَنَّ)¹⁵⁰.

وقد يراد به الحياة أو الزمن، كما جاء صحيح البخاري في باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، ونصه: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :-

148 - سأحرر هذه القضية بإذن الله . في المسألة الرابعة من المطلب 2؛ في المبحث 3؛ من الفصل 1؛ من هذا

الباب ..

149 - ن: "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة وموطأ مالك ومسنند أحمد ومسنند الدارمي"، ألفه لفييف من المستشرقين، ونشره المستشرق الألماني د: فنسك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.. الناشر: مكتبة بريل، سنة: 1936

150 - ن: "الموطأ" للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ)، رواية الليثي، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، نشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م، كتاب الجهاد، باب التَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ. رقم الحديث 949

(يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَتَانِ: حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمَرِ)¹⁵¹؛ كما يأتي هذا اللفظ ويراد به المدة الطويلة من الزمن، كما في حديث أبي الشعثاء: (عن أبي الشعثاء قال: خرجت حاجا فجئت حتى دخلت البيت، فلما كنت بين السارين مضيت حتى لزقت بالحائط، فجاء ابن عمر رضي الله عنهما يصلي إلى جنبي فصلى أربعاً، فلما صلى قلت له: أين صلى رسول الله ﷺ من البيت؟ قال: أخبرني أسامة بن زيد أنه صلى هاهنا، فقلت: كم صلى؟ فقال: على هذا أجدني ألوم نفسي، إني مكثت معه عمراً لم أسأله كم صلى، ثم حججت من العام المقبل فجئت حتى قمت في مقامه، فجاء ابن الزبير حتى قام إلى جنبي، ولم يزل يزحمني حتى أخرجني منه، ثم صلى فيه أربعاً)¹⁵²

وقد يطلق ويراد به عمران الروح للجسد كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، وفيه أنه ﷺ قال: (ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمينه).¹⁵³

وقد يطلق ويراد به عمران القلوب والبيوت بالقرآن الكريم، وهذه إضافة جيدة ومهمة في توجيه هذا المفهوم الذي يحصره البعض في الجانب المادي، بل إنني أزعم أنّ هذا هو أصل العمران - عمران القلب أعني - وسأجلي هذا الأمر بإذن الله تعالى أثناء حديثي عن أنواع العمران¹⁵⁴؛ قلت قد يعني هذا اللفظ عمران القلب والبيت بكتاب الله تعالى، كما في سنن الدارمي، عن قتادة أنه كان يقول: (اعمروا به قلوبكم، واعمروا به بيوتكم؛ قال

151 - متفق عليه: البخاري، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، برقم 6421، ومسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، برقم 1047.

152 - ن: "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون؛ إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م؛ رقم الحديث: 21780

153 - "صحيح مسلم" كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، حديث رقم: 2872

154 - وذلك في المبحث الأول من الفصل الثاني، من هذا الباب..

أُراه يعني القرآن¹⁵⁵

وقد تأتي هذه المادة في الحديث دالة على الطريق المأهول العامر بالمارة، كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: (أن رجلا قال يا رسول الله ما نجد في السبيل العامر من اللقطة قال عَرَفَها حولا فإن جاء صاحبها وإلا فهي لك، قال يا رسول الله ما يوجد في الخراب العادي، قال " فيه وفي الركاز الخمس)¹⁵⁶

وقد تأتي لتدل على استصلاح الأرض وزراعتها وغرسها كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من عمّر أرضا ليست لأحد فهو أحقُّ بها)¹⁵⁷..

وقد تأتي بمعنى الهبة والعطية، كما في حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيما رجل أعمار عمرى له ولعقبه فإنها للذي يُعطاهها لا ترجع إلى الذي

¹⁵⁵ - رقم الحديث: 3385 (حديث مقطوع)، باب تعاقد القرآن، (4/ 2106)؛ مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: 255هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 2000 م

¹⁵⁶ - رواه أبو داود والنسائي، وأحمد واللفظ له، ن: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الرياض، دار الأفكار، 1994م، رقم الحديث: 6891

¹⁵⁷ - هذا الحديث مروي بطرق كثيرة وبألفاظ متعددة تبلغ حد التواتر المعنوي، فقد روي من حديث عائشة؛ ومن حديث سعيد بن زيد؛ ومن حديث جابر؛ ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص؛ وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم

فحديث عائشة أخرجه البخاري في صحيحه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أعمار أرضا ليست لأحد ، فهو أحق)؛ وأما حديث سعيد بن زيد : فأخرجه أبو داود في " الخراج "، والترمذي في " الأحكام " ، والنسائي في " الموات " وفيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أحيأ أرضا ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق)؛ وكذلك رواه مالك في " الموطأ في كتاب الأقضية "؛ وأما حديث جابر: أخرجه الترمذي ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أحيأ أرضا ميتة فهي له) ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح ... وفي لفظ للنسائي بهذا الإسناد : " من أحيأ أرضا ميتة فله فيها أجر ، وما أكلت العافية منها، فهو له صدقة " ..

أعطائها أبداً لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث¹⁵⁸

ويأتي هذا الجذر بمعنى العمرة وهي النسك المعروف، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسل صلى الله عليه وسلم قال: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)¹⁵⁹

وقد جاء دالا على البيت المعمور الذي تعمره الملائكة في السماء السابعة، كما في حديث الإسراء والمعراج وهو حديث طويل متفق عليه عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فأتينا السماء السابعة فقليل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل من معك؟! قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟! مرحباً ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال مرحباً بك من ابنِ وني، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)¹⁶⁰

وقد تأتي بمعنى الحيات التي تسكن البيوت، كما جاء في حديث أبي السائب، قال: (دَخَلْنَا عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ إِذْ سَمِعْنَا تَحْتَ سَرِيرِهِ حَرَكَةً، فَنَظَرْنَا فَإِذَا حَيَّةٌ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ ، وَفِيهِ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ هَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْهَا فَخَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثًا، فَإِنْ ذَهَبَ، وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ ، فَإِنَّهُ

158 - ن: "صحيح البخاري"، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب ما قيل في العمرى والرقى، رقم الحديث: 2482، رواه مسلم، كتاب الهبات، باب العمرى، حديث رقم: 1625..

قال ابن عاصم في منظومته:

هَبَةُ غَلَّةِ الْأُصُولِ الْعُمَرَى بِحُزْرِ الْأَصْلِ حُزُّهَا اسْتَقَرَّ
طول حياة معمرٍ أو مُدَّة معلومة كالعام أو ما بعده

159 - ن: "صحيح البخاري" كتاب العمرة، رقم الحديث: 1773

160 - المصدر السابق، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم الحديث: 3035

كافراً¹⁶¹..

إذن من خلال ورود هذه المادة في مختلف السياقات الحديثية يمكن أن نقول أن هذا المصطلح أخذ نفس الحمولة الدلالية التي أشرنا إليها عند استقراء السياقات القرآنية عدا بعض الإضافات القليلة كذكر عوامر البيوت وهي الحيات، أي أنها تسكن البيوت بناء على أن العمران يأتي بمعنى التساكن كما ذكر ابن خلدون في تعريفه للعمران¹⁶²، مع العلم أن مادة سكن مذكورة في القرآن كما جاء حكاية عن إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾¹⁶³..

وإضافة العمرى بمعنى العطية مدة عمر المعطى له أو المعطى بناء على الخلاف الوارد بين الفقهاء¹⁶⁴؛ كما تمت الإشارة إلى عمران القلوب والبيوت بالقرآن الكريم والذكر الحكيم

¹⁶¹ - ن: "صحيح مسلم"، رقم الحديث: 2236؛ و في حكم قتل الحيات، وخاصة العوامر يقول ابن عبد البر رحمه الله في التمهيد: "قَالَ قَوْمٌ: لَا يَلْزَمُ أَنْ تُؤْذَنَ الْحَيَّاتُ وَلَا تُنَاشَدَنَّ وَلَا يُحْرَجَ عَلَيْهِنَّ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ خَاصَّةً..، وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَدِينَةُ وَغَيْرُهَا فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ، لِأَنَّ مِنَ الْحَيَّاتِ جِنًّا، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُنَّ بِالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا، وَأَنْ يُسَلِّمَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْهُنَّ، قَالَ مَالِكٌ: أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ تُنْذَرَ عَوَامِرُ الْبُيُوتِ بِالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَا تُنْذَرَنَّ فِي الصَّحَارِي. قَالَ ابن عبد البر الأولي أَنْ تُنْذَرَ عَوَامِرُ الْبُيُوتِ كُلِّهَا كَمَا قَالَ مَالِكٌ. وَالْإِنْدَاؤُ أَنْ يَقُولَ الَّذِي يَرَى الْحَيَّةَ فِي بَيْتِهِ: أُخْرِجْ عَلَيْكَ أَيْتُهَا الْحَيَّةُ أَنْ تَظْهَرَ لَنَا أَوْ تُؤْذِنَا " انتهى من " التمهيد " (16/ 263)

و قال أيضا " أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ حَيَّاتِ الصَّحَارِي، صِعَاذًا كُنَّ أَوْ كِبَارًا، أَيَّ نَوْعٍ كَانَ الْحَيَّاتُ " انتهى من " التمهيد " (16/ 28).

¹⁶² - ن: "المقدمة" لابن خلدون، مصدر سابق، (ص: 53).

¹⁶³ - إبراهيم: 37

¹⁶⁴ - "وأما العمرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنها تملك لمنافع الرقبة حياة المعمر مدة عمره، فإن لم يذكر عقبا فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطها أو لورثته، هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك..

صراحة كما في حديث السابق الذكر¹⁶⁵؛ وهذا لعمرى هو العمران الأساس، وهو المنطلق فإنما يكون العمران بالقرآن!!

المسألة الثالثة: العمران في اصطلاح العلماء

أما العمران في مصطلح بعض المفكرين فقد جاءت تعاريفهم في غالبها يغلب عليها طابع التجزيء والتعضية، وليكن البدء من تعريف رائد هذا العلم وهو المفكر العلامة ابن خلدون (في المقدمة) للدلالة على نمط الحياة بوجه عام، جاعلاً إياه إحدى الخواص التي تميّز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، وهو: "التساكن والتنازل في مصر أو حِلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما فيه من طباعهم من التعاون على المعاش"¹⁶⁶..

والعمران عند ابن خلدون إما أن يكون حضرياً أو بدوياً، وفي نظري أن تعريف ابن خلدون ليس جامعاً حيث تناول ما يمكن أن نسميه العمران الاجتماعي فقط، وما يتعلق به من سياسة اقتصاد، ومن ثمّ فإننا نجد ابن خلدون لم يُعرِ العمران الروحيّ الإيمانيّ الاهتمام الكامل مثل ما أولى للعمران الاجتماعي والمادي؛ وليس معنى ذلك أنه حاشا مقدمته من كل ما يتعلق بالجانب الروحي!! أبداً، بل مقدّمته كلّها من بدايتها إلى نهايتها مبنية على النظرة التوحيدية الإسلامية، ولا أدلّ على هذا من كثرة استشاداته سواء من آي

الثاني: أنّها تملك الرقبة ومنافعا وهي هبة مبتولة، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن ابن حي وأحمد بن حنبل وابن شبرمة وأبي عبيد، قالوا من أعمر رجلاً شيئاً حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته، لأنه قد ملك رقبته، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العمرى جائزة" والعمرى لمن وهبت له... "

الثالث: إن قال عمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأول: وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني، وبه قال الزهري وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد روي عن مالك، وهو ظاهر قوله في الموطأ. والمعروف عنه وعن أصحابه أنّها ترجع إلى المعمر، إذا انقرض عقب المعمر، إذا كان المعمر حياً، وإلا فإلى من كان حياً من ورثته، وأولى الناس بميراثه. " (ن: تفسير القرطبي: (57/9)).

¹⁶⁵ - ورد في ص: 80

¹⁶⁶ - ن: "المقدمة" ابن خلدون مصدر سابق؛ ص: 53

القرآن الكريم، أو أحاديث النبي العدنان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وإنما قصدي أنه لم يفصل الكلام عن الجانب الروحي للعمران كما بسط الحديث حول العمران الاجتماعي؛ فتنبه!!

والعمران البشري في القرآن كما استنتجه الباحث الجزائري تومي إسماعيل هو: "إسكان في منطقة معينة لهدف معين يتطور مع الزمان، إلى اجتماع بشري يسوده الأمن ويتوفر على أسباب العيش" ¹⁶⁷

وهذا التعريف بدوره قاصر على الجانب المادي دون الجانب الروحي، كما أنه يقتصر على معنى التساكن.. والعمران بالمفهوم القرآني والنبوي كما وضحت قبل من خلال نصوصهما، وكما هو أيضا في مصادر اللغة العربية شامل للجانب الروحي والثقافي، بل العمران النفسي أو الروحي هو الأصل، وهو المقصود عندي أصالة في هذا البحث، وإن كان الآخر مقصودا أيضا ولكن بالتبع!! إذ أنني أزعّم أن أصل العمران وأساسه هو العمران الروحي التعبدي للفرد أولا ثم للمجتمع والأمة معاً، إذ صلاح الأمة بصلاح أفرادها، وصلاح الفرد بصلاح قلبه، وصلاح القلب إنما يكون بالإيمان والتّعبّد لله سبحانه خالق الأكوان!!

وهذا منطوق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) ¹⁶⁸، ومنطوق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ¹⁶⁹؛ ومن هنا كان لا بد من التركيز على عمران القلوب، إذ هو الأساس والمنطلق لعمران الأبدان والأكوان، هذا ما بدا لي واضحا بعد تأمل ودراسة لهذا الموضوع؛

¹⁶⁷ - في بحثه العمران في ظلال القرآن، تم تحميله من موقع المؤلف

¹⁶⁸ - ن: "صحيح البخاري، الإيمان" (رقم الحديث: 52)، (صحيح مسلم؛ المساقاة، رقم الحديث: 1599)

¹⁶⁹ - الرعد: 28

والله المستعان!!

أما العمران عند الباحث الفلسطيني المرحوم د، أحمد صدقي الدجاني فهو: "التوظيف الإيجابي للمنجزات الحضارية"¹⁷⁰، هذا التعريف أيضا يبدو لي أنه غير دقيق وغير جامع فهو أشبه ما يكون بتعريف للحضارة في جانبها التطبيقي، وقد سبق أن أشرت أن هناك فرق كبير بين مفهوم العمران ومفهوم الحضارة؛ وسأفصل في ذلك أكثر¹⁷¹؛ وإن كان بعض دارسي مقدمة ابن خلدون جعلوا الحضارة مرادفة للعمران¹⁷².

ولا يفوتني - هنا - أن أورد كلاما لفريد الأنصاري رحمه الله في تعريفه للعمران بقوله: "العمران هو بناء الإنسان، بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي"¹⁷³؛ ولا شك أن هذا التعريف جامع للمعنيين معا الروحي والمادي، وهو كذلك!! ولا غرو فالرجل رحمه الله متشبع بثقافة القرآن ومُوجَّهٌ ببوصلة العمران، هدفا ومقصداً!!

وقد جاء في معجم المصطلحات المقاصدية: "العمران مُعَيَّرٌ عن مقصد شرعي يرتبط بمقصد استخلاف الإنسان على الأرض؛ ومعناه تنمية أمور الدنيا ماديا ومعنويا، والعمل

¹⁷⁰ - اقترحه الدكتور أحمد صدقي الدجاني الباحث الفلسطيني رحمه الله، في بحث له بعنوان: مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة، ألقى في المؤتمر الرابع عشر: حول حقيقة الإسلام في عالم متغير، من تنظيم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر مابين 20 و 25 ماي 2002.

¹⁷¹ - سيأتي ذلك مفصلا. بإذن الله تعالى. في المطلب الثالث من المبحث الثالث من هذا الفصل، عند الحديث عن الحضارة وعلاقتها بالعمران

¹⁷² - لقد اعترف العديد من المترجمين لمقدمة ابن خلدون بوجود صعوبات في إيجاد كلمات مرادفة من اللغات الأجنبية للكلمة الأصلية: "العمران"، وكان من بين هؤلاء، دوسلاين (De Slane)، صاحب الترجمة الفرنسية، و روزنتال (Rosenthal) صاحب الترجمة الإنجليزية المشهورة، انظر كتاب: "علم العمران الخلدوني"، مرجع سابق، ص: 126

¹⁷³ - ن: " الفطرية" لفريد الأنصاري؛ منشورات رسالة القرآن، بدون طبعة ص: 209؛

ومن المصادفات الغريبة أن هذا الفقرة قرأتها بعد كتابة هذا المطلب بأشهر، فوجدته تعريفا يؤكد تصوري لهذا الموضوع، ويعضد ما قرّرتّه..

على انتظامها وعدم اختلالها أو خرابها¹⁷⁴؛ وهذا تعريف أيضا تناول العمران بمفهومه الشامل؛ حيث تناول الجانبين معاً الروحي والمادي من العمران.

ولمزيد من توضيح هذا المفهوم أكثر أسوق كلاماً للإمام الماوردي¹⁷⁵ في كتابه الماتع أدب الدنيا والدين حيث يقول: " فإذا قد لزم بما بيناه النظر في أمور الدنيا فوجب ستر أحوالها، والكشف عن جهة انتظامها واختلالها، لنعلم أسباب صلاحها وفسادها، ومواد عمرانها وخرابها، لتنتفي عن أهلها شبه الحيرة، وتنجلي لهم أسباب الحيرة، فيقصّدوا الأمور من أبوابها، ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها، واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما ما ينتظم به أمور جملتها، والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها..¹⁷⁶ إننا نستشف من ثنايا كلامه رؤية شاملة للعمران تتحرك صوب الدوائر المتعددة بدءاً بعمران الإنسان فرداً وجماعة وأمة، روحاً ومادة، قلباً وقالبا، حتى تشمل العمارة الكونية برمّتها، وهو ما يؤكّده - رحمه الله - في موطن آخر إذ يقول: " اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة، ستة أشياء هي قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح¹⁷⁷ "حقاً ما قاله هذا الإمام الهمام!! فعمران الدنيا وصلاحها يحتاج إلى هذه الأشياء

174 - ن: " معجم المصطلحات المقاصدية، تأليف جماعي بإشراف د: أحمد الريسوني، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط: 1، سنة: 1438هـ / 2017م؛ ص: 464.

175 - الماوردي، أبو الحسن (364-450هـ، 974-1058م)؛ علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي. مفكر إسلامي. من وجوه فقهاء الشافعية وإمام في الفقه والأصول والتفسير، وبصير بالعربية. كان من رجال السياسة البارزين في الدولة العباسية وخصوصاً في مرحلتها المتأخرة.

اشتهر الماوردي بكثرة التأليف وغزارة الإنتاج، ولكن لم يصل إلينا من مؤلفاته إلا القليل. ويمكن تصنيف مؤلفاته في مجموعات دينية ولغوية وأدبية وسياسية واجتماعية. ومن أبرزها: أدب الدنيا والدين؛ أعلام النبوة؛ الحاوي الكبير؛ الإقناع وهو مختصر لكتاب الحاوي الكبير... نقلاً عن: الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

176 - ن: "أدب الدنيا والدين" لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: 450هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، تاريخ النشر: 1986م؛ (1 / 132)

177 - نفس المصدر (1 / 133)

التي تمثل ركائز هامة وأساسا محورية لكل عمران شامل لجميع مناحي الحياة؛ وقد بدأ بركيزة الدين إذ هو أساس العمران!! وفيه يقول رحمه الله: "فأما القاعدة الأولى: فهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهرا للسرائر، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس في خلواتها، نصوحا لها في ملماقتها؛ وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها؛ فكأن الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها"¹⁷⁸.

○ استخلاص:

ومما سبق نخلص إلى تعريف لمصطلح العمران جامع مانع يسلم من بعض العيوب التي وقع فيها البعض مما أشرنا إليه قبل!! فنقول:

العمران هو مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية الوجدانية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فردا وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي.

فقولنا: مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية الوجدانية والمادية، لتشمل كل حركة إنسانية روحية وجدانية كانت أو مادية، شعورية قولية أو فعلية.. وهذا ركن أساس من أركان العمران، أي فعل الإنسان المستعمر..

وقولنا: التي ينجزها الإنسان الخليفة، لأن الإنسان هو المكلف بالعمران بمقتضى استخلاف الله له؛ وهذا هو أهم ركن من أركان وأسس العمران..

وقولنا: فردا وجماعة وأمة، هو بيان لشمولية العمران للفرد والجماعة؛ إذ الفرد مكلف بعمران نفسه أولا وإعدادة إعدادا كاملا لِيُسهم في بناء مجتمعه وأمته وإصلاحه، فمن لم يكن صالحا لا يمكن أن يكون مُصلِحا، إذ فاقد الشيء لا يُعطيه!! وهذا مقتضى قوله

¹⁷⁸ - نفس الصدر (1 / 133)

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾¹⁷⁹ فإذا تمّ بناء الأفراد انتقل البناء والإصلاح تلقائياً إلى بناء المجتمع ثم الأمة جمعاء، بل والإنسانية كافة، ولم لا؟! إذ المشكلة تكمن في أنفسنا ﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً فَدَاصَبْتُمْ مِثْلَهَا فُلْتُمْ أَبْنَىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾¹⁸⁰

وقولنا: **على الأرض**، وهذا هو الركن الثالث، وهو مسرح عملية العمران، إذ مناط الخلافة هو الأرض بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾¹⁸¹

وقولنا: **في مدة معينة**، هذا هو الركن الرابع والأخير من أركان العمران، إذ لا بد لأي حركة إنسانية من حيّز زمني وقد مرّ بنا أن أغلب مواضع مادة (ع. م. ر) في القرآن الكريم عبر آية الكريمة جاء بهذا المفهوم..

أما قولنا: **"الإصلاح الحياة الإنسانية"** فهذا قيد لا بد منه فليس كل حركة تصدر من الإنسان تعتبر عمراناً أو تعميراً للأرض، بل لابد من تقييدها بالإصلاح، وإلا كان خراباً وفساداً وبياباً!!

أما قولنا: **"وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي"** فهذا قيد ثان أردت به أن أبيّن من خلاله أن المصلحة لا تكون كذلك إلا إذا كانت وفق شرع الله فهو سبحانه أعلم بالمصالح والمفاسد: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾¹⁸²؛ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ

179 - الرعد: 11

180 - آل عمران: 165

181 - البقرة: 30

182 - الملك: 14

لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾^{١٨٤}

○ استنتاج

ومّا سلفَ نخلص إلى تعريف فقه القاعدة العمرانية تعريفاً إضافياً فنقول:
هي فهم واستيعاب حكم وقانون مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية
الوجدانية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فرداً وجماعة وأمة على الأرض في مدة
معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي..

ومنه نستنتج تعريفاً لقبياً فنقول:

فقه قواعد العمران هو: الفهم المفسّر لأحكام وقوانين وأسس الحركة
البشرية الروحية والمادية، الضاربة في العمق الزماني والشمول المكاني لتحقيق
مهمة الاستخلاف..

¹⁸³ - البقرة: 216

¹⁸⁴ - البقرة: 220

المبحث الثالث: مصطلحات ذات صلة بالعمران

بعد تناولنا لبعض المفاهيم المحورية في الموضوع وعلى رأسها مصطلح "العمران"، ارتأيت أن أتناول - ولو على سبيل الإيجاز - بعض المصطلحات التي لها ارتباط وثيق بالعمران من أجل مزيد من الإيضاح والبيان للموضوع، فانتخبت لذلك ثلاثة منها؛ جاءت على النحو الآتي:

- الاستخلاف
- العبادة
- الحضارة

وهذه المصطلحات الثلاث - وهناك غيرها طبعاً - لها صلة وثيقة بمفهوم العمران، وقد ذكرت - فيما سبق - بعض الإشارات السريعة حول هذه العلاقة؛ وقد آن الأوان لتعميق البحث وتدقيق النظر حول هذه المفاهيم الثلاث لاستخلاص واستنتاج طبيعة العلاقة بين كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاث وبين مفهوم العمران؛ وهذا راجع - كما ذكرت قبل - إلى طبيعة مفهوم "العمران" إذ يتقاطع مع مصطلحات عديدة قوة وضعفاً.. وسأجعل لكل واحد من هذه المصطلحات الثلاث مطلباً خاصاً؛ يكون على النحو الآتي:

- المطلب الأول: الاستخلاف وعلاقته بالعمران
- المطلب الثاني: العبادة وعلاقتها بالعمران
- المطلب الثالث: الحضارة وعلاقتها بالعمران

المطلب الأول: الاستخلاف وعلاقته بالعمران

لقد قدر الله عز وجل بمشيئته أن يكون الإنسان مستخلفاً في الأرض ليقيم عمرائها، فكرّمه وعظمه ورفع من شأنه، وأمر الملائكة أن تسجد له؛ فكانت تلك بداية التقدير له، بوضعه محورا لما سيجري على الأرض من أحداث جسام؛ ولنستمع جميعا إلى هذا البيان القرآني: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾¹⁸⁵؛ هنا بدأت القصة!! واستمرت حلقات مسلسلها، وانطلقت المهمة الشاقّة التي أشفقت منها كثير من المخلوقات التي تبدو - من حيث عظمة الحلقة - أقدر لها من الإنسان، إلا أنه كان ما كان!! ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾¹⁸⁶؛ ومن يومئذٍ والإنسان مستخلفٌ في الأرض، باعتباره سيد المخلوقات، لما أوتي من خصائص أهّلته للقيام بتلك الوظيفة الثقيلة إن هو استرشد بهدايات المستخلف سبحانه وتعالى وفقاً لنواميس الكون الذي كُلف بعمرانه، "فإن الله وهب لهذا الإنسان استعدادا فطريا ساميا، ما يمكنه من حمل الأمانة الكبرى، التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، (...)، والذي برأه بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها، فسخر له جميعها من نبات وحيوان، حتى نصبه مشرفا ومنظّما ومتدخلا في أنماط تسبيحاتها وعباداتها، والذي جعله نموذجا - بمقاييس مصغرة - للإجراءات الإلهية في الكون، ودلالا لإعلان الربوبية المنزهة - فعلا وقولا - على الكائنات، حتى منحه منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة"¹⁸⁷؛ إذن فالخلافة مقام سامٍ لكنّها ذات أعباء ثقيلة لا يجرؤ على حملها إلا الرجال أولو العزم المخلصون!! كما قال المتنبي:

185 - البقرة: 30

186 - الأحزاب: 72

187 - ن: "الكلمات" من كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول؛ الطبعة الأولى، 1992م، ص 94.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ××× وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ××× وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

إنَّ الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض موضوع عميق الجذور، شديد التشعب، له علاقة وطيدة بالعمران الذي تحدّثنا عنه كمفهوم إسلامي أصيل يمتح دلالته من القرآن والسنة ولغة العرب؛ فالإنسان وفقاً للمنظور الإسلامي مستخلفٌ في الأرض لعمارها وعمرانها على أسس وقواعد الاستخلاف؛ فما مفهوم الاستخلاف؟ وما علاقته بالعمران!!؟

المسألة الأولى: مفهوم الاستخلاف

قبل أن نبين طبيعة العلاقة بين الاستخلاف والعمران، لابد من بيان حقيقتيهما - إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره - أما العمران فقد جليّنا مفهومه فيما سبق¹⁸⁸؛ وأما مفهوم الاستخلاف فهذا إبان توضيحه ووقت تجلية حقائقه؛ وهو ما يقتضي إطلاةً عليه من ناحيتين اثنتين: لغوية واصطلاحية.

○ المفهوم اللغوي:

أما تعريفه في اللغة فقد جاء في المعاجم ما ملخصه:
فالاستخلاف جاء من: "خلف فلان فلاناً، إذا كان خليفته، خلف في قومه خلافة، ويقال: خلفت فلاناً، خلف تخليفاً، واستخلفته أنا، أي جعلته خليفتي، والخلافة: الإمارة، واستخلف فلان فلاناً جعله خليفة، والأمانة هي الخليفة"¹⁸⁹؛ قال ابن الأنباري: "الأصل في هذا أنه مأخوذ من (خليف) بغير هاء، على وزن (فعيل) وضعت الهاء

188 - ن: "المبحث الثاني" من هذا الفصل.

189 - ن: "لسان العرب"، مرجع سابق (183/4)، بتصرف.

للمبالغة¹⁹⁰.

"وجلست خلف فلان أي بعده، والخلف: الظهر، والتخلف التأخر، والخلف بالتحريك والسكون كل من يجيء بعد من مضى"¹⁹¹؛ "وأخلف فلان خلف صدق في قومه أي ترك فيهم عقباً، والخالفة: الأمة الخالفة الأمة الباقية، والأمة السالفة لأنها بدل من قبلها"¹⁹²؛ "وخلفه في قومه، كان خليفته، واستخلفه جعله خليفته، أن يجيء شيء بعد شيء"¹⁹³؛ جاء في (المفردات): الخلافة هي النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أوليائه في الأرض"¹⁹⁴.

- وبناء على ما سبق، فإن هذا اللفظ يدور حول ثلاثة معان وهي:
- يأتي بمعنى الوكيل والنائب، ومنه استخلفته في قومي، أو على مالي..
- وبمعنى العقب، ومنه خلف الولد أباه أي عقبه بعد موته..
- ويجيء بمعنى خلف، أي ضدّ قدام

○ المفهوم الاصطلاحي:

فأما تعريفه في الاصطلاح، فهو من الخلافة والخليفة، فيقال آدم خليفة الله في أرضه؛ وعليه فهي كما قال ابن خلدون: "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها"¹⁹⁵؛ وعرفها الماوردي: "موضوعة لخلافة

¹⁹⁰ - ن: "العين" أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط(1) سنة: 1988 (238/3).

¹⁹¹ - ن: "لسان العرب"؛ مرجع سابق، (184/4) بتصرف

¹⁹² - ن: "المعجم الوسيط"؛ إشراف عبد السلام هارون، بيروت، دار الاحياء العربي، دون طبعة؛ (250/1-251)،

بتصرف

¹⁹³ - ن: "مقاييس اللغة"؛ مرجع سابق، (21/2)، بتصرف

¹⁹⁴ - ن: "المفردات" مصدر سابق، ص: 156.

¹⁹⁵ - ن: "المقدمة" ص: 134؛ مرجع سابق

النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا¹⁹⁶.

وقد جاء ذكر كلمة الخليفة في القرآن الكريم مرتين ، الأولى في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾¹⁹⁷؛ والموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾¹⁹⁸

وجاء ذكر فعل استخلف مرة واحدة في الماضي وأربع مرات في المضارع في القرآن الكريم؛ وقد اختلف المفسرون حول معنى الخليفة على عدة أقوال أبرزها:

القول الأول: ينسب إلى ابن مسعود وابن عباس: أن الخليفة هو آدم عليه السلام، ومن يقوم مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه¹⁹⁹، وإلى هذا الرأي ذهب كل من الزمخشري في أحد قوله²⁰⁰؛ والألوسي²⁰¹؛ وصاحب المنار²⁰²؛ وغيرهم..

¹⁹⁶- ن: " الأحكام السلطانية والولايات الدينية" أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده؛ ط 2 - 1386 هـ / 1966 م؛ ص: 5.

¹⁹⁷ - البقرة: 30

¹⁹⁸ . ص: 26.

¹⁹⁹ - ن: " جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي؛ بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ / 2001 م؛ (282/1) و"الجامع لأحكام القرآن": (1/ 279).

²⁰⁰ - ن: "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"؛ للزمخشري؛ الناشر: دار الكتاب العربي؛ بيروت؛ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت؛ الطبعة: الثالثة؛ 1407 هـ؛ (/ 128).

²⁰¹ - ن: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية؛ بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ؛ (1/ 222).

²⁰² - ن: "تفسير المنار" مرجع سابق: (1/ 258).

وحجتهم في هذا القول قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ بِمَا حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فالمراد بالخلافة: حكم الله تعالى في الأرض، وهذا الحكم لا يقوم به إلا الأنبياء، أو من قام مقامهم في تنفيذها و الدعوة إليها؛ يقول العز بن عبد السلام: "ال خليفة من قام مقامه غيره، خليفة: يخلفني في الحكم بين الخلق، هو آدم صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من ذريته، أو بنو آدم يخلفون آدم، ويخلف بعضهم بعضاً في العمل بالحق، وعمارة الأرض،²⁰³؛ وقد استنكر هذا الرأي ابن تيمية²⁰⁴، وابن القيم²⁰⁵، وحجتهم في ذلك إنكار سيدنا أبي بكر رضي الله عنه لمن قال له: يا خليفة الله، فقال له: (أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا راض به وأنا راض به وأنا راض به)²⁰⁶.

والحجة الثانية عندهم هي حقيقة لفظ الخلافة، فالخليفة هو الذي يخلف الغائب، أي: يجيء بعده فيقال: خلف فلان فلانا، وهذا لا يليق بالله تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وأجيب عن ذلك أن الحديث ليس صريحا في النهي، فقد جاء في مناسبة خاصة وهي تولية الإمامة العظمى؛ مظنة الغلو في مثل هذه الحالة التي يقدها - عادة - كثير من الناس، وخاصة الأمم التي ورث المسلمون ملكهم، فخشي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أن يكون ذلك غلوا في التعظيم فمنعه²⁰⁷.

وأما حجتهم اللغوية فأجيب عنها بما ورد في تعريف المفردات أنها للتشريف، يقول الرازي: "وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته، وحقيقة الخلافة ممتنعة في

²⁰³ ن: "تفسير العز بن عبد السلام"، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهي، الناشر: دار ابن حزم؛ بيروت، الطبعة: الأولى: 1416هـ/ 1996م؛ (1/114)

²⁰⁴ ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، مصدر سابق، (35/44).

²⁰⁵ ن: "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" ابن القيم، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت (1/205)

²⁰⁶ أخرجه الإمام أحمد في المسند: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب مسند أب بكر الصديق.

²⁰⁷ ن: "فتاوى معاصرة" د. القرضاوي؛ نشر: دار القلم، الكويت؛ ط: 3؛ سنة: 1424هـ/ 2003م (2/176)

حق الله، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة للزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم" 208

القول الثاني: الحسن البصري، وابن كثير²⁰⁹، والشوكاني²¹⁰؛ وهو أن الخليفة بمعنى: المخلف، أي يخلفه غيره؛ وذلك أن خليفة على وزن فعيلة، وهي جاءت هنا بمعنى اسم المفعول، أي: مخلف، والمعنى: يخلفه غيره، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ بِمَن كَفَرَ بَعْلَيْهِ كُفْرُهُ﴾²¹¹ أي: يخلف بعضكم بعضا .

القول الثالث والرابع: قيل أن آدم عليه السلام خليفة عن الملائكة، وإلى هذا الرأي ذهب الزمخشري²¹²، وقيل أنه عليه السلام خليفة عن الجن وينسب هذا القول الأخير لابن عباس²¹³

○ استنتاج:

والذي يبدو أنه لا تعارض بين هذه الأقوال إذ يمكن الجمع بينها جميعها؛ والقاعدة تقول: "أن الأعمال أولى من الإهمال"؛ و"أنه متى أمكن الجمع فهو مقدم على الترجيح"، وبناء على ذلك فإن آدم عليه السلام وذريته يخلف بعضهم بعضا ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ وقد جاءوا بعد الجن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَفْنَا آلَ نَسْلٍ﴾

208 - ن: "مفاتيح الغيب" للإمام الرازي: الناشر: دار إحياء التراث العربي؛ بيروت، الطبعة: الثالثة، 1420هـ؛ (26/386).

209 - ن: "تفسير القرآن العظيم" لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي؛ المحقق: سامي بن محمد سلامة؛ نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ / 1999م؛ (1/69).

210 - ن: "فتح القدير" محمد بن علي الشوكاني؛ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب؛ دمشق، بيروت؛ الطبعة: الأولى، سنة: 1414هـ؛ (1/62).

211 - الأنعام: 165.

212 - ن: "الكشاف" مصدر سابق: (1/128).

213 - ن: "جامع البيان" مصدر سابق (1/282).

مِنْ صَلَّصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَفْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ بَارِئِ السَّمُومِ ﴿٣٧﴾²¹⁴؛ كما أنهم خلفاء عن الملائكة في إدارة شؤون الأرض وتسخيرها وفق مراد الله تعالى وهو ما دل عليه تساؤل الملائكة ﴿فَالَوْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²¹⁵، وأنهم في كل ذلك كما يقول ابن عاشور: "فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي"²¹⁶، وكما يقول الألوسي²¹⁷: "ومعنى كونه خَلِيفَةً أنه خليفة الله تعالى في أرضه، وكذا كل نبي استخلفهم في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا حاجة به تعالى، ولكن لقصور المستخلف عليه لما أنه في غاية الكدورة والظلمة الجسمانية، وذاته تعالى في غاية التقديس"²¹⁸؛ وبناء على ذلك نخلص إلى القول أن **الاستخلاف هو: "قيام الخليفة. وهو الإنسان عامة وليس آدم فقط"**²¹⁹. بمراد الله في الأرض،

²¹⁴ - الحجر: 36. 37

²¹⁵ - البقرة: 30

²¹⁶ - ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور، مرجع سابق، (1/ 339)

²¹⁷ .الألوسي (1217-1270هـ/1802-1854م)؛ هو: أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني فقيه ومفسر ومحدث. ولد في بغداد، وتلقى العلوم على شيوخ عصره، وكان شديد الحرص على التعلم ذكياً فطناً، لا يكاد ينسى شيئاً سمعه، حتى صار إمام عصره بلا منازع. اشتغل بالتأليف والتدريس في سن مبكرة، فذاع صيته وكثر تلاميذه، تولى منصب الإفتاء وبقي فيه حتى سنة 1263هـ

له عدة كتب قيّمة، أبرزها تفسيره الكبير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة.. توفي الألوسي في ذي القعدة في بغداد ودُفن فيها. نقلا عن: الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

²¹⁸ - ن: "روح المعاني" للألوسي؛ مصدر سابق، (1/ 222)

²¹⁹ - قال الزمخشري في الكشاف (1/ 271) ما نصه: "أريد بالخليفة آدم، واستُغنيَ بذكره عن ذكر بنيه، كما يُستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم"؛ أنظر كتاب "الشهود الحضاري للأمة الإسلامية" د: عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط: 2 سنة: 1427هـ/ 2006م؛ (1/ 51)

الذي يتجلى في تنفيذ أحكامه، وتحقيق الغاية التي من أجلها خُلِق، وهي عمران الأرض بكل ما يُقيم الحياة عليها، لتحقيق مصالح العباد في المعاش و المعاد"

وقد سبق أن عرّفنا العمران بقولنا: " هو مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية الوجدانية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فردا وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي"

المسألة الثانية: علاقة الاستخلاف بالعمران

من خلال تعريفنا لكل من العمران والاستخلاف يتّضح لنا بجلاء أن العمران هو عملية استخلافية يقوم بها الخليفة على الأرض وفقا لمراد الله تعالى، فيكون العمران بذلك الجانب التنزيلي أو الحركة التطبيقية لمبدأ الاستخلاف من لدن المكلف - الإنسان - لتنفيذ مراد الخالق سبحانه وتعالى.

المطلب الثاني: العبادة وعلاقتها بالعمران

لإدراك مفهوم العبادة بأبعادها وظلالها المختلفة كان لابد من النظر إليها من بُعد مقاصدي؛ إذ هي إحدى مقاصد الوجود الثلاث - بل هي المقصد الأساس - حسب تقسيم الراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة²²⁰، حيث قال: "الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء: عمارة الأرض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ وعبادته المذكورة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته، في أوامره ونواهيه؛ وخلافته المذكورة في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾"²²¹،²²²، وقد ذكرت فيما مضى أن هذه المفاهيم أو المقاصد الثلاث **الخلافة والعبادة والعمران** يصعب الفصل بينها إذ هي مترابطة فيما بينها ومتداخلة وخاصة مصطلحي **العمران والعبادة** فهما متساويين من حيث المصادق بتعبير المناطقة - كما سيأتي بيانه - وقد أوضحت علاقة الاستخلاف بالعمران فيما سبق²²³؛ وقد حان الوقت لبيان علاقة العبادة بالعمران؛ فما مفهوم العبادة؟ وما علاقتها بالعمران؟!

المسألة الأولى: مفهوم العبادة

إنّ الحديث عن العبادة وعلاقتها بالعمران من الأهمية بمكان، ومن الشّأو بميزان؛ وهو ما يقتضي بيانا لحقيقة كل منها، أما العمران فقد سبق بيان حقيقته وطبيعته الوجودية²²⁴، وأما العبادة فهذا وقت تجلية مفهومها وإبّان بيان حقيقتها، وهذا يقتضي

²²⁰ - وقد ذكرت كلامه قبل ذلك، وأعدته هنا للبناء عليه ما يأتي من كلام..

²²¹ - الأعراف: 129

²²² - ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، بتصرف، مصدر سابق، ص: 82،

²²³ - ن: "المطلب الأول من هذا المبحث" ..

²²⁴ - ن: "المبحث الثاني" من هذا الفصل.

النَّظَرُ في مدلولها من زاويتين مختلفتين: إحداهما لغوية، والأخرى اصطلاحية.

○ العبادَة في اللغة:

جاء في لسان العرب عن العبادَة ما ملخصه: " العبد: الإنسان، حرًّا كان أو رقيقًا يُذهب ذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجلّ (..) يقال فلان عبد بَيْن العبودية.

وأصل العبودية: الخضوع والتذلل (..) والتعبد: التئسك، والعبادة الطاعة، قال ابن الأنباري: فلان عابد: هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره "225

وقال الفيروز أبادي " والعبادة الطاعة "226؛ وعلى هذا فتعريف العبادَة في لغة العرب: الذلُّ والخضوع المستلزم طاعة المعبود أمرًا ونهيًا؛ ولذا سُمِّي الرقيق عبدًا يذل ويخضع لسيده أمرًا ونهيًا..

○ العبادَة في الشرع:

لقد تنوعت عبارات العلماء في مدلول العبادَة شرعًا إلا أن المعنى متقارب جدا، وإنما الفرق بينها في الشمول، وإليك بعضها:

- قال ابن كثير رحمه الله: " العبادَة في اللغة: من الذلَّة يقال طريق معبد وبغير معبد، أي مدلل؛ وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف " 227؛ فعرف العبادَة بأنها كمال المحبة لله مع كمال الخضوع لله مع كمال الخوف من الله، فمن اتصف بذلك فإنه يطلق عليه عابد لله عز وجل

- وقال القرطبي رحمه الله: " والعبادة عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه، وأصل العبادَة

225 - ن: " لسان العرب " لابن منظور، مرجع سابق. (2 / 664)

226 - ن: " القاموس المحيط " تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م؛ (1 / 311)

227 - ن: " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير، مصدر سابق (1 / 25)

الخضوع والتذلل "228.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" 229

قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان
عليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان
وبناء على ما سبق يتضح لنا أنَّ للعبادة جانبين:

أحدهما: باعتبار العابد، وهو كمال الذل والخوف مع كمال الحب لله عز وجل.
والآخر: باعتبار المتعبّد به، وهو ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الباطنة والظاهرة.

المسألة الثانية: حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام

إذن نَخْلُصُ ممّا سبق أن العبادة: هي استسلام الإنسان كلّ، ظاهره وباطنه، قلبه وقاله لله رب العالمين، حبًا وخضوعًا واستسلامًا له، وخشية وهيبة من جلاله، فتكون بذلك كلّ حركة يقوم بها العبد في حياته رجاء محبة الله ورضوانه، فحياته كلّها لله دون شريك معه، وهو منطوق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ اُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ 230

ومن ثمّ فإنّ الإسلام قد طبع جميع أعمال الإنسان بصبغة العبودية، إذا قصد العبد بهذه الأعمال وجه الله ومرضاته، وقام بها على الوجه المشروع الموافق لمراد الله، وكانت في

228- ن: "الجامع لأحكام القرآن"، مصدر سابق (1 / 225).

229- ن: "رسالة العبودية" لشيخ الإسلام ابن تيمية، الناشر: المكتب الإسلامي؛ دمشق؛ الطبعة: السابعة المجددة 1426هـ.

- 2005م؛ ص 38

230 - سورة الأنعام: 162 - 163

سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة، فالمزارع والصانع والتاجر والطبيب والفلكي، بله المصلي والصائم.. وغيرهم تُعتبر أعمالهم عبادة لله، إذا قصد بها كلٌّ منهم وجه الله تعالى، ونفع عباد الله و عمران البلاد تحقيقاً لأمر الله سبحانه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا وَإِلَيْهِ رُجُوعُكُمْ﴾²³¹؛ ولنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: (كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)²³²

فها الحديث أضفى على الأمور العادية صفة العبودية، وجعل القيام بها عبادة يُثاب عليها المسلم، ومن الأدلة المقررة لهذا المعنى الجامعة لحقائقه قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)²³³، فهذا دليل واضح على أنّ مسمى الإيمان . الذي هو ركن العبادة الأعظم. يشمل كل مناحي الحياة، طولا وعرضا، سطحا وعمقا؛ وها هو القرآن الكريم نفسه يبرز نفس المعنى، فقد حصر غاية وجود الخلق في العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²³⁴ ؛ أي أن الله تعالى ما خلق الخلق إلا ليخضعوا لأمره وينزلوا تحت سلطانه رهبا ورغبا، ذلا وحباً؛ كل ذلك بمقتضى خالقيته لهم، فهو الرب الغني وهم العبيد الفقراء، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

²³¹ - هود: 60

²³² - أخرجه البخاري (226/5) في الصلح، ومسلم رقم: 1009 في الزكاة.

²³³ - أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (63/1)، باب شعب الإيمان.

²³⁴ - الذاريات: 56

«عَبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»²³⁵؛ "أي لا تنسوا أنكم مجرد عبيد لا آلهة، فلا أحد منكم خلق نفسه! فاستجيبوا لسيدكم الذي له الفضل وحده في إخراجكم من ظلمات العدم إلى نور الوجود! إذ بذلك كان حقّه عليكم: أن تخلصوا له العبادة وحده دون سواه! إنه الخالق الأوحد للبشرية جميعاً أولها وآخرها! ومن ثمّ وجب التخلّي عن الكبرياء الشيطاني، والخضوع لله الواحد القهار خضوع ذلة واستسلام وافتقار، وخوف ورجاء، وشكر ومحبة؛ على ما خلق ورزق وهدى! فذلك مقتضى قوله تعالى: {اعبدوا ربكم} "236

فإذا كان ذلك كذلك - وهو كذلك حقاً - فإن مفهوم العبادة بما يبيّناه قبلُ يقتضي أن تكون حياة الإنسان - كل الإنسان فرداً أو جماعة - كلّها ظاهرها وباطنها، من آداب الأكل والشرب وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة وسياسة الحكم وسياسة المال وشئون المعاملات والعقوبات والعلاقات الدولية في الحرب والسلم وغير ذلك من شئون الحياة، كل ذلك خاضع لإرادة الله سبحانه لا لأحد سواه..

ولتحقيق ذلك خاطب الله عباده المؤمنين في كتابه العزيز بأوامر شاملة لجميع شئون الحياة، وليست مقصورة على الشعائر فقط كما يفهمه كثيرٌ من المسلمين اليوم - مع الأسف الشديد - وها هو الرسول الكريم ﷺ يصحّح للصحابة مفهوم العبادة ويبيّن لهم بقوله: (وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر!)²³⁷

²³⁵ - البقرة: 29

²³⁶ - ن: "مجالس القرآن"، لفريد الأنصاري - رحمه الله - دار السلام، ط: 2، 1437هـ/2016؛ (78/3)

²³⁷ - جزء من حديث أخرجه مسلم رقم: 1006، في الزكاة

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أثبتَ عليها، حتى اللقمة تجعلها في فيِّ امرأتك)²³⁸؛ وأجديني مضطراً لأن أذكر حديثاً في تمام الروعة والبيان، وهو حديث كعب بن عجرة قال: (مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً وتفاخراً فهو في سبيل الشيطان)²³⁹؛ فأَيُّ فهم للعبادة هذا وأي مدلول ذاك؟!!

ومن ثمّ فقد صار فهم الصحابة للعبادة على وزان ذلك تماماً؛ فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: (لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي)²⁴⁰ ..

والأحاديث والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تُحصى!!

إذن فالعبادة بناء على ما سبق هي: " كل الأعمال الظاهرة والباطنة التي يقوم بها العبد ذلاً وحباً لخالقه سبحانه تحقيقاً لمراد الله تعالى وتنفيذاً لأمانة الاستخلاف"

المسألة الثالثة: علاقة العبادة بالعمران:

إذن بعد بيان كل من مفهوم العمران والعبادة نستطيع بكل يسر أن نستنتج العلاقة بينهما فقد عرّفنا العمران بقولنا هو: "مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية الوجدانية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فرداً وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي"؛ والعبادة هي: " كل

²³⁸ - جزء من حديث سعد بن أبي وقاص في الوصية. أخرجه البخاري (165/3)، ومسلم رقم (1628)

²³⁹ - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، وقال الألباني: "صحيح لغيره"؛ كما في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (1692). وهو في صحيح الجامع رقم (1428)

²⁴⁰ - ن: " سير أعلام النبلاء" لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت: 748هـ) لحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1405 هـ / 1985 م، (1/449)

الأعمال الظاهرة والباطنة التي يقوم بها العبد ذلًا وحبًا لخالقه سبحانه تحقيقًا لمراد الله تعالى وتنفيذًا لأمانة الاستخلاف".

فإذا لاحظنا التعريفين معا وجدنا كلا منها يشتمل على ما يلي:

1. الأعمال الباطنة من تصورات وعقائد وأحاسيس ومواجيد وسائر أعمال القلوب، كذا الأعمال والأنشطة الظاهرة المتعلقة بالجوارح كانت قولًا أو فعلًا..
2. أن الإنسان هو المكلف بهذه الأعمال الفاعل لها، سواء كان فردًا أو جماعة..
3. أن هذه الأعمال مكانها الأرض التي استخلف الله فيها الإنسان..
4. أن الغاية من كل تلك الأعمال والأنشطة تحقيق وظيفة الاستخلاف

وبناء على ذلك يتضح لنا أنّ مفهومي العمران والعبادة متداخلان ومترابطان إذ إنّ أحدهما يصدق على جميع أفراد الآخر وينطبق عليه تماما - وهذا ما توصلنا إليه بعد دراسة وتتبع للفظين معا (العبادة والعمران) من خلال ما سبق من هذه الأطروحة - مع أن مفهوم كل واحد منهما مخالف للآخر؛ وهو ما يسمى عند المناطقة بالتساوي الذي يعتبر أحد النسب الأربع؛ وهو أن يكون اللفظان متّحدين في الماصدق²⁴¹، فكل منهما ينطبق على جميع ما ينطبق عليه الآخر من أفراد؛ مثال ذلك (الإنسان والناطق) فمعنى كل منهما مخالف للآخر، إلا أنّ أفراد كل منهما هي نفس أفراد الآخر دون زيادة أو نقصان؛ وكذلك الشأن لكل من (المسلم والمؤمن)، فهما مختلفان في المعنى، (فالمسلم) معناه المستسلم لما جاء به النبي ﷺ؛ و(المؤمن) هو المصدق في قلبه بالحق الذي جاء به الرسول ﷺ، فهما إذن مختلفان في المفهوم، إلا أنّ كلّ من هو مؤمن حقا

²⁴¹ - الماصدق: يقصد به المناطقة الفرد أو الأفراد التي ينطبق عليها اللفظ إذ يتحقق فيها مفهومه الذهني؛ والماصدق اسم صناعي مأخوذ من كلمة (ما) الاستفهامية أو الموصولية، وكلمة (صدق) التي هي فعل ماضي من الصدق؛ إذ كان يقال مثلا: على ماذا صدق هذا اللفظ؟ فيقال في الجواب: صدق على كذا أو كذا، فاشتقوا من ذلك كلمة (ماصدق)، وعرفوها بأل التعريف فصاروا يقولون: (الماصدق)؛ {ضوابط المعرفة، ص 45. 46}

يطلق عليه مسلم، وكل مَنْ هو مسلم حقيقة يطلق عليه مؤمن²⁴²

ومّا يؤكّد هذا ويقرره آية هود التي اعتبارناها تأصيلاً لمفهوم العمران، ولندقق النظر فيها مرة أخرى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْوِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾²⁴³؛ فنجد أن الله تعالى ربط بين العمران والعبادة وقد جاء الأمر بهما معاً ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وكأنه لا عبادة بغير عمران ولا عمران بغير عبادة، فهما متلازمان لا ينفكان؛ وهو ما سبقت الإشارة إليه من كلام القرطبي في بيانه لمعنى (استعمركم فيها) أي "خلقكم لعمارتهما"²⁴⁴، ومّا هو معلوم أن الله خلق الخلق لعبادته، وهي الغاية التي خلق من أجلها هذا الذي أنيط به فعل العمران، أقصد الإنسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²⁴⁵، فيكون هنا العمران مساوياً للعبادة في المصادق تماماً، وهو ما ذكرته قبل وأؤكد عليه هنا..

وكاستنتاج ممّا مضى بيانه أقول: "لا عمران إذن من دون عبادة، ولا عبادة على الوجه الحقيقي من غير عمران، وأي خلل أو خطأ في أحدها يُحدثُ فساداً وتُلمة ونقيصة في الآخر.."

المسألة الرابعة: العلاقة الثلاثية

وللحديث عن هذه العلاقة أقول: إن إدراك مفهوم العمران كمصطلح مركزي لموضوع بحثنا يقتضي ممّا ربطه بمفهومي العبادة والاستخلاف؛ ذلك أن الخالق جل جلاله جعل

²⁴² - ن: "ضوابط المعرفة" لحنكة الميداني، دار القلم، ط: 21، سنة 1432هـ / 2011م ص 48؛ وكذلك "آداب البحث والمناظرة" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: سعود بن عبد العزيز العريفي؛ دار عالم الفوائد؛ دون تاريخ؛ ص: 38 وما بعدها

²⁴³ - هود: 60

²⁴⁴ - ن: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي؛ مصدر سابق، (56/9)،

²⁴⁵ - الذاريات: 56

الإنسان خليفة في الأرض فكلّفه بعمارته - ماديا ومعنويا - وتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان وهي المتجسّدة في العبادة بمفهومها الشامل الكامل، وقد قلت فيما سبق - وأؤكدّه هنا بعد إيراد هذه المفاهيم الثلاثة - أن العمران والعبادة لله تعالى - بمفهومهما الذي بيّنت بالتفصيل في هذا المبحث - وجهان لعملة واحدة وهي القيام بأمانة الاستخلاف، وفي هذا يقول الدكتور حسن ملكاوي: "ولم تكن حياة الناس على هذه الأرض عبثا، فقد جاء خلق الإنسان لغاية محددة هي عبادة الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²⁴⁶، ولفهم معنى العبادة في سياق الغاية من خلق الإنسان جاءت الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِيَّةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾²⁴⁷، فالخلافة في الأرض هي معنى العبادة، والخلافة هي إعمار الأرض: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْبِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾²⁴⁸، فالعمران هو شأن الإنسان في حياته الدنيا في هذه الأرض، (..) ليقوم بحمل الأمانة"²⁴⁹؛ إلا أنني أخالفه الرأي في جعله الخلافة بمعنى العبادة، ومعنى العمران؛ والصحيح هو ما ذكرته قبل؛ لأن هذه المسألة تتعلق بالمصطلح وهو علم دقيق يحتاج إلى تحرير وتنوير، وتحقيق وتدقيق؛ وقد بيّنت ما للمصطلح من أهمية وخطورة في بداية هذا الفصل²⁵⁰.

وكذا أخالف ما ذهب إليه الدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب حينما تناول كلام

²⁴⁶ - الذاريات: 56

²⁴⁷ - البقرة: 30

²⁴⁸ - هود: 60

²⁴⁹ - ن: "منظومة القيم العليا" د ملكاوي، مرجع سابق، بتصرف قليل، ص: 136 و137

²⁵⁰ - أوردت ذلك بالتفصيل في مدخل هذا الفصل حيث تحدثت عن أهمية تحرير المصطلح ودوره في التحصيل العلمي وضبط المفاهيم..

الراغب الأصفهاني في هذا الموضوع فقال: "والراغب إن كان جعلها - أي الخلافة والعمران والعبادة - ثلاثة أفعال مختلفة فإننا نراها فعلا واحدا راجعا إلى ما يمكن تسميته بالخلافة الاقتدائية"؛ وإنما الراجح فيما يبدو لي - والله تعالى أعلم - بعد تعميق البحث والنظر في مفاهيم هذه المصطلحات الثلاث أنّ الخلافة مغايرة لكل من العمران والعبادة، بينما العمران - كما ذكرت آنفا - يساوي العبادة في المصادق وليس في المفهوم، وكلاهما يعتبران وظيفة للخلافة؛ ومن ثمّ فإن العمران والعبادة لله تعالى بمفهوميهما الكلي الشامل وجهان لعملة واحدة وهي القيام بأمانة الاستخلاف"

المطلب الثالث: الحضارة وعلاقتها بالعمران

من المصطلحات التي لها ارتباط قوي وصلة وشيجةٌ بالعمران، مصطلح "الحضارة" حتى جعلها بعض مترجمي مقدمة ابن خلدون مرادفة للعمران، كما جعلوا هذا الأخير مرادفا للثقافة أو المدنية أيضا، لأنهم ترجموا "العمران" إلى الكلمة الأعجمية "Culture" التي تعني الثقافة؛ ومنهم من ترجمها بكلمة: "Civilization"، التي تعني: "حضارة"؛ والتي يعود أصلها إلى عدة جذور في اللغة اللاتينية؛ منها "Ciudad" بمعنى مدنية، و "Ciudadano" أي مدني، "Civico" بمعنى وطني، و "Civilizer" بمعنى حضّر مدّن، أو Civil بمعنى مدني أي ضد عسكري؛ وغير ذلك.. وهذه الترجمات هي كما يقول أحد الباحثين: "بمثابة تقليص درجته . أي العمران . العلمية (..) وهي محاولة غير جادة لتفريغ المصطلح من دلالاته الدينية التي تربطه بمبدأ الاستخلاف"²⁵¹ كما سبق أن بيّنت قبل قليل في آخر المطلب السابق؛ إذن فما مفهوم الحضارة؟ وما علاقتها بالعمران!!؟

المسألة الأولى: مفهوم الحضارة:

قبل بيان علاقة الحضارة بالعمران يتحتّم علينا الإعرابُ عن مفهومها، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من ماهيتها؛ وذلك يقتضي الولوج إلى هذا المفهوم من بابيّه معاً، اللغوي والاصطلاحي، كما دأبنا عليه في هذا البحث، كما نكرّر دائماً القاعدة المنطقية الأصولية "أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره" ..

ويعتبر مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم صعوبة في التحديد، وذلك بفعل التطور الدلالي الذي حظي به عبر تاريخ الحضارة نفسها، ولعل من أهم أسباب الاختلاف في تعريفها أيضاً ما يرجع إلى الخلفية الفكرية لصاحب كل تعريف، والمنظور الذي يقدم من خلاله تعريفه، وكذلك تكوينه العلمي وزاده المعرفي؛ فعالم الشريعة، والمؤرخ، والأنثربولوجي، وعالم الاجتماع، واللغوي، وعالم النفس، كلٌّ يعرفها انطلاقاً من أرضيته الفلسفية ومنظوره

²⁵¹ - ن: "علم العمران الخلدوني" مرجع سابق، ص: 128 . 129، بتصرف

المعرفي الذي ينظم أفكاره؛ ونتيجة لحيوية التنقيب والبحث في حقل الدراسات الحضارية، ظهرت تعريفات متعددة ومتنوعة لظاهرة الحضارة؛ كما أن هناك تعريفات ولدت ضمن إطار الوعي العقدي الغربي وأخرى صيغت استجابة للوعي العقدي التوحيدي.²⁵²

وعلى كل حال فليكن البدء بالجانب اللغوي

○ المفهوم اللغوي:

جاء في لسان العرب عن مفهوم الحضارة ما مختصره: أنها من الحضر والحضرة والحاضرة وهي: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار²⁵³

وهكذا فقد استخدم ابن منظور الحضارة بمعنى الحضر وهو الاستخدام الوحيد، وقد أورد استخدامات أخرى للحضر بطريقة مختلفة، وهي:²⁵⁴

الحضور نقيض المغيب، وحضر حضوراً حضارة؛ والحضر خلاف البدو، والحضارة الإقامة في الحضر (..) والحاضر: الحي العظيم. الحاضر ضد المسافر، (..) وحضر بمعنى شهد²⁵⁵ وبذلك تلاقت المعاني لتصب في حوض الإقامة في الحضر الذي يعني التفاعل المؤثر والمثمر²⁵⁶

والحاضر خلاف البادي، وفي الحديث: (لا يبيع حاضر لباد)²⁵⁷. ولما سئل عبد الله

²⁵² - ن: مقال حول: " مفهوم الحضارة"؛ د. بدران بن الحسن: في مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، الخميس، ذوالقعدة 1424 الموافق 25 ديسمبر 2003

²⁵³ - ن: "لسان العرب" (4/ 197)

²⁵⁴ - ن: "الحضارة العربية الإسلامية". الدكتور طه خضر عبيد؛ ط 1. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، 2012م = 1433هـ. ص 14- 15

²⁵⁵ - ن: " لسان العرب" (4/ 197)، بتصرف..

²⁵⁶ - ن: " الحضارة العربية الإسلامية". الدكتور طه خضر عبيد؛ مرجع سابق، ص 14 - 15.

²⁵⁷ - رواه البخاري رقم: 2274

بن عباس رضي الله عنهما عن ذلك قال: (لا يكون الحاضر سمساراً له)²⁵⁸، وهذا منهي عنه لما فيه ضرر المشتري، فإن المقيم إذا توكل للقادم في بيع سلعة الناس إليه، والقادم لا يعرف السعر ضرر ذلك المشتري فقال عليه السلام: (دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض)²⁵⁹ وهذه إشارة إلى ما بين البداوة والحضر من اختلاف؛ و"حضر" الغائب حضوراً: قدم، ويقال حضر فلان - حضارة أقام في الحضر، و"حاضر" القوم أي جالسهم وحادثهم بما يحضره؛ ومنه فلان حسن الحاضرة. و"الحاضرة" خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف؛ والعاصمة وحاضرة الشيء: القرية منه، وفي القرآن الكريم: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرِيقَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾²⁶⁰.

"فالحضارة في عرف اللغة كما رأينا ترتبط بالحضر، والعمران، أي أن المصطلح من ناحية اللغة العربية ذاتها يحمل المعنى الاجتماعي، وذلك عند اعتبار الحضارة علامة على الحضور والإقامة والاستقرار، وهذه كلها تحمل معاني اجتماعية، فإذا سكن الناس واستقروا نشأت بينهم صلات اجتماعية أكثر، وارتبطت مصالحهم، ونشأت بينهم سبل التعاون، واتجهوا إلى بناء المدن والإبداع والانتظام والتنظيم؛ فالحضارة في جذرها اللغوي تُعنى وتُركز على الجانب الاجتماعي، وكأنّ اللغة تشير إلى أن الحضارة مفهوم اجتماعي منذ نشأته، كما أنها لا تكون إلا حيث توجد علاقات اجتماعية متبادلة بين الناس تظهر فيها معاني التعاون والتنظيم والانتظام في إطار مكاني محدد هو المدينة، ولعل هذا فيه إشارة لاهتمام النبي - صلى الله عليه وسلم - بتسمية (يثرب) باسم (المدينة)، بما يتضمنه لفظ المدينة من قيم اجتماعية وحضارية بعيدة الأثر في النفس الإنسانية"²⁶¹

وقد اختلف كثير من المفكرين الغربيين وغيرهم حول الكلمتين الدالتين على معنى

²⁵⁸ - رواه أبو داود بسند صحيح رقم: 3440

²⁵⁹ - رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله، رقم: 1522

²⁶⁰ - البقرة: 30

²⁶¹ - ن: مقال: "مفهوم الحضارة" مرجع سابق

"الحضارة"، ولم يتفقوا على اعتبار كلمة Culture وحدها مرادفة للحضارة؛ فهناك كلمة أخرى هي Civilization المأخوذة من أصل مختلف لأنها تركز على الدماثة والخصال الاجتماعية المستحبة التي ظهرت بظهور الدين؛ واتباعا لهذا الرأي لا تصلح كلمة "حضارة" التي تنسب إلى حياة المدن أو الحضر للتعبير عن خصائص ما نسميه بالحضارات البدائية؛ ويوجد في هذه المشكلة ثلاثة آراء:

1- الرأي الإنجليزي وينسب كلمة Civilization إلى الحضارات العليا وحدها؛ أما الحضارات البدائية فقد ترك لها كلمة Culture وأحيانا تطلق كلمة Culture على الحضارات في كل مستوياتها وأنواعها؛ وتطلق كلمة Civilization على الحضارات العليا من قبيل المتخصصين.

2 - أما الألمان فإنهم يستعملون كلمة Kultur الألمانية للدلالة على تنمية الحياة الداخلية والطاقات العقلية والروحية، ويستعملون كلمة Civilization للدلالة على الجوانب المادية أو التكنولوجية في الحضارة، وغالبا ما يستعمل الألمان كلمة Civilization من قبيل الانتقاص أو الدلالة على أن الحضارة في طريقها إلى الاحتضار أو الإفلاس.

3 - أما الاتجاه الفرنسي الذي يستعمل كلمة Civilization للدلالة على الحضارة في كل مستوياتها، ويستخدم كلمة Culture للدلالة على الجانب الثقافي وحده²⁶²؛ وقد ظهرت كلمة "Civilization" بالفرنسية سنة 1734، وأصلها واضح: فهي تنحدر مباشرة من صفة Civilisé أي متحضر، في القرن السابع عشر²⁶³

"وبوجه عام فإن لفظ Civilization في اللغات الأوروبية، واللغة الإنجليزية بخاصة

²⁶² - ن: "الجوانية عند عثمان أمين، أصولها وخصائصها" د. إبراهيم طلبه سلكها، نقلا عن مقال: "مفهوم الحضارة" د. إبراهيم طلبه سلكها؛ العدد: 4773 المصادف: الاثنين 30 - 09 - 2019م؛ بصحيفة المثقف

²⁶³ - ن: "جغرافيا الحضارات" رولان بريتون، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت باريس؛ الطبعة الأولى 1993م؛ ص 19

فمشتق من Civilis في اللاتينية بمعنى المدينة، أو من Civis بمعنى ساكن المدينة، أو من Civilis بمعنى مدني، أو ما يتعلق بساكن المدينة، حيث تقوم الحياة المتحضرة عادة في المدن وبين الحضر، أي سكان المدن، وذلك لما يتوفر في المدن من ثروات وخبرات في التجارة والصناعة، فضلا عن الإنجازات البشرية من اختراعات وابتكارات وإنتاج فكري، بينما لا تسمح حياة البدو والفلاحين بقيام علاقات متشابكة أو أنماط من الحياة متنوعة تتيح قيام تحضر أو مدنية، حتى وإن ظهرت بعض مظاهر الحضارة في القرى فإنها لا تزدهر إلا في المدن؛ كما أنها تقرر أحيانا بمصطلح "Culture" التي في معناها اللاتيني تفيد الإنماء والحرق، واستمر مفهومها في حراثة الأرض وتنميتها، إلى نهاية القرن الثامن عشر، حيث - كما يذكر معجم أكسفورد - أنها اكتسبت معنى يشير إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية، وتقابل في العربية مصطلح ثقافة ..

فالمصطلح نفسه لم يأخذ معناه المعروف لدينا اليوم عن الحضارة في اللغات الأوروبية، إلا مع القرن الثامن عشر، باعتبار ما اقترن به من مصطلحات دلالية أخرى، وأقرب المعاني اللغوية المستعملة اليوم أن الحضارة: "مرحلة متقدمة من النمو الفكري والثقافي والمادي في المجتمع الإنساني"، أو هي: "مرحلة متقدمة من التقدم الاجتماعي الإنساني، أو هي ثقافة وطريقة حياة شعب أو أمة أو فترة من مراحل التطور في مجتمع منظم"²⁶⁴.

○ المفهوم الاصطلاحي

سبق أن قلت أن الباحثين لم يتفقوا على تعريف معين للحضارة، نظرا لاختلاف عقائدهم ومذاهبهم ومدارسهم.. وسنذكر بعضها حسب ما يسمح به المقام.

والمعنى اللغوي هو غير المعنى الاصطلاحي، ولو كان ذا صلة به؛ وأول من توسّع في الكلام عن الحضارة والتفريق بينها وبين البداوة هو عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808 هـ)، الذي يرى: "أنّ الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير.. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها، وأن

²⁶⁴ - ن: "مقال: مفهوم الحضارة" د . ابراهيم طلبه سلكها؛ العدد: 4773، مرجع سابق.

الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بفوائدها"²⁶⁵؛ ويذهب إلى: "أن الناس حين تخطوا في كسبهم للمعاش ما هو ضروري وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرّفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأثّق فيها، وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضّر، ثمّ تزيد حالة الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأثّق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالجة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوّة إلى الفعل إلى غايتها، فيتّخذون القصور والمنازل ويُجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون من استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضّر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان"²⁶⁶.

وابن خلدون هنا يشير إلى المرحلة الأخيرة التي تمر بها الدولة أو المجتمع عندما تتفكك العصبية وتضمحل قوة الرابطة التي تجمع الناس على بناء المجتمع، فيصير المجتمع في حالة الترف التي أشار إليها ابن خلدون في مقدمته، وتقل أخلاق البناء، وتظهر أخلاق الفتور، فالحضارة بهذا التعبير الخلدوني درجة من التقدم تبلغها المجتمعات"²⁶⁷

ويزيد ابن خلدون تعريفاً آخر للحضارة يسميها "سر الله في ظهور العلم والصنائع" وذلك في الفصل الذي يفسر فيه لماذا أن "حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم" مما يجعل من العلم والصناعة منتوجات حضارية كما أن الحضارة تصطبغ بذلك الطابع الاجتماعي العمراني، يقول رحمه الله: "إن الصنائع من منتحل الحضّر وإن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية.. والحضّر لذلك العهد هم العجم أو من في

265 - ن: "المقدمة" ص: 475

266 - ن: "المقدمة" ص: 132

267 - ن: مقال: "مفهوم الحضارة" د. بدران بن الحسن، مرجع سابق.

معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف" ²⁶⁸.

فالعرب - حسب ابن خلدون - كانوا في بدايات اتصالهم بهذه المنجزات الحضارية من علوم وصنائع غير أنهم شغلوا عنها بمهمات بناء الدولة الجديدة، والتي كانت إحدى مراحل بناء الحضارة التي ابتدأها النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة بل من غار حراء عندما اتصلت الأرض بالسماء عن طريق الوحي، لكن ابن خلدون لا يقف عند هذه المرحلة من تطور الحضارة، بل يرصد حركتها، حيث يجعل استمرار العلوم والصنائع والتطور العمراني نتيجة لاستمرار عمل قانون الحضارة في تلك الأمصار وليس سبباً في استمرارها، حيث يقول: "فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر، فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم" ²⁶⁹.

والحضارة على حدّ تعبير رالف لنتون ²⁷⁰: "فالمجتمع عبارة عن مجموعة منظّمة من الأفراد، والحضارة مجموعة منظّمة من الاستجابات التي تعلّمها الأفراد وأصبحت من مميّزات مجتمع معيّن" ²⁷¹.

ونستمع إلى صامويل هانتغتون ²⁷² في تعريفه للحضارة يقول: "فما الذي نعبه عندما نتحدّث عن حضارة ما؟ إنّ الحضارة هي كيان ثقافي، فالقرى والأقاليم والمجموعات الإثنية والقوميّات والمجموعات الدينيّة لها جميعها ثقافات متميّزة(..) وهكذا فإنّ الحضارات هي أعلى تجمّع ثقافيّ

²⁶⁸ - ن: " المقدمة" ص: 133

²⁶⁹ - نفس المرجع.

270 - رالف لنتون: (1893 - 1953) كان مواطن أمريكي قدير وعالم في مجال الأنثروبولوجيا في منتصف القرن العشرين، من المساهمات الكبيرة التي ساهم بها رالف في علم الأنثروبولوجيا كان تعريف التميز بين الحالة والدور.

271 - ن: " شجرة الحضارة "؛ رالف لنتون؛ ترجمة أحمد فخري؛ مكتبة الأنجلو مصريّة (1 / 65).

272 - صامويل فليس هنتجتون: (1927 . م 2008) أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول.

للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب، ولا يسبقها إلا ما يميّز البشر عن الأنواع الأخرى، وهي تحدّد في آن معاً بالعناصر الموضوعية المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات، وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب نفسه²⁷³.

ويتحدث الشيخ السائح في تعريف الحضارة فيقول: " لفظ الحضارة في مفهومه الحديث، ومفهومه العالمي المعاصر، قد أصبح أكثر اتساعاً، مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي(..) وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة في الحضر، فإن المعاجم اللغوية الحديثة ترى أن الحضارة هي: الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي، والاقتصادي في الحضر.. وبعبارة أخرى أكثر شمولاً، هي: الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافية، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية.. ولهذا كانت الحضارة هي: الخطة العريضة - كماً وكيفاً - التي يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة، والحضارات الحديثة والمعاصرة.. ومنها الأطوار الحضارية الكبرى، التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات، من مرحلة إلى مرحلة"²⁷⁴.

وعرّف مالك بن نبي الحضارة بقوله بأنها "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره؛ فالفرد يحقق ذاته بفضل إرادة وقدرة ليستا نابعتين منه، بل ولا تستطيعان ذلك، وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه"²⁷⁵.

والدكتور يوسف القرضاوي يرى: " أن الحضارة لها جسم وروح، وجسمها يتمثل في

273 - ن: "صدام الحضارات"، صامويل هانتنغتون، إصدار مجلة شؤون الأوسط - مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، سنة: 1995م - ص: 18-19.

274 - ن: "الحضارة الإسلامية" أحمد عبد الرحيم السايح، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - الطبعة العاشرة، ذو الحجة 1397هـ - 1977م

275 - ن: " مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" مالك بن نبي؛ إشراف وتقديم: الحامي عمر مسقاوي؛ الناشر: دار الفكر المعاصر؛ بيروت لبنان / دار الفكر - دمشق سورية؛ الطبعة: 1423هـ / 2002م؛ ص 42

منجزاتها المادية: كالمخترعات والمصانع والطائرات والأسلحة والأبنية وغيرها، وروحها يتمثل في مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات²⁷⁶

وهذا الشيخ الميداني يحلل هذا المعنى للحضارة فيقول: "إذا كانت الحضارة تعني في أصل اللغة إقامة مجموعة من الناس في الحضر، أي في موطن العمران، سواء كانت مدناً أم حواضر أم قرى، فإن معناها قد توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملاً لجميع أنواع التقدم والرقى الإنسانيين؛ لأنهما لا يزدهران إلا عند المستقرين في موطن العمران²⁷⁷

وقد وردت تعريفات اصطلاحية كثيرة جداً للحضارة كلها متشابهة وقريبة من بعضها نكتفي منها بما أوردناه، ولكن هذا المعنى أخذ يتغير بعد قليل، حين انتشر المصطلح في اللغات الأوربية الأخرى وصار يعني: "مجموعة من الخطط والنظم القيمية بإشاعة النظام والسلام والسعادة، وتطور البشرية الفكري والأدبي، وتأمين انتصار الأنوار²⁷⁸.

المسألة الثانية: المصطلحات المماثلة للحضارة:

توجد عدة مصطلحات مقارنة لمصطلح الحضارة مثل: ثقافة، ومدنية، يقابلها في الإنجليزية على سبيل المثال: (Culture، Civilization) والذين اشتغلوا بالترجمة لم يلتزموا نمطاً واحداً، فمرة ترجموا (Culture) بالثقافة ومرة بالحضارة، وفعلوا ذات الشيء في (Civilization) فمرة ترجمت بالثقافة ومرة بالحضارة، وهكذا، فبينما تزامن هذان المصطلحان في اللغات الأوربية، نجد في المؤلفات والترجمات العربية ثلاثة مصطلحات

276 - ن: "الإسلام حضارة الغد" الدكتور يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة، دون طبعة. ص: 27.

277 - ن: "الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولحات من تأثيرها في سائر الأمم"؛ عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي؛ دار القلم؛ دمشق- الطبعة الأولى: 1418هـ-1998م - (19/1).

278 - ن: " تاريخ الحضارات العام "إشراف موريس كروزيه؛ نقله إلى العربية فريد داغر وفؤاد أبو ريحان؛ منشورات عويدات، بيروت؛ الطبعة الأولى 1964م (1 / 17).

تقوم بهذا الدور، هي: الحضارة والمدنيّة والثقافة.

وما هو جورج حدّاد²⁷⁹ يضع العبارات الثلاث مقترنة في محاولة لتعريفها، فيقول في الحضارة والمدنيّة والثقافة: "إنّ كلمة حضارة أو مدنيّة مشتقة بالأساس من الحضّر ومن حياة المدينة وهناك كلمة باللغات الأجنبية لها مفهوم يقرب من مفهوم الحضارة وهي (culture) و(Kultur) بالألمانيّة وترجمتها بالعربيّة هي الثقافة، ومعناها أوسع، ويفهم منها الطريقة التي بموجبها يعيش الشعب ويفكر، وكثيراً ما تستعمل كلمة (Culture) للدلالة على الحضارة والمدنيّة في اللغات الأجنبية، ولذلك قلنا إنّ كلمة ثقافة لا تكفي لترجمة معناها"²⁸⁰.

أمّا المصطلح (Culture)، فغالباً ما تُرجم باستخدام كلمة الثقافة، وهي الترجمة التي تراعي المعنى اللغويّ لا الاصطلاحيّ، إلّا أنّ كثيراً من الكتاب المعاصرين يرون أنّ كلمة ثقافة لا تفي بمعنى المصطلح الغربيّ (culture) - كما مرّ معنا سابقاً في كلام جورج حدّاد - لذلك تُرجمت (Culture) إلى العربيّة بحضارة.

المسألة الثالثة: علاقة الحضارة بالعمران

من خلال ماسبق من التعريفات اللغوية والاصطلاحية يتبين لنا مايلي:

- أن مصطلح الحضارة في معناه اللغوي عرّفه تراثنا الإسلامي؛ وهو ذو دلالات متعددة كما ورد من لسان العرب وغيره من المعاجم..
- أن الحضارة في اللغات الأجنبية اضطربت دلالتها كثيراً..
- أن الحضارة في الاصطلاح تعددت دلالاتها ويمكن حصرها - فيما يبدو لي - في ثلاثة أقسام:

1. قسم يعتبر الحضارة نهاية العمران وفساده كما عند ابن خلدون إذ "أنّ الحضارة هي

279 - جورج حدّاد (1934- 27 يونيو 2009)، كاتب وشاعر وصحفي أردني، وكان أول من تجرأ من الصحفيين وامتنح حركة حماس ومؤسسها أحمد ياسين بعدة مقالات في بداية انطلاقها.. (المصدر: الموسوعة الحرة).

280 - ن: "المدخل إلى تاريخ الحضارة" جورج حدّاد؛ مطبعة الجامعة السورّيّة: 1958م؛ ص 17-18.

نهایة العمران وخروجه إلى الفساد ونهایة الشرّ والبعد عن الخير²⁸¹؛ و" أن غاية العمران هي الحضارة والترّف، وأنّه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبیعیّة للحيوانات"²⁸².

2- والثاني يجعل الحضارة ثمرة للعمران ونتيجة له، وهو ما يؤكّده المفكر الألماني مؤرخ الحضارات (ألبرت أشفيتسر)، الذي عرف الحضارة بقوله: "الحضارة هي التقدّم الروحي والمادّي للأفراد والجماهير على حدّ سواء"²⁸³؛ و" فإن معناها قد توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملاً لجميع أنواع التقدم والرقي الإنسانيين؛ لأنهما لا يزدهران إلا عند المستقرين في مواطن العمران"²⁸⁴

3- والثالث أن الحضارة مرادفة للعمران كما يظهر ذلك في تعريف مالك بن نبي، والدكتور القرضاوي الذي اعتبر " أن الحضارة لها جسم وروح، وجسمها يتمثل في منجزاتها المادية: كالمخترعات والمصانع والطائرات والأسلحة والأبنية وغيرها، وروحها يتمثل في مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات" ..

وعلى كل حال فإن تعريف الحضارة في اصطلاحات العلماء عرف اختلافا

كثيرا نظرا لاختلاف مشاربهم، وقد حصرنا هذا الاختلاف في ثلاثة أنواع رئيسة؛ فهناك من عرّف الحضارة تعريفا يكاد يصير مرادفا لمفهوم العمران؛ ومنهم من كان تعريفه للحضارة مخالفا للعمران، بل ناقضا له وهادما؛ ومنهم من جعل معنى الحضارة، مرتبطا بمفهوم العمران ارتباطا الثمار بأصولها..

281 - ن: "المقدمة" ص: 154

282 - نفس المرجع، ص: 468.

283 - ن: "فلسفة الحضارة"، ترجمة د. زكي نجيب محمود، ص 34؛ عن د. مقداد يالجن في كتيب: "دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية"، ط دار الشروق أولى 1983 م، ص: 83.

284 - ن: "الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها" عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني (19/1).؛ مرجع سابق.

الفصل الثاني

العمران أنواعه

شروطه وأركانه

إن الحديث عن العمران بمفهومه الذي بينت قبلُ يتطلب منّا تعميق النظر فيه للإحاطة - قدر المستطاع - بجوانبه كلّها، وجمع خيوطه الممتدة هنا وهناك، حتى نتمكن من استكناه حقائقه وضبط دقائقه؛ هذا وإنّ بعد سير أغوار هذا الموضوع والنظر في حيثياته من خلال بصائر آي القرآن العظيم ومنظّار أحاديث النبي الكريم ووقائع سيرته العطرة، وآثار سير سلف الأمة وعلمائها وأحداث تاريخ الأمم والحضارات، اتضح لنا أن العمران له أصناف وضروب يمكن جمعها في نوعين رئيسيين، وله شروط يتوقف عليها ويرتبط بها وجوده وعدمه، إذ الشرط - كما هو معلوم - ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته؛ كما له أركان يقوم بها وتكون ماهيته منها، وتلك طبيعة الركن وحقيقته الوجودية..

ولأجل ذلك ارتأيت أن يكون هذا الفصل من هذا البحث حول أنواع العمران وشروطه وأركانه، ولتفصيل ذلك وتحليلته كان لابد من تخصيص مبحث لكل واحد من هذه الثلاث؛ تأتي على الشكل الآتي:

المبحث الأول: أنواع العمران

المبحث الثاني: شروط العمران

المبحث الثالث: أركان العمران

المبحث الأول: أنواع العمران

إن فقه العمران الإنساني والبحث فيه يُفضي إلى أن هذا العمران ينقسم إلى نوعين رئيسيين: عمران روحي وجداني، وعمران مادي جسماني؛ ومن ثمَّ فَإِنِّي قَسَمْتُ هذا المبحث إلى أربعة مطالب، جاءت على الشكل التالي:

- المطلب الأول: العمران الروحي
 - المطلب الثاني: العمران المادي
 - المطلب الثالث: تكامل العمرانين الروحي والمادي
 - المطلب الرابع: مخاطر الاختصار على المفهوم المادي للعمران.
- وللتوضيح والتفصيل نتناول كل مطلب على حدة؛ وليكن الشروع من الأول، أي العمران الروحي، وهاك البيان والله المستعان!!

المطلب الأول: العمران الروحي الوجداني

سبق في الفصل الأول أن عرّفُ العمرانَ بـ: "مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية الوجدانية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فردا وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي" ومن ثمّ فإنّ العمران - كما ذكرت قبل - ذو شقين روحي وجداني ومادي جسماني، بل الروحي هو الأساس والأصل والمقدمة، والثاني هو فرع عن الأول ونتيجة له؛ ولزيد من الإيضاح والبيان كان لا بد أن أبسّط الكلام في هذا الصدد، نظرا لما يعتقده البعض أن العمران مقتصر على الجانب المادي فحسب؛ بل جلّ الذين بحثوا في هذا الموضوع إنما تطرقوا لجانبه المادي وبالذات المعماري منه، وهو يبدو تحجيرا وتضييقا لما وسّع الله على وزان حديث رسول الله ﷺ حين قال للأعرابي: (لقد حجّرت واسعا)²⁸⁵

المسألة الأولى: أهمية عمران الروح

قلت إنّ العمران الروحي الوجداني هو الأصل والأساس والمنطلق لتصحيح أي مسار عمراني حضاري، إذ أنّ الإنسان هو المعمّر أي المكلف بالتعمير من لدن الحكيم الخبير، ولا يمكن أن يُعمّر حتى يكون هو عامرا أولا، إذ فاقد الشيء لا يُعطيه، وإنما عمران الإنسان المعمّر بعمران روحه ووجدانه وأحاسيسه الباطنية، وذلك أن الروح لها عمرانها الذي به يسمو هذا الإنسان، فالروح هو موطن تشريف الله للإنسان، وهو مقتضى قوله تعالى جلّ في علاه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّهُ خَلَقَ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ^(٧٠) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ^(٧١) ²⁸⁶؛ إذن بمقتضى النفخة

²⁸⁵ - جزء من حديث أخرجه البخاري في الصحيح (6010)، وأبو داود في السنن (882)، وأحمد في المسند (211/13)، وابن خزيمة في الصحيح (864) وابن حبان في الصحيح (987) من طرق عن الثوري.

وأخرجه ابن ماجه في السنن (529)، وأحمد في المسند (10533) وابن حبان (985) وغيرهم من طرق عن محمد ابن عمرو بن علقمة، كلاهما عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة.

²⁸⁶ - سورة ص: 70 / 71.

الروحانية الإلهية وقع الاستحقاق السجودي لهذا الإنسان من لدن الملائكة عليهم السلام، بأمر من الملك العالم؛ وليس بهيكله الطيني الذي نال من التقديس والعناية من لدن الإنسان المعاصر مع الأسف ما ناله، ظنًا منه أنه بالجسم استحق مركزية هذا الوجود، ونال ذاك التشريف، ورحم الله أبا الفتح البستي²⁸⁷ حين قال:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته . أتطلب الربح مما فيه خسران؟

أقبل على النفس واستكمل فضائلها . فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان²⁸⁸

ولا بد أن أشير هنا إلى أن الروح والبدن هما مكونان للنفس الإنسانية، أي أن النفس تشملهما معاً، وأنها مغايرة لمسمى الروح هذا ما أميل إليه وأؤمن به، وأبني عليه أثناء كلامي عن عمران الروح²⁸⁹؛ إلا أنه قد يُعبّر عن الروح بالقلب كما هو الحال في نصوص الشرع من القرآن والسنة وغيرهما، وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ وهو نوع من

²⁸⁷ هو أبو الفتح علي بن محمد البستي. ولد في بست (واسمها اليوم: مدينة لشكر كاه، افغانستان) سنة 330 هـ - ذكر البستي أنه ينحدر من أصل عربي، حيث يقول:

أنا العبد ترفعني نسبتي إلى عبد شمس قريع الزمان

وعمي شمس العلا هاشم وخالي من رهط عبد المنان

تتلمذ البستي على يد أبي حاتم محمد بن حبان؛ توفي ببخارى سنة 400 هـ وقيل 401 هـ؛ أنظر: الأعلام للزركلي، (4/ 326)

²⁸⁸ - اشتهرت هذه القصيدة بـ «عنوان الحكيم» أو «نونية البستي» ومطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصان وريحه غير محض الخير خسران

وكل وجدان حظ لا ثبات له فان معناه في التحقيق فقدان

²⁸⁹ - يرى بعض العلماء أنّ النفس والروح تعبّران عن شيء واحد، ومنهم من فرّق بينهما في كون أنّ النفس تتعلّق بشخصيّة الإنسان وما يجري عليها من تكاليف شرعيّة، وسنن كونيّة من موتٍ وحياةٍ ومرض، بينما الروح هي أكثر تعبيراً عن المادّة التي تعطي الجسد الحياة، والتي لا يعلم كنهها إلا الله تعالى..؛ وقد أحسن الصنع الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه الحيّ: «إحياء علوم الدين»، تحت عنوان: (بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل، وما هو المراد بهذه الأسماء) (أنظر ج: 3/ 4، 5، 6) و ما بعدها..؛ حيث بين رحمه الله معنى كل اسم من هذه الأسماء وأقسام كل اسم منها بما يتعلق بموضوع كتابه فله دره !!

أنواع المجاز المرسل - كما هو معلوم - وذلك أن للروح قلبا وسمعا وبصرا وإدراكا كما هو الشأن بالنسبة للجسم، ولذا نجد القرآن الكريم يسم الكفار بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ وَذَٰلِكَ كَآلَا نَعْمٍ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ وَذَٰلِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾²⁹⁰؛ وهذه الأشياء المنفية عنهم إنما هي من مكونات الروح وليس من مكونات الجسد، إذ أن هذه الأخيرة موجودة عندهم؛ إذن فالروح قلب يحتاج إلى ما يعمر به ويحيى به وإلا فقد الحياة الحقيقية التي لا عمران بغيرها، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَحْيَئِهَا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾²⁹¹؛ وأنى لعمران أن يتحقق والمُعمر ميت!! ولك أن تسمع إلى المحيي جلّ جلاله وهو يقول: ﴿أَوَمَسْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَا مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾²⁹²؛ فلا منزلة بين المنزلتين؛ فتأمل!!

ولقد تمت الإشارة إلى عمران القلوب والبيوت بالقرآن الكريم والذكر الحكيم صراحة كما في حديث قتادة السابق الذكر²⁹³؛ وهذا لعمرى هو العمران الأساس!! وهو المنطلق فإنما يكون العمران بالقرآن، وإنما أصل العمران عمران القلب!!

²⁹⁰ - الأعراف: 179.

²⁹¹ - الأنفال: 24.

²⁹² - الأنعام: 122.

²⁹³ - ورد في ص: 80.

ويمكن أن نقول بناء على مذهب ابن الأعرابي²⁹⁴ الذي يقول أن الأسماء كلها معللة²⁹⁵ أن اسم عمران يدل على صلاح صاحبه وعمران قلبه بالإيمان ومعرفة الواحد الديان، ومما يؤكد هذا اصطفاء الله له: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾²⁹⁶، والله لا يختار ويصطفى إلا الصالحين، إذ الصلاح سمة العمرانيين والربانيين!! قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾²⁹⁷؛ وهذه آية عمدة لطبيعة العمران وموجهة للإنسان المستعمر، إذ العمران لا يكون عمراناً على وجه الحقيقة إلا إذا عمر قلب صاحبه وامتلاً بالإيمان المرتبط بالبينات التي جاء بها رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، وعلى رأسها توحيد الله، فقد كان كل رسول يدعو قومه قائلاً: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، فإذا تنكّب هذا الإنسان المستعمر والمعمّر عن بينات الله آل عمران إلى يباب وخراب، فكان بذلك من الظالمين البائدين الخاسرين!!

وعلى هذا الأساس كان لابد من الاعتناء بهذه النفس وإعمارها إيماناً وعبادةً وسلوكاً إلى بارئها جل في علاه، وهذا يقتضي أولاً تزكيتها بالتشذيب والتهذيب عن

294 - ابن الأعرابي هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي، وهو إمام لغة وراوي وناصب علامة باللغة، له مصنفات أدبية كثيرة، ولد في 150 هـ الموافق 767م، ومات بسامراء في 13 شعبان 231 هـ الموافق 845، يعد الأعرابي من أعلام أهل الكوفة وكان أحول، أبوه مولى للعباس بن محمد بن علي الهاشمي: (ن: المكتبة الشاملة ابن الأعرابي أبو عبد الله)

295 - يقول ابن الأعرابي: (الأسماء كلها لعل، خصت العرب ما خصت منها، من العلل ما نعلمه ومنها ما نجهله..)
(ن: المزهري في علوم اللغة وأنواعها"، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، تحقق: فؤاد علي منصور، نشر: دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م؛ (1 / 399)

296 - آل عمران: 33

297 - الروم: 11

طريق تخليصها من كل شوائبها وأدرانها لتهيأ وتصلح لاستقبال واستيعاب أنوار ربها وأسراره المنبثقة في وحيه وكتابه، إذ لا بد من التخلية قبل التحلية على غرار قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ إِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾²⁹⁸، وتلك هي التزكية النفسية بمفهومها القرآني والنبوي!

المسألة الثانية: تزكية النفس منطلق عمران الروح

إن تزكية النفس²⁹⁹ منطلق أساس للإقلاع العمراني والتحليق في مراتب التحضر والتقدم، وكلية من كليات القيم العمرانية في الإسلام التي يجب التركيز عليها وتفعيلها بما يعصم الفعل العمراني للإنسان من الطغيان والاستكبار في الأرض، وبالتالي تحميه من الخراب واليباب، والأفول المحتوم، وهي أهم الوسائل في عملية التغيير، وإنشاء مجتمع الاستخلاف؛ لأنها تمثل منهجية إسلامية في ترقية الذات الإنسانية من داخلها وترسيخ كوامن القوة بها، من خلال تربية الإنسان المنوط به أمر العمران موظفاً ذلك كله في تحقيق خلافة الله في أرضه بحمل الأمانة العظمى وإتمام المسؤولية الكبرى، لذا كان كل تغيير منشود لكل عمران مقصود متوقفاً على التغيير الداخلي للنفس، وهو ما يمكن أن يُنتج عمراناً روحياً، والذي يمثل مقدمة ضرورية لإنشاء العمران المادي، وها هي الآية ناطقة بذلك ومقررة له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³⁰⁰، نعم بهذا التعبير المعجز الضارب في أعماق الوجدان والمنعكس بتجلياته على أرض الواقع المتمثل في حركة الإنسان الضاربة في تاريخ الحياة وفق مراد الله المرتبط بسننه وقوانينه في خلقه، وكذا أحكامه وشرعه، فبحركة الإنسان الداخلية التي تمثل تعميراً لروحه وعمراناً

²⁹⁸ - البقرة: 256

²⁹⁹ - سأحدث - إن شاء الله تعالى - عن تزكية النفس بشيء من التفصيل أكثر في مبحث وسائل العمران من الفصل الثالث، باعتبار تزكية النفس وسيلة من وسائل للعمران..

³⁰⁰ - الرعد: 11

لها، يتحرك التاريخ، ويتطور الزمن، وتتغير مظاهر الحياة إلى الأحسن.. وأزعم أنّ هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ³⁰¹ ﴿وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ ³⁰² ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ ³⁰¹، فسعي هذا الإنسان المعمر وعمله سوف يظهر على أرض الواقع من عمران أو خراب، وسوف يأخذ جزاءه الكامل في الدنيا و﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ³⁰²

ولأهمية هذه التركيبة في التغيير، وتحقيق العمران الروحي الذي اعتبرته أساساً ومقدمة وأصلاً للعمران المادي للإنسان الخليفة، كانت الأحكام والتشريعات في بداية الإسلام أو ما يسمّى بالفترة المكية، كما ذكر الإمام الشاطبي: " مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال بالنسبة إلى حقوق الله، أو حقوق الآدميين " ³⁰³ وهو ما يمكن اعتباره قاعدة أساسية لبناء الإنسان العمراني، ومقصداً ضرورياً من مقاصد الشريعة ذاتها، والله در الإمام الراغب الأصفهاني حين عقد مبحثاً في كتابه الموسوم ب: الذريعة إلى مكارم الشريعة بعنوان: **كون طهارة النفس شرطاً في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته** قال فيه: " لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسه ونجسه، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة، لكن نجاسة البدن تدرك بالبصر، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة، وإياها قصد عز وجل بقوله: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)، وبقوله: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)، وبقوله: (كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)؛ إنما لم يصلح لخلافة الله تعالى إلا من كان طاهر النفس؛ لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس

³⁰¹ - النجم: 39 - 41

³⁰² - إبراهيم: 50

³⁰³ - ن: "الموافقات"؛ مصدر سابق (4 / 236)،

لم يكن طاهر القول والفعل، فكل إناء بالذي فيه ينضح"³⁰⁴.

ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: " ولهذا قيل: من طابت نفسه طاب عمله، ومن خبثت نفسه خبث عمله،(..) بل قد أشار تعالى إلى ذلك بقوله(..): (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِذَاً)، ولأجل أنه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)، وقال بعضهم في قوله - صلى الله عليه وسلم -: "لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب " : إنه أشار بالبيت إلى القلب وأشار بالكلب إلى الحرص والحسد ونحوهما،"³⁰⁵.. وهو ما قصدناه من قولنا أن العمران الروحي المتمثل بصلاح قلب ونفس الإنسان المعمر، هو أساس العمران المادي المتمثل في أرض واقع هذا الإنسان؛ وهو ما يعني : أن القيم التي تحقق مقصود الخلافة للأمة، وتحقق تقدّمها هي تلك القيم التي تركز الإنسان، وتزيد في تخلقه، ولا يجوز استبعاد ذلك في أي بناء عمراني؛ ومن ثمّ يمكن القول: إن الشريعة الإسلامية بأحكامها وأصولها ومقاصدها راجعة إلى تزكية الإنسان وإصلاح ذاته؛ ومن ثم كان المسلم مطالباً في سعيه الحضاري وبناءه العمراني دائماً أن يمارس عملية العكوف على الذات لتربيتها على منهج الله، وأخذها بشرع الله، وبالتالي تحقيق عمرانها الروحي لتنتقل بعد ذلك لبناء العمران المادي الذي لا يقل أهمية عن الأول؛ وإن كان مبنيًا عليه ومتأثراً به قوة وضعفاً، ومداً وجزراً، ومن أجل ذلك كان لابد من تناول العمران المادي بالبيان والإيضاح، وهو ما نقدّمه بدءاً من الصفحة الموالية:

³⁰⁴ - ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" مصدر سابق (86 /1)

³⁰⁵ - نفس المصدر (87 /1)

المطلب الثاني: العمران المادي

حينما تحدثت في المطلب السابق عن أهمية العمران الروحي لكونه أساس العمران المادي، فلا أعني بذلك أن هذا الأخير لا قيمة له في التصور الإسلامي ومن ثمّ يمكن الإعراض عنه أو إغفاله، كلا كلا!! إذ لو كان ذلك كذلك - وهو ليس كذلك - لكان ضرباً من السلبية، وهروباً من الحياة، وبالتالي فقدان التوازن الإنساني، وهو ما يتعارض مع مقاصد الشارع الحكيم الذي جعل الإنسان خليفة له في أرضه ليعمرها بكل ما يضمن بقاءه عليها إلى أن يشاء الله، ولتعطّل وعد الله تعالى إرثه الأرض عباده الصالحين، وتمكينه عباده المؤمنين في الأرض³⁰⁶؛ ومن ثمّ كان الانسحاب من المجتمع، والانقطاع إلى الرياضات الروحية في الكهوف والجبال، أو ما يسميه بعضهم زهداً - زعموا - ضرباً من السلبية التي حاربها الإسلام في أكثر من مناسبة، وفي غير ما موضع، واعتبرها ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾³⁰⁷..

المسألة الأولى: الإسلام يدعو إلى الانخراط في حركة المجتمع

ففي الاسلام - خلافا للمسيحية مثلاً - ينطلق التدين من الفرد ولا ينتهي عنده، وإنما يشمل حركة المجتمع بكل أبعادها العمرانية الحضارية: السياسية منها والاقتصادية والثقافية والمالية والاجتماعية، إذ أن التدين الفردي وإن كان ضرورياً إذ هو المنطلق، إلا أنه غير

306 - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، {الأنبياء: 104}، وإلى قوله عزّ من قائل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، {النور: 55}

كافٍ فليس هو المنتهى، لأن هذا الدين العظيم لا ينظر إلى الفرد بمعزل عن المجتمع، وإنما ينظر إليه كجزء مكوّن لفسيفساء المجتمع، ومن ثمّ كان الإنسان كما هو مكلف بواجب العبادة - هذا على اعتبار العبادة بمفهومها الضيق، وإلا فقد بيّنا قبل أن العبادة من العمران وهو منها - مكلفاً بأداء مهام الخلافة وهي العمارة بمفهومها الواسع الذي بيّنته قبل³⁰⁸، وهو ما أسند إليه بادئ ذي بدء في قصة خلق آدم عليه السلام، فكان بذلك ما كان من وجوب التحرك القوي الواعي، طولا وعرضا وسطحا وعمقا في مجالات الحياة كلّها، مستصحبا أحكام الشريعة وربطها بمقاصدها وما يستصحبها من أخلاق وقيم عليا ..

لكنّ التخلف الفكري ألقى بظلاله القائمة على كثير من المسلمين فأثّر انسحابا من معترك الحياة العامة، وأضحوا يُقَصِّرون الصلاح على الفرد واستقامته الروحية واكتفائه بذلك على أن يتولى الله تبارك وتعالى - في زعمهم مع الأسف - تدبير حياة المسلمين كما يشاء سبحانه، وأفرغوا التوكل مع الأسف من معانيه الحقيقية حتى أضحى عين التواكل وذاته! وكان الواجب حقيقة - وما يزال - على المفكرين والمثقفين والموجهين للأمة أن يُبرزوا للمسلم مهمته في الحياة المتمثلة في وجوب قيامه بمهام الخلافة والعمارة التي تتجاوز المجهود الفردي لاستيعاب المجتمع والأمة، بل والإنسانية جمعاء، كما لا تنحصر عند الحياة البسيطة التي كان عليها الناس وقت التنزيل وإنما تستوعب بأحكامها وقيمها وأخلاقها وتشريعاتها جميع أشكال الحياة، ومختلف البيئات مهما تعقدت صور النشاط الإنساني وتكاثرت المستجدات وتزاحمت الحاجات، وهذا يُوجب على المتمسكين بالدين الإقدام بدل الإحجام، والدخول القويّ المتنوّع في الحراك المجتمعي للقضاء على الانفصام النكد المتمثل في اكتفاء أهل الدين والصلاح بتنمية الجانب التعبدية الفردي، وترك ساحة العمل السياسي والإداري والمالي والأدبي والفني للعلمانيين واللا دينيين، متشبّهين - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - بمن قالوا دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر!! وهذا ما أورد

³⁰⁸ . راجع ذلك مفصلا في المبحث الثاني (تعريف العمران) من الفصل الأول من هذا الباب من الأطروحة..

أجيالا بأكملها سلبية عاطلة في الميدان الاجتماعي مع مبالغة واضحة في التعبد الفردي الضيق

إن الإسلام في حاجة ملحة وعاجلة لا تقبل التأخير أو التأجيل إلى رجال ذوي صلابة في الدين وخلق واستقامة وكفاءة عالية يتزاحمون بكفاءتهم على مناصب الحياة العمرانية والحضارية في كافة مجالاتها، من أجل المساهمة في نصرة الإسلام وخدمة المسلمين، بذلك يؤدون واجبهم ويضعون لبنات التمكين ويعيدون النّصاعة لصورة ديننا الحنيف حتى نعلم نحن والآخرون أن المسلم أداة لطاعة الله في القيام بالوظيفة الاستخلافية لتحقيق حياة كريمة نظيفة فيها التقدم والإبداع والازدهار في كل المجالات العمرانية والحضارية، وليس ما عليه المسلم اليوم من عطالة وكسل وتخلف وسلبية قاتلة؛ ولنا في يوسف عليه السلام الذي كان ذا كفاءة عالية واستحقاق كبير فانخرط في عمران أرض مصر مذ قال لملكها: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِي الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلِيمٌ﴾³⁰⁹؛ فكان عليه السلام بعد ذلك ﴿فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾³¹⁰!!

ومن أجل ذلك حارب الإسلام السلبية في كل صورها مصادرها وضرب عنها صفحا؛ فبدّع الترهّب والاعتزال والانسحاب من الحياة العامة، وضاعف الأجر بالعمل، وحثّ على الضرب في الأرض والمشى في مناكبها، وحذّر من الطرق المؤدية إلى تبديد الحضارات وتلاشي عمرانها وهلاك الأمم؛ ولا أدلّ على ذلك ممّا هو مسطرّ في الفقه الإسلامي من تشريعات جعلت إعمار الأرض المهمة سببا مباشرا لتملكها في ما سُمّي بإحياء الموات، وحرّمت تقطيع الأشجار أو حرقها إلا لضرورة ملحة، ممّا دفع بالفقهاء حديثا - استنادا لأصول الشريعة ومقاصدها وضوابطها - إلى تحريم وتجريم استخدام الأسلحة الكيميائية والجرثومية والنووية لما تُحدثه من دمار شامل على مساحات واسعة،

309. يوسف: 55.

310. يوسف: 56.

تطال آثاره كل أنواع العمران الإنساني فتدمر الإنسان كل الإنسان دون تمييز بين مقاتل وغير مقاتل، وتقتل الحيوان والنبات وتهلك الحرث والنسل، وتفسد في الأرض، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾³¹¹ وهو ما يتنافى مع أدبيات الإسلام وقيمه حتى في الحروب ذاتها³¹² ..

المسألة الثانية: دلالة قصة بدء الخلق على العمران المادي

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى قصة بدء الخليقة والنشأة الأولى كما عرضها القرآن الكريم نجد إشارة قوية إلى كون الإسلام اعتنى بعمارة الأرض ورعاية الكون عناية خاصة وأولاهها اهتماماً مشهوداً، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون وهياً فيه الظروف المثلى للحياة السعيدة المستقرة، ثم استخلف فيه الإنسان ليقوم بإعمارها على الوجه الأكمل الذي يحقق به مرضاة ربه وخدمة بني جنسه وخدمة الكون من حوله؛ قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾³¹³، كما أشار - في سياق ذلك - إلى أن أكبر مهدد لاستمرار الحياة الطبيعية على هذا الكوكب إنما يأتي من سفك الدماء والإفساد في الأرض؛ وها هي الآية ناطقة بصريح العبارة، اسمعها يا صاح، مرة ومرة فها نصها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَاَلْوَأَ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾³¹⁴؛ فالإفساد - الذي هو ضد الإعمار - أكبر خطر يمحق الوجود العمراني، لذا خشيت الملائكة وقوعه من لدن من كُلف بعمران الأرض، ومن استقرأ آيات القرآن الكريم ألفهاها محذرة بأشد العبارات من الوقوع في هذا الوصف الفظيع - أي

311. البقرة: 205

312. ن: مثلاً كتاب "أخلاقيات الحرب في الإسلام" د. محمد إقبال الناططي الندوي، الطبعة: 1435هـ/2014م

313. هود: 61

314. البقرة: 29

الإفساد - من مثل قوله عزّ من قائل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾³¹⁵؛ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْقَبْسَادَ﴾³¹⁶، وقال ﴿وَلَا تَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾³¹⁷؛ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾³¹⁸؛ وجرم إراقة الدماء - بغير حق - أيما تجريم، وجرم الاعتداء على الممتلكات الخاصة أو على مالكيه، كل ذلك كان من أجل التحريض على القيام بالواجب العمراني والتعبدي والخلافي أيضا..

المسألة الثالثة: نصوص الشرع تحارب الفساد وتضيق الخناق على المفسدين

وإذا تتبّعنا التشريع القانوني في سياقه القرآني نجد أشد العقوبة وأقساها وُضعت في الإسلام ضد المفسدين في الأرض لمنعهم من تحقيق مرادهم حفاظا على عمران الأرض وصلاحها، وإليك الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنَبَّوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾³¹⁹، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (سألني الحجاج قال: أخبرني عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ قال قلت: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من البحرين، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقوا من بطونهم، وقد اصفرت ألوانهم وضمرت بطونهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم عمدوا إلى الراعي فقتلوه واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم ثم ألقاهم في

315 . المائدة: 65

316 . البقرة: 205

317 . البقرة: 60

318 . الأعراف: 56

319 . المائدة: 33

الرمضاء حتى ماتوا)³²⁰؛ هذا في سياق من يقطعون الطريق أمام إعمار الأرض وازدهارها، أما عن الوسائل والمشاركة المباشرة في إعمار الأرض فتشريعات الإسلام مليئة بالتقعيد والتنظير - وهو الذي نسعى لجمعه والبحث فيه بإذن العلي القدير - لإعمار الكون بأفضل منهج متوازن يحقق الاستقرار النفسي والروحي للكون وساكنيه، فقد حث أبلغ الحث على بذل الجهد واستفراغ الوسع في إعمار الأرض وعمرانها حتى في أحلك الظروف، فلنستمع مرة أخرى لأنس رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة صغيرة) فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)³²¹؛ وحثّ على الزراعة وتشجير الأرض منعا للتلوّث؛ ونشراً للخضرة والخير، حيث قال ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)³²²، ورواية عند مسلم: (ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يزرؤه أحد إلا كان له صدقة)³²³، وفي سياق الحفاظ على البيئة الطبيعية وما فيها من حيوان وطيور، وردت جملة من النصوص الشرعية، وهو ما نبّه بعض الباحثين إلى سبق الإسلام إلى المناداة بمفهوم المحميات الطبيعية بصورة أكثر شمولاً مما تعارف عليه البشرية اليوم، من حيث إنّه لا يقتصر على حماية الطير أو الحيوانات فحسب، بل يشمل أموراً كثيرة، مستشهداً لذلك بجعل الرسول ﷺ المدينة المنورة محمية طبيعية؛ حيث قال: (اللهم إنّ إبراهيم حرّم مكة، وإنيّ أحرّم المدينة، حرام ما بين حرّتيها، وحماها كلّها، لا يختلى خلاها (لا يقطع نباتها)، ولا ينقّر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشار بها، ولا تقطع منها شجرة، إلا أن يعلف رجل بعيّره، ولا يحمل فيها السلاح

320. أصله في صحيح البخاري برقم 5253

321- سبق ترجمته في مقدمة هذه الأطروحة، ص: 6

322. رواه البخاري (2/ 817).

323. أخرجه مسلم (3/ 1188، رقم 1552).

لقتال. ³²⁴

المسألة الرابعة: الإمام الأصفهاني يوضح مقصود الشارع

ولمزيد من البيان والتوضيح ننقل كلاماً في غاية النفاسة للإمام الراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة، له علاقة بما نؤصله من أهمية العمران المادي لتحقيق مهمة الخلافة المنوطة بهذا الإنسان، وهو ما يجسّد نظرة الإسلام الوسطية المتوازنة التي وضعت الأمور في نصابها دون إفراط ولا تفريط؛ يقول رحمه الله تعالى بعدما تناول أحوال الناس لأعراض الدنيا حيث قسّمهم إلى قسمة ثلاثية: (طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة أضرب:

فالأول: مَنْ يتناولها على أي وجه اتفق، راکناً إلى المال غير متفكر في المال، وإياه قصد تبارك وتعالى بقوله في ذم من ذمه: (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)..

والثاني، من يتناولها على الوجه الذي يجب تناولها عليه، وذلك أن يقتصر على ما لا يمكن التبليغ بأقل منه، من الوجه الذي يجب كما يجب، ولوجوب تناول هذا القدر قيل: مباحات الصوفية فريضة، وفريضتهم مباحة(..)

والضرب الثالث: من يتوسع في تناولها ويراعي فيها ما يجب، لكن يكون فيه وكيلاً لله تعالى فيقتصر منها لنفسه على تناول بلغته، ويجعل الباقي مصروفاً إلى ما دعي إليه، فهذا أفضل (..) فإنه يصير بذلك من خلفاء الله عز وجل؛ فمن تناول الدنيا على أحد هذين الوجهين فقد ارتسم لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ³²⁵؛ وبالاعتبار بمثلهم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ³²⁶، وقال: ﴿وَلَقَدْ

³²⁴ أخرجه أحمد في المسند (119/1)

³²⁵ القصص: 77

³²⁶ البقرة: 60

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿٣٢٧﴾
 فجعلها لهم إرثاً، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾³²⁸؛ وقال: ﴿لَيْسَ
 عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾³²⁹؛ والفضل هو الإحسان، فنبه
 بذلك أن تناول المال إذا نُحِرِيَ به الوجه الذي يجب كما يجب فهو فضل وإحسان يستحق
 به الثواب وعلى ذلك قوله: (وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)، وقال في مدح قوم يتناولون الدنيا
 كما يجب من حيث ما يجب: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾
 330، 331 ..

قلت: وهذا النوع الأخير في التعامل مع الدنيا فهم الذين فهموا مقصد الشارع من
 إيجادهم على هذه البسيطة، وهو تحقيق العبودية بمعناها الشامل المتناغم مع النظرة
 الاستخلافية للإسلام، وبالتالي تحقيق العمران المادي الذي خصصنا له هذا المطلب،
 إضافة إلى العمران الروحي الذي تمّ التطرّق إليه في المطلب السابق، وهو ما يطرح تساؤلاً
 حول العلاقة بين العمرانين الروحي والمادي!!
 وللإجابة عنه لابد من تخصيص مطلب آخر أجعله ثالث المطالب ضمن هذا المبحث،
 ونُرجئه إلى الصفحة الموالية:

327 . الأنبياء: 104

328 . الأنبياء: 105

329 . البقرة: 198

330 . النور: 36

331 . ن: " الذريعة إلى مكارم الشريعة " بتصرف؛ مصدر سابق؛ ص: (1 / 279 - 280)

المطلب الثالث: تكامل العمرانين الروحي والمادي:

بعد حديثنا في المطلبين السابقين عن كل من العمرانين الروحي والمادي، وخلصنا إلى أن العمران الروحي أساسٌ ومقدمةٌ وأصل للعمران المادي والحضاري للإنسان الخليفة، وأن هذا الأخير نتيجةٌ له وثمرَةٌ من ثمراته، ولا يخفى على الحصيف ما بين المقدمة والنتيجة، وما بين الأصل والفرع من علاقة، فما طبيعة هذه العلاقة الرابطة بين العُمرانين؟

المسألة الأولى: تأثير العمران الروحي في العمران المادي

وجواباً على هذا التساؤل نمهد بكلام الراغب الأصفهاني - وقد سقته قبل³³²، وأكرر بعضه هنا لأهميته - حيث يقول: " لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس، قد أزيل رجسه ونجسه، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة، لكنّ نجاسة البدن تدرك بالبصر، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة (...). و إنما لم يصلح لخلافة الله تعالى إلا من كان طاهر النفس؛ لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل، فكل إناء بالذي فيه ينضح"³³³..

فلعمري إنّ قوله: "ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل"، أي العمل - كيفما كان هذا العمل وفي أي مجال كان من مجالات الحياة - هو ما يجسّد العلاقة بين العمران الروحي والعمران المادي، إذ أنّ طهارة النفس وتزكيتها هي أول خطوة في تحقيق العمران الروحي كما بيّنتُ قبل³³⁴، والذي ينبني عليه العمل ومن خلاله تتحدّد طبيعته، وما العمل إلا مُنتجٌ للعمران المادي بشتى أشكاله وصنوفه وضروبه!! ويزيد الراغب - لله درّه - الأمر وضوحاً بقوله: "ولهذا قيل: من طابت نفسه طاب عمله، ومن خبثت

³³² ن: ص: 139 من هذا البحث

³³³ ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" مصدر سابق، (1/ 86)

³³⁴ ن: المطلب الأول: العمران الروحي من هذا المبحث من الفصل الثاني من الباب الأول

نفسه خبث عمله..")³³⁵؛ وهذا ما يؤكد دور العمران الروحي وتأثيره على العمران المادي كما قرّرت!!

المسألة الثانية: العمران المادي ثمة للعمران الروحي

كما لا يخفى أن العمران المادي بما بينناه قبل، والمتمثل في كافة المنشآت في جميع الميادين الحياتية هو مكمل للعمران الروحي، بل هو مؤشّر قوي على طبيعة العمران الروحي كمالا ونقصانا، صلاحا وفسادا، قوة وضعفا!! والدليل على ذلك ما نجده من اقتران الإيمان بالعمل الصالح في السياق القرآني والحديثي أيضا. وهو ما قصدناه من قولنا أن العمران الروحي المتمثل بصلاح قلب ونفس الإنسان المعمر هو أساس العمران المادي المتمثل في كلّ مناحي الحياة العمرانية على أرض الواقع، وأنّ هذا الأخير - أي العمران المادي - هو نتيجة وثمرّة للعمران الروحي، وهو ما يعني: أن العلاقة بين العمرانين علاقة ترابط وتكامل لا يُغني أحدهما عن الآخر، وهذا ما تؤمن به النظرة الإسلامية التي تجمع بين مطالب الروح والجسد وبين الدنيا والآخرة، دون إفراط لهذا الجانب أو ذاك، أو تفريط في هذا أو ذاك، بل بتناولها - أي المطالب أعني - بمنهج وسطي فريد، وميزان دقيق سديد!! وهو ما أثبتته القرآن الكريم في غير ما آية وفي أكثر من موضع، ويبيّنهُ السنة النبوية الشريفة ببيانها الشافي الكافي قولاً فعلاً وتقريراً، في أكثر من حدّث وفي غير ما حديث!!

المسألة الثالثة: القرآن الكريم يجمع بين العمرانين

ففي القرآن الكريم مثلاً نجد آية مؤطرة للعمران الإسلامي المتوازن، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾³³⁶؛ فهذه الآية ومثيلاتها ناطقة ومبيّنة أن الإسلام يجمع بين العمرانين، الروحي والمادي

³³⁵ - ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" (1/ 87)

³³⁶ . القصص: 77

معاً؛ فقد أقرَّ العمرانَ الماديَّ المشكَّلَ لزينة الحياة الدنيا، المتمثلة في بساتنها وأشجارها ومبانيها وأنهارها وغير ذلك.. وحاجة الناس إليها، فأباح لهم كلَّ ذلك، على أن لا يصدِّهم عن العمل للآخرة، والسعي إلى مرضاة الله عز وجل، وهو منطوق هذه الآية: ﴿فُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ فُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْفَيْمَةِ كَذَلِكَ نُبَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾³³⁷، فهذا التفصيل للآيات هو بيان وتوضيح للعلاقة الرابطة بين العمرانين الروحي والمادي، وأنه ليس من الإسلام في شيء تغليب أحدهما على حساب الآخر كما وقع للنصرانية أو اليهودية بعدما طاهما التحريف والتزييف ممن اشتروا بآيات الله ثمننا قليلاً! وإنما تنزيل كل واحد منها منزلته بالقسطاس المستقيم، وهو ما يُبرز ويحدّد منهج الإسلام الوسطي ونظرته المتوازنة بين مكّونات العمران الروحي والعمران المادي إذ لا بد منهما معاً!!

ولتأكيد وتعزيز هذا نذكر مرة أخرى كلاماً للراغب الأصفهاني حول أحوال الناس في مراعاة أمور الدنيا والآخرة؛ يقول: "الناس في ذلك على ثلاثة أضرب:

صنف: هم المنهمكون في الدنيا بلا التفات منهم إلى العقبى، وهم المسمون عبدة الطاغوت، وشر الدواب، ونحوهما من الأسماء.

وصنف: مخالفون لهم غاية المخالفة، يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا.

وصنف: متوسط بينهما قد وفّوا الدارين حقّهما؛ وهذا الصنف هم الأفضلون عند الحكماء، لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة، ومنهم عامة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم لأن الله تعالى بعثهم لإقامة مصالح المعاد والمعاش، ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذي

هو أشرف الأحوال"338..

فقد اعتبر هذا الإمام الصنف الثالث الذي جمع بين مطالب الدنيا والآخرة، بين الروح والبدن، أو ما سميناه في بحثنا هذا العمران الروحي والمادي، هو أفضل أصناف الناس، وعللّ أفضليتهم بكون أمورهم مبنية على الاعتدال الذي هو أشرف الأحوال، وجعل الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه من هذا الصنف الأفضل لكونهم بُعثوا لإقامة مصالح المعاد والمعاش؛ ومن نظر إلى مقاصد الشريعة الإسلامية، وعلى رأسها الضروريات الخمس التي اتفقت الشرائع السماوية كلّها بحفظها ومراعاتها تبين له أن مقصود الشارع من المكلف هو مراعاة مصالح دنياه وآخره، وبالتالي إنشاء عمرانه الروحي والمادي على حد سواء، وذلك مقتضى وظيفته الخلافية!

المسألة الرابعة: التطبيق النبوي يؤكد على أهمية العمرانين معا

ولو رجعنا إلى المجال التطبيقي للشريعة الإسلامية لوجدنا سيدنا رسول الله ﷺ حينما أراد أن ينشئ دولة الإسلام أنه ﷺ ما إن وصل إلى المدينة المنورة حتى بدأ بتجسيد نظرية الإسلام الشاملة للحياة الجامعة بين مطالب الروح والجسد والدنيا والآخرة، والمنشئة للعمرانين معا، فبدأ بتشيد المسجد النبوي الشريف، كمركز للعمران الروحي؛ لكنه لم يكتفِ بذلك بل مرّ مباشرة إلى إقامة سوق، كمركز تجاري يُقام فيه النشاط الاقتصادي الذي يمثّل جانبا أساسا من جوانب العمران المادي؛ وبذلك يكون ﷺ وقرّ أدوات التعبّد الروحي أو ما سمّيته بالعمران الروحي، وأقام الجانب الاقتصادي الذي هو جزء من العمران المادي!!

ولئن كانت الحياة الاجتماعية وقتئذ بسيطة، إلا أن الرسول ﷺ وضع معالم أساسية ومنهجاً مُستوعباً لكلّ حياة مهما تعقّدت وتنوّعت، وهو ما يتناسب مع كون الإسلام

338 . ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، مصدر سابق، ص: 281

شاملا لكل مناحي الحياة ومجالاتها، وصالحا لكل زمان ومكان وإنسان!!

إن دين الإسلام هو خاتم الأديان، وقد جاء لينظم الحياة كلها، دينا ودنيا وآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾³³⁹، وفي دعاء المسلمين في مواضع متفرقة يقولون: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فهذا دين الله الكامل والشامل والجامع، جمع بين حق الله وحق العبد، وبين أمر الدنيا وأمر الآخرة، من أجل بناء العمرانين الروحي والمادي معا، وتلك هي الحضارة الإسلامية التي أنارت العالم البشري طيلة قرون متتالية..

المسألة الخامسة: المسلمون الأوائل أقاموا العمرانين معا

إن المسلمين الأوائل لما فهموا ذلك وأدركوه جمعوا بين العمرانين معا، فأنتجوا حضارة بلغت في مجالات العلوم النظرية والعملية أعلى المنازل، وكانت الحضارات تتبع المسلمين في تقدمهم وعلومهم، ولا تزال بعض الجامعات الغربية العريقة تعترف بهذا..

إلا أن الانبهار ببريق الحضارة الغربية ألصق بالإسلام دعوات متهافنة أمام الحقائق التاريخية، كالربط بينه وبين التخلف والرجعية والجهل، مع أن من درس الإسلام بعمق وإنصاف ألقاه منهجا متكاملا وشاملا، جاء لإسعاد البشرية وانتشالها من غياهب الضلال والضياع، وهو ما عبّر عنه الصحابي الجليل ربعي بن عامر³⁴⁰ أمام قائد الفرس بقوله: "إن الله ابتعثنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"³⁴¹؛ فهو الدين الذي جمع بين العقيدة

³³⁹ - الأنعام: 162

³⁴⁰ - ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو الأسدي العمري التميمي أحد قادة الفتح الإسلامي للعراق، أدرك ربعي بن عامر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وشهد فتح دمشق، وله ذكر أيضاً في غزوة نهاوند، وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان، ثم خرج إلى القادسية مع هاشم بن عتبة. كما شهد فتوح خراسان؛ نقلا عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا بتصرف..

³⁴¹ - ن: "البداءة والنهاية" للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) دار الفكر، سنة: 1407 هـ - 1986 م، (39 / 7).

النقية، الأخلاق الراقية، والتشريعات السامية، كل ذلك من أجل القيام بمهمة الاستخلاف وعمارة الأرض.. إنه الإسلام الذي يدعو للأخذ بأسباب القوة ويحُضُّ على العمل ولو في أصعب الظروف وأحلكها، ولا أدلّ على ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها) ³⁴².. ولذا ساق القرآن نماذج من القصص في التخطيط العمراني والحضاري، كقصة ذي القرنين بأبعادها الحضارية، والهدد السليماني بأبعادها الإدارية والقيادية، والقصة اليوسفية بتدبيرها وتخطيطها الاقتصادي، كل ذلك تعليمًا وتقريرًا لدور منهج الإسلام في الارتقاء بالناس وبناء عمرانهم وتشديد حضارتهم ..

وفعلا حينما استمسك المسلمون الأوائل بهذا المنهج، أنتجوا حضارة إسلامية بلغت مشارق الأرض ومغاربها، وقدمت أنموذجًا فريدًا في سياق التاريخ، ولما صدَفَ المسلمون عن هذا المنهج الفريد أصابهم ما أصابهم من تخلف وتدهور، وهو ما نعيشه في وقتنا الراهن ممّا لا يستطيع أحد إنكاره، وهو ما يفسّر حقيقة العلاقة بين الإسلام والتحضر، فهي علاقة طردية، ومن ثمّ يمكن أن نستخلص قاعدة عمرانية ³⁴³ مفادها: **أن تطبيق الإسلام يُنتج عمرانًا وتحضرًا، وأن النكوص عنه يساوي تخلفًا وخرابًا؛** وهذا فعلا ما أثبتته التاريخ ممّا لا مجال لدحضه أو رده، ومن ثمّ يتبيّن زَيْفَ مَنْ اعتبر الإسلام مسؤولًا عن التخلف، وإنما يُسأل عن ذلك من جعلوه وراءهم ظهرًا، وصار حالهم كمن قيل فيه:

حسبوا بأن الدين عزلة راهب ** واستمروا الأوراد والأذكارا

عجا أراهم يؤمنون ببعضه ** وأرى القلوب ببعضه كفارا

المسألة السادسة: الغريون يشيدون بالنظرة العمرانية للإسلام

ولتأكيد ما أصّلناه نسوق بعض شهادات المنصفين من الغريين؛ وليكن البدء بالعالم الصيني (لي قوان فبين) حيث جاء في قوله مبينًا قوّة الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارات

342- سبق تخرجه في مقدمة هذه الأطروحة، ص: 6

343 - سنقرّر بمشيئة الله تعالى بعض القواعد العمرانية مع دراستها في الباب الثاني..

الأخرى: "الحضارة الإسلامية من أقوى حضارات الأرض، وهي قادرة على اجتياز أي عقبات تواجهها؛ لأنها حضارة إنسانية الطابع، عالمية الأداء، رفيعة القدر علميًا وفكريًا وثقافيًا، وبعدها تعمّقت في الأدب العربي القديم والحديث ازداد اقتناعي بأن الشرق يمتلك سحر الحضارة والأدب والثقافة، وأنه صاحب الكلمة المفكّرة والعقلية المنظمة؛ إذن فالحضارة الإسلامية تحمل عوامل البقاء، لأنها عصية على الهدم، لتوافر أركان التجدد والحيوية في نبضها المتدفق، وهي من أقوى حضارات الأرض قاطبة؛ لأنها تستوعب كل ما هو مفيد من الآخر وتصهره في نفسها ليصبح من أبنائها، بخلاف الحضارة الغربية المعاصرة، كما أن الحضارة العربية الإسلامية تتسم بأنها عالمية الأداء والرسالة، إنسانية الطابع، جوهرها نقي ومتسامح" ³⁴⁴.

وأثني بشهادة أخرى للمستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) ³⁴⁵ في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)، تقول: "إن أوروبا مدينة للعرب وللحضارة العربية، وإن الدين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبير جدًا. وكان يتعين على أوروبا أن تعترف بهذا الفضل منذ زمن بعيد، لكن التعصب واختلاف العقيدة أعميا عيوننا وتركنا عليها غشاوة، حتى إننا لنقرأ ثمانية وتسعين كتابًا ومئة، ولا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا تلك الإشارة العابرة إلى أن دور العرب لا يتخطى دور ساعي البريد الذي نقل إلينا الثرات الإغريقي"

وأضيف شهادة ثالثة للسير أنتوني ناتنج في كتابه "العرب: تاريخ وحضارة" وهو يتحدث عن قرطبة العاصمة الأموية في الأندلس آنذاك: "وكان تعداد سكان قرطبة يناهز 800 ألف نسمة، وارتفع عدد المساجد إلى 700، وكان في المدينة 300 من الحمامات

³⁴⁴ - ن: "مجلة حراء" (مجلة علمية ثقافية فصلية)، العدد 9، (أكتوبر - ديسمبر) 2007

³⁴⁵ - زيغريد هونكه (26 أبريل 1913 في كيل - 15 يونيو 1999 في هامبورغ) كانت مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام 1941. م. اشتهر عنها في آخر حياتها أنها كانت تنظر للإسلام نظرة معتدلة، كما هو واضح من أشهر تراجم كتاباتها انتشارا في العالم العربي، وهما شمس العرب تسطع على الغرب، وكتاب الله ليس كذلك، نقلا عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا..

العمومية في وقت كانت فيه الشعوب الأوروبية لا تزال تعتبر الاستحمام عادة وثنية، وكانت الشوارع مُمهّدة ومُضاءة - وطولها 10 أميال - وهو تقدم كان مُقدّراً ألا تنعم به لندن وباريس قبل 700 عام تالية، كان المواطنون أثناءها يتحسّسون طريقهم ليلاً في الظلام الحالك يتخبّطون في وُحُول تغوص فيها الأقدام حتى الكعبين، وكانت المدينة تضمّ 70 مكتبة عامة؛ وكان حُكّام ليون ونافار وبرشلونة يرسلون إلى قرطبة إذا احتاجوا إلى طبيب أو مهندس معماري، لا إلى فرنسا ولا إلى ألمانيا، وكانت قرطبة تجتذب الطلاب من أوروبا وإفريقيا وآسيا..

ويصف المؤرخ الأمريكي فيكتور روبنسون الحضارة الإسلامية في بعض صورها فيقول: "كانت أوروبا في ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة، كانت أوروبا تغطيها الهوام بينما أهل قرطبة مثال للنظافة، كانت أوروبا غارقة في الوحل بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع، كانت سقوف أوروبا مملوءة بثقوب المداخن بينما قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة، وكان أشرف أوروبا لا يستطيعون توقيع أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس، وكان رهبان أوروبا يلجئون إلى تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة"³⁴⁶

وقد سقت هذه الشهادات من غير المسلمين لتفنيد بعض الدعاوى التي تزعم أن سبب تأخر المسلمين هو إسلامهم، وإذا أرادوا أن يتقدّموا فليتركوا إسلامهم جانبا؛ ثم لتقرير الحقيقة التي لا يُنكرها إلا جاحد، وهي أن الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته تُبْنَى الحضارةُ ويشيّد ويُقامُ العمرانُ بشقيه الروحي والمادي، ذلك ما كان والله المستعان!!

إذن مما سبق نخلص إلى القول أن العمران بنوعيه وشقيه الروحي والمادي هو ما قصده المنهج الإسلامي من خلال تشريعاته ونصوصه، وهو ما كُلفَ به الإنسان

³⁴⁶ - ن: "موسوعة الحضارة الإسلامية" لأحمد شلبي، الجزء الاول، 1989 م نقلا عن موقع قصة الإسلام، تحت اشراف

الدكتور راغب السرجاني.

الخليفة مُدَّ عُهُدَتْ إِلَيْهِ أَمَانَةُ الْخِلَافَةِ الَّتِي تَقْتَضِي تَعْمِيرَ الْأَرْضِ وَعِمْرَانَهَا بِمَا يَعُودُ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ عَلَى الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ!! وَمَنْ ثَمَّ كَانَ الْاِقْتِصَارُ عَلَى أَحَدِ نَوْعِي الْعِمْرَانِ ضَرْبًا مِنَ الْإِخْلَالِ بِالمَسْئُولِيَةِ الَّتِي أُنِيطَتْ بِالْإِنْسَانِ الْمُعَمَّرِ الْخَلِيفَةِ، وَسَبَبًا فِي حَدُوثِ مَخَاطِرٍ وَآفَاتٍ، وَهُوَ مَا نَلْحُظُهُ فِي وَاقِعِ الْإِنْسَانِ الْمَعَاصِرِ الَّذِي أَهْتَمَّ بِالْجَانِبِ الْمَادِيِّ مِنَ الْعِمْرَانِ الْإِنْسَانِيِّ دُونَ جَانِبِهِ الرُّوحِيِّ؛ وَهُوَ مَا نَخْصُصُ لِلْحَدِيثِ عَنْهُ مَطْلَبًا آخَرَ؛ نَنْتَقِلُ إِلَيْهِ فِي الصَّفْحَةِ الْقَادِمَةِ:

المطلب الرابع: مخاطر الاختصار على المفهوم المادي للعمران:

لقد اتضح من خلال المطالب الثالث من هذا المبحث أن العمران الذي كُلفَ به الإنسان من لدنّ الرحيم الرحمان بما هو عملية استخلافية تكليفية، له جانبان لا يمكن الاستغناء عن أحدهما، فهما بمثابة جناحي الطائر الذي لا يستطيع أن يُحلق بواحد منهما دون الآخر، ذلك مثل مَنْ اقتصر في عمرانه للأرض على الجانب المادي وتوغل فيه إلى حدّ الإشباع والانتشاء، فكان من الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰبِلُونَ﴾³⁴⁷ فأصابه ما أصابه من الضنك والشقاء، وجعل الله ﴿صَدْرَهُ ضَيِّفًا حَرِيًّا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾³⁴⁸، وهو ما عابه القرآن على مَنْ وقع فيه في أكثر من سياق، وفي غير ما مثال، بل وحذر من نتائجه وعواقبه، من مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾³⁴⁹؛ وهذه - لعمرى - آية صارخة في أذن الإنسان، ضاربة في عمق الزمان والمكان، مُنذرة لكل من اقتصر على الجانب المادي للعمران، - كالحضارة الغربية المعاصرة اليوم - والله المستعان !!

المسألة الأولى: القرآن يقصّ مآل الماديين

وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة لمآل مَنْ كان ذلك ديدنه، وجعل ذلك عمرانه؛ أبدأ بسوق قصة قوم عاد الذين بلغوا من القوة شأواً عظيماً، وبلغوا من العمران المادي ما بلغوا

³⁴⁷ - الروم: 7

³⁴⁸ - الأنعام: 125

³⁴⁹ - الروم: 9

حتى قال لهم نبيهم هود عليه السلام مُنَوِّها بالقوة العمرانية، ومُحذِّرا في الوقت ذاته من أن يُسْتَصْحَبَ ذلك العمران المادي بخراب روحي واستكبار طغياني: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ - آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾³⁵⁰، ثم نصحهم بقوله: ﴿ بَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنعَمٍ وَبَيْنَ ٱلْجَنَّتِ وَٱلْغُيُوبِ ﴿١٣٤﴾ إِنَّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾³⁵¹، فقد أرشدهم إلى عدم الاغترار بالقوة المادية إذ ينجُم عنه طغيان واستكبار وعلو في الأرض، وبالتالي خراب للعمران وهلاك للإنسان؛ وهو ما وقع بالفعل نتيجة تمردهم على خالقهم وإصرارهم على مخالفة أمر نبيهم هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾³⁵²، نعم تم إهلاكهم وخراب عمرانهم!! بأن أهلكوا: ﴿ بِرِيحٍ صَرَصِرٍ عَاتِيَةٍ ﴿١٣٩﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿١٤٠﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿١٤١﴾ ﴾³⁵³؛ لقد صاروا أثرا بعد عين، وخبرا بعد حين!! ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾؛ نعم إنها آية للمؤمنين وعبرة للمتوسمين بما هي سنة وقاعدة عمرانية تؤطر اجتماع الناس وعمرانهم؛ وقد فصل العلامة الطاهر بن عاشور³⁵⁴ في معنى الآيات بما فيها من العبر والدلالات

³⁵⁰ الشعراء: 130 / 129 / 128

³⁵¹ - الشعراء: من 131 إلى 135

³⁵² - الشعراء: من 136 إلى 139

³⁵³ الحاقة: من 5 إلى 7

³⁵⁴ الطاهر بن عاشور (1296 - 1393 هـ / 1879 - 1973 م) فقيه مالكي معاصر ورئيس المفتين المالكيين

بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس مولده ووفاته ودراسته بها، عين (عام 1932) شيخا للإسلام

على هلاك مَنْ خالف أمر رب الأرض والسموات، نورده مختصراً مع بعض الإضافات لتحصيل المراد؛ فقال ما مختصره: " رأى من قومه تمحضا للشغل بأمور دنياهم، وإعراضا عن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظر في العاقبة، وإشراكا مع الله في إلهيته، وانصرافا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت هماتهم إلى التعاضم والتفاخر واللهو واللعب.

وكانت عاد قد بلغوا مبلغا عظيما من البأس وعظم السلطان والتغلب على البلاد مما أثار قولهم: من أشد منا قوة، (..) وتفننوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذات واشتد الغرور بأنفسهم فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس - وهو ما سميته بالعمران الروحي، وفيه دليل على أنهم اقتصروا على العمران المادي - وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفوا بجانب الله تعالى، واستحتمقوا الناصحين، وأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به وبذمه، إذ (..) أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون (..)، واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه، وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرّب منها المسافرون ويتنفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشرف من الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، - وهذا من العمران المادي الذي له من الأهمية ما بينت قبل - فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا؛ قلت: وبهذا يحصل التكامل بين العمرانين الروحي والمادي،

مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، و (الوقف وآثاره في الإسلام) و (أصول الإنشاء والخطابة) و (موجز البلاغة)، و (أليس الصبح بقريب)، وما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء، وكتب كثيرا في المجالات .. نقلا عن: «الأعلام» للزركشي

وهو ما يتحقق به الاستخلاف³⁵⁵؛(..) والأعمال إذا خلت عن مراعاة المقاصد التي ترضي الله تعالى اختلفت مشارب عامليها طرائق قددا على اختلاف الهمم واجتلاب المصالح الخاصة"³⁵⁶.

قلت: وهو ما يحدث فوضى عارمةً وحرباً لا هوادة فيها بين أفراد المجتمع لتضارب مصالحهم، فينتج عنه خراب عمرانهم، وهو ما قرّره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: لولا الآخرة لكان الأمر غير ما ترون، فكان بذلك الدين هو العاصم بعد الله تعالى، إذ هو القاعدة العظمى والعروة الوثقى التي لا انفصام لها لمن استمسك بها، لصالح دنيا الناس وعمرانهم، وهو ما أكدّه العلامة الماوردي في أكثر من سياق من كتابه أدب الدنيا والدين، وأذكر هنا بكلام له، وقد سُقِّته قبل³⁵⁷، أكرّره هنا لأهميته وصلته بما نحن بصددده؛ قال رحمه الله: "فأما القاعدة الأولى: فهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهراً للسرائر، زاجراً للضمائر، رقيباً على النفوس في خلواتها، نصوحاً لها في ملماقتها؛ وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها؛ فكأن الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها"³⁵⁸

ونعود مرة أخرى إلى قوم عاد الذين استطاعوا أن يُنجِزوا ما لم يُنجِزه غيرهم وقتذاك من مظاهر العمران المادي والإنجازات الحضارية، إلا أنه حملهم ذلك على العبث والركون إلى الدنيا وملذاتها حتى آل بهم الأمر إلى ظلم غيرهم والبطش بهم فنهاهم نبيهم هود - عليه السلام - وذكّرهم بنعم الله عز وجل التي يرفلون فيها ويتمتعون بها، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي﴾

³⁵⁵ - ن: المطلب الثالث من هذا المبحث الموسوم ب: تكامل العمرانين..

³⁵⁶ - ن: " التحرير والتنوير" مرجع سابق (19 / 165، 166)، بتصرف كثير، زيادة ونقصا.

³⁵⁷ . سبق ذكره في ص 87، وص: 16 أيضا من هذا البحث من الباب الأول.

³⁵⁸ . سبق ذكره، ن: المطلب الثاني من المبحث الثالث من الفصل الأول: مفاهيم ومصطلحات.

أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَجَنَّتٍ وَغُيُوبٍ ﴿١٢٧﴾، ثم حذرهم عاقبة عدم إذعانهم لأوامر خالقهم بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٢٨﴾، وهذا فيه إشارة إلى أن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده؛ وهي القاعدة الأصولية المعروفة؛ فماذا وقع؟؟ قال تعالى: ﴿بَكَدُّوهُ﴾ بسبب استكبارهم وغرورهم بما أنجزوا من عمران مادي بحت لا روح فيه ولا حياة، ﴿وَقَالُوا مَسَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾³⁵⁹، فأهلكهم الله تعالى وأرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾³⁶⁰ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾³⁶¹.

ذلك مثال أوردناه على المستوى الجماعي لخطورة الاغترار بالعمران المادي وغياب العمران الروحي، ونضيف مثالا آخر لتقرير الفكرة ذاتها لكن على المستوى الفردي، وإن من أوضح الأمثلة التي ساقها القرآن الكريم في هذا الصدد - ممن اغتروا بالجانب المادي للعمران وأهملوا جانبه الروحي، فكان ما كان من هلاكهم وإهلاكهم - قارون الذي بغى وظلم وتعدى، ولنستمع إلى سورة القصص وهي تحدثنا عن حاله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مَوْسَىٰ يَبْغَىٰ عَلَيْهِمْ وَاَتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَبْعَاتِهِ لَتَتَوَّاهُ بِالْعُصْبَةِ أُولَئِكَ الْفُؤَادُ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ

³⁵⁹ . فصلت: 15

³⁶⁰ . فصلت: 16

³⁶¹ الشعراء: 139- 140

اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْفُرُوزِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن - أَمَسَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَفِّيَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِيعَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

نعم هكذا أهلكه الله تعالى ودمّر عمران الذي حمله على الكبر والعجرفة فكان من البائدين، فما نفعه شيء مما كان يملك مما فتن به كثيرا من الناس، فصار عبرة للمعتبرين وآية للمتوسمين، بل ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَحُفَيفَ بَنًا وَيُكَانُّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾³⁶²

المسألة الثانية: القرآن يقدم قاعدة عامة في مصير الكافرين

نعم هكذا ختم الله هذه القصة بقاعدة عمرانية وسنة كونية وهي عدم فلاح الكافرين الذين يجعلون العمران ماديا بحتا لا روح فيه ولا حياة.. كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ - أَمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾³⁶³

يقول الدكتور الزحيلي في منيره ما نصه: (ذكر الله صفة قرية للعبرة، كانت بأهلها آمنة من العدو، مطمئنة لا يزعجها خوف، يأتيها رزقها الوافر رغدا أي هنيئا سهلا واسعا من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، أي جحدوا بها، فعَمَّهم الله بالجوع والخوف، وبَدَّلوا بأمنهم خوفا، وبغناهم جوعا وفقرا، وبسرورهم ألما وحزنا، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته، بسبب أفعالهم المنكرة، وجاءهم رسول من جنسهم، فكذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول إليهم، مبلِّغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه ويشكروه على النعمة، وتمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذبوا بعذاب الاستئصال الشامل، حال كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسل، متلبسين بالظلم: وهو الكفر والمعاصي، وما ظلمهم الله أبدا)³⁶⁴

قلت: واختلف أهل التفسير في ماهية هذه القرية، ولكن القرآن لم يفصح عنها لأن قصده من سوقها ليس حالة مشخّصة بعينها، إنما ذكر قاعدة عامة يخضع لها عمران الناس كلهم، وهذا شأن القرآن دوما إذ هو جاء للناس كافة لوضع القوانين والنواميس التي تنظم وتحكم اجتماعهم وعمرانهم..

إن الإنسان المعاصر اليوم اهتم بالجانب المادي على حساب جانبه الروحي والوجداني ظنا منه أنّ ذلك سيحقق له رفايته وسعادته، ولكن سرعان ما اكتشف أن ذلك إنما هو: ﴿كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَّخْسِبُهُ الظُّمَأُنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾³⁶⁵

³⁶³ النحل: 112 / 113

³⁶⁴ ن: "التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمنهج" د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية 1418 هـ

³⁶⁵ النور: 39

المسألة الثالثة: الغريون يعترفون بالحقيقة

وللفيلسوف الألماني الكبير شبلنجر³⁶⁶ كتاب باسم: "أفول الغرب" قرر فيه أن الحضارة الغربية طغت فيها المادة على الروح، وهذه بداية النهاية لها، رغم ما تخدع به البصر من التقدم العمراني المادي. يقول صاحب كتاب "دولة القرآن" واصفا الإنسان المعاصر: (لقد سمّا علما، وهبط حسا، وارتفع مادة وسقط روحا، وشمخ فاتحا لقوى الطبيعة، وهوى كإنسان له وجدان وضمير وإيمان)؛ ثم يقول: (لقد فقد توازنه بين علمه المادي الصاعد، وجهله الروحي الهابط فأصبح أحول (أغشى) البصر، لا يستقيم له ميزان، أعرج الساق لا يثبت على صراط، ومن هنا كان سوط العذاب الذي يلهب ظهره، وكان الخطر الذي يترص بحضارته ووجوده(..)، لقد فقد الإنسان روحه يوم أن أضاع إيمانه، وفقد سعادته يوم أن ربطها بقوة المادة (..)، ثم يصف خرابه - وليس عمرانه - الروحي قائلا: (وأحس الإنسان العظيم بالفراغ الهائل في آفاق روحه، والتباين الكبير بين ألوان حياته، فأخذ يستعيز عن الحقيقة بالخيال وعن الأصل بالصورة)³⁶⁷..

لقد صدق في وصف حال الحضارة المعاصرة، وكشف إنسان القرن الواحد والعشرين بما اتضح من خلاله بما لم يدع مجالا للشك أن الاهتمام بالجانب المادي والجسدي للإنسان من غير نظر إلى جانبه الروحي وجانبه الخُلقي لا يمكن أن يحقق السعادة، ولا أن يُنتج عمراناً كاملاً. بل خراباً ويباباً وفساداً، والله لا يحب المفسدين!!

³⁶⁶ أوسفالد أرنولد غوتفريد شبينغلر (بالألمانية: Oswald Arnold Gottfried Spengler). (29 مايو 1880 - 8 مايو 1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني شملت اهتماماته أيضاً الرياضيات والعلم والفن. يعرف بكتابه "انحدار الغرب" (بالألمانية: Der Untergang des Abendlandes)، وترجم كتابه إلى اللغة العربية بعنوان: "تدهور الحضارة الغربية" أو "أفول الغرب". نقلا عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

³⁶⁷ - ن: " دولة القرآن " لطفه عبد الباقي سرور، نشر دار الفكر العربي، بدون طبعة وتاريخ؛ . بتصرف، ص: 17

المبحث الثاني: شروط العمران

مضى الكلام في المبحث السابق عن أقسام العمران، ومن خلال ذلك أوضحت أنه لا عمران بدون عبادة وإيمان، وأنّ صفة العبودية، صفة بديهية نشأت طبيعياً من فعل العمران، فهي الأصل الذي كان عليه المستعمر (الإنسان) لحظة إعماره الأول، وأنّ ما وقع من انحراف بعد ذلك هو ما استدعى التذكير الذي جاء على لسان نبي الله صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَفْقَوْمِ احْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْرِضُوا ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾³⁶⁸

وقد ذكرت³⁶⁹ أيضاً كلاماً للراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة، يُبيّن فيه مقاصد وجود هذا الإنسان المستعمر، وقد حدّدها بثلاثة مقاصد بقوله: "الفعل المختص بالإنسان ثلاثة: عمارة الأرض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره؛ وعبادته المذكورة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته، في أوامره ونواهيه؛ وخلافته المذكورة في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِقَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾"³⁷⁰ 371، وقد بيّنتُ وأؤكد هنا أنّ هذه المفاهيم الثلاث . الخلافة والعبادة والعمارة . مترابطة فيما بينها حيث لا يمكن فهم إحداها فهما كاملاً

³⁶⁸ - هود: 60

³⁶⁹ - ن: " المطلب الثاني من المبحث الثاني في الفصل الأول من هذا الباب، ص 77، وفي المطلب 2 من المبحث 3 من الفصل الأول ص 99

³⁷⁰ - الأعراف: 129

³⁷¹ - ن: الذريعة إلى مكارم الشريعة" مصدر سابق، ص: 82

إلا بربطها بالآخرين، وأنَّ فعل العمران هو العبادة بمفهوميهما الذي حرّرت فيما سبق من هذه الأطروحة³⁷²؛ وذلك أن الخالق جلّ جلاله جعل الإنسان خليفة في الأرض فحمّله أمانة عمارتها - ماديا ومعنويا - وتلك هي العبادة بمفهومها الشامل الكامل المساوي لمسمى العمران ماصداً..

ومن المعلوم أيضاً أن العبادة لا بد لها من شروط لتحقيق على الوجه المطلوب، وإذا كان العمران بهذا المفهوم يتقاطع مع العبادة إن لم يكن هو هي - كما أشرت أكثر من مرّة - فإنَّ العمران أيضاً لا بد له من شروط يتوقف عليها، وقد أشار إلى أغلبها الإمام الماوردي رحمه الله³⁷³ في كتابه أدب الدنيا والدين واعتبرها قواعد لعمران الدنيا وصلاحها، يقول بعدما ساق كلاماً عن قيمة الدنيا في ميزان الشرع: "فإذاً قد لزم بما بيناه النظر في أمور الدنيا فوجب ستر أحوالها، والكشف عن جهة انتظامها واختلالها، لنعلم أسباب صلاحها وفسادها، ومواد عمرانها وخرابها، لتتنفي عن أهلها شبهة الخيرة، وتنجلي لهم أسباب الخيرة، فيقصدوا الأمور من أبوابها، ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها"³⁷⁴؛ ويقول أيضاً مخصياً هذه القواعد والأسباب: "اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة، ستة أشياء هي قواعدها، وإن تفرّعت، وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح"³⁷⁵.

هذا ما اعتبره هذا الإمام أسباباً وقواعد لصلاح الدنيا، أي لعمرانها، ونحن تبين لنا بعد إعمال النظر وإجالة الفكر فيها وبما ذكرناه قبل أنه يمكن اعتبارها شروطاً لتحقيق العمران وإقامته؛ وسواء اعتبرناه شروطاً أو أسباباً فإنَّ النتيجة واحدة باعتبار جهة العدم، لأنَّ كلاً من الشرط والسبب يلزم من عدمه عدم الحكم الذي هو هنا العمران، كما

³⁷² - ن: المسألة الخامسة من المطلب 2؛ في المبحث 3؛ من الفصل 1؛ من هذا الباب..

³⁷³ - كنت سقت هذا الكلام في المبحث الثالث من الفصل الأول، وأعدته هنا للحاجة إليه..

³⁷⁴ - ن: "أدب الدنيا والدين" مصدر سابق، (1 / 132)

³⁷⁵ - نفس المصدر (1 / 133)

هو معلوم عند الأصوليين³⁷⁶؛ ومن ثمّ فلا مشاحة في الاصطلاح ها هنا بهذا الاعتبار..

وإذا تبين ذلك فسأحاول أن أذكر أهم تلك الشروط مقتصرًا على ثلاثة منها، أحاطها أساسًا لغيرها من الشروط؛ أجعلها في المطالب الآتية:

- **المطلب الأول: التوحيد والإيمان:**
- **المطلب الثاني: العدل في العمران:**
- **المطلب الثالث: وجود الإمام أي الحاكم راعي العمران**

376 - هناك فرق بين السبب والشرط عند الأصوليين، فالسبب يرتبط بالحكم التكليفي من جهتي الوجود والعدم، إذ يعرفه الأصوليون بقولهم: "ما يلزم من وجوده وجود الحكم، ومن عدمه عدم لذاته"؛ بينما الشرط يرتبط بالحكم التكليفي من جهة العدم فقط، فهو: "ما يلزم من عدمه عدم الحكم المشروط، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته"، وفي هذا يقول ابن عاصم الغرناطي في منظومته الأصولية:

فالسبب المظهر حكمًا إن وقع وإن يكن يُرفع فالحكم يُرفع
والشرط ما من شأنه إن عُدَّما أنَّ لازم حكمه أنَّ يُعَدَّما

فها أنت تلاحظ معي أن السبب والشرط يتوافقان في ارتباطهما بالحكم التكليفي الذي هو هنا (العمران) من جهة العدم، حيث يلزم من عدم كل واحد منهما عدم الحكم، فالنتيجة واحدة من هذه الحثية، ولذلك قلت لا مشاحة في الاصطلاح طبعًا بهذا الاعتبار، ولست أعني أن السبب يرادف الشرط في الاصطلاح، فالأمر ليس كذلك كما هو معلوم..

المطلب الأول: التوحيد والإيمان:

أول تلك الشروط وأهمها على الإطلاق ينعدم العمران بانعدامها - كما هي حقيقة الشرط - هو الدين كما رأينا من خلال كلام الماوردي السابق، وقد سبق أن ذكرت أن العبادة والعمران مفهومان متساويان في الأفراد - أو ما يسميه المناطق الماصدة - وأنا أؤكد على هذا دوماً³⁷⁷ - والدين ها هنا هو جزء من العبادة لأنه معناه هنا هو التوحيد والإيمان بخالق الأكوان، ولذلك اعتبرته شرطاً في العمران، كما هو شرط في عبادة الواحد الديان، وهو ما يسميه القرآن إسلاماً من خلال استقراء آي القرآن الكريم، ودونك نصوص ذلك من القرآن فتدبرها!! من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾³⁷⁸، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾³⁷⁹، وقوله سبحانه أيضاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾³⁸⁰، والآيات كثيرة في هذا الصدد، كلها تدلّ على أنّ المقصود بالدين هو الإسلام، وأنّ المقصود بهذا الأخير هو التوحيد، ولذلك كان الأنبياء جميعاً مسلمين كما جاء في آي القرآن الكريم،

³⁷⁷ أكدت عليه مرات ومرات نظراً لما يلتبس على البعض من أن العمران هو مجرد البناء فحسب، وقد يتأكد هذا عندهم بما قد يجدون من مؤلفات أفردت الحديث عن العمارة الإسلامية بما هي نموذج معماري بنائي، ومنهم ربما من وسع مجاله شيئاً ما، فيجعل العمران هو ما يتعلق بالجانب المادي ممّا يُنتجه الإنسان كتشديد الطرق والأبنية وحفر الآبار وغرس الأشجار وأنواع الصناعات المختلفة، وغير ذلك ممّا هو معلوم.. إلا أنه - أي العمران - هو كل عمل يعمر الأرض بالخيرات والبركات فيحقق سعادة الإنسان في العاجل والآجل، كما يوفّر مصالح العباد في المعاش والمعاد، وعلى رأس ذلك توحيد الله تعالى وطاعته في كل ما أمر به وما نهي عنه من قول أو فعل باطن أو ظاهر. ذلك هو العمران الذي نقصده ونتغيّه، ونؤصل له ونبحث فيه.. والله المستعان!!

³⁷⁸ آل عمران: 19

³⁷⁹ آل عمران: 85

³⁸⁰ المائدة: 4

أي موحدين وإن اختلفت شرائعهم³⁸¹، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (إنا معشر الأنبياء ديننا واحد)³⁸².

المسألة الأولى: التوحيد هو المحرك الفاعل لكل حركة عمرانية

ومن أجل ذلك جعلت هذا الشرط تحت مسمى التوحيد والإيمان، وإن سُمّاه الإمام الماوردي ديناً فيبدو لي أنه يقصد ما ذكرت، وفي بيان أهمية ذلك بالنسبة للعمران يقول: "فأما القاعدة الأولى: فهي الدين المتبع فلائنه يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهراً للسرائر، زاجراً للضمائر، رقيباً على النفوس في خلواتها، نصوحاً لها في ملمّاتها؛ وهذه الأمور لا يُوصَلُ بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها؛ فكأنّ الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور

³⁸¹ من المعلوم أن شرائع الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين كانت مختلفة بما يتناسب مع الزمان والمكان والإنسان المخاطب، قال الله تعالى: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: 48]، وقوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية: 18-19]؛ أما حقيقة الدين هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وهو الإسلام أي التوحيد؛ وهو الغاية المقصودة من الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهي حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين، لا يستسلم لغيره. ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى: 13]، فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى عن نوح: {يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجِئُوا أَمْرَكُمْ} إلى قوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: 71-72]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن قِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 130-132]، وقال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: 84] وقال السحرة: {رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: 126]، وقال يوسف عليه السلام: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: 101]، وقالت بلقيس: {أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: 44]، وقال تعالى: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} [المائدة: 44]، وقال الحواريون: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَشَهِدَ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 52]. فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم، فتنبّه!!

نفعا في انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي، واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء"³⁸³؛ فكان بذلك شرطا لانتظام العمران؛ فتأمل!!

ويبين ابن خلدون دور الدين في إقامة العمران والاجتماع البشري بقوله: "فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خُلُق الكِبَر والمنافسة منهم فسُهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك"³⁸⁴..

وقد أشار القرآن الكريم إلى دور الإيمان وأهميته في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾³⁸⁵؛ وسبب ذلك أن التوحيد كما يقول الدكتور عبد الحميد أبو سليمان هو: "الإجابة الكونية الفطرية السوية للبعد الروحي للإنسان في فهم ذاته مبتدأ ومآلا، وهو سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود(..)؛ ووحدة الخالق وقدرته وتفرده وكماله(..) يفسر ويحتّم فطرة الخليقة وحدة وتنوعا، وتناسقا وتكاملا، ويفسر إبداع نظامها(..)؛ والتوحيد هو الأساس الذي تبنى عليه الرؤية الإسلامية معنى الحياة والكون البديع، وعلى هذا المبدأ الأساس ترتكز وتنطلق مبادئ هذه الرؤية ومفاهيمها في غائية الوجود وأخلاقيته، وفي استخلاف الإنسان وتكريمه بالقدرة على التصرف، والقدرة على الخيار وحرية اتخاذ

³⁸³ ن: "أدب الدنيا والدين" مصدر سابق، (1 / 133)،

³⁸⁴ ن: "المقدمة"، مصدر سابق، ص: 335

³⁸⁵ الأعراف: 95

القرار، وما يستتبع ذلك من مسؤولية الإنسان الروحية الإيمانية، لتحقيق الحياة الطيبة التي تحقق ذات الإنسان، وتستجيب لحاجاته، وتتجاوب مع فطرته السوية، وتسمو به في معارج قيم الروح في صنع الخير، وطلب الحق والتزام العدل وارتقاء الإخاء والتكافل وإبداع الإعمار وحب السلام.³⁸⁶

ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: "والتي من دونها - أي الرؤية التوحيدية - لا يعود للحياة والوجود، ولنظامه البديع الرائع، من الذرة حتى المجرة معنى، ولا بد أن ينتهي مفهوم الحياة والوجود حينها إلى تقبل مفهوم الفوضى والعشوائية، الذي لا يمكن أن يتقبله واقع نظام الكون البديع، ولا حسن الفطرة ولا منطق ميزان العقل السليم"³⁸⁷..

فها أنت ترى من خلال كلامه أنه لا معنى للحياة والوجود من غير توحيد، وأن نظام العمران سيختل وبالتالي سيؤول إلى خراب وبياب عند غياب التوحيد، ومن ثمَّ كان التوحيد بمثابة حجر الأساس للبناء العمراني، أو يمكن اعتباره المحرك الفاعل لكل حركة عمرانية يقوم بها الإنسان المُعَمَّر!! وهو ما يؤكّد شرطية التوحيد لتشييد العمران وإقامته، كان روحياً أو مادياً..

المسألة الثانية: تأسيس الأنبياء عمرائهم على التوحيد

ولقد كانت وظيفة الأنبياء - عليهم سلام الله أجمعين - جميعاً تتحدّد في إقامة العمران بمفهومه الذي يبيّن قبل، وكان البدء في ذلك من التوحيد وما ذلك إلا لكونه شرطاً وأساساً لإقامة العمران ووجوده، وهو ما بيّنه القرآن الكريم في سياق قصص الأنبياء مع أقوامهم فقد كانت كلمتهم الموحدة التي لا يبرحونها: ﴿يَقُومُوا لِرَبِّهِمْ إِلَهِمَّ إِلَهُكُمْ﴾

³⁸⁶ ن: " الرؤية الكونية الحضارية القرآنية" تأليف د عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

دار السلام؛ ط: 1، سنة: 1430هـ/2009م؛ ص: 115، 116، و119؛ بتصرف

³⁸⁷ نفس المرجع ص: 117

إِلَيْهِ غَيْرُهُ، ﴿٣٨٨﴾؛ وقرّره في أكثر من سياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ «عَبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»﴾³⁸⁹؛ وجوهر ذلك وأساسه توحيد الله بكل ما يصدر عن العبد من حركة أو فعل عمراني، فردا كان المعمر أو جماعة، وبالتالي ربط عمران الإنسان بقصدية التوجّه للرحيم الرحمان؛ وفي ذلك يقول الدكتور فريد الأنصاري - رحمه الله - : "فالمقصود بالخلافة القيام بعمران الأرض وإصلاحها وتوجيه القلوب إلى توحيد الله رب العالمين"³⁹⁰..

وهو ما ظهر جليا في سياسة قائد هذه الأمة النبي محمد ﷺ لبناء عمران الأمة الإسلامية وتأسيس قواعد حضارتها التي أظلت العالم بظلالها الوارفة وأنوارها الساطعة ردحا من الزمن، حيث : "استطاع رسول الله ﷺ أن يقيم رابطة العقيدة مقام رابطة الاسرة والدم، فوحد بين قلوب كانت متباينة، وبين أفراد فرقتهم بالأمس العصبية القبلية، وجمعتهم اليوم شخصية فريدة قويّة، متصلة بالله تتلقّى وحيا وأوامر إلهية وافية بمطالب البشرية الخلقية والروحية والحياتية"³⁹¹؛ وقد اتخذ ﷺ خطوتين لتحقيق ذلك - كما هو مقرر في السيرة - أولهما تجلّت في بناء المسجد، وهو أول عمل قام به ﷺ منذ لحظة حلوله بالمدينة، وأردفها ﷺ بخطوة ثانية كان لها الأثر العظيم في تقوية اللحمة الاجتماعية بين المسلمين، وهي المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا، ولم يكتف بذلك ﷺ، وإنما أضاف خطوة ثالثة كانت في غاية الأهمية أيضا، تجلّت في تقنين

³⁸⁸ هود: 50

³⁸⁹ النحل: 36

³⁹⁰ ن: " مجالس القرآن "، لفريد الأنصاري مرجع سابق، (3/ 104)

³⁹¹ ن: " الحضارة العربية الإسلامية"، للدكتور شوقي أبي خليل، دار الفكر، ط: 5؛ سنة: 1439هـ/ 2018م،

ص:196

دستور المدينة الذي يحدّد حقوق وواجبات كل أفراد المجتمع المدني بغض النظر عن العقيدة والدين، وإثما استحضار الجانب الإنساني والوطني المشترك بين الجميع، وهذه سابقة حضارية عمرانية لم توجد في الحضارات السابقة !!

وبالعودة مرّة أخرى إلى تلك الآية - التي اعتبرتها تأصيلا لهذا المفهوم وتأسيسا لمعامله - يقول نبي الله صالح عليه السلام: ﴿يَقُومُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾؛ نجدها جعلت العمران مبنيا على توحيد الله وعبادته، فقد أمر نبي الله صالح عليه السلام قومه بأن يقيموا عمرانهم على عبادة الله وتوحيده، وأن يستغفروا الله على ما صدر منهم من الشرك بعبادة الأصنام فيتوبوا إلى توحيد الله، وذلك أن بقاء عمرانهم وازدهاره مشروط ورهين بتوحيد الله عز وجل، وأنّ الشرك مؤذنٌ بخراب عمرانهم، وهو ما نبّه إليه سبحانه وتعالى عبر آية صارخة في أذن كل سامع: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾³⁹²؛ وهذه آية - كما ذكرت سابقا - مؤطرة لطبيعة العمران وموجهة للإنسان المستعمر، إذ العمران لا يكون عمراناً على وجه الحقيقة إلا إذا ارتبط بالبينات التي جاء بها رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، وعلى رأسها توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه، فدلّ ذلك دلالة يقينية على أن التوحيد شرط من شروط تحقق العمران وبقائه، فإذا تنكّب هذا الإنسان المستعمر عن بينات الله آل عمران إلى يباب وخراب، فكان بذلك من الظالمين البائدين، ومن الهالكين الخاسرين ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ !!

وهنا لابدّ أن أسجّل كلمة للدكتور عبد المجيد النّجار في غاية الأهمية لها علاقة بهذا الموضوع، حيث يقول: "إنّ العقيدة الإسلامية التي هي الفكرة الدافعة للتّحضر تنبني على أساس التوحيد، فهو عمودها الذي يقوم بها جميعاً (..) فما من حقيقة من حقائق الدين الشاملة، عقدية كانت أو تشريعية إلا وهي منبثقة عن التوحيد وراجعة إليه، فهو روح الدين كلّ، الساري فيه مسرى الماء من النبات، أيما موضع انسحب منه أصابه الجفاف، وآل إلى التلاشي.."

وعقيدة هذا موقعها من الدين من شأنها أن تطبع معتنقيها في ممارستهم للحياة كلّها فكراً ووجداناً وسلوكاً بطابع الوحدة، بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائراً في بنيتة وغايته على قانون من الوحدة التي تتألف بها المختلفات، وتتوحد بها المقاييس، وتلتقي بها المشارب على هدف مشترك³⁹³

المسألة الثالثة: مركزية التوحيد في عمران الأمم والدول

ويقول الدكتور عبد المجيد النّجار في شأن المسلمين الأوائل الذين حقّقوا شرط التوحيد في عمرانهم وأقاموا عليه حضارتهم التّليدة: "ولما تشبّع المسلمون بعقيدة التوحيد انطلقوا في حركة تحضّرهم يبنون معارفهم الكونية والإنسانية بمنهج فكري توحيدي، فإذا هم يباشرون الحياة الإنسانية بنظر يفسر طبيعتها، ويقدر كل تصاريفها الفردية والاجتماعية على محور موحد يبينها على مراد الله تعالى، ويسوقها في ابتغاء مرضاته، وإذا هم يباشرون المادة الكونية بنظر يفسرها على وحدة من القانون في تكوينها ومنقلباتها اهتداءً بوحدة المكوّن والمدبّر بها، ثم يضمّ العقل الإسلامي حصيلة النظر الثاني إلى الأول لتنشأ منهما حركة العلوم الإسلامية، وتتطوّر منظومة بسلك يوحدّها جميعاً في سياق الغرض الديني الذي به نشأت وتطورت أساساً من أسس الإنجاز الخلافي في الأرض، ويتبين هذا المنهج التوحيدي جلياً من خلال كل من العلوم التي أنشأها المسلمون إنشاءً، والعلوم التي اقتبسوها من الكسب الإنساني السابق وأدخلوها في دائرة الثقافة

³⁹³ ن: "الشهود الحضاري للأمة الإسلامية" د: عبد المجيد النّجار، مرجع سابق؛ (1/ 64؛ 65) بتصرف

الإسلامية. "394

وحينما نرجع إلى مؤسس علم العمران العلامة ابن خلدون في كتابه الموسوم بالمقدمة نجد أنه يؤكد على مكانة الدين ودوره في إقامة العمران، حيث اعتبر: "أنّ الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إمّا من نبوة أو دعوة حق.."395!

وهنا ندرك أهميّة الدّين عند ابن خلدون - وهو الخبير بأحوال الدول وسياساتها وأسباب نهوضها وعلل أفلها - من حيث كونه المحرّك للجماعة والباعث لاجتماعها الفاعل، ومن ثمّ المنتج للعمران، وفق المنظومة القيمية الإسلامية المستمدّة من الوحي، ليكون بها العمران في حقيقته التي غابت عن الفلاسفة والمادّيين من الغربيين وأمثالهم ممّن تأثّروا بفكرهم ممّن ترجموا أو تناولوا مقدّمة ابن خلدون بالدراسة والتحليل، ومنهم من غيّبها عمدا لفصل علم العمران عن الرّؤية الكونية التوحيدية، وجعل ابن خلدون مفكّرا مادّيا؛ بينما العمران عنده يعني مهمّة الإنسان الوجودية المتمثلة في تحقيق مهمة الاستخلاف، وأداء الأمانة التي أشفقت من حملها أعظم المخلوقات، وهي مهمّة وأمانة لا تنفصل فيها العبادة والطّاعة لله عن تعمير الأرض ونشر قيم الخير والحقّ، - وهو ما أكّدت عليه أكثر من مرة في ثنايا هذا البحث - حتّى يتسنى للإنسان تحقيق إنسانيّته كلّما ارتقى ونجح في تحقيق وظيفته الوجودية، واجتهد في طاعة التّعاليم الإلهية، والعمل بموجبها للإحاطة بأبعاد خلافته في الأرض، والجميع يدرك أنّ الإنسان بقدر ابتعاده عن الدّين تتحكّم فيه أهواؤه، ويضيع باتّباع اجتهاداته البعيدة عن توجيه الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ إِتَّبَعَ الْخَوُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾396؛ وهو ما نبّه عليه ابن خلدون في قوله: "وجمع القلوب وتألّفها إنّما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه؛ قال

394 . نفس المرجع، ص: 66

395 ن: "المقدمة"، مصدر سابق، ص: 171

396 . المؤمنون: 71

تعالى : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ﴾³⁹⁷، وسرّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف؛ وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاقد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة³⁹⁸..

فقد بين هنا رحمه الله العلة في كون التوحيد شرط العمران وأساسه حيث كان للتوحيد دوره في تأليف القلوب وجمع الكلمة، وهو ما يُنتج تقوية الروابط الاجتماعية وبالتالي تماسك عمران الناس واجتماعهم..

والأنبياء - عليهم السلام - هم من حملوا نور الهداية والحق إلى العباد وأخرجوهم من الظلمات إلى النور؛ وكلّ جهودهم تركزت حول الإنسان، وإصلاح شؤونه الدنيوية والأخروية، يقول أبو الحسن الندوي: " فالأنبياء يعملون على إخراج الناس من الظلمات إلى النور في مختلف مجالات الحياة، بتصحيح مسارهم الإنسانيّ على ضوء النهج الإلهيّ السديد، وبذلك كان الأنبياء عليهم السلام مؤسسي حضارة ومدنيّة واجتماعٍ وأسلوبٍ من الحياة جديدٍ خاصٍ، جديرٍ بأن يسمّى الحضارة الربّانيّة، وهذه الحضارة أصولٌ ودعائمٌ وعلاماتٌ وشعائرٌ، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، الحضارات التي تسمّى بالحضارات الجاهليّة"³⁹⁹..

المسألة الرابعة: الدين - التوحيد - أهم باعث للعمران والحضارة

يقول تعالى في آية تبين مركزية الدين وأهميته العمرانية: ﴿لَفَدَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا

³⁹⁷ الأنفال: 64

³⁹⁸ المقدمة ص: 172

³⁹⁹ - ن: " النبوة والأنبياء في ضوء القرآن " لأبي الحسن الندوي، ط5، دار القلم، دمشق، (1400هـ-1980م)،

ص 98.

أَلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعَجٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠٠﴾، وفي الآية إشارة إلى أن باعث العمران هو الدين الذي يبصر الإنسان بحقائق الوجود والموجودات، ويعلمه وظيفته في الدنيا ومصيره بعدها، ويضعه في مكانه المناسب في الوجود ويعرفه به ليكون عبداً لله وسيّداً على الكون الذي سخره الله له بخيراته حتى يكون مسرحاً يمارس فيه مهمته العمرانية ووظيفته الاستخلاقيّة، وهذا كلّه يقوم به الأنبياء حملة النور الإلهي إلى عباده، يقول عامر الكفيشي: "لذا كانت الأمم المتديّنة والشعوب المؤمنة أكثر إسهاماً وعطاءً في إغناء وبناء حركة التاريخ"⁴⁰¹

وقد أولى ابن خلدون للدين والنبوة اهتماماً كبيراً، إدراكاً منه للدور العظيم الذي يلعبه الدين في قضيّة الإنسان، ووظيفته المرتبطة بالعمران، وقد عبّر عنه بالفكرة الدينيّة والتي تأثّر بها مالك بن نبي وجعلها العامل الذي بغيابه تنعدم الحضارة رغم وجود عناصرها الثلاث - التي تعتبر أركاناً للعمران في نظري - وهي: الإنسان والتّراب والوقت، وذلك أن الحضارة لا تتكوّن تلقائيّاً بوجود عناصرها، وهو ما يؤكّده حال العالم الإسلاميّ وحال البشريّة جميعاً، إذ هذه العناصر متوفّرة في أماكن كثيرة، لكنّها تخلو من وجود الحضارة والعمران، أي أنّ هذه العناصر تحتاج لتثمرَ عمراناً وحضارة إلى مركّب يمزج بينها، ويدفعها إلى المطلوب، هذا المركّب هو الفكرة الدينيّة، وأساسها التوحيد!

وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "لنا الحقّ في أن نقول إنّ هناك ما يطلق عليه (مركّب الحضارة) أي العامل الذي يؤثّر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدلّ عليه التحليل التاريخي الآتي مفصّلاً نجد أنّ هذا (المركّب) موجود فعلاً، هو الفكرة الدينيّة التي رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ، فإذا اتّضح صدق هذه الاعتبارات عن التفاعل الكيميائي الحيوي، وعن ديناميكيّة الواقع الاجتماعي، كان لنا أن نخطّط بطريقة

400 - الحديد: 25

401 - ن: "حركة التاريخ في القرآن الكريم"، عامر الكفيشي، ط1، دار الهادي، بيروت، 1424هـ/2003م؛ ص: 306.

ما مجال تطوره كاطّراد مادّي نعرف قانونه"⁴⁰²؛ ويقول أيضا مؤكّدا على ذلك وموضحا: "ومن المعلوم أنّ جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلّا شعب بدويّ يعيش في صحراء مجدبة يُذهب وقته هباءً لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة، وبعبارة أصحّ مكدّسة لا تؤدّي دورا ما في التاريخ، حتّى إذا ما انجلت الرّوح بغار حراء - كما تجلّت من قبل بالوادي المقدّس أو بمياه الأردن - نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة حضارة جديدة، فكأنّما ولدتها كلمة 'اقرأ' التي أدهشت النّبّي الأمّي وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللّحظة وثّبت القبائل العربيّة على مسرح التاريخ، حيث ظلّت قرونا طويلا تحمل للعالم حضارة جديدة تقوده إلى التمدّن والرقّي"⁴⁰³..

فمالك بن نبي يؤكّد على الفكرة الدينية ودورها في البناء الحضاري، ويظهر تأثّر مالك بن نبي بالفكر الخلدونيّ في هذه النّقطة، أي في الفكرة الدّينيّة ودورها في قيام الحضارة والعمران، وهنا تظهر عبقرية ابن خلدون الذي أدرك أثر الدين أو الفكرة الدّينيّة في الإنسان، وكيف أنّها عنده باعث للحضارة والعمران، بما لها من دور في تحديد مجريات حياة الإنسان والمجتمع..

واهتمام ابن خلدون بالدّين والتدبّن لم يكن محض صدفة أو من باب الاطّلاع، بل كان واقعا في حياته، فلا ننسى أنّه في تحصيله الأوّل للعلوم حفظ القرآن الكريم، وتتلّمذ على يد كبار علماء الفقه وأصوله والحديث وعلومه وباقي العلوم المختلفة، ومنّ اطّلع على كتاب المقدّمة ظهر له ذلك جليا؛ يقول صالح بن طاهر مشوش: "للعلم الشرعيّة دور عظيم في تكوين شخصيّة ابن خلدون وتبلورها، وذلك بشهادته الصريحة على نفسه، والتي لا يمكن إخفاؤها أو إقصاؤها أو تجاهلها، إذ لم يدع ابن خلدون لها مجالا للتأويل والاستنباط، فقد تولّى بنفسه عرض أجزاء هامّة من حياته العلميّة بداية من المراحل المبكّرة

402 - ن: "شروط النهضة" مالك بن نبي، مرجع سابق، ص: 50

403 - ن: نفس المرجع ص 57.

من عمره، في كتابه 'التعريف بابن خلدون'، لقد قدّم ابن خلدون تفاصيل هامّة، شملت قائمة العلوم الشرعيّة التي درسها وأجيز فيها، وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم⁴⁰⁴؛ ومعلوم أن التوحيد هو أساس الفكرة الدينية، وأنّ العمران بما بيّنت قبل⁴⁰⁵ هو المنتج للحضارة، ومن ثمّ نخلصُ إلى أن التوحيد هو البذرة المُنبِئَةُ للعمران الذي ننشُدُهُ، وللحضارة التي نتغيّاها ونسعى لها !!

المسألة الخامسة: فقدان التوحيد خراب للعمران وبياب

ويمكن أن أضيف دليلاً آخر قويا على كون التوحيد والإيمان بالرحيم الرحمان شرطا للعمران وهو أنّ زوال التوحيد وفقدانه زوالٌ للعمران وخراب له، وهو ما رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قوله: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ!!)⁴⁰⁶

فهذا الحديث دليل على أن زوال العالم وخراب العمران يكون سببه زوال التوحيد من الأرض، وقد ثبت بروايات أخرى أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وهم الذين لا يعرفون معروفا ولا يُنكرون منكرا، وهو ما يؤكّد أنّ العمران الذي نتحدّث عنه لا يمكن أن يتحقق على الوجه المطلوب إلا بتحقيق توحيد الله والإيمان به! وقد بيّنت في مطلب: (مخاطر الاختصار على المفهوم المادي للعمران من المبحث السابق) أنّ القرآن الكريم ساق مجموعة من القصص التي تبين من خلالها زوال عمران أقوام كثيرين بسبب شركهم بالله تعالى وتمردهم على رسله وأنبيائه، فكان الشرك بذلك سببا من أسباب خراب العمران،

⁴⁰⁴ - ن: "علم العمران الخلدوني" صالح بن طاهر مشوش، مرجع سابق، ص 67.

⁴⁰⁵ - ن: "المبحث الثالث من الفصل الأول في هذا الباب" حينما تحدّثت عن الحضارة وحدّدت العلاقة بينها وبين العمران

⁴⁰⁶ - رواه مسلم في صحيحه؛ رقم: 148، باب: (ذهاب الإيمان آخر الزمان)

وقد قيل: "بضدها تتبين الأشياء" ⁴⁰⁷..

وقد أطلت النفس هنا لأهمية هذا الشرط، وأختم بذكر آية تمثل قاعدة عمرانية - كنت ذكرتها قبل - في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ - اِمْنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّمَّ كُلِّ مَكَانٍ فَكَعَبَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ⁴⁰⁸ وَلَفَدَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ⁴⁰⁸، فهؤلاء الذين من الله عليهم بما جعل عمرانهم توفرت فيه كل أسباب الرخاء والازدهار، ولكنهم أعرضوا وبدلوا نعمة الله كفرا وجحودا، فبعث الله لهم رسولا يعرفونه يذكرهم بالله بأن يؤمنوا به ويوحّدوه، ويطيعوه ويشكروه على النعمة، فما كان منهم إلا أن تمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذبوا بعذاب الاستئصال الشامل، وآل عمرانهم إلى خراب وبياب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ !!

⁴⁰⁷ - ويظهر - والله أعلم - أن شعراء كثيرين استعملوا هذا الشطر، ففي خريدة القصر للعماد الأصفهاني في ترجمة أبي الصلت الأندلسي، من شعراء الأندلس في القرن السادس الهجري ذكر شيئا من شعره على الحروف الألفبائية فقال الهمزة؛ فمن ذلك قوله في غلام اسمه واصل، وهو مغنٍ مريح:
يا هاجرًا سموه عمداً واصلًا *** وبضدها تتبين الأشياء
الغيتني حتى كأنك واصلٌ *** وكأنني من طول هجرك راء
وهو يشير إلى واصل بن عطاء، وكانت فيه لثغة في الراء، وكان يأتي بالكلام من دون الراء، كما ذكر الجاحظ في البيان..

ويقال أيضا أنه شطر من بيت لأبي الطيب المتنبي من قصيدته التي مطلعها:
أَمِنْ أَرْدِيَارِكَ فِي الدُّجَى الرُّقْبَاءُ ** إِذْ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ
وهو البيت الثاني والعشرون من القصيدة
وَلَذَيْمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ ** وَبُضْدُهَا تَتَبَّنُ الْأَشْيَاءُ (نقلا عن شبكة الفصحح لعلوم اللغة العربية؛ بتاريخ : 09/02/2003م)

⁴⁰⁸ - النحل: 112 / 113

المطلب الثاني: العدل في العمران:

بعد الحديث عن التوحيد الذي اعتبرته شرطاً أساساً من شروط العمران، أوردته بالحديث عن العدل الذي يمكن اعتباره إكسير العمران، حيث يتوضع هذا الأخير باختلاله، ولربما أفضى به إلى يبابه فصار ﴿كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَّانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾⁴⁰⁹؛ ذلك أنّ انخراط العدل يُفضي إلى إحلال الظلم والجور مكانه - إذ هما متناقضان يُمنَع الجمع بينهما والخلو منهما معا على حد تعبير المنطقة⁴¹⁰ - وذاك خراب للعمران وزوال له كما قرّر ذلك أكثر من واحد من أهل العلم⁴¹¹؛ وقد جعل الإمام الماوردي العدل أحد قواعد صلاح الدنيا وعمرانها كما سبقت الإشارة إليه، فقال رحمه الله: "وأما القاعدة الثالثة: فهي عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتتعمّر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان؛ فقد قال المرزبان لعمر بن الخطاب، حين رآه وقد نام متبذلاً: عدلت فأمنت فنمت؛ وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه ليس يقف على حدٍّ ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسطن من الفساد حتى يستكمل"⁴¹².. وهنا نلمح من خلال كلام الإمام الماوردي - رحمه الله - أنّ العدل سبب في حصول الألفة بين أفراد المجتمع، ودافع للإنتاج والعطاء، والتنافس الشريف نحو ما يعود بالخير

⁴⁰⁹ - النور: 39

⁴¹⁰ - ذلك أن القضايا عند المنطقة قسمان: محلية وشرطية؛ والشرطية نوعان: متصلة، ومنفصلة؛ والمنفصلة ثلاثة أضرب: مانعة جمع فقط، ومانعة خلو فقط، وحقيقية وهي مانعة الجمع والخلو معا، وتسمى قضية منفصلة حقيقية، وطرفاها متناقضان؛ كما الحال في العدل والظلم؛ فنقول مثلاً: هذا إما عدل وإما ظلم.. أنظر مثلاً شرح نظم السلم المنورق في المنطق للقويسني ص: 31، وما بعدها..

⁴¹¹ - ابن خلدون جعل الفصل الثالث والأربعين من الباب الثالث من: "المقدمة" تحت عنوان: (في أن الظلم مؤذن بخراب العمران) (1/ 353).

⁴¹² - ن: "أدب الدنيا والدين" مرجع سابق (1/ 139)

على الفرد والمجتمع، وبالتالي تقوية النسيج الاجتماعي، الذي ينتج عنه عمران البلاد وإسعاد العباد، وهو السر الذي جعل النبي ﷺ يتخذ عملية الإخاء بين المهاجرين والأنصار أحد مرتكزات عمران الدولة الإسلامية بالمدينة، وهو ما قرّره القرآن الكريم في أكثر من سياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾⁴¹³ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ⁴¹⁴!!

والمقصود هنا أن العدل شرط أساس في تأليف القلوب وتقوية الروابط، وكل ذلك يمثل دافعا قويا في إنتاج العمران وبناء الحضارة؛ ومن ثمّ كان العدل مطلوبا ومقصدا تشريعيا بل وتكوينيا..

المسألة الأولى: مفهوم العدل

أول ما نبدأ به - كالعادة - بيان ماهية العدل الذي اعتبرناه شرطا أساسا يقوم عليه العمران، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فما هو العدل لغة واصطلاحاً؟
تعريف العدل: في اللغة: مادة عَدَلَ تأتي على معنيين متضادّين أحدهما الاستواء، والآخر الاعوجاج والعدل يرجع إلى المعنى الأول:⁴¹⁴ وهو خلاف الجور وهو ما قام في النفس أنه مستقيم⁴¹⁵ ؛ وقيل: لفظ يقتضي معنى المساواة؛ ومرادفاته: العدالة والعدولة والمعدلة.

وفي الاصطلاح: إعطاء كل ذي حق حقه من غير إفراط أو تفريط.⁴¹⁶ وقيل: بذل الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم، وقيل: فصل الحكومة على ما في الكتاب

⁴¹³ - الأنفال: 63، و64

⁴¹⁴ - ن: "مقاييس اللغة"، مصدر سابق (4 / 246)

⁴¹⁵ ن: "موسوعة نضرة النعيم" عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة؛ الطبعة: الرابعة، دون تاريخ؛ (2790/7)

⁴¹⁶ ن: "التعريفات" للجرجاني، مصدر سابق، ص: 191

والسنة لا بالرأي المجرد⁴¹⁷؛ والأول أولى لشموله.

المسألة الثانية: العدل أساس ومقصد قدري وتشريعي:

لذا نجد القرآن الكريم - وهو كتاب عمران بامتياز - يأمر بالعدل ويركز عليه أيما تركيز، فيجعله أصل العمران وبه تقوم الأرض وتدوم الدول، وهو قيمة شاملة تمس كل مناحي الحياة الإنسانية، فبه تصان خيرات كثيرة وتتحقق مقاصد عامة، كحفظ الضروريات من الدين والنفس والعقل والنسل والمال وغيرها، وقد نظر إليه البعض على أنه أمُّ الفضائل كلّها، إذ لا يتصور أي فضيلة في الوجود غاب عنها العدل، فالعدل فضيلة كل الناس، وفضيلة كل ساعة من حياة الناس؛ فمن هذا الوجه لا يمكن استيعاب كل مجالات العدل؛ ومن ثمّ كان هدف الرسالات السماوية جميعاً، فكلها أرادت إقامة العدل، وهو ما يسميه القرآن القسط، يقول الله تعالى: ﴿لَفَدَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَفْهَمُ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁴¹⁸؛ فكان العدل مقصد كل كتاب أنزل وني أرسل؛ بل لا بد من إقامة العدل بين الناس من أجل إنشاء العمران المنشود، وإقام الحياة العامة بالخير والبركات..

ولأجل ذلك كان العدل مقصداً قدرياً تكوينياً كما هو مقصد تشريعي!! فمن حيث القدر والتكوين فالله سبحانه وتعالى خلق الكون بالعدل، فهو خالق السموات والأرض بالحق، يقول سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾⁴¹⁹، ويقول أيضاً: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁴²⁰، والحق هنا هو العدل؛ ويقول عزّ من قائل في شأن اتباع الهوى

⁴¹⁷ ن: "موسوعة نضرة النعيم" مرجع سابق (2792/7)

⁴¹⁸ الحديد: 24

⁴¹⁹ الحجر: 85

⁴²⁰ النحل: 3

الذي يغلب عليه الجنوح إلى الأثرة والأنانية وحب الذات، وبالتالي الوقوع في الظلم: ﴿وَلَوْ إِتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَبَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾⁴²¹، فدل ذلك على أن العدل جوهر قيام الموجودات، من الفرش إلى العرش، ومن الذرة إلى المجرة، وهو سبحانه وتعالى قائم بالقسط أي قائم على شؤون العدالة والعدل في خلقه وفي أمره ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾⁴²² ..

وهو أيضا مقصد تشريعي تعبدى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ لَعَلَّكُمْ تَعِظُونَ﴾⁴²³، وقال عز من قائل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا﴾⁴²⁴ فهو مطلوب في الأقوال والأفعال كلها، ويغطي جملة من المقاصد الشرعية، ومن ثم كان العدل أساس الأسس في إقامة العمران و تقوية الدول والبلدان، يقول محمد شمس الدين ابن الموصلي⁴²⁵: (واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا الملك بناء والجند أساسه، فإذا قوي الأساس دام البناء، وإذا ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلا بالجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا

⁴²¹ المؤمنون: 71

⁴²² آل عمران: 18

⁴²³ النحل: 90

⁴²⁴ الأنعام: 152

⁴²⁵ ابن الموصلي (699 - 774 هـ / 1300 - 1372 م)، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلبي شمس الدين، ابن الموصلي: أديب، عالم بالفقه؛ ولد في بعلبك، وتعلم بها وبدمشق وحماة، وتوفي بطرابلس. من كتبه (بجعة المجالس وروثق المجالس) خمس مجلدات،

و (الدر المنتظم) نظم فيه فقه اللغة للثعالبي، و (لوامع الأنوار - خ) في نظم غريب الموطأ ومسلم، لابن قرقول، و(نظم المنهاج) للنووي. وله نظم ونثر.. نقلا عن: الأعلام للزركلي

عمارةٍ إِلَّا بِعَدْلٍ، فَصَارَ الْعَدْلُ أساساً لِسَائِرِ الأساسات (426)؛ ولذلك كان العدل قيمة القيم في جميع مجالات العمران الإنساني!

المسألة الثالثة: العدل قيمة ناظمة لكل مجالات العمران:

والعدل الذي أمر به القرآن يشمل كل مجالات الحياة وتفاصيلها طولا وعرضا، سطحا وعمقا، فكل المقاصد والمجالات في أبواب الفقه ترجع كلها للعدل، وترتبط به، لأنّ العدل قيمة ناظمة لكل القيم، فهو الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلو ولا تسبب، فهو عدل مع الله الخالق سبحانه وتعالى، وعدل مع النفس ذاتها، وعدل مع الغير، وهو عدل في الأحوال والأقوال والأفعال، في الشهادة وفي الحكم، في حياة الأسرة والعائلة والأمة والإنسانية جمعاء، عدل مع المسلم وغيره؛ عدل في المعاملات والمبادلات، والجنایات والسياسات، والأحوال الشخصية..

وزبدة القول أنّ العدل يُؤطّر جميع مجالات العمران؛ وللخروج من هذا العموم، والتوضيح أكثر، نتناول بعض مجالات العمران ممّا نرى مؤثّر العدل فيها قويا ولو على سبيل الإيجاز والاختصار:

أولاً: العدل في الاعتقاد.

قد يظنّ البعض أنه لا دخل للعدل في الاعتقاد، لكنّ علمنا بمفهوم العدل الذي بيّناه قبل، وهو إعطاء كل ذي حقّ حقه؛ ومن تجلّيات هذا المعنى المساواة بين المتماثلين والمتساويين، وعدمها بين المختلفين، ومقتضى ذلك أن المساواة بين المختلفين في الدرجة والرتبة هو من معاني الظلم وتجلياته، ومن هذا الوجه يعتبر التوحيد مظهراً من أهم مظاهر العدل، والشرك بما يتضمنه من مساواة بين المختلفين هو عين الظلم وذاته؛ بل هو أشنع أنواع الظلم وأقبحها على الإطلاق، لأنه مساواة بين الذي يخلق والذي لا يخلق!! قال

426. ن: "حسن السلوك الحافظ دولة الملوك" محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان بن عبد العزيز البعلي شمس

الدين، ابن الموصلي؛ المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الوطن، الرياض، دون طبعة، ص: 70

تعالى: ﴿ أَقِمْنَ يَخْلُوْنَ كَمَ لَ يَخْلُوْ أَقْلَ تَذَكَّرُوْنَ ﴾⁴²⁷، وقد جاءت هذه الآية في سياق ذكر خَلْقِ الله لكثير من الموجودات لبيان فساد عقيدة المشركين الذين يتخذون من دون الله أندادا يجعلونها مساوية لله في العبودية وفي التدبير - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ويقول الله سبحانه وتعالى في سياق آخر: ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾⁴²⁸؛ أي يساوون بين الذي خلق السموات والأرض، وبين المخلوق الذي لا يملك من أمره شيئا، فهذه المساواة الظالمة يَقْبُحُ وَقُوعُهَا من الإنسان؛ فهذه التسوية في العبودية لغير الله سبحانه وتعالى هي شكل من الظلم، بل هي أعظم ظلم على الإطلاق لأن ذلك قلبُ للحقائق، ولآجل ذلك حذّر لقمان الحكيم ولده من الشرك قائلا: ﴿ يَبْنِي لَآ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾⁴²⁹؛ إذن يتضح ممّا سبق أن التوحيد صورة قوية من صور العدل ومجال رحب من مجالاته، أكتفي بهذه الإشارة الخاطفة خشية الإطالة ..

ثانياً: العدل في المناحي الاجتماعية المتنوعة.

إذا استقرأنا نصوص الشريعة الإسلامية وطرقنا أبوابها الفقهية، أَلْفَيْنَاهَا مستوعبة وجامعة لكل الأنماط الاجتماعية، وقد أحاطتها بتوخي العدل فيها على الأقل، والإشادة بالإحسان فيها فهو الأفضل والأجمل والأكمل، سواء على مستوى الأسرة، أو على مستوى التربية والسلوك، أو على مستوى المعاملات إلى غيرها ممّا يصعب استقصاؤه من الأمور؛ نشير إلى بعضها على سبيل الإيجاز في العناصر التالية:

1- العدل في الأسرة:

⁴²⁷ النحل: 17

⁴²⁸ الأنعام: 1 و 2

⁴²⁹ لقمان: 12

من المعلوم أن الأسرة أساس المجتمع ولبنته الأولى، وأن صلاحه وعمرانه رهين بصلاحها وعمرانها، لذا نجد النصوص الشرعية ركزت على العدل في هذا الجانب، وخاصة فيما يُتصور فيه وقوع الظلم على هذا الطرف أو ذاك، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

- أن الإسلام أباح تعدد الزوجات، وهذا التعدد مظنة الظلم من جهة الزوج؛ لذا قيّدت الشريعة تلك الإباحة بضرورة توخي العدل، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿بِأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرَبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾⁴³⁰؛ فإذا غلب على ظنّ المكلف أنه سيجانب العدل في ذلك، فإنه يتعيّن عليه حينئذ الاقتصار على زوجة واحدة، ويحرم عليه التعدّد، وإلا كان مصيره يوم القيامة ما حذّر منه الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الرّهب: (مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَىٰ إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ)⁴³¹؛ و في حديث آخر أشدّ خطورة: (مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا فِي الْقَسَمِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا مَائِلًا شِقُّهُ حَتَّىٰ يَدْخُلَ النَّارَ)⁴³²؛ وغيرها من النصوص الواردة في هذا المعنى الذي ينخلع له القلب نسأل الله العافية!!

- أنه في حالة وجود نزاعات أسرية لربّما أدّت إلى الطلاق، ففي هذه الحال إذا حضر الشهود فلا بد من اتصافهم بالعدل، وفي ذلك يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ بَارِفُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوْنَهُ عَدْلٍ مِّنكُمْ

⁴³⁰ - النساء: 3

⁴³¹ . أخرجه أبو داود برقم 2135 (208/2)؛ والدارمي برقم 2206 (193/2)؛ وصححه الألباني برقم 11461، من الجامع الصغير.

⁴³² . جزء من حديث طويل أخرجه البوصيري برقم 1543، اتحاف الخيرة المهرة (291/2)؛ والهيثمي برقم 205، بغية الباحث (309/1)

وَأَفِيمُوا الشَّهَدَةَ لِلَّهِ⁴³³؛ فالشهادة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، وهذا يقتضي ضرورة تحري العدل فيها إلى أقصى ما يمكن تحقيقه في ذلك، وضرورة أن يتصف الشهود بالعدالة، وغير ذلك من الأحكام ليس محل تفصيلها هنا..

2- العدل في تربية أفراد الأسرة وعناصرها:

إذا كانت الأسرة أساس المجتمع ومركز عمرانه، فإن الأفراد عناصرها، ولتكون الأسرة قوية فلا بد من تماسك عناصرها، ولتحقيق ذلك يستلزم العدل بين أفرادها، وهو ما تُرشد إليه السنة الشريفة في أكثر من حديث شريف، وفي غير ما سياق، من ذلك ما ورد عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال: (أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أُعْطِيتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَالَ: أُعْطِيتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا قَالَ: لَا؛ قَالَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ قَالَ فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ)⁴³⁴؛ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كَانَ رَجُلٌ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَهُ وَلَدٌ لَهُ فَأَخَذَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ، وَجَاءَتْ ابْنَةٌ لَهُ فَأَخَذَهَا فَأَجْلَسَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَهَلَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا)⁴³⁵؛ فالملاحظ من الموقف الأول كيف وصّى الرسول ﷺ بالعدل بين الأبناء في العطاء ويقاس عليه كل الأمور المادية، وفي الحديث الثاني إشارة إلى ضرورة العدل في المواقف والأحاسيس والعواطف وغير ذلك من الأمور المعنوية التي توحى بعدم العدل بين الأولاد؛ وليت شعري كم من النزاعات والصراعات تقع بين أفراد الأسرة نتيجة الجور الذي يقوم به الوالدان إزاء أبنائهم؟!

433 . الطلاق: 2

434 . أخرجه البخاري برقم 2587 (158/3)

435 . أخرجه البيهقي برقم 11022، شعب الإيمان (468/7)؛ والطحاوي في شرح معاني الآثار (89/4)؛ قال الهيثمي: رواه البزار: قال حدثنا بعض أصحابنا وبقيّة رجاله ثقات، مجمع الزوائد (156/8)

3- العدل في المعاملات:

وهذا مجال رحب متشعب الأطراف متعدد الفروع، أشارت إليه كثير من النصوص الشرعية، بل كل نظم التشريع الإسلامي في باب المعاملات إنما سبقت من باب تحري العدل والاحتراز من الظلم، ومن هذا الوجه حرم الربا والقمار والغرر والتدليس والنجش، وغيرها من المعاملات التي تُفضي إلى الظلم؛ وعلى مستوى المعاملات الآنية جاء الأمر الرباني بتحري العدل يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْمِيزَانِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁴³⁶؛ وقال الله تعالى في سياق الحديث عن الربا الذي يعتبر ظلماً وأكلاً لمال الغير بالباطل، وهو نوع من الظلم الذي يُجاني العدل: ﴿وَإِنْ تُبْتِمْ فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾⁴³⁷؛ وفي سياق الحديث عن التداين وما يتعلّق به من أحكام، ككتابة الدين والإشهاد على ذلك، وغيرها من الأحكام، ربط القرآن الكريم كلّ ذلك بالعدل، فقال سبحانه في السورة ذاتها وفي السياق نفسه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّيِ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَمِيحاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوهَا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَفْطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَفْوَماً لِلشَّهَادَةِ

⁴³⁶ - هود: 84

⁴³⁷ - البقرة: 278

وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا⁴³⁸. كل ذلك - وغيره كثير لا يتسع المقام لذكره - من أجل إقامة العدل بين أفراد المجتمع الإنساني ليكون عمرانه متماسكا وقويا..

ولتجلية الموضوع أكثر في هذا الجانب، أترك ابن تيمية - رحمه الله - يفصل القول فيه بقوله: "وأما الأموال فيجب الحكم بين الناس فيها بالعدل كما أمر الله ورسوله، مثل قسم الموارث بين الورثة، على ما جاء به الكتاب والسنة(..)، وكذلك في المعاملات من المبيعات والإجارات والوكالات والمشاركات والهبات والوقف والوصايا، ونحو ذلك من المعاملات المتعلقة بالعقود والقبوض؛ فإن العدل فيها هو قوام العالمين، لا تصلح الدنيا والآخرة إلا به.

فمن العدل فيها ما هو ظاهر، يعرفه كل أحد بعقله، كوجوب تسليم الثمن على المشتري، وتسليم المبيع على البائع للمشتري، وتحريم تطفيف المكيال والميزان، ووجوب الصدق والبيان، وتحريم الكذب والخيانة والغش، وأن جزاء القرض الوفاء والحمد.

ومنه ما هو خفي، جاءت به الشرائع أو شريعتنا - أهل الإسلام - فإن عامة ما نهي عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق العدل، والنهي عن الظلم دقّه وجلّه، مثل أكل المال بالباطل، وجنسه من الربا والميسر، (..) وبيع الغرر، وبيع جبل الحبلّة، وبيع الطير في الهواء، والسّمك في الماء، والبيع إلى أجل غير مسمى، وبيع المصرة، وبيع المدّيس، والملازمة، والمنازمة، والمحاقلة والتّجش، وبيع الثمر قبل بدوّ صلاحه، وما نهي عنه من أنواع المشاركات الفاسدة، كالمخابرة بزرع بقعة بعينها من الأرض"⁴³⁹..

4- العدل في الإصلاح الاجتماعي.

وهذا الجانب من الأهمية بمكان في إقامة العمران وتماسك المجتمع، لذا نجد

⁴³⁸ البقرة: 281

⁴³⁹ ن: "السياسة الشرعية" لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ

النصوص الشرعية تناولته في سياقات مختلفة ومواطن عدّة تصعب الإحاطة بها، نشير إلى علاقته بالعدل فقط، وأكتفي هنا بذكر آية وحديث واحد فقط - مخافة الإطالة - أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِفْتْتَلَوْا بِأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ بَفْتَلُوا أَلْتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَبْغِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ بَاءَتْ بِأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَفْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِطِينَ﴾⁴⁴⁰؛ وهذه آية عظيمة في هذا الباب، تركز على أهمية العدل ودوره في عملية الإصلاح العمراني..

أما الحديث الشريف فهو قوله ﷺ: (كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ الشَّمْسُ قَالَ: تَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ)⁴⁴¹؛ وهو حديث يُفصّح عن هذه العلاقة إفصاحاً بارزاً، وقد استخدم الحديث الشريف لفظة العدل بدل الإصلاح، وهي استعارة عجيبة تدلّ على أنّ الإصلاح لا يحقق نتيجته إلا إذا صاحبه العدل فهو روحه ولبّه وجوهره! وقد استعمل النبي ﷺ لفظة العدل عوضاً عن الإصلاح للإشارة إلى أن الإصلاح الذي لا يصاحبه عدل فاقده لمشروعيته عقيم عن ثمرته..

5- العدل مع النفس في حاجاتها:

قد يظنّ البعض أنه لا دخل للعدل ها هنا، فهذه نفسه وذاته، فالإنسان حرّ في ذلك فهو لا يجور على أحد، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بحرماتها من ملذّات الدنيا، وإرغامها بتكليفها فوق طاقتها من التّعبد لتخليصها من أدران الدنيا وأرجاسها وأنجاسها، لكنّ الشرع الحنيف نهى عن ذلك واعتبره سلوكاً مجافياً للصواب وظلماً لنفس الإنسان؛ ولا أدلّ على ذلك من حديثين شريفيين أسوقهما للدلالة على هذا المعنى؛ فهذا عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - الذي أراد أن يتبتل ويتفرغ للعبادة، ويحرّم نفسه من ملذّات الدنيا، فقال له النبي ﷺ: (يا عثمان أرغبت عن سنتي، قال لا والله يا رسول الله ولكنّ

⁴⁴⁰ الحجرات: 9

⁴⁴¹ أخرجه أبو داود برقم 1371 (519/1)؛ وصححه الألباني في الجامع الصغير برقم 13906 (1391)

سنتك أطلب، قال فإني أنام وأصلي وأصوم وأفطر وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم)⁴⁴²، ونفس الشيء وقع مع أبي الدرداء - رضي الله - (فقد آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال: "ما شأنك؟"، قالت: "أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: "كُلْ، فإني صائم"، قال: "ما أنا بأكُل حتى تأكل"، فأكل؛ فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له: "نم"، فنم، ثم ذهب يقوم، فقال له: "نم"، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: "قم الآن"، فصليا جميعاً؛ فقال له سلمان: "إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه"، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: "صدق سلمان")⁴⁴³

فهذان موقفان يدلان على ضرورة توخي الاعتدال مع النفس وعدم الجور عليها وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه وهو تمام العدل؛ فإذا كان هذا الواجب مع النفس فبله أن يكون مع الغير، وخاصة مما حمّله الله مسؤولية سياسة الغير، فالأمر أشد جسامة وخطورة، وهو حديثنا في المسألة التالية..

المسألة الرابعة: العدل في السياسة العظمى (الإمامة) والقضاء:

وهذا الجانب وإن تأخر ذكره فهو الأهم، إذ الحاكم هو راعي الواجبات وكافل الحقوق لكل أفراد المجتمع - وسأخصص له المطلب القادم للحديث عنه باعتباره شرطاً مستقلاً للعمران - وهو في نظر الشرع الذي يسوس الدنيا بالدين، وصلاحه ينعكس على عمران الناس واجتماعهم بالخير والصلاح والنماء، وفساده يهلك الحرث والنسل، ويدمر

⁴⁴² أخرجه أبو داود (1369)، وأحمد (26308) باختلاف يسير؛ وصححه الألباني في الجامع الصحيح؛ رقم: 7946

⁴⁴³ أخرجه البخاري برقم 1968.

الأخضر قبل اليابس، وفي هذا يقول ابن الموصلي⁴⁴⁴: "وكما أنه ليسَ فوق رُتَبَةِ السُّلْطَانِ العَادِلِ رُتَبَةٌ، كَذَلِكَ لَيْسَ فوق رُتَبَةِ السُّلْطَانِ الشَّرِيرِ رُتَبَةٌ لَشَرِّهِ لِأَن شَرَّهُ يعمُّ، وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد، كَذَلِكَ بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد، وتُقتَرَفُ المعاصي والآثام، وَكَذَلِكَ السُّلْطَانُ إِذَا عدل انتشر العدل في الرعية فأقاموا الوُزْنَ بِالْقِسْطِ، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور فأرسلت السمماء غيثها وأخرجت الأرض بركاتها، ونمت تجارتهم وزكت زروعهم وتناسلت أنعامهم ودرت أرزاقهم ورخصت أسعارهم، فواسى البخیل وأفضل الكَرِيم وقضيت الحقوق وأعيرت المواعين وتهادوا فضول الأَطْعَمَةِ والتحف، فهان كل الحطام لكثرتة وذل بعد عزته، فتماسكت على الناس مروءاتهم وحفظت عليهم أديانهم، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الوَالِي مَأْجُورٌ عَلَى مَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ وَعَلَى مَا يَتَعَاطَاهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ"⁴⁴⁵

وهذا ما يجعل الحكم من أهم مجالات العدل، ويكون هذا الأخير من أوجب الواجبات في هذا المجال، وأكثرها تأثيراً على عمران الناس واجتماعهم، ومن ثم اعتبر النبي ﷺ الحاكم العادل من خير الناس وأحبهم إلى الله، وذلك لعظم الأثر الذي يترتب عن مسؤوليته؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامًا عَادِلًا، وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامًا جَائِرًا)⁴⁴⁶؛ وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين يُبغضونكم وتبغضونهم وتلعنونهم ويلعنونكم) قلنا يا رسول الله

⁴⁴⁴ ابن الموصلي (699 - 774 هـ / 1300 م - 1372 م)؛ هو محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلبي

شمس الدين، ابن الموصلي: أديب، وعالم بالفقه؛ ولد في بعلبك، وتعلم بها وبدمشق وحماة، وتوفي بطرابلس. من كتبه (مهمجة المجالس ورونق المجالس) خمس مجلدات، و (الدر المنتظم) نظم فيه فقه اللغة للثعالبي، و (لوامع الأنوار؛ خ) في نظم غريب الموطأ ومسلم، لابن قرقول، و(نظم المنهاج) للنووي. وله نظم ونثر.. نقلا عن: الأعلام للزركلي

⁴⁴⁵ ن: "حسن السلوك الحافظ دولة الملوك" مصدر سابق، ص: 64؛ 65

⁴⁴⁶ أخرجه الترمذي وَقَالَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ

أفلا ننازدهم بالسيف قال لا ما أقاموا فيكم الصلاة⁴⁴⁷!

ومعنى تصلون عليهم تدعون لهم؛ فها أنت ترى المكانة التي يتبوأها الحاكم العادل، وما ذلك إلا للدور الكبير الذي يلعبه هذا الأخير في بناء العمران وإقامة البلدان واجتماع الإنسان وصلاح الدنيا وسلامة الأديان!!

ويعتبر جور الحاكم وظلمه من أخطر أنواع الظلم التي تهدد وتقوض بناء العمران، وتتناهى على إثره حضارة الإنسان؛ ونترك - مرة أخرى - ابن الموصلي يوضح لنا هذا الأمر ويُجَلِّيه بقوله: "وَإِذَا جَارِ السُّلْطَانِ انْتَشَرَ الْجُورُ فِي الْبِلَادِ وَعَمَّ الْعِبَادَ، فَفُتَّتْ أَدْيَانُهُمْ، وَاضْمَحَلَّتْ مَرْوَاتُهُمْ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَفُتَّتْ فِيهِمُ الْمَعَاصِي، وَذَهَبَتْ أَمَانَتُهُمْ، فَضَعُفَتْ النُّفُوسُ، وَقَنَطَتِ الْقُلُوبُ، فَضَعُفُوا عَنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ فَتَعَاثَوْا الْبَاطِلَ، وَبَخَسُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَرَوَّجُوا الْبَهْرَجَ فَفَرَعَتْ مِنْهُمْ الْبَرَكَةُ، وَأَمْسَكَتِ السَّمَاءُ غَيْثَهَا، وَلَمْ تَخْرُجِ الْأَرْضُ زَرْعَهَا وَنَبَاتَهَا، فَقَلَّ فِي أَيْدِيهِمُ الْحَطَاةُ، فَقَنَطُوا وَأَمْسَكُوا الْفَضْلَ الْمَوْجُودَ، وَتَنَاجَزُوا عَلَى الْمَقْفُودِ، فَمَنَعُوا الزُّكُوتَ الْمَقْرُوضَةَ، وَبَخَلُوا بِالْمَوَاسَاةِ الْمَسْنُونَةِ، وَقَبَضُوا أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمَكَارِمِ، وَفُتَّتْ فِيهِ الْأَيْمَانُ الْكَاذِبَةُ، وَاخْتَلَتْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْمَكْرِ وَالْحِيلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْاِقْتِضَاءِ، فَيُظَلُّ أَحَدُهُمْ غَارِيًا مِنْ مَخَاسِنِ دِينِهِ، مُتَجَرِّدًا مِنْ جَلْبَابِ مَرْوَاتِهِ، وَمَنْ عَاشَ كَذَلِكَ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ظَهْرِهَا"⁴⁴⁸.

فها ظلم الحاكم ينعكس على الكون برمّته وليس على الإنسان فحسب، كما رأينا من خلال كلام ابن الموصلي، وهذا ما يفسّر ما آلت إليه الأوضاع في الدول الإسلامية و العربية على وجه الخصوص، في وقتنا وخاصة بعد الثورات العربية؛ نعم إنها سنن الله

⁴⁴⁷ . رواه مسلم..

⁴⁴⁸ . ن: " حسن السلوك الحافظ دولة الملوك"، مصدر سابق، ص: 65

ونواميسه التي لا تحابي أحدا من الخلق بحال، ولا تتخلف ولا تختلف؛ ﴿سُنَّةُ اللَّهِ إِلَتِي

فَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَسَ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾⁴⁴⁹

ويزيد الأمر بيانا رائد علم العمران الإمام ابن خلدون فيقول: "وَأَنَّ الظُّلْمَ مؤذنٌ بخراب العمران المفضي لفساد النوع، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام فإنها

كلُّها مبنية على المحافظة على العمران، (..) - ثم نقل كلاما عن الموبدان -⁴⁵⁰ في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي؛ (أيها الملك إنَّ الملك لا يتمُّ عزُّه إلَّا بالشرعية، والقيام لله بطاعته، والتَّصرُّف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشرعية إلَّا بالملك، ولا عزٌّ للملك إلَّا بالرجال، ولا قوام للرجال إلَّا بالمال، ولا سبيل للمال إلَّا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلَّا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرِّبَّ وجعل له قيِّما وهو الملك)⁴⁵¹..

وبيِّن ابن تيمية في ما يجب على الحاكم إزاء رعيته، فيما يتعلَّق بنشر العدل بينها ومحاربة مظاهر الظلم، ولنستمع إليه رحمه الله: "ثُمَّ إِفَاضَةَ الْعَدْلِ التَّامِّ الَّذِي يَنَالُ كُلِّ مِنْهُمْ نَصِيبِهِ الْمَوْفُورِ مِنْهُ، ثُمَّ تَسْهِيلَ الْإِذْنِ بِقُلْعِ الظُّلْمِ مِنْ أُصُولِهِ وَغَرْسِ مَحَبَّةِ الْوَالِي فِي قُلُوبِ الرِّعِيَّةِ، ثُمَّ حِفْظَ أَطْرَافِهِمْ وَأَمَانَ سَبِيلِهِمْ لِتَتَوَفَّرَ مَعَايِشُهُمْ وَتَدْرَجَ مَتَاجِرُهُمْ، وَاسْتِعْمَالَ الْعُقُوبَةِ النَّاهِكَةِ بِأَهْلِ الدَّعَارَةِ وَاللَّصُوصِ مِنَ الْقَتْلِ الْمُبِيرِ وَالْحُبْسِ الطَّوِيلِ، فَهُمْ كَالشُّوْكَ بَيْنَ الزَّرْعِ لَا يَنْمِي وَلَا يَصْلَحُ إِلَّا بِتَنْقِيَتِهِ مِنْهُ، ثُمَّ التَّعَطُّفَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَتَرْفِيهِمْ عَنْ الْكُلْفِ السُّلْطَانِيَّةِ مِنْ تَسْخِيرِ لَهُمْ أَوْ اسْتِعَانَةِ بِهِمْ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفِتَنِ تَهِيْجُ بِشَكَايَةِ الضُّعَفَاءِ وَحَقْدِ الْأَغْنِيَاءِ وَيَجِبُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مَا بَعْدَ مِنْهُمْ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالْعَدْلِ بِمِثْلِ مَا يَتَنَاوَلُ

⁴⁴⁹ . الفتح: 23

⁴⁵⁰ . الموبدان فقيه الفرس وحاكم المحوس نقلا عن حاشية المقدِّمة ص: 51

⁴⁵¹ . ن: " المقدِّمة " ص: 51

بِهِ الْقَرِيبُ"⁴⁵²؛ فهذه مواصفات الحاكم العادل الذي ينمو به العمران و تشيّد به الحضارات..

وزبدة القول وخلاصته أنّه تبين لنا من خلال ما سبق ذكره أنّ العدل يدخل في كل مناحي الحياة الإنسانية، بل كلّ الموجودات والأكوان قائمة عليه، فهو يمثل عمودها الفقريّ الذي يُفضي إلى التوازن والصالح في منظومة الإنسان والكون والحياة، وهو ما يشير إليه قوله تعالى في سياق عجيب من سورة الرحمن - سورة التذكير بالآلاء - ﴿وَالسَّمَاءَ رَقَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٥﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٦﴾ وَأَفِيمُوا الْوَزْنَ بِالْفُسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٨﴾﴾⁴⁵³؛ وحينما تغيب معاني العدل فإن ذلك يقتضي إخلال هذا التوازن بما يفضي إلى اختلال التوافق بين الإنسان والكون حوله، ممّا ينتج عنه خراب العمران وبيابه؛ ذلك من تجليات قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾⁴⁵⁴؛ وهو ما كان محل اتفاق العقلاء من الناس، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: "فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُروى: {الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة}"⁴⁵⁵..

وإذا كان التوحيد والعدل بهذه الأهمية بالنسبة للعمران، فإنهما يحتاجان إلى قائم عليهما وحارس لهما يثبّت قواعدهما ويرعى شؤونهما، وهو ما أخصّص الحديث عنه في المطلب الآتي:

⁴⁵² ن: "مجموع في السياسة" أبو القاسم الوزير المغربي (المتوفى: 418هـ)، المحقق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر:

مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، الطبعة: الأولى؛ ص: 56

⁴⁵³ .الرحمان: من: 5، إلى: 8.

⁴⁵⁴ .الروم: 40

⁴⁵⁵ ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، مصدر سابق، (28/ 62 و 63)

المطلب الثالث: وجود الإمام راعي العمران

إذا كان الدين والعدل شرطين مهمّين في إقامة العمران - بما بينت قبل - فإن الإمام أو الحاكم يعتبر راعيها والحارس لهما، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ وللحديث عن هذا الشرط المهم في البناء العمراني والتشييد الحضاري كان لا بد من النظر فيه من عدة زوايا كاشفة لحقائقه، ومجّلية لأسراره:

المسألة الأولى: المفهوم

وليكن البدء من زاوية المفهوم إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقال..

○ في اللغة:

فالإمام في اللغة كما يقول ابن فارس: "الإمام: كل من اقتدي به وقدم في الأمور؛ والنبي صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين(..) وَالْأُئْمَةُ: الرَّئِيسُ، يُقَالُ: هُوَ أُمُّهُمْ. قَالَ الشَّنْفَرَى:

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقُوَّهُمْ ... إِذَا أَطَعَمْتَهُمْ أَحْتَرَتْ وَأَقَلَّتِ

أراد بأمّ العيال رئيسهم الذي كان يقوم بأمرهم"⁴⁵⁶، وقال صاحب اللسان: "و (الإمام) الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ وَجَمْعُهُ (أُئِمَّةٌ)"⁴⁵⁷، وهو الخليفة والحاكم والسلطان والرئيس⁴⁵⁸

⁴⁵⁶ ن: " معجم مقاييس اللغة" مصدر سابق (28/1؛ 31) بتصرف

⁴⁵⁷ ن: " لسان العرب" مرجع سابق. (22/1)

⁴⁵⁸ . والإمامة والخلافة والسلطان والحاكم مصطلحات مترادفة، وإن كان مصطلح الخلافة أسبق، ومصطلح الإمامة أكثر ما يتردد عند الشيعة، والإمامية منهم خاصة، لكن المعنى يكاد يكون واحداً، وهو: رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا، كما قال التفتازاني، أو: هي خلافة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة، يجب اتباعه على كافة الأمة، كما قال عضد الدين الإيجي في شرح المواقف، أو: هي خلافة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال الشيخ رشيد رضا في كتابه الخلافة.

يقول الدكتور عبد الرزاق السنهوري -رحمه الله: إن أهل السنة والمعتزلة يرون أن الخلافة واجب شرعي، ولكنهم يختلفون في أساس هذا الوجوب؛ فأهل السنة يرون أن سند وجوب الخلافة هو الإجماع، أما الرأي الآخر وغالب أنصاره من المعتزلة،

○ في الاصطلاح:

وفي الاصطلاح ف"الإمامة: موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"⁴⁵⁹؛ وهي كما يقول الجويني: "رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا؛ مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والخيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفائها على المستحقين."⁴⁶⁰ وقال التهانوي في كشف اصطلاحات الفنون: "الإمامة عند المتكلمين: هي خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وحفظ حوزة الإسلام بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة والذي هو خليفته يسمى إماماً"⁴⁶¹؛ ويقول ابن خلدون بأنها: "خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"؛ ويقول أيضاً: "وإذ قد بينّا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة، في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة أو إمامة، والقائم به خليفة أو إمام"⁴⁶²

ولا يفوتني هنا أن أسوق تعريفاً للعلامة د يوسف القرضاوي يقول فيه: "الإمام في العرف الإسلامي هو: الخليفة الذي يحكم الأمة نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وسياسة الدنيا به؛ فهو الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية الواحدة كما صورت ذلك الأحاديث النبوية، وجسده الواقع التاريخي للخلفاء الراشدين ومن بعدهم والخليفة يسوس الأمة بنفسه، وبمن ينوب عنه في إدارة البلاد وسياسة العباد، ممن

فيرى أن سند الوجوب هو العقل، وهناك طائفة من المعتزلة ترى أن سند وجوب الخلافة شرعي وعقلي في وقت واحد، ويرى الشيعة كذلك وجوب إقامة الحكومة الإسلامية. "فقه الخلافة وتطورها: لعبد الرزاق السنهوري ص 59."

⁴⁵⁹ ن: "الأحكام السلطانية"؛ الماوردي، مصدر سابق (15/1)

⁴⁶⁰ ن: "الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، للإمام الجويني، أبو المعالي؛ المحقق: عبد العظيم الديب؛ الناشر: مكتبة إمام الحرمين؛ الطبعة: الثانية، 1401هـ؛ (22/1)

⁴⁶¹ ن: "كشف اصطلاحات الفنون" التهانوي، مصدر سابق (92/1) ..

⁴⁶² ن: "مقدمة ابن خلدون" (191/1)

تعيّنه الأمة نائباً عنه، ومن يُنْيِيه هو عن نفسه، من الولاية على الأقاليم أو الجيوش، والمؤسسات ونحوها، ممن يقومون على السلطة التنفيذية(..) ويعتبر كل رئيس دولة إسلامية إقليمية في عصرنا بمثابة الإمام فيما يخصه من أحكام بالنسبة للبلد الذي يسوسه ويحكمه"⁴⁶³.

مما سبق يتبين أن الخلافة أو الإمامة في الاصطلاح الإسلامي تعني القيادة الإسلامية؛ فهي رئاسة تامة، وزعامة عامة، وخلافة للنسبة لحراسة الدين وإقامته، وحفظ الحوزة، وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السماوات والأرض، ورفع الظلم، والقضاء في الخصومات، وسياسة الرعاية ورعاية شئونها، والقيام على مصالحها، وإظهار شرائع الدين، ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم، ومراعاة الفقراء والمساكين، وسياسة الدنيا بتطبيق الشريعة، وإقامة حدودها، والائتمار بأوامرها والانتهاز عن نواهيها، والتزام أحكامها، وتطبيق أنظمتها في الحكم والقضاء والإدارة، والاقتصاد، والتعليم والاجتماع، والإعلام والعقوبات وسائر المجالات العمرانية..

وبناء على ذلك كان تنصيب الحاكم والإمام من الأهمية العمرانية بمكان؛ فما حكم تنصيب الإمام؟ والجواب يكمن في ثنايا المسألة الثانية، فهاتها:

المسألة الثانية: حكم تنصيب الإمام أو الحاكم والحاجة إليه

إذا كانت الإمامة بالمعنى الذي ذُكر قبْلُ؛ وكان الإنسان اجتماعياً بطبعه كما بيّنت في بداية الحديث عن العمران وكما هي عبارة الأقدمين؛ وذلك بسبب عجزه فرداً عن توفير حاجاته الضرورية من الغذاء والحماية، فضلاً عن ضرورات ترقية هذا الوجود مادياً ومعنوياً إنتاجاً للحضارة وإقامة لعمرانه، مما لا يتصور خارج الحياة الاجتماعية..

وإذا كان يجاور ويزاحم ويضادُّ هذا الميل للاجتماع ميولٌ للإشباع الغريزي النهم ولو من طريق العدوان على الآخر، لا سيما عدوان القوي على الضعيف، مما قد يجعل قانون الغاب هو قاعدة التعامل بين بني الإنسان، وهو مؤذن بخراب العمران كما ذكر ابن

⁴⁶³ ن: "السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها" للقرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، 1432هـ/

خلدون وغيره؛ إذا كان ذلك كذلك - وهو كذلك طبعاً - تحتم على الناس أن يعيشوا جماعات، واقتضى عيشهم العمراني من أجل أن يستمرّ ويزدهر وجود أعراف وقوانينٍ وقيمٍ توضّح وتحدد ما هو عدل وما هو ظلم، ما هو حق وما هو باطل، ما هو خير وما هو شر، وهو ما يمكن توفيره عن طريق الدين - من خلال نصوصه التشريعية - والعدل اللذين جعلتهما شرطين أساسيين للعمران؛ إلا أنهما على أهميتهما لا يكفيان ما لم توجد سلطة ترعى ذلك وتقوم عليه، ويحتكم إليها الناس في فضّ ما ينجم بينهم من خلافات وصراعات، فتحجز الظالم وتقتص منه بقدر إساءته، وتتنصف للمظلوم بقدر ما ناله من ظلم وفق معايير عادلة، وتلك السلطة هي سلطة الإمام أو الحاكم؛ وهو ما جعل ابن خلدون يقول بتعدّد العمران دون سلطة راعية له، وذلك هو قوله: "العمران دون الملك والدولة متعدّر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع"⁴⁶⁴

وهذا ما يوضحه ابن تيمية - رحمه الله - بقوله: "وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم؛ والتناصر لدفع مضارهم؛ ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة؛ ويكونون مطيعين للأمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة أمر وناه."⁴⁶⁵

ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم)؛ رواه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة؛ وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي

⁴⁶⁴ ن: "المقدمة" (1/ 188)

⁴⁶⁵ ن: "مجموع الفتاوى" مصدر سابق (62/28)

صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم)؛ فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة؛ وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي: (أن السلطان ظل الله في الأرض)؛ ويقال (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان)، والتجربة تبين ذلك؛ ولهذا كان السلف - كالفضيل بن عياض و أحمد بن حنبل وغيرهما - يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان.⁴⁶⁶

قلت: ودليل ذلك أن كثيرا من الدول العربية التي خلع الحاكم - وإن كان ظالما - بعد الثورات العربية وقع فيها من الخراب والفساد أضعافا مضاعفة مما كان عليه الحال إبان الحاكم الظالم، ولعل أوضح صورة لذلك دولة سوريا!! وهو ما قرّره إمام الحرمين الجويني - لله درّه - بقوله: "وقد قال بعض العلماء: لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قطان كل بلدة، وسكان كل قرية، أن يُقَدِّموا من ذوي الأحلام والنهي، وذوي العقول والحجا من يلتزمون امتثال إشاراته وأوامره، وينتهون عن مناهيه ومزاجره، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك، ترددوا عند إمام المهمات، وتبلدوا عند إظلال الوقعات"⁴⁶⁷.

ولابن الأزرق الغرناطي⁴⁶⁸ - رحمه الله - كلاما وجيها في بيان الحاجة إلى الحاكم

⁴⁶⁶ ن: المرجع السابق (28/ 390)

⁴⁶⁷ ن: "الغيثي غياث الأمم في التياث الظلم"، مصدر سابق (386/1، و387)

⁴⁶⁸ ابن الأزرق (ت 896 هـ / 1491 م)، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبو عبد الله، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق: عالم اجتماعي سلك طريقة ابن خلدون، من أهل غرناطة، تولى القضاء بها إلى أن استولى عليها الإفرنج، فانتقل إلى تلمسان ثم إلى المشرق يستنفر ملوك الأرض لنجدة صاحب غرناطة، قال المقري: (واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بيض الأنوق أو الأبيض العقوق! ثم حج ورجع إلى مصر، فجدد الكلام في غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، فتولاه بنزاهة وصيانة، ولم تطل مدته هنالك حتى توفي به..

لانتظام أمور الدنيا والدين، واستقامة اجتماع الناس وعمرانهم؛ فيقول: "إن الضرورة في الاجتماع الطبيعي لنوع الإنسان كما تقدم، تدعو إلى المعاملات واقتضاء ضرورات المعاش وحاجياته، ومن لوازم ذلك تولد المنازعات في اختصاص كل بلد بما تمد إليه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بمقتضى الغضب وأنفة القوى البشرية، وذلك مفض إلى المقاتلة المؤدية إلى سفك الدماء وإتلاف النفوس، وكل ذلك مؤذن بانقطاع النوع وانحرام شمل اجتماعه، وقد اقتضت حكمة العناية به أن يُحفظ من محذور ذلك بوازع، لاستحالة البقاء بعد وضع الشرائع والسياسات المصطلح عليها إلا بنصبه، وهو السلطان المانع بقهر يده الغالبة مما يؤدي لوقوع ذلك المحذور.." ⁴⁶⁹؛ ويقول أيضا: "إنَّ تَوَهُّم الاستغناء عن السلطان باطل؛ أما في الدين فلا امتناع حمل الناس على ما عرفوا منه طوعا أو كرها دون نصبه، إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؛ وأما في الدنيا فلا أن حامل الطبع والدين لا يكفي في إقامة مصالحها على الوجه الأفضل غالبا؛ قال الأُمدي ولذلك نجد من لا سلطان لهم كالذئاب الشاردة والأسود الضارية لا يُبقي بعضهم على بعض ولا يحافظون على سنة ولا فرض؛ قال: ولهذا قيل السيف والسنان يفعلان ما لا يفعل البرهان" ⁴⁷⁰؛ ومن خلال كلام ابن الأزرق نستشف أن وجود الحاكم ضروري لانتظام عمران الناس، وأن انعدامه ينتج عنه فوضى عارمة لا تُبقي ولا تذر؛ يقول الطرطوشي ⁴⁷¹ صاحب سراج

له كتب، كثيرة منها المخطوط والمطبوع.. نقلا عن: الأعلام للزركلي بتصرف

⁴⁶⁹ ن: "بدائع السلك في طبائع الملك" ابن الأزرق، المحقق: د. علي سامي النشار، الناشر: وزارة الإعلام، العراق، الطبعة: الأولى؛ دون تاريخ؛ (67/1 - 68)

⁴⁷⁰ نفس المرجع (1 / 68 - 69) ..

⁴⁷¹ الطرطوشي (451 - 520 هـ = 1059 - 1126 م)؛ هو: محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي، ويقال له ابن أبي رندقة؛ أديب، من فقهاء المالكية، الحفاظ؛ من أهل طرطوشة Tortosa بشرقي الأندلس؛ تفقه ببلاده، ورحل إلى المشرق سنة 476 فحج وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان، وأقام مدة في الشام؛ وسكن الإسكندرية، فتولى التدريس واستمر فيها إلى أن توفي؛ وكان زاهدا لم يتشبهت من الدنيا بشيء؛ من كتبه (سراج الملوك - ط) و (التعليقة) في الخلافات، خمسة أجزاء، وكتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي، و (بر الوالدين) و (الفتن) و (الحوادث والبدع - ط) و (مختصر تفسير الثعلبي - خ) و (المجالس - خ) في الرباط؛ نقلا عن: الأعلام للزركلي بتصرف

الملك : "وفي منشور الحكم: سلطان جائر أربعين سنة خير من رعية مهملة ساعة واحدة من النهار"⁴⁷²؛ وهو ما يقرّه واقعنا المعاصر في بعض الدول العربية بعد الربيع العربي حيث ثارت على حكامها، فلم تجتمع على حاكم آخر، فاختلطت الأمور واختل النظام، حتى ليتمنّون لو استقبلوا من أمرهم ما استدبروا؛ والله الأمر من قبل ومن بعد!

و"عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، وإذا جار كان عليه الأصر وعلى الرعية الصبر)"⁴⁷³..

"قال الفضيل: جور ستين سنة خير من هرج ساعة، فلا يتمنى زوال السلطان إلا جاهل مغرور أو فاسق يتمنى كل محذور، فحقيق على كل رعية أن ترغب إلى الله تعالى في إصلاح السلطان، وأن تبذل له نصحتها وتخصه بصالح دعائها، فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفي فساده فساد العباد والبلاد"⁴⁷⁴.

ويُضيف الإمام الماوردي - لله درّه - في بيان شافٍ وكافٍ ما تنصلح به الدنيا - أي ما يقوم به عمران الناس وتبني عليه حضارتهم - وقد سبق أن ذكرنا بعض كلامه في أكثر من سياق وفي غير ما موضع؛ يقول رحمه الله : "وأما القاعدة الثانية: فهي سلطان قاهر تتألف من رهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة، وتكفُ بسطوته الأيدي المتغالبة، وتمتنع من خوفه النفوس العادية - أي الباغية - ؛ لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي، ورادع ملي؛ وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله:

⁴⁷² ن: "سراج الملوك"؛ الطرطوشي؛ الناشر: من أوائل المطبوعات العربية، مصر؛ تاريخ النشر: 1289هـ، 1872م؛

⁴⁷³ نقلا عن: "النصيحة للراعي والرعية" للتبريزي (المتوفى: 636هـ)، حققه وعلق عليه: أبو الزهراء عبيد الله

الأثري، الناشر: دار الصحابة للتراث، طنطا؛ مصر، الطبعة: الأولى، 1411 هـ / 1991م؛ (33 / 1)

⁴⁷⁴ نقلا عن : "سراج الملوك" للطرطوشي، مصدر سابق، (48/1)؛..

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقل زاجر، أو دين حاجر، أو سلطان رادع، أو عجز صاد، فإذا تأملتها لم تجد خامسا يقتزن بها؛ ورهبة السلطان أبلغها، لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين، أو بدواعي الهوى مغلوبين، فتكون رهبة السلطان أشدَّ زجرا وأقوى ردعا؛ وقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: أنه قال: (السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم).

وروي عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن) (..). فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها؛ ثم لما في السلطان من حراسة الدين والدنيا والذبّ عنهما ودفع الأهواء منه، وحراسة التبديل فيه، وزجر من شذ عنه بارتداد، أو بغى فيه بعناد، أو سعى فيه بفساد؛ وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية، أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء، وتحريف ذوي الآراء، فليس دين زال سلطانه إلا بُدلت أحكامه، وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر فيه وهاية أثر⁴⁷⁵

سبحان الله!! إن سنن الله ونواميسه في خلقه وعمرانهم لا تتخلف ولا تختلف ولا تحابي أحدا من الخلق بحال!! فهذا كلامه كأنما يصف حال بعض الدول العربية في وقتنا الراهن بعد الربيع العربي، كسوريا والعراق وليبيا، كأنه رأي العين، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أنّ للعمران - الذي نؤصل له وندندن حوله - قواعد ونواميس قطاعية يقوم عليها والتي سنفرد للحديث عنها في الباب الثاني بإذن الله تعالى!!

المسألة الثالثة: تنصيب الإمام هل وجب بالشرع أم بالعقل!!؟

ولأجل ما سبق أجمعت الأمة على وجوب تنصيب الحاكم؛ يقول الإمام الماوردي

⁴⁷⁵ ن: "أدب الدنيا والدين" مصدر سابق (1/ 134؛ 135)، بتصرف

في أحكامه السلطانية: "الإمامة: موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدتها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع (..)

واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟⁴⁷⁶ فقالت طائفة: وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لرعيم يمنعهم من التظلم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين، وهمجا مضاعين، وقد قال الأفوه الأودي، وهو شاعر جاهلي "من البسيط:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ×××× ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقالت طائفة أخرى: بل وجبت بالشرع دون العقل؛ لأن الإمام يقوم بأمر شرعية.."⁴⁷⁷

ويؤكد على ذلك رائد العمران، العلامة ابن خلدون - رحمه الله - بقوله: "إِنَّ نَصْبَ الإمام واجبٌ قد عُرِفَ وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأنَّ أصحابَ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم عند وفاته بادَّروا إلى بَيْعَةِ أَبِي بكرٍ رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كُلِّ عصرٍ مِنْ بعدِ ذلك، ولم تُتركِ الناسُ فَوْضَى في عصرٍ مِنَ الأعصار، واستقرَّ ذلك إجماعًا دالًّا على وجوبِ نَصْبِ الإمام"⁴⁷⁸..

قلت: لقد قدّم الصحابة مبايعة أبي بكر على دفن رسول الله ﷺ - مع وجوب تعجيل دفن الميت لإكرامه، فكيف والحال هنا هو رسول الله ﷺ؟! - ممّا يدل على أهمية الحاكم ودوره العمراني والحضاري؛ كما تدل على ذلك أيضا بيعة العقبة الثانية حين بايع الأوس

⁴⁷⁶ كثير هي الأمور التي اختلف فيها أهل السنة مع المعتزلة مثل مسألة شكر المنعم، وبعث الرسل، ومسألة تنصيب الأئمة التي هي موضوع حديثنا، ومسألة التكليف، والتحسين والتقييح، وغيرها من المسائل هل مصدرها الشرع أو العقل، ومرّد ذلك ومبناه على الخلاف في تقديم النقل على العقل بين أهل السنة والمعتزلة، كما هو مقرر في كتب علم الكلام وكتب أصول الفقه..

⁴⁷⁷ ن: "الأحكام السلطانية" مصدر سابق (15/1)،

⁴⁷⁸ ن: "المقدمة" (171 / 1)

والخروج - بعد إسلامهم - رسول الله ﷺ فيما روى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت قال: (بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله).⁴⁷⁹ ؛ وكانت تلك البيعة بداية بدايات الدولة الإسلامية بقيادة النبي محمد ﷺ.

وأردف إلى ما سبق كلاماً لإمام الحرمين الجويني يشفي فيه العليل ويروي الغليل، وها نصه: "فإذا تقرر وجوب نصب الإمام، فالذي صار إليه جماهير الأئمة أن وجوب النصب مستفاد من الشرع المنقول، غير متلقى من قضايا العقول..

وذهبت شذمة من الروافض⁴⁸⁰ إلى أن العقل يفيد الناظر العلم بوجوب نصب الإمام؛ واستقصاء القول في استحالة تلقي الأحكام من أساليب العقول بحر فياض لا يغرف، وتيار موج لا ينزف؛ والفئة المخالفة في هذا الباب أخذت مذهبها، وتلقت مطلبها من مصيرها، إلى أن الله - تعالى جده - يجب عليه استصلاح عباده، وزعموا أن الصلاح في نصب الإمام، واستمدوا في تقرير ما يحاولونه، وتمهيد ما يزاولونه من الوجوه التي ذكرناها، وهذا منهم جهل بحقيقة الإلهية، وذهول عن سر الربوبية...

ومن وُقِّق للرشاد، واستُد في منهج السداد، واستقر في نظره على اتِّئاد، علم أن من ضرورة تحقق الوجوب، تعرض من عليه الوجوب للتأثر بالمثاب والعقاب، ومن تصدى

⁴⁷⁹ - متفق عليه.

⁴⁸⁰ . والمعتزلة أيضاً، ولعل مذهبهم في هذه المسألة وغيرها أشهر من مذهب الروافض، فهم يقدمون العقل على النقل، بل يجعلون العقل حاكماً على النقل ومهيماً عليه، بخلاف أهل السنة. وهذا ما أشار إليه ابن عاصم في أرجوزته:

يقول أهل السنة التحسينُ ×××× وضدُّه بالشرع يستبينُ

والعقلُ قبل الشرعِ ما له نَظَرُ ×××× وإنه لهم لا أصلٌ مُعْتَبَرُ

وقال أهل الاعتزال العقلُ ×××× له مجالٌ في الأمور قبلُ

ثم أتى الشرعُ مؤكِّداً لما ×××× أدرك أو مبيناً ما انبهما

وهو لهم من الأصول الواهية ×××× وعلَّقوا به فروعاً ذابية

لطرق الغير، وقبول الأثر، فهو عرضة للآفات، ودرية لأسنة العاهات، والقديم - تعالى - لا يلحقه نفع، ولا يناله ضرر يعارضه دفع، فاعتقاد الوجوب عليه زل، فهو الموجب بأمره، فلا يجب عليه شيء من جهة غيره..

ثم الأديان والملل، والشرائع والنحل، أحوج إلى الأنبياء، المؤيدين بالمعجزات، والآيات الباهرات، منها إلى الأئمة، فإذا جاز خلو الزمان عن النبي، وهو معتصم دين الأمة، فلا بُد في خلوه عن الأئمة؛ فقد ثبت أنا عرفنا وجوب نصب الإمام من مقتضى الشرع الذي تعبدنا به..

ولو رددنا إلى العقول، لم نبعد أن يهلك الله الخلائق، ويقطعهم في الغوايات على أنحاء وطرائق، ويغمسهم في غمرات الجهالات، ويصرفهم عن مسالك الحقائق، فبحكمه تردى المعتدون، وبفضله اهتدى المهتدون، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) ⁴⁸¹

ومما يؤكّد القول على أن ذلك ثبت بالشرع ما ذكره ابن تيمية في قوله: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدينته النبوية يتولى جميع ما يتعلق بولاة الأمور ويولي في الأماكن البعيدة عنه كما ولى على مكة عتاب بن أسيد وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص وعلى قرى عرينة خالد بن سعيد بن العاص، وبعث عليا ومعاذا وأبا موسى إلى اليمن، وكذلك كان يؤمر على السرايا ويبعث على الأموال الزكوية السعاة، فيأخذونها ممن هي عليه ويدفعونها إلى مستحقيها الذين سماهم الله في القرآن، فيرجع الساعي إلى المدينة وليس معه إلا السوط، لا يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشيء إذا وجد لها موضعا يضعها فيه" ⁴⁸².

كل ما سبق إirاده - وقد أطلت النفس فيه نظرا لأهميته - من كلام أولئك الأعلام يوحى بلا مرأ فيه أن تنصيب الحاكم ضرورة عمرانية وشرط أساس من شروط العمران بعد شرطي الدين والعدل؛ ولعلّ خير دليل ما تعيشه بعض الدول العربية والإسلامية اليوم

⁴⁸¹ ن: "الغياثي" مصدر سابق، (24/1؛ 25)

⁴⁸² ن: "مجموع الفتاوى" مصدر سابق، (28/ 81)

أي بعد ثوراتها على حكامها!!

ومن ثمّ فقد كانت مكانة الحاكم العمرانية عظيمة؛ وقيمتها الاجتماعية غالية، وتترتب عليه مسؤوليات عمرانية جسيمة ومهام حضارية ثقيلة؛ وهو حديثنا في المسألة الموالية.

المسألة الرابعة: مكانة الإمام ومهامه العمرانية:

أمّا عن دور الإمام وأهداف الإمامة فتتلخص في تحقيق المصالح الدينية والدنيوية التي عبّر عنها العلماء "بجراحة الدين وسياسة الدنيا" ..

وبيّن ابن تيمية بعض مهام الحاكم لإقامة العمران بقوله: "فالمقصود الواجب بالولايات: إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسارنا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا؛ وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم، وهو نوعان: قسم المال بين مستحقّيه؛ وعقوبات المعتدين فمن لم يعتد أصلح له دينه ودنياه ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول: (إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقسموا بينكم فيأكم) ؛ فلما تغيرت الرعية من وجه والرعاة من وجه؛ تناقضت الأمور، فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله؛ فقد روي: (يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة) وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغضهم إليه إمام جائر)"⁴⁸³ ..

ويقول الجويني - رحمه الله - مبيناً مكانة الإمام العمرانية: "ولا يَرْتَابُ مَنْ مَعَهُ مَسْكَةٌ مِنْ عَقْلِ أَنْ الذَّبَّ عَنْ الْحَوَزةِ وَالنِّصَالَ دُونَ حِفْظِ الْبَيْضَةِ مُحْتَوٌّ شَرْعًا، وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ فَوَضَى لَا يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْحَقِّ جَامِعٌ، وَلَا يَزَعُهُمْ وَازِعٌ، وَلَا يَرْدَعُهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ رَادِعٌ، مَعَ تَفْنُنِ الْأَرَاءِ وَتَفَرُّقِ الْأَهْوَاءِ؛ لَأَنْتَشَرَ النِّظَامُ، وَهَلَكَ الْعِظَامُ، وَتَوَثَّبَتِ

⁴⁸³ ن: نفس المصدر (262 / 28)

الطَّعَامُ⁴⁸⁴ والعوام، وتَحَزَّبَتِ الآراءُ المتناقضة، وتَفَرَّقَتِ الإراداتُ المتعارضة، ومَلَكَ الأَرْدَلونَ سِرَّةَ الناسِ، وفُضِّتِ المجامِعُ، واتَّسَعَ الحَرَقُ على الرَاقع، وفَشَّتِ الخصوماتُ، واستحوذ على أهل الدِّينِ ذُوو العَرَاماتِ⁴⁸⁵، وتَبَدَّدَتِ الجماعاتُ، ولا حاجةَ إلى الإطناب بعد حصول البيان، وما يَزْعُ اللهُ بالسلطان أَكْثَرُ ممَّا يَزْعُ بالقرآن⁴⁸⁶؛ لذلك كانت الإمامة موضوعاً لخلافَةِ النُّبُوَّةِ في حِفْظِ الدِّينِ وسياسةِ الدنيا؛ وتلك مكانة عظيمة في قيام عمران الناس و بناء حضارتهم..

ويقول أيضا: " وقال كعب الأُخبار: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان، والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضها إلا ببعض. قال أزدشير لابنه: يا بني إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أَسُّ والملك حارس، ومن لم يكن له أَسُّ فمهدوم، ومن لم يكن له حارس فضائع."⁴⁸⁷

وللإمام الماوردي - رحمه الله - كلاما رائعا في بيان مسؤوليات ومهام الإمام، حيث أوجملها في عشرة كاملة؛ وهاكها بتمامها وكما لها:

"والذي يلزمه - أي الإمام - من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل.

الثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة،

⁴⁸⁴ الطَّعَام: أرادل الناس، [انظر: "القاموس المحيط" للفيروز آبادي (1463)].

⁴⁸⁵ العَرَامَة: الشَّدَّةُ والشراسة والقوَّة والجهل والأذى، [انظر: "لسان العرب" لابن منظور (12/ 395)،

⁴⁸⁶ ن: " غياث الأمم" مصدر سابق (23/1؛ 24)

⁴⁸⁷ نفس المصدر: (61/1).

فلا يتعدى ظالم، ولا يضعف مظلوم.

الثالث: حماية البيضة والذّب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعاش، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

الرابع: إقامة الحدود؛ لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرما، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهدٍ دما.

السادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة؛ ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.

السابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف.

الثامن: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور، وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح، وقد قال الله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾؛ فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذره في الاتباع حتى وصفه بالضلال، وهذا وإن كان مستحقا عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة، فهو من حقوق السياسة لكل مسترع، قال النبي -عليه الصلاة

والسلام: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"⁴⁸⁸

تلك عشرةٌ مهمامٍ للإمام الحاكم تُقام بها كل دعائم العمران وتُصان بها الحقوق وتنجز بها الواجبات؛ وهي مهمام تنوء بحملها الجبال الراسيات، ومن ثمَّ لا بد للقيام بها من مؤهلات وصفات تمكِّنه من القيام بأعباء تلك المهمة، وإليكها:

المسألة الخامسة: المواصفات التي ينبغي توافرها في الإمام

ولأجل تحقيق تلك الغايات والمهام الآنفُ ذكرها، فقد اتفق العلماء على مجموعة من الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها الخليفة ويلخصها الإمام الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" في سبعة شروط:

أحدها: العدالة على شروطها الجامعة⁴⁸⁹

والثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام⁴⁹⁰

والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان؛ ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

⁴⁸⁸ ن: "الأحكام السلطانية" الماوردي، مصدر سابق؛ (40/1 . 41)

⁴⁸⁹ أما العدالة: فالمراد بها أن يكون صاحب استقامة في السيرة، وأن يكون متجنباً للأفعال والأحوال الموجبة للفسق والفجور، فكما لا يكون الظالم والغادر مستحقاً للخلافة، لا يكون المتصف بالتأمر والتحليل كمثل تسليم قطيع من الغنم للذئب وجعله راعياً لها. وأقوى برهان على ذلك قوله تعالى لإبراهيم -عليه السلام- عندما سأله أن يجعل الإمامة في ذريته: (لا ينال عهدي الظالمين) أي: لا يستحقونها ولا يصلون إليها، والقصد الأساسي من تنصيب الخليفة هو دفع الظلم عن الناس لا تسليط الظلم عليهم، فلذا لا يجوز عند علماء الإسلام كافة انتخاب من هو بالظلم والبغي خليفة، كما أن الخليفة الذي ارتكب الظلم والطغيان أثناء خلافته يستحق العزل، بل إنه عند قدماء الشافعية وعلى رأسهم الشافعي نفسه: ينعزل ولو لم تعزله الأمة)، يُنظر: "فقه الخلافة وتطورها"، ص 91.

⁴⁹⁰ . يستلزم أغلبية الفقهاء أن يكون الخليفة على درجة كبيرة من العلم، فلا يكفي أن يكون عالماً، بل يجب أن يبلغ مرتبة الاجتهاد في الأصول والفروع على السواء؛ لكي يكون قادراً على تنفيذ شريعة الإسلام، ودفع الشبهات عن العقائد، وإعطاء فتاوى في المسائل التي تقتضيها، وإصدار الأحكام استناداً إلى النصوص أو إلى الاستنباط؛ لأن الغرض الأساسي للخلافة هو صيانة العقائد وحل المشاكل والفصل في المنازعات. "فقه الخلافة وتطورها"، ص 92.

والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض⁴⁹¹

والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدير المصالح⁴⁹²

والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو⁴⁹³

والسابع: النسب، وهو أن يكون من قریش؛ لورود النص فيه وانعقاد الإجماع⁴⁹⁴ عليه⁴⁹⁵

وختاماً أقول: أنه من خلال هذه الزوايا المتعددة التي طرقت هذا الشرط، وهذه النقاط

وينبغي أن يكون الإمام إلى جانب علمه بأحكام الإسلام مثقفا ثقافة عالية، ملما بأطراف من علوم عصره، ويا حبذا لو كان متخصصا في بعضها، ويكون على علم بتاريخ الدول وأخبارها، وبالقوانين والمعاهدات الدولية، والعلاقات السياسية والتجارية والتاريخية.

⁴⁹¹ . وقد فرق ابن خلدون في مقدمته بين العيوب الجسمية المطلقة التي تمنع الخليفة من أداء وظيفته، كأن يكون أعمى أو أخرس، أو أصم، أو مقطوع اليدين، أو الرجلين، ففي هذه الحالة لا يكون المرشح أهلا للخلافة، أما إن كان أعور أو أصم بإحدى أذنيه، أو مقطوعا إحدى يديه، ففي هذه الحالة يبقى المرشح أهلا للرئاسة

⁴⁹² . وغاية ما ينبغي أن يتوفر في المرشح لمنصب الخليفة أن يكون قادرا على سياسة الأمور سياسة دقيقة ناتجة عن حنكة وتجربة وفهم للواقع، كما يعبر ابن القيم..

⁴⁹³ . ذلك أن الخليفة هو قائد الجيوش الإسلامية، ولا يتسق أن يكون قائد جيوش المسلمين جباناً أو متخاذلاً عن الدفاع عن قضايا الإسلام الكبرى..

⁴⁹⁴ . هذا الشرط لا يوجد إجماع عليه حتى بين أهل السنة بله أن يكون إجماع عليه بين المذاهب الإسلامية كلها ، فقد علق ابن خلدون على هذا الشرط الأخير الذي ذكره العديد من العلماء وبيّن أنه ليس شرطاً ضرورياً لمنصب الخلافة وأنه جاء فقط في ظرف تاريخي ما، كانت فيه قبيلة قریش أشد قبائل العرب وأكثرها حرصاً على الإسلام وتبليغه وصونه، لذا فهذا شرط يسقط بتغير الأحوال؛ وهذا ما ذهب إليه الخوارج وغالبية المعتزلة، حيث يقولون: إن الخلافة ممكنة لأي شخص، ولو لم يمكن قرشياً، وحجتهم في ذلك الحديث النبوي: "اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي" مما يدل -في نظرهم- على أن الإمام يمكن أن يكون غير قرشي.. يُنظر في ذلك: "فقه الخلافة وتطورها: ص 96..

وهذا ما أميل إليه؛ لأن الشروط السابق ذكرها هي التي تُعطي الأحقية والكفاءة لتولي منصب القيادة العامة، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية أن الشرع لا يبيّن أحكامه على النسب وإنما يربط ذلك بالصفات والمؤهلات الذاتية، ولربما كان النسب القرشي في ذلك الوقت ضروريا لما للعصية والقبيلة من دور مهم في تثبيت القيادة كما قرّر ابن خلدون في مقدمته أكثر من مرة، ولما لقریش من نفوذ كبير في ذلك الوقت، وهو ما لم يعد موجودا في وقتنا المعاصر؛ والله تعالى أعلم..

⁴⁹⁵ ن: "الأحكام السلطانية" الماوردي، مصدر سابق (19/1؛ 20)

السريعة التي حاولت قدر المستطاع أن أجلي حقيقته؛ اتّضح لي أنّ الإمام أو الحاكم شرط أساس من شروط العمران إذ لا قيام للأخير إلا به، وهو ما ثبت نصاً وتاريخاً وواقعاً..

تلك إذن شروط ثلاثة للعمران - دين وعدل وسلطان - أساسية لا يقوم إلا بها، وما بقي من الشروط التي ذكرها بعض العلماء كالإمام الماوردي أضرب عنها صفحاً لأنه تبين لي بعد إجمالة النظر فيها أنها منبثقة عن تلك الثلاث المذكورة..

وعليه فبعد ذكر شروط العمران أنتقل إلى تناول شطوره المكوّنة لماهيته؛ وإليها بحول الله في المبحث القادم.

المبحث الثالث: أركان العمران

سبق في حديثي عن مفهوم العمران تناول آية من سورة هود، وهي قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْقَوْمِ اسْعُبُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْصِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ۖ﴾ وقد ألفتها الآية المؤطرة المؤصلة لهذا المفهوم والمحددة له؛ بل والمجلية لأركانه وحقائقه أيضا، إذ تناول هذه الآية وتدقيق النظر فيها واستكناه حقائقها، يُفضي إلى بيان أركان العمران التي لا يقوم إلا بها، وقد وجدتها أركانا أربعة، ثلاثة منها ذكرت تصريحاً؛ أولها وأهمها: المستعمر - أي الذي طُلب منه العمران - أو المعمر، وهو الإنسان المستخلف القائم بفعل العمران.. وهو ما دل عليه كاف الخطاب وميم الجمع في كلمة (استعمركم)، أي أنتم أيها المخاطبون المكلفون بهذه المهمة الثقيلة؛ ثانيها: الاستعمار، وهو فعل العمران المستوحى والمستفاد من فعل الطلب (استعمر)؛ ثالثها: مسرح العمران وفضاؤه وهو الأرض وما يتعلق بها من أكوان، وقد جاء ذكرها واضحا في الآية، أما الركن الرابع: فقد أشارت إليه الآية - كما ذكرت قبل - تلميحاً لا تصريحاً، وهو الوعاء أو الظرف الزماني لفعل وعملية العمران، وقد جاء صريحاً في أكثر من آية، وبذلك كانت أركان العمران التي لا يتحقق ولا يقوم إلا بها أربعة؛ ويمكن أيضا أن نستخلصها من تعريفنا السابق للعمران الذي قلت فيه: "هو مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فرداً وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي". .. فهذا التعريف قد اشتمل على كل أركان العمران، وقد بيّنت ذلك قبل، فلا داعي لإعادته هنا؛ فليُنظر هنالك⁴⁹⁶

وقد ذكر مالك بن نبي - رحمه الله - منها ثلاثة عند حديثه عن شروط النهضة، حيث اعتبر أن عناصر الحضارة التي تتكون منها ثلاثة، وهي: الإنسان والتراب والوقت،

⁴⁹⁶ ن: المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب، ص 87

متسائلا: "إذا كانت الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان والتراب والوقت، فلم لا يوجد هذا الناتج تلقائيا حيثما توفرت - هذه العناصر الثلاثة؟! "⁴⁹⁷؛ مستنتجا في الوقت ذاته أن هذه العناصر الثلاث لا تُنتج حضارة إلا إذا توفّرت على طاقة روحية - سمّتها الفكرة الدينية - يتم بها تفعيل تلك العناصر واستثمارها لتصير مركّبا يخرج من رحمه مسمّى (الحضارة)؛ فقال: "فالحضارة لا تنبعث - كما هو ملاحظ - إلا بالعقيدة الدينية"⁴⁹⁸..

وفي نظري أن الطاقة الروحية أو ما نسميه الجانب الإيماني لا بد منه إن كان يُقصد الحضارة البناءة الصحيحة الإيجابية التي تكون مرادفة لمسمّى "العمران" أو على الأقل جزءا منه، كالحضارة الإسلامية التي أشرقت في بلاد الله إبان العهد النبوي المبارك والعهد الراشدي - إن صح التعبير - وما بعده قبل أن يأفل نجمها وتتناثر كواكبها وتذبل أوراقها - لله الأمر من قبل ومن بعد!! أمّا إن كان يقصد الحضارة بمفهومها العام أو المادي فقط - وهو ما استبعدُهُ، لأن سياق كلامه عن الحضارة لا يدل على ذلك، لدرجة أنه جعل الحضارة الشيوعية منطلقة من الفكرة الدينية أيضا، وهذا في نظري مستبعدٌ جدا لوجود كثير من الحضارات الإلحادية عبر المسار التاريخي⁴⁹⁹ - قلت إن كان يقصد الحضارة المادية فلا يشترط الجانب الديني؛ والحضارة المعاصرة اليوم قد غاب عنها هذا الجانب

⁴⁹⁷ ن: " شروط النهضة" لمالك بن نبي؛ مرجع سابق ص: 45

⁴⁹⁸ المرجع السابق، ص: 50

⁴⁹⁹ وقد جزم مالك بن نبي رحمه الله أنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة البتة، إلا إذا انطلقت من الفكرة الدينية ممثلا لذلك بالحضارتين الإسلامية والمسيحية، معتمداً ذلك القانون على كل الحضارات قائلا في ذلك: "وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي - على الأقل - تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدا عن حقيقته اذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها" (شروط النهضة: 50 - 51)؛ معتبرا أنه لا توجد حضارة تشدّ عن هذه القاعدة، حتى الحضارة الشيوعية..

وصارت مادية صرفة، لا ترقب في الدين إلا ولا ذمة، بل هي تحارب الدين وكل ما له صلة به، وما المنظومة العولمية التي اكتسحت العالم اليوم وأظلت بسراجها المارق، والتهمة بلهيبها الحارق، ورفعت سوط محاربة الإرهاب دون إنذار سابق، إلا شاهدة على هذا كله ومؤكدة له!!
وها هي آثارها المدمرة تكتسح العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه؛ ولست أعني بذلك أن الدين لا تأثير له في الحضارة، كلا كلا!! بل هو صمام أمانها وروح بقائها ورثة تنفسها؛ وبغياب الجانب الديني تعرض الحضارة نفسها إلى الخراب واليباب!!

وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من تلك الحضارات التي لما تنكبت عن صراط الدين كان مآلها إلى الضياع المبين، ولطالما كررنا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁵⁰⁰،

وعلى أية حال فإن الحضارة إذا اعتبرناها مرادفة للعمران أو جزءا لا يتجزأ منه - كما فعل بعض المفكرين، وخاصة بعض مترجمي مقدمة ابن خلدون - وهو ما بينت ضبايته قبل⁵⁰¹ لأن الدراسين لمفهوم الحضارة لم يتفقوا على معنى واحد، بل تعددت تصوراتهم إلى درجة الاضطراب، وفي بعض الأحيان التناقض؛ وعلى كل حال فتكون بهذا الاعتبار الطاقة الروحية شرطا من شروط صحة الحضارة واستمرارها؛ أما بالنسبة للعمران الذي أتحدث عنه هنا فالجانب الروحي والإيماني لا يكون إلا جزءا لا يتجزأ منه كما رأينا من خلال استقراء مفهومه، بل إن الجانب الروحي هو قلب العمران النابض وحياته، فإن غاب أو غطل فماذا بقي من العمران إذن؟!!

وبناء على ذلك فيكون مالك بن نبي - رحمه الله - قد ذكر أركان العمران - أو

⁵⁰⁰ الروم: 9

⁵⁰¹ ن: "المطلب الثالث في المبحث الثالث من الفصل الأول في هذا الباب"

الحضارة عنده - الثلاثة التي ذكرتها آية هود الآنفة الذكر، ولكن غفل - رحمه الله - عن ركن من أركانه المكونة له، بل من أهم أركانه ولذلك جعلته ثانيا بعد الركن الأول، وهو فعل الإنسان المَعْمَر المنوطُ بمسؤولية الاستخلاف، والذي لا بدّ منه لأي عمران أو حضارة، وبدونه لا وجود لهما البتة، ذلك ما أُوْحِتْ به كلمة (استعمركم) أي أن الله تعالى طلب من عباده أن يقوموا بعملية التعمير والعمران، لأن السين والتاء في اللغة للطلب، فيكون هذا الفعل واجبا وحتميا وهو معنى الركنية، إذ الركن ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته، وهو مكوّن للماهية داخل فيها، ومن ثمّ وجدنا القرآن والسنة يقرّران أهمية الفعل والعمل ويحثان عليه، ويعتبرانه أساس التكليف ومناط المسؤولية..

وقد ذكر حسن ملكاوي⁵⁰² أن ابن خلدون تحدث في مقدمته عن أركان ثلاثة للعمران البشري على هذه الأرض وهي: "تقوى الله، وهو حياة القلب بتزكية النفس من الأهواء والشهوات، والركن الثاني هو السعي في الرزق وفيه حياة المجتمع بالتعاون والتكافل والتكامل لأن الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يستجمع متطلبات المعيشة والأمن، أما الركن الثالث فهو العدل في الحكم وهو حياة الدولة بالعصبية واستجماع متطلبات

⁵⁰² من مواليد الأردن عام 1943م. دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشغان الأمريكية. ماجستير في علم النفس التربوي من الجامعة الأردنية. دبلوم عالي في تدريس العلوم من جامعة ردينغ البريطانية. بكالوريوس في الكيمياء والجيولوجيا من جامعة دمشق.

عمل في وزارة التربية والتعليم الأردنية، في التعليم والمناهج وتدريب المعلمين والإشراف التربوي في الفترة 1966-1978م. وعمل في التدريس الجامعي في كلية التربية وكلية الشريعة في جامعة اليرموك في الأردن في الفترة 1984-1996م. ثم تفرغ للعمل في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، للمشاركة في إدارة الأنشطة العلمية حتى الآن.

شارك في تأليف 40 كتابًا في التعليم المدرسي والجامعي في تخصص تدريس العلوم ومناهج البحث العلمي، وقضايا الفكر الإسلامي. نشر العديد من البحوث والدراسات في مجالات علمية محكمة. حرر عشرين مجلدًا من أعمال المؤتمرات العلمية في قضايا التربية والفكر الإسلامي. شارك في أكثر من ستين مؤتمراً بأوراق وبحوث علمية في بلدان عديدة.

يعمل حاليًا مديرًا إقليميًّا في المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وهو رئيس التحرير في مجلة إسلامية المعرفة (فصلية عالمية محكمة). وعضو مجمع اللغة العربية الأردني.. نقلا عن fathihmalkawi@gmail.com

السلطان"⁵⁰³؛ وَمَنْ تَأْمَلْ هذه الأركان الثلاث - التي ذكر ابن خلدون - أَلْفَى الأول والثاني مُنضويًا تحت مسمّى الفعل الذي اعتبرته الركن الثاني من أركان العمران، وذلك أن التقوى فعل وعمل قلبي، والسعي في الرزق فعل أيضًا وعمل جارحي، أما العدل الذي اعتبره ركنًا ثالثًا من أركان العمران فإنه يبدو لي أنه شرط من شروط صحة وكمال العمران وليس ركنًا لأنه خارج ماهية العمران وليس داخلها، والدليل على ذلك أن نقيض العدل وهو الظلم خراب للعمران - كما قرّر ذلك ابن خلدون في مقدّمته⁵⁰⁴ - فيكون العدل حافظًا للعمران ومتّما له، وليس مكوّنًا لحقيقته وماهيته، وذلك هو معنى الشرطية!!

ولبيان أهمية هذه الأركان بالنسبة للعمران ومدى تأثيرها سأجعل كل ركن تحت مطلب خاص به؛ كما يلي:

- المطلب الأول: الإنسان المعمّر
- المطلب الثاني: الاستعمار
- المطلب الثالث: مسرح العمران وفضاؤه
- المطلب الرابع: وقت العمران وزمانه

⁵⁰³ ن: "منظومة القيم العليا" حسن ملكاوي، مرجع سابق؛ ص: 152

⁵⁰⁴ ن: "المقدمة" ص: 299

المطلب الأول: الإنسان المعمّر

هذا هو أول ركن من أركان العمران الذي نتحدّث عنه، إذ يعتبر الإنسان المعمّر والمسؤول عن العمران مُدُن أن جعله خالقُه خليفة في أرضه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁵⁰⁵؛ فلا تعمير ولا عمران بغير إنسان، فهو المحور الأساس وقطب الرّحى في عملية العمران، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية فعمارة الأرض وعمرائها يتأثر سلبا وإيجابا بنوعية هذا الإنسان وما يعتقده من أفكار وتصورات وتصديقات، وما يتميز به من مبادئ وأخلاق، وهو ما قرّره القرآن الكريم في مواطن كثيرة عبر سرده لمجموعة من القصص القرآني الذي تناول عمران بعض الأقوام واجتماعهم. ولا يفوتني هنا أن أذكر كلاما للدكتور فريد الأنصاري - رحمه الله - جاء فيه: " وكما يكون فكر الإنسان وتصوره للحياة؛ تكون عمارته المادية؛ فالمادة في هذا تبع للفكر؛ (..) فالإنسان هو أهم عناصر العمران، وأول مرتكزاته. فهو الذي يعطي للبناء معناه العمراني، وقصده الكامن فيه هو الذي يجعله مسجدا أو خمارة!! قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ - اَمْسَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾⁵⁰⁶ ؛ الإنسان إذن هو أساس العمران، ولذلك كان محل خطاب الرحمن بالقرآن⁵⁰⁷

⁵⁰⁵ البقرة: 30

⁵⁰⁶ التوبة: 18

⁵⁰⁷ ن: " الفطرية" لفريد الأنصاري؛ منشورات رسالة القرآن، بدون طبعة؛ ص: 209

ومن جميل القدر أن هذا الفقرة قرأتها بعد كتابة هذا المطلب بأشهر، فوجدته كلاما يعضد ما قرّرت؛ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

إن الله عز وجل قد جعل الإنسان محور هذا الكون وخلاصته في خلقه وتسويته، فالكون كله مجموع فيه، وقد نقل الراغب الأصفهاني كلاماً عن الحكماء في هذا المعنى، أسوقه لأهميته⁵⁰⁸؛ يقول - رحمه الله -: "وقالت الحكماء: قد ركب الله الإنسان تركيباً محسوساً معقولاً، على هيئة العالم وأوجده شبه كل ما هو موجود في العالم حتى قيل: الإنسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير؛ وذلك ليدل به على معرفة العالم؛ فيتوصل بهما إلى معرفة صانعها، فغاية معرفة الإنسان لبارئه تعالى أن يعرف العالم؛ فيعلم أنه مُوجَدٌ، وأن له مُوجِداً ليس مثله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"⁵⁰⁹؛ كل ذلك لحصه قول القائل بقوله:

وترجم أنك جرّم صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة حين قرّن بين آيات الآفاق وآيات النفس البشرية في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾⁵¹⁰، وهنا لا يفوتني أن أذكر بكلام في هذا المعنى يكتب بماء العيون لفيلسوف الأناضول العلامة سعيد النورسي، يقول فيه: "كما أن الإنسان عالم صغير، كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسته، فالنماذج المصغرة في الإنسان لا بد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة"⁵¹¹؛ ويزيد الأمر وضوحاً فيقول: "إن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه، وكونه حيواناً من الحيوانات؛ ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولاً لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويجوز أفكاراً غير محصورة، ويتضمن قوى غير

⁵⁰⁸ أضفت هذا الكلام لنفاسته ولتقوية ما ذكرته في هذا الموضوع بعد ما وجدته، وذلك بعد مدة من إتمام هذا البحث

⁵⁰⁹ ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" مصدر سابق، ص: 73؛

⁵¹⁰ فصلت: 53

⁵¹¹ ن: "اللمعات" سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، إستانبول،

1993م ص: 127

محدودة..⁵¹².

يُفهم من كلام النورسي أن الإنسان مُنَحَّ طاقات جبارةً أهله لأنه يكون مكلفاً بعملية العمران؛ ومن ثمَّ كان الإنسان أهم عنصر مكوِّن للحضارة المنشودة والعمران المقصود!!

ولتأصيل الكلام عن هذا الركن الأول، كان لابد من البدء ببيان مفهومه، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فمن هو هذا الإنسان المعمّر ياترى؟!

المسألة الأولى: تعريف الإنسان

○ في اللغة:

يرجع أصل استعمال مادة "أنس" في اللغة إلى معنى الظهور، والاقتراب، والألفة، وعدم التوحش، والراجع أن عنه تفرعت سائر المعاني لهذه المادة اللغوية، وذلك ما ذهب إليه أغلب المعاجم؛ قال ابن فارس: "الهمزة والنون والسين: أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس خلاف الجن؛ وسموا بذلك لظهورهم. يقال: آنست الشيء: إذا رأيته، قال الله تعالى: (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا)، ويقال: آنست الشيء: إذا سمعته، وهذا مستعار من الأول. قال الحارث:

آنست نبأً وأفزعها القُدَّ صُ عَصراً وقد دنا الإمساء

والأنس: أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه⁵¹³ إلا أن مصطلح "الإنسان" قد اختلف في أصله: أهو من الأنس أم من النسيان؟ وأما لفظ "الإنس" فالأكثر على أنه من "الأنس" بمعنى ضد التوحش. وعليه حمل كثير من اللغويين معنى "الإنسان" أيضاً، إلا أن آخرين أرجعه إلى "نسي" لا "أنس"؛ قال الراغب الأصفهاني: "الإنس خلاف

⁵¹² ن: "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، بديع الزمان النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى،

دار سوزلر للنشر إستانبول، 1994م؛ ص: 149

⁵¹³ "مقاييس اللغة"، مصدر سابق؛ مادة: "أ ن س".

الجن، والإنس خلاف النفور، والإنسي منسوب إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسُهُ، ولكل ما يُؤنَسُ به (...) والإنسان: قيل سمي بذلك لأنه خُلِقَ خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض..⁵¹⁴ وبناء على ذلك كان الإنسان في حاجة إلى من يؤنسه فلا يستطيع أن يعيش إلا داخل مجتمع تربطه به صلات وعلاقات ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، ومن ثمَّ كان في حاجة إلى عمران يعيش في ظلاله؛ وقيل سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه، وقيل: هو إفعِلَانٌ، وأصله إنسيانٌ سمي بذلك لأنه عُهِد إليه فنسي.

فأما هذا المعنى الأخير فقد قال صاحب اللسان: "روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: إنما سمي الإنسان إنساناً؛ لأنه عُهِد إليه فنسي (...) وقيل للإنس إنسٌ؛ لأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما قيل للجن جنٌ؛ لأنهم لا يؤنسون، أي لا يبصرون"⁵¹⁵

○ في الاصطلاح:

وأيا كان الأصل في المفهوم اللغوي "للإنسان"، فإنه يجمع تلك المعاني كلها، من حيث هو مخلوق اجتماعي، يعيش في مجتمع من جنسه، ويقوم بعضه ببعض، ويألف ويؤلف، ينسى ويتذكر، ومن ثمَّ جاءت الرسل عليهم صلوات الله وأزكى سلامه تترى قصد تذكيره دائماً بحقيقته الوجودية، ووظيفته الكونية العمرانية التعبدية المستوعبة لكل حركاته الاستخلافية بما بيّنت من قبل!

ومن ثمَّ يمكن أن نخلص إلى دلالة الإنسان المصطلحية في موضوعنا فنقول: "هو حيوان اجتماعي مكلف باستخلافه في الأرض لعمارها وعمراها عبودية لله الواحد القهار"

⁵¹⁴ "مفردات القرآن" مصدر سابق؛ مادة: "أ ن س".

⁵¹⁵ "لسان العرب"، مرجع سابق مادة: "أ ن س".

فقولنا: "حيوان" هذا جنس يدخل فيه جميع أنواع الحيوان من الإنسان وغيره.

وقولنا: "اجتماعي" هذا قيد أول وهو مأخوذ من المعنى اللغوي "الأنس" بمعنى ضد التوحش، وهو كما قال الأصفهاني: والإنسان قيل سمي بذلك لأنه خُلِقَ خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع..

أما قولنا: "مكلف باستخلافه في الأرض لعمارته وعمرانها" فهذا قيد ثانٍ منع من دخول غيره فيه، فكان بذلك تعريفا جامعاً مانعاً، فهو مكلف بمهمة الخلافة التي كان وجوده منوط بها لتحقيق عمران الأرض مادياً وروحياً..

وأما قولنا: "عبودية لله الواحد القهار"، هذا ليس قيداً وإنما هو بيان لطبيعة العمران ووظيفته التي من أجلها خلق هذا الإنسان..

المسألة الثانية: قيادة الإنسان العمرانية للكون

وهو - أي الإنسان - كما قال النورسي - رحمه الله تعالى - في شعاعاته، في سياق حديثه عن الإنسان؛ شارحاً لهذا المعنى: "وهو أكرم ضيف في قصر الكون، وهو أنشط موظف مأذون له بالتصرف في سَكَنَةِ ذلك القصر" ⁵¹⁶

إن معنى ذلك أن الإنسان مكلف من لدن خالقه سبحانه بقيادة هذا الكون قيادة تعميرية استخلافية فيكون بذلك سيداً للكائنات قائماً على شؤونها بما أوتي من وسائل وآليات التسيير والتعمير، وهو ما دل عليه القرآن بمنطوقه ومفهومه من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَبُصِّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ⁵¹⁷ ..

وللنورسي رحمه الله تعالى كلمة مضيئة حول هذا المعنى يقول فيها: "هذا الإنسان، هو

⁵¹⁶ ن: "الشعاعات" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر،

إستانبول، 1993م، ص 272

⁵¹⁷ الإسراء: 71

سيد الموجودات، رغم أنه صغير جدا، لما يملك من فطرة جامعة شاملة، فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة، ومظهرها، لذا فإن له أهمية عظمى⁵¹⁸؛ فهو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يطور ذاته ولذلك تولّى مسؤولية عمران هذا الكون، يقول الفيلسوف البريطاني جون لويس: "الإنسان هو الوحيد بين كل الكائنات الحية الذي يُعرف بأنه يرتقي، وهو الوحيد القادر على توجيه تطور ذاته..".؛ وذلك بما أوتي من وسائل الإدراك على رأسها العقل الذي اعتبره الإمام الماوردي - رحمه الله تعالى - أَسًا للفضائل وينبوعا للآداب فقال: "وَأُسُّ الْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ الْآدَابِ هُوَ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْلًا لِلدِّينِ، وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا، فَأَوْجِبَ التَّكْلِيفَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ الدُّنْيَا مَدَبَّةً بِأَحْكَامِهِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ، مَعَ اخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَغْرَاضِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ.."⁵¹⁹؛ نعم بهذه الخصيصة وغيرها كان الإنسان مؤهلا للقيام بمسؤولية العمران - عبودية لله تعالى - ولذلك خُلق، وهو منطوق قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁵²⁰، وهو ما تأكد عند ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية، فقال: "فالمعنى أنه المستغني غنى مطلقا فلا يحتاج إلى شيء فلا يكون خَلْقُهُ الخَلْقَ لتحصيل نفع له، ولكن لعمران الكون وإجراء نظام العمران باتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة"⁵²¹؛ ويشير الأستاذ النورسي في موضع آخر مبينا مؤهلات هذا الإنسان المعمر فيقول: "فإن الله وهب لهذا الإنسان استعدادا فطريا ساميا، ما يمكنه من حمل الأمانة الكبرى، التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، (...)، والذي بَرَأَهُ بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها، فسخر له جميعها من نبات وحيوان، حتى نصبه مشرفا ومنظما ومتدخلا في أنماط تسييحاتها وعباداتها، والذي جعله نموذجا -

⁵¹⁸ ن: "الكلمات"، بتصرف، مرجع سابق، ص 63-64

⁵¹⁹ ن: "أدب الدنيا والدين" مصدر سابق، ص: 17

⁵²⁰ الذاريات 56

⁵²¹ ن: "التحرير والتنوير" مرجع سابق، (29 / 27)

بمقاييس مصغرة - للإجراءات الإلهية في الكون، ودلالا لإعلان الربوبية المنزهة - فعلا وقولا - على الكائنات، حتى منحه منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة⁵²²

إن الإنسان بتلك المكانة الرفيعة وما تحمّله من مسؤولية عظيمة لِيُمَثِّلَ العنصرَ الأساس من عناصر العمران بمفهومه الذي أشرت إليه من قبل؛ بل هو المكلف بعملية العمران من لدن خالق الأكوان، سبحانه وتعالى، وليقوم الإنسان بتلك العملية كان لا بد له من مواصفات تؤهّله لتحقيق عمران متكامل يجمع بين متطلبات الروح والجسد وبين حاجات الدنيا والاخرة، وبالتالي يجسّد مقصد الخالق من الخلق والوجود!

المسألة الثالثة: صفات الإنسان المعمّر

ويمكن إجمال تلك المواصفات فيما يلي:

● صفة الإيمان والربانية:

وهي أول صفة يجب أن يصطبغ بها الإنسان المعمّر ليكون عمرانه كاملا وتاما، إذ أن العبد الرباني المؤمن يعرف ما له وما عليه، ويقوم بواجبه على أتم ما يكون مستحضرا رقابة الله سبحانه عليه، مردّدا قول القائل:

إذا خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

إن الإيمان - كما يقول الدكتور فاروق حمادة -: "يصوغ العلاقات المتشابهة بين الإنسان وبني جنسه والكون من حوله صياغة متناسقة تحقق التوازن في هذا الكون"⁵²³، وبالتالي يكون ما يُنشئه الإنسان من عمران ناجحا وشاملا لكل مناحي الحياة؛ فإذا غاب الإيمان بالله أو ضعف تدحرج الإنسان بين خطري الطغيان والهوان، فساد الظلم

⁵²² ن: "الكلمات" مرجع سابق، ص 94..

⁵²³ ن: "بناء الإنسان والمجتمع" للدكتور فاروق حمادة، نشر دار القلم، دمشق، ط: 1، 1433هـ/2012م؛ ص: 27.

وخرَّب العمران!!

إن الإيمان روح العمران وحياته التي تسري في كيانه، فإذا انطفأت هذه الروح انهدم العمران وخربت الحضارة؛ وذلك أن المؤمن موقن أن عمران الأرض بالعمل الصالح واجب ديني يأثم بتركه أو الإخلال به.

إن أول عملية قام بها رسول الله ﷺ لبناء دولة الإسلام وعمرانها هي ربط الإنسان بربه وخالقه، وتحديد علاقته بالكون من حوله حتى تتضح له معالم طريق سيره وعيشه في حياته، فاستطاع بذلك أن يؤلف بين القلوب بعد أن تمزق نسيجهم الاجتماعي وتفرقوا إلى قبائل متناحرة لكل قبيلة معبودها الخاص بها، فجاء محمد ﷺ فجمع شملهم وورص بنيانهم بقوله: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)⁵²⁴؛ فكانت هذه الكلمة بمثابة حياة جديدة عمّرت قلوباً وأفئدة بأنوار الله، حتى غدت مفعمة بمحبة خالقها وبارئها، فأيقظت همّة أصحابها وفجّرت طاقاتهم، حتى سمو إلى قمم البذل والعطاء والتضحية والفداء، فتمكّنوا من بناء حضارتهم وإتمام عمرانهم!!

إن كل إنسان يعيش على هذه الأرض يسير نحو وجهة معيّنة، فيكون فكره ووجدانه وتطلّعاته وبالتالي حركاته وأفعاله وفقاً لها، فالمؤمن تكون وجهته ربانية، حياته موجهة بمنهج الله، وأفكاره تصدر طبقاً لوحي الله، وتتحرك مشاعره وأحاسيسه من أجل الله وفي سبيله، ويصبح رضى الله تعالى مَرَكز ومحور نشاطاته، وبالتالي ينعكس ذلك كلّهُ على عمرانه وحضارته، لأن بناء الإنسان بناء صحيحاً هو أصل العمران وأساس الحضارة!! وفي هذا يقول بكار: "ومن هنا فإننا نعتقد أن تحضير الإنسان شرط أساسي، وسابق على العمران - يقصد بالعمران جانبه المادي فقط - وما لم ننجح في ذلك فإن جهودنا في إعمار الأرض ستكون ضعيفة الثمار، محدودة النجاح، بل إن كل إنجازات الإنسان على الصعد المادية والعمرانية على مدار التاريخ كان يتم تدميرها بسبب حماقات الإنسان

⁵²⁴ الإمام أبو بكر بن خزيمة في صحيحه (ج1 ص82)؛ "سيرة ابن إسحاق" تحقيق: سهيل زكار؛ دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى 1398هـ/1978م؛ (215/4)

ورعونته وانحرافه عن الصراط المستقيم..⁵²⁵؛ يقول أنور الجندى: "إن الإسلام يقرر وضعاً للإنسان يختلف عن مفهوم الغرب أو المذاهب الأخرى، فهو يكرم الإنسان ويجعله مستخلفاً على العمران في ضوء الإيمان بالله تبارك وتعالى والتحرك في دائرة الاستخلاف ليكون عطاء الدنيا عاماً للبشرية كلها، وليس قاصراً على جانب منها، وهو في هذا المجال يقيم حياته على مفهوم المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي"⁵²⁶..

● صفة الخضوع والإذعان لأمر الله وشرعه:

وهذه صفة أساس في تقويم الإنسان وتوجيه عمرانه وبناء حضارته، وذلك أن هذا الوجود كله من خلق الله.. أودعه سبحانه قوانينه التي يتحرك بها، وأخضعه لنواميسه الإلهية المنظمة لحركاته، فلا شيء من هذا الوجود يخرج عن طوعه وإرادته، أو ينفلت عن حكمه وإدارته، يقول عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾⁵²⁷

والإنسان من هذا الوجود الكوني، والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله، فهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس العام الذي سنّه الله له، فهو يتنفس ويتحرك، ويحس فيتألم، ويفرح، ويجوع ويعطش ويأكل ويشرب، فهو يعيش وفق ناموس الله عن غير إرادة منه ولا اختيار في خضوع مطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه؛ هذا من جهة جانبه اللا إرادي..

أما من جهة جانبه الإرادي فقد اختار الله عز وجل لهذا الإنسان "دين الإسلام".. لتنظيم حياته الإرادية تنظيمًا متناسقًا مع حياته الطبيعية، فيكون دين الله - على هذا

⁵²⁵ ن: "سلسلة المسلمون بين التحدي والمواجهة؛ من أجل انطلاقة حضارية شاملة" بقلم أ.د. عبد الكريم بكار، الناشر/دار القلم - دمشق، الطبعة الرابعة 1432هـ / 2011م؛ ص: 85

⁵²⁶ ن: "سلسلة دراسات إسلامية معاصرة" العلم في الغرب" لأنور الجندى، منشورات المكتبة العصرية؛ صيدا / بيروت؛ بدون طبعة؛ ص: 65

⁵²⁷ فصلت: 10

الأساس - نوع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام، وينسقها كلها جملةً واحدة.

إن دين الله الذي حكم به الإنسان ورضيه له، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁵²⁸؛ يحقق التناسق بين القوانين التي تحكم الإنسان والقوانين التي تنظم حركة الكون الذي يعيش فيه، ومن أجل ذلك يصبح الالتزام بهذا الدين الرباني واجباً لتحقيق ذلك التناسق وصيانة العمران من كل أنواع الفساد وأسباب الخراب، وذلك لأن الإنسان المعمر في رحاب دين الله يعيش في سلام مع نفسه، وسلام مع هذا الكون فينشأ العمران المنشود ، وتقوم الحضارة المأمولة، ويحصل التمكين الموعود من لدن الرحيم الودود! الذي: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾⁵²⁹

● صفة الوسطية والاعتدال:

والإسلام هو الدين الذي يدعو إلى الكمال الإنساني، فبمقدار ما يكون الإنسان قريباً من حقيقة الإسلام قولاً وعملاً يكون قريباً من حقيقة الكمال الإنساني التي ينشدها العقلاء ويطمح إليها الصالحون..

ذلك أن الإسلام ليس دينَ عبادة وروحانية فقط، وإنما هو دينُ حياة وقيادة للمجتمع البشري وللإنسانية كلّها ما دام هناك زمانٌ ومكان، ليصل بها إلى الهدف المنشود، وهو بناء العمرانين الروحيِّ والماديِّ، وبالتالي تحقيق سعادة الدارين، الدنيا

⁵²⁸ . المائدة: 3

⁵²⁹ . النور: 55

والآخرة!!

فالإسلام عقيدة ومنهج؛ ولكنه أعظم العقائد وأفضل المناهج؛ ولذلك رضى الله عز وجل لنا فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁵³⁰، ذلك أن الإسلام هو عمران - بالمعنى الذي بينت في غير ما مناسبة - في حقيقة الأمر، يبدأ من الإنسان الفرد أولاً، فيبنيه روحاً وجسماً، عقيدة وعبادة وتربيةً، وسلوكاً وعملاً ووعياً.. ثم بعدها ينتقل إلى بناء الأسرة ثم المجتمع، إلى أن ينتهي ببناء العالم كله ضمن قوانين شرع الله الحنيف..

إن وسطية الإسلام تقتضي وحدة متكاملة فيها أعمال الدنيا والآخرة؛ فهو عمل في الفكر والعقل، وعمل في القلب والنفس، وعمل في الجسم والجوارح..

وهكذا يتبين لنا أن الإسلام دين وسطية وتوازن، يصلح منهجاً للعمران الذي نشده وللحضارة التي نتغيها!

ومن الأمثلة التي تؤكد لنا وسطية هذا الإسلام: نظرت المتوازنة إلى الدنيا والآخرة، بين من اعتبر الحياة الدنيا غايته حتى طغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي أن يحسب للآخرة حساباً، كما في قصة فرعون حين قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَلْفُومَ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰؤُلَاءِ إِلَّا نَهْرٌ تَجْرِي مِ مِّنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁵³¹ وبين من أقبل إلى الآخرة رافضاً التعامل مع الدنيا نهائياً بل اعتبرها شراً يجب الفرار منه.. والإنسان بطبيعته التي خلقه الله عليها يميل إلى التمتع والعمل بما حوله مما خلقه الله عز وجل من متاع الأرض كما يميل إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى وعبادته..

والإسلام لم يحرم هذا الإنسان من الاستمتاع بما خلق الله تعالى من الطيبات والرزق،

⁵³⁰ الروم: 30

⁵³¹ الزخرف: 51

بل على العكس أباح له ذلك بشرط الاعتدال، ودعاه إلى العمل في الدنيا على أن تكون وجهته في هذا السعي والاستمتاع هي الآخرة؛ والمسلم الحق يطبق ما جاء به الإسلام باعتدال واتزان، فلا يوغل في جانب ويهمل آخر، فلا يلزم المسجد تاركاً جانب العمل للحياة لكسب الرزق، إذ أن المسلم متعب بالليل فارس بالنهار، زاهد في الدنيا بقلبه عامل لها بقلبه، ولا أدلّ على ذلك من منهج النبي عليه الصلاة والسلام ومسلكه التربوي، فقد رُوي أنه ﷺ دخل السوق مرة، والناس مكتنفون به يميناً وشمالاً، فمرَّ بجدي ميت، فتناول بأذنه ثم قال: (أُيِّكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ فقال: (والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) ⁵³²

وكذلك لما رأى عليه الصلّاة والسلام من بعض الصحابة إفراطاً في التعبد والقيام والصيام على حساب الجسم والأهل والمجتمع، قال ﷺ: (إن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه) ⁵³³؛ وقد سبقت الإشارة إلى بعض هذه المعاني بشيء من التفصيل عند الحديث عن أنواع العمران، فيرجع إليه هنالك! ⁵³⁴

ولقد فعلت هذه التربية فعلها الكبير في نفوس الصحابة والرعيل الأول من المسلمين فظهرت أفئدتهم من التعلق بما سوى الله عز وجل، ولما أقبلت عليهم الدنيا بزهرتها ونعيمها بعد ذلك من شتى الجهات وعلى أعقاب الفتوحات، سخروها لإقامة المجتمع الإسلامي وبنیان عمرانه!!

تلك بعض صفات الإنسان المعمّر - نكتفي بها خشية الإطالة - التي بها يكون عمرانه على أتمّ ما يكون؛ وهو ما يدفعنا إلى الحديث عن عملية العمران باعتباره فعلاً وسلوكاً للإنسان المعمّر هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية باعتباره ركناً من أركان العمران، ومن ثمّ

⁵³² . صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، رقم: 2957.

⁵³³ . صحيح البخاري ، باب حق الضيف ، رقم 6134.

⁵³⁴ . ورد ذلك في مطالب المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا الباب من الأطروحة .

نُفرد له مطلباً خاصاً به بدءاً من الصفحة الموالية:

المطلب الثاني: الاستعمار

أعود مرة أخرى - والعود أحمد - إلى الآية المؤطرة لموضوع بحثنا، وهي قوله تعالى: ﴿وَالِلّٰى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَوْمِ لِغَيْبِهِمْ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾⁵³⁵، وقد استنبطنا منها أركان العمران كلها المكونة له، تحدثنا عن الركن الأول، المعمّر - وهو الإنسان - في المطلب الأول، ونخصص هذا المطلب للركن الثاني وهو فعل العمران الذي سميناه الاستعمار، ولسنا نعني به مفهومه العلماني الليبرالي الذي ابتليت به الأمة ردحاً من الزمن؛ وإنما نعني به مفهومه الشرعي الاستخلافي، أي عملية إعمار الأرض وعمرانها بما أصلناه قبل⁵³⁶؛ ولو رجعنا مرة أخرى إلى تعريفنا السابق للعمران الذي قلت فيه: "هو مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فرداً وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي" لألقينا هذا الركن - أي الاستعمار - حاضراً فيه بقوة، فقولنا: "مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية والمادية.." يعني كل حركة إنسانية، روحية كانت أو مادية، قولية أو فعلية.. وذاك هو فعل الإنسان المستعمر الذي يُنتج العمران المنشود، وبذلك كان ركننا أساساً من أركان العمران. أما قولنا: "لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي" فهو شرط أساس وجوهري في العمل، إذ المقصود من العمل هو إصلاح الحياة الإنسانية بما يتوافق مع وظيفة الاستخلاف التي كلف بها الإنسان من لدن خالقه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁵³⁷

⁵³⁵ .هود: 61

⁵³⁶ ن: المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب

⁵³⁷ البقرة: 30

ومن ثمَّ كان العمل لا بد أن يتوفر على عنصر الصلاح، فهو قيد لا بد منه فليس كل عمل أو حركة تصدر من الإنسان تعتبر عمراناً أو تعميراً للأرض، بل قد يكون العمل مفسداً ومقوّضاً للعمران، وبالتالي يؤول هذا الأخير خراباً ويباباً؛ نسأل الله العافية!! وسأخصص قاعدة عمرانية لهذا المعنى، تكون ديباجتها: (صلاح العمران بصلاح الإنسان)⁵³⁸

المسألة الأولى: الإنسان ذو طبيعة عمرانية:

ولقد خلق الله الإنسان على طبيعة مزدوجة، ففيه العنصر الطيني الذي يجعله أهلاً لعمارة الأرض، وفيه العنصر الروحي الذي جعله يستحق التكريم والخلافة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَبَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾⁵³⁹، كل ذلك من أجل أن يعمر الأرض ويستخرج ما فيها بجهده وعمله، لتنعم بخيراتها الأجيال اللاحقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو ما أوضحتها الآية العمدية في هذا البحث: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾⁵⁴⁰، مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾⁵⁴¹؛ وهنا أذكر كلمة مركزية في هذا الصدد لرائد العمران، العلامة ابن خلدون - رحمه الله - يقول فيها: "أعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويؤمّنه في حالاته وأطواره، من لدن نشوئه إلى أشدّه إلى كبره: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾"⁵⁴²؛ والله سبحانه خلق جميع ما في العالم

⁵³⁸ . سترد هذه القاعدة في المبحث الأول من الفصل الثالث في الباب الثاني من هذه الأطروحة.

⁵³⁹ . ص: 70 و 71

⁵⁴⁰ - هود: 61

⁵⁴¹ . يونس: 14.

⁵⁴² . محمد: 38

للإنسان، وامتن به عليه في غير ما آية من كتاب الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾⁵⁴³، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآيِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾⁵⁴⁴، (..) وكثير من شواهد؛ ويد الإنسان مبسوطاً على العالم وما فيه، بما جعل الله له من الاستخلاف، وأيدي البشر منتشرة، فهي مشتركة في ذلك، وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض.⁵⁴⁵

وهكذا يتضح من ثنايا كلام ابن خلدون - وهو الخبير بهذا المجال - أن الإنسان ذو صبغة اجتماعية يتكامل بها عمرانه، وأن هذا الأخير - أي العمران - منوط بالتفاعل الإيجابي والتكاملي بين أفراد المجتمع المتمثل في قيام كل فرد بواجبه العملي؛ وأشار هنا إلى كلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يؤكّد فيها هذا المعنى، فيقول: " وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم؛ ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة"⁵⁴⁶.

إذن كان لابد من العمل في إطار جماعي يحقق عمران الناس ويُقيم حضارتهم!

المسألة الثانية: مركزية العمل وأهميته العمرانية:

ثم إن مما يؤكّد ركنية وأهمية العمل في العمران هو كون هذا الأخير كُلفَ به الإنسان - ولا تكليف إلا بعمل - كما بيّنا قبل في حديثنا عن مفهوم العمران من هذا البحث⁵⁴⁷

⁵⁴³ . الجائية: 13

⁵⁴⁴ . إبراهيم: 35

⁵⁴⁵ . ن: الباب الخامس من المقدمة، ص: 398

⁵⁴⁶ . ن: "مجموع الفتاوى" مرجع سابق؛ (62 / 28) ،

⁵⁴⁷ . ن: المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب.

من خلال تفسير الإمام القرطبي حيث قال في بيانه لمعنى (استعمركم فيها) أي " خلقكم لعمارتهما "⁵⁴⁸؛ وكذا من كلام الراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة، حيث قال: " الفعل المختص بالإنسان ثلاثة: عمارة الأرض، (...) (عبادته (..))، وخلافته "⁵⁴⁹؛ فعبّر هنا الإمام بالفعل الذي يتحقق به كل من العبادة والعمارة والخلافة، كل ذلك يدل على أنه لا عمران بغير عمل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الله تعالى أوضح في كتابه الكريم أنه من يعمل سوءاً يجز به، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾⁵⁵⁰، وأن إنجاز أيّ شهود حضاري له شروطه ومقدماته وأسبابه، وهو ليس عبارة عن أمني يتمناها المرء ثم إذا بالسماء تمطر عليه ذهباً وفضة، كلا كلا!! وإنما النتائج بالمقدمات، والمسببات بالأسباب، والمعلولات بالعلل، والجزاء بالعمل. هذا ما نبّه إليه القرآن الكريم وأقرّ أنه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^{٥٥١} وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا⁵⁵¹ .. فهذا قانون الله، وتلك سنته التي لا تبدل ولا تتغير!!

المسألة الثالثة: الإسلام يدعو إلى العمل ويحث عليه:

من أجل ذلك الذي ذكرنا وغيره نجد الإسلام بنصوصه وأحكامه يدعو ويحث على العمل النافع؛ وهنا أذكر كلاماً للدكتور القرضاوي في غاية الروعة، يقول - حفظه

548. ن: "الجامع لأحكام القرآن" مصدر سابق، (56/9)

549. ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" مصدر سابق، ص: 82

⁵⁵⁰ طه: 109

⁵⁵¹ النساء: 123/ 124

الله:- "الإسلام حريص على أن يدفع المسلمين ليعملوا ويكدحوا في إطار السنن الكونية، للإنتاج والكسب والتنمية، ولا يتوانوا عن ذلك، ويدعّوهم غيرهم من الأمم يأخذون زمام المبادرة منهم، بل عليهم أن يتقربوا إلى الله بالعمل في عمارة أرضه، ويعُدّوا ذلك من العبادة التي خلقهم الله لها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁵⁵²؛ وهو أيضا جزء من مهمّة الخلافة التي اختارهم الله للقيام بها، حين قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁵⁵³؛ وكانت عمارة الأرض ضمن هذه الخلافة⁵⁵⁴، ولذا كان رسل الله يذكّرون بها أقوامهم⁵⁵⁵

ثم إن المتأمل لأحكام الإسلام ونصوصه ليدرك - كما ذكرت آنفا - أن هذا الدين الحنيف يطالب معتنقيه بالعمل والمشى في مناكب الأرض، ليأكلوا من رزق الله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا

⁵⁵² الذاريات: الآية 56.

⁵⁵³ البقرة: 30

⁵⁵⁴ وهو ما أكّدته من قبل في المبحث الثالث من الفصل الأول حين قلت: "ومن تأمل هذه المفاهيم الثلاث - الخلافة والعبادة والعمران أقصد - يصعب ولن أبعد الشقّة إن قلت يستحيل الفصل بينها من حيث مجالاتها ومتعلقاتها - لا من حيث مفاهيمها ودلالاتها الظاهرة فهي مختلفة طبعا - - إذ هي مترابطة فيما بينها ومتداخلة، وذلك أن الخالق جل جلاله جعل الإنسان خليفة في الأرض فكلفه بعمارته - ماديا ومعنويا - وتلك هي العبادة بمفهومها الشامل الكامل"؛ ثم قلت بعد ذلك: "إذن من خلال ما سبق يمكن أن أقول: أن العمران لا يمكن فهمه إلا من خلال ربطه بمفهوم الاستخلاف، وهكذا يبدو أن العمران والعبادة وجهان لعملة واحدة وهي تحقيق وظيفة الاستخلاف.. هذا ما انبلج لي بعد استقراي لسياقات هذه المفاهيم الثلاثة.."

⁵⁵⁵ ن: "مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال" د يوسف القرضاوي، دار الشروق ط: 1، سنة: 2010م؛ ص: 24

مِنْ رَزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ⁵⁵⁶، ولا يقبل منهم أن يتقاعسوا عن ذلك بدعوى الزهد في الدنيا، فالمسلمون الذين يمارسون إعمار الأرض استجابة لأمر الله تعالى، ويساهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، أبعد ما يكونون عن الزهد السليبي الذي يقعد بالإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى الزهد الإيجابي الذي يجعلهم سادة للدنيا لا عبيداً لها، فليس في الإسلام دعوة إلى الرهينة أو نكران للمتعة الحلال المباحة، وإنما هو دعوة صريحة للعمل الذي يتحقق به العمران وتقوم به الحضارة التي تعود بالخير على العالمين؛ فقد كان النبي يستعيز بالله من العجز والكسل، وكان شعاره ﷺ - بأبي وأمي وروحي - هو: (المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف في كل خير)، و (استعن بالله ولا تعجز)⁵⁵⁷..

ومما يؤكد هذا أن الفقهاء جعلوا تعلم أصول الحراثة والزراعة والصناعة ونحوها مما تتم به المعاش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية التي إن لم تحقق للأمة كفايتها منها كانت آثمة لتقصيرها في تنفيذ مراد الله؛ وقد قرّر المحققون من علماء الأمة: كالغزالي والقرافي والشاطبي والنووي والعز بن عبد السلام، وابن تيمية وغيرهم⁵⁵⁸: أن كل صناعة يحتاج إليها المسلمون، فإن تعلّمها وإتقانها وتوافرها: فرض كفاية على الأمة، تأثم الأمة كلها بعدم تحصيلها تحصيلاً كافياً..

⁵⁵⁶ الملك: الآية 15.

⁵⁵⁷ جزء من حديث أبي هريرة رواه مسلم رقم: 2664، ونصه: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ..)

⁵⁵⁸ ن: مثلاً "إحياء علوم الدين" أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت؛ بدون طبعة (1/ 16) و"روضة الطالبين" (10/ 223)، و"قواعد الأحكام في مصالح الأنام" العز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، 1414 هـ / 1991 م؛ (1/ 4)، و"مجموع الفتاوى" لابن تيمية، مصدر سابق، (28 / 79)، (29 / 194).

وكذلك العلوم بكل أصنافها وأنواعها، مثل علم الطب والتشريح والهندسة والفلك والكيمياء الفيزياء وغيرها؛ وسواء كانت الأمة تحتاج إليه في المجال المدني أم في المجال العسكري، حتى تحمي دارها وأهلها من أعدائها، وحتى تكون في مأمن من خطرهم وشرهم.

ولقد أحسن العلامة الكتّاني عبد الحي⁵⁵⁹ تسمية كتابه الموسوم ب: "التراتب الإداري والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية"؛ وبالمناسبة لا يسعني إلا أن أذكر كلاماً له في غاية الأهمية نقله عن كتاب: "عمدة الطالب لنيل المآرب"⁵⁶⁰؛ قال فيه: " طلب التكسب واجب فريضة، كما أن طلب العلم فريضة، ثم التكسب أنواع: كسب مفروض وهو الكسب بقدر الكفاية لنفسه ولعياله وقضائه دينه، وكسب مستحب: وهو كسب الزيادة على أدنى الكفاية ليواسي به فقيراً أو يجازي به قريباً ثم قال: إنه أفضل حتى من التخلي

⁵⁵⁹ محمد عبّد الحّي بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتّاني، عالم بالحديث ورجاله. مغربي، ولد وتعلم بفاس. وكان منذ نشأته على غير ولاء للأسرة العلوية المالكة في المغرب، واعتقل سنة 1327 هـ (1909 م) في (دار المخزن) ببلده. ولما فرضت الحماية الفرنسية على المغرب، (1912م) انغمس في مولاتها. وحج، فتعرف إلى رجال الفقه والحديث في مصر والحجاز والشام والجزائر وتونس والقيروان. وعاد بأحمال من المخطوطات. وكان جماعة للكتب، ذخرت خزائنه بالنفائس. وضمت بعد سنوات من استقلال المغرب إلى خزانة الكتب العامة في الرباط، ولما استقل المغرب (1955) كان الكتّاني في باريس، فاستمر إلى أن مات بها.

له تأليف كثيرة جداً منها المخطوط والمطبوع.. نقلاً عن: الأعلام للزركلي بتصرف

⁵⁶⁰ ن: "عمدة الطالب لنيل المآرب في الفقه على المذهب الأحمد الأمثل مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل"، لمنصور بن يونس البهوتي، حققه واعتنى به: مطلق بن جاسر بن مطلق الفارس الجاسر، مؤسسة الجديد النافع للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، 1431 هـ - 2010 م.

لنفل العبادة، ثم قال: فأفضل مكسوب التجارة، ثم الصناعة، ثم طلب العلم، ثم قال: فلو كان العلماء يتعلمون الحرف ما افتقروا حتى يطمعوا في أموال الناس اهـ⁵⁶¹..

ويري الإسلام المسلم على احترام العمل، ولو كان مدخوله قليلاً، أو كان الناس ينظرون إليه نظرة استهانة، أو كان شاقاً على النفس، لكنه يعفُّ المسلم عن مدِّ يده للآخرين، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: (لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها، فيكفَّ الله بها وجهه: خير له من أن يسأل الناس: أعطوه أم منعوه)⁵⁶².

وقد ردَّ الإمام الفقيه السرخسي⁵⁶³ في كتابه المبسوط على مَنْ سَمَّاهم جهالاً من أهل التقشف وحمقى أهل التصوف الذين زعموا أنَّ: الكسب حرام لا يحل إلا عند الضرورة، فهو بمنزلة تناول الميتة وقالوا: إن الكسب ينفي التوكل على الله تعالى أو ينقص منه؛ حيث بيّن هذا الفقيه الحنفي أن الكسب مباح على الإطلاق بل هو فرض عند

⁵⁶¹ ن: "التراتب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية"؛ لمحمد عبّاد الحَيّ بن عبد الكبير الكتاني (المتوفى: 1382هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، نشر: دار الأرقم - بيروت، ط: 2، دون تاريخ (7/2)

562- رواه البخاري في الزكاة (1471)، وأحمد في المسند (1407)، والنسائي (2589)، وابن ماجه (1836)، كلاهما في الزكاة، عن الزبير.

⁵⁶³ هو محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي. فقيه أصولي حنفي. ينسب إلى سرخس. بلدة قديمة من بلاد خراسان. أخذ الفقه والأصول عن شمس الأئمة الحلواني. وبلغ منزلة رفيعة. عده ابن كمال باشا من المجتهدين في المسائل. كان عالماً عاملاً ناصحاً للحكام. سجنه الخاقان بسبب نصحه له. ولم يقعه السجن عن تعليم تلاميذه؛ فقد أُملي كتاب المبسوط. وهو أكبر كتاب في الفقه الحنفي مطبوع في ثلاثين جزءاً. وهو سجين في الحب، كما أُملي شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن، وله شرح مختصر الطحاوي، وله في أصول الفقه كتاب من أكبر كتب الأصول عند الحنفية، ويعرف بأصول السرخسي..

الحاجة وأبطل دعواهم بأدلة لا يسمح المجال لذكرها⁵⁶⁴..

المسألة الرابعة: القرآن يجعل العمل دليلاً على الإيمان وشرطاً للعمران:

وبناء على ذلك، فعمران الأرض لا يقوم ولا يُقام إلا بالعمل الجادّ والمثمر، وهو ما يُطلق عليه القرآن صفة الصلاح، بل جعله ثمرة من ثمرات الإيمان ودليلاً عليه، حيث ذكره مقروناً بالإيمان في أكثر من سبعين آية من آيه، وبلغ ذكر العمل ومشتقاته في القرآن أكثر من ثلاثمائة وسبعين مرة⁵⁶⁵، وهذا التكرار ليس اعتباطاً، بل هو مقصود من أجل الدلالة على مركزية العمل وأهميته في إقامة العمران البشري، بل إنني أزعم أن العمل يمثل ثمرة التكليف ونتيجته، إذ الحكم الشرعي - كما هو عند الأصوليين - هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين من حيث إنهم مكلفون، طلباً أو تحييراً أو وضعاً، فكانت أحكام الشرع كلّها مرتبطة بالعمل⁵⁶⁶، بل إن

⁵⁶⁴ ن: كتاب "المبسوط" لمحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483هـ) دار المعرفة بيروت، بدون طبعة، تاريخ النشر: 1414هـ/ 1993م؛ (30 / 247)

⁵⁶⁵ ن: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" لمحمد فؤاد عبد الباقي، مرجع سابق

⁵⁶⁶ وهنا أذكر فائدة مهمة تتعلق بمفهوم الفعل والعمل، حيث إن هناك من العلماء من جعل اللفظين مترادفين لا فرق بينهما البتة، إلا أن المحققين من أهل اللغة والفقه فرّق بين الفعل والعمل، حيث ذكروا فروقا بينهما، أهمها: - أن العمل لا يكون إلا بقصد، والفعل قد يكون بدون قصد كفعل البهائم، فلا يقال: عمل البهائم.

- أن العمل هو إيجاد الأثر في الشيء، ويطلق على الآثار المعمولة في الشيء، والفعل هو إيجاد الشيء ذاته - أن العمل شيء مستمر دؤوب، ولا يقال للفعل الواحد المنقضي مرة واحدة عمل.

- أن العمل يعم كل ما يصدر عن الذات من فعل وانفعال، بينما الفعل قسيم الانفعال في الحقيقة

- أن الله اتصف بالفعل، ولم يتصف بالعمل إلا على سبيل المجاز.. أنظر "الفروق اللغوية" لأبي الهلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر؛ دون طبعة؛ ص: 134-135؛ و"المقاييسات" أبو حيان التوحيدى، المحقق: حسن السندوي، دار سعاد الصباح، الطبعة: الثانية، 1992م ص: 280، في المقايسة الخامسة والسبعون: في بيان الفرق بين الفعل والعمل لأبي

جمهور الأصوليين والفقهاء اعتبروا الترك - أيضا - فعلاً⁵⁶⁷، خلافاً لأبي هاشم الجبائي⁵⁶⁸، وهو ما يؤكده النظر المقاصدي في الشريعة الإسلامية لإقامة المصالح والإبقاء عليها من جانبي الوجود والعدم؛ وهو ما يقرّر حتمية العمل؛ إلا أنه وجب التنبيه إلى أن العمل منه الباني للعمران،

حيان التوحيدي؛ وكذا الراغب الأصفهاني في " المفردات في غريب القرآن " ص: 587؛ وغير ذلك من المؤلفات..

⁵⁶⁷ . ومذهب الجمهور من أنّ الترك فعلٌ، هو القوي الذي يُعَصِّدُه الكتاب والسنة والمعقول:

أما بالكتاب فقد دلّ على ذلك في مواطن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَيْهِمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمْ السُّخْتَّ لَیْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقوله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِيسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، فقد سمى الله تعالى ترك النهي صنعة، وعدم التناهي عن المنكر فعلاً؛ واستدلّ السبكي أيضاً على أنّ الترك فعلٌ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] حيث قال: " الأخذ التناول، والمهجور المتروك، فصار المعنى تناولوه متروكاً أي: فعلوا تركه " ..

- أما بالسنة فقد سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ترك الأذى وما لا يعني المسلم إسلاماً في قوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) [أخرجه البخاري في الإيمان؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) [أخرجه الترمذي ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٩١١)].

- أمّا المعقول فلأنّ النهي تكليفٌ بمقدورٍ، والعدم الأصلي نفْيٌ محضٌ ليس بمقدورٍ لا يدخل في وسعه، لذلك كان لزاماً أن يكون له أثرٌ وجوديٌّ من جهةٍ، ولأنّ العدم الأصلي حاصلٌ باستمراره من جهةٍ أخرى، والحاصل لا يمكن تحصيله ثانياً، وإذا ثبت أنّ مقتضى النهي ليس العدم فإنّ العقلاء إنما يمتدحونه على الترك من جهة كون امتناعه عن الفعل أمراً وجودياً ينافي المنهية عنه وهو فعله الضدّ، وهو ترك ما تُهي عنه فحصل المطلوب.. أنظر: "مذكّرة في أصول الفقه" للشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، 2001م؛ ص: (38؛ 39) و"الإبهاج في شرح المنهاج" للسبكي وابنه، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد جمال الزمزمي - الدكتور نور الدين عبد الجبار صغيري ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، 1424 هـ / 2004م؛ (2 / 70) وما بعدها

⁵⁶⁸ . عبد السلام ابن الأستاذ أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام (3) الجبائي، المعتزلي، من كبار الأذكياء، أخذ عن والده، وله: كتاب (الجامع الكبير) ، وكتاب (العرض) ، وكتاب (المسائل العسكرية (1)) ، وأشياء، توفي: سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة، وله عدة تلامذة.. أنظر سير أعلام النبلاء للذهبي (15 / 63 ؛ 64)

وآخر هادم له، وإنما نقصد الأول غير الثاني، وهو ما أشرت إليه في تعريفني لمفهوم العمران.

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى القرآن الكريم لندقق النظر في سياقاته التي ورد فيها ذكر العمل ومشتقاته، نجد أن العمل له مركزيته وأهميته في تحديد مصير الإنسان فردا وجماعة، دنيا وآخرة، ولا أدل على ذلك من قوله جلّ في علاه: ﴿وَقُلْ إِعْمَلُوا فَيَسِيرَ إِلَهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁵⁶⁹، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾⁵⁷⁰، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَفْقَهُمْ إِعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾⁵⁷¹، وقوله عزّ من قائل: ﴿إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁵⁷² والآيات كثيرة في هذا المعنى.

المسألة الخامسة: السنة تدعو إلى العمل والتعمير

والذي يتدبر السنة الشريفة أيضا يجدها عامرة بالنصوص والأدلة التي تحثّ تدعو إلى العمل والإنتاج في شتى المجالات والميادين، من أجل بناء عمراني وحضاري يحقق للأمة الإسلامية وسطيتها وشهادتها على الأمم، لأن الأمة لا يمكن أن تكون كذلك وهي لا تزال عالة على غيرها، في غذائها ودوائها وسلاحها، وغيرها من حاجاتها، وخاصة إذا كان هذا الغير ممن يُضمّر لها العدا، ويتمنى لها البلاء؛ ولقد أحسن العلامة ابن خلدون صنعا حينما تناول في الباب الخامس من مقدّمته الحديث عن المعاش وما يتعلّق به من الكسب والصنائع وما يعرض ذلك من الأحوال، فأطال النفس في مسائل كثيرة من ذلك؛ ممّا يدل على

⁵⁶⁹ التوبة: 105

⁵⁷⁰ الكهف: 30

⁵⁷¹ الأنعام: 135

⁵⁷² فصلت: 40

أن الصنائع والأعمال ضرورية للعمران، بل لقد ذكر في قاعدة عمرانية: " أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع"⁵⁷³، بمعنى قلّ العمل - أي الفعل العمراني - وضمّر، وحلّ محلّه العجز والكسل؛ وإذا استقرأنا نصوص السنة والقرآن التي لها علاقة بالحث على العمل وما يرتبط به، ألفيناها كثيرة ومتنوعة، يمكن حصرها في المجالات الآتية:

المجال الزراعي:

أول ما يُعنى به التشريع الإسلامي نصوصاً وأحكاماً، قرآناً وسنة من أنواع العمل: العمل الزراعي، أي إنتاج الأقوات والحبوب التي يأكلها الناس، ويعيشون عليها من حبوب وقطاني وخضروات وفواكه، وغير ذلك ممّا امتنّ الله به على عباده؛ وقد جعل الله هذه الأرض مصدراً لهذا الأقوات، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿١٦﴾ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٧﴾ ثُمَّ شَفَفْنَا الْأَرْضَ شَفًّا ﴿١٨﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٩﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٠﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢١﴾ وَحَدَاقٍ غَلْبًا ﴿٢٢﴾ وَبَكَّةً وَأَبًّا ﴿٢٣﴾ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيْكُمْ ۖ ﴿٢٤﴾ ۝٥٧٤، والآيات كثيرة جداً في هذا المعنى؛ وإن ممّا يستقيم به عمران الناس وتنصلح به حياتهم توفر أقوات الناس، والله در الماوردي حين قال: " القاعدة الخامسة من القواعد التي تصلح بها الدنيا: خصب دار تتسع النفوس به في الأحوال، وتشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال، لكون الأسعار رخيصة فيقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا، وانتظام أحوالها، ولأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والسخاء"⁵⁷⁵؛ ومن أجل تحقيق ذلك حث النبي ﷺ على تهئية الأرض واستصلاحها كما في قوله عليه

⁵⁷³ ن: الفصل العشرين من الباب الخامس من "مقدمة ابن خلدون" ص: 421 وما بعدها..

⁵⁷⁴ عبس: 24-32

⁵⁷⁵ ن: كتاب " أدب الدنيا والدين " للماوردي، مصدر سابق، ص: 143.

الصلاة والسلام: (مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ)⁵⁷⁶، وهو ما يوسع الرقعة الزراعية ويزيد في الإنتاج، وقد تحدّث الفقهاء في مصنفاتهم عن هذا الأمر بعنوان: (إحياء الموات)، أيّ إحياء الأرض الميتة؛ ورواية أخرى يقول ﷺ: (مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ، وَمَا أَكَلَتْ الْعَافِيَةَ مِنْهَا، فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ)⁵⁷⁷، قال أبو عبيد: العافية: من السباع والطيور والناس وكلُّ شيء يعافه.

يقول الدكتور القرضاوي معلّقاً على هذا الحديث في لمسة عمرانية: " فسمّي هذا العمل في إصلاح التربة، وتهيئتها للزراعة والغرس، وسوق الماء إليها، ونحو ذلك: (إحياء)، كما سمّي الأرض التي لم تهيأ للزراعة (ميتة)، وفي هذه التسمية ما فيها من الثناء على هذا العمل، كما أنه كافأه على هذا الجهد بتملكه ثمرة عمله، ليتنافس الناس على هذا العمل الخير النافع، الذي لا يثمر إلا الخير والبركة والنماء للمجتمع"⁵⁷⁸.

وكان من سياسة النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين: الإقطاع من هذه الأراضي البور لبعض الرجال الذين أدّوا خدمات ممتازة للدولة الإسلامية، فهي مكافأة لهم من جهة، وتشجيع على استصلاحها وعمرانها من جهة أخرى.

ومَنْ قطع له من هذه الأرض مساحة معينة، ثم تركها لعدّة سنوات، بغير أن يعمرها ويصلحها، كان لولي الأمر أن ينتزعها منه، ويعطيها لغيره ممّن يقوم بإحيائها.⁵⁷⁹

وقد روى أبو عبيد وغيره، عن بلال بن الحارث المزني: أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع العقيق - وهي أرض بالمدينة - فلما كان زمان عمر رضي الله عنه، قال لبلال: (إن

576- رواه أبو داود في الخراج والإمارة (3073)، والترمذي في الأحكام (1378)، وقال حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب إحياء الموات (5729)، عن سعيد بن زيد، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (2638).

577- رواه أحمد في المسند (14636)، إسناده صحيح على شرط الشيخين، عن جابر، وأبو عبيد في الأموال ص318، انظر صحيح الجامع الصغير ص 5974-5976.

578 ن: " مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال " مرجع سابق، ص: 77

579 نفس المرجع ص: 77

رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته، وردّ الباقي⁵⁸⁰.

وهذه لعمرى سياسة عمرانية ولمسة حضارية من الفاروق عمر - لله دره - تشجّع

العاملين على العمل والاجتهاد، من أجل إقامة العمارة وإنشاء العمران!!

ومن الأحاديث الرائعة في هذا الباب: ما رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم (أي الساعة) حتى يغرسها فليغرسها)⁵⁸¹، وفي ذلك إشارة إلى أن المسلم يظلّ عاملاً منتجا حتى آخر نفس من الحياة! وهو ما يؤكّد أن الدور الحضاري للمسلم في تعمير الأرض، واستثمار طاقات الكون، مستمر منذ لحظة الوعي الأولى وحتى قيام الساعة، وأن الحركة الإسلامية في الأرض ينبغي أن تكون حركة إبداعية مستمرة؛ ترقياً في عبادة الله؛ إذ إن غراسه الفسيلة في هذه الحالة ليست لغاية الارتزاق وتلبية الحاجة، وإنما هي استجابة لغاية التعمير في الأرض، التي هي غاية في ذاتها مطلوبة بالدين!

المجال الصناعي:

ومن المجالات الضرورية لعمران الناس ومعاشهم المجال الصناعي، فهو لا يقل أهمية عن الزراعة، فلو اكتفت الأمة بجانب الزرع والغرس دون الصناعة لَلَحِقَهَا من الخطر ما لحقها، وهو ما يشهد له واقعنا المعاصر الذي تأخر فيه المسلمون في الصناعات فأصابهم ما أصابهم من القرح والضعف والانحطاط، ولقد ذكرتَ قبلُ أنَّ المحقّقين من الأصوليين اعتبروا تعلّم الصناعات من فروض الكفاية تأثم الأمة بتركها؛ وإنّ ممّا يدل على صحة ذلك ترجمة البخاري في كتاب البيوع أيضاً باب ذكر الصوّاع، وباب ذكر القين، وباب الخياط، وباب النساج، وباب النجار، وباب بيع السلاح في الفتنة وغيرها، وباب العطار،

580- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، (426/10)، وأبو عبيد في الأموال ص323.

581- سبق ترجمته في مقدمة هذه الأطروحة، ص: 6

وبيع المسك، وباب ذكر الحجام؛ وقد وشَّح ابن حجر هذه التراجم بقوله: "فائدة الترجمة على هذه الصنائع، التنبيه على ما كان في زمنه عليه السلام، وأقره مع العلم به، فيكون كالنص على جواز هذه الأنواع، وما عداها إنما يؤخذ بالقياس اهـ" 582؛ وهذه لعمرى نظرة عمرانية من ابن حجر لله درّه!!

ومن الثابت أيضا في هذا الصدد أننا وجدنا النبي ﷺ ينوّه بفضل داود عليه السلام، ويعدّه نموذجا عمرانيا وجب الاقتداء به، فيقول: (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) 583، ومّا هو معلوم أن داود عليه السلام كان صانعا للدروع الحربية كما بيّنه تعالى في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ 584، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبٍ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ﴿٥٨٥﴾ أَلِإِعْمَلٍ سَلِغَتْ وَفَدِرٍ فِي السَّرْدِ﴾ 585..

ولقد اشتغل النبي ﷺ في صناعة البناء كما ثبت في السيرة في مسألة بناء المسجد النبوي بمشاركة الصحابة معه؛ ولنترك الإمام البيهقي يروي لنا قصة بناء المسجد في دلائله حيث قال (لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد أعانه عليه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبر صدره، فقال: (ابنوه عريشا كعريش موسى) فقلت للحسن: ما عريش موسى؟ قال إذا رفع يديه بلغ العريش - يعني السقف -) 586؛ بل إنه

582 ن: "فتح الباري" لابن حجر، مصدر سابق، (4 / 267)

583 - رواه البخاري في البيوع (2072)، وأحمد في المسند (17181)، عن المقدم بن معد يكرب.

584 . الأنبياء: 80]

585 . سبأ: 10، 11

586 ن: "دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة"؛ لأحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)؛

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت؛ الطبعة: الأولى - 1405 هـ (2 / 540)

مما يدل على تطور الصناعة العمرانية في عهد الصحابة خاصة في عهد عثمان رضي الله عنه ما وقع للمسجد النبوي من تطوير عمراني فقد روى أبو داود بسنده عن نافع عن ابن عمر أخبره - أي ابن عمر رضي الله عنهما - أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئا، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا؛ وغيره عثمان رضي الله عنه وزاد فيه زيادة كثيرة، وبني جداره بالحجارة المنقوشة والقصة - أي الجص - وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج -

اسم لنوع من الشجر - "587"، كل ذلك التطور العمراني وقع بمباركة من الصحابة، ولم يثبت أن واحدا منهم أنكر على عثمان ذلك، وعليه فيُعدُّ ذلك إجماعا منهم رضي الله عنهم أجمعين..

ومما يُذكر أيضا في هذا الأمر وضعه ﷺ الحجر الأسود في قصة بناء الكعبة المشرفة قبل بعثته، وكذا مشاركته ﷺ في حفر الخندق، وغير هذا كثير في سنته لا يتسع المقام لذكر ذلك كله، مما يدل دلالة واضحة أن السنة حافلة بالنماذج التي تفيد بمجموعها أن العمل الصناعي والإبداعي حاضر بقوة؛ أضف إلى ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم من صناعات كثيرة كصناعة نوح عليه السلام للسفينة، وداوود للدروع الحربية، وصناعة سليمان - عليه السلام - المتنوعة من قبل الجن، وبناء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - للكعبة المشرفة، وبناء موسى مع الخضر لجدار الغلامين، وصناعة ذي القرنين للسدود، إضافة إلى بعض الصناعات الغذائية التي تم ذكرها في سورة النحل مثلا، وغير ذلك كثير لا يتسع المقام لذكره !

كل ذلك نخلص من خلاله إلى أن الإسلام يدعو ويحث من خلال نصوصه وأحكامه على

587 ن: " البداية والنهاية " لابن كثير مصدر سابق، (3/ 216) ..

العمل الصناعي ويعتبره لازماً للقيام بالواجب العمراني⁵⁸⁸

المجال التجاري:

كذلك نجد القرآن والسنة يحثان على التجارة، ويجعلانها من ضرورات العمران البشري، ولا أدل على ذلك من أن السوق الذي يمثل مركزاً تجارياً كان من أول المنشآت التي أبدعها النبي ﷺ لقيام عمران دولته الإسلامية الجديدة، حيث دشن سوقاً خاصاً بالمسلمين - بعد إنشائه المسجد الشريف - رغم وجود أسواق بالمدينة كسوق بني قينقاع، إلا أنها كانت خاضعة لابتزازات اليهود، فجعل تلك السوق للتبادلات التجارية قائلاً: "هذه سوقكم، لا تتحجروا ولا يضرب عليه الخراج"، وأطلق عليها يومئذ "سوق المناخة"؛ كل ذلك من أجل أن يكون للمسلمين قوة اقتصادية تستطيع بها المحافظة على أموال المسلمين وتنميتها بالحق، وأن تكون لهم سوقاً خالية من كل أنواع الغرر والربا وأكل أموال الناس بالباطل وهو ما يتناسب مع المنهج العمراني الإسلامي⁵⁸⁹

إضافة إلى أننا نجد القرآن الكريم ذكر التجارة وما يتعلق بها في مناسبات كثيرة، بل لقد أضفى عليها وصفاً جميلاً وهو: "الابتغاء من فضل الله"، مفاده التشجيع والإقبال على هذا النوع من العمل، إذ هو بحث عن فضل وكرم الله الكريم سبحانه، ومن ذا الذي لا يرجو فضل الله ولا يبتغي عطاءه!!؟

وقد تكرر هذا الوصف في ثلاثة مواطن من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾⁵⁹⁰، وقد جاء هذا في سياق الحديث

⁵⁸⁸ - ن: مثلاً: "البداية والنهاية" لابن كثير، و"دلائل النبوة" للبيهقي، و"التراتب الإدارية" للكتاني، و"مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال" للقرضاوي..

⁵⁸⁹ ن: "من معالم الهجرة النبوية إنشاء السوق الإسلامية" إعداد دكتور: حسين شحاتة، الأستاذ بكلية التجارة جامعة الأزهر؛ خبير استشاري في المعاملات المالية الشرعية.. دون تاريخ وطبعة؛ من سلسلة بحوث ودراسات في الفكر الاقتصادي الإسلامي..

⁵⁹⁰ البقرة: 198

عن شعيرة الحج التي هي ركن من أركان الإسلام، كما جاء في سياق الحديث عن صلاة الجمعة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾⁵⁹¹؛ فجاء هنا الأمر بالانتشار في الأرض - أي التجارة - بعد النهي عنه عند النداء بالصلاة، وقد اختلف الأصوليون في دلالة - أي الأمر بعد الحظر - على مذاهب، ذكر ابن عاصم الغرناطي ثلاثة منها في منظومته الموسومة "بمرتقى الوصول إلى علم الأصول" بقوله:

والأمرُ بعد الحظر مُستفادُ إباحةٍ ك (انتشروا) و(اصطادوا)

وقيل للوجوب والوقف نُقلُ وبعد الاستئذان كالحظر حُمل⁵⁹²

ولسنا معنيين هنا بترجيح الأقوال بعضها على بعض فليس هذا موضوعنا، وإنما حسبي هنا أن أبين أن الذين قالوا بالوجوب وخاصة في هذا المثال - أي الأمر بالتجارة - نظروا ربما إلى اعتباره واجبا كفاييا تعلق بمجموع الأمة لا بأحاديها، إذ أن التجارة تحتاجها الأمة بأفرادها ومجموعها لتحصيل مصالحها وتحقيق حاجاتها وأغراضها!! ويتأكد هذا بما ذهب إليه الفاروق عمر - رضي الله عنه - في قوله: (ما جاءني أجلي في مكان ما عدا في سبيل الله عز وجل أحبُّ إليَّ من أن يأتيني وأنا بين شُعْبَتِي رحلي أطلب من فضل الله) - أي التجارة ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَخْرَوْا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرَوْا يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁵⁹³؛ بل لقد ذكر السرخسي في المبسوط تقديم عمر - رضي الله عنه - الضرب في الأرض أي التجارة على الجهاد في سبيل الله، فقال: "وكان

⁵⁹¹ الجمعة: 10

⁵⁹² ن: كتاب "نيل السؤل على مرتقى الوصول إلى علم الأصول" للعلامة "محمد يحيى بن محمد المختار الولاقي" (ت 1330هـ)، شرح: "مرتقى الوصول إلى علم الأصول" لابن عاصم الغرناطي، تحقيق: "أبو محمد بن محمد الحسن، ط: 3؛ نشر: مكتبة الولاقي لإحياء التراث الإسلامي نواكشط موريتانيا، سنة: 1427هـ / 2006م

⁵⁹³ المزمّل: 20

594- رواه عبد الرزاق في الجامع (464/11)، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (450/2).

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقدم درجة الكسب على درجة الجهاد فيقول لأن أموت بين شعبي رجل⁵⁹⁵ أضرب في الأرض ابتغي من فضل الله أحب إلي من أن أُقتل مجاهدا في سبيل الله؛ لأن الله تعالى قدم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين بقوله: ﴿وَأَخْرَوْا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرَوْا يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁵⁹⁶؛ وكذلك ذهب الإمام القرطبي إلى أن تحريك الحياة بالتجارة وكسب المال، والجهاد في درجة واحدة سواء، سوى الله بينهما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَأَخْرَوْا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرَوْا يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁵⁹⁷

قال القرطبي: " سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، للنفقة على نفسه وعياله والإحسان والإفضال؛ فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله"⁵⁹⁸

وقد تاجر النبي صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة في مال خديجة مضاربة، هي برأس المال وهو بالجهد والعمل، كما ثبت في كتب السيرة..⁵⁹⁹

وكان كثير من الصحابة تجّاراً، منهم أبو بكر، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم.

⁵⁹⁵ . هكذا جاءت "شعبي رجل"، وربما فيها تصحيف وإنما: "شُعْبَتِي رَحْلِي" كما ثبتت في مواطن أخرى، والله تعالى أعلم بالصواب..

⁵⁹⁶ ن: "الميسوط" للسرخسي، مصدر سابق (30 / 245)

⁵⁹⁷ . المزمّل: 20

⁵⁹⁸ ن: "الجامع لأحكام القرآن" مصدر سابق، (19 / 55)،

⁵⁹⁹ ن: "البداية و النهاية"، لابن كثير، مصدر سابق، (2 / 358)

وجاء في الحديث: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)⁶⁰⁰؛
وسئل إبراهيم النخعي عن التاجر الصدوق: أهو أحبُّ إليك أم المتفرِّغ للعبادة؟ قال:
التاجر الصدوق أحبُّ إليَّ؛ لأنه في جهاد، يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان (أي
التطفيف)، ومن قبل الأخذ والعطاء، فيجاهده"⁶⁰¹.

و قد أحاط الشرع الحنيف هذا النوع من العمل بمجموعة من الضوابط والأحكام حتى
يحافظ على وحدة المجتمع من التشرذم والشقاق، فيظل عمرانهم متماسكا ومتينا، وهو ما
أشار إليه - على سبيل الإجمال - قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا
أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم إِلَّا بِالْبَاطِلِ أَل تَكُون تَجَرَّةٌ عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾؛ وقد تناول
الفقهاء تلك الأحكام بالتفصيل والبيان في كتبهم، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن التجارة
إذا تعارضت مع الدين يجب ترجيح جانب الدين إذ أن ضرورة الدين مقدّمة وراجحة
على ضرورة المال، هكذا يجب أن يكون عليه التاجر المسلم، كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ
أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا
تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
تَتَفَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾⁶⁰².

إن المسلم مطالب بتعمير هذه الأرض عمراناً شاملاً، روحياً ومادياً، كما بيّنت
في ثنايا حديثي عن أنواع العمران، فيُنشئ عمراناً بعقيدة راسخة، وعلم نافع، وعمل
متقن، وأداءً أمانةً، ووفاء وعد، وسلوك رشيد، بعيداً عن التكبر والغرور والجشع
والطمع، وكل ما يُخلُّ بالفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها!!

600- رواه الترمذي (1209)، وقال حديث حسن لا تعرفه إلا من هذا الوجه، والدارمي (3539)، والحاكم (7/2)،
وقال: من مراسيل الحسن، والدرناقطني في السنن (7/3)، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (1782).

601- ن: "إحياء علوم الدين" مصدر سابق، (62/2).

602 . النور: 37.

المسألة السادسة: فعل العمران فعل تعبدي

سبق أن قلت - فيما سبق - "أنّ الخالق جل جلاله جعل الإنسان خليفة في الأرض فكلّفه بعمارته - ماديا ومعنويا - وتلك هي العبادة بمفهومها الشامل الكامل"؛ ثم قلت بعد ذلك: "إن العمران لا يمكن فهمه إلا من خلال ربطه بمفهوم الاستخلاف، إذ يبدو لي أن العمران والعبادة وجهان لعملة واحدة، وهي تحقيق وظيفة الخلافة التي تحمّل الإنسان أمانتها.."⁶⁰³؛ وبناء على ذلك يمكن القول بأن الفعل العمراني هو حركة مرتبطة بالعبادة بمفهومها الواسع، وفق المبدأ الإسلامي: "كل تصرف للعبد تحت قانون الشرع فهو عبادة"⁶⁰⁴، وتلك قاعدة عمرانية تشمل جميع حركات الإنسان في الكون؛ ومن ثمّ ارتبطت وظيفة العمران في أحد أبعادها القرآنية بعبادة الله، كما تجلّى ذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ - اْمَسَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتَدِينَ ﴾⁶⁰⁵

فيكون سعي العبد في تعمير الأرض عبادة وشعبة من شعب الإيمان البضع والسبعين، بل العمران بمفهومه الواسع يشمل كل تلك الشعب كما قرّرت وبيّنت قبل، فكلّ حركة لتعمير الحياة، ماديا ومعنويا تعتبر جزءاً من معركة الأمة للاحتفاظ بوجودها وسيادتها، وجهادا لتحقيق عمارتها المنشود، وفق المفهوم العام من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِّنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِّنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴾⁶⁰⁶

⁶⁰³ جاء هذا في المبحث الثالث من الفصل الأول عندما تناولت الحديث عن مفهوم العمران..

⁶⁰⁴ ن: "الموافقات" للشاطبي مصدر سابق، (1/ 310)،

⁶⁰⁵ التوبة: 18.

⁶⁰⁶ الأنفال: 60.

وبذلك تكون حركة الحياة - عبر التفاعل مع الكون اعتباراً وتعميراً في خط العبودية لله تعالى - تأخذ، في المفهوم الإسلامي، صفة الواجب، ومفهوم العبادة، وتصير إرادة ربانية ينبغي أن يسعى معها المسلم، ويندمج في تيارها، إعمالاً لمقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وتفعيلاً لمقاصد الشريعة في إعمار الكون، وتحقيقاً لمهام استخلاف الإنسان في الأرض؛ باعتبار البناء العمراني، على تعدد أنماطه، مطلباً دينياً شأنه شأن سائر مطالب الدين، يُحاسب المسلم عليه، إن استقال من عمارة الكون، فأخلّ بواجبات البناء والعمران فيه، قال الإمام الجصاص⁶⁰⁷ في بيان قوله تعالى: واستعمركم فيها يعني: "أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه.."⁶⁰⁸؛ فاستعمار الأرض، واجب ديني، ومطلب من مطلوبات الإسلام، يجب على الفرد المسلم تحقيقه، فإذا هو أخل به، أو قصر في أدائه، فقد قصر في دينه، وأخل بالغاية التي من أجلها وُجد وهي مهمة الخلافة في الأرض..

وختاماً أقول إن من شأن هذا الوعي - الذي ذكرت ملامحه آنفاً - أن يدفع بالمسلم إلى آفاق الكون يباشرها بالفكر والعمل، بغاية الارتفاق التعميري باعتبار ذلك ديناً، وليس هو مجرد سد حاجة أو تحقيق رغبات عابرة، فيكون الوازع الإيماني في التعمير المادي هو المحرك للنفوس كي تنخرط في الانتفاع بالبر والبحر وما فيهما من خير، وفي إقامة التصنيع لإنتاج الكساء والآلة الميسرة للحياة ولطرق العمل للمزيد من الإنتاج، إلى أن يتمّ بناء العمران بشقيه

⁶⁰⁷ الجصاص، أبو بكر (305 - 370 هـ / 917 - 980 م)؛ أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي. والرازي نسبة إلى الري، والجصاص نسبة إلى العمل بالجص. درس الفقه على كبار الحنفية في عصره، كأبي الحسن الكرخي، وأبي سهل الزجاج، وأبي سعيد البردعي، وموسى بن نصر الرازي. كان زاهداً ورعاً جمع إلى العلم الصلاح والتقوى. وكان جاداً في طلب العلم، حتى صار إمام الحنفية في عصره ببغداد، وأصبح يشار إليه بالبنان. وله رحلة في طلب العلم، حيث خرج من بغداد إلى الأهواز، ثم إلى نيسابور. ثم استقر به المقام في بغداد يدرس ويفقه الناس فانتفع به خلق كثير، منهم أبو عبد الله الجرجاني، وأبو الحسن الزعفراني. له مؤلفات عدة منها: الفصول في الأصول الشهير بأصول الجصاص؛ أحكام القرآن؛ شرح مختصر الكرخي؛ شرح مختصر الطحاوي؛ شرح الجامع الصغير؛ شرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني؛ وشرح الأسماء الحسنى؛ كتاب جواب السائل. توفي ببغداد...

نقلا عن الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

⁶⁰⁸ ن: "أحكام القرآن للجصاص" الحنفي (المتوفى: 370 هـ) لمحقق: عبد السلام محمد علي شاهين؛ الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان؛ الطبعة: الأولى، 1415 هـ / 1994 م؛ (4 / 378)

الروحي والمادي، فيستوي على سوقه فيُعجب العمرانيون ليغيظ به المخربين المثبطين، وبالتالي إنتاج حضارة وفق منهج الله تنصلح بها البلاد ويسعد فيها العباد.. كل ذلك فعل محمود، وهدف منشود؛ والله جلّت قدرته رؤوف ودود، وهو سبحانه المستعان، وعليه التكلان!!

المطلب الثالث: مسرح العمران وفضاؤه

سبق الحديث عن ركني العمران الأوليين بما سمح به المقام، ومنتقل الآن إلى الركن الثالث، وهو مسرح العمران وفضاؤه وهو الأرض وما يتعلق بها من أكوان، وقد جاء ذكرها واضحا في الآية العمدية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾، أي طلب منكم عمارتها - أي الأرض - ؛ وقد ضمنتها تعريفنا السابق للعمران الذي قلت فيه: "هو مجموع النشاطات والأعمال والتصورات الروحية والمادية التي ينجزها الإنسان الخليفة فردا وجماعة وأمة على الأرض في مدة معينة، لإصلاح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي"؛ فالأرض وما يرتبط بها من أكوان، أو ما يسمى بالبيئة هو المجال الذي يقوم عليه وفيه العمران، وهو ما أشار إليه قوله تعالى حكاية عن نبي الله صالح عليه السلام، وهو يذكر قومه بنعم الله وآلائه عليهم، ويحذّرهم من الإفساد في الأرض التي أنشأها لهم: ﴿وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁶⁰⁹..

فقد جاء ذكر الأرض وما أُقيم عليها من عمران صريحا في هذه الآية؛ يقول صاحب المنار في تفسير هذه الآية: "أي وتذكروا إذ جعلكم الله تعالى خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس وبوأكم في الأرض، أي أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومنازل لكم: تتخذون من سهولها قصورا زاهية، ودورا عالية، بما حذقتم بإلهامه تعالى من فنون الصناعة، كضرب الآجر واللبن والجص وهندسة البناء ودقة النجارة، وتنحتون الجبال أي بعضها (..) بيوتا بما علّمكم من فن النحت، وآتاكم من القوة والصبر، قيل: إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل(..)"

(فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أي فتذكروا نعم الله تعالى عليكم في ذلك كله واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، واستعمالها فيما فيه صلاحكم، ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الأرض مفسدين(..) بمخالفة ما يرضي الله فيها حال كونكم متصفين بالإفساد ثابتين عليه..⁶¹⁰.

المسألة الأولى: القرآن الكريم يعتبر الأرض مسرحاً للعمران

ويشير سبحانه وتعالى إلى أن الأرض هي مسرحُ عمرانِ أقوامٍ وفضاؤه، فيقول عزّ من قائل مرشداً عباده : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁶¹¹؛ ونجد الشيخ الشعراوي⁶¹² - رحمه الله - حينما تناول هذه الآية

⁶¹⁰ ن: " المنار " مرجع سابق (8/ 448)، بتصرف

⁶¹¹ الروم: 8

⁶¹² الشعراوي (1329 - 1419هـ / 1911 - 1998م)؛ هو محمد متولي الشعراوي، العالم الفقيه المفسر، من أبرز علماء عصره، ولد في مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية بمصر. حصل على الشهادة العالمية من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام 1941م، وتدرج في سلك التدريس الأزهرى بمختلف المعاهد الدينية حتى أعيير للمملكة العربية السعودية (1950م) مدرساً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، ثم عاد فترة إلى مصر، وتقلد فيها عدة مناصب عین فيها، منها وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر (1976 - 1978م). للشيخ الشعراوي أسلوب فريد في التفسير يجمع بين أصالة التفاسير القديمة ومعاصرة الواقع العلمي المبتكر، واستطاع أن يؤصل منهجاً قوياً في هذا الباب تتجلى من خلاله روائع الأحكام القرآنية وتتضح به أوجه الإعجاز كاملة في النص، مما جعل تفسيره للقرآن الكريم مقنعاً منطقياً واقعياً طليقاً خاطب به العالم والمثقف والأُمِّي والمتخصص، هذا بالإضافة إلى ما يتمتع به الشيخ الشعراوي من ثقافة شمولية في معظم علوم العصر وفطنة كبيرة وذكاء متوقد، الأمر الذي جعله متمكناً في عرض النص القرآني على جميع وجوهه مستخلصاً أهم ما فيه من كنوز ثينة وحقائق غنية. ليس للشيخ الشعراوي مؤلفات بعينها، غير أن أصحاب الأقلام ودور النشر الكبرى وهيئات علمية كثيرة أخذت أحاديثه المذاعة تليفزيونياً وإذاعياً، وتسجيلاته المختلفة وطبعتها في صورة مجلدات وكتب كبيرة بموافقة وإذنه، بالإضافة إلى مئات المقالات في الصحافة العربية والإسلامية. حصل الشيخ الشعراوي على جوائز عديدة وأوسمة ونياشين دولية، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية بمصر عام 1988م.

- في إحدى خواطره - وضح مفهوم الأرض التي يقوم عليها العمران؛ بقوله: "لكن أنسير في الأرض أم على الأرض؟ هذا من دقة الأداء القرآني، ومظهر من مظاهر إعجازه، فالظاهر أننا نسير على الأرض، لكن التحقيق أننا نسير في الأرض؛ لأن الذي خلقنا وخلق الأرض قال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً - آمِينَ﴾⁶¹³؛ ذلك لأن الأرض ليست هي مجرد اليابسة التي تحمل الماء، والتي نعيش عليها، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوي؛ لأنها بدونها لا تصلح للعيش عليها، إذن: فغلاف الأرض من الأرض، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما في الأرض"⁶¹⁴؛ هكذا يوضح الشيخ - رحمه الله - في لفظة تأملية عمرانية مفهوم الأرض ومكوناتها، وهو ما سميناه مجال العمران وفضاءه، أو ما يسمى بالبيئة التي ينشأ فيها الإنسان ويقوم عليها عمرانه⁶¹⁵، وذلك باستثمارها وتوظيف مكوناتها، وهو مقتضى السير فيها المذكور في الآية الآنف ذكرها،

نقلا عن: الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

⁶¹³ . سبأ: 18

⁶¹⁴ . ن: "تفسير الشعراوي" لمحمد متولي الشعراوي؛ الناشر: مطابع أخبار اليوم، دون سنة الطبع. (18/ 11322) وما بعدها بتصرف

⁶¹⁵ . هناك مَنْ يُقَسِّمُ البيئة التي يعيش فيها الإنسان على ثلاث بيئات أساسية:

✓ البيئة الطبيعية: وهي البيئة التي خلقها الله سبحانه ليعيش فيها الإنسان وتحدد بعدد وجودها أو استحداثها؛ وهي تمثل الأرض وما عليها من بحار ومحيطات وأنهار وغابات وصحاري وجبال، وما تتضمنه من مخلوقات تعيش منذ آلاف السنين في تناسق تام، ونضم البيئة الطبيعية عناصر حية {حيوانات، نباتات} وعناصر جامدة ماء وهواء وتربة.

✓ البيئة العمرانية: وهي البيئة التي بدأ الإنسان في صنعها منذ آلاف السنين لكي تساعد على الحياة على الأرض وهي تضم المساكن والمباني والمنشآت والقرى والمدن الصغيرة والتجمعات العمرانية البدائية والبسيطة والمتطورة والمتقدمة.

✓ ج البيئة الإنسانية: وتسمى بالبيئة الاجتماعية، والمقصود بها جميع ما يتصل من سلوك وعلاقات فردية واجتماعية وعادات وتقاليد ومفاهيم ثقافية تحكم رؤيته لما حوله ولنفسه وعلاقته مع الآخرين

وهذه البيئات الثلاث يؤثر بعضها لتشكيل الإطار العام لحياة الإنسان (أنظر كتاب دور الضبط الإداري البيئي في حماية جمال المدن دراسة مقارنة . دكتورة محي محمد عباس الفاضلي، مكتبة دار السلام القانونية . المركز العربي للنشر والتوزيع ط 1: (2017، 1438 هـ) إشراف غاري فيصل مهدي القليوبية نقلا عن : التلوث البصري في البيئة العمرانية عالم الصحة والسلامة والبيئة بحث منشور على الأنترنت على الموقع الالكتروني hseword.ne

وفي ذلك يقول الشعراوي - رحمه الله - : "والسير في الأرض نظَّر له الدين من ناحيتين: سَيْرٌ يُعَدُّ سياحة للاعتبار، وسَيْرٌ يُعَدُّ سياحة للاستثمار، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات في الأرض التي تمر بها، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال ينذر فيها الزرع، فإن ذهبت إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها.

وفي كل منها خيرات؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتي كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذي لا يُستغنى عنه يوماً واحداً في هذه البلاد، (...)؛ فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض، كما وزَّع المواهب على الخلق ليظل الجميع مرتبطاً ببعضه ببعض برباط الحاجة، لا يستغني الناس بعضهم عن بعض، ولا البلاد بعضها عن بعض" ⁶¹⁶؛ والسير للاستثمار - وإن لم يُشر إليه الشعراوي رحمه الله ⁶¹⁷ - ويكون بعد سير الاعتبار وهو استثمار خيرات الأرض وثرواتها فيما يعود على الإنسان بالنفع والخير، ولذا جاء في الآية قوله تعالى : ﴿وَأَنذَرُواْ الْآرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ أي: حرثوها للزراعة وللإعمار بما يسر الله لهم من الطاقات والإمكانات، وأعملوا فيها الموهبة التي جعلها الله فيهم، فاستخرجوا من الأرض خيراتها!

تلك لفظة عمرانية عجيبة وعميقة أيضاً، تدل على أن الخالق سبحانه وتعالى أودع أسباب العيش في الأرض كلها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّنْ جُودِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاجَهَا وَجَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ يَلِيسَ﴾ ⁶¹⁸.

⁶¹⁶ ن: "تفسير الشعراوي" (18/11322) بتصرف.

⁶¹⁷ ذكره على سبيل الإجمال، ولكن عند التفصيل ذكر سير الاعتبار صراحة فقط، لكن سير الاستثمار لم يذكره صراحة فيما بدا لي. إلا أنه يُفهم من كلامه ضمناً..

⁶¹⁸ فصلت: 10

المسألة الثانية: هيئة الأرض وطبيعتها تدل على وظيفتها العمرانية

ولتكون الأرض بكل مكوّناتها وما يرتبط بها من أكوان - وهو ما يسمى في عصرنا بالبيئة - مجالا لإقامة العمران الإنساني فقد هيّاها خالقها بتذليلها للإنسان فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾⁶¹⁹، وجعلها مهادا وفراشا وبساطا - مع كرويتها - ممّا يدل على عظيم صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، كما ركب فيها من العناصر اللازمة لحياة الإنسان، وهيّا فيها من الأسباب المساعدة له على القيام بمهمة العمارة في الأرض، والقرآن الكريم بسوره وآيه مليء بالإشارة إلى هذا، وهو ما يُطلق عليه اسم التسخير في سياق التذكير بنعم الله، حتى ليكاد يكون هذا طابعه العام، حتى أُطلق عليه الكون المسطور في مقابل الكون المنظور، ممّا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم مع السنة المبيّنة له - يمثل فهرسة - على حدّ تعبير الأستاذ النورسي رحمه الله أو كَتَالُوجاً بلغة الصناعة المعاصرة - إن صح التعبير - للكون، كل ذلك - أزعم - من أجل قيام الإنسان بمهمته العمرانية بمفهومها الواسع الذي أصلته قبل، بل إنني أزعم أن حتى آيات العقائد والأحكام لا تخرج عن هذا النطاق إذا اعتبرنا العمران بمفهومه الواسع الذي اعتبرته صنوا للعبادة، بل هو هي، وهي هو!! فهما - أي العمران والعبادة - وجهان لعملة واحدة وهي تنفيذ مهمة الاستخلاف⁶²⁰، كما أوضحت ذلك في أكثر من مناسبة من ثنايا هذا البحث، وهو ما يجعل القرآن كتاب عمران، ولقد أحسن أستاذنا فريد الأنصاري - رحمه الله - حينما جعل بعض كتبه منضوية تحت سلسلة عنوانها بقوله: "من القرآن إلى العمران" ..

⁶¹⁹ الملك: 16

⁶²⁰ قلت: هناك ترابط وثيق، وتلاقح حقيق، وتقاطع عميق، بين هذه المصطلحات الثلاث (العبادة والعمران والاستخلاف)، ممّا تبين لي في حدود بحثي أنه يصعب التفريق بينها من حيث مجالاتها وامتداداتها وظلالها، لا من حيث مفاهيمها فهي مختلفة باختلاف ألفاظها، ولذلك هذه المفاهيم الثلاث تحتاج إلى بحث عميق يُفرد لها لتجلية حقائقها واستكناه دقائقها!!

قلت إنّ الباحث في آي القرآن الكريم وسوره ومقاطععه ليجد أن هذا الأخير يبيّن أن الأرض وما يتعلّق بها هي مجال العمران، ومن أجل ذلك أنشأت ولتحقيقه مُهّدت منذ اللحظة الأولى التي أنزل فيها آدم عليه السلام حيث حُوّطَبَ بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾⁶²¹، ولا استقرار في الأرض إلا بعمرانها، ولا عمران إلا بتهيئة الله لها، ولقد ذكر أبو الفداء الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ما نصه: "وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير"⁶²²، ومن قديم قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْفَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾^{١٦} وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا^{١٧} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا^{١٨} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا^{١٩} لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا إِيَّاجًا^{٢٠}﴾⁶²³

المسألة الثالثة: قوانين الأرض منسجمة مع وظيفتها العمرانية

وقد أودع خالق الأرض سبحانه فيها قابلية النباتات ليتحقق عيش الإنسان المعمّر فيها: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْفَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾^{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِفِينَ^{٢٠} وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ^{٢١}﴾⁶²⁴، يقول الشيخ القرضاوي - حفظه

⁶²¹ البقرة: 35

⁶²² ن: "البداية والنهاية" لابن كثير، مصدر سابق، (1/ 89)،

⁶²³ نوح: من الآية: 15 إلى: 20

⁶²⁴ الحجر: 19- 20 - 21 .

الله - معلقا على هذه الآيات: " وفي هذه الآيات إشارتان في الأهمية:

الأولى: قوله تعالى: {من كل شيء موزون} فهي حقيقة علمية، دلت عليها حقائق العلم الحديث: أن كل نبات مكون من عناصر محددة من المعادن والأملاح والماء وغيرها و هي موزونة بالجرام والمللي جرام.

والثانية: أن هذا الكون لا يسير جزافا، ولا يمضي اعتباطا، بل كل شيء فيه بمقدار وحساب وميزان، فلو زادت كمية الماء في البحار عما هي عليه، أو نقصت، ولو زاد حجم الكرة الأرضية عما هو عليه، أو نقص ولو زادت سرعة دوران الأرض حول نفسها أو حول الشمس أو نقصت، ولو زادت كمية الأكسجين عما هي عليه أو نقصت... إلخ هذه الاحتمالات. لو حدث ذلك ما قامت الحياة على الأرض⁶²⁵ أي ما كان هناك عمران؛ فكان الإنسان بذلك ممكناً فيها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾⁶²⁶.

وقد جعل الخالق سبحانه الماء سببا وأساسا للحياة على هذه الأرض بما في ذلك حياة المعمّر نفسه، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾⁶²⁷، و قال أيضا: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾⁶²⁸ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْفِيَهُ، مِمَّا خَلَفْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا﴾⁶²⁸.

ويشير الدكتور يوسف القرضاوي⁶²⁹ حفظه الله إلى تكامل عناصر الأرض وتفاعلها

⁶²⁵ ن: "رعاية البيئة في شريعة الإسلام" د: القرضاوي، دار الشروق، ط: 2، سنة: 1427هـ/2006م، ص: 13 و 1، بتصرف قليل.

⁶²⁶ الأعراف: 9

⁶²⁷ الأنبياء: 30

⁶²⁸ الفرقان: 48 و 49

⁶²⁹ في كتاب: "رعاية البيئة في شريعة الإسلام" مرجع سابق

فيما بينها بقوله: " هذه البيئة كلها بجوانبها المختلفة، يتفاعل بعضها مع بعض، ويتكامل بعضها مع بعض، ويتعاون بعضها مع بعض، وفق سنن الله تعالى في الكون.

فالشمس في السماء تعطي الأرض من ضوئها وحرارتها ما لا تقوم الحياة بدونه، وهي تعطي هذا العطاء بلا توقف ولا منّ ولا أذى، وفق نظام لا يتبدل.

وكذلك القمر يعطي نوره - الذي يستمدّه من الشمس - للأرض، كما يؤثر في ظاهرة المد والجزر، وكل هذا لخدمة الإنسان.

وبهذا امتن الله على عباده بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾⁶³⁰؛ وتأمل قوله تعالى (لكم) التي كررها في الآية، ليدلنا على أن هذه الأجرام العظيمة هيئت لمصلحة الإنسان المستخلف في الأرض؛ وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا﴾⁶³¹ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيهَا⁶³² وَالْجِبَالَ أَرْسِلَهَا⁶³³ مَتَعًا لَّكُمْ وَلِيَا نَعْمِكُمْ⁶³⁴﴾.

وقد أحسن الحافظ أبو الفداء ابن كثير في كتابه القدير: " البداية والنهاية"⁶³² حيث ساق كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على ما امتن الله به على عباده من مرافق كونية متمثلة في السماوات والأرض والبحار والأنهار وبعض المخلوقات التي تُمدُّ الإنسان المعمّر بما يحقق عمرانه المنوط به منذ استخلفه الله تعالى في أرضه..

وتتبع لفظ الأرض في القرآن يحملنا إلى معان مهمة في فهم أن دلالة الأرض تتجاوز ماديتها إلى رمزيتها، ودورها في مفهوم الاستخلاف الإنساني، ومساهمتها بكل مكوناتها

⁶³⁰ س إبراهيم: 35

⁶³¹ النازعات: من الآية: 30 إلى: 33

⁶³² ن: " البداية والنهاية"، مصدر سابق، (1/ 25) وما بعدها..

في إقامة العمران البشري.

المسألة الرابعة: أحكام الفقه الإسلامي ووظيفة الأرض العمرانية

وما يُلفت نظر القارئ للفقه الإسلامي أيضا الوعي بحق الإنسان في الأرض،
وكونها المادة الخام المشتركة للعمران، ومن هنا تحدّث الفقهاء - كما أشرت سابقا - عن
إحياء الأرض الموات، وعن حفظ حقوق الملكية وما يتعلّق بها من أساليب التنمية
كالإجارة والمزارعة والمساقاة والمضاربة وغيرها من أبواب الفقه الكثيرة..

الفقه الإسلامي لا يتحدّث عن العمران إجمالا، بل يفصله تفصيلا يُذهل المتجوّل
في كتب الفقه، ويلفت الباحث الاجتماعي الذي يستعرض كيف تصوّر الفقه العمران،
ثم كيف أدار حياة الناس بالشرعية الغراء.

كما أننا نجد مركزية الإنسان في الفقه واضحة، لدوره الأساس في العمران الذي
نتحدّث عنه، ولذلك اعتبرته ركنا أولا للعمران؛ إلا أنّ هذه المركزية تفتح على باقي
مكوّنات الوجود من النبات والماء حفظا للتوازن البيئي وتيسير سبل العيش، ولعل كتاب
جميل عبدالقادر أكبر حول "عمارة الأرض في الإسلام"⁶³³ من أجمل ما قرأت في هذا
الباب، فقد أعطى صورة حول الفقه الإسلامي ورؤيته للمسؤولية عن المعمورة، والحفاظ
على الثروات للانتفاع العام وللأجيال القادمة، وتنظيم الملكية والإحياء للأرض والارتفاق
الذي هو العمود الفقري لنمو العمران الإنساني بالمعنى الذي قصدته في هذه الأطروحة،
وليس المعمار المادي فقط..

والارتفاق هو ما يستوقفنا هنا لعمق اقتترانه بالعمران وعمارة الأرض، بالمعنى العميق
والأخلاقي، فالاشتراك في المكان يرتب واجبات على صاحب الأرض الزراعية مثلا أو
العقارية لإتاحة كافة الحقوق المشتركة مع الآخرين، بدءا من عدم حجب الشمس مثلا،

⁶³³ هذا الكتاب ألفه الأستاذ (جميل عبد القادر أكبر)، وطبع على نفقة شركة بلادن سنة 1992م بالسعودية، تضمّن

تسعة فصول تحدّث فيها عن دور الفقه الإسلامي في تحديد مسؤولية الإنسان عن عمارة الأرض حسب النظرة الإسلامية،

في 81 صفحة.

سواء كان الأمر يتعلق بالأرض الفلاحية أو السكنية، مروراً بإتاحة مرور الماء والقنوات والممرات العامة، وصولاً لحق الشفعة والجوار بما يحفظ المنظومة الأخلاقية للعمران..

وفي المقابل نجد الباحث يستعرض في كتابه المذكور آنفاً كيف حدث نمو المدن وفُقد ترسيمها الجديد وتخطيطها، والنظم المتنوعة للتشريع العقاري، والقرض العقاري، واختلال موازين العدالة بقوة السلطان، وعدم توظيف الفقه بشكل اجتهادي ومتجدد لمنطق العمران الإسلامي القرآني..

المسألة الخامسة: نظرة السيرة للأرض نظرة عمرانية

ونجد أيضاً في السيرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - الأرض كانت دوماً المساحة والمجال للتشريع والتفعيل، فعمارة المكان وعمارة الأنفس والوجدان سارا بالتوازي من أجل تحقيق عمران نموذجي متكامل، ولا أدلّ على ذلك من كون أول خطوة قام بها النبي ﷺ لقيام الدولة الإسلامية هي اتخاذ بقعة أرضية ليتيمين من بني النجّار - كانا في كفالة معاذ بن عفراء و قيل أسعد بن زرارة - لبناء المسجد النبوي أول مؤسسة إسلامية انطلق منها العمران الإسلامي العظيم الذي عمّ نوره أرجاء المعمورة عبر تاريخ الإنسانية الطويل!

ولهذا جميعه كانت الأرض بتلك القيمة العظيمة التي ذكرت في القرآن، إذ وجد أن الأرض وهي نقطة ضئيلة جداً في فضاءات السماء الدنيا؛ ذكرت في القرآن مراراً كمعادل للسموات كلها! وذلك نحو قول الله - عز وجل -: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا يَقْتَفِنُهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْجًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝﴾⁶³⁴، وقوله سبحانه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ

⁶³⁴ . الأنبياء: 30، 31، 32

إِنْعَلَى ﴿٦٣٥﴾ وقوله أيضا: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٦٣٦﴾، ونحو هذا كثيرا جدا.

المسألة السادسة: إشارة عمرانية بديعة

فذكر الأرض في قصة الخلق - وهي بمقياس ذرة بالنسبة إلى السماوات السبع وما فيهن - إنما هو دال على خصوصيتها وشرفها، وما ذلك لذاتها، وإنما لدورها المنوط بها وهو مركزيتها العمرانية هذا من جهة، ومن جهة أخرى لشرف ساكنها: الإنسان هذا الخليفة الرباني المستخلف والمكلف بعمرانها تعبداً لله رب العالمين؛ ففي الأرض موطنه يعبد الله ومنها ينطلق في سيره الشمولي إليه تعالى بشهوده على الخلق، ولذلك كانت مجالا خاصا بالإنسان صالحا لعيشه وحياته التعبدية العمرانية ذات قابلية لاحتضانه واحتضان كل مكتشفاته من وسائل الحضارة والمدنية والعمران، ومظهرا كلياً لما في الكون من حقائق إيمانية توحيدية..

"ومن هنا فإن مهد هذا الإنسان، ومسكنه، وهو الأرض، كفاء للسماء معنى وصنعة؛ ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه، ومشهد جميع معجزات الصنعة الربانية، ومظهر جميع تحليلات الأسماء الحسنى وبؤرتها، ومعكس الفعاليات الربانية المطلقة، ومحشورها، وسوق عرض المخلوقات الإلهية بجود مطلق، ولا سيما عرضها لكثرة كاثرة من النباتات والحيوانات، وهي نموذج مصغر لما يعرض في عالم الآخرة من مصنوعات، ومصنع يعمل بسرعة فائقة لإنتاج المنسوجات الأبدية، والمناظر السرمدية المتبدلة بسرعة، وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة" ﴿٦٣٧﴾.

٦٣٥ طه: ٣

٦٣٦ هود: ٧

٦٣٧ ن: "الكلمات" للأستاذ النورسي، مرجع سابق، ص ٢٠٤، بتصرف

وختاماً نخلصُ إلى أن الأرض تمثل عنصراً مركزياً في عملية العمران حيث تعتبر بكل مكوّناتها وما يتصل بها ممّا ذكرناه قبلاً وغير ذلك ممّا لم يُسَعِفنا الوقت للحديث عنه، مجالاً لإقامة العمران الذي نتغيّاه خلال بحثنا هذا، ومن ثمّ جعلناها - أي الأرض وما يتعلّق بها - الركن الثالث للعمران، وهو ما يشهد له القرآن الكريم من خلال آيه المباركات، وتُقرُّه السنّة والسيرة النبوية من لدنّ نصوصها وأحداثها، ويؤكّده التاريخ البشري بوقائعه وقصصه، ويشهد له الواقع المعيش بشخصه ونوازله!

المطلب الرابع: وقت العمران وزمانه

بعد الحديث عن الأركان الثلاث للعمران، أنتقل إلى الركن الأخير منها وهو وقت العمران وزمانه، وهو لا يقل أهمية عن سابقيه، لأن العمران - بشقيه الروحي والمادي كما أسلفت - كحدث يُحدثه الإنسان المعمر لا بد له من ظرفين يقوم فيهما وبهما، ظرف مكان وظرف زمان - كما يعبر النحاة⁶³⁸ - فأما الأول فيتحدد في الأرض وما يتعلق بها من أكوان، وهو الركن الثالث للعمران الذي تناولته في المطلب السابق، وأما الثاني فهو الذي يمثل الوعاء الزمني لفعل وعملية العمران، وهو الوقت بأبعاده ومقاييسه المختلفة كالיום والليلة والشهر والسنة ونحوها، وهذا جعلته ركنا أخيرا للعمران، إلا أن تأخيره في الذكر لا يعني عدم أهميته، بل هو من الأهمية العمرانية والقوة الحضارية بمكان؛ إذ لا يمكن أن نتصور عمرانا من غير وقت وزمان، وقد جعله المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي - رحمه الله - أحد شروط النهضة الثلاثة⁶³⁹ - كما أشرت سابقا - وأزعم أن النهضة مظهر من مظاهر العمران ونتيجة من نتائجه؛ فتأمله !!

المسألة الأولى: دلالة اللغة على عمرانية الزمن

ومما يؤكد ركنية الزمن أننا إذا رجعنا إلى مفهوم العمران اللغوي - وقد فصلت الكلام عنه قبل⁶⁴⁰، ولا بأس أن أذكر ما تدعو الحاجة إليه هنا - وجدنا الوقت أحد معنييه الأصليين كما جاء عند ابن فارس في معجمه في قوله: "(عَمَرَ) الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى بَقَاءٍ وَامْتِدَادِ زَمَانٍ، وَالْآخَرُ عَلَى شَيْءٍ يَعْلُو، مِنْ صَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ.."

فَالأَوَّلُ الْعُمُرُ وَهُوَ الْحَيَاةُ (...) وَيُقَالُ: عَمَرَ النَّاسُ: طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ؛ وَمِنْ الْبَابِ

⁶³⁸ قال ابن مالك في ألفيته: الظرف وقت أو مكان ضَمْنَا في باطِرَادٍ كَهُنَا امْكُثْ أَزْمَنَا

⁶³⁹ ن: " شروط النهضة"؛ لمالك بن نبي، مرجع سابق؛ ص: 45

⁶⁴⁰ ن: المطلب الأول من المبحث الثاني في الفصل الأول من هذا الباب.

عِمَارَةُ الْأَرْضِ، (...)، وَالْإِسْمُ وَالْمَصْدَرُ الْعُمَرَانُ: وَاسْتَعْمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - النَّاسَ فِي الْأَرْضِ لِيُعْمَرُوَهَا. وَالْبَابُ كُلُّهُ يُؤَوَّلُ إِلَى هَذَا..⁶⁴¹

فها أنت قد رأيت هنا أن الوقت والزمان الذي جعلناه ركنا للعمران يمثل أحد معنييه في مصطلحه اللغوي، ومنه عمر الإنسان أي حياته، ومن ثمّ كان الإنسان - وهو المكلف بالعمران - باعتبار حياته ووجوده وقتاً محدداً، يتبدى بصرخة الوضع وينتهي بأنّة النزع، وهو كذلك، ممّا يدل على أن الزمن مكوّن أساس من مكونات الإنسان إن لم يكن هو هو من حيث اللزوم، وإن شئت فجرد الإنسان عن الزمن، فماذا سيبقى منه إذن؟! يقول فريد الأنصاري - رحمه الله - في كلامه الفريد: "وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود: بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه: إنسان! فتأمل!"⁶⁴² ومن ثمّ فإن الحسن البصري نظر إلى الإنسان من هذه الحيثية فعرفه بقوله: "ابن آدم، إنما أنت أيام مجتمعة، كلّما ذهب يوم ذهب بعضك"⁶⁴³، نفس الوصف ذكرته رابعة العدوية حين أوصت سفيان الثوري بقولها: "إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل!!"⁶⁴⁴؛ فوجود الإنسان مرهون بالزمن ومؤطر به، وقس على ذلك عمرانه وحضارته!

فإذا كان الوقت بهذه الخطورة والمكانة - وهو كذلك - كان لا بد من الوقوف معه

641 . ن: "معجم مقاييس اللغة"، مصدر سابق، (4/ 140 وما بعدها بتصرف

642 . ن: "قناديل الصلاة مشاهدات في منازل الجمال" للدكتور فريد الأنصاري . رحمه الله . نشر: دار السلام، ط: 1؛ 1430هـ/2009م؛ ص: 99

643 . ن: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، الناشر: السعادة بجوار محافظة مصر، 1394هـ/1974م (2/ 148) و"سير أعلام النبلاء" مصدر سابق، (4/ 585)

644 . ن: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت..

وقفات نُجَلِّي من خلالها حقائقه:

○ أولاً: مفهوم الوقت

أول وقفة نقفها مع هذا الركن هي مفهومه، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره؛ فهذا الزمان الذي نعيشه ونعرف له ماضيا وحاضرا ومستقبلا أعجوبة من الأعاجيب، وآية باهرة من آيات الله تعالى، تدل على قدرته وعجيب صنعه سبحانه وتعالى.. آية بينة انبرى لمعرفتها الدارسون، وتاهت في عجائبها العقول، وتخبّط فيها البشر قديما وحديثا..

ومنذ القدم والإنسان يحاول كشف كنه الزمن وحده وبدايته وطريقة سيره، فما أن يدرك حقيقة من حقائقه بعد جهد جهيد، إلا علم شيئا من قدرة الخالق عز وجل، واكتشف ما مضى من جهله وعجزه، وما يغيب عنه من حقائق الزمن فإنه يتخبّط فيه يمينا وشمالا بنظريّات وفرضيّات، حتى يأتي لاحق فيكشف خطأ السابقين وتخبّطهم.

ومن عجيب قدرة الله تعالى، ومن أدلة عجز البشر أن أرقى العقول البشرية وأقواها تفكيرا وحدة واستحضارا يعسر عليها تحديد مفهوم الزمن في الوجود، وإن كان أبسط البشر وأغلبهم يجدون سهولة في الشعور بالزمن وإدراك أثره..

لقد كرس كثير من الفلاسفة القدماء وأهل الكلام وعلماء الفلك عقولهم لمعرفة قصّة الزمن، وظنّ أكثرهم أنّ الزمن في الأرض مطلق لا يتناهى أبدا، فليس له بداية، ولا نهاية له، ومن ذلك انبثقت مذاهب الدهرية، والقول بالتناسخ، وغير ذلك من الأقوال الفاسدة، والعقائد الباطلة..

وفي الحضارة المعاصرة فتح الله تعالى للبشر من آفاق العلوم والمعارف ما توصّلوا بها إلى كثير من الحقائق، وفيما يتعلق بالزّمان ظهر ذلك جليا على أيدي علماء الفيزياء والرياضيات والفلك فاكتشفوا النسبية التي منها نسبية الزمن⁶⁴⁵، وأن الزمن الذي تعيشه

⁶⁴⁵ (النظرية النسبية، (بالإنجليزية: the theory of relativity)، من أشهر نظريات الفيزياء الحديثة، التي

طورت من قبل ألبرت أينشتاين في بداية القرن العشرين؛ وقد غيّرت الكثير من المفاهيم بما يتعلق بالمصطلحات الأساسية في

المخلوقات على الأرض هو بالنسبة لها، وهو غير الزمن الذي يوجد في الكواكب الأخرى. ومع صعوبة تحديد مفهوم الزمان - كما ذكرت آنفاً - فلا بد من المحاولة قدر المستطاع، وليكن البدء من المفهوم اللغوي؛ وهاك بيانه:

● الوقت لغة:

يقول صاحب اللسان: "الوقت: مقدار من الزمان، وكل شيء قُدرت له حيناً، فهو مؤقت، (..) قال ابن سيده: الوقت مقدار من الدهر معروف، وأكثر ما يستعمل في الماضي، وقد استعمل في المستقبل، واستعمل سيبويه لفظ الوقت في المكان، تشبيهاً بالوقت في الزمان، والجمع: أوقات، وهو الميقات. ووَقْتُ مَوْقُوتٍ ومَوْقُوتٌ: محدود؛ وفي التنزيل العزيز: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً؛ أي مؤقتاً مقدراً؛ (..) وفي الصحاح: أي مفروضات في الأوقات؛ (..)، والميقات: الوقت المضروب للفعل والموضع. يقال: هذا ميقات أهل الشام، للموضع الذي يحرمون منه. وفي الحديث: أنه وَقَّتْ لأهل المدينة ذا الحليفة؛ قال ابن الأثير: وقد تكرر التوقيت والميقات، قال: فالتوقيت والتأقيت: أن يُجْعَلَ للشيء وقتٌ يختص به، وهو بيان مقدار المدة. وتقول: وَقَّتْ الشيءَ يُوقِّتُهُ، (..) إذا بيّن حده، ثم اتسع فيه فأطلق على المكان..

فقل للموضع: ميقات، (..) والميقات: مصدر الوقت. والآخرة: ميقات الخلق. ومواضع الإحرام: مواقيت الحاج؛ والهلal: ميقات الشهر، ونحو ذلك كذلك؛ وتقول: وَقَّتَهُ، فهو موقوت إذا بيّن للفعل وقتاً يُفْعَلُ فيه، والتوقيت: تحديد الأوقات (..) وقوله

الفيزياء: المكان والزمان والكتلة والطاقة، حيث أحدثت نقلة نوعية في الفيزياء النظرية وعلم الفلك في القرن العشرين؛ وعند نشرها لأول مرة عدلت الأسس النظرية لميكانيكا نيوتن التي كانت قائمة منذ 200 عام تقريباً..

لقد قامت نظرية النسبية بتحويل مفهوم الحركة لنيوتن، حيث نصت أن كل الحركة نسبية، وأن مفهوم الزمن تغير من كونه مطلقاً، إلى كونه نسبياً وجعله بُعْداً رابعاً يدمج مع الأبعاد الثلاثة المكانية فيما يعرف بالزمكان، وجعلت الزمان والمكان شيئاً موحداً بعد أن كان يتم التعامل معهما كشيئين مختلفين، وجعلت مفهوم الزمن يتوقف على سرعة الأجسام وشدة الجاذبية التي يتحرك فيها الجسم، وأصبح تقلص وتمدد الزمن مفهوماً أساسياً لفهم الكون؛ وبذلك تغيرت كل الفيزياء الكلاسيكية حسب مفهوم نيوتن.. نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا بتصرف..

تعالى: وإذا الرسل أقتت، قال الزجاج: جعل لها وقت واحد للفصل في القضاء بين الأمة⁶⁴⁶؛ " (وقته)، (يقته) وقتا جعل له وقتا يفعل فيه ويُقال وقت الله الصَّلَاة حدد لها وقتا، وَبَيَّنَ لَهُ مِقْدَارَ الْمُدَّةِ (..) و الوقت مقدار من الزمن قُدِّرَ لأمرٍ ما⁶⁴⁷..

● مفهومه العلمي:

أما مفهومه الاصطلاحي فيقول خالد فائق صديق العبيدي:⁶⁴⁸ " الوقت أو الزمن هو أصعب الخصائص الكونية في عالمنا على الفهم والاستيعاب، رغم أننا نستطيع أن نصفه كماض وحاضر ومستقبل، ورغم وصولنا لأدق قياس له في الدقائق والثواني، بل وأجزاء الثانية، فإننا لا نستطيع تحديد تعريف واضح له منذ بدء الدراسة الحقيقية لذلك، قبل آلاف السنين ولحد اليوم(..) فليس هناك مفهوم فزيائي محدد للزمن سوى أنه مرتبط بنسبية الحركة، أي حركات الأرض والأفلاك والأجرام حول نفسها أو غيرها، كما تأسس عن خلق الكون ونشأة قوانينه⁶⁴⁹"

"وإن الزمن يختلف باختلاف المكان، فزمن الأرض غير زمن الكواكب تبعا لبعدها عن الشمس وحجمها وسرعة دورانها حول نفسها لتشكيل الليل والنهار، أو حول

⁶⁴⁶ ن: "لسان العرب" مرجع سابق، (2/ 107؛ 108)

⁶⁴⁷ ن: "المعجم الوسيط"، مرجع سابق، (2 / 1048)

⁶⁴⁸ الدكتور المهندس خالد فائق صديق العبيدي، مواليد بغداد/الأعظمية - 1964م، حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الإنشائية / منشآت معلقة، من قسم هندسة البناء والإنشاءات، الجامعة التكنولوجية ببغداد عام 1997م، أستاذ مساعد وعضو سابق في الهيئة التدريسية في قسم هندسة البناء والإنشاءات، الجامعة التكنولوجية ببغداد منذ عام 2003م، ومحاضر سابق في قسم الهندسة المدنية وقسم هندسة البيئة في كلية الهندسة الجامعة المستنصرية ببغداد، رئيس قسم فحوص الخرسانة في مختبرات الأشغال ببغداد عام 2001 م .. وغيرها من المهام

⁶⁴⁹ ن: " علوم وهندسة الزمن في القرآن والسنة" للدكتور خالد فائق، سلسلة الدراسات القرآنية، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: 1، سنة: 2011م، بتصرف، زيادة ونقصا، ص 20

الشمس لتشكيل السنة بفصولها المختلفة"⁶⁵⁰، أي أن الزمان يتأثر بالمكان ويتفاعل معه، وهو ما يُطلق عليه بالزمكان، وقد أشار القرآن إلى اختلاف الزمان باختلاف المكان في آي كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾⁶⁵¹، وقوله تعالى: ﴿تَغْرُجُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره..

وعلى أي فإن الوقت هو: "أسلوب قياس الزمن الأرضي وفق مفهوم ومنظور البشر، وهو ما يكون من زمن الأرض معتمدا على حركاتها الفلكية لتكوّن الليل والنهار والفصول الأربعة"⁶⁵².

ومما سبق يمكن أن نُعرّف الوقت باعتبار موضوعنا - أي العمران - بأنه الوعاء والظرف الزماني الذي يحصل ويتحقق فيه عمران الناس وأعمالهم وحركاتهم واجتماعهم على الأرض.

● مرادفاته:

للوقت مرادفات كثيرة منها: الزمن، والدهر، والساعة، واليوم، والتأريخ.

المسألة الثانية: الوقت إحساس وإدراك

ولتجلية هذا المعنى أكثر فإن العلماء يقولون أنّ الوقت هو: "الإحساس بالزمان، أي الاستجابة العقلية للكائن الحي لدوران الأفلاك وحركاتها بما يجعله متداخلا في معادلة الزمن والمكان ليؤثر ويتأثر، وأن هناك استجابة داخلية تُبرمج هذا الإحساس أطلق عليها

⁶⁵⁰ . نفس المرجع، ص 20، 21 بتصرف كثير.

⁶⁵¹ . الحج: 45

⁶⁵² . نفس المرجع، ص: 23

علميا بالساعة البيولوجية⁶⁵³ (Bio.clock)⁶⁵⁴؛ والعجيب أن هذا الإحساس بالزمن لا يقتصر على الإنسان فحسب، بل يشمل سائر الحيوانات، "فهناك فصائل كثيرة تهاجر وتتزوج طبقا لمواعيد زمنية ثابتة في فصول السنة، وكذلك هجرة الطيور تتحدّد بأوقات زمنية معيّنة من السنة، بل والنبات أيضا، فمعظم النباتات تنفتح أزهارها لتستقبل النحل والفرشات في مواقيت معينة، ولعل سلوك نبات نوار الشمس يوضّح هذا المسألة".⁶⁵⁵

والإحساس بالزمن يختلف باختلاف عمر الإنسان وثقافته وتفكيره وعقيدته، فقد يكون الإنسان متحمّسا لشيء في زمن معيّن يراه بعد مرور الزمن أنه كان مخطئا وساذجا، فأطوار الإنسان دائمة التغيّر تبعا لإدراكات حواسه وتراكم خبرته ونضج تفكيره ثقافته وعقيدته، وعوامل أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها؛ يقول أبو غدة: "فللزمن قيمة عند الفلاسفة غير قيمته عند التجار، وغيرها عند الزّراع، وغيرها عند الصناع، وغيرها عند العسكريين، وغيرها عند السياسيين، وغيرها عند الشباب، وغيرها عند الشيوخ، وغيرها عند طلبة العلم وأهل العلم"⁶⁵⁶..

المسألة الثالثة: قيمة الوقت في القرآن والسنة

ومن رجع إلى المصادر الإسلامية وعلى رأسها الكتاب والسنة وجد الكثير والعديد من النصوص المعنية بالزمن، الكاشفة لكثير من حقائقه وأسراره؛ ويكفي دليلا على ذلك

⁶⁵³ الساعة البيولوجية: هي عبارة عن إحساس ركبّه الخالق تعالى في الكائن الحي يوجد في النواة فوق التصالبية بالدماغ، وهذه الساعة هي التي تجعلنا نشعر بالزمن، وتنظّم إيقاع حياتنا وتحدّد أوقات النوم واليقظة وتشعرنا بالجوع عندما يحين موعد تناول الطعام، وغير ذلك مما يتعلق بحياتنا اليومية، أنظر مثلا بحث: "هدي الإسلام و إيقاع الساعة البيولوجية" د. مصباح سيد كامل، بحث مقدم لمؤتمر الإعجاز العالمي السابع الذي أقيم بدبي 2004 م..

⁶⁵⁴ نفس المرجع، ص: 23.

⁶⁵⁵ نفس المرجع، ص: 137 بتصرف فيه زيادة ونقصا..

⁶⁵⁶ ن: "قيمة الزمن عند العلماء"، للعلامة عبد الفتاح أبي غدة، بإشراف ابنه سلمان، دار البشائر الإسلامية، ط:

13؛ سنة: 1430 هـ / 2009 م. ص: 27

أن ما يتعلق بالزمان وعلاماته في القرآن يعسر إحصاؤه بدقة من كثرته وتنوع أساليبه وأجزائه، والله تعالى سمى سورا بالزمن أو أجزاء منه، أو بما يدل عليه كالقمر والنجم والشمس والفجر والليل والضحى والعصر، وقد حاول أحد الباحثين أن يُحصي بعض ما يتعلق بالزمان في القرآن الكريم فجمع أكثر من أربع مئة موضع⁶⁵⁷؛ وقد بين الله عدة الشهور بقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾⁶⁵⁸، و"الملفت للنظر أن عدد تكرار كلمتي شهر ويوم في القرآن الكريم تعادل عددهما في التقويم السنوي، فكلمة شهر بكل أشكالها اللغوية تكررت 12 مرة في القرآن الكريم، بينما كلمة اليوم (مفرد بكل أشكالها اللغوية) تكررت 365 مرة"⁶⁵⁹

ولبيان أهمية الزمان ودوره العمراني أقسم الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ﴾⁶⁶⁰، والعصر هنا - كما في تفسير ابن كثير - هو "الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر"⁶⁶¹، أي يقع فيه عمرائهم، وفي هذا إشارة قوية إلى أهمية الزمان ودوره في إقامة العمران؛ ولم يكتف المولى عز وجل بالقسم بالزمن جملة، بل أقسم بالعديد من أجزائه، وما ذلك إلا للتأكيد على قيمة الزمن ومركزيته العمرانية؛ فقد أقسم بوقت الضحى في قوله عزّ وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾⁶⁶²،

⁶⁵⁷ ن: "الزمن في القرآن الكريم" إعداد الباحث عودة عبد الله، إشراف الدكتور عبد الرحيم الزقة، رسالة الماجستير في القرآن وعلومه في كلية الدراسات الفقهية جامعة آل البيت، العراق، نوقشت بتاريخ: 24 / 1 / 1999م

⁶⁵⁸ التوبة: 36

⁶⁵⁹ ن: "علوم وهندسة الزمن في القرآن والسنة" مرجع سابق؛ ص: 112

⁶⁶⁰ العصر: 1

⁶⁶¹ ن: "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير؛ مصدر سابق (8/ 375)

⁶⁶² الضحى: 1، 2.

وبالليل والنهار في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ﴾⁶⁶³، و
بالفجر في قوله تعالى: ﴿وَالْبَجْرِ ۖ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۖ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۖ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۖ﴾⁶⁶⁴
هَلْ فِي ذَٰلِكَ فَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۖ﴾⁶⁶⁴؛ وغيرها من الآيات؛ ومن المعلوم أن الله
إذا أقسم بشيء من خلقه، فذلك ليلفت أنظارهم إليه، و يذكرهم بمنفعته..

والمقرر في عقيدة المسلم أن الله تعالى خالق الزمان ومدبره، وخالق علاماته وآياته
وهي الشمس والقمر والنجوم والسُّدُم، وما ينتج عنها من الليل والنهار والشهور والفصول؛
فبالشمس يُعرف الليل والنهار، فتشرق ليبدأ النهار، وتغرب ليبدأ الليل، ويهل القمر ليبدأ
الشهر، ويضمحل لينتهي الشهر، وبالنجوم تعرف الفصول ابتداء وانتهاء، وبها يهتدي
المسافرون، ويزرع الزارعون، وغير ذلك من المنافع العمرانية؛ وكل ذلك من خلق الله
تعالى وتدبيره، وتسخيره لمنافع الأرض ومن عليها، يقول سبحانه ممتنًا على عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ
رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ
ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآيِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ﴾⁶⁶⁵
وَأَتَيْكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ
لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۖ﴾⁶⁶⁵.

فدلت هذه الآيات القرآنية على أن هذه الآيات الكونية مسخرة لمنافع العباد ومصلحتهم
والاستعانة بها في إقامة عمرانهم وتشديد حضارتهم؛ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

⁶⁶³ . الليل: 1، 2.

⁶⁶⁴ . الفجر: من: 1 إلى 5

⁶⁶⁵ . إبراهيم: من 32 إلى 34

يَعْفِلُونَ ﴿٦٦٦﴾؛ والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا ..

وإن من أهم منافع هذه الآيات الكونية ونتائج تسخيرها للبشر حسابُ الزمان، وضبط الأيام والشهور والفصول والأعوام، من أجل استثمار الوقت وتوظيفه في إقامة العمران وبناء الحضارة النافعة للإنسان، التي تعود على المعمّر بالخير والفلاح في العاجل والآجل، ولقد علّل القرآن الكريم خالقية تلك الآيات الكونية بمعرفة التوقيت، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦٧﴾﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن حَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿٦٦٨﴾﴾ ..

وقد جاءت السنة النبوية في أحاديث كثيرة مُعَضِّدَةً لما جاء به القرآن في بيان أهمية الوقت وضرورة الزمان، ووجوب استثمارها عمرانيا وحضاريا، وإن من أهم النصوص التي تؤكد ذلك وتقويه ما رواه الترمذي وغيره بسند صحيح من حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال، عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه) ⁶⁶⁹، فهذا الحديث يدل على أن الإنسان سيُسأل عن أربعة أسئلة محورية، منها سؤال عن عمره كلّ، وآخر عن فترة شبابه، وهو من عمره أيضا؛ وما عمرُ الإنسان

⁶⁶⁶ . النحل: 12

⁶⁶⁷ . يونس: 5

⁶⁶⁸ . الإسراء: 12

⁶⁶⁹ - رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرفائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص 4 / 612 (2417)

إلا مدة معينة من الزمان؛ و حُصّ الشباب من العمر باعتباره مرحلة القوة الدافقة والحوية الزائدة، التي إن وُظّفت أحسن توظيف أسهمت في بناء الأرض و عمرانها روحيا وماديا..

المسألة الرابعة: تقسيم القرآن للزمان مبيّنا وظيفة كل جزء منه

ولاستغلال الوقت وتوظيفه عمرانيا وحضاريا نجد القرآن الكريم والسنة يوظفان الزمان ويقسمانه تقسيما عجيبا يوحي إلى دور الزمان في تشييد العمران و رقي الإنسان، ولنستق مجموعة من الآيات الدالة على هذه المعاني؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا ضَبَّاحَ وَجَعِلَ اللَّيْلُ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٤٧﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر فذ فصلنا آيات لفوم يعلمون ﴿٦٧٠﴾؛ ففي هذا المقطع القرآني يتبين لنا أن الله عز وجل قدر الأوقات وفصل الآيات من أجل توظيفها في تشييد الحضارة، وبناء العمران، وفي موضع آخر يقول عز وجل - موضحا وظيفة كل وقت -: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٥٧﴾ فل آريتم؛ إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم إلفيمة من إله غير الله ياتيكم بضياء أفلأ تسمعون ﴿٥٨﴾ فل آريتم؛ إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم إلفيمة من إله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه أفلأ تبصرون ﴿٥٩﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكروا ﴿٦٧١﴾؛ وهذه آي عظيمة تبين أن الخالق سبحانه أقام هذا الملكوت على قوانين وحكمه بنواميس يجب الرجوع إليها وتوظيفها في تلبية مصالح الناس وإنشاء عمرانهم، ومن هذه القوانين قانون الليل والنهار المحكم بقدرته؛ فقد جعل الله سبحانه دورة يومية

٦٧٠ . الأنعام: ٩٧، ٩٨

٦٧١ . القصص: ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣.

منتظمة مع تعاقب الليل والنهار، فخصّ الليل بالراحة والسكون ، والنهار بالسعي والعمل لإقامة العمران، كل ذلك بفضلِهِ ورحمته؛ يقول الآلوسي - رحمه الله - في روحه: " لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ أَيُّ لَهُ تَعَالَى ذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْمَعْطَى لِمَجْمُوعِ النِّعَمِ بِالذَّاتِ وَمَا سِوَاهُ وَسَائِطُهَا، وَالْمُرَادُ بِالْحَمْدِ هُنَا مَا وَقَعَ فِي مَقَابِلَةِ النِّعَمِ بِقَرِينَةِ ذِكْرِهَا بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ خُلِّفَ عَنْكُمْ أَرْوَاحُكُمْ؟" 672.

وفي موضع ثالث رائع البيان ودقيق الميزان، تشير بعض الآيات إلى أوقات مخصصة لأخذ قسط من الراحة، وما يتعلق بذلك من آداب وأحكام وحِكم، من أجل استئناف العمل بجِد واجتهاد لتحقيق نتائج عمرانية محمودّة؛ ولنستمع لتلكم الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُورٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ 673، فانظر إلى هذا التوقيت العجيب الذي يوحى إلى ضرورة تنظيم الوقت وانتظامه وتوظيفه واستثماره، وما يتبع ذلك من أحكام وحِكم لمن تأمل!!

المسألة الخامسة: الزمن حاضر في تكوين المخلوقات (العمران الإلهي)

إذا كان الإنسان مكلف بإقامة عمرانه بما بيّنت قبل، فهناك عمران إلهي يتجسد في هذه الأكوام المسخرة للإنسان، القائمة بقدرته ورحمته؛ وهذا العمران الإلهي 674 قد أقيم وفق نواميس ثابتة لا تختلف ولا تتخلف، ومن ذلك قانون الزمان، مع أن الله سبحانه قادر على

672 ن: "روح المعاني" مصدر سابق (10/ 312)

673 النور: 58

674 قد سبق أن قسّمت العمران إلى روحي ومادي باعتبار طبيعة العمران ونوعه؛ ويمكن تقسيمه أيضا إلى

عمران إلهي وآخر بشري باعتبار المنشأ للعمران؛ فتأمل!!

أن يخلق من غير زمان، إذ هذه الأكوان - أو ما سمّيته بالعمران الإلهي - أثّر فعله، وفعله سبحانه لا يؤطره زمان ولا مكان؛ كيف؟! وهو سبحانه خالق الزمان والمكان!!

فالله عز وجل الذي يعلم كل شيء وهو القادر على كل شيء لم يعجل في خلق السماوات ولا في خلق الأرض بل جعلها في ستة أيام، ولم يعجل في خلق الأشياء الأخرى، بل نظمها ودبرها أحسن تنظيم وأقوم تدبير كما قال تعالى واصفا نفسه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾⁶⁷⁵، وقال سبحانه: ﴿ - ﴿٥٩﴾ ﴾⁶⁷⁶، وقال عز وجل في خلق الإنسان عبر مراحل زمنية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^{١٢} ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَطْفَةً فِي فَرْارٍ مَكِينٍ﴾^{١٣} ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْفًا - آخَرَ فَتَبَرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^{١٤}⁶⁷⁷ والآيات كثيرة في هذا الصدد، وقد فصلت الأحاديث ذلك تفصيلا عجيبا، أكتفي بسوق حديثين - مخافة الإطالة - في تكوين الإنسان، أولهما حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: "إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد)⁶⁷⁸.

فالحديث واضح في كون خلق الإنسان يتم عبر مراحل زمنية متتالية؛ والحديث الثاني يتحدث عن خلق آدم أبي البشرية، وقد ذكره ابن حجر في الفتح، "باب خلق آدم

⁶⁷⁵ . يونس: 3

⁶⁷⁶ . الفرقان: 59

⁶⁷⁷ . المؤمنون: 12؛ 13؛ 14..

⁶⁷⁸ . متفق عليه..

وذريته"، وهو ما رواه الترمذي والنسائي والبزار وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً: (إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه، حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلِقْتُ لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه من روحه، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك) 679.

فهذا الحديث يدل على أن آدم عليه السلام تم خلقه عبر مدة زمنية، مع أن الله تعالى قادر على الخلق بلا زمن كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ 680 ..

مما سبق نعلم أن خلق الله تعالى للعالم - أي ما سمّيته بالعمران الإلهي - كان وفق قانون الزمان مع أن الله عز وجل خالق الزمان الناتج عن حركة الأفلاك والكواكب كما بينت قبل؛ وهو سبحانه القادر على كل شيء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ 681، ومع ذلك لم يعجل، بل خلق الخلق في أوقات معدودة وهو قادر على خلقها من غير زمن، ولكنه سبحانه جعلها منظمة مدبرة وفق ذلك الناموس العام؛ وقد تكلم العلماء رحمهم الله عن علل ذلك، وفصلوا في ذلك تفصيلات وتفريعات، وكان من أهم ما علّلوا به أنه سبحانه وتعالى أراد أن يعلم عباده ويُرشدَهُم كيف يعملون، وكيف ينظّمون أمورهم ولا يعجلون، ويوظّفون أوقاتهم وأعمارهم فيما يُقيمُ عمرانهم حتى تنتظم مصالحهم، وتستقيم أمورهم على طريقة واضحة تُجلب فيها لهم مصالحهم وتُدفعُ بها عنهم مفسداتهم؛ وقد أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى في آيات كثيرة من الذكر الحكيم، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

679 ن: "فتح الباري شرح صحيح البخاري" مصدر سابق؛ (6/ 364)،

680 يس: 81

681 النحل: 40

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ فِي أَيْسَرِ أَعْمَالٍ ﴿٦٨٢﴾ ، فأخبر سبحانه أنه خلقها على هذا النحو وبهذه الطريقة من أجل ابتلاء العباد المكلفين بالعمران أيهم أحسن عملاً، وأتقن عمراناً، ولن يتحقق ذلك إلا بالعمل وفق سنن الله ونواميسه الكونية التي لا تحابي أحداً، ومنها التريث وعدم العجلة واستثمار الوقت في البناء والعمل، فالذي لا يتدبر الأمور أو يستعجل النتائج يعاقب بالحرمان على وزن القاعدة الفقهية: "من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه" ⁶⁸³؛ ويزداد هذا المعنى وضوحاً وبياناً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ^{٦٨٢} ..

فها أنت ترى معي أنّ الخالق تبارك وتعالى جعل كل ما خلق على الأرض من مخلوقات ونظام بديع - أي العمران الإلهي - من أجل ابتلاء الإنسان المعمر في عمله، أو إن شئت فقل في عمرانه، وما ذلك إلا ليقندي هذا الإنسان المكلف بالعمران بهذا النظام الإلهي البديع من حيث انسجامه وتناسقه ويرى يد الله الفاعلة في هذا الكون وقانونه الساري في كل شيء من الذرة إلى المجرة، ومن العرش إلى الفرش، فينحو هذا المنحى ويقتبس هذا المغزى فيبدع في حركته ويحسن في عمله، ويوظف وقته في تحقيق ذلك، فيكون من المحسنين حقاً، ومن المعمرين صدقاً؛ و بالتالي يقتدي الإنسان في عمرانه بعمران خالقه!!

ولترسيخ هذا يربط المولى تبارك وتعالى وجود الإنسان الخليفة وحياته بنفس العلة فيقول عزّ من قائل: ﴿إِلَهِمَّ خَلِّقْ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

⁶⁸² .هود: 7

⁶⁸³ هذه القاعدة تصلح أن تكون قاعدة عمرانية، وهي قاعدة عظيمة النفع في بابها، لو استنار المسلمون بأنوارها واستثمروها في عمرانهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، لكنهم أهملوها فكان ما كان، والله المستعان!!

وأزعم أن هذه الآية الأخيرة كفيلة بأن توقظ الوسنان وتنبه الغفلان ليدرك بلا مجال للشك فيه أن الإنسان ليس مكلفاً بالعمل فحسب، ولكن بإتقانه أيضاً، وأن وجوده منوطٌ بتحقيق ذلك، وهو ما يقتضي توظيف وقته وزمانه في كل ما يبني عمرانه ويشيد حضارته!!

المسألة السادسة: العبادات تثبت قيمة الوقت العمرانية

إذا ثبت - بما بينت آنفاً - أن خلق الموجودات خاضع لقانون الزمن، ومن المعلوم أيضاً أن الله عز وجل هو صاحب الأمر التشريعي كما هو صاحب الأمر التكويني، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَرَّكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾⁶⁸⁵، فالخلق خلقه والأمر أمره وشرعه، وهذا الأخير يتناسب مع خلقه تناسبا تاما، قال تعالى في إشارة إلى ذلك: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁶⁸⁶..

وإن من أوجه التناسب والتناسق أن أوامره التشريعية - وخاصة العبادات - ترتبط بالوقت والزمن كما ارتبطت به عملية الخلق تماما كما بينت قبل؛ ولعلَّ شعيرة الصلاة أوضح مثال في هذا الشأن، فهي ومثيلاتها من الواجبات التعبدية كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي: "توقظ في الإنسان الوعي والانتباه إلى أهمية الوقت مع حركة الكون، ودورة الفلك، وسير الشمس والكواكب، واختلاف الليل والنهار"⁶⁸⁷..

فأول ما يبدأ به المسلم يومه الصلاة، وتلك هي صلاة الفجر، والفجر وقت!! ذلك بعدما ينادي المؤذن بتلك الكلمات العلوية التي تغرس فيه الإحساس بأهمية العمل وتفاهة

⁶⁸⁴ الملك: 2

⁶⁸⁵ الأعراف: 53

⁶⁸⁶ الملك: 15

⁶⁸⁷ ن: "الوقت في حياة المسلم"، د: القرضاوي، مكتبة وهبة، دون طبعة، ص: 6

الكسل بقوله: "حي على الصلاة" و"حي على الفلاح" و"الصلاة خير من النوم"،
 وحين تزول الشمس عن كبد السماء، وقد انغمر الناس في متاعب الدنيا ولجج المادة،
 يعود المنادي مرة ثانية مكبرا ومهللا، وداعيا إلى الصلاة والفلاح، ونفس الشيء حين
 يصير ظل كل شيء مثله، وكذلك حين تغرب الشمس فتجب صلاة المغرب، والمغرب
 وقت بدء الليل؛ وحين يغيب الشفق ينادي المنادي من جديد للاستعداد للصلاة الخاتمة
 ليوم المسلم، ليخلد المسلم إلى الراحة والسكينة، وهكذا يبدأ المسلم يومه بالصلاة ويختمه
 بالصلاة، وكأن الإسلام يريد من الإنسان أن يجعل وقته كله صلاة، وصلاته كلها وقتا،
 إذ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾⁶⁸⁸؛ والصلاة عمران:
 ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
 الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾⁶⁸⁹

ولفريد الأنصاري رحمه الله كلام نفيس في هذا الباب، أسوقه للاستئناس: "إنما نعبد
 الله بالوقت (..) كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. نَعُدُّه بالصلاة
 عدا؛ ذلك أن الأوقات الخمسة رموز لليوم كله: فجر، فظهر، فعصر، فمغربا، فعشاء
 ..! فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك؟ فالوقت كله إذن هو
 الصلاة! أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمر كله، قلت: العمر كله!
 وإنما فرض الله الصلاة عمرا، لا حركة ولا سكونة إلا صلاة! ألم يفرضها عز وجل أول ما
 فرضها خمسين صلاة؟ ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات! فإثما
 الحسنة في ديننا بعشر أمثالها! " ⁶⁹⁰، هذا نموذج من نماذج العبادات يرتبط بالوقت

⁶⁸⁸ النساء: 102

⁶⁸⁹ التوبة: 18

⁶⁹⁰ ن: "قناديل الصلاة" مرجع سابق، ص: 101،

ارتباطا وثيقا..

وليس هذا خاصا بالصلاة فحسب، بل يُعَمَّ كل العبادات من صوم رمضان فهو شهر في السنة، والزكاة فمن شروط وجوبها مرور الحول، وكذا الحج فهو أشهر معلومات، وهو فرض مرّة في العمر؛ وقد سبق أن بيّنت أنّ العبادة بمفهومها الواسع هي العمران الذي أقصده في هذه الأطروحة، أما العبادات التي أتحدّث عنها الآن - أي ما يقابل المعاملات في عرف الفقهاء - فهي تمثّل العمران الروحي في مقابل العمران المادي، وقد اتضح جليا أن العمران الروحي - أي العبادات - لا ينفكّ عن الزمان، فقد قال فريد الأنصاري - رحمه الله - في كلامه الآنف الذكر: **إِنَّمَا نَعْبُدُ اللَّهَ بِالْوَقْتِ**، أما العمران المادي ممّا يُنشئه المعمّر فهو أيضا لا يمكن أن يتحقق إلا داخل إطار الزمان، إذ العمران فعل، وهذا الأخير يحمل الحدث، والحدث لا ينفكّ عن الزمان، كما يقول النحويون⁶⁹¹ وهو كذلك؛ ومن ثمّ نقول: **إِنَّمَا نَعْمُرُ الْأَرْضَ بِالْوَقْتِ عَلَى وَزَانِ قَوْلَةِ فَرِيدٍ: إِنَّمَا نَعْبُدُ اللَّهَ بِالْوَقْتِ!!**

ومن ثمّ وجب استثمار الوقت واغتنامه في إقامة العمران بشقيه الروحي والمادي، **فضياع الوقت ضياع للعمران وهدم له!!** وهو ما أشار إليه الحديث الشريف: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلّك، وحياتك قبل موتك)⁶⁹²؛ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل؛ وكان

⁶⁹¹ لا خلاف بين النحويين في أن الفعل يدل على الحدث والزمان، وقد اعتبروا هذه الدلالة مميزة لحقيقته عن الاسم والحرف، يقول ابن مالك في شرح التسهيل " **فإن الفعل فعل بدلالته على الحدث والزمان المعين** "، يعني هذا أن الفعل بطبيعته يحمل الحدث والزمن معا، وهما يقتربان به، وقد فرّق النحاة في محتوى هذه الدلالة " فذهبوا الى أن الفعل يدل على الحدث بمادته وعلى الزمن بهيئته، فالحدث يستفاد من مادته، والزمان من هيئته؛ ينظر " **شرح تسهيل الفوائد** " لابن مالك؛ المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، نشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط: 1، سنة: 1410 هـ / 1990 م. (1 / 17)،

⁶⁹² أخرجه الحاكم في المستدرک رقم (7846) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن أبي شيبة رقم (34319) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (1077) ..

ابنُ عمرَ يقول: "إذا أمسيتَ فلا تنتظرَ الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرَ المساء. وخذُ من صحتِكَ لمرضِكَ، ومن حياتِكَ لموتِكَ"⁶⁹³؛ والأحاديث في هذا المعنى كثيرة مفادها أنّ لكل وقت عمله، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد! فإنكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال، فلم تدروا بأيها تأخذون، فأضعتم"؛ وذلك أن الزمن عامل رئيس لانضاج عملية التغيير، ذلك أن التغيير الحقيقي للمجتمعات والأمم والحضارات يتطلب زمنا كافيا حتى يبدو صلاحه، ويؤتي ثماره يانعة وسائغة⁶⁹⁴؛ فيجب على المؤمن أن يوظف وقته لإقامة عمرانه وتشبيد حضارته، وإلا ضيّع وضاع منه كل شيء!!

وأخيرا فتلك أركان أربعة للعمران مكوّنة لماهيته ومقيمة لحقائقه، إن سقط منها واحد لا يُجبر بغيره على وزان أركان الحج التي قال عنها ابن عاشر في منظومته: "أركانه إن تركت لم تُجبر"، ذاك ما اتضح لي بعد استقراء هذا الموضوع وإجالة النظر في زواياه وإعمال الفكر في مجالاته، فإن كنت أصبت فمن الله وحده، فهو المستعان وعليه التكلان!! وإن زلت فمن نفسي القاصرة، ومن الشيطان الضارب في الخاصرة، أعوذ بالله من شرّه وطريقه الفاجرة!

⁶⁹³ أخرجه البخاري رقم: 6416

⁶⁹⁴ ن: " السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم" للأستاذ الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري، كلية أصول الدين - جامعة القرويين - المملكة المغربية، بدون طبعة.

الفصل الثالث

الكون والإنسان

وعلاقتها العمرانية

إن الحديث عن "الكون أو الوجود"⁶⁹⁵ وعلاقته بالإنسان أو علاقة الإنسان به يتطلب منا تريثاً وتأملاً حثيثاً، كما يستوجب إجمالة الفكر في زواياه وإعمال النظر في مسأله، وذلك لتعدد الرؤى والفلسفات والتفسيرات حول هذا الموضوع الذي يجد المتحدث عنه - في الحقيقة - صعوبة في بلورة الأفكار وبنائها للخروج بتصوير صحيح حول هذا الشأن، وبالتالي إعطاء أحكام منسجمة مع الواقع، متفقة مع الحقائق العلمية، حتى تكون علاقة الإنسان بمحيطه وبالكون علاقة توافق وانسجام، لا علاقة تصادم وانتقام؛ ولأجل تحقيق ذلك سأحاول أن أذكر بعض التصورات والمواقف التي عرفتُها الساحة الفكرية في هذا الموضوع، لأستخلص من ذلك النظرة الصائبة التي سأحدّد من خلالها العلاقة العمرانية والواقعية بين الإنسان والكون؛ كل ذلك من أجل التخطيط لعمران كامل وشامل للمفهوم الذي أصّلت قبل⁶⁹⁶، استشرافاً لمستقبل زاهر للأمة، وانتشالاً لها من الوهدة التي تعيشها في وقتنا الحاضر!!

ومن المعلوم أنّه مُذْ أهبط آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، وإلى أن تناسلت ذريته منه، والإنسان يحاول جاهداً أن يستغل موارد بيئته بطريقة أو بأخرى لتلبية ضروراته المعيشية، وإشباع حاجاته المتعددة، حيث كان ذلك مرتبطاً ومتأثراً بطبيعة العلاقة التي بينه وبين البيئة بشكل خاص، وبينه وبين الكون بشكل عام؛ ونظراً لاختلاف التصور الإنساني للكون نتيجة تباين مصادر المعرفة التي يعتمد عليها الإنسان وتعاقب التجارب مع مرور الزمن تنوعت العلاقة بين الإنسان وبين محيطه؛ ممّا يفرض علينا أن تكون أول خطوة للحديث عن هذا الموضوع الشائك - والشائق أيضاً - حول تصور ماهية الكون وحقيقته الوجودية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره؛ وهو ما دأبتُ عليه في كل مسألة من مسائل هذا البحث..

⁶⁹⁵ . والمقصود بذلك ما خلقه الله تعالى من مخلوقات بما في ذلك الإنسان نفسه، وقد يطلق على ذلك

أسماء كثيرة تدل على نفس المقصود؛ من ذلك: الوجود، الكون، العالم، البيئة، الطبيعة وغير ذلك من الألفاظ..

⁶⁹⁶ . ورد ذلك في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب

وسأُنظم هذا الفصل في مبحثين:

- المبحث الأول: الكون ووظيفته العمرانية
- المبحث الثاني: وسائل إعمار الكون

المبحث الأول: الكون ووظيفته العمرانية:

الحديث عن وظيفة الكون العمرانية شائك بقدر ما هو شائق، فدونه خيط القناديل ومن ثمَّ كان لابد من سلوك خطى ثابتة متناسقة الحلقات، متتالية الخطوات؛ تبدأ ببيان مفهوم الكون بُعْدَيْهِ اللغوي والإيماني الشرعي؛ ثم إبراز العلاقة الجدلية بين الإنسان والكون عند مختلف الاتجاهات الفكرية؛ وأخيراً إظهار الدور المنوط بالكون في العملية العمرانية والحضارية للإنسان؛ ذلك ما يتطلب منا ثلاثة مطالب تأتي على المنوال الآتي:

- المطلب الأول: مفهوم الكون وحقيقته الوجودية
- المطلب الثاني: علاقة الإنسان بالكون
- المطلب الثالث: دور الكون في عملية الإنسان العمرانية:

المطلب الأول: مفهوم الكون وحقيقته الوجودية

سبق أن ذكرت في غير ما مرة من هذا البحث أن التصور هو أساس العلم، فهو اللبنة الأولى في كل العلوم، والقاعدة الأساسية لكل الفنون، التي يختل البناء من غيرها، ويتهاوى لفقدائها، وكيف لا يكون كذلك؟! وهو واسطة عقدها، وقلب حقيقتها، ومتى صلح صلحت النتائج، واستقامت الأحكام؛ فإنما يعرف الحق وتتجلى الحقيقة إذا عُرِفَت جميع ذاتياتها أو على الأقل رسومها، وحصول التصور إمّا بهذا أو ذاك؛ فتلك طريقه المسماة بالقول الشارح أو المُعرِّف، كما هو معلوم عند المنطقة، ممّا أفصح عنه الأخضري في سلّمه بقوله:

وَمَا بِهِ إِلَى تَصَوُّرٍ وَصِلْ ×××× يُدْعَى بِقَوْلٍ شَارِحٍ فَلْتَبْتَهِلْ⁶⁹⁷

إذن فما هو الكون وما حقيقته؟!!!

وللجواب عن هذا السؤال كان لابد من النظر إليه من زاويتين: لغوية واصطلاحية؛ وليكن البدء من اللغوية، وإليكمها:

المسألة الأولى: الكون في اللغة:

ترجع مادة "كون" في اللغة إلى معنى الحدوث والوجود؛ والكون في اللغة له دالتان: مصدرية واسمية، وهذه من تلك، أي إن أصل الدلالة الاسمية إنما هو من المصدرية، فأما المصدرية: الكون مصدر "كان" التامة - دون الناقصة - أي التي بمعنى "وُجِدَ" تقول: "كان الشيءُ": أي وُجِدَ وَحْدَتَه، فصار موجودا وحدثا؛ ومنه انتقلت الدلالة إلى جميع مشتقات "كون" ككان الناقصة التي هي من النواسخ؛ فمرجع ذلك كله إلى الحدثان والوجود.

وأما الدلالة الثانية الاسمية؛ فهي الكون: بمعنى الوجود الحادث من سائر المخلوقات والكائنات؛ وقد ذكر ابن منظور ذلك كله مفصلا في اللسان نلخص منه ما يلي: "الْكُونُ: الْحَدَثُ، وَقَدْ كَانَ كَوْنًا وَكَيْنُونَةً (...) وَالْكَيْنُونَةُ فِي مَصْدَرٍ كَانَ يَكُونُ أَحْسَنُ. (...)

⁶⁹⁷ ن: " شرح نظم السلّم في المنطق " للقويسني، مرجع سابق، ص: 17

والكائنة: الحادثة؛ وحكى سيبويه: أنا أعرفك مُد كنت أي مذ خُلقت، والمعنيان متقاربان. [قال] ابن الأعرابي: التَّكُونُ التَّحَرُّكُ، تقول العرب لمن تَشْنُوهُ: لا كان ولا تَكُونُ؛ لا كان: لا خُلِقَ، ولا تَكُونُ: لا تَحَرَّكَ أي مات؛ والكائنة: الأمر الحادث؛ وَكَوَنَهُ فَتَكُونُ: أحدثه فحدث؛ وفي الحديث: (مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنُ) ⁶⁹⁸ (...). وَكَوَنَ الشيء: أحدثه؛ والله مُكَوِّنُ الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود؛ و"المكان": الموضع، والجمع أُمَكِنَة وأَمَاكِنُ، توهَّموا الميم أصلاً حتى قالوا تَمَكَّنَ في المكان (...). وكان ويكون: من الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، كقولك كان زيد قائماً ويكون عمرو ذاهباً، والمصدر كَوْنًا وَكِيَانًا (...). وكان تأتي باسم وخبر، وتأتي باسم واحد وهو خبرها، كقولك كان الأمر وكانت القصة، أي وقع الأمر ووقعت القصة، وهذه تسمى التامة المكتفية (...). وأما قوله - سبحانه وتعالى -: "وكان الله عَفُوًّا غَفُورًا"، وما أشبهه فإن أبا إسحاق الزجاج قال: قد اختلف الناس في كان فقال الحسن البصري: كان الله عَفُوًّا غَفُورًا لعباده، وعن عباده قبل أن يخلقهم، وقال النحويون البصريون: كأنَّ القوم شاهدوا من الله رحمة فأُعْلِمُوا أن ذلك ليس بحادث وأن الله لم يزل كذلك، وقال قوم من النحويين: كانَ وفَعَلَ من الله تعالى بمنزلة ما في الحال، فالمعنى، والله أعلم: والله عَفُوًّا غَفُورًا؛ قال أبو إسحاق: الذي قاله الحسن وغيره أَدْخَلَ في العربية وَأَشَبَّهُ بكلام العرب (...). وروي عن ابن الأعرابي في قوله - سبحانه وتعالى -: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)؛ أي أنتم خير أمة، قال: ويقال معناه كنتم خير أمة في علم الله؛ وفي الحديث: (أعوذ بك من الحَوَرِ بعد الكَوْنِ) ⁶⁹⁹ ويروى "الكور" بالراء وهو صحيح أيضاً، قال ابن الأثير: الكَوْنُ مصدر كان التامة ⁷⁰⁰

وخلاصة القول أن الكون في اللغة يطلق على الحوادث والموجودات أي ما خلقه

⁶⁹⁸ . رواه البخاري.

⁶⁹⁹ . رواه مسلم.

⁷⁰⁰ ن: "لسان العرب" مرجع سابق، مادة: "ك و ن"، بتصرف

الله من العوالم من مثل السماء والأرض والإنسان والحيوان والنبات والطيور، وغير ذلك من المخلوقات..

المسألة الثانية: الكون في الاصطلاح:

حينما تبحث عن مدلول الكون في اصطلاحات العلماء على اختلاف مشاربهم ومجالات بحثهم نجد أنّ "الكون هو مفهوم كلامي تم تأويله بطرق شتى ووفقاً لنظريات مختلفة ومتعددة، وأحد الاتفاقات القليلة حول ماهية الكون من بين النظريات العدة المتبناة من قبل الفلاسفة وغيرهم هو أنّ "مفهوم" الكون يدل على الحجم النسبي لمساحة الفضاء الزمكاني - أي الزماني والمكاني - الذي تتواجد فيه المخلوقات العاقلة وغير العاقلة؛ (..) كالنجوم والمجرات والكائنات الحية؛ وفي تحديد طبيعة هذا الكون تختلف الآراء، فمن هنا تصور الفلسفات المختلفة والعقائد قديماً الكون بصورة معينة، ومن هنالك تظهر الفلسفات والعقائد الجديدة لتأويل مفهوم الكون بصورة أخرى مختلفة، وهذا على صعيد عدة، من ناحية النشوء والتطور، وكذلك من ناحية هل للكون نهاية أم لا ؟!! (..) والكون هو ما وجد ويوجد وما سيوجد"⁷⁰¹

وفي الفيزياء الحديثة تقوم النظرة التفسيرية للكون على: "ركيزتين أساسيتين: الأولى هي النظرية النسبية العامة لألبرت آينشتاين، وهي تمنحنا الإطار النظري لفهم العالم في أبعاده الكبرى: النجوم والمجرات وتجمعات المجرات، وحتى ما وراء المدى البعيد للكون نفسه؛ أما الركيزة الثانية فهي ميكانيكا الكم، وهي التي تزودنا بالإطار النظري لفهم العالم في أصغر أبعاده: الجزيئات والذرات وحتى الدقائق تحت الذرية مثل الالكترونات والكواركات"⁷⁰²

⁷⁰¹ ن: "الكون" لكارل ساغان: ترجمة نافع أيوب لبس، عالم المعرفة العدد 178، الكويت، 1993م، بتصرف، ص:

⁷⁰² ن: "الكون الأنيق" لبرايان غرين، ترجمة فتح الله الشيخ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 01، 2005م،

أما علماء الإسلام فقد ذهبوا إلى أن الكون هو العالم الحادث سواء أكان مُشاهداً محسوساً أم غيباً، وجعلوا الكون كلمة دالة على المخلوق، وفي هذا الصدد يقول أبو الحسن الأشعري⁷⁰³ إمام أهل السنة: "العالم بما فيه من أجناس وأعراض (..) لم يكن ثم كان، وأنّ لجميعه مُحدثاً واحداً"⁷⁰⁴؛ ويقول الآمدي⁷⁰⁵: "الكون خروج الشيء من العدم إلى الوجود دفعة واحدة"⁷⁰⁶ ويقول البستاني "والكون عند المتكلمين: مرادف للوجود..⁷⁰⁷" وقال في التعريفات: "وعند أهل التحقيق الكون عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم لا من

⁷⁰³ أبو الحسن الأشعري (260 - 324 هـ / 874 - 936 م)؛ هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين من الهجرة النبوية، ترجمه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي في كتابه (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي موسى الأشعري) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) وغيرهم.

دخل هذا الإمام بغداد وأخذ الحديث عن أئمة الحديث والفقه، وأخذ علم الكلام عن شيخه زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة..

ولما تبحر في كلام الاعتزال وبلغ فيه الغاية كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد فيها جواباً شافياً فتحير في ذلك..

فحكى عنه أنه قال: وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمّت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم ونمت فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «عليك بسنتي، فانتبهت!! وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار، فأثبته ونبتت ما سواه ورائي ظهرياً

وقال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: "أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد رحمه الله واحدة لا شك في ذلك ولا ارتياب، وبه صرح الأشعري في تصانيفه " اهـ

⁷⁰⁴ ن: "رسالة أهل الثغور" أبو الحسن الأشعري، تحقيق محمد السيد، دار اللواء للتوزيع الرياض، ط 2، 1989، ص 62

⁷⁰⁵ الآمدي، (551-631هـ)؛ هو أبو الحسن سيد الدين علي الثعلبي، أصولي، كان حنبلياً، ثم تحول إلى المذهب الشافعي. قَدِمَ بغداد فتعلم القراءات، وبرع في الخلاف، وتفنن في أصول الدين وأصول الفقه والفلسفة. رحل إلى مصر وتصدّر للإقراء والفقه الشافعي، فتتلمذ عليه خلق كثير. ومن مصر خرج إلى الشام وتوفي فيها. من كتبه: الإحكام في أصول الأحكام، وأبكار الأفكار في علم الكلام؛ نقلا عن الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

⁷⁰⁶ ن: "المبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين" الآمدي، دار المناهل، بيروت، تحقيق عبد الأمير الأعم، ط 1، 1987م، ص 93

⁷⁰⁷ ن: "معجم محيط المحيط"، للبستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ط: 1983م؛ ص 798، 799.

حيث إنه حق، وإن كان مرادفا للوجود المطلق العام عند أهل النظر، وهو بمعنى المكون عندهم.⁷⁰⁸

نخلص ممّا سبق إلى القول: بأن الكون: هو الوجود الطبيعي - وهذا المعنى مشترك بين اللغة والاصطلاح - إذ قد تردّد في اللغة والاصطلاح عبارة: الكون كل ما تكون، أي كل ما حدث من الأشياء، والموجودات جميعا بعد أن لم يكن موجودا؛ وهذا يعني أن الكون: هو كل ما سوى الله تعالى، أي المخلوقات التي خلقها الله تعالى من السماوات والأرض وما بينهما وما اشتملتا عليه، وبهذا المعنى يكون الكون مرادفا للوجود الطبيعي بشكل عام، أي مرادفا للعالم المادي المشاهد المحسوس مضافا إليه عالم الغيب من المخلوقات التي يحس الإنسان بها من خلال آثارها ومظاهرها وإن لم يشاهدها؛ فالكون بمعنى الطبيعة أو بمعنى العالم أو بمعنى المخلوقات جميعها، معنى مجردا عن أي تأثير في الإنسان سلبا أو إيجابا، وهو معنى لم يخرج عن الدلالة اللغوية..

المسألة الثالثة: البعد الإيماني والشرعي للكون

إلا أن المدقق في النصوص الشرعية المتعلقة بالكون يجد أنها أضافت بُعدا شرعيا إلى البعد اللغوي والاصطلاحي، مع البعد الإيماني المرتبط بهذا الكون، الذي لم يتكون من ذاته، وإنما كونه العزيز الحكيم، ولذلك كانت الآيات تثير مشاعر الإيمان في النفوس، وتوقظ التفكير من خلال لفت النظر إلى وحدة الكون في الوجود، وفي النواميس التي يخضع لها الكون، والنظام الذي يكتنف وجوده، والتفاعل بين عناصره، والارتباط الوثيق بين محتوياته، والنسق البديع في حركته، لتأدية الغرض الذي كان خلق الكون من أجله؛ ذلك ما جاء واضحا في آي كثيرة من الذكر الحكيم، من مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا

⁷⁰⁸ ن: " التعريفات " للجرجاني، مصدر سابق، ص: 178، بتصرف

كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٠٩﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْبَغُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٧١٠﴾. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
الْأَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٧١١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٧١٢﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِرُ بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧١٣﴾.

فكل هذه الآي الكتابية المقروءة تربطنا بالآي الكونية الوجودية لإقامة البراهين الدالة
على وجود الخالق سبحانه وتعالى، المدبّر لأمر مملكته، المستوي على عرشه جلّ في علاه،
كل ذلك بُغية القيام بحق الخالقية، وتنفيذ لوازم مسؤولية الخلافة وتجليات وظيفة
العمران!!

وبيانا لهذا المعنى وتقريراً له فقد روى البيهقي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: (تَفَكَّرْتُ سَاعَةً حَيْرٌ
مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ)⁷¹²؛ بل إن القرآن ما أنزل إلا من أجل تدبره والبحث عن حقائقه بُغية
توظيفها من لدن الإنسان في إنشاء عمرانه وبناء حضارته لإسعاده في دنياه وآخرته؛
قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا

⁷⁰⁹ الشعراء: 67

⁷¹⁰ البقرة: 163

⁷¹¹ الروم: 21 - 22 - 23

⁷¹² رواه البيهقي في "الشعب" (117) بسند صحيح عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ . موقوفا عليه.

أَلَا لَبِّبٌ ﴿٧١٣﴾ ، ويقول عزّ من قائل: ﴿لَفَدَّ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْفَلُونَ﴾ ﴿٧١٤﴾ ..

وإنّ من أجمل ما قرأت من آي الله المباركات - وكل آيه مباركة - التي تحث على ما سبق ذكره توجد في سورة يس، ولنستمع إلى تلكم الآيات الناطقات: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٣﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ﴿٣٨﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤٠﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿٤١﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٧١٥﴾

فعلى ضوء ما سبق من نصوص قرآنية يتبين لنا أن التصور الإسلامي عن الكون، يتعدى الوجود الطبيعي، إلى جعله آية من آيات الله، الدالة على البعد الإيماني، بإدراك أن للكون خالقا من العدم، يدبر وجوده إلى أجل مسمى عنده سبحانه وتعالى، وهذا

713 . ص: 28

714 . الأنبياء: 10

715 . يس: من: 32 إلى: 43

ما تدل عليه نصوص القرآن الكريم القطعية التي كثيرا ما تربط بين الوجود الطبيعي، وبين ضرورة الإيمان بالخالق المدبر لهذا الوجود؛ وكثيرا ما يظهر في آيات القرآن الكريم أن الله تعالى لم يخلق الكون وما فيه باطلا أو لهوا أو عبثا، وإنما لحكم بالغة متعددة ومتنوعة، منها الدلالة على وجود الله، ومنها تقوية العقيدة الإسلامية وتركيزها في النفوس، ومنها بيان عظيم قدرة الله تعالى وتنزيهه عن كل مظهر من مظاهر الشرك، ومنها توجيه البشر لعبادة الخالق رب السماوات والأرض وتنفيذ أمره بإقامة العمران وفقا للرؤية الاستخلافية! كما يظهر في قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْبَانِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁷¹⁶

إذن من خلال ما سبق يتضح أنّ هناك اختلافا في التصور الإنساني للكون نتيجة تباين مصادر المعرفة التي يعتمد عليها الإنسان والخلفيات الإيديولوجية والفكرية التي يتبنّاها، وهو ما نتج عنه . أيضا . تنوع العلاقة بين الإنسان وبين محيطه خصوصا والكون عموما؛ وهو ما نُفرد له الحديث في المطلب الثاني من هذا المبحث في الصفحة الموالية:

⁷¹⁶ . فصلت: 52 .

المطلب الثاني: علاقة الإنسان بالكون

قد استحوذت هذه العلاقة على اهتمام الكثير من الدارسين، وعلماء الاجتماع، والفلاسفة الذين اجتهدوا في بيانها ودراستها؛ ويمكن حصر تنوع هذه العلاقة في ثلاثة اتجاهات رئيسية، نوجز الكلام فيها بما يلي: ⁷¹⁷

المسألة الأولى: الاتجاهات الفكرية في تحديد علاقة الإنسان بالكون

1 - الاتجاه الحتمي:

ويذهب أصحابه إلى أنّ البيئة هي صاحبة الكلمة الأولى في تشكيل العلاقة بين الإنسان والبيئة، ويُعطي للبيئة الطبيعية الوزن الأكبر في تحديد هذه العلاقة، فيرى أنّ البيئة الطبيعية المادية قوة ذات تأثير حتميٍّ على الكائنات الحيّة وعقليّاتها ونشاطاتها، بمعنى أنّ الإنسان فيها مسير لا مخير، مغلوب على أمره! يعيش في ظل ضوابط بيئية هي التي تتحكم في نشاطه وتوزيعاته على سطح الأرض، فحياته رهينة لها، ليس للعزيمة ولا للمبادرة أية قيمة، فكل شيء خاضع لعناصر الطبيعة، حتى الأشكال الثقافية في حياة الإنسان تدين بظهورها وتطورها أساساً للمؤثرات البيئية، والحتمية البيئية أو الجغرافية دعوة قديمة كانت من بين موضوعات التراث الإغريقي الروماني التي قدّر لها أن تحيا من جديد على يدي كتاب عصر النهضة في القرن السادس عشر، ومن روادها الأقدمين أرسطو وأبقراط ⁷¹⁸.

ويرى بعض الدارسين أنّ هذا الاتجاه تأثر به ابن خلدون في مقدمته، الذي يرى أنّ المناخ يلعب دوراً في ألوان البشر، وأخلاقهم، وطبائعهم، فيقول في وصف سكان المناطق المعتدلة: "وسكانها من البشر أعدل أجساماً، وألواناً، وأخلاقاً، وأدياناً، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن

⁷¹⁷ ن: "البيئة والإنسان" لعبد المقصود زين الدين، منشأة المعارف بالأسكندرية؛ بدون طبعة، ص 9.

⁷¹⁸ - كان الفلاسفة اليونانيون يعبرون عن ذلك بسيطرة الآلهة

الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم⁷¹⁹

ولم يكن الفكر الحتمي مبلورا كنظرية أو فلسفة واضحة المعالم حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما أعلن فردريك راتزل الألماني الجنسية (1844م - 1904م) مبدأ الحتمية في علاقة الإنسان مع بيئته، و" أنه يعيش في بيئة تؤثر فيه تأثيرا كبيرا، وعليه أن يتكيف مع بيئته، ويعيش على ما تجود به من موارد، وقد كان لنظرية النشوء والارتقاء لداروين بالغ الأثر في تفكير راتزل حيث تجلّى ذلك في كل أعماله، فالإنسان في رأيه - كالنبات و الحيوان - هو من نتاج البيئة ومحكوم بها في نشاطاته وتطوره وآماله؛ ومما يدعو للتساؤل أن هذا المذهب الجبري ازدهر في القرن التاسع عشر رغم أنه كان قرن الهجرات الواسعة والنشاط الاستعماري، وفترة بان فيها التغيير البيئي في كل ركن من أركان العالم⁷²⁰؛ ولقد قوبلت النظرية الحتمية بمعارضة ونقد شديدين، وخاصة من قبل علماء الاجتماع والتاريخ؛ لأنها تفتقر إلى الواقعية، ويمكن القول بأن صدق الحتمية البيئية يقتضي أن تسفر البيئات الطبيعية المتشابهة عن حضارات وثقافات ونظم وطباع واحدة لساكنيها..

فالنظرية تحاول تعليل التباين الملحوظ بين الناس في الصفات والسلوك بافتراض علاقة سببية ثابتة ودائمة كالعلاقة بين العلة والمعلول، ولكن لا دليل على ثبات هذه العلاقة ودوامها، ويؤيد ذلك اختلاف الحضارات في البيئات المتشابهة؛ فمع التسليم بأن المحيط الطبيعي يؤثر في تكوين حضارة الإنسان وثقافته، إلا أنه من الصعب بل من المستحيل بيان لماذا تبدي حضارة ما نوعا من التكيف، بينما تستخدم حضارة أخرى نوعا آخر

⁷¹⁹ ن: " المقدمة " مصدر سابق، ص 103

⁷²⁰ ن: " قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور، إيكه هولنكرانس، ترجمة الجوهري دار المعارف بمصر، ص

175؛ و"الطبيعة والنفس البشرية"، لسعيد الحفار، هيئة الموسوعة البشرية، دمشق، ط: 2002م، ص: 85

و"البيئة والإنسان"، عبد المقصود: مرجع سابق ص 9 . 10

وبطريقة أخرى في نفس البيئة الطبيعية، وهذا يعني "أن البيئة ليست العامل الوحيد في تحديد اتجاه الحضارة، وأن الإنسان ليس بالعنصر الخامل، فله من الخصائص ما يجعله حرا تجاه عناصر البيئة المختلفة، ولا توجد هنالك في الطبيعة ضروريات أو حتميات بل هناك دائما إمكانيات، وبما أن الإنسان سيد الإمكانيات فإنه هو الذي يحدد ما يستعمله منها، لذا فإن هذه الفلسفة وما انبثق عنها من آراء لم يكتب لها الاستمرار طويلا، لا سيما وأن حضارة القرن العشرين قد أظهرت أن للإنسان من الطاقات والقدرات ما لا يمكن أن تقيده بها فلسفة مثل فلسفة حتمية البيئة الطبيعية، وبذلك ظهرت فلسفة مناهضة للحتمية سميت بالإمكانية"⁷²¹

2 - الاتجاه الإمكاني:

وترى أن الإنسان ليس عبدا للبيئة، وإنما هو سيدها والمستخلف عليها، فهو يختار من بين إمكانياتها ما يشاء تبعا لمستواه الحضاري والتقني، وترتكز فلسفة هذه المدرسة على أن البيئة الطبيعية تقدم للإنسان عددا من الاختيارات، وأن الإنسان بمحض إرادته يختار منها ما يتلاءم مع قدراته وأهدافه وطموحاته وتقاليده!

ويرى أرباب هذه الفلسفة أنه: "ما من بيئة لم تمتد إليها يد الإنسان بالتعديل والتغيير والتحرير، ولا تكاد توجد بيئة ما لم تتضمن آثار وبصمات أنشطة الإنسان، فالبيئة لم تعد مظهرا طبيعيا وحسب، بل هي أيضا مظهر إنساني وعمراني وحضاري في نفس الوقت، ومن ثم ليس هناك حتمية مطلقة بل هناك إمكانية مرنة، وبما أن الإنسان هو سيد البيئة والمسيطر عليها فهو الذي يحدد نمط استغلاله لموارد بيئته؛ ولم تسلم هذه النظرية من الانتقادات لأنها - كما الحتمية - غالت فيما ذهبت إليه فإن الإنسان ليست له كل الحرية في تغيير بيئته، إذ هي ما زالت تضع حدودا لم يستطع أن يتعدها، فهو على

⁷²¹ ن: "مدخل إلى العلوم الاجتماعية" مهنا حداد، دار مجدلاوي، الأردن، ط1 / 1992م، ص: 262..

و"تاريخ الحضارة الإنسانية" محمد عبد القادر خريسان وآخرون، دار الكندي ومؤسسة حمادة، الأردن، ط 1، دون تاريخ، ص: 64 - 65

سبيل المثال لم يستطع أن يستقر في المناطق المتجمدة، ولا فوق الجبال المغطاة بالثلوج، ولا فوق الكثبان المتحركة، والبيئة إلى حد ما تفرض عليه أسلوب المعيشة أو نمط الحياة، فقلة الأمطار مثلاً وقلة المياه لا تسمح بالاستقرار ولكن تؤدي إلى الترحال والانتقال⁷²² وفي مواجهة هذا التعصب بين أنصار كل من الاتجاهين الحتمي والإمكاناني كان لا بد أن يظهر اتجاه أو مذهب جديد وسطي بين طرفين يحاول التوفيق بين آراء الاتجاهين فكان الاتجاه التوافقي أو التوفيقي.

3- الاتجاه التوفيقي:

ويرى أصحابه أن هناك تأثيراً متبادلاً بين البيئة ومكوناتها فليست هناك حتمية مطلقة ولا إمكانية مطلقة، وإنما الاحتمالات قائمة في بعض البيئات لكي يتعاظم الجانب الطبيعي في مواجهة سلبيات الإنسان وقدراته المحدودة (حتمية)، وفي بيئات أخرى يتعاظم دور الإنسان في مواجهة تحديات ومعوقات البيئة (إمكانية).

والأساس الذي تركز عليه هذه الفلسفة هو: " أن البيئات الطبيعية ليس ذات تأثيرات واحدة على الإنسان، وأن الإنسان من منطلق اختلاف كثافته ودرجة تحضره ليس ذا تأثير واحد في كل البيئات الطبيعية المتشابهة، وبعبارة أخرى فإن البيئة نوعان: بيئة صعبة تحتاج إلى جهد كبير وتحضر من جانب الإنسان ليتمكن من استغلال مواردها، وبيئة سهلة ميسرة تستجيب لأقل جهد يبذل دون عقبات؛ والإنسان بالمقابل يمكن أن يصنف في مجموعتين: الإنسان الإيجابي الذي يملك قدرات وكفاءات تمكنه من استغلال موارد البيئة والاستفادة منها، والإنسان السلبي الذي تقف قدراته دون ذلك، ومن خلال هذه التصنيفات يمكن تحديد درجة الإمكانية أو الحتمية في علاقة الإنسان مع أي بيئة من البيئات، فإذا ما اقترنت بيئة صعبة مع إنسان متخلف فإن الحتمية تبرز بشكل واضح، ولكن إذا ما اقترنت بيئة سهلة مع إنسان متطور فإن الإمكانيات تبرز بشكل أوضح؛

⁷²² ن: "جغرافية التنمية والبيئة" عيسى إبراهيم وأبو راضي، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1 سنة 2004؛ ص

201 - 205؛ بتصرف؛ وعبد المقصود: "البيئة والإنسان" مرجع سابق ص: 11

وهكذا تتحدد علاقة الإنسان بالبيئة على أساس طبيعة البيئة من ناحية، ونوعية الإنسان من ناحية أخرى⁷²³

المسألة الثانية: علاقة الإنسان بالكون في الفكر الإنساني في العصر الحديث:

أما إنسان الحضارة الحديثة، فقد دأب منذ مطلع العصر الحديث على أن يتخذ من السيطرة على الطبيعة هدفا لكل نشاط يقوم به في ميدان العلم والمعرفة بوجه عام، ولقد كان لهذا الهدف ما يبرره في الظروف التي ظهر فيها، إذ كان شعار عصر جديد - عصر النهضة - يريد أن يفهم العالم ويتحكم في الطبيعة عن طريق معرفة قوانينها⁷²⁴ بعد أن تحرر من الدين الذي كان يعيق حركة العلم آنذاك ممثلا في رجال الدين؛ وأصبح ذلك عاملا قويا من العوامل التي تشجع العالم على فهم الطبيعة، والاستفادة من ثرواتها إلى أقصى حد ممكن، ومن هنا اصطبغت تلك الفترة بطابع الحرص على المكاسب، والسعي إليها بكل قوة⁷²⁵، دونما ضوابط أخلاقية أو مبادئ دينية .

يقول أحدهم في تصوير هذه العلاقة مع الطبيعة: "إن علاقة الناس بالطبيعة اتسمت بالعداء الألد، فنحن من نزوات الطبيعة، فظروف وجودنا تجعلنا جزءا منها، وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها(..) وأتجهنا نحو إخضاعها وقهرها وتحويلها لخدمة أغراضنا إلى أن أصبح هذا القهر مرادفا لتدبير الطبيعة؛ إن روح العداء والإخضاع أعمتنا عن حقيقة أن للموارد الطبيعية حدودا يمكن أن تنفذ، وأنه سيأتي اليوم الذي ستردّ فيه الطبيعة على جشع الإنسان؛ إن المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة، ويحتقر كل ما ليس من صنع

⁷²³ ن: "الطبيعة والنفس البشرية" لسعيد الحفار، مرجع سابق؛ ص 84؛ و"البيئة والإنسان"، عبد

المقصود: مرجع سابق، ص 12 - 13

⁷²⁴ ن: "الموسوعة البيئية العربية" لسعيد الحفار، جامعة قطر، ط: 1998م، (1 / 72).

⁷²⁵ ن: "الإنسان والحضارة في العصر الصناعي"، فؤاد زكريا، مطبعة الاعتماد بمصر مركز كتب الشرق الأوسط ط

1 / 1957م، ص 75 - 76

الآلة⁷²⁶.

"وقد أدى التطرف في تطبيق شعار السيطرة على الطبيعة في عصرنا الراهن إلى انتشار رغبات جامحة في الاستهلاك الذي يصل إلى حد التبديد"⁷²⁷، "والوقوع في جنون التوسع والانتشار في جميع المجالات، وأخذ يظهر للكثيرين بوضوح أن هذا النمو الجنوبي لو استمر بهذا المعدل لأدّى إلى دمار العالم، أو استنفاد موارده التي لا يمكن تجديد الكثير منها أو تعويضه، وهكذا بدأ عدد كبير من المفكرين في الدول المتقدمة يرفعون أصواتهم محذرين ومشككين في جدوى فكرة السيطرة على الطبيعة بالمعنى الذي استخدمت به منذ بداية العصر الحديث، داعين إلى الاستعاضة عنها بفكر التعاون مع الطبيعة"⁷²⁸..

"ولعل الموقف الذي يدافع عنه هؤلاء المفكرون هو أنّ العلاقة بين الإنسان والطبيعة ينبغي ألا تظلّ علاقة قهر وسيطرة، بل عليه أن يساير الطبيعة ويتعاون معها حتى لا يقضي على مواردها وعلى نفسه أيضاً، وهذا يقتضي من الإنسان مراجعة شاملة لأهدافه من الحياة، يحدّد فيها نوع الغايات التي يسعى إلى تحقيقها ليضع على وفق ذلك خطته"⁷²⁹، التي يؤسس بها لمستقبله عساه يقيم بذلك عمرانه المنشود ويُنشئ صرح حضارته المعهود، وهو ما تغيّاه الإسلام في شريعته الغراء، عبر نصوصها التشريعية ومقاصدها الأصلية؛ فكانت بذلك علاقة الإنسان بالكون والطبيعة في المنظور الإسلامي

⁷²⁶ ن: " التنمية والبيئة "، شوقي دنيا، رابطة العالم الإسلامي، مكة، 1414هـ، ص 28

⁷²⁷ يقول إريك فروم في كتابه " الإنسان بين الجوهر والمظهر " حول هذه الظاهرة: " أما اليوم فإننا نشهد تأكيداً دائماً على الاستهلاك على الحفظ، أصبحت الأشياء تشتري لكي ترمى، فأيا كان الشيء الذي يشتري فإن الشخص سرعان ما يملّ منه ويصبح توفّقاً للتخلّص من القديم وشراء آخر موديل " طراز"، وتصبح الدورة كالأتي: الحصول على الشيء، ملكية قصيرة الأجل واستخدام عابر، رمي الشيء والتخلص منه، الحصول على شيء جديد. وتلك هي الدائرة الخبيثة، دائرة الاستهلاك، الشراء. وشعار اليوم يمكن أن يكون بحق هو: ما أجمل الجديد" إريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر " نتملك أو نكون " ترجمة سعيد زهران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط / 1989، ص 74.

⁷²⁸ ن: " الموسوعة البيئية العربية " لسعيد الحفار، مرجع سابق. (72 / 1)

⁷²⁹ نفس المرجع (72 / 1).

علاقة حب تتسم بالاتزان والتفاعل الإيجابي للوفاء بالأمانة التي حُمِّلها الإنسان من لدن الملك الديان؛ وهو ما سنُعرِّج عليه في المسألة الموالية.

المسألة الثالثة: علاقة الإنسان بالكون في الإسلام:

إن الكلام عن طبيعة هذه العلاقة في الإسلام يتطلب منا - من أجل الاختصار - تحديد القواعد والأصول التي دلّ عليها القرآن والسنة، والتي من خلالها تتضح الرؤية الإسلامية لهذا الكون وبالتالي تُنظَّم وتُسيَّر علاقة المسلم بمن وما حوله، فيستلهم الرؤى والقناعات التي تنطلق منها وتبني عليها الأعمال والتعاملات، وتحدّد مهمته على الأرض.. ويمكن إجمال تلك القواعد فيما يلي:

أولاً: الكون خلق الله وملكه:

فكلُّ هذا الكون الواسع البديع هو من صنع الله تبارك وتعالى، فالله سبحانه الذي خلق الإنسان نفسه وسوّاه ونفخ فيه من رُوحه، فالإنسان وما حوله صدر عن الإله الواحد الأحد، يقول عز وجل: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ٦٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ٦٣ وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٦٤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦٥ ﴾ 730 ، وكلُّ ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، بل وما تحت الأرض هو ملك لله وحده، قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ١ ﴾ 731 ؛ ولذا له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ٢ ؛ ولذا يقف المسلم من الطبيعة "موقف التعرّف والصدّاقة، لا موقف التخوّف والعِداء ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيّته، محكومتان بإرادة الله ومشيّته،

730 . النحل: 3-6

731 طه: 4 . 5

متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه؛ إن عقيدة المسلم توحى إليه أن الله ربّه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً، وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها، ويتعرّف إليها، ويتعاون وإياها، ويتّجه معها إلى الله ربه وربّها"732

ثانياً: الكون كله عابد لله خالقه:

وذلك الكون الفسيح فوق كونه صادراً عن الإله الواحد وملك له، ويشترك مع الإنسان في أصل الخلق، فإنه يشترك مع المسلم في عبادته لهذا الإله؛ فكل ما في السموات والأرض خاضع لله طائع له، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾733 وكل تلك الأرجاء والأنحاء والمخلوقات تسجد لله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾734؛ كما أن تلك السموات كلّها وهذه الأرض، وكل ما يشتملان عليه من كائنات ومخلوقات، جميعها تُسَبِّح لله تبارك وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً﴾735.

بهذه الرؤية يُصبح الكون في وجدان المسلم صديقاً أنيساً، يتجهان معاً بالخضوع والخشوع والطاعة إلى الله الواحد عز وجل!!

732 ن: " في ظلال القرآن" للسيد قطب؛ دار الشروق؛ ط: الثانية والثلاثون، سنة: 1423 هـ/ 2003 م (25/1)

733 فصلت: 11.

734 الحج: 18.

735 الإسراء: 44.

ثالثاً: أمم أمثالكم

فالمسلم يدرك من خلال القرآن أنّ الكائنات التي حوله هي أمم أخرى مثل أمّة البشر، فهذه الدواب على الأرض، وتلك الطيور التي تسبح في السماء، هي عوالم أخرى ما أشدها شبهاً بعالم البشر! قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾⁷³⁶؛ وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم: "وهذا يتضمّن أنّها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنّها لم تُخلَق سدى، بل هي مُعبّدة مذلّلة، قد قُدِّرَ خَلْقُهَا وأجلها ووزقها، وما تصير إليه"⁷³⁷ وقال القرطبي في تفسيره: "أي هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تُجاوزوا فيهم ما أمرتم به"⁷³⁸ وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أُحْرِقْتَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ)⁷³⁹..

كلّ ذلك "من أجمل ما جاء به الإسلام في علاقة الإنسان بالطبيعة وبالكون عامّة من حوله: إنشاء عاطفة الودّ والحب لما حول الإنسان من كائنات جامدة أو حية؛ فالأحياء من الدوابّ والطيور يراها المسلم أمماً أمثالنا"⁷⁴⁰

رابعاً: كلّ شيء خلقناه بقدر

⁷³⁶ الأنعام: 38

⁷³⁷ "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل"؛ لابن القيم؛ الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان

الطبعة: 1/1398 هـ/1978 م، ص: 41

⁷³⁸ ن: "الجامع لأحكام القرآن" مصدر سابق (419/6)

⁷³⁹ البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم: 3319

⁷⁴⁰ ن: "رعاية البيئة في شريعة الإسلام" يوسف القرضاوي؛ مرجع سابق، ص: 29،

إن هذا الكون وما فيه من مخلوقات كثيرة وعجيبة هو دليل ساطع وقاطع على قدرة الله الذي خلق وأبدع، وبهذا الدليل حاجَّ الله عز وجل المشركين والملحدين؛ فقال: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِۦٓ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾⁷⁴¹، وفوق هذه الكثرة والتنوع ذلك التوازن الدقيق، الذي انتظمت فيه هذه العوالم الكثيرة من الكائنات، لقد أخبر سبحانه أن هذا الخلق العظيم مخلوق بعناية وبقدر: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾⁷⁴²، ومن معاني القدر في الآية المقدار في ذاته وصفاته، كما قال أبو حيان: "أي أن كل شيء خلقه الله سبحانه محسوب مقداره في النوع وفي الخصائص؛ فعالم النبات عالمٌ موزون ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْفَيْنَا بِهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾⁷⁴³؛ " وكذلك عالم الحيوان خلقه الله وأبدعه، ثم قدر لكل نوع طرائق معيشته وسبل ارتزاقه، قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾⁷⁴⁴،⁷⁴⁵ قال الحسن⁷⁴⁶ وقتادة⁷⁴⁷: أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه⁷⁴⁸..

خامسا: تسخير الكون للإنسان:

فالكون بكل أجزائه ومكوناته مُسَخَّر من قبل الله عز وجل لخدمة الإنسان، وتدبير

⁷⁴¹ لقمان:10

⁷⁴² [القمر:49]

⁷⁴³ الحجر: 19

⁷⁴⁴ طه:50

⁷⁴⁵ ن: " تفسير البحر المحيط" أبو حيان الأندلسي؛ المحقق: صدقي محمد جميل؛ الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة:

1420هـ (182/8)،.

⁷⁴⁶ الحسن البصري: هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري [21 110هـ / 642 728م]، كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، وُلِدَ بالمدينة، وتوفي بالبصرة. ان: ابن خلكان؛ وفيات الأعيان: (2/ 69-72).

⁷⁴⁷ قتادة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري [61-118هـ]، كان مُفسِّراً وحافظاً، وعالمًا بالعربية وأيام العرب والنسب، مات بواسط في الطاعون. انظر: الذهبي؛ سير أعلام النبلاء: (5/ 269-) وابن خلكان؛ وفيات الأعيان: (4/ 85-86).

⁷⁴⁸ ن: " الجامع لأحكام القرآن" القرطبي: (11/ 204).

أسباب عيشه، وتحقيق رفاهيته وأمنه، بحيث تلتقي غايات المخلوقات جميعا وأهدافها لتحقيق غاية الإنسان وأهدافه؛ وعند استقراء آي القرآن الكريم نُلفي هذا الأخير يستخدم ألفاظا كثيرة ومتنوعة كالتسخير والتذليل والتمكين وما شابه ذلك للتعبير عن طبيعة علاقة الكون بالإنسان المتمثلة في إخضاع الكون وتسخيره للإنسان من أجل قيام الإنسان بعملية العمران للقيام بأمانة الاستخلاف: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾⁷⁴⁹، ويقول عزّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٠﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧١﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاجِبُ وَمَشَارِبٌ أَفْلَا يَشْكُرُونَ﴾⁷⁵⁰ وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا فَلْيَلَّا مَّا تَشْكُرُونَ﴾⁷⁵¹، وقال أيضا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاْمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾⁷⁵²..

وبناء على ضوء آيات التسخير يبدو جليا أنه لم تكن علاقة الإنسان بالكون والبيئة علاقة صراع وتصادم، بل توافق وانسجام، ممّا يدحض الاتجاه الحتمي الذي يزعم أصحابه أنّ الكون قاهر للإنسان، وأن هذا الأخير مسير لا محير، مغلوب على أمره، فحياته رهينة بذلك، وليس للإنسان يد في الإبداع أو الابتكار!!

كما أن ما سبق ذكره من آيات كريمة تجعل "الإسلام يعقد صداقة قوية بين الكون

⁷⁴⁹ لقمان: 19

⁷⁵⁰ يس: 70، 72

⁷⁵¹ الأعراف: 9

⁷⁵² الملك: 15

والإنسان، صداقة الأخوة في الصدور عن الله عز وجل وقد كشف العلم الحديث عن وحدة البناء في الكون والحياة والإنسان، وصداقة العبادة المشتركة والتسبيح المشترك لله سبحانه، وصداقة الإحساس بتسخير الكون لمنفعة الإنسان، ويوقع نعمة الحب للكائنات الحية التي تشارك الإنسان سكنى الأرض⁷⁵³..

وزبدة القول ولله أن التصور الكامن في وجدان المسلم للكون: أنه من خلق الله ومملكه؛ وأنه عابد خالقه متناغم مع الإنسان في تسبيحه؛ وأن عوالم تلك الكائنات من حوله تماثل الإنسان في كثير من خصائصه مما يدل على الانسجام والترابط بينها وبينه، وأن هذا الكون بكل مكوناته تجلّ من تجليات قدرة الله الذي خلق كل شيء بقدر، وأنه مخلوق لمصلحة الإنسان ومسخر لمنفعته.

وأخيرا فإن هذا التصور يدفع بالإنسان المعمّر إلى أن يتخذ من نعم الله تعالى
المبثوثة في الكون أدوات بناء وإصلاح وتعمير لتحقيق وظيفته المنوطة به، ألا وهي
عمران الأرض روحيا وماديا!! وهو ما تُفرد له الحديث في المطلب القادم

⁷⁵³ ن: " منهج التربية الإسلامية" محمد قطب، دار الشروق، بيروت، طبعة: 1417هـ / 1997م؛ ص: 145

المطلب الثالث: دور الكون في عملية الإنسان العمرانية:

إن الحديث عن هذه النقطة مبني عمّا سبق ذكره - خاصة مطلب علاقة الإنسان بالكون - وليبيان هذه المسألة وضبطها قدر الإمكان - إذ الموضوع متشعب الأطراف - كان لابد من تأطيرها بثلاث نقاط نجعل كل واحدة منها تحت مسألة معيّنة تأتي على الشكل الآتي:

المسألة الأولى: الإنسان مكلف بالعمران

ذكرتُ في غير ما مرة وأكثر من سياق أن الإنسان خُلق - كما ذكر الراغب الأصفهاني⁷⁵⁴ - لتحقيق مقاصد ثلاث: العبادة والعمران والخلافة؛ وبينت أيضاً أن العبادة والعمران وجهان لعملة واحدة وهي القيام بأمانة الاستخلاف⁷⁵⁵، وها الآية ناطقة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁷⁵⁶،

وإذا كان العمران بتلك القيمة الوجودية والتشريعية أيضاً، وكان الإنسان مكلفاً بالقيام بذلك مُذ اللحظة الأولى، فإن الخالق سبحانه وتعالى لم يتركه هملاً، بل زوّده بطاقات جبارة ومؤهلات عظيمة، جعلته قادراً على القيام بتلك المهمة التي عجزت السموات والأرض والجبال: ﴿أَنْ يَّحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾⁷⁵⁷ بما أوتي من أسرار إلهية في تكوينه وخلقه جعلت منه إمام هذا الكون - على حد تعبير النورسي - وخلاصته في خلقه وتسويته، فالكون كلّ مجموع فيه، حتى قيل:

وتزعم أنك جرّم صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة العجيبة بأسلوب أَخَّاذٍ حين قَرَنَ بين آيات الآفاق

⁷⁵⁴ ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، مصدر سابق، ص: 82

⁷⁵⁵ ن: المطلب الثاني بعنوان (مفهوم العمران في الاصطلاح) من المبحث الثاني في الفصل الأول من هذا الباب..

⁷⁵⁶ البقرة: 29

⁷⁵⁷ الأحزاب: 72

وآيات النفس البشرية، وجعلهما يُنتِجان نفس الثمرة، وهي الدلالة على الحق في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقْبَابِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾⁷⁵⁸

وقد ذكر الراغب الأصفهاني - رحمه الله - كلاما في هذا المعنى، سبق أن ذكرته أعيد بعضه⁷⁵⁹ هنا للحاجة إليه "وقالت الحكماء: قد ركب الله الإنسان تركيبا محسوسا معقولا، على هيئة العالم وأوجده شبيه كل ما هو موجود في العالم حتى قيل: الإنسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير"⁷⁶⁰؛ ويقول في موطن آخر مبرزاً فضل الإنسان عن غيره من الأحياء: "للإنسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه:

أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتمييز والرأي، فإن البهائم وإن كانت كلها تحس وبعضها يتخيل، فليس لها فكر ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم، ولا تعرف علل الأشياء وأسبابها، وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية، وإنما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة وأقواها في ذلك الفيل والقرد.

وأما فضله في جسمه فباليد العاملة، واللسان الناطق، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)، وبقوله: (وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ)؛ ولم يعن الصورة التخطيطية فقط، بل عناها والصورة المعقولة، ولتشريفه تعالى إياه بذلك قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

⁷⁵⁸ فصلت: 53

⁷⁵⁹ ن: المطلب الأول عند الحديث عن الإنسان باعتباره ركناً للعمران من المبحث 3 في الفصل 2 من هذا الباب ص 209 وما بعدها.

⁷⁶⁰ ن: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"؛ مصدر سابق ص: 73

عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَفْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٦١﴾ ٧٦٢؛ إلى آخر ما قاله..

ويقول العلامة سعيد النورسي، في مثل هذا المعنى: "إن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه، وكونه حيوانا من الحيوانات؛ ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويجوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة." ٧٦٣!!

فيُفهم من كلام النورسي أن الإنسان مُنَحَّ طاقات جبارة أهله لأن يكون مكلفاً بعملية العمران؛ قادرا على خوض غماره والصبر على تبعاته، ومن ثمَّ كان الإنسان أهمَّ عنصر مكوِّن للحضارة المنشودة والعمران المقصود؛ وقصة خلق الإنسان الواردة في القرآن تدل على كل هذه المعاني التبريزية للإنسان عن غيره، حيث خلقه البديع سبحانه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، فاستحق بذلك أن يُسجد له ملائكته، إيدانا بفضلِهِ وقُدسيته: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ٧٦٤!!

ونترك القرآن الكريم يسرد لنا الحوار الدائر بين الخالق جل جلاله وملائكته حول خلق آدم - عليه السلام - وأحقّيته بالخلافة في الأرض، ففيه غنية لما ننددُ حوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِيَّةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ فَالَوْ أَتَجَعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْشُ نُسُخُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِيَّةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَالَوْ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

٧٦١ . الإسراء: ٧٠

٧٦٢ . نفس المرجع، ص: ٧٣

٧٦٣ . ن: "إشارات الإعجاز"، مرجع سابق، ص: ١٤٩

٧٦٤ . القصص: ٦٨

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنِيئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٧﴾ 765 ..

ويزيد العلامة النورسي إيضاحاً لهذا وبياناً في موطن آخر تشدّد لمثله الرحال: "لا يخطرُ على بال أحد، فيقول: ما أهمية هذا الإنسان الصغير وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة، وتفتح دنيا أخرى لمحاسنته على أعماله؟ لأن هذا الإنسان، هو سيد الموجودات، رغم أنه صغير جداً؛ لما يملك من فطرة جامعة شاملة؛ فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة، ومظهرها؛ لذا فإن له أهمية عظيمة" 766

ويقول الأنصاري فريد معلقاً على كلام سعيد: "إن تفكر بديع الزمان في الكون، وتدبره للقرآن، أوصلاه إلى نتيجة عظيمة، هي ظاهرة من نصوص القرآن، لكنها كثيراً ما تخفى علينا؛ هي: أن الإنسان مخدوم في هذا الكون غير خادم! ألا ترى أن كل شيء مما في الأرض أو في السماء إلّا وله علاقة خادمة لوجود هذا الإنسان بصورة مباشرة، أو غير مباشرة؟ بدءاً من الملائكة إلى أدق الخلق من الحشرات والجراثيم؛ فالملائكة هي المكلفة من لدن رب العالمين - بعد السجود لآدم - عليه السلام - بنفخ الروح في الجنين، وبحفظة قبل ولادته وبعد ولادته، وبكتابة عمله، وبقبض روحه... إلخ. ثم كل شيء من الحيوانات بعد ولادته والحشرات والجراثيم مسخرات في إنتاج طعامه وشرابه وتهية رزقه، والحفاظ على توازن بيئته، ومحيطه الفضائي... إلخ. ولا يضره شيء من ذلك - بعد إذن الله - إلا بسبب سوء الاستعمال! ثم انظر إليه هو، أي إلى هذا الإنسان! إنه لا يخدم أحداً! وإن فعل

765 البقرة: 29، 34

766 ن: "الكلمات"، مرجع سابق، ص 63-64

فلأجل مصلحته الخاصة، كما يقوم الراعي برعي غنمه من أجل لحومها، وجلودها، وأصوافها؛ لرزقه! ومن هنا فإن وظيفة الإنسان في الأرض إنما كانت هي التفرغ لعبادة الله الواحد القهار⁷⁶⁷؛ **وذلك بعمران الأرض روحيا وماديا؛ إذ العبادة والعمران وجهان لعملة واحدة، وهي القيام بوظيفة الاستخلاف الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**⁷⁶⁸..

ويوضح النورسي قيمة الإنسان العمرانية بقوله: "إن للإنسان قيمة عالية؛ بدليل أن السماوات والأرض مسخرة لاستفادته، وكذا أن له أهمية عظيمة؛ بدليل أن الله لم يخلق الإنسان للخلق، بل خلق الخلق له! وأن له عند خالقه لموقعا؛ بدليل أن الله تعالى لم يوجد العالم لذاته، بل أوجده للبشر، وأوجد البشر لعبادته؛ فأنتج أن الإنسان مستثنى وممتاز، لا كالحوانات"⁷⁶⁹

ويقول الدكتور المهندس خالد فائق: "ويعد الإنسان في وقتنا الحاضر من أهم العوامل المؤثرة في التوازن البيئي؛ وبدأ هذا التأثير في التزايد منذ الثورة الصناعية، وازدياد أعداد السكان وارتفاع مستوى المعيشة، والتقدم التقني والاقتصادي مما أدى إلى زيادة كمية التلوث بمختلف أنواعه، وترافق هذا مع قطع الغابات وحرقها(..) ونلاحظ أن التقدم الاقتصادي والتقني، وارتفاع مستوى المعيشة كان في أغلب الأحيان على حساب الإخلال بالتوازن البيئي وتدهور بنوعية البيئة"⁷⁷⁰..

⁷⁶⁷ ن: "مفاتيح النور في مفاهيم رسائل النور" فريد الأنصاري؛ مركز النور للدراسات استانبول تركيا؛ معهد الدراسات المصطلحية والبحوث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز فاس؛ بدون طبعة. ص: 110 / 111

⁷⁶⁸ البقرة: 29

⁷⁶⁹ ن: "إشارات الإعجاز"، مرجع سابق، ص: 222.

⁷⁷⁰ ن: "علوم البيئة و هندستها في القرآن و السنة" مرجع سابق؛ للدكتور المهندس خالد فائق صديق العبيدي، نقلا عن كتاب (البيئة من منظور إسلامي) للدكتور صالح محمود وهي، ص: 107. 108

ويقول أيضا: " يعد الإنسان من وجهة النظر الإسلامية حجر الأساس في الرسائل الإلهية، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَفْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾⁷⁷¹؛ كما شرعت الأحكام والتعاليم للمحافظة على نوعه ولبقائه: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾⁷⁷²؛ ثم هُيئ له من الظروف الطبيعية والحاجات ما يضمن بقاءه والقيام بكافة أنشطته: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾⁷⁷³.⁷⁷⁴

كل ما سبق ذكره من كلام أولئك الأعلام يُجَلِّي قيمة الإنسان ومركزيته في الوجود، كما يقرّر مهمته العمرانية التي من خلالها يتحقق استخلافه في الأرض التي هيأها الله تعالى بكل ما يُقيم عمرانَه عن طريق تسخير الآله ونعمه لسيد الوجود وإمام محراب العبادة؛ وهذه هي النقطة الثانية التي أنظم بها خيط هذا المطلب؛ فليكن التحليق إليها عبر فضاءات الكون وجنات الأرض!!

المسألة الثانية: تسخير الكون للإنسان لإقامة العمران

فقد هيأ الخالق سبحانه وتعالى الكون وزوّده بما يُسهم ويساعد في عملية العمران، وجعل ذلك في متناول الإنسان - إن أحسن التوظيف والاستعمال - عن طريق سنن التسخير التي أقام البارئ سبحانه وتعالى الكون عليها، وذلك نوع من أنواع علاقة الإنسان بالكون كما بيّنت في المطلب السابق من هذا الفصل..

"وقد أكّد الإسلام في أكثر من موضع على أن خَلَقَ الكون جاء أصلا لخلافته من قبل خليفة - وهو الإنسان - كرّمه الله ووضع له نوااميس لتخدمه في عمرانَه؛ ثم أنزل له الكتب والرسل ليسترشدهم بهداهم في تدبير عمرانَه وبناء حضارته..

⁷⁷¹ . المؤمنون: 115

⁷⁷² . البقرة: 36

⁷⁷³ . البقرة: 29

⁷⁷⁴ ن: " علوم البيئة وهندستها في القرآن والسنة" مرجع سابق..، ص: 108؛

ثم أسبغ الله تعالى على هذا الخليفة نعمه ظاهرة وباطنة ﴿وَعَاثِبِكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾⁷⁷⁵؛ وسخر له كل شيء⁷⁷⁶

والقرآن الكريم بسوره وآيه مليء ومشحون بالإشارة إلى هذه المسخرات، حيث يصعب حصر الآيات التي تتضمن تلك النعم الإلهية والآلاء المسخرة للإنسان، وهو ما يُطلق عليه ناموس أو قانون التسخير، حتى ليكاد يكون هذا طابعه العام، حتى أُطلق عليه الكون المسطور في مقابل الكون المنظور..

وقد أحسن الحافظ أبو الفداء ابن كثير في كتابه القدير: "البداية والنهاية"⁷⁷⁷ حيث ساق كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على ما امتن الله به على عباده من مرافق كونية، متمثلة في السماوات والأرض والبحار والأنهار وبعض المخلوقات، التي تُمدُّ الإنسان المعمر بما يحقق عمرانه المنوط به مُدِّ استخلفه الله تعالى في أرضه..

ونشير لبعض الآيات التي تضمنت بعض المسخرات للاستئناس بها؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٢١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٢﴾ وَعَاثِبِكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا إِلَٰنَسَ لَظُلُومٍ كَقَبَارٍ﴾⁷⁷⁸؛

وايمُ الله إنها آيات حقا وصدقا لمن أبصر وتأمل!! إذ تُذكر بنماذج كثيرة وجميلة من نعم الله وفضائله التي لا قدرة للإنسان بها، ثم تبين أن الإنسان قد أُعطي كل ما يحتاجه لإقامة

⁷⁷⁵ إبراهيم: 36

⁷⁷⁶ ن: "علوم البيئة وهندستها في القرآن والسنة" مرجع سابق، ص: 110؛ بتصرف كبير: زيادة ونقصانا.

⁷⁷⁷ ن: "البداية والنهاية" مصدر سابق، (1/ 25) وما بعدها

⁷⁷⁸ إبراهيم: 34. 36

عمرانه وبناء حضارته ﴿وَأَتَيْكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، ولو أراد هذا الإنسان أن يُحصي تلك المسخّرات ما استطاع بله أن يُؤدّي شكرها! ومن ثمّ كان الوصف اللائق به: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَبَّارٌ﴾، وبه ختمت الآي الكريمة العظيمة !!

وإذا كانت وظيفة الخلافة قد ارتبطت بالأرض - كما ذكرت قبل⁷⁷⁹ - و قد جاء ذكر هذا الربط في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، من ذلك آية قصة الخلق ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّنِي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁷⁸⁰، وقوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾⁷⁸¹؛ قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَايَكُمْ﴾⁷⁸²، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْلِيهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَفْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾⁷⁸³؛ والآيات كثيرة في هذا المعنى، كما ذكرت آنفا.. ومن الأحاديث في هذا الصدد قوله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون)⁷⁸⁴..

وذكر الأرض هنا - كما ذكرت قبل - دال على خصوصيتها وشرفها، وذلك لدورها

⁷⁷⁹ ن: المبحث الثالث المخصص للحديث عن أركان العمران في المطلب الثالث (مسرح العمران وفضاؤه)

من الفصل الثاني من هذا الباب.

⁷⁸⁰ البقرة: 29

⁷⁸¹ الأعراف: 129

⁷⁸² الأنعام: 165

⁷⁸³ فاطر: 39

⁷⁸⁴ رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري، رقم: 2742..

المنوط بها، وهو مركزيتها العمرانية هذا من جهة، ومن جهة أخرى لشرف ساكنها: الإنسان هذا الخليفة الرباني المستخلف والمكلف بعمرانها تعبدًا لله رب العالمين؛ ففي الأرض موطنه يعبد الله، ومنها ينطلق في سيره الشمولي إليه تعالى بشهوده على الخلق، ولذلك كانت مجالا خاصا بالإنسان صالحا لعيشه وحياته التعبدية العمرانية، ذات قابلية لاحتضانه واحتضان كل مكتشفاته من وسائل الحضارة والمدنية والعمران..

وقد ذكرت أيضا⁷⁸⁵ أن الأرض بكل مكوّناتها وما يرتبط بها من أكوان - من أجل أن تكون مجالا للعمران - قد هيّأها خالقها بتذليلها للإنسان، وجعلها مهادا وفرشا وبساطا، كما ركب فيها من العناصر اللازمة لحياة الإنسان، وهيّأ فيها من الأسباب المساعدة له على القيام بمهمة العمارة في الأرض، ثم حثّه على السعي فيها وتوظيف مكنوناتها في إقامة عمرانهِ وإنشاء حضارته، ولعلّ أقوى آية للدلالة على هذا المعنى هي قوله عزّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾⁷⁸⁶؛ ولعمري إنها لآية من آيات الله المحركة لهمة الإنسان المستعمر، والمذكّرة له بمهمته المنوطة به، مع بيان الإمكانات والوسائل التي سخرها له للقيام بعمران الأرض..

ولنترك العلامة ابنَ عاشور يوضّح لنا بعض هذه المعاني المكنونة في هذه الآية: "والذلّ من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، (..) ، فاستعير الذلّ للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة (..)"

والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس (..) فامشوا في مناكبها فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخر الله لهم من المشي في الأرض امتنانا

⁷⁸⁵ ذكرت ذلك في الحديث عن (مسرح العمران وفضاؤه) في مبحث أركان العمران فليرجع إليه..

⁷⁸⁶ الملك: 16

بذلك؛ ومناسبة واكلوا من رزقه أن الرزق من الأرض؛ والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها؛ فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبتة الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك(..) وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد"787..

وأقول: هو أيضا بيان لدور مكنونات الكون - التي يعبر عنها القرآن بالنعم أو الآيات - وعلى رأس ذلك الأرض في تسهيل وتيسير عمران الإنسان الخليفة!

ويضيف الشنقيطي⁷⁸⁸ أيضا في أضواء البيان: "الذلول فعول بمعنى مفعول، وهو مبالغة في الذل؛(..) وقيل في معنى تذليل الأرض عدة أقوال لا تنافي بينها، ومجموعها دائر على تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال،(..) وكنت أسمع الشيخ - رحمه الله تعالى علينا وعليه - يقول في هذه الآية: إنها من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتا للإنسان في حياته بتسهيل معيشتة منها وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له أيضا كفاتا بدفنه فيها.

ويقول: لو شاء الله لجعلها حديدا، ونحاسا فلا يستطيع الإنسان أن يحرق فيها، ولا يحفر ولا يبني، وإذا مات لا يجد مدفنا فيها.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: فامشوا في مناكبها واكلوا من رزقه، لترتبه

⁷⁸⁷ ن: "التحرير والتنوير" مرجع سابق.. (29/ 31 32) بتصرف

⁷⁸⁸ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي: (1325 - 1393 هـ = 1907 - 1973 م)، عالم، مفسر، مدرّس؛ من علماء شنقيط (موريتانيا)، وُلد وتعلّم بها؛ وحج عام (1367) واستقر مدرّسا في المدينة المنورة، ثم الرياض عام (1371)، وأخيرا في الجامعة الإسلامية بالمدينة (1381) وتوفي بمكة.

له كتب، منها:

"أضواء البيان في تفسير القرآن" - ط في سبعة أجزاء، انتهى فيه إلى نهاية سورة المجادلة، وأكمله تلميذه الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله في جزئين. "منع جواز المجاز" - ط "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات" - ط "دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب" - ط "آداب البحث والمناظرة" - ط، وغير ذلك كثير.

على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى: فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهها وحثا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها⁷⁸⁹. ثم ذكر الشيخ آيات كثيرة يوضح من خلالها معاني الآية ويجلي ظلالها الوارفة..

لقد أفاض الشيخ الشنقيطي رحمه الله - وهذا من دأبه في تفسيره حيث يجمع الآيات ذات الموضوع الواحد لأن بعضها يفسر بعضا إذ تفسيره لهذا الغرض ألفه - في معاني هذه الآية وأضاف إليها بعض الآيات التي تشير إلى المعنى العام الذي ندندن حوله في هذا المطلب وهو دور هذه الآلاء المبتوثة في الكون في عملية الإنسان العمرانية..

وقد سبق أن قلت فيما مضى⁷⁹⁰، وأكرره هنا للحاجة إليه: أن الباحث في آي القرآن الكريم وسوره ومقاطععه ليجد أن هذا الأخير يبين أن الأرض وما يتعلق بها هي مجال العمران، ومن أجل ذلك أنشأت ولتحقيقه مهّدت منذ اللحظة الأولى التي أنزل فيها آدم عليه السلام الذي حُوطب بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾⁷⁹¹، ولا استقرار في الأرض إلا بعمرانها ولا عمران إلا بتهيئة الله لها.

⁷⁸⁹ ن: "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"؛ الشنقيطي؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، سنة:

1415 هـ / 1995 م؛ (8/ 238-240) بتصرف

⁷⁹⁰ ن: المطلب الثالث من المبحث الثالث، في الفصل الثاني من هذا الباب.

⁷⁹¹ البقرة: 35

ولعمران الأرض فقد أودع خالقها سبحانه فيها قابلية الإنبات ليتحقق عيش الإنسان المعمّر فيها فيحافظ على حياته التي بها يتحقق وجوده وبالتالي عمرانه : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْفَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْلِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِفِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾⁷⁹²؛ وقد علق الدكتور القرضاوي على هذه الآيات بمجموعة من الحقائق العلمية ما يفيد أنّ الخالق سبحانه قد جعل الكون كله خادماً لعملية العمران الإنساني⁷⁹³، وأنّ ذلك مضبوط بقوانين ونواميس لا تختلف ولا تتخلف ولا تحابي أحداً من الخلق بحال مهما ادّعى لنفسه من مقوّمات المحاباة؛ ولأجل ذلك كان على الإنسان لزماً أن يراعي تلك القوانين، ويوظّف تلك النواميس في ما يخدم مصالحه ويقيم عمرانه ويُنعش حضارته؛ وإن لم يفعل ضيع الأمانة وأفسد المهمة، وكان بذلك ﴿ظُلُومًا جَهُولًا﴾⁷⁹⁴

وهذه هي قضيتنا الأخيرة مع هذا المطلب فلنُعرّج عليها:

المسألة الثالثة: تفاعل الإنسان مع الأكوان لإقامة العمران

من المعلوم أنّ الإنسان مخلوق ضعيف في هذا الكون الواسع؛ بل لا يكاد يرى إذا ما قورن بالمكوّنات الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁷⁹⁵؛ ومن المقرّر في الشريعة الإسلامية أنه لا تكليف بما لا يطاق؛ ومع ذلك فقد جعل الله تعالى هذا الإنسان صاحب الإرادة الحرة،

⁷⁹² الحجر: 19- 20 - 21

⁷⁹³ قد ذكرت هذا بالتفصيل المطلب الثالث بعنوان: (مسرح العمران وفضاؤه) من المبحث الثالث

(أركان العمران) من الفصل الثاني من هذا الباب، فليُرجع إليه

⁷⁹⁴ الأحزاب: 72

⁷⁹⁵ غافر: 57

ووهبه العقل، وذلل له الأرض، وسخر له المكوّنات تكليفا وإكراما له: ﴿وَلَفَدَ كَرَمَنَا
بَنِيحَ آدَمَ وَحَمَلَنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَبَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁷⁹⁶، ويقول سبحانه ممّنا على هذا الخليفة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا
أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً
﴿ 797

يقول أبو السعود في تفسيره: "والمراد بالتسخير إمّا جعلُ المسخر بحيث ينفع المسخر
له أعم من أن يكون مُنقاداً له، يتصرّف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما
في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان، أو لا يكون
كذلك؛ بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما
في السموات من الأشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً، وإما جعله منقاداً
للأمر مذكلاً على أن معنى لكم لأجلكم، فإنّ جميع ما في السموات والأرض من الكائنات
مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق، وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان
مسخرّاً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخرّ لله تعالى"⁷⁹⁸

ويقول الطاهر ابن عاشور في تفسيره: "معنى (سَخَّرَ لَكُمْ) لأجلكم لأن من جملة
ذلك: التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج
والمنازل والاتجاه بها؛ والخطاب في (أَلَمْ تَرَوْا) يجوز أن يكون لجميع الناس مؤمنهم ومشرّكهم
لأنه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنه استدلال"⁷⁹⁹؛ بل أقول:
يمكن فهمه من زاوية ثالثة على أنه خطاب للمؤمنين باعتبارهم حمّال الأمانة، أمانة

⁷⁹⁶ الإسراء: 70

⁷⁹⁷ لقمان: 20

⁷⁹⁸ ن: "تفسير أبي السعود" (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي محمد (ت):

982هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت؛ دون طبعة؛ (298/5)

⁷⁹⁹ ن: "التحرير والتنوير"، مرجع سابق (116/21).

الاستخلاف لتوظيف تلك النعم وغيرها في عمران الأرض...

نستنتج من كلام أبي السعود في تفسيره أن النعم المسخرة - كرامة - للإنسان تنقسم من حيث التسخير إلى قسمين:

الأول: منفعل للإنسان قائم بوظيفته بدون تدخل إرادة الإنسان، فعطاء هذا القسم عطاء مستمر لا يتوقف على جهد الإنسان، وإن كان بعضه يتأثر بتصرف الإنسان كما هو في المنظور الإسلامي، كتأثر نزول المطر بمنع الزكاة كما ثبت في الحديث⁸⁰⁰..

والثاني: منفعل بالإنسان يقوم بوظيفته بتدخل إرادة الإنسان، فعطاء هذا القسم عطاء متوقف على حركة الإنسان وجهده، فكلما بذل الإنسان جهداً أكبر نال عطاء أكثر وأوفر..

وهو ما بينه الشيخ الشعراوي بفهم عمراني عجيب في قوله: "لقد خلق الله في هذا الكون أشياء تنفعل لك، وأشياء تنفعل بك، الأشياء التي تنفعل لك تعطيك بلا مقابل وبلا جهد، فالشمس والقمر والنجوم والغلاف الجوي كلها تعطيك دون أن تحتاج منك إلى جهد (..) وعطائها مساو للجميع (..)؛ أما الأشياء التي تنفعل بك فهي كل ما على الأرض، إذا حرثت وبذرت تعطيك الأرض الثمر، وإذا لم تحرث ولم تبذر لا تعطيك شيئاً"⁸⁰¹

⁸⁰⁰ ونصه: "عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما - قال: أقبل علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: (يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم) رواه ابن ماجه والبيهقي وصححه الالباني في الصحيحة (106)

⁸⁰¹ ن: "نهاية العالم: 50؛ نقلا عن كتاب (سنن الطبيعة و المجتمع في القرآن الكريم)؛ د: بكار محمود الحاج جاسم، دار النوادر؛ ط: 1؛ سنة: 1433هـ / 2012م، ص: 181

وأجد إشارة لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾⁸⁰² وسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ⁸⁰² فقولته تعالى: " دَائِبِينَ " فرّق بين نوعين من أنواع المسخرات: الأول: منفعّل بالإنسان كالفلك والأنهار، والثاني: منفعّل للإنسان كالشمس والقمر والليل والنهار، ومعنى (دَائِبِينَ) أي: العمل على عادة مطردة⁸⁰³

ومن الآيات التي تبين النوع الأول من التسخير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَرَّكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾⁸⁰⁴؛ أي بمشيئته وتصريفه، فقد خلقهن الله عز وجل وهداهن إلى الوظيفة الكونية المطلوبة منهن؛ ولا أحد يشاركه في خلقه أو أمره، فهو الواحد الأحد في خلقه، الفرد الصمد في أمره، ليس له كفؤا في ربوبيته وألوهيته.. فهذه بعض الأمثلة في النوع الأول، فالمسخرات قائمة بأمر الله تعالى، وهي ماضية في وظيفتها؛ وأما النوع الثاني فأمثلته كثيرة نذكر منها:

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾⁸⁰⁵، فالمشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية⁸⁰⁶، ولزيادة بيان تسخير الأرض للناس⁸⁰⁷.

⁸⁰² إبراهيم: 32 . 33.

⁸⁰³ ن: "مفاتيح الغيب" مصدر سابق: (19 / 131).

⁸⁰⁴ الأعراف: 54

⁸⁰⁵ الملك: 16

⁸⁰⁶ ن: "الكشاف" الزمخشري، مصدر سابق (4 / 568)

⁸⁰⁷ ن: "التحرير والتنوير" ابن عاشور، مرجع سابق (29 / 32)،

ومع هذا التذليل فلن تؤتي الأرض أكلها إلا إذا قام الإنسان بتذليلها، وهو ما كلف به لتحقيق عمرائها، وإصلاح شأنها قياما بوظيفة الاستخلاف؛ فقلوه: (فامشوا في مناكبها) ذات دلالة على ذلك، وبياننا للعلاقة بين الكون والإنسان، وقد تحدّثت عن هذا في المطلب السابق⁸⁰⁸ فهي مدللة بتذليل الإنسان لها، كما يدل على دور الإنسان المعمّر وحركته على الأرض التي أُمِرَ بعمرائها؛ هكذا اقتضت سنة الله تعالى في خلقه وكونه!!

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِفَدْرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾⁸⁰⁹ فهذه المكونات مسخرة بالقوة؛ إذ هيأها الله تعالى للاستجابة، فتكون مسخرة بالفعل إذا ما تحرك بها الإنسان، وتفاعل معها ، واجتهد في طرق توظيفها؛ ومعنى {مقرنين} أي : مطيقين⁸¹⁰ !!

وحاصل المعنى أنه ليس للإنسان من القوة والقدرة ما يضبط به هذه المكونات، وإنما الله تعالى هو الذي ذلّل له ذلك، وسخر وضبطه له⁸¹¹ ..

وعلى هذا وجب شكر هذه النعمة ، حيث قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا

⁸⁰⁸ ن: مطلب (علاقة الكون بالإنسان) من هذا المبحث

⁸⁰⁹ الزخرف: 10 . 13.

⁸¹⁰ ن: "جامع البيان" (25 / 54)، والكشاف" : (4 / 233)؛ بتصرف؛ مصادر سابقة

⁸¹¹ ن: "روح المعاني" مصدر سابق (13 / 69) .

لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَآ أَنْعَمَآ بِهِمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧٠﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧١﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاصِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾⁸¹² وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾⁸¹³

وإذا كانت المكوّنات مسخرة بالقوة فقد تعترض الإنسان صعوبات كبيرة، فيعجز عن تسخير بعضها؛ ذلك أن الله تعالى لم يأذن لها بالاستجابة لحكم عظيمة، منها: بيان عجز الإنسان حتى لا يتأله على الله تعالى، فيظن أنه أصبح قادرا على تسخير كل شيء، وقد حصل هذا من الإنسان، وخصوصا في هذا العصر، عصر العلم والتقدم العلمي الكبير، حتى شاعت كلمة " قهر الطبيعة " أو " تحدي الطبيعة"، فكلما اكتشفوا سنة من سنن الله في الكون نسبت إلى صاحبها، فتسمى باسمه ناسين أو متناسين أن الله تعالى هو صاحب الفضل في ذلك الاكتشاف⁸¹⁴

فالكون ليس إلها للإنسان، وكذلك الإنسان ليس إلها في الكون، بل هو مكلف وموكل من قبل الله سبحانه وتعالى الذي أعطاه ومكّنه من تسخير بعض المكوّنات⁸¹⁵ والواقع يشهد ببطلان هذه الدعوى، فهل استطاعوا أن يوقفوا الفيضانات والزلازل، وغير ذلك ... فالإنسان لا يستطيع أن يغير شيئا من قسوة الطقس أو ضراوته، ولكنه قد يستطيع أن يطور أساليب النضال ضد آثار هذه القسوة وهجماتها⁸¹⁶

⁸¹² يس: 71 . 73

⁸¹³ النحل: 14.

⁸¹⁴ ن: " في ظلال القرآن " سيد قطب، مرجع سابق. بتصرف، (1 / 25)

⁸¹⁵ ن: " الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم " لمحمد المبارك، منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي: 281.

⁸¹⁶ ن: " معجزة القرآن " : (3 / 109)؛ الشعراوي بتصرف

وهذه السنن كلها بأمر الله عز وجل، وقد يقف الإنسان عاجزا أمامها أو عاجزا عن فهم أسرارها أو بعض حكمها..

إنّ تسخير ما في الكون هو أحد مهامّ الإنسان في الحياة، ويعني ذلك البحث في وجوه الانتفاع ممّا سخّره الله تعالى للإنسان - معترفا بفضل الله تعالى عليه، غير مغترّ بقدراته - في الكون وتطويعه وتوظيفه بالعمل الدؤوب الهادف لإقامة العمران المكلف به من لدن الرحيم الرحمان، فإنّ العمل ركن من أركان مشروعه العمراني كما سبق أن بيّنت عند حديثي عن أركان العمران، وبدونه تسقط دعامة مهمّة من دعائم هذا المشروع، وينعكس سلبا على الإيمان من حيث مصداقيته في أرض الواقع!!

فليس هناك شيء محظور يحرم على الإنسان اكتشافه أو التفكير فيه، أو تذليله لمصلحته، أو البحث فيه ودراسته، لقد وضع القرآن الإنسان أمام حوافز أو تحديات كثيرة ليكتشف ما أودع الله تعالى فيه من طاقات كامنة، ولتظهر محورياته في عالم الكون...

ويؤكد عمر عبيد حسنة هذا المعنى فيما نقله عنه الشيخ محمد الغزالي بقوله: "ووظيفة الإنسان القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير، وحسن التعامل معها، لذلك طلب القرآن: النظر، والتدبر، والملاحظة، وإدراك علل الأشياء، وأسبابها، وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل، كما قال تعالى: ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ويؤكد حسنة أيضا أهمية أن يستفيق المسلمون من سباتهم المعرفي والعلمي في حقول العلوم المختلفة لتحقيق مقصد القرآن من الإعمار"⁸¹⁷.

ويقول محمد الغزالي أيضا: "واكتشاف السنن هو الذي مكن من التقدم والتحكم، وغفلة المسلمين عنها كانت سبب الانحطاط والسقوط والتخلف، وبالتالي أصبحوا مسخرين بدل أن يكونوا مسخرين"⁸¹⁸

⁸¹⁷ ن: "كيف نتعامل مع القرآن" محمد الغزالي، نشر: دار النهضة مصر ط: 14 سنة 2014م؛ ص 30

⁸¹⁸ المرجع السابق ص 148،

ويقول أيضا: " ولن يحسن معرفة الله امرؤ يعمى عن سنن الحق، ولن يخدم رسالات الله جهول بهذه السنن، وإنه لمن المرعج أن يعيش سواد المؤمنين في هذه السنين العجاف مسخرًا في الأرض، والمفروض أن الله سخر له ما في السماوات والأرض" ⁸¹⁹

إنَّ تسخير كلِّ تلك المظاهر الكونية والمخلوقات لا يتوقف عند حدود الانتفاع المادي فحسب - وهذا ما أريد أن أوَّكده ليتناسب مع حقيقة العمران بمفهومه الذي أصَّلت في غير ما مرة - بل يقود إلى الانتفاع الروحي، وعلى رأسه جانب التوحيد الأعظم الذي يعتبر أصل العمران وأساسه!! وهو ما يركز عليه القرآن فيسوق الآيات المليئة بالأدلة والبراهين الدالة على وحدانيته سبحانه في الخالقية والربوبية، ومن ثمَّ أحقيته في الألوهية والعبودية، كما يوضح بالأدلة العقلية والنقلية بطلان الشرك، وهذا كثير في القرآن يصعب حصره واستقصاؤه؛ كما نجد الكثير من الآء والنعم التي تُستثمر في العبادات الكبرى التي هي روح العمران وحياته - وهو ما سمَّيته العمران الروحي -

فالأرض ذاتها جعلت مسجدا وطمهورا، وأول بيت وضع لعبادة الله أي لإقامة العمران الروحي هو في أرض مكة، والماء الذي ينزل من السماء به تحصل الطهارة كما قال ابن عاشر: (فصل و تحصل الطهارة بما ×× من التغيّر بشيء سلما..)⁸²⁰، وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْمَ بِهِ وَيُدْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى فُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَفْدَامَ﴾⁸²¹، فانظر إلى دور الماء كيف استطاع أن يوظفه النبي في غزوة بدر لخدمة معركة بدر؛ وهذا مثال واحد فقط يوضح لنا أن نعم الله وآلاءه المبتوثة في الكون يجب توظيفها وتسخيرها في الجانب الروحي للعمران؛ مثله في ذلك مثل الجانب المادي ممّا ندرك من خلاله أن الكون بكل نعمه و مكوناته له دور

819 ن: "المحاور الخمسة للقرآن الكريم" محمد الغزالي، دار نهضة مصر، بدون طبعة، ص 53.

820 ن: "الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، لأحمد ميارة الفاسي؛ دار

المعرفة؛ الدار البيضاء المغرب، دون طبعة؛ ص: 84

821 الأنفال: 11

كبير في عملية الإنسان العمرانية إن أحسن الإنسان توظيف ذلك ...

وختاما لهذا المطلب أقول: إنَّ استثمار ما سَخَّره الله تعالى من النعم
المبثوثة في الكون من لدنَّ الإنسان المستخلف يعتبر من أسس العمران
التي لا يتم إلا بها، فكان بذلك تكليفا يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة!!
كما جاء في الحديث: (يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل
لك سمعا وبصرا ومالا وولدا، وسَخَّرت لك الأنعام والحِث، وتركك ترأس
وتربع، فكنت تظنَّ أنَّك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم
أنساك كما نسيتني)¹؛ يعني: ألم أجعلك رئيسا مطاعا، ففي الحديث إشارة
إلى أنَّ التقصير في الانتفاع مما سَخَّر الله تعالى صفة من يكذب بقاء الله
يوم القيامة ولا يهتدي إلى وحدانيته؛ كما أنَّ لذلك تأثير سلبي على الحركة
العمرانية للإنسان المستخلف، فتأمل!!

المبحث الثاني: وسائل إعمار الكون

إذا كان للعمران شروط وأركان يتصل بها ويقوم عليها، فإنّ له أسباباً ووسائل يرتبط بها ويحتاج إليها حتى يستوي على سوقه وتندّهب كؤوسه؛ أما الشروط والأركان فقد سبق الكلام عنها في الفصل الثاني من هذا الباب بما يسر الله تعالى وأهله، وأما الوسائل والأسباب فهذا إبان الحديث عنها ومطلب البحث فيها.

وليس العمران بدعا في هذا، فإنّ لكل شيء سببا، ولكل نتيجة مقدمات ووسائل؛ وذلك ناموس الله في الوجود كلّ، وقانونه في مخلوقاته أجمعين؛ ولقد أشار رائد العمران ابن خلدون - رحمه الله - إلى كون العمران له أسباب وعلل، حينما تناول قضية رواية ونقل أحداث التاريخ ووقائع الدول من لدن بعض المؤرخين دون فحص أو تمحيص فقال: "ثمّ إذا تعرّضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافظين على نقلها وهما أو صدقا، لا يتعرّضون لبدايتها، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايته، وأظهر من آيتها، ولا علّة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتّشا عن أسباب تراجيحها أو تعاقبها، باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها، حسبما نذكر ذلك كلّ في مقدّمة الكتاب.."⁸²² !!

فها أنت ترى معي أن اعتبار أسباب العمران وربطه بعلمه ضروري لمعرفة طبائعه وتقويم مثالبه وإقامة ركائزه!! وقد حاولت جاهدا وبحث هنا وهناك قدر المستطاع، لعلّي أظفر بمن يتحدّث أو يكتب عن أسباب العمران - بالمفهوم الذي أصّلت له - ووسائله فلم أجد شيئا عدا بعض الكتب والمقالات⁸²³ التي تحدّثت عن بعض عوامل قيام الحضارات وما

⁸²² ن: "المقدمة" ص: 8، مرجع سابق

⁸²³ ن: مثلا "الحضارة الإسلامية" لعبد الرحمن حسن حنيفة الميداني، دار القلم، دمشق، ط: 2؛ سنة 1435هـ/ 2014م؛ و"الشهود الحضاري للأمة الإسلامية" د: عبد المجيد النجار، مرجع سابق؛ و"مدخل إلى الحضارة الإسلامية" د: عماد الدين خليل؛ و"ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين" للعلامة التّدوي، دار ابن كثير، دمشق؛ ط: 6؛ سنة 1430هـ/ 2009م؛ وبعض المقالات هنا وهناك..

يتعلق بذلك من مقدمات ونتائج.. فمن خلال استقراي لذلك وتدبري لآي القران خاصة تلك التي تحدّثت عن سنن الله الجارية في خلقه والمتعلقة منها بالاجتماع البشري الضارب في عمق التاريخ وقراءة أقوال المفسرين في معاني تلك الآيات القرآنية؛ وبعد استكناؤه حقيقة هذا الموضوع وتحليلاته تاريخا وواقعا انقدح في ذهني بعد تأمل دقيق ونظر عميق مجموعة من الأسباب والوسائل التي يعتمد عليها عمران الناس واجتماعهم، والتي تُسهم في إنتاج حضارة إنسانية عظيمة يعيش الناس في كنفها آمنين مطمئنين..

ولست أزعم أنني سأحيط بتلك الأسباب والوسائل جميعها وأكتعها، فإنّ ذلك يحتاج إلى بحث مستقل وجهد متواصل وأنّي لي ذلك وقد أرى عقارب الساعة وساعات الأيام تطاردني، ولكن حسبي أن أجتهد في بيان بعضها وأمس جزءا منها.

وبناء على ذلك فإنني سأكتفي بإيراد ثلاث وسائل وأسباب لإقامة العمران وتنميته أراها من الأهمية بمكان، ومن الدور بميزان، حيث تمثّل الخيط الناظم والرابط لغيرها من الوسائل والأسباب الباقية!!

وهذه الأسباب والوسائل هي كالآتي على الإجمال:

- وسيلة العلم
 - وسيلة الإيمان وتزكية النفس
 - وسيلة اكتشاف السنن الإلهية واستثمارها
- ولضبط الكلام حولها، وتجلية حقائقها، وبيان دورها العمراني، كان لابد من أفراد كل وسيلة منها بمطلب خاص بها؛ وهو ما سنشرع في دراسته في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

المطلب الأول وسيلة العلم:

بعد دراسة متأنية لآي كتاب الله عز وجل، وأحاديث الرسول ﷺ، وأحداث التاريخ ونوازل الواقع، يتبين لنا - بما لا ريب فيه - أن هناك عدة عوامل ووسائل تسهم بشكل كبير في بناء الحضارات وإقامة العمران، ويأتي على رأس هذه الوسائل - وبشكل لافت جداً للنظر - العلم وهو ما أكدّه الإمام الراغب الأصفهاني بقوله: "الذي تطهر به النفس حتى تترشح لخلافة الله تعالى، وتستحق به ثوابه هو العلم؛ والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الآخروية، كما أن الذي به يطهر البدن هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية، ولذلك أسماها (الله تعالى) الحياة، وسمى ما أنزل من كتابه الماء، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾⁸²⁴؛ فسمّى العلم والعبادة حياة من حيث إن النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الأبد، كما قال في صفة الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾⁸²⁵، وقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾⁸²⁶؛ قال ابن عباس - رضي الله عنها -: عني بالماء القرآن، إذ كان به طهارة النفس، وبالأودية القلوب احتملته بحسب ما وسعته"⁸²⁷؛ والحاجة للعلم لا تتعلق بأمة دون أخرى أو حضارة دون غيرها.. بل هو أمر ضروري لازم لبناء العمران وتشبيد الحضارة!!

وشواهد ذلك من القرآن والسنة - كما سيتبين لنا خلال سطور هذا المطلب - كثيرة ومتعددة؛ كما أنّ دراسة متأنية لتاريخ قيام الدول والحضارات وسقوطها تُبيّن بما لا يترك مجالاً للريبة أو الشك أنّ العلم كان له الدور الأساس في بناء الإنسان والعمران معاً، وأنّ ضموره وكساد سوقه مؤشر خطير على أفول نجم الأمم والحضارات؛ وسبق أن قلت في

⁸²⁴ . الأنفال: 24

⁸²⁵ . الأنبياء: 30

⁸²⁶ . الرعد: 19

⁸²⁷ ن: "الذريعة" مصدر سابق، ص: 88،

مناسبة سابقة⁸²⁸ أنّ الأمة - أيّ أمة - لا يمكن أن تحقّق شهودها الحضاري وتطورها العمراني إلا بالعلم المحفّز للعمل والمصحّح له أيضاً، إذ لا عمل صحيح بغير علم، ولا علم إلا وهو دافع للعمل، وكل علم ليس تحته عمل فلا قيمة له ولا وزن، كما قرّر شيخ المقاصد الشاطبي لله درّه من خلال كتابه الموافقات⁸²⁹ !!

ولتجلية هذا الأمر والخروج من هذا الإجمال، كان لابد من عرض هذا الموضوع في ضوء نقاط أساسية جامعة لخيوطه وأجزائه؛ وهو ما سنورده عبر مسائل متعددة:

المسألة الأولى: تعريف العلم

من حقّا أن نتساءل عن العلم - الذي له هذا الدور الأساس في عمران الإنسان - حقيقة وطبيعة حتى يتبيّن لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود إذ - كما نكرر دائماً - الحكم على الشيء فرع عن تصوره..

وتعريف "العلم" كمصطلح من أكثر المباحث الفكرية المتنازع فيها بين العلماء المسلمين، بله غيرهم من أهل الملل والنحل؛ وذلك لتصرفهم في المعنى وفق اتجاهاتهم الفكرية والمذهبية، فيطوّعون المعاني على مذاهبهم؛ لئلا يقع التداخل والتناقض داخل النسق المذهبي الواحد..

○ التعريف اللغوي:

أما تعريفه في اللغة فقد جاء في المعاجم ما ملخصه: " العلم نقيض الجهل، وهو الإدراك، أو المعرفة عامة، أو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة..

وقال أهل اللغة: سمي العلم علماً من العلامة، وهي الإشارة، ومنه معالم الثوب والأرض؛ ويقال: رجل عالم وعليم من قوم علماء، ويقال إذا بُولِغَ في وصف الشخص

⁸²⁸ ن: "الفصل الأول: مفاهيم ومصطلحات"

⁸²⁹ ن: "المقدمة السابعة و الثامنة من الموافقات" الشاطبي (1/ 60 . 77)

بالعلم: عَلَامة، وتَعَلامة⁸³⁰؛ "وَعَلِمَ بالشيء والأمر: شعر به، وعَرَفَه، وأَتَقَنَه، وأَحاط به، وأَيَقَنَه، ومَيَّزَه"⁸³¹؛ "وَعَلِمْتُ يستعمل ويراد به العلم القطعي، فلا يجوز وقوع أن الناصبة بعده، ويستعمل ويراد به النص القوي، فيجوز أن يعمل في" أن: "ما علمت إلا أن يقوم زيد؛ واستعمال العلم بمعنى المعلوم شائع، وقد يكتفى بالعلم عن العمل؛ لأن العمل إذا كان نافعا قلما يتخلف عن علم"⁸³²

○ التعريف الاصطلاحي:

قال ابن جني⁸³³: "لما كان العلم إنما يكون بالوصف به، والمزاولة له، وطول الملازمة، صار كأنه غريزة، ولم يكن على أول دخوله فيه، ولو كان كذلك لكان متعلما لا عالما، فلما خرج بالغريزة إلى باب فَعُلَ - صفات الذات - صار "عالم" في المعنى كعليم؛ فكُسِرَ تكسيره، فقالوا: عالم جمعه: علماء"⁸³⁴

"ويعرّف العلم بأنه إدراك الشيء على حقيقته، وذلك ضربان:

أحدهما: إدراك ذات الشيء - وهو ما يسمى عند المناطقة بالتصور - والثاني: هو الحكم على الشيء، بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء، هو منفي عنه - وهو ما

⁸³⁰ ن: "العين"؛ الفراهيدي، مرجع سابق، (2/ 152).

⁸³¹ ن: "مقاييس اللغة"، ابن فارس، مصدر سابق، (4/ 109).

⁸³² ن: "الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية"؛ أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبوالبقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ)؛ المحقق: عدنان درويش - محمد المصري؛ مؤسسة الرسالة - بيروت، دون سنة للطبع، ص: 611

⁸³³ عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح: من أئمة الأدب والنحو، وله شعر، ولد بالموصل وتوفي ببغداد، عن نحو 65 عاما؛ وكان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي؛ وكان المتنبي يقول: ابن جني أعرف بشعري مني..

نقلا عن: «الأعلام» للزركلي

⁸³⁴ ن: "الخصائص"، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: 392هـ)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة؛ دون سنة للطبع.

يسمى بالتصديق - "835؛ وعرفه الجرجاني بأنه: "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع"836؛ وقال التهانوي837: " أنه على معانٍ عديدة عند أهل الفنون، وهي ملخصة في أنه: الإدراك مطلقاً، تصوراً كان أم تصديقاً، يقينياً أم غير يقيني"838

أما في القرآن الكريم، فمدلول العلم ورد بالتصريح في مواضع كثيرة، وعن آلياته كذلك في مواضع كثيرة، ولفظه أكثر إطلاقاً وذكرًا من المعرفة، كما سمي الله تعالى نفسه بالعالم والعليم والعالم، ووصف نفسه بأنه يعلم، وعلم، وأن له علماً، وهو ذو العلم"839؛ "غالب ما ورد في تعريفات العلم نجده اجتمع على أنه الاعتقاد الجازم المطابق للمواقع، أو هو ما يُمثل اليقين والحكم الجازم غير القابل للتشكيك"840.

والمعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك، ولهذا المعنى متعلق، وهو المعلوم، وله تابع في الحصول يكون وسيلةً إليه في البقاء، وهو الملكة، فأطلق لفظ العلم على كلٍ منها، إما حقيقة عرفية أو اصطلاحية، أو مجازاً مشهوراً.

835 ن: "المفردات" الراغب، مصدر سابق، ص 343. مع التصرف زيادة ونقصانا

836 ن: "التعريفات"، الجرجاني، مصدر سابق، ص 200

837 هو محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي: (1158 هـ / بعد 1745 م)؛ باحث هندي؛ له (كشاف اصطلاحات الفنون - ط) مجلدان، فرغ من تأليفه سنة 1158 هـ و (سبق الغايات في نسق الآيات - ط) [الكتبخانة 4: 179 وإيضاح المكنون؛ ومعجم المطبوعات؛ وآداب اللغة؛ وهو فيه: (محمد صابر) وعلى نسخة كتابه كشاف اصطلاحات الفنون، المطبوعة في كلكتة سنة 1862) .. نقلا عن: الأعلام للزركلي

838 ن: "كشاف اصطلاحات الفنون"، التهانوي؛ (المتوفى: بعد 1158 هـ)؛ تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم تحقيق: د. علي دحروج؛ نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي؛ الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني؛ الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت؛ الطبعة: الأولى - 1996م. (4/ص 1055)

839 ن: "الأسماء والصفات"، البيهقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ / 1993م، ص: 123.

840 ن: "نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة"، راجح الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط: 1 سنة 1412 هـ / 1992م؛

بتصرف، ص 44

ويطلق العلم على معانٍ بالاشتراك:

- أحدها: يطلق على نفس الإدراك .

- ثانيها: على الملكة المسماة بالعقل في الحقيقة .

- ثالثها: على نفس المعلومات، وهي القواعد الكلية، التي مسائل العلوم المركبة منها.

- رابعا: التهيؤ القريب المختص بالمجتهد، وهو مَلَكَةٌ يقتدر بها على إدراك الأحكام

الجزئية.

وزبدة القول أن العلم أوضح من أن يُعرّف، من حيث شعور الإنسان بنفسه أنه يعلم، وما من تعريفٍ إلا وكان قابلاً لأنْ يُعترض عليه، وكل محاولات تعريف للعلم، هي من جانب دون جانب، فمن عرّفه بأنه اطمئنان النفس وسكونها، فقد أراد للعلم درجةً يقينية تملكها النفس، دون تقليد أو اعتقاد قابل للتشكيك، ومنهم من عرّفه مركزاً على كونه صفة للحَي، ومنهم من ميّز به الإنسان عن البهائم.

"نخلص إلى ما قال أبو بكر بن الطيب : وإن قال لنا قائل: ما حد العلم عندكم؟ قلنا: حده "معرفة المعلوم على ما هو به"، والدليل على ذلك أن هذا الحد يحصره على معناه، ولا يدخل فيه ما ليس منه، ولا يخرج منه شيء هو فيه، والحد إذا أحاط بالمحدود على هذا السبيل، وجب أن يكون حدّاً ثابتاً صحيحاً، فكلُّ ما حُدَّ به "العلم" وغيره، كانت حاله في حصر المحدود، وتمييزه من غيره، وإحاطته به، حال ما حددنا به "العلم"، وجب الاعتراف بصحّته؛ وقد ثبت أن كل علم تعلق بمعلوم فإنه معرفة له على ما هو به؛ وكل معرفة بمعلوم فإنها علم به، فوجب توفيق الحد الذي حددنا به "العلم"، وجعلناه تفسيراً لمعنى منه، بأنه علم"⁸⁴¹

⁸⁴¹ ن: "الرد على المنطقيين" ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، لبنان؛ دون تاريخ الطبع؛ ص: 17.

ومدلوله في القرآن شامل، يخص الإدراك لجملة من المعارف، بالتأمل والنظر في الوجود والخلق، وتدبر آيات الله في الأرض والسماء؛ وذلك لتعلقه بالحواس السليمة والخبر الصادق والعقل.

المسألة الثانية: أقسام العلم

وقد قُسم العلم أقساماً عديدة حسب الحثيات المقسم عليها، وحسب الفن المقسم له؛ نشير إلى بعضها مما نراه مهماً مجلياً لحقيقته لأن من أنواع التعاريف التعريف بالقسمة..

فعلماء الأصول يقسمون العلم إلى قسمين :

- الأول: علم قديم، وهو ما يختص بالله عز وجل .

- الثاني: علم حادث، وهو ما يختص بالخلق، وهو نوعان :

أ) علم ضروري، وهو ما لا يقع عن نظرٍ واستدلال؛ أي: لا يحتاج إلى ذكاء، كذلك العلم بالتواتر، سواء كان في التصورات، أو في التصديقات، فكل هذا لا يحتاج إلى إعمال نظرٍ وفكر وتأمل.

ب) علم مكتسب، وهو الموقوف على النظر والاستدلال؛ أي: يحتاج إلى قدح الذهن والتعلم، وهذا المعنى من قوله ﷺ: (إنما العلم بالتعلم)⁸⁴² وهذا العلم يتفاوت فيه الناس⁸⁴³

المسألة الثالثة: العلم المقصود هنا

⁸⁴² جزء من حديث أبي هريرة أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم؛ والخطيب في " تاريخه " (9 / 127) من طريق إسماعيل بن مجالد، عن عبد الملك بن عمير، عن رجاء بن حيوة، عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه)؛ وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة تحت رقم (342)

⁸⁴³ "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، مصدر سابق، (1، / 354)

وبنا على ما سبق من تعريف العلم وأقسامه فإن العلم الذي أعنيه هنا ليس هو العلم الشرعي فقط كما هو الحال عند من يرفض الدنيا وعلومها بدعاوى زائفة، أو هو العلم الإنساني المادي فحسب كما هو الأمر عند الماديين، بل هو كل علم نافع يقيم الحياة كلّها بشقيها الروحي والمادي، الديني والدنيوي على حد سواء، فيدخل فيه فنون الشريعة كلّها وعلوم الحياة أجمعها أيضاً، بما في ذلك علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا..

وقد جاءت كلمة "العلم" في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله الكريم ﷺ مطلقة، ودونما تقييد أو تحديد لتشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى تحقيق واجبات الخلافة والعمران في هذا الوجود؛ وبناء على ذلك فالعلم — كجنس — يمكن تقسيمه إلى نوعين كبيرين هما: العلوم الشرعية والعلوم الحياتية..

أما العلوم الشرعية: فهي العلوم التي يُعرف بها الله سبحانه وتعالى، وتُعرف بها عبادته، ويشمل ذلك كل العلوم المتعلقة بدراسة الدين وفقه الشريعة، مثل علوم القرآن، وعلوم السنة والحديث الشريف، وعلوم العقيدة، وعلوم الفقه وأصوله، وعلوم الأخلاق، وغير ذلك مما يتعلق بالشريعة والدين؛ ويرتبط بهذا القسم بعض العلوم الأخرى التي يُحتاج إليها في فقه تلك العلوم الشرعية، مثل علوم اللغة والأدب والتاريخ، ونحو ذلك..

أما العلوم الحياتية: فهي العلوم النافعة التي يحتاج إليها الإنسان ليصلح بها حياته، ويعمّر بها أرضه، ويستكنّه بها أسرار ومنافع كونه وبيئته.. وذلك مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، وعلوم الأرض والنبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم.. ويمكن أن أطلق على هذه العلوم كلها بنوعيتها اسم العلوم العمرانية؛

فكلمة العلم التي كثرت الإشارة إليها في الكتاب والسنة إنما تعني - في أكثر الأحيان - العلم العمراني وكل ما جاء من مدحٍ للعلماء، فهو لكل عالمٍ نافع.. وهو "العلم الذي يبنى الحضارة وقيم العمارة - فهو - : علم بالله تعالى، وعلم بالإنسان، وعلم

بالأكوان⁸⁴⁴، أرى أن هذه الأنواع الثلاثة الرئيسة تنضوي تحتها كل العلوم و الفنون عقلِيَّها ونقلِيَّها التي يمكن أن نطلق عليها مسمّى علم العمران، وأخال وأزعم أن هذه الأنواع الثلاثة أشار إليها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁸⁴⁵؛ فقولهُ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي علم الأكوان؛ و قوله ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾، فهو علم الإنسان؛ أما قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي حتى يتعرفوا على الله خالقهم، و ذاك هو العلم بالله حقا، و أولئك هم العلماء صدقا: ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁸⁴⁶

المسألة الرابعة: العلم شرط الاستحقاق ونقطة الانطلاق

والملاحظ أن الاهتمام بقضية العلم كان منذ بداية خلق الإنسان نفسه.. كما حكى ذلك القرآن الكريم في آيه!! فالله سبحانه خلق آدم وجعله خليفة في الأرض ليقوم عمرائها، فكرّمه وعظّمه ورفعته وأمر الملائكة أن تسجد له، ثم بيّن علة وسبب هذا التكريم والتعظيم بأنه "العلم، والعلم فحسب!! إذ لم يتفوق آدم عليه السلام على الملائكة بطول قيام، ولا بكثرة ذكرٍ أو تسبيح، ولا بقوة خارقة، ولا بطاعة مطلقة.. فهذه الأمور كلّها ممّا تتفوق فيها الملائكة بلا مرء، وإنما تفوّق عليهم فقط في قضية العلم، الذي استحق به ما كان في علم الله الأزلي، فكان بذلك أفضل من الملائكة أجمعين أكتعين أبصعين!!

ولنستمع جميعا إلى هذا التقرير القرآني: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

⁸⁴⁴ ن: " جريدة الحجة" مقال بعنوان: " العلم و دوره في بناء الحضارة" د: الطيب بن المختار الوزاني؛ في: 02 يناير

2017م.. العدد: 470،

⁸⁴⁵ فصلت: 53

⁸⁴⁶ فاطر: 28

بِحَمْدِكَ وَنَفَدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾⁸⁴⁷..

يقول فريد الأنصاري - رحمه الله - في لفظة عمرانية عجيبة: "يُعَلِّم - سبحانه - ما جعل للإنسان من مواهب وقدرات على التعلم والتعليم، والفهم والإدراك، والتخاطب والتواصل، وما جهّزه به جل وعلا من قدرات عقلية خارقة، يكون بها سائر ضروب الاختراع والإبداع مما تقوم به عمارة الأرض؛ ومن ثمّ عرض سبحانه على الملائكة آية عظيمة لتفوق هذا المخلوق وتميزه، فقال تعالى: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ }؛ ويدخل في ذلك القدرة على اختراع المفاهيم والألفاظ، واللغات وما تتضمنه من إمكانيات التخاطب والتواصل والإبداع والتفكير!! وقد آتاه الله من ذلك موهبتين متكاملتين هما: التعلم والتعليم؛ لأنه تعالى علّمه فتعلم، وأمره بتعليم الملائكة فعلم!! وبهذين كان التطور العمراني في المجتمعات البشرية؛ فكان للإنسان هذا التفوق العجيب في الغوص على المعاني العميقة، واستنباط الحقائق الدفينة في كلّ المجالات العلمية، الروحية والحسية سواء، مما لم يؤته الله أحدا من العالمين"⁸⁴⁸..

ويضيف العلامة النورسي - رحمه الله - موضّحاً هذا الأمر بقوله: "﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

⁸⁴⁷ البقرة: 30، 34.

⁸⁴⁸ ن: " مجالس القرآن" فريد الأنصاري، مرجع سابق، بتصرف (106/3، 107)،

كُلِّهَا، أي صَوَّرَهُ بفطرة تَضَمَّنَتْ مبادئ أنواع الكمالات، وخلقهُ باستعداد زرع فيه أنواع المعالي، وجَهَّزَهُ بالحواس العشر وبوجدان تتمثل فيه الموجودات، وأَعَدَّهُ بهذه الثلاث لتعلم حقائق الأشياء بأنواعها، ثم عَلَّمَهُ الأسماء كلها.⁸⁴⁹ فهذا العمق الفطري والاستعدادي للإنسان يبيِّن قيمته وقدرته على القراءة والتفكير والنظر والتدبر ويعكس كذلك موقعه في الحركة الكونية والعمرانية؛ وهكذا كانت القضية منذ اللحظات الأولى لخلق آدم عليه السلام واضحة جلية.. فما إن يتمسك الإنسان بالعلم، ويحرص عليه، ويبذل الجهد في تحصيله، إلاَّ استحقَّ أن يكون خليفة الله في الأرض، فيقيم بذلك عمرانه؛ وما إن يَأْلَفَ الجهل ويتعوَّد عليه، أو يزهد في العلم، ويتعدَّ عنه، ويرضَ منه بالقليل.. فإنه - لا ريب - يكون قد فَقَدَ مؤهلات هذه الخلافة، وبالتالي خربَ عمرانه وانهدمت حضارته.. وهذا منطوق حديث رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أنس بن مالك: (إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْحُمُرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا)⁸⁵⁰، أي أن زوال العلم خراب لعمران الدنيا، فتصير الحياة فيها مستحيلة، أو لا معنى لها، ويكون ذلك إيذاناً بقرب قيام الساعة، وبياب العالم..

وللعلامة النورسي كلام جميل في هذا الشأن أجديني مضطراً لإيرادها هنا، وهو قوله : "إِنَّ كُلَّ مَا نَالَهُ الْإِنْسَانُ - مِنْ حَيْثُ جَامِعِيَّةٌ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ اسْتِعْدَادَاتٍ - مِنْ الْكَمَالِ الْعِلْمِيِّ وَالتَّقَدُّمِ الْفَنِيِّ إِلَى خَوَارِقِ الصَّنَاعَاتِ وَالْاِكْتِشَافَاتِ تَعَبَّرَ عَنْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِتَعْلِيمِ الْأَسْمَاءِ"⁸⁵¹ فكان تعليم الأسماء "أساس لتمكُّننا الكامل من تطوير إدراكنا للوجود، وقدرتنا على تعديل مسار فكرنا على درب الحقيقة التي خلقها الله، وما أخرى أن يكون خليفة الخالق مهياً لأن يتعامل مع الوجود الذي خلقه الله بما يكفل له أن يكون

⁸⁴⁹ ن: "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" لبديع الزمان النورسي، مرجع سابق، ص: 341.

⁸⁵⁰ البخاري: كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل: 80، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه 2671، والترمذي: 2205، وابن ماجه: 4045.

⁸⁵¹ ن: "الكلمات" النورسي، مرجع سابق، ص: 290.

على قدر الخليفة إدراكا وتطورا وتعديلا لما يصنعه.⁸⁵²

ولم يكن الاحتفاء بالعلم مذ لحظة خلق آدم عليه السلام فحسب، بل كان أول ما خلق الله تعالى - على خلاف في ذلك بين أهل العلم⁸⁵³ - هو القلم باعتباره أداة علم ومعرفة؛ وتلك حقيقة أوردتها الإمام الترمذي فيما رواه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ)⁸⁵⁴؛ وهكذا نجد أن العلم أمرٌ محوري ورئيسي في عمران الإنسان، وسيظل كذلك إلى يوم القيام، إذ تلك سنة الله في خلقه وكونه: ﴿فَلَس تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

⁸⁵² ن: "وعلم آدم الأسماء كلها" محمود فرج الدمرداش، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1996، القاهرة، ص: 58.

⁸⁵³ ثمة خلاف في أول ما خلق الله من هذا العالم، والأقوال المتبعة في المسألة ثلاثة: القلم، كما يرجحه ابن جرير الطبري وابن الجوزي؛ والعرش، كما يرجحه ابن تيمية وابن القيم؛ والماء، وهو مروي عن ابن مسعود وطائفة من السلف، ورجحه بدر الدين العيني؛ ولكل فريق أدلته:

فالذين قالوا إن القلم هو أول مخلوق قد استدلوا بما رواه عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)؛ رواه الترمذي (2155) وأبو داود (4700)، وصححه الألباني في "صحيح الترمذي".

والذين قالوا العرش، استدلوا بحديث عمران بن حصين عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)؛ رواه البخاري (3019)

أما أصحاب القول الثالث فقد استدلوا بحديث اختلف نقاد الحديث في تصحيحه و تضعيفه عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ: قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ ؟ قَالَ: (كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ)، والحديث صححه الطبري ، وحسنه الترمذي والذهبي وضعفه الألباني في " ضعيف الترمذي "

وقد ذكر ابن القيم هذا الخلاف في نونيته بقوله:

والناس مختلفون في القلم الذي *** كُتِبَ القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده *** قولان عند أبي العلا الهمداني

والحق أن العرش قبل لأنه *** عند الكتابة كان ذا أركان

⁸⁵⁴ الترمذي: كتاب التفسير، باب تفسير سورة "ن" رقم: 3319، والحاكم رقم: 3693، (وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح: 2017 (صحيح الجامع).

﴿٤٣﴾ وَلَسْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٨٥٥﴾؛ ومن هنا لم يكن الأمر من باب المبالغة حين أشار الرسول ﷺ في حديثه أن الدنيا بكاملها لا قيمة لها - بل هي ملعونة - إلا إذا قامت بالعلم وذكر الله تعالى، فهذا الترمذي يروي لنا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا: ذِكْرُ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا)⁸⁵⁶

المسألة الخامسة: العلم صرخة القرآن الأولى

وحينما أراد الحكيم جلّ جلاله أن يُقدّم لخلق حاضرة مثالية وعمرانا نموذجيا اختار لهم الإسلام ديناً، فكان أول ما نزل من نصوصه على قلب رسول الله ﷺ أيّ تقرر أن هذا الدين الجديد "الإسلام" يقوم على العلم ويرفض الضلالات والأوهام جملة وتفصيلاً؛ فقد نزل الوحي أول ما نزل بآيات تتحدث حول قضية واحدة تقريباً، وهي قضية العلم، قال تعالى: ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ إِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾⁸⁵⁷؛ وهذا النزول الأول بهذه الكيفية عجيب فقد اختار موضوعاً معيناً من عشرات المواضيع التي يتضمنها القرآن الكريم، وبدأ به مع أن الرسول ﷺ الذي تنزل عليه القرآن أمي لا يقرأ ولا يكتب، وأن العرب كانوا لا يعرفون شيئاً من العلوم إلا النزر القليل، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم بكل مجالاتها.. فكان في ذلك دليل واضح أن قضية العلم قضية جوهرية في إقامة الحياة وازدهار الحضارات، وأنه بمثابة صرخة أولى للقران لإقامة العمران؛ فهو يُعلّم للناس جميعاً من أول يوم ومن أول لحظة، أن الذي يريد أن يرتبط بهذا الدين لابد أن يبذل مجهوداً مُضنياً في العلم والتعلم والقراءة، لقد كان

⁸⁵⁵ فاطر: 43

⁸⁵⁶ الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، رقم: 2322، والدارمي، رقم: 322 والطبراني في الأوسط، رقم: 4072؛ وقال الألباني: حسن؛ رقم: 1609 (صحيح الجامع).

⁸⁵⁷ العلق: 1 . 5

الإسلام بمثابة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما ألفت روح العلم وما تعودت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أول كلمات القرآن تعرف باسم "الجاهلية"!! فجاء الإسلام ليبدأ العلم، ولتُنار الدنيا بنور الهداية الربانية

ولم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز "القرآن" هي التي تتحدث عن العلم وقيّمته وأهميته، بل كان هذا منهجاً ثابتاً في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، يدل على أن القرآن الكريم هو كتاب عمران - كما ذكرت قبل هذا في موطن سابق من هذا البحث - إن المتتبع لكلمة "العلم" بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله تعالى سيجدها إذ قد بلغت 779 مرة⁸⁵⁸!! أي بمعدل سبع مراتٍ - تقريباً - في كل سورة!! وهذا عن كلمة "العلم" بمادتها الثلاثية (ع ل م) فقط، بغض النظر عن كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم من مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبيئة.. وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحثُّ عليه.

أمّا السنة النبوية فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً.. فقد وردت كلمة "العلم" في صحيح البخاري أكثر من ثلاثمائة مرة، وهذا كتاب واحد من كتب السنة، فكيف بكتب السنة الأخرى الكثيرة ما يحوي أضعاف ما في صحيح البخاري، مثل موطأ الإمام مالك صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه والدارمي والبيهقي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وكذلك معجم الطبراني وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم، وغيرهم كثير

المسألة السادسة: العلم صفة ملازمة للأنبياء لإقامة العمران

ومّا يؤكّد أهمية العلم في بناء العمران البشري أن الأنبياء - عليهم السلام - الذين جاءوا لإقامة العمران وإصلاح البلاد وإسعاد العباد، كان من أبرز صفاتهم العلم، فقد ربط تبارك و تعالى في كتابه الكريم بين الأنبياء وتلك الصفة، على أساس أنها صفة لازمة

⁸⁵⁸ ن: " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" مرجع سابق، ص: 576، إلى ص: 589

لهم، ومن استقرأ الآيات التي تتحدث عن هؤلاء الأصفياء اتضح له ذلك جليا حيث يكون ذِكرُ الأنبياء دائما مرتبطا بالعلم، فقال تعالى في حق آدم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وقال في حق لوط: ﴿وَلُوطًا - أَتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾⁸⁵⁹ وقال في حق موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾⁸⁶⁰

وقال في شأن يعقوب: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁸⁶¹؛ قال في وصف يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾⁸⁶²؛ وقال في حق داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَبَقَّيْنَاهُمَا سُلَيْمٰنَ وَدَاوُدَ ءَاتَيْنَاهُمَا مَا نَشَآءُ لَهُمَا فَرَغُوا مِنْهَا وَنَبَذُوا فِي الْحَيٰثِ كُلَّ خُلَآئِفَةٍ وَرَأَيْنَا فَطْرَتَهُمَا وَسَخَّرْنَا لَصٰدِقِهِمَا الْيَمِينَ وَآتَيْنَاهُمَا مَا نَشَآءُ لَهُمَا فَرَغُوا مِنْهَا وَنَبَذُوا فِي الْحَيٰثِ كُلَّ خُلَآئِفَةٍ وَرَأَيْنَا فَطْرَتَهُمَا وَسَخَّرْنَا لَصٰدِقِهِمَا الْيَمِينَ﴾⁸⁶³؛ وقال في امتنانه على عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرٰتِ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾⁸⁶⁴؛ وقال كذلك في حق رسولنا الكريم ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾⁸⁶⁵؛ وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر { قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحٍ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّىٰ إِنِّي لَأَرَىٰ

⁸⁵⁹ .الأنبياء: 74

⁸⁶⁰ .القصص: 13

⁸⁶¹ . يوسف: 68

⁸⁶² . يوسف: 13

⁸⁶³ .الأنبياء: 78

⁸⁶⁴ . آل عمران: 48

⁸⁶⁵ . النساء: 112

الرَّيِّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْعِلْمُ⁸⁶⁶ فكان العلم أثمن ما يمتلك الأنبياء، فبه أخرجوا الإنسان من غياهب الجهل إلى أنوار الحكمة، وبه أقاموا العمران وشيدوا الحضارات ..

المسألة السابعة: دور العلم في تحقيق النجاح العمراني

وفي القرآن الكريم وردت عدة قصص مفادها أن العلم يُسهم في تحقيق نجاح عمراني كبير إن على مستوى الفرد أو المجتمع، وأنه كلما توفرت هذه الصفة انعكست على صاحبها تفوقاً ونجاحاً وفلاحاً!! فهذا طالوت لما بعثه الله قائداً لبني إسرائيل، فأنكر بعضهم استحقاقه، فكان الجواب ببيان مؤهلاته القيادية، على رأسها العلم؛ وها هو الحوار يفصح عن هذه الحقيقة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَأَبْنَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُوتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ فَسَوْفَ لِيَ أَكُونَ مِمَّنْ دُونِ الْحَافِظِ وَمَنْ لَّمْ يَمْسَسْ يَدَهُ فَيَسْجُدْ وَهُوَ حَافِظٌ فَاذْنِ ابْنِ اللَّهِ وَاسْعُ عَلَيْهِمُ⁸⁶⁷؛ وكان النتيجة أن نصر الله عز وجل طالوت - هذا القائد الموصوف بالعلم والقوة - ومن معه على جيش الكفر بقيادة جالوت؛ قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ وكان داود - عليه السلام - من جنود طالوت وهو الذي قتل جالوت، وقد أثنى الله عليه بصفة العلم فقال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ⁸⁶⁸﴾

وذاك سليمان عليه السلام - حينما هيمن على ملكة سبأ وغلبها، وكان سبب ذلك هو صفة العلم عنده كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِمَّنْ قَبْلُهَا وَكُنَّا

⁸⁶⁶ البخاري: كتاب العلم، باب فضل العلم (82) (ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر

⁸⁶⁷ البقرة: 245

⁸⁶⁸ البقرة: 249

مُسْلِمِينَ ﴿٨٦٩﴾؛ وجاء هنا العلم مطلقا ليشمل العلم بمدلوله الواسع الذي سمّيته العلم العمراني بدليل قوله تعالى: ﴿فِيلَ لَهَا أَدْخُلِ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَبَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ فَوَارِيرَ﴾⁸⁷⁰؛ فقد ذكر هنا الصرح هذا البناء العجيب ليدل على التقدم العلمي المعماري، كما يظهر دور العلم بقوة - في هذه القصة - في إقامة العمران، حينما ندب جنوده ليأتوا بعرش ملكتهم، فانتدب لذلك اثنان، قال أحدهما: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَفَوِيٌّ أَمِينٌ﴾⁸⁷¹؛ وقال الآخر: ﴿أَلَدَيْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾⁸⁷²؛ فانظر إلى هذا الفرق الواضح والكبير بين من أوتي العلم وبين من تجرد منه !! وصدق الله العظيم في قوله: ﴿فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁸⁷³؛ أي لا يستويان أبدا!!

وقد مدح الله تعالى أيضا الخضر، ودل موسى عليه السلام - عليه ليتعلم منه، لأنه اتصف بالرحمة والعلم فقال: ﴿بَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾⁸⁷⁴؛ وقد حرص موسى عليه السلام كل الحرص على اقتناص العلم من هذا العبد فقال له: ﴿مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا

⁸⁶⁹ . النمل: 43

⁸⁷⁰ . النمل: 45

⁸⁷¹ . النمل: 40

⁸⁷² . النمل: 41

⁸⁷³ . الزمر: 9

⁸⁷⁴ . الكهف: 65

﴿⁸⁷⁵؛ وقد فعل أمورا استنكرها موسى عليه السلام قبل أن يعلم العلة من وراء ذلك، و لكن سرعان ما اطمأن قلبه لها بعد معرفته تأويل ما فعله الخضر - عليه السلام - ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ، عَنِ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾⁸⁷⁶؛ كل هذا وغيره يدل على مكانة العلم العمرانية والحضارية!!

والأمثلة كثيرة جدا نكتفي بهذا القدر لنخلص إلى حقيقة يقينية وهي أن العلم سبب من أهم الأسباب ووسيلة من أعز الوسائل لبناء صرح العمران بشقيه الروحي والمادي؛ ولذلك جعل البخاري - رحمه الله - بابا ضمن كتاب "العلم"، بعنوان "باب العلم قبل القول والعمل"⁸⁷⁷ مستدلا بقوله تعالى: ﴿بَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾⁸⁷⁸؛ وقد نقل ابن حجر كلاما لابن المنير أنه قال "أراد به أن العلم شرط في صحة القول و العمل، فلا يُعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل"⁸⁷⁹.

وهنا أجدني مضطرا لأن أشير إلى قاعدة أصولية وهي "أن المفرد المعرف بـأل يفيد العموم كما هو عند جمهور الأصوليين"⁸⁸⁰؛ فيكون المعنى من الحديث أن كل قول وكل

⁸⁷⁵ . الكهف: 66

⁸⁷⁶ . الكهف: 81

⁸⁷⁷ . ن: " صحيح البخاري " باب العلم قبل القول والعمل، (1 / 24)

⁸⁷⁸ . محمد: 20

⁸⁷⁹ . ن: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للحافظ ابن حجر العسقلاني، مصححة على النسخة التي حققها ابن باز، دار الفكر؛ ط: 1؛ 1420هـ / 2000م؛ (1 / 216)

⁸⁸⁰ . ن: مثلا " نيل السؤل على مرتقى الوصول"، ص: 147؛ قال الناظم رحمه الله في هذه المسألة: " و مفرد مع أَل إذا الجنس خفأ " أي أن المفرد المعرف بـأل هو من أدوات العموم، إذا خفا أي إذا ظهر فيه العموم، نحو قوله تعالى: ﴿ وأحل الله البيع ﴾ .

عمل في أي مجال من مجالات العمران يحتاج إلى ما يناسبه من العلم؛ ولأجل ذلك جعله - أي العلم - الرسول ﷺ مجالا للتنافس لتحقيق الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ : (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)⁸⁸¹؛ فالعلم أعظم النعم التي أنعم بها الله العليم الخبير على مخلوقاته .. فلا غرو إذن أن يكون العلم من الأشياء القليلة التي أمر الله عز وجل رسوله الكريم ﷺ أن يطلب الاستزادة منها، فقال تعالى موجهاً نبيه والأمة الإسلامية من بعده: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁸⁸²؛ وما ذلك إلا لدور العلم الكبير في العملية العمرانية والحركة الحضارية؛ فتأمل وأبصر!!

⁸⁸¹ 3 البخاري: "كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة"، رقم: 73، ومسلم: "كتاب صلاة المسافرين"،

باب من يقوم بالقرآن ويعلمه رقم: 816

⁸⁸² طه: 111

المطلب الثاني: وسيلة تزكية النفس عبر مقامي التخلية والتخلية

تقدم القول فيما مضى⁸⁸³ أن العمران قد يطلق ويراد به عمران القلوب، ومنه قول قتادة عن الإمام الدارمي (اعمروا به قلوبكم، واعمروا به بيوتكم)؛ قال أراه يعني القرآن⁸⁸⁴، وذكرت أيضا - أن عمران القلب والروح هو أصل العمران؛ فقلت: "إن عمران الروحي الوجداني النفسي هو الأصل والأساس والمنطلق لتصحيح أي مسار عمراني حضاري، إذ أن الإنسان المعمّر هو المسؤول عن العمران من لدن الحكيم الدّيان، ولا يمكن أن يقوم بذلك إلا إذا كان هو عامرا أولا، إذ فاقد الشيء لا يُعطيه، وإنما عمران الإنسان المعمّر بعمران روحه و نفسه و وجدانه وأحاسيسه ومشاعره وكل خلجات قلبه، وقد جليت هذا الأمر فيما سبق أثناء حديثي عن أنواع العمران"⁸⁸⁵..

ومّا يقوّي هذا التصور هو ما ذكره الراغب الأصفهاني بقوله: "قد تقدم أن الخلافة تُستحق بالسياسة، وذلك بتحري مكارم الشريعة؛ والسياسة ضربان:

أحدهما: سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به.

والثاني: سياسة غيره من ذويه وأهل بلده - قلت: وغيرهم ممن شاء الله - ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه، ولهذا ذمّ الله تعالى من ترشح لسياسة غيره، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁸⁸⁶؛ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِمَّا ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾⁸⁸⁷؛

⁸⁸³ في المطلب الثاني من المبحث الثالث للفصل الأول من هذا الباب

⁸⁸⁴ سبق تخريجه ص: 78

⁸⁸⁵ وذلك في المبحث الثاني من الفصل الثاني، من هذا الباب.

⁸⁸⁶ البقرة: 43

⁸⁸⁷ المائدة: 107

أي هذبوها قبل الترشح لتهديب غيركم(..) ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل، ومن المحال أن يستوي الظل وذو الظل أعوج⁸⁸⁸..

فسياسة الإنسان لنفسه هي تزكيتها لها عبر عمليتي التشذيب والتهديب، والتخلية والتخلية، وهو يقتضي مخالفتها لأهوائها وإلزامها بأوامر بارئها، فثمت غذاؤها ودواؤها وما تقوم به حياتها وتحقق سعادتها، وبالتالي يتم وينمو عمرانها؛ إن تلك العملية أطلق عليها القرآن اسم الجهاد؛ وأيُّ جهاد هذا؟! إنه جهاد النفس بها وفيها؛ فأية صعوبة وأيُّ كلف هذا!! ومن ذا يستطيعه يا ترى؟!

لكن أبشر بمعونة ومعية خالقك إن أنت بدأت، فلمسة بأناملك للزرّ تتدفق عليك شلالات الأنوار وبوارق الأسرار!! ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁸⁸⁹؛ ذلك ما كان، والله المستعان!!

إن تزكية النفس محرّك قويّ لإقلاع الطيران العمرانيّ والحضاريّ، وأصل من أصول السلوك الإيمانيّ؛ وحصنٌ يُدأذ به الفعلُ العمرانيّ للإنسان عن الطغيان والفساد، وبالتالي يحميه من الخراب واليباب، والأفول والذهاب، فالتزكية بما هي عملية في التغير لترقية الذات الإنسانية من داخلها، وانتشالها من حماتها ومسنونها، لتحلّق عامرة معمّرة إلى بارئها وخالقها، فترسخ كوامن الخير والقوة بها وتتنقّى من جميع أدرانها وأرجاسها؛ كل ذلك من خلال تربية نفس الإنسان تهذيباً وتشذيباً وتركيباً، تخلية وتخلية ثم تجلية وترقية، لتحقيق خلافة الله في خلقه، وعمرانه في أرضه..

لأجل ذلك كان كلّ تغيير منشود وكل عمران مقصود متوقفاً على التغير الداخلي للنفس، وهو ما يمكن أن يُنتج عمراناً روحياً، والذي يمثّل مقدمة ضرورية لإنشاء العمران المادي!!

وها هي الآية ناطقة بذلك ومقرّرة له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

⁸⁸⁸ ن: "الذريعة" مصدر سابق، ص: 84، مع التصرف

⁸⁸⁹ العنكبوت: 69 .

مَا بِأَنْفُسِهِمْ⁸⁹⁰، نعم بهذا التعبير المعجز الضارب في أعماق الوجدان، والمزلزل لكل خمول أو خنوع أو كسلان، وبهذا التغيير المرتبط بالإنسان المعمر والمتمثل في حركته الداخلية العميقة يقع التغيير الثاني المتصل بمن أمره بين الكاف والنون، وفق مراد الله المتعلق بسننه وقوانينه في خلقه، وكذا أحكامه وشرعه!!

"فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني؛ فرداً وجماعة وأمة، مادة وروحاً؛ وأيُّ حديث عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا تعلّق بالإنسان، واستهدف ترقّيته في مراتب التزكية التي هي هدف العمران ووسيلته، فهي ليست مسألة مشاعرٍ وخلجاتٍ وخواطرٍ نفسيةٍ، مقصورة على مستوى الإصلاح الفردي، بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري"⁸⁹¹

فإذا كانت التزكية بهذا العمق الوجداني وهذا التأثير العمراني الإنساني، فلا بد من تجلية كوامنها وتأصيل مسائلها وحبك خيوطها؛ فما مفهومها؟ وما مجالها؟ وما مصادرها؟ وما تجلياتها العمرانية؟

المسألة الأولى: مفهوم التزكية:

وقد عالج الدكتور حسن ملكاوي موضوع التزكية من خلال تتبع دلالاته في الوحي المؤسس لدلولها حيث قال: "وردت مشتقات زَكُو وهو الأصل الثلاثي من لفظ التزكية تسعاً وخمسين مرة، منها: زَكَى، وَزَّكَى، وَزَّكَّى، وَأَزَّكَّى، وَزَكَا، وَأَزَّكَّى الخ...، ومنها اثنتان وثلاثون مرة بلفظ الزكاة، أي زكاة المال على وجه التحديد، بمعنى التطهير والبركة والنمو، وأربع مرات بمعنى المدح والثناء، وأربع مرات بوصف التزكية واحداً من مقاصد الوحي الأربعة، وبقية الآيات تتحدث عن مجالات مختلفة من التزكية بمعاني: التطهير

⁸⁹⁰ الرعد: 11

⁸⁹¹ ن: "منظومة القيم العليا" للملكاوي، مرجع سابق، ص: 81، بتصرف زيادة ونقصانا

والتزكية والتنمية والزيادة في الحسن والنفع⁸⁹²..

وقسّم المؤلف مدلولات ألفاظ التزكية في القرآن الكريم إلى قسمين:

أولهما: تزكية مذمومة: وهي مدح الإنسان لنفسه أو غيره..

وثانيها: تزكية محمودة: وتشمل تزكية النفس، وتزكية المال، وتزكية الله للإنسان، وأنها من مهام الرسل؛ كما بين أن التزكية في ألفاظ الحديث النبوي لم تخرج عن الدلالات القرآنية⁸⁹³

وعندما نتأمل لفظ التزكية بكل مشتقاتها وسياقاتها المختلفة نجدها تدور حول معنيين كبيرين: **التطهير والنماء**؛ ومن خلال ذينك المعنيين يمكن تقسيم عملية التزكية إلى مرحلتين، وهو ما سنجعله تحت المسألة الثانية.

المسألة الثانية: مراحل التزكية

من خلال التعريف السابق نستنتج أن التزكية تمر عبر مرحلتين رئيسيتين، الأولى نطلق عليها اسم **"المرحلة التطهيرية"** أو **"مرحلة التّخلية"**، والثانية نسميها **"المرحلة التزويدية"** أو **"مرحلة التّحلية"**

المرحلة الأولى: التطهيرية أو التّخلية

هذه المرحلة يعمل فيها أولاً على إبراز الصفات السلبية المرصية لدى النفس، ثم إزالتها وتصفية النفس منها، كما يزيل الفلاح كل النباتات الطفيلية من زرعه ليخلو له المناخ فينمو ويزكو؛ وهذه مرحلة التّخلية - بتعبير أرباب السلوك - وهي مرحلة أساس وأولية، إذ لا بد من التشذيب والتهذيب قبل الزيادة والتركيب، ولا بد من الإزالة قبل الإحالة، والتّخلية قبل التّحلية، وهو منهج قرآني أصيل ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

⁸⁹² المرجع السابق ص 82

⁸⁹³ هي عبارة المفكر طه عبد الرحمن الذي يكاد ينفرد بمصطلح يجعل المنقول من الغير مقابلاً للموصول، والمدخول مقابلاً للمكمول الذي لم يدخله عنصر خارجي.

وَيَوْمٍ بِاللَّهِ فَعَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْخِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٩٤﴾ فلا إثبات ممحّض إلا بعد النفي على وزن قول "لا إله إلا الله"

المرحلة الثانية: التزويدية أو التحلية

وهذه مرحلة ثانية تأتي بعد التي قبلها لا تقل أهمية عنها، بل هي المقصودة من التزكية، وإنما كانت الأولى من أجل تحقيق الثانية على وزن القاعدة الأصولية "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، وسمّيناها تزويدية لأنها تعني تزويد النفس بكل صفة من شأنها أن ترتقي بها إلى مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنها تراه فإن لم تكن تراه فإنه سبحانه يراها، فتأهل بذلك للقيام بوظيفة العمران التي هي من لوازم الاستخلاف - كما سبق أن بينت - وهذه المرحلة يسميها أرباب السلوك والتربية بمرحلة "التحلية" ..

وعلى كل حال فالتزكية التي نرؤمها باعتبارها وسيلةً للعمران فإنها تشمل المعنيين معا وتقتضي المرحلتين كليهما، ومن ثم ربطها الله تعالى في القرآن بالفلاح وهو تحصيل المرغوب و النجاة من المرهوب، وتلك عملية صلاحية إصلاحية و نتيجة تعميرية عمرانية؛ وصدق الله الكريم إذ يقول في آية عمرانية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ قَالَ هَمْهَا بُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّيْنَاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيْنَاهَا ۚ﴾⁸⁹⁵ ..

ولعمري إنها لآية كاشفة عامرة مُعمّرة لما تضمنت من أسلوب أفاد تحقيق الحكم دون شك أو ريب، وذلك بدخول " قد " على الفعل الماضي: "أفلح " و"خاب"، فكانت بذلك آيةً مُنتجةً لعمران الروح لمن تأمل وأبصر!!

ومن ثم فإنّ التزكية ليست إضفاء عباراتِ الثناء أو المدح للنفس، وليس محاولة لتلميعها في عيون الآخرين؛ بل ذلك غرور ممقوت: ﴿فَلَا تَزَكَّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ

⁸⁹⁴ البقرة: 255

⁸⁹⁵ الشمس: 7 . 10.

بِمَسِّ إِتِّفَآءٍ⁸⁹⁶؛ بل لا بد من اتهامها دائماً، فإنه إذا لم يتهمها الإنسان أغوته وقادته إلى التهلكة، وإن أجمعها بلجام الرعاية والتقوى قادها إلى المراتب العالية، فهي كالطفل تماماً كما يقول البصري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ** حب الرضاع وإن تطفمه ينفطم⁸⁹⁷

ومن أجل ذلك كانت التزكية عملية - في واقعها العملي - تطهير النفس من الكفر، ثم من الجهل، ثم من الأحاسيس الدنيئة، والمشاعر الشهوانية، والأقذار الإنسانية، والمعتقدات المشوهة، والأخلاقيات المنحرفة، والأعمال الزائغة عن أوامر الشرع ونواهيه، أي تطهير القلب من فساد الاعتقاد، وتطهير الأفعال من مذمات الأعمال، وتطهير العقل من نقائص الجهل - وهذا هو المعنى الأول و المرحلة الأولى - ثم متابعة تلك التخلية بالتخلية، فإذا خلّيت القلب من فساد الاعتقاد خلّيته بالتقوى والإيمان بالواحد الديان، وإذا خلّيت العقل من نقائص الجهل خلّيته بالعلم والحكمة والعرفان، وإذا خلّيت الأفعال من قبائح الأعمال خلّيتها بجميلها والمشاعر النقية، وإذا خلّيت الروح من جفاف الدنيا ملأها بروح وريحان، وأنس وعرفان!! وبهذا يتحقق عمران النفس الداخلي فتنتقل إلى العمراني الخارجي فيتحقق صلاحها وإصلاحها وعمرانها وإعمارها؛ لأجل ذلك كله كانت تزكية النفس أمراً لا مناص منه لبناء عمران حافل بالخيرات والبركات!!

المسألة الثالثة: دور التزكية في العمران

ويربط مالك بن نبي ازدهار الحضارة والعمران وانكماشهما بالجانب النفسي الروحي للفرد والمجتمع فيقول: "وهكذا وجدنا الحضارة الإسلامية تتوسع وتنتشر فوق الأرض (...). بما تبقى لها من مخزون روحي، حتى إذا ما وهنت فيها قوى الروح، وجدناها تخلد

⁸⁹⁶ .النجم: 31

⁸⁹⁷ . أرجوزة البصري

إلى الأرض شيئاً فشيئاً" 898

ويوضح رحمه الله دور تركية النفس في إقامة العمران ونمو الحضارة بقوله : " وطالما أن الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل المؤدية إلى الحضارة ونموها، فإن هذه العوامل النفسية تحتزن بطريقة ما فيما وراء الشعور، وفي الحالة التي تنكمش فيها تأثيرات الروح والعقل تنطلق الغرائز الدنيا من عقالها، لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية، وكذلك كان شأن المسلم، فقد بعث الدين فيه روحاً محرراً للحضارة، فلم يلبث بعد مرحلة قضائها في الخلافات والحروب أن عاد إلى حيث هو الآن إنساناً بدائياً " 899 ؛ ومن خلال هذا الكلام يتأكد لنا أن إصلاح النفس وتزكيتها هي أول خطوة في بناء العمران ولذا قلنا من قبل "بناء الإنسان قبل إقامة البنيان" ، وهو ما يؤكد قولنا أن العمران الروحي والنفسي أصل للعمران المادي، وأن الجانب المادي إذا تجرد من الروحي الوجداني لا يُسمى عمراناً، بل هو الخراب ذاته واليباب نفسه، فتأمل !! ولقد أبان مالك بن نبي عن دور الإنسان في بناء الحضارة والعمران انطلاقاً من معادلته المشهورة: " أن الحضارة تساوي الإنسان + التراب + الزمن.." وأن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية: "مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت"؛ فَلَكَيْ نقيم بناء حضارة أو عمران كان لابد من حلّ هذه المشكلات الثلاث من أساسها" 900 ..

بل إنني أزعّم أنّ أسَّ هذه المشكلات هي مشكلة الإنسان نفسه، وهذا الأخير تكمن مشكلته في خراب روحه ووجدانه الباطني، وعمران ذلك يكن بالإيمان الذي ما جاء القرآن إلا لتثبيته في قلوب العباد! ولذا قيل: "من القرآن إلى العمران!!" وأقول: "القرآن

898 ن: "شروط النهضة" مرجع سابق، ص: 53،

899 : نفس المرجع، ص 53

900 : نفس المرجع، ص 53

عمران !! "على وزن قوله ﷺ (الحج عرفة)⁹⁰¹ وقد تساءل مالك بن نبي عن سبب عدم إنتاج هذه العناصر الثلاثة الحضارة تلقائياً، وضرب - للجواب عن هذا التساؤل - الماء مثالا، حيث أن الماء ناتج عن ذرتين من الهيدروجين و ذرة من الأكسجين (H2O)، وبالرغم من ذلك فهما لا يكونانه تلقائياً، بل لا بد من تدخل عنصر آخر؛ وكذلك الشأن بالنسبة لهذه العناصر فإنها لا تكوّن حضارة أو عمراناً إلا بعامل آخر يؤثر فيها وهو الفكرة الدينية، كما بيّنت ذلك الدراسة التاريخية تكوين الحضارة عبر الحقب الزمانية⁹⁰².

وإنما إذا حاولنا أن ندقق النظر في هذه الفكرة الدينية الموجهة للعناصر - وقد جعلتها شرطاً للعمران - فإننا نجد أنها أشد ارتباطاً بالإنسان، إذ هذا الأخير هو المسؤول أولاً وآخراً عن إقامة العمران وإنشاء الحضارة، فالفكرة الدينية، أو العقيدة كما سميتها - في شروط العمران - هي الموجهة للإنسان لإقامة العمران، ولذلك كان كل رسول يبدأ حملته **العمرانية بشعار:** ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، ومن ثمّ فإنّ الإنسان إذا أراد أن ينطلق في بناء عمرانته فإنّ خطوة البداية تكون من وُضِعَ نفسه في بوتقة الدين لبناء نفسه أولاً - وقد أكدنا على هذا قبلاً - أو بعبارة أخرى لتغيير نفسه من الخواء إلى العمران ف﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁹⁰³ وقد اعتبر مالك بن نبي هذا الأمر أول مرحلة لبناء الحضارة، وهذا الانطلاق أو التغيير مصدره هو الدين أو العقيدة، وهو ما يؤكده القرآن في غير ما مرة حينما يسرد قصص الأنبياء مع أقوامهم فإن دعوتهم جميعاً

⁹⁰¹ . رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد والدارقطني والبيهقي، من حديث عبد الرحمن بن يعمر قال: (شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفات، وأتاه ناس من أهل نجد، فقالوا يا رسول الله كيف الحج؟ فقال: الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه)؛ لفظ أحمد، وفي رواية لأبي داود: (من أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك الحج)؛ وألفاظ الباقيين نحوه، وفي رواية للدارقطني والبيهقي: (الحج عرفة، الحج عرفة).

⁹⁰² ن: "شروط النهضة" مرجع سابق، ص: 45 وما بعدها..

⁹⁰³ الرعد: 12

لبناء عمرانهم ﴿يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ ؛ إنّ هذا البناء الروحاني للنفس يعتبر من أهم مجالات التزكية و أوكدها على الإطلاق !!

المسألة الرابعة: مجالات التزكية

قد ذهب الدكتور حسن ملكاوي إلى أن مجالات التزكية تأخذ بعدا شموليا : تزكية النفس، وتزكية المشاعر، وتزكية المال، وتزكية الفرد وتزكية الأمة، كما أشار إلى بعض وسائل التزكية منها القرآن الكريم والذكر والفكر وصحبة الصالحين معتمدا في ذلك رؤية القرآن الكريم والسنة النبوية في بناء مفهوم التزكية وفي هذا يقول "وهكذا فإنّ المرجعية القرآنية في الحديث عن التزكية قد أشبعت بياتها، وأظهرت قيمتها، وحددت مجالاتها ووسائلها؛ فالتزكية في القرآن تكون للفرد: لمشاعر نفسه، وخلجات قلبه، وسلوك جوارحه، والتزكية تكون للجماعة والأمة؛ فالنبي المبعوث للأمة يزكيها، يزكي علاقات الناس، وأنظمة الحياة، وتكون التزكية للمال، فزكاة المال تطهير، وبركة، وتنمية، لمال الفرد ومال المجتمع، وقد أفلح من الناس من تزكى، حين يتفضل الله عليه بالتزكية، ومن حرم من تزكية الله له، فإن تزكيته لنفسه، وتزكية الناس له لا تنفعه فتيلاً، وقد تضره كثيرا"⁹⁰⁴

ولعل أهم مجال للتزكية - كما سبق - هو نفس الإنسان المستخلف المكلف بالعمران، إذ هي محل الخطاب ولعلّ أوضح آية في ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْهَا ۖ ۝ فَآلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّيْهَا ۖ ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيْهَا﴾⁹⁰⁵؛ فالفلاح منوط بتزكية النفس وتربيتها، أما إهمالها وتدسيته فذاك خسرها المبين..

المسألة الخامسة: وسائل التزكية

أختم هذا المطلب بهذه النقطة التي تتعلق بوسائل التزكية، وذلك أننا بعد حديثنا

⁹⁰⁴ ن: "منظومة القيم" ملكاوي، مرجع سابق، ص: 121،

⁹⁰⁵ الشمس: 7 . 10.

عن دور التزكية العمراني كان لابد أن نتعرف على وسائلها، وقد ذكر الدكتور حسن ملكاوي بعض الوسائل حدّدها في القرآن الكريم والذكر والفكر وصحبة الصالحين⁹⁰⁶..
وسأكتفي بذكر القرآن الكريم ككتاب مسطور، وأضيف إليه تأمل الكون والتفكر فيه ككتاب منظور، إذ هما صنوان خرجا من مشكاة واحدة، فأولهما يمثل أمر الخالق، وثانيهما يمثل فعله، وكلاهما يمثلان مصدر تزكية للنفس وترقية لها في درجات الشهود ومراتب الإحسان!!

ولو تأملنا كتاب الله المسطور الذي أنزل على قلب نبيّنا محمد ﷺ لألفيناه في كثير من آيه المباركة يربط ويدل المكلف على الكتاب المنظور ليستدلّ به على ما تتركي به النفس من توحيد الله وبيان حقيقة الدنيا، وما ينتظر الإنسان من بعث وحساب وغير ذلك ممّا تسمو به النفس ويكمل به عمرانها؛ ولناخذ على سبيل المثال مقطعا من الكتاب المسطور يتلأأ أنوارا تنسكب على النفس تخلية وتخلية، تفرّغا وعمرانا؛ ولنستمع إليها وهي تفيض بذلك: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْقَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَفَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَفَةٍ لِّنَبِّئِكَ لَكُمْ وَأَنْفِرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾⁹⁰⁷؛ فتلك آي من الكتاب المسطور خاطبت قوما تدنّست أنفسهم بالكذب وعدم الإيمان باليوم الآخر، وزعموا أنه لا بعث ولا حساب، فذكّرهم

⁹⁰⁶ ن: "منظومة القيم" مرجع سابق، ص: 111

⁹⁰⁷ الحج: 5 - 6 - 7.

الله بمراحل وأطوار خلقهم، ودعاهم للنظر في مظاهر الكون والوجود كإحياء الأرض بعد موتها كما جاء في سياق الآي السابقة، كل ذلك من أجل بيان حقائق الوجود حتى تنجلي الحجب - التي رانت على قلوبهم فأعمت أعينهم وأصمّت آذانهم حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل - التي طالما منعتهم من إِبصار ما تزكو به أنفسهم وتعمر قلوبهم، وهذا من أعظم وظائف القرآن ومهام النبي العدنان ﷺ ..

ومّا يدل على هذا الربط بين الكتابين المسطور والمنظور ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره عندما تناول بيان الآيات التي تحصل بها التزكية الواردة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁹⁰⁸؛ قال رحمه الله: "واعلم أنه تعالى لما طلب بعثة رسول منهم إليهم، ذكر لذلك الرسول صفات، أولها: قوله: يتلوا عليهم آياتك وفيه وجهان؛ الأول: أنها الفرقان الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك، فوجب حمله عليه؛ الثاني: يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، ومعنى تلاوته إياها عليهم: أنه كان يذكرهم بها ويدعوهم إليها ويحملهم على الإيمان بها؛ وثانيها: قوله: ويعلمهم الكتاب والمراد أنه يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه،(..)، فإن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى ونورا لما فيه من المعاني والحكم والأسرار"⁹⁰⁹؛ قلت : ولا تعارض بين القولين بل الأولى الجمع بينهما، أي بين قراءة الكتاب المسطور الذي سمّاه الرازي "الفرقان"، وقراءة الكتاب المنظور الذي عبّر عنه بقوله: "الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته"؛ وهذا - فيما يبدو - هو الراجح، وهو ما يدل عليه القرآن في كثير من سياقاته، والآيات التي سقتها قبلُ شاهدةٌ على ذلك !!

⁹⁰⁸ البقرة: 129

⁹⁰⁹ ن: " مفاتيح الغيب" للرازي، مع التصرف بالنقص، مصدر سابق، (4/ 58 . 59)؛

ونؤكد على هذا أيضا بقوله تعالى في سياق عجيب جليل لمن أبصر وتدبر!! ﴿فَلْ أَرَاتِيكُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنَ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شَفَاوٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّفَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾⁹¹⁰

وأسوق حدثين من السنة والسيرة يدلان على ضرورة الربط بين الكتابين، وأهمية ذلك في شأن تركية النفس، وتطهيرها من أنجاسها وأرجاسها وربطها بخالقها رهبا و رغبا؛ قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ} كاد قلبي أن يطير⁹¹¹؛ وجبير بن مطعم هذا أحد زعماء قريش في الأنساب، تأخر إسلامه إلى ما بين صلح الحديبية وفتح مكة، ولكن تأثره بالقرآن الكريم سبق ذلك، وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك..

و(هذا عتبة بن ربيعة، وكان من أحكم وأبلغ رجال مكة، فانتدبه زعماء قريش ليكلّم رسول الله ﷺ ، فذهب الرجل إلى النبي ﷺ وأكثر الكلام معه، ولما فرغ من كلامه قرأ رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿جَم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ بُصِّلَتْ آيَاتُهُ، فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا فُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ

⁹¹⁰ فصلت: 51 - 52 - 53

⁹¹¹ . رواه البخاري رقم 4854، ومسلم رقم: 463.

وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّنَا عَمَلُونَ ﴿٩١٢﴾⁹¹² وتابع ﷺ القراءة وعتبة بن ربيعة منصتٌ إليه، حتى انتهى ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم عاد الرجل إلى أصحابه، فلما رأوه قالوا: "نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به"، فلما جلس قالوا: "ما وراءك يا أبا الوليد؟" فقال: "قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط! والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة! يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكون لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به؛ قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)⁹¹³.

وأشفعُ هنا بكلام للدكتور فريد الأنصاري - رحمه الله - يبيّن فيه دور الآيات المتلوّة في عملية التزكية قائلاً: "وقد وردت التزكية في جميع موارد هذه الآية من كتاب الله مذكورة بعد وظيفة تلاوة الآيات مباشرة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، كما في سورتي آل عمران و الجمعة ، وفي الآية الأخرى من سورة البقرة أيضاً: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيهِمْ﴾"⁹¹⁴، إلا في دعوة إبراهيم فقد ذكرت في آخر الوظائف كما رأيت؛ وذكرها هنا متأخرة هو لتعود على ما قبلها من الوظائف بالاستثمار؛ أي أن كلاً من التلاوة والتعليم للكتاب و الحكمة ينبغي أن يكون مثمراً للتزكية ؛ وأما عطفها على التلاوة مباشرة في الآيات الأخرى فليبيان أن التزكية تحصل للمؤمن من أول خطوة يتلقّى فيها آيات الله مؤمناً بها ، وأن تلاوة الكتاب حق تلاوته لا تكون إلا مُزَكِّية لصاحبها؛ (..)

⁹¹² . فصلت: 1 - 2 - 3 - 4.

⁹¹³ ن: "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، مصدر سابق، (7/ 163)

⁹¹⁴ البقرة: 150

وقد بعث الله محمد بن عبد الله - بعزته تعالى وحكمته - رحمة للعالمين، في وسط جاهلي عنيف، فجعل يتلو على الناس آيات ربه ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم؛ فكانت سيرته ﷺ أعلى نموذج لهذا المنهاج الرباني الرفيع! وكان بذلك محققا لقدر إلهي عظيم، قضى به تعالى، فأصلح الأرض برجل أمي يتيم؟ وإنما كان يصنع ﷺ رجاله بهذا القرآن العظيم، معتمدا منهاجا للتلاوة والتزكية والتعليم، وفي ظرف زمني وجيز تخرج جيل الصحابة الكرام الذين فتحوا العالم! وهذا من كمال عزة الله تعالى وقدرته وحكمته⁹¹⁵..

فها نحن أولاء رأينا من خلال كلام فريد وظيفه القرآن التربوية العجيبة التي تُثمر تزكيةً للنفس، وعمرانا للقلب بالإيمان والإذعان والإحسان!!

ويقول حسن ملكاوي مشيرا إلى أهمية القرآن الكريم في جانب التزكية: "ولذلك ليس ثمة تزكية لا تبدأ بالقرآن ولا تنتهي إليه، وليس ثمة تزكية لا تبدأ بالنفس الإنسانية ولا تنتهي بها، لذلك أصبحت تزكية النفس هي المظلة العامة لكل أشكال التزكية؛ وللنفس في المصطلح القرآني ذكر وافر يشتمل على تفصيلات عن طبيعة النفس جسما وعقلا وروحا، وحالات النفس: المطمئنة واللومة والأثارة بالسوء، وأسرار النفس، وأمراض النفس (..) ويكفي أن نقول إنَّ في تلاوة القرآن الكريم وتدبره، والاهتداء به أساسا لكل أنواع التزكية"⁹¹⁶

وختاماً لهذا المطلب بعد تناولنا لموضوع التزكية - بما يسر الله تعالى - أقول إنَّ هذا الأمر - التزكية أقصد - يمثل دعامة أساسية ومنطلقاً أولياً من منطلقات العمران الشامل للروح والمادة، ولل فرد والمجتمع، فلا عمران بغير تزكية، إذ العمران ملء وامتلأ، وهو ما يقتضي محلاً فارغاً من كل الموانع، فلا تحلية بغير تحلية، فتأمل وأبصر!!

⁹¹⁵ ن: "مجالس القرآن" لفريد الأنصاري؛ مرجع سابق، (3 / 230 / 231)

⁹¹⁶ ن: "منظومة القيم" للملكاوي، مرجع سابق، ص: 113

المطلب الثالث: وسيلة اكتشاف السنن الإلهية واستثمارها

إن الله تعالى بحكمته وفضله العميم أقام نظام الكون ونظام المجتمع، على سنن وقوانين ونواميس مطردة، لها صفة العموم والشمول، والثبات والدوام، والاطراد والاستمرار، فهي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تختلف ولا تتخلف، ولا تحابي أحدا من الخلق بحال، بل الكل في ميزانها سواء.

ومن ثمَّ فإنَّ هذا العالم بكل من وما فيه من نبات وجماد وحيوان وإنسان وأجرام سماوية، وما يصدر عن هذه الموجودات وما يتعلق بها ويحل فيها، وما يقع من حوادث كونية كنزول المطر وهبوب الريح وثوران البركان وتعاقب الليل والنهار، وما يحصل للإنسان من أطوار خلقه وتكوينه في بطن أمه وما يحدث له وللأمة من شقاء وسعادة ورفعة وسقوط وعلو وانحطاط وقوة وضعف وبقاء وفناء ونحو ذلك؛ كل ذلك الذي ذكرنا وجوده وحدوثه في العالم لا يقع صدفة ولا خبط عشواء، وإنما يقع ويحدث وفق قانون عام دقيق ثابت صارم لا يخرج عن أحكامه شيء؛ ويطلق على هذا القانون بالسنة الإلهية..

وواقع المسلمين في العصر الحديث من التخلف الحضاري العمراني، والتدهور الاجتماعي إنما يُعزى إلى جهلهم بهذه السنن سواء كانت في الآفاق أو في المجتمع، ولا سبيل إلى التقدم العمراني والنهوض الحضاري إلا بفهمها وفقهها، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستثمارها، واستشراف مستقبلها؛ ومن أجل تحقيق ذلك كان لابد من اكتشاف هذه السنن واستثمارها بما يخدم العمران ويُقيمه؛ فما مفهوم السنن الإلهية؟ وما هي أنواعها؟ وما هي طرق استثمارها؟

المسألة الأولى: مفهوم السنن الإلهية

○ مفهوم السنة في اللغة

لفظ السنة الذي جمعه سنن تعددت وجوه استعماله في اللغة العربية، ومن ذلك:

الطريقة، والسيرة، والمثال، والمنهج، والشريعة، والاتباع، والعادة والافتداء، والحكم.

وفيما يلي ذكر بعض أقوال أرباب المعاجم في معنى " السنة " في اللغة:

قال الرازي⁹¹⁷ في "مختار الصحاح" السنن: الطريقة يقال: استقام فلان على سنن واحد. ويقال: امض على (سننك) و(سننك) أي: على وجهك. وتنح عن (سنن) الطريق (وسننه) و(سننه) ثلاث لغات، و(السننة): السيرة⁹¹⁸

وقال الفيروز آبادي في (القاموس المحيط): "و(السنة) بالضم: الوجه، أو الصورة، أو الجبهة والجبينان، والسيرة، والطبيعة(..) ومن الله: حكمه، وأمره، ونهيه، إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَا وَلَيْسَ أَي: معاينة العذاب، وسنن الطريق: نهجه وجهته، وجاءت الريح سناسن، على طريقة واحدة"⁹¹⁹.

وقال ابن منظور في لسان العرب: "وسنة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسننها الله للناس، بينها، وسن الله سنة: أي بين طريقا قويمًا، والسنة السيرة، حسنة كانت أو قبيحة؛ قال خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها ** فأول راض سنة من يسيرها

⁹¹⁷ زين الدين الرازي (ت 666 هـ / 1268 م)، هو محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، زين الدين: صاحب (مختار الصحاح) في اللغة، وهو من فقهاء الحنفية، وله علم بالتفسير والأدب، (وهو ليس فخر الدين الرازي الأصولي الشافعي المتوفى 606هـ) أصله من الري. زار مصر والشام، وكان في قونية سنة 666 وهو آخر العهد به.

ومن كتبه (شرح المقامات الحريية - خ) و (حداائق الحقائق - خ) في التصوف، عند عبيد، وفي الفاتيكان (1541 عربي) نسخة منه كتب عليها اسمه: (محمد ابن محمد بن أبي بكر) ؟ و(أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل - ط) و (الذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز) و (روضة الفصاحة - خ) في علم البيان 32 ورقة في جامعة الرياض (1 / 1585) و(بدر الكتب (6113) و (كنز الحكمة - خ) ناقص، في الحديث، في الخزنة الظاهرية، و (زهر الربيع من ربيع الأبرار - خ) عند آل الشطي في دمشق. نقلا عن: الأعلام للزركلي

⁹¹⁸ ن: "مختار الصحاح" للرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420 هـ / 1999 م؛ مادة سنن، ص155؛

⁹¹⁹ ن: "القاموس المحيط" للفيروز آبادي، مادة سنن: ص 1207

وسننتها سنا واستننتها: سرتها، وسننت لكم سنة فاتبعوها... وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم من بعد قيل: هو الذي سنه؛ قال نصيب:

كأني سننت الحب أول عاشق *** من الناس إذ أحببت من بينهم وحدي

وقد تكرر في الحديث ذكر السنة وما تصرف منها، والأصل فيه الطريقة والسيرة؛ والسنة: الطريقة، والسنن أيضا، والسنة الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق.. والسنة: الطبيعة (..) وامض على سننك: أي وجهك وقصدك، وللطريق سنن أيضا، وسنن الطريق وسننه وسننه نهجه (..)، والسنة في الأصل: سنة الطريق، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم (..) وسنن الطريق وسننه محجته، والسنن الطريقة، يقال استقام فلان على سنن واحد (...) والسنن: القصد، سنن الرجل: قصده وهيمته (..) وجاءت الرياح سنائن: إذا جاءت على وجه واحد وطريقة واحدة لا تختلف.. وبني القوم بيوتهم على سنن واحد: أي على مثال واحد⁹²⁰

وقال الإمام الرازي في تفسيره: "والسنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع" ⁹²¹

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار"⁹²²

○ مفهوم السنة في الاصطلاح:

"جاء لفظ السنة في القرآن الكريم بالصيغة الصريحة في ستة عشر موضعا، فجاء مفردا في أربعة عشر موضعا، وجمعا في موضعين، وجاء مضافا إلى الله تعالى في تسعة مواضع، ومضافا إلى الرسل عليهم السلام في موضع واحد، ومضافا إلى الأولين في أربعة مواضع،

⁹²⁰ ن: "لسان العرب" لابن منظور، مرجع سابق، مادة سنن (395/6)

⁹²¹ ن: "تفسير الرازي" مصدر سابق، (11/9)

⁹²² ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (20/13).

ومضافا إلى الذين من قبل في موضع واحد، وجاء نكرة مجردة عن الإضافة في موضع واحد⁹²³.

"واختلف في تعريف السُّنَّة اصطلاحياً بحسب العلم الذي تناوله، فللسنة في كل من علوم: الحديث، والفقه، وأصول الفقه، تعريف يناسب استعمال كل علم ومقصده، أما في علم العقيدة فيطلق مصطلح السنة مرادفاً للآراء الاعتقادية لأهل السنة والجماعة، فالسنة هنا تطلق مقابل البدعة العقدية كما يراها أهل السنة والجماعة-، ومن هذا الاستعمال: بعض ما صُيِّف في بيان معتقدات أهل السنة والجماعة، ككتاب: أصول السنة للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيْدِيُّ (ت: 219هـ)، والسنة للحافظ أبي بكر عمر بن أبي عاصم (ت: 287هـ)، و السنة لعبد الله بن أحمد ابن حنبل (ت: 290هـ)، والسنة لأحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال (ت: 311هـ)، والشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري (ت: 387هـ)، و أصول السنة لابن أبي زَمَنِين المالكي (ت: 399هـ)، و منهاج السنة النبوية لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت: 827هـ).

أما المركب الإضافي سنة الله وجمعه سنن الله أو السنن الإلهية وقد يطلق عليها بعض الباحثين: السنن الربانية : فيصعب القول إن العلماء قديماً حفلوا بوضع تعريف اصطلاحى له بالمعنى العلمي للاصطلاح؛ إذ لم يُعرَف عنهم صرف جهودهم إلى تأصيل لعلم السنن الإلهية أو للاهتمام به بصورة علمية منهجية، وإن وردت بعض الإيضاحات للمعنى بصورة أو بأخرى، ولكن ليس من الصواب ولا من الإنصاف أن نحمل كل إيضاح لمعنى صدر عن عالم فوق ما يحتمله منهجياً ونتكلف في معاملته على أنه تعريف

⁹²³ ن: "فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية" الدكتور إدريس العلمي أطروحة دكتوراه، مرقونة بكلية الآداب

جامعة محمد الأول بوجدة، ص: 18

اصطلاحاً⁹²⁴ ورغم هذا التحفظ فإنه يمكن القول: إنه قد بُذِلَت محاولات تعريفية اصطلاحية لبعض العلماء والباحثين المتأخرين والمعاصرين، وإن كان هذا المصطلح سنة الله أو السنن الإلهية لم يتبلور ويستقر بعد..

ويمكن فيما يأتي استعراض طائفة من هذه الإيضاحات التراثية والمحاولات التعريفية المعاصرة للخروج بتصور عام ومفهوم كلي عن هذا المصطلح في اجتهادات العلماء والباحثين؛ يقول العز ابن عبد السلام⁹²⁵: "سنة الله: طريقته السالفة في نصر رسله وأوليائه على أعدائه"⁹²⁶

ويقول حميد الدين الفراهي⁹²⁷: "السنة هي طريق قوم، فإذا نُسِبَتْ إلى شخص واحد كان المراد أنه الإمام، وكذلك إذا نسبت إلى الرب تعالى كان المعنى أنها طريق عامة

⁹²⁴ ن: "أهم ضوابط قبول المصطلحات العقيدية والفكرية عند أهل السنة والجماعة"، سعود بن سعد بن نمر العتيبي، رسالة دكتوراه أجازت في كلية الدعوة وأصول الدين (قسم العقيدة والأديان) جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1428هـ-2007م.

⁹²⁵ عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء؛ فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي؛ ثم خرج إلى مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكّنه من الأمر والنهي. ثم اعتزل ولزم بيته. وتوفي بالقاهرة. وله مؤلفات كثيرة... نقلاً من المكتبة الشاملة بتصرف..

⁹²⁶ ن: "تفسير القرآن" (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط/ 1، 1416هـ-1996م، ج/ 3، ص207.

⁵ هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، أبو أحمد، الأنصاري، الفراهي، ولد عام 1280هـ-1862م بالهند، نشأ في أسرة موسرة غنية. حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين وتلقى تعليمه الابتدائي بالقرية، ثم تتلمذ على علماء وأشياخ عصره، ثم انتقل إلى لاهور، كما التحق بجامعة إله آباد بالهند، وحصل على ليسانس في الفلسفة الحديثة، وتعلم الإنجليزية والعربية، إضافة إلى إتقانه الفارسية وتضلعه في العربية.

وبعد أن تقلد عدة وظائف ومناصب رسمية كبرى استقال من مناصبه ليتفرغ لتدبر القرآن المجيد والتعمق في معانيه، وأسّس وأدار مدرسة وجمعية إصلاح المسلمين في منطقة أعظم كره..

له نظرات تفرد بها في الدراسات القرآنية، من أهم مؤلفاته: مفردات القرآن، وهو من أنفس كتبه وأجلها-، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، دلائل النظام، رسائل في علوم القرآن (في جزئين)، أساليب القرآن. توفي عام 1349هـ/1930م،

يُجْرِي بها أمره في عبادته، كما قال تعالى: هُنَّتِ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ⁹²⁸ ويقول في موضع آخر: "أما سنة الله فهي: الطريق المرعية في أفعال الله تعالى، وهي: طريق العدل والرحمة"⁹²⁹

ويعرفها مصطفى الشكعة بقوله: "سنة الله: نظامه يجريه في خلقه كما يريد"⁹³⁰

أما الدكتور مجدي محمد عاشور فيعرفها اصطلاحياً بأنها: "ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم والأفراد، بناء على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله، وأثر ذلك في الدنيا والآخرة"⁹³¹، وهو تعريف قريب جداً من تعريف الدكتور عبد الكريم زيدان، الذي جاء فيه أن سنة الله هي: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"⁹³²

وواضح في هذا التعريف أنه - وإن جاء بصيغة التعميم - ليس تعريفاً لسنة الله بصفة عامة، بل لقسم منها، هو ما يختص بعنوان بحث كل منهما: في الأمم والأفراد عند الدكتور مجدي محمد عاشور، وفي الأمم والجماعات والأفراد عند الدكتور عبد الكريم زيدان، أي: بسنن الله الاجتماعية .

⁹²⁸ ن: " مفردات القرآن.. نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية "؛ حميد الدين الفراهي، ت: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط / 1، 2002م، ص 196

⁹²⁹ ن: " القائد إلى عيون العقائد"، حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، أعظم كره؛ الهند، ط / 1، 1395هـ - 1975م، ص 165.

⁹³⁰ ن: " الموسوعة القرآنية المتخصصة" لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، إعداد وتحرير: د. علي جمعة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1423هـ / 2002م، ص 814.

⁹³¹ ن: " السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم.. أصول وضوابط"، د. مجدي محمد عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 3، 1434هـ / 2013م، ص 36.. وأصل الكتاب رسالة دكتوراه أشرف عليها الدكتور مصطفى الشكعة، وأجيزت في كلية الآداب؛ جامعة عين شمس، 2003م.

⁹³² ن: " السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية" د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط / 1، 1413هـ - 1993م، ص 13.

ويسوّي محمد رشيد رضا بين مصطلح السنن الإلهية ومصطلح النواميس الطبيعية، فيقول: "وأما النواميس الطبيعية: فالمراد من الناموس: الطريقة الثابتة المطردة التي يحكم الله تعالى بها على الكون، وهو محرف عن لفظ: (نومس) اليوناني، ومعناه: الشريعة، وكثيراً ما يدور على ألسنة الطبيعيين شريعة الطبيعة و الشرائع الطبيعية، ويستعمله كتاب العربية في المقالات الأدبية والسياسية، مجاراةً لهم وعملاً باصطلاحهم، وكان الأولى أن يترجم لفظ: (نومس) بالسنة، فيقال: سنة الطبيعة و السنن الطبيعية، وبعض الكتاب يستعمل هذا الحرف وستراه كثيراً في هذه الجريدة، وقد نعتاض عنه أحياناً بقولنا: سنة الكون والسنن الإلهية و سنة الله في خلقه"⁹³³، أي: يمكن أن نستخلص تعريفه للسنن الإلهية بأنها: "الطريقة الثابتة المطردة التي يحكم الله تعالى بها على الكون"، ولكنه كما هو واضح من ربطه بالمصطلحات الأخرى التي أوردتها - تعريف أقرب إلى أحد أقسام السنن الإلهية، وهو: سنن الله الكونية، أو: سنن الله في الطبيعة.

ويستخلص الدكتور رشيد كُهوس تعريفاً عاماً للسنن الإلهية، يورده بصيغة مختصرة وصيغة مفصلة، فيذكر في الأولى أن السنن الإلهية هي: "سنن الله وقوانينه ونواميسه التي يدبر على مقتضاها الكون والحياة"، وهو تعريف يشوبه خطأ الدّور في التعريف، وفي الصيغة المفصلة يقول إنها: "أقدار الله تعالى وعهوده الثابتة ووعوده الحقة وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحداً مؤمناً كان أو كافراً، وتسري على جميع المكوّنات"⁹³⁴، وهذا الأخير لا يضيف على المختصر إلا بيان مقصوده بـ(يدبر) أنه أقداره تعالى - على ما في ذلك من تداخل وتفصيل - ، وبيان بعض صفات هذه السنن وليس جوهرها.

ورغم هذه الملحوظات وذلك التباين فإنه يمكن الخروج من هذه التعريفات، وبالنظر

⁹³³ ن: "مجلة المنار" لمحمد رشيد رضا، ط: 2، 1327هـ، ص 16.

⁹³⁴ ن: "السنن الإلهية في السيرة النبوية"، د. رشيد كهوس، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، ط: 1، 1438هـ / 2017م، ص 46.

إلى المعنى اللغوي، بتعريف عام للسنن الإلهية، بأنها:

"قوانين الله تعالى ونظمه المطردة في نظام الكون والطبيعة وفي الإنسان والمجتمع"

المسألة الثانية: أقسام السنن الإلهية

ومن خلال تعريفنا السابق للسنن الإلهية يتبين لنا أنها على نوعين:

الأول سنن الله المتعلقة بالكون والطبيعة، والنوع الثاني يتعلق بالإنسان والمجتمع، ولتوضيح ذلك نتناوله في نقطتين:

أ) النوع الأول:

سنن تتعلق بالطبيعة، وهي القوانين التي تخضع لها جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية كتعاقب الليل والنهار، وسيرورة الشمس والقمر مثلاً، كما يخضع لها كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حياً وغير ذلك؛ وقد جاء ذكر هذا في القرآن واضحاً في مواطن شتى؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٢٨) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٧) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٢٨) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٢٩)؛⁹³⁵ وقوله تعالى في مراحل تكوين الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْبَةً فِي فَرْارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْبَةَ عِلْفَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْفَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

⁹³⁵ يس: 36، 39.

أَلْخَلِيفِينَ⁹³⁶؛ وغير هذه الآيات كثيرة ومتعددة..

وهذا النوع من القوانين لا يختلف في وجوده الناس لأنهم يحسونه ويخضعون له ويرون آثاره في كل وقت وحين؛⁹³⁷ ووجود هذا الوجه من القانون العام من أكبر الأدلة على وجود الله تعالى الخالق العظيم لأنه لا يمكن للمادة وهي جامدة صماء لا تعقل أن تضع هذا القانون الهائل الدقيق لهذه الموجودات، وإنما المعقول والمقبول أن يكون واضح هذا القانون هو خالق هذه الموجودات. وهو الله جلّ جلاله⁹³⁷.

ب) النوع الثاني:

فهي تلك السنن التي تتعلق بسلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم وسيرهم وأعمالهم في الدنيا وفق أحوال الاجتماع والعمران البشري، وما يترتب على ذلك من نتائج في العاجل والآجل وفي المعاش والمعاد؛ يقول الدكتور زيدان:⁹³⁸ "أما الوجه الثاني من القانون العام فهو الذي يتعلق بخضوع البشر له باعتبارهم أفراداً وأئماً وجماعات؛ وأعني بخضوعهم له خضوع تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال، وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية أو الضيق في العيش، والسعادة والشقاء والعز والذل والرقى والتأخر والقوة والضعف، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا، وما يصيبهم في الآخرة من عذاب أو نعيم وفقاً لأحكام هذا القانون بوجهه الثاني⁹³⁸"

وهذه السنن الإلهية والاجتماعية تفسّر إلى حد كبير حركة الحضارة والاجتماع والعمران البشري، وترتكز على الفقه العمراني، هذا الفقه الذي يقوم على دراسة سنن قيام الأمم والدول والمجتمعات والحضارات وسقوطها، وتخلّفها ونهوضها، وقوتها وضعفها، وريقها وانحطاطها، ونجاحها وإخفاقها، والتي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، ولا تنفك أسبابها عن مسبباتها، ولا

⁹³⁶ المؤمنون: 12، 14

⁹³⁷ ن: " السنن في الأفراد والجماعات" للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة. ناشرون. دون طبعة وتاريخ،

ص: 4

⁹³⁸ المرجع السابق ص: 8

تنفصل عللها عن معلولاتها؛ وعدم إدراكها تجعل الإنسان فاقداً بوصلة مسيره، تائها نحو مصيره؛ ولذلك دعانا القرآن إلى اكتشافها ودراستها لتكون لنا نبراساً ينير لنا طريق إقامة عمراننا واستعادة حضارتنا التي فقدناها منذ أمد بعيد؛ ولتحقيق هذا الهدف النبيل كان لابد من ربط العمران بقواعده وأصوله القائمة على السنن الإلهية، والتي تؤطر مسيرة العمران البشري، وتوجّه صيرورته؛ وهو ما قصدناه من هذه الأطروحة!!

المسألة الثالثة: وجه العلاقة بين السنة الكونية والسنة الاجتماعية

من خلال ما سبق نستنتج أنّ هناك فرقاً دقيقاً بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية، فالسنن الكونية - كما قلنا سابقاً - هي التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة غالباً، وهي تسير وفق نظام محكم لا يتخلّف، ولا يملك الإنسان شيئاً إزاء تغييرها، وليس له إلا أن يكيّف حياته ويضبط حركته معها، ويستفيد منها بكل ما لديه من وسع وجهد و طاقة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّتٍ أَلْبَابًا﴾⁹³⁹..

هذه القوانين هي بمنزلة قرارات ربانية، تستهدف توثيق صلة الإنسان بالله تعالى حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، وإشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الساحات، ليس ذلك انعزالاً عن الله تعالى؛ لأنّ الله يظهر قدرته من خلال هذه السنن، ولأنّ هذه السنن والقوانين هي إرادة الله، وهي ممثلة لحكمة الله وتديره

في الكون⁹⁴⁰

أما السنن الإلهية الأخرى المرتبطة بالأفراد والمجتمعات فهي السنن الاجتماعية التي يملك الإنسان إزاءها كل شيء إيجاباً أو سلباً، وكثير منها يدور حول الإيمان قرباً منه أو بعداً، تصديقاً له أو تكذيباً، استجابة له أو تحدياً؛ يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁹⁴¹ فالإنسان نفسه هو منطلق التغيير وفق هذه السنن والقوانين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁹⁴²، هذه السنن لها أثر كبير في عملية إعمار الكون، فقد دعا الوحي - مثلاً - إلى السير في الأرض للاعتبار فيما آلت إليه أحوال الأمم السابقة التي كفرت بآيات الله وكذبت رسله، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾⁹⁴³؛ فقوتهم المادية، وآثارهم التي شيدها أصبحت خبراً بعد عين، فالحفاظ على منجزات الأمة، أي أمة لا يتم إلا بتصديق ما جاءت به الرسل، وأي عمارة للكون تستند إلى التكذيب والتحدي لرسالات الله فإنَّ

⁹⁴⁰ ن: "المدرسة القرآنية"، الصدر، محمد باقر، بيروت، دار التعارف، ط: 1981م، ص 77، 78، بتصرف

⁹⁴¹ الأنفال: 53.

⁹⁴² الرعد: 11

⁹⁴³ غافر: 21، 22.

تلك العمارة معرضة للانحيار والزوال وها هو القرآن يقدم لنا نموذجاً واضحاً لا يحتاج إلى بيان فلنستمع إليه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَّةَ كَانَتْ - اِمْنَةً مُّطْمَئِنِّةً يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَعَبَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ بِأَذَافِهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾⁹⁴⁴..

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الفرق الدقيق فيقول - رحمه الله - بعدما ذكر كثيراً من السنن الشرعية والاجتماعية: "...وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه، وأمره ونهيهِ، ووعدهِ ووعدهِ، وليست هي السنن المتعلقة بأمور الطبيعة، كسننهِ في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات"⁹⁴⁵.

المسألة الرابعة: ضرورة تعلّم هذه السنن

إن حاجة الإنسانية اليوم عموماً والمسلمين على وجه الخصوص إلى فهم هذه السنن وفقهها، وحسن التعامل معها والتحكم فيها شديدة، حتى يستعيدوا - أي المسلمون - فاعليتهم وقدرتهم على التغيير والإصلاح والبناء، وبذلك تنتفي العشوائية من حركتهم، والفوضى الفكرية من عقولهم، والإرجائية والجبرية من مواقفهم، وإن لم يعتقدوها بقلوبهم!! وذلك لن يكون بطبيعة الحال إلا بالقضاء على الفهم السطحي للوقائع الاجتماعية، ولحركة الحضارة البشرية، ورفع أسباب الخمود والهمود، والركود والجمود، التي عطلت العقول عن إدراك سنن الله ونواميسه في الكون والمجتمع، والتي أخرجت الأمة

⁹⁴⁴ النحل: 112 - 113.

⁹⁴⁵ ن: "جامع الرسائل" لابن تيمية، المجموعة الأولى، تحقيق د. محمد رشاد سالم. مطبعة المدني، القاهرة، ط2

1405هـ-1984م، ص: 52

المسلمة من تدافع عالم المادة والشهادة والحركة إلى حال من السلب والتواكل بدل الأخذ بالأسباب مع التوكل؛ وشاعت فيها عقيدة الجبر والإرجاء التي انخرقت بركن القضاء والقدر إلى تعطيل قانون السببية تعطيلًا كاملاً..

ولكي يكون المسلم فاعلاً مؤثراً لا بد أن يكتشف هذه السنن والقوانين، ويحسن تسخيرها واستثمارها، ويدرك كيفية التعامل معها، فيصل إلى منزلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله، أو يفر من قدر الله إلى قدر الله كما قال الفاروق عمر رضي الله عنه ..

وقد بين ابن القيم هذه الحقيقة بكلمة مضيئة نذكرها استئناساً: "بأن دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان؛ فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار؛ لا استسلام لها وترك الحركة والحيلة فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز"⁹⁴⁶

إن العلم بهذه السنن المبينة في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة أمر مهم جداً، وضرورة عمرانية؛ بل واجب شرعاً ودينياً؛ فلا بد أن ينبري من العلماء من يقوم بهذه الفريضة الشرعية والكفائية الغائبة، لأنها جزء من الدين؛ ولا غرو أن نجد القرآن الكريم قد خصّص مساحات واسعة قد تزيد عن نصف القرآن للتاريخ وسننه وقوانينه، ومنحنا أصولاً منهجاً متكامل في التعامل مع التاريخ البشري وفهم حركته!

قال الإمام الألوسي مشيراً إلى ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِيناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾⁹⁴⁷ "والمراد من (كل شيء) ما يتعلق بأمور الدين أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملة

⁹⁴⁶ ن: "مدارج السالكين" لابن القيم (437/1)

⁹⁴⁷ النحل: 112 . 113.

أحوال الأمم مع أنبيائهم⁹⁴⁸.

لقد بثّ الله تعالى في الطبيعة عناصر كثيرة، يعدّ اكتشافها فرضاً على الإنسان، وتعدّ دراسة هذه العناصر ومعرفة خصائصها من الضروريات بالنسبة إلى الحياة الإنسانية و الحركة العمرانية، وكلها خاضعة لقوانين ثابتة منضبطة، فذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين تشكل جزيء ماء، لا يملك الإنسان شيئاً إزاء هذا الاندماج بين الذرات المختلفة؛" ومثل هذه القوانين تقدّم خدمة كبيرة للإنسان في حياته الاعتيادية، وتلعب دوراً عظيماً في توجيه الإنسان(..) ومن هنا تتجلّى حكمة الله سبحانه وتعالى في صياغة نظام الكون على مستوى القوانين، وعلى مستوى الروابط المضطربة والسنن الثابتة، لأنّ صياغة الكون ضمن روابط مضطربة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرّف على موضع قدميه، وعلى الوسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته⁹⁴⁹

"إنّ آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات، إنّنا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغّل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدّم على المستوى المادي"⁹⁵⁰ إنّنا نجد في كثير من الآيات "ترغيباً في علوم الكائنات، وإرشاداً إلى البحث فيها لمعرفة سنن الله وحكمه فيها، وآياته الكثيرة فيها الدّالة على علمه وحكمته ومشئته وقدرته وفضله ورحمته،

⁹⁴⁸ ن: "روح المعاني" للآلوسي، مصدر سابق (214/14).

⁹⁴⁹ ن: "حول تشكيل العقل المسلم" خليل، عماد الدين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1؛ 1991م، ص77-78.

⁹⁵⁰ ن: المرجع السابق نفسه، ص103، 104.

ولأجل الاستفادة منها على أكمل الوجوه التي ترتقي بها الأمة في معاشها وسيادتها، وتشكر فضل الله عليها(..) لقد أرشد القرآن إلى جميع العلوم النباتية والحيوانية والإنسانية - من جسدية ونفسية - و الفلكية والجوية والحسابية.⁹⁵¹

المسألة الخامسة: كيفية استثمار السنن الإلهية وتسخيرها عمرانيا

لقد سبق أن تحدّثت في المبحث الأول من هذا الفصل عن علاقة الإنسان بالكون الذي يعيش فيه، فذكرت أنواعا كثيرة، كان من أبرزها العلاقة التسخيرية، إلا أنّ الكلام عنها كان مقتضبا باعتبار بيان طبيعة تلك العلاقة بينهما، أما الكلام هنا سيكون باعتبار آخر، وهو كون التسخير وسيلة وسببا من وسائل وأسباب العمران، ومن ثمّ وجب استثمار هذه السنن وتسخيرها بما يتوافق مع إقامة العمران الذي يعتبر وظيفة الإنسان الاستخلافية..

إنّ الأخذ بأسباب القوّة الماديّة من ضرورات الإعمار، فإعداد كلّ مظاهر القوّة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى قوّة الإيمان وما له من مظهر يتجلى في العبادة والأخلاق والسلوك.. كلّ أولئك يكسب المجتمع قوّة وتماسكا وتكافلا، فسنة الإعداد تبعث على عمارة الكون والحفاظ على كيان الأمة و وجودها العمراني، وهو منطوق قوله تعالى تصرّحا وتلميحا : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾⁹⁵²؛ وتتطلب معرفة صهر الحديد لصناعة السلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾⁹⁵³ وتحتاج إلى معرفة قوانين الكيمياء لتشكيله، وتحتاج إلى توظيف

⁹⁵¹ ن: " تفسير المنار"، (8/ 291)؛ مرجع سابق

⁹⁵² الأنفال: 60

⁹⁵³ الحديد: 25

قوانين الفيزياء والرياضيات لاستخدامه وقذف حممه على الأعداء وضربهم تحقيقاً لتوازن القوى والرعب و الحفاظ على عمرانهم من كل معتد أثيم !!

إنّ القرآن حين دعا إلى إعمار الكون نهى في الوقت نفسه أن يكون هذا الإعمار وسيلة عبث وصدّ وإعراض عن منهج الله تعالى، وقد ذكرت في مطلب: "مخاطر الاقتصار على المفهوم المادي للعمران" ما يدلّ على فشل الإعمار المادّي الصّرف الذي لا يحقّق غايات الحياة ومقاصدها، وسُقت أمثلة في القرآن الكريم كقصة عاد وقصة قارون وغيرهما ممّن أهلكهم الله نتيجة تمردهم على سنن الله و نواميس الوجود، فكان ما كان من مصيرهم المحتوم وهو تدمير حضاراتهم وتخريب عمرانهم حتى صاروا عبرة للمعتبرين وآية للمتوسّمين، يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾⁹⁵⁴..

إنّه لما طغى إنسان الحضارة المادية المعاصرة في الأرض واستكبر، وعلا وتجبّر، وظلم ولنعم الله تنكّر، وظنّ أن لن يقدر عليه أحد، وتحدى سنن الله تعالى، تحقّقت فيه تلك السنن العادلة التي لا تحابي أحداً، فهو رغم بناء الأبراج وأضوائها، والطرق ومسالكها، والمركبات وتطورها، إلا أنه يعاني من بؤس العيش، وخواء الروح، وضلال الهدف والغاية، وسوء المنقلب والمصير، فهي لذلك حضارة الإفلاس على الرغم مما وصلت إليه من منجزات ماديّة وتقنيّة!!

إنّ "المنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون في يسر وبساطة، بلا تكلف ولا تشدد، ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام

والطمأنينة الكبرى؛ لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديه، وعرفت أنّ ناموسها هو ناموسه، وهذا التناسق بين النفس والكون، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة، والسلام بين البشر، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار⁹⁵⁵؛ وهذه هي الثمرة العظمى لإعمار الكون، فالإنسان يكتشف نفسه، ويعرف مكانته بقدر ما يكتشف من سنن كونية واجتماعية انتظمت في هذا الوجود بأسره، وتلك السنن تهتئ له مجالا واسعا في التعامل الآمن مع هذا الوجود ومعرفة أسرارهِ وسننه من أجل إعمار آمن وراشد للكون.

إنّ تسخير ما في الكون هو أحد مهامّ الإنسان في الحياة، ويعني البحث في وجوه الانتفاع ممّا ذلّه الله تعالى للإنسان في الكون وتطويعه وتوظيفه بالعمل الدؤوب الهادف، فإنّ العمل ركن من أركان العمران - كما بيّنت فيما مضى⁹⁵⁶ - كما هو مكوّن من مكوّنات الشخصية المؤمنة وبدونه تسقط دعامة مهمّة من دعائم هذه الشخصية، وينعكس سلبا على العمران من حيث تجلّياته في أرض الواقع، وإنّ الموجّه الحقيقي للعمل والمرشد له هو الدّين الذي اعتبر كل عمل صالح مطلبا أساسيا، ومقصدا ضروريا للوجود به تستطيع الأمة أن تثور كنوز الأرض وأسرارها؛ لتحقيق أهدافها، وتؤدّي واجباتها الاستخلافية العمرانية..

"لقد كان تسخير الكون للإنسان لأجل وجوده، وقد بُني الكون بالقدرة الإلهية على قوانين كميّة وكيفية تناسب تماما الكيان الإنساني في وجوده ابتداء، فكأنّما صنع لاستقبال الإنسان، فتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إعداد الكون كمّيا؛ ليناسب وجود الإنسان، وتسخير الليل والنّهار إشارة إلى إعدادهِ كميّا لذلك. كذلك سخره لاستمرار الحياة الإنسانية؛ فقوانين الكون مدللة لاستقبال الوجود الإنساني ولحياته وسيورتها، ولتحقيق غايتها"⁹⁵⁷

⁹⁵⁵ ن: "في ظلال القرآن" سيد قطب، مرجع سابق. بتصرف، (5/، 2665)

⁹⁵⁶ ن: "المطلب الثاني من المبحث الثالث في الفصل الثاني من هذا الباب.

⁹⁵⁷ ن: "الإنسان والكون"، النجار، ص 24-26.

لقد سخر الله تعالى للإنسان كثيرا من المظاهر الكونية - كما بينت قبل - فقد سخر له الشمس والقمر، والليل والنهار، والفلك والأنهار والبحار، كما في قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٦﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآيِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٧﴾ وَءَاتَيْكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٨﴾** 958

من هذه الآيات وغيرها - وهو كثير - يلحظ المتدبر أنّ كلّ ما في عالم الشهادة مسخر للإنسان، ليس هناك شيء محظور يحرم على الإنسان اكتشافه أو التفكير فيه، أو تذييله لمصلحته، أو البحث فيه ودراسته، لقد وضع القرآن الإنسان أمام حوافر أو تحدّيات كثيرة ليكتشف ما أودع الله تعالى فيه من طاقات كامنة، ولتظهر محوريتها في عالم الكون.

إنّ تسخير كلّ تلك المظاهر الكونية والمخلوقات لا يتوقف عند حدود الانتفاع المادي فحسب، وإنّما: "ليصرف تعالى خوف الخلق ورجاءهم عن الأفلاك والنجوم المسخرة إلى المسخر القاهر فوق عباده" 959، فالتسخير يقود إلى مبدأ التوحيد الأعظم الذي هو ثمرة هذا الإعمار الواعي للكون، وروحه أيضا كما فصلت في الحديث عن العمران الروحي 960.

وبهذا تكون سنن الله في الموجودات، وقوانينه في المخلوقات إن أحسن الإنسان استثمارها بما يتوافق مع طبيعتها من أهم وسائل وأسباب العمران الروحي والمادي الذي

958 إبراهيم: 34 . 36

959 ن: " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995، (3 / 352).

960 ن: "العمران الروحي" من الفصل الثاني من هذا الباب..

كَلِّفَ به الإنسان المستعمر من لدن الخالق جل في علاه..

وهو ما يقتضي معرفة تلك القوانين والقواعد التي تؤطر عمران الإنسان وتُقيم حضارته؛ ودراستها دراسة علمية تُسهم بشكل كبير في استشراف عمران الأمة الإسلامية على وجه الخصوص وانتشالها من غياهب التخلف والجمود!!

وللإسهام في ذلك ولو بقدر متواضع، سنخصص الباب الثاني لدراسة مجموعة من القواعد العمرانية - التي لها علاقة قوية بتلك السنن الإلهية - في مختلف المجالات الحضارية عبر فصول متعددة تتخللها مباحث مختلفة، يشتمل كل مبحث على مطالب أربعة تمثل زوايا متعددة لكل قاعدة عمرانية تتم دراستها من خلال تلك الزوايا؛ ذلك ما سنحرره في القسم الثاني من هذه الأطروحة؛ والله الهادي إلى سواء السبيل!!

فهرسة الآيات القرآنية

68	وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ
135.....	وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
3, 8, 135	وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ
3	وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
45	وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
3	وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
3	وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
45	وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
69	وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ
354.....	إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
356.....	وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
358.....	فِيَلْ لَهَا أَنْ دُخِلَ لِصَرْحٍ
282.....	إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
49	قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ بَؤْفِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ
263.....	وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ
394.....	وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْبَعٌ لِلنَّاسِ
358.....	وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
356.....	وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
356.....	فَبَقَّيْنَاهَا سُلَيْمًا وَكَلَّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا
184.....	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ يَدَيْنِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ
155, 173	وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً
356.....	وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
169.....	وَلَوْ إِبْتِغَ الْخَوُّ أَهْوَاءَهُمْ لَبَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
276.....	وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ

- وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ 228.
- سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ 190.
- إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ 331.
- إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ 323.
- ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اإِيتِيَا طَوْعًا 227.
- وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا 263.
- أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ 87.
- وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَّسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ 386.
- كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ 300.
- كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً 6, 156, 175.
- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً 89, 92, 350.
- لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتُ بَيْنَ فَلُوبِهِمْ 169.
- وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ 263.
- وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ 234.
- يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ 129.
- إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي 227.
- عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ 251.
- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ آمِنَةً 390.
- وَيَسْتَخْلِقَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ 74, 97, 323.
- أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا 388.
- أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا 261, 327.

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ 310
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ 389
- وَأِنَّهُ، لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ 356
- أَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ كَانَ بِالْأَيْمَانِ 183
- أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا 341
- وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاجَهَا بِأَرْبَعَةِ أَلْيَامٍ 260
- وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ 337
- أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ 2
- فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ تَمَتَّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ 67
- أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ 358
- رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ 80
- أَوَلَمْ أَصْلَحْكُمْ مِصْرَةَ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا 86
- فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ 359
- فُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ 138, 142
- فُلْ يَفْقَهُوا إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُكْمٌ 242
- إِلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ 180
- سِيرُوا فِيهَا لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمُ الْغَافِلِينَ 258
- وَاتَّقُوا الَّذِينَ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ 150, 153
- إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ 242
- يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ 376
- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ 376

- 150..... قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ
- 153..... وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً
- 181..... فَإِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلِي وَلَكِنَّكَ وَرَبِّعَ
- 67 وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
- 229..... وَنَادَىٰ بِزَعُونَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَلْفُومُ الْيَسْرَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ
- 312..... هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
- 50 وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
- 178..... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
- 182..... فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُمْ فَبِأَمْسِكَوهُمْ بِمَعْرُوفٍ
- 250..... فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ
- 359..... فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا
- 254, 394 وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
- 41, 46 لِيَتَّبِعَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
- 256..... وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
- 312..... إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ
- 89 إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
- 284..... إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
- 5 إِنَّا عَرَضْنَا وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ السَّمَوَاتِ عَلَى الْأَمَانَةِ
- 278..... وَجَعَلْنَا الْبَلَّ وَالنَّهَارَ ءَايَاتٍ لِمَنْ حَوَّنَا ءَايَةَ الْبَلِّ
- 263, 266, 341 وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
- 392..... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ

- وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا 263
- رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ 373
- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا 356
- إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ 283
- إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ -أَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ 68, 217, 253, 286
- إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ 349
- إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا 135
- فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ 68, 127, 167, 257
- مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ 67
- وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 73, 74, 97, 101, 105, 158, 223, 236
- وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ 311
- وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ 48
- يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ۖ عِبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ 101
- يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ أُنْبِئْتُمْ فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ تُرَابٍ 372
- يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ 125, 341
- يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ 252
- يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ 280
- يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ 363
- يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا 33
- يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ 181
- رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ۚ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ 131

- 242.....وَقُلْ إِعْمَلُواْ فَبَسَّيرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
- 178.....وَلَوْ إِتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَبَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ
- 243.....فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ
- 277.....وَالْقَجَرِ عَشْرٍ وَلَيَالٍ ﴿١٠﴾
- 329.....لَخَلُو السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْيِ النَّاسِ
- 178.....خَلُو السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ تَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
- 300.....لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
- 247.....وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَلْجِإُ إِلَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرِ
- 138, 250.....لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
- 318.....وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
- 149.....كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
- 389.....ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ
- 262, 313, 328.....وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْفَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْرُوءٍ
- 92, 93.....يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
- 279.....بَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَلِيلُ الْبَيْلِ سَكَنَّا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا
- 310.....الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ لَهُ ﴿١٠﴾ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
- 51.....هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا
- 356.....وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
- 311.....يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ
- 66, 126.....إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ
- 86, 128, 364, 370, 389.....إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
- 178.....إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
- 276.....إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ

- 138..... إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَلِيدِينَ
- 299..... إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
- 154..... إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ
- 161..... إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا
- 242..... إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا
- 233..... ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
- 277, 323, 396 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
- 134, 135 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ
- 87 وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ
- 87 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
- 233..... وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ
- 313..... قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى
- 357..... وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
- 359..... هَلْ آتَيْنَاكَ عَلَىٰ أُنْ تُعَلِّمُهُ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا
- 358..... وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتِيَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
- 100, 144 فُلْ إِنَّ صَلَاتَيْ وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
- 361..... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا
- 138, 142, 154 وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَيْكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
- 49 وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
- 266, 283 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
- 178..... شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ فَأَيُّهَا الْفَاسِقُ
- 170, 177 لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
- 48, 125..... وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ

- وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِّنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ 69
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِّنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ 281, 387
- وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ 165
- وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ 222, 318, 329
- وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا 314
- وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ 277, 323, 331, 396
- وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى 128
- إِنِ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْفُوتًا 286
- وَأَن يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ 273
- وَأَن طَآئِفَتَيْنِ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ إِتَّخَذُوا أَبْطِلًا بَيْنَهُمَا 186
- وَأَن تُثْبِتُمْ قُلُوبَكُمْ رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ 184
- وَأَخْرَجُوا يَصْرِيخُومَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ 251
- فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا 353
- فَكَأَيُّ مِّنْ فَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا 24
- الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ 82
- وَمَن يَعْمَلْ مِثْلَ الصَّلَاحِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا 235
- وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ 161
- أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ 126
- وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا 367, 371
- لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَ أَهْلِ الْكِتَابِ 235
- يَقُومُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ 165
- وَأَكْمُرْ فِي الْأَرْضِ مُمْسَقًا وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ 321
- وَأَتَّبِعْكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ 277, 322, 323, 396

- 375.....جم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ ﴿١﴾ فُصِّلَتْ -اَيْتُهُ- فُرْءَاناً عَرَبِيّاً
- 314, 329.....أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
- 68, 257.....أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
- 227, 310.....ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
- 49 وَمِنْهُمْ مَّن يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ
- 66 وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَبَّحْنَاهَا فِيهِ
- 228.....ذَٰلِكَ الَّذِينَ أَنفِئُمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
- 273.....الْمَلٰٓئِكَةُ تَعْرُحُ وَالرُّوحُ اِلَيْهِ فِي يَوْمٍ
- 247.....وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ
- 333.....الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
- 94, 95, 324.....الَّذِي جَعَلَ لَكُم خَلْقًا فِي الْأَرْضِ
- 94, 324.....الَّذِي جَعَلَ لَكُم خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ بَعْلَیْهِ كُفْرُهُ
- 284.....الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
- 161.....إِنِّيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
- 153, 299.....فِي ذَٰلِكَ ءَايَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ
- 252.....فِي بُيُوتٍ اِذْنِ اللَّهِ أَن تُرْبَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا يُسَبِّحُ اِسْمُهُ لَهُ فِيهَا
- 86, 217, 236.....إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
- 133.....إِجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَايِ الْأَرْضِ إِنِّي حَمِيظٌ عَلِيمٌ
- 276.....وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ إِذَا سَجَىٰ
- 285, 332.....أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعٰلَمِیْنَ
- 46 فَلَوْلَا نَعَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوْا فِي الدِّیْنِ
- 367.....فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ
- 266.....تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوٰتِ اِلْعٰلٰی

- 191..... وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ
- 218, 301, 317, 349, 374 سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ
- 50 لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ
- 321..... أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَقْتُمَا عَبْنًا
- 150..... فَتَرَى الْاَنفُومَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ
- 300..... وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا
- 138, 253 رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ
- 5, 106, 134, 233, 316, 319, 320, 323 وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
- 124, 233 إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيفٌ بَشَرًا مِّن طٰٓئِفٍ
- 66 إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا
- 95 وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْاِنْسَانَ مِّن صَلٰٓصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ
- 138..... وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ
- 262..... وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعٰٓيِشَ
- 176..... هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ
- 278..... هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
- 237, 260, 314, 325, 332 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا
- 321..... هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
- 279..... وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ
- 334..... وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
- 163..... وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
- 191..... ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ
- 277..... وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ
- 319, 350, 356 وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

- 360.....بَاغْلَمَ أَنَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
- 127, 366.....بِمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
- 180.....أَقَمْنَ يَخْلُقُ كَمَا لَا يَخْلُقُ أَقْبَلًا تَذَكَّرُونَ
- 309.....خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ
- 69, 72, 73, 100, 104, 106, 134, 158, 211, 232, 233... هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
- 251.....وَأَخْرَجُوا يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ بِنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
- 251.....وَأَخْرَجُوا يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
- 362.....أَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكُونُونَ
- 150.....تَعْبَثُونَ-آيَةٌ رِيعٍ بِكُلِّ أَتْبُنُونَ
- 49, 149.....يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰلِبُونَ
- 363.....وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا
- 5, 89, 316.....فَأَبَيْنَا أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ
- 299.....وَمِنْ-آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَفَ الْأَسْتِخْلَافِ
- وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ
- 154.....
- 69, 72, 73, 104, 106, 158, 211, 232.....وَالَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ
- وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ
- 261, 327.....
- وَيَسْتَخْلِقَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
- 158.....
- أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ
- 298.....
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
- 126.....
- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِ مَا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مٰلِكُونَ
- 314, 333.....
- أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
- 266.....

- 149, 166, 214, 394
وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ.....109

فهرسة الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
205	أحب الخلق إلى الله إمام عادل
287	أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكي
183	أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ عَمْرُو بْنُ رَوَاحَةَ لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
77; 362	اعمروا به قلوبكم، واعمروا به بيوتكم
294	أعوذ بك من الحَوَرِ بعد الكَوْنِ
287	اغتنم خمسا قبل خمس
82	ألا و إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله
188	إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا
282	إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة
324	إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها
197, 199	أن السلطان ظل الله في الأرض
145	إن الله ابتعنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله
282	إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه
201	إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن
353	إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ
77	أن رجلا قال يا رسول الله ما نجد في السبيل العامر من اللقطة قال عزفها حولا
245	إن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحتجزه عن الناس
3, 136 ; 145; 245	إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة
79	إِنَّ لَهْدِي الْبُيُوتَ عَوَامِرَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْهَا فَخَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثًا
351	إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُزْفَعَ الْعِلْمُ وَيُثْبِتَ الْجَهْلُ
94	أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا راض به
162	إنا معشر الأنبياء ديننا واحد
75	إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا رَعَمُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ
102	إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أثبت عليها
347	إنما العلم بالتعلم
205	إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم

- أنه ﷺ دخل السوق مرة، والناس مكتنفون به يميناً وشمالاً..... 230
- أما رجل أعمار عمرى له ولعقبه فإنما للذي يُعطاهها 78
- الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة 100
- بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحٍ لَبَنٍ..... 357
- تَفَكَّرُ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ..... 300
- الحج عرفة 370
- خرجت حاجا فجئت حتى دخلت البيت ، فلما كنت بين الساريتين مضيت حتى لزقت بالحائط 76
- خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم 188
- خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا 52
- دعوا الناس يريزق الله بعضهم من بعض 109
- الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، 353
- ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان 197
- سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور 374
- صنعت اليوم يا رسول الله أمراً عظيماً، قتلت وأنا صائم 28
- العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، 79
- فقد آخى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ 187
- قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من البحرين، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقوا من بطونهم 136
- قَرَصَتْ ثَمَلَةً نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّعْلِ، فَأُخْرِقَتْ 312
- كَانَ رَجُلٌ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَجَاءَهُ وَلَدٌ لَهُ..... 183
- كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ..... 186
- كل سلامي من الناس عليه صدقة 100
- لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال 278
- لَا تَقُومُ السَّاعَةُ..... 172
- لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ 360
- لا يبيع حاضر لباد 109
- لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم 197
- لا يكون الحاضر سمساراً له 109
- لأن يأخذ أحدهم حبله على ظهره فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعهها 239
- لقد حجرت واسعا..... 123

- 45 لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال أجل
- 102..... لكني أنا ثم أقوم، فأحتسب نومتي
- 247 لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد أعانه عليه أصحابه
- 137 اللهم إني إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم المدينة
- 52 اللهم فقه في الدين
- 246 ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده
- 250 ما جاءني أجلي في مكان ما عدا في سبيل الله عز وجل
- 136 ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة
- 136 ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً
- 27 ماذا تصنع إن عرض عليك قضاء؟
- 102 مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ من جلده ونشاطه ما أعجبهم
- 244 من أحيا أرضاً ميتة فهي له
- 47 من تصبّر يُصبره الله
- 294 مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنِي
- 78 من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحقُّ بها
- 182 مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَغْدِلْ بَيْنَهُمَا فِي الْقَسَمِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ
- 182 مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقَّةُ مَائِلٍ
- 52 من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين
- 237 المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف
- 79 هذا البيت المعمور يصلّى فيه كل يوم سبعون ألف ملك
- 230 والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم
- 102 وفي بضع أحدكم صدقة
- 77 ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض
- 225 يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا
- 186 يا عثمان أرغبت عن سنتي، قال لا والله يا رسول الله ولكنّ سنّتك أطلّب،
- 76 يُكَبِّرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَتَانِ
- 337 يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا
- 205 يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة

فهرسة القواعد العمرانية

162, 421	التوحيد هو المحرك الفاعل لكل حركة عمرانية
57	الظلم مؤذن بخراب العمران
349, 423	العلم شرط الاستحقاق ونقطة الانطلاق
60	كل متناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان
60, 283	من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه

فهرسة الموضوعات:

إهداء.....	2
شكر وتقدير.....	3
بسم الله الرحمن الرحيم.....	4
المقدمة.....	5
1. • التعريف بالموضوع: إشكاليته وأهميته وآفاقه.....	8
2. • دوافع اختيار الموضوع:.....	12
3. • الدراسات السابقة في الموضوع:.....	15
4. • منهجية البحث:.....	19
5. • صعوبات البحث:.....	20
6. • المحاور الأساسية للبحث:.....	21
.....	24
الباب الأول العمران: مفهومه، أنواعه، شروطه، أركانه، ووسائله؛ وعلاقته بالإنسان!!.....	24
المبحث الأول: فقه القواعد: المفهوم والسياق.....	37
المطلب الأول: مفهوم الفقه.....	38
الفقه لغة:.....	38
المطلب الثاني: السياق التاريخي لمفهوم الفقه.....	41
المسألة الأولى: توضيح مفهوم الفقه وأسبابه.....	41
المسألة الثانية: مفهوم الفقه في العصر الأول.....	45
المسألة الثالثة: مدلول الفقه في السياق القرآني.....	50
المسألة الرابعة: الشيخ رضا يوضح مدلول الفقه في السياق القرآني.....	51
المسألة الخامسة: خلاصة واستنتاج.....	55
المطلب الثالث: مفهوم القاعدة.....	57
المسألة الأولى: تعريف (القاعدة) في اللغة.....	57
المسألة الثانية: القاعدة في الاصطلاح.....	58
المسألة الثالثة: خلاصة واستنتاج.....	63
المبحث الثاني: العمران، المفهوم والتداول التاريخي.....	65
Toc60591320__المطلب الأول: مفهوم العمران اللغوي.....	66
العمران لغة:.....	66
المطلب الثاني: العمران في الاصطلاح حسب السياق التاريخي.....	69
المسألة الأولى: العمران في السياق القرآني.....	69
العمران والعبادة.....	75

- 77..... ○ ● علاقة العمران بمقاصد الوجود
- 78..... المسألة الثانية: العمران في السياقات الحديثة
- 83..... المسألة الثالثة: العمران في اصطلاح العلماء
- 87..... ○ ● استخلاص:
- 89..... ○ ● استنتاج
- 90..... المبحث الثالث: مصطلحات ذات صلة بالعمران
- 91..... المطلب الأول: الاستخلاف وعلاقته بالعمران
- 92..... المسألة الأولى: مفهوم الاستخلاف
- 92..... ○ ● المفهوم اللغوي:
- 93..... ○ ● المفهوم الاصطلاحي:
- 96..... ○ ● استنتاج:
- 98..... المسألة الثانية: علاقة الاستخلاف بالعمران
- 99..... المطلب الثاني: العبادة وعلاقتها بالعمران
- 99..... المسألة الأولى: مفهوم العبادة
- 100..... ○ ● العبادة في اللغة:
- 100..... ○ ● العبادة في الشرع:
- 101..... المسألة الثانية: حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام
- 104..... المسألة الثالثة: علاقة العبادة بالعمران:
- 106..... المسألة الرابعة: العلاقة الثلاثية
- 109..... المطلب الثالث: الحضارة وعلاقتها بالعمران
- 109..... المسألة الأولى: مفهوم الحضارة:
- 110..... ○ ● المفهوم اللغوي:
- 113..... ○ ● المفهوم الاصطلاحي
- 117..... المسألة الثانية: المصطلحات المماثلة للحضارة:
- 118..... المسألة الثالثة: علاقة الحضارة بالعمران
- 120..... **الفصل الثاني العمران أنواعه شروطه وأركانه**
- 122..... المبحث الأول: أنواع العمران
- 123..... المطلب الأول: العمران الروحي الوجداني
- 123..... المسألة الأولى: أهمية عمران الروح
- 127..... المسألة الثانية: تركية النفس منطلق عمران الروح
- 130..... المطلب الثاني: العمران المادي
- 130..... المسألة الأولى: الإسلام يدعو إلى الانخراط في حركة المجتمع
- 133..... المسألة الثانية: دلالة قصة بدء الخلق على العمران المادي
- 134..... المسألة الثالثة: نصوص الشرع تحارب الفساد وتضيق الخناق على المفسدين

- المسألة الرابعة: الإمام الأصفهاني يوضح مقصود الشارع..... 136
- المطلب الثالث: تكامل العمرانين الروحي والمادي:..... 138
- المسألة الأولى: تأثير العمران الروحي في العمران المادي..... 138
- المسألة الثانية: العمران المادي ثمرة للعمران الروحي..... 139
- المسألة الثالثة: القرآن الكريم يجمع بين العمرانين 139
- المسألة الرابعة: التطبيق النبوي يؤكّد على أهمية العمرانين معا..... 141
- المسألة الخامسة: المسلمون الأوائل أقاموا العمرانين معا..... 142
- المسألة السادسة: الغربيون يشيدون بالنظرة العمرانية للإسلام 143
- المطلب الرابع: مخاطر الاختصار على المفهوم المادي للعمران:..... 147
- المسألة الأولى: القرآن يقص مآل الماديين..... 147
- المسألة الثانية: القرآن يقدم قاعدة عامة في مصير الكافرين..... 152
- المسألة الثالثة: الغربيون يعترفون بالحقيقة..... 154
- المبحث الثاني: شروط العمران 155
- المطلب الأول: التوحيد والإيمان: 158
- المسألة الأولى: التوحيد هو المحرك الفاعل لكل حركة عمرانية..... 159
- المسألة الثانية: تأسيس الأنبياء عمرائهم على التوحيد 161
- المسألة الثالثة: مركزية التوحيد في عمران الأمم والدول..... 164
- المسألة الرابعة: الدين - التوحيد - أهم باعث للعمران والحضارة..... 166
- المسألة الخامسة: فقدان التوحيد خراب للعمران ويباب..... 169
- المطلب الثاني: العدل في العمران:..... 171
- المسألة الأولى: مفهوم العدل..... 172
- المسألة الثانية: العدل أساس ومقصد قدري وتشريعي:..... 173
- المسألة الثالثة: العدل قيمة ناظمة لكل مجالات العمران:..... 175
- المسألة الرابعة: العدل في السياسة العظمى (الإمامة) والقضاء:..... 182
- المطلب الثالث: وجود الإمام راعي العمران 187
- المسألة الأولى: المفهوم..... 187
- ○ في اللغة:..... 187
- ○ في الاصطلاح:..... 188
- المسألة الثانية: حكم تنصيب الإمام أو الحاكم والحاجة إليه..... 189
- المسألة الثالثة: تنصيب الإمام هل وجب بالشرع أم بالعقل؟!..... 194
- المسألة الرابعة: مكانة الإمام ومهامه العمرانية:..... 198
- المسألة الخامسة: المواصفات التي ينبغي توافرها في الإمام..... 201
- المبحث الثالث: أركان العمران..... 204
- المطلب الأول: الإنسان المعمر 209

211.....	المسألة الأولى: تعريف الإنسان
211.....	• ○ في اللغة:.....
212.....	• ○ في الاصطلاح:.....
213.....	المسألة الثانية: قيادة الإنسان العمرانية للكون
215.....	• المسألة الثالثة: صفات الإنسان المُعَمَّر
222.....	المطلب الثاني: الاستعمار.....
223.....	المسألة الأولى: الإنسان ذو طبيعة عمرانية:.....
224.....	المسألة الثانية: مركزية العمل وأهميته العمرانية.....
225.....	المسألة الثالثة: الإسلام يدعو إلى العمل ويحث عليه:.....
230.....	المسألة الرابعة: القرآن يجعل العمل دليلاً على الإيمان وشرطاً للعمران:.....
232.....	المسألة الخامسة: السنة تدعو إلى العمل والتعمير
242.....	المسألة السادسة: فعل العمران فعل تعبدى.....
245.....	المطلب الثالث: مسرح العمران وفضاؤه.....
246.....	المسألة الأولى: القرآن الكريم يعتبر الأرض مسرحاً للعمران
249.....	المسألة الثانية: هيئة الأرض وطبيعتها تدل على وظيفتها العمرانية.....
250.....	المسألة الثالثة: قوانين الأرض منسجمة مع وظيفتها العمرانية.....
253.....	المسألة الرابعة: أحكام الفقه الإسلامي ووظيفة الأرض العمرانية.....
254.....	المسألة الخامسة: نظرة السيرة للأرض نظرة عمرانية.....
255.....	المسألة السادسة: إشارة عمرانية بديعة.....
257.....	المطلب الرابع: وقت العمران وزمانه.....
257.....	المسألة الأولى: دلالة اللغة على عمرانية الزمن.....
259.....	• ○ أولاً: مفهوم الوقت
262.....	المسألة الثانية: الوقت إحساس وإدراك
263.....	المسألة الثالثة: قيمة الوقت في القرآن والسنة.....
267.....	المسألة الرابعة: تقسيم القرآن للزمان مبيّناً وظيفة كل جزء منه.....
268.....	المسألة الخامسة: الزمن حاضر في تكوين المخلوقات (العمران الإلهي)
272.....	المسألة السادسة: العبادات تُثَبِّتُ قيمة الوقت العمرانية.....
276.....	الفصل الثالث الكون والإنسان وعلاقتهما العمرانية
279.....	المبحث الأول: الكون ووظيفته العمرانية:.....
280.....	المطلب الأول: مفهوم الكون وحقيقته الوجودية.....
280.....	المسألة الأولى: الكون في اللغة:.....
282.....	المسألة الثانية: الكون في الاصطلاح:.....
284.....	المسألة الثالثة: البعد الإيماني والشرعي للكون
288.....	المطلب الثاني: علاقة الإنسان بالكون

288.....	المسألة الأولى: الاتجاهات الفكرية في تحديد علاقة الإنسان بالكون.....
292.....	المسألة الثانية: علاقة الإنسان بالكون في الفكر الإنساني في العصر الحديث:.....
294.....	المسألة الثالثة: علاقة الإنسان بالكون في الإسلام:.....
300.....	المطلب الثالث: دور الكون في عملية الإنسان العمرانية:.....
300.....	المسألة الأولى: الإنسان مكلف بالعمران.....
305.....	المسألة الثانية: تسخير الكون للإنسان لإقامة العمران.....
311.....	المسألة الثالثة: تفاعل الإنسان مع الأكوام لإقامة العمران.....
320.....	المبحث الثاني: وسائل إعمار الكون.....
322.....	المطلب الأول وسيلة العلم:.....
323.....	المسألة الأولى: تعريف العلم.....
323.....	• ○ التعريف اللغوي:.....
324.....	• ○ التعريف الاصطلاحي:.....
327.....	المسألة الثانية: أقسام العلم.....
327.....	المسألة الثالثة: العلم المقصود هنا.....
329.....	المسألة الرابعة: العلم شرط الاستحقاق ونقطة الانطلاق.....
333.....	المسألة الخامسة: العلم صرخة القرآن الأولى.....
334.....	المسألة السادسة: العلم صفة ملازمة للأنبياء لإقامة العمران.....
336.....	المسألة السابعة: دور العلم في تحقيق النجاح العمراني.....
340.....	المطلب الثاني: وسيلة تركية النفس عبر مقامي التخلي والتحية.....
342.....	المسألة الأولى: مفهوم التزكية:.....
343.....	المسألة الثانية: مراحل التزكية.....
345.....	المسألة الثالثة: دور التزكية في العمران.....
348.....	المسألة الرابعة: مجالات التزكية.....
348.....	المسألة الخامسة: وسائل التزكية.....
354.....	المطلب الثالث: وسيلة اكتشاف السنن الإلهية واستثمارها.....
354.....	المسألة الأولى: مفهوم السنن الإلهية.....
354.....	• ○ مفهوم السنة في اللغة.....
356.....	• ○ مفهوم السنة في الاصطلاح:.....
361.....	المسألة الثانية: أقسام السنن الإلهية.....
363.....	المسألة الثالثة: وجه العلاقة بين السنة الكونية والسنة الاجتماعية.....
365.....	المسألة الرابعة: ضرورة تعلم هذه السنن.....
368.....	المسألة الخامسة: كيفية استثمار السنن الإلهية وتسخيرها عمرانيا.....
373.....	فهرسة الآيات القرآنية.....

385 فهرسة الأحاديث

388 فهرسة القواعد العمرانية

389 فهرسة الموضوعات:

مركز الدراسات في الدكتوراه
تكوين: الحوار الديني والثقافي
في الحضارة الإسلامية



أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان :

فقه قواعد العمران وعلاقته بالإنسان (دراسة تأصيلية تحليلية)

ج 2

إشراف الأستاذ :
الدكتور سعيد شبار

إعداد الطالب الباحث:
عبد الفتاح خياري
رقم التسجيل 04/2016

السنة الجامعية:
1442/1441 هـ - 2021/2020 م

الباب الثاني

القواعد العمرانية

وآثارها الاستشرافية في

عمران الأمة

بعدما خصصنا الباب الأول في هذا الموضوع الرائد للجانب النظري، حيث تناولت فيه ما رأيته من الأهمية بمكان، حسب ما تفضّل به الكريم المنان، وسمح به الزمان؛ أنتقل إلى الشق التطبيقي للموضوع لأفرد له - أيضا - بابا مستقلا بعنوان (**القواعد العمرانية وآثارها الاستشرافية في عمران الأمة**) حتى تتضح الرؤية وتحقق الغاية، وتنضج الثمرة!!

وسأركز في هذا الشقّ من هذا الموضوع على دراسة طائفة من القواعد التي تقوم عليها مسائل فقه العمران وتُبنى عليها فروعها وجزئياته، استشرافا لعمران زاهر وحضارة مشرقة!! وهذا هو الجانب الأهم من الأطروحة والمقصود أصالة، وإن كان الباب الأول مهما أيضا لكنه مقصود بالتبع، وذلك لسببين..

أولهما خاص وهو راجع إلى عنوان الأطروحة المسومة ب(**فقه قواعد العمران وعلاقته بالإنسان، دراسة تأصيلية تحليلية**)؛ فالقواعد هنا حاضرة بشكل قوي في العنوان المذكور آنفا.

والسبب الثاني عام، وهو أن العمران علم قائم بذاته - وإن لم يلقَ الاهتمام المطلوب - ومن الشروط اللازمة لأي علم، ومن علامات ينعه ونضجه أن تكون له قواعده وأصوله الخاصة به، التي تبنى عليها فروعها ومسائله وترتبط بها جزئياته، وقد يشترك في تلك القواعد والأصول مع غيره من العلوم؛ وكما هو معلوم لدى أهل الاختصاص ومشهور أنّ العلوم فيها من التداخل والتكامل فيما بينها، حتى غدا ذلك قبلة كثير من الباحثين - الأكاديميين وغيرهم - اليوم تحت مسمى (**تكامل العلوم**)

ولابد أن أشير هنا إلى أنّ أهمية التقعيد والتأصيل في فقه العمران، مثلها مثل أهميتها وفائدتها في أيّ علم آخر، إن لم تكن أكد!! نظرا لما يميّز به موضوع العمران من شمول وعموم، كما بيّنت في موطنه¹؛ وعلى أي، فإنّ أهمية القواعد - في أي علم - هي كما قال العلامة القرافي - لله درّه - في كتابه الماتع الشافي " **الفروق** " : وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظّم قدر الفقيه ويشرّف، ويظهر رونق الفقه ويُعرف،

¹ يُنظر في تفصيل ذلك في المطلب الثاني من المبحث الثاني في الفصل الأول من الباب الأول من هذه الأطروحة.

وتتضح مناهج الفتاوى وتُكشف، فيها تنافس العلماء وتفاضل الفضلاء، وبرَزَ القَارِحُ على الجَذْعِ، وحاز قَصَبَ السَّبْقِ مَنْ فيها بَرَعَ، وَمَنْ جعل يُخْرِجُ الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاعت نفسه لذلك وَقَنَطَتْ، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تنتهى وانتهى العُمُرُ ولم تَقْضِ نفسه مِنْ طَلَبِ مُنَاهَا؛ ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب²؛ وقال الشيخ أحمد زروق أيضا في قواعده: "ضبط العلم بقواعده مهم، لأنها تضبط مسائله، وتُفهم معانيه، وتُدرك مبانيه، ويَتَنَفَّى الغلط من دعواه، وتَهْدِي المتبصر فيه، وتعين المتذكر عليه، وتُقيم حجة المناظر، وتوضح المحجة للناظر، وتبين الحق لأهله، والباطل في محله"³.

وفقه العمران هو الآن أكثر العلوم الشرعية افتقارا إلى التععيد والتأصيل، وأشدّها حاجة إلى ذلك نظرا لندرة التععيد فيه حتى كاد ينعدم، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ما ينتج عن ذلك من الفوائد والأهداف والمقاصد؛ وذلك لعدة أسباب، نوجزها فيما يلي:

✓ أنه علم جديد من حيث تميّزه وتخصّصه وبنائه، فيحتاج إلى استكمال لبناته وضبط قضاياه؛ ومن أهمّ ذلك استخراج قواعده الضابطة، وتحريرها وتفعيلها، لكي تؤدي وظائفها، على نحو ما قاله الشيخان القرافي وزروق..

✓ أن فقه العمران هو فقه يرتبط بأهم وظيفة منوطة بالإنسان خليفة الرحيم الرحمان، وهي أمانة الاستخلاف - كما بينت في الباب الأول - ولذلك لا بد من الاعتناء به والاهتمام!!

✓ أنّ هذا العلم علم واسع تدخل ضمنه مجموعة من الفنون والعلوم، ويسط أجنحته على مجالات الحياة كلها، نظرا لشمولية هذا المفهوم كما سبقت الإشارة إليه، وبالتالي فهو أحوج ما يكون إلى الضبط والتنظيم؛ وأحسب أن القواعد هي الجديرة بتحقيق هذا المقصد

² ن: "أنوار البروق في أنواء الفروق"، للقرافي، نشر عالم الكتب؛ بدون طبعة وبدون تاريخ (1 / 3)

³ ن: "قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة"، لأحمد زروق، ضبطه وعلّق عليه محمود بيروتي، دار البيروتي، دمشق سوريا؛ ط: 1؛ سنة: 1424هـ/2004م؛ القاعدة: 36؛ ص: 52.

العظيم!!

✓ أنّ فقه العمران هو فقه يرتبط بشهود الأمة الإسلامية وكيانها ووجودها، فالاعتناء به اعتناء بالأمة ومستقبلها..

تلك أسباب تدعو إلى الاهتمام بهذا العلم، وأحسب أنّ العمل على تقعيده وتأصيله، أهمّ خطوة في سبيل تحقيق هذا المقصد العظيم، الذي تحتاجه أمتنا الإسلامية أكثر من أي وقت مضى، علّها تنهض من جديد بعد سباتها الذي دام ردحا من الزمن، استشرافا للمستقبل المنشود، وتحقيقا للأمل الموعد!!

وقد خصصت هذا الباب لدراسة بعض القواعد العمرانية الكبرى، مستخرجة من الكتاب والسنة، ومؤلفات وأقوال وسياقات مختلفة لعدد من العلماء الأفذاذ الرواد؛ وقد اجتهدت قدر الوسع في صياغة أكثرها بما أراه مؤديا للمعنى المنشود والغرض المقصود!!

وقد وزّعت هذه القواعد عبر مجموعات عديدة، جعلت كل واحدة منها تحت فصل مستقل، تضمّن كل فصل ثلاثة من القواعد، لكل قاعدة منها مبحث خاص تندرج تحته أربعة مطالب، كل مطلب منها يتعلق بزاوية معينة من تلك القاعدة، جاءت على الصورة الآتية:

1. مفهوم القاعدة ودلالاتها

2. أدلتها وبراهينها

3. أهميتها ومجالاتها العمرانية

4. آثارها الاستشرافية لعمران الأمة خاصة وعمران الإنسانية عامة.

فأما ((مفهوم القاعدة))، فيتضمن شرحا مفصلا للقاعدة، وما قد يحيط بها من نصوص وآراء للعلماء؛ وهو من الأهمية بمكان لأنه كما نكرر دائما الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وأما ((أدلة القاعدة))، فهو العنصر الذي يعطي القاعدة قيمتها وحجّيتها التشريعية، ويؤهلها لتكون ركيزة من ركائز فقه العمران، وأساسا من أسسه التي تبنى عليها مسائله.

وأما ((أهميتها ومجالاتها العمرانية))، فإنني أسوق مجموعة من المجالات العمرانية المتعددة والمختلفة التي تُؤطرها القاعدة، ومن خلال ذلك تتجلى أهميتها ويتّضح دورها العمراني على البلاد والعباد، في المعاش والمعاد!!

وأما العنصر الرابع: ((آثارها الاستشرافية لعمران الأمة))، فإنني أجتهد قدر الإمكان والوسع بعد تأملي للقاعدة عبر زواياها الثلاثة السابقة - أي مفهومها وأدلتها وأهميتها ومجالاتها العمرانية - أن أُحدّد أهم الآثار الإيجابية التي يُنتجها تطبيق واستثمار تلك القاعدة في عمران الأمة الإسلامية على وجه الخصوص، وعمران الإنسانية على العموم؛ وأزعم أنّ هذا هو أهم العناصر في دراسة القاعدة العمرانية، لأنه يمثل فقهها المآلي الذي يُفصّح عن ثمراتها وآثارها المباركة على مستقبل عمران الأمة الإسلامية!! وخاصة أنّ أمتنا في أمس الحاجة إلى مثل هذا لاستعادة شهودها الحضاري، وتفوّقها العمراني!!

هذا وعلى الله قصد السبيل؛ فهو سبحانه حسبي ونعم الوكيل!

الفصل الأول:

قواعد عمرانية في العقيدة

وأصول الدين

قد سبق الحديث في الباب الأول من هذا البحث عن شقي العمران: الروحي والمادي، وبيّنا أن العمران الروحي هو الأصل والأساس، وأنّ المادّي تبع له ومتأثر به؛ كما سَلَفَ القول أنّ التوحيد هو المحرّك الفاعل لكل حركة عمرانية، وأنه أهمُّ باعث للعمران والحضارة، مستدلين على ذلك بآي من القرآن العظيم وأحاديث من كلام النبي الكريم، وتمّ الاستئناس على ذلك بكلام بعض العلماء، كالإمام الماوردي الذي اعتبر الدين القاعدة الأولى لصالح الدنيا، أي لعمرانها، وكذا الشأن لابن خلدون الذي أشاد بدور الدين في إقامة العمران والاجتماع البشري؛ كما أوضحنا أنّ تأسيس الأنبياء لعمرانهم كان بناء على التوحيد والعقيدة⁴؛ وبذلك يمكن اعتبار العقيدة أهمّ موجّه للعمران ومؤطر له!!

ويمكن القول هنا أنّ العقيدة الصحيحة باعتبارها علماً مستقلاً من علوم الشريعة الإسلامية مبنية على أصولها وقواعدها كباقي العلوم الإسلامية، وقد ألّف في ذلك بعض العلماء قديماً وحديثاً⁵.

وسأنتخب في هذا الفصل ثلاث قواعد عمرانية تتعلّق بأصول الدين والعقيدة؛ لأبرز من خلالها أهمّية هذا الجانب في تأطير العمران بصفة عامة، والعمران الإسلامي بصفة خاصة؛ كل ذلك سيكون عبر ثلاثة مباحث مفرداً لكل قاعدة مبحثاً مستقلاً؛ تأتي كما يلي:

المبحث الأول: قاعدة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁶.

المبحث الثاني: قاعدة (العلم نقطة الانطلاق، وشرط الاستحقاق)

المبحث الثالث: قاعدة (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)

⁴ . ورد ذلك بالتفصيل عبر مسائل متعددة في المطلب الأول من المبحث الثاني في الفصل 2 من الباب الأول.

⁵ . من المعلوم لكل دارس للشريعة الإسلامية أن التأليف في هذا الباب كان قليلاً جداً، ومن أهمّ ما ألّف فيه "الرسالة القدسية في قواعد العقائد" وهو كتاب من تأليف الإمام الغزالي الطوسي (ت. 505 هـ)؛ وهذا الكتاب هو جزء من كتاب «الإحياء»؛ وقد كتب في هذا الموضوع أخونا الأستاذ محمد نحو بحث الدكتوراه بعنوان: "قواعد العقيدة وأثرها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، دراسة تأصيلية تحليلية" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة مولاي سليمان ببني ملال؛ وتمت مناقشة هذه الأطروحة في موسم (2019 / 2020).

⁶ الذاريات: 56

المبحث الأول: قاعدة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁷

هذه قاعدة عمرانية قرآنية تتعلق بأصول الدين والعقيدة، وهي الوحيدة من القواعد العمرانية الواردة في هذا البحث التي حافظت على صيغتها القرآنية دون زيادة أو نقصان؛ وقد تعمّدت البدء بها باعتبارها أمّ القواعد العمرانية، مثلها في ذلك مثل فاتحة الكتاب للكتاب!!⁸؛ إذ كل القواعد يمكن إدراجها تحت هذه القاعدة، نظرا لما يتميز به مفهوم العبادة من العموم والشمول والاستيعاب لكل مناحي الحياة ومجالاتها، وقد سبق بيان هذا في أكثر من سياق، وفي غير ما موضع من الباب الأول من هذه الأطروحة⁹؛ فما هو مفهوم هذه القاعدة ودلالاتها؟ وما هي أدلتها وبراهينها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية للعمران؟

تلك أسئلة أربعة، نتجول من خلال ثنايا الإجابة عنها بيانا لدور القاعدة العمرانية وأثرها الحضاري، استشرافا لعمران مزدهر وحضارة راقية، ترتقي عبرها الأمة بأفرادها ومجموعها في مدارج الكمال الإنساني، تحقيقا لشهودها الحضاري، بإذن القدير العلي!!

وتأتي الإجابة في أربعة مطالب كالاتي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحجّيتها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

⁷ المذاريات: 56

⁸ المقصود بالكتاب هو القرآن الكريم

⁹ ينظر مثلا "المطلب الثاني: العبادة وعلاقتها بالعمران" من المبحث الثالث في الفصل الأول من الباب الأول..

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

قال الإمام الطبري: "اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)؛ فقال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السُّعْدَاءَ من الجنِّ والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي (..) ثم ذكر قول ابن عباس بسنده - إلا ليقروا بالعبودة طوعا وكرها" ¹⁰؛ ثم رجَّح الرأي الثاني بقوله: "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: ما خلقت الجنَّ والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا" ¹¹.

وقال القرطبي: "وقيل: (إلا ليعبدون) أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها، رواه علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس؛ فالكراه ما يُرى فيهم من أثر الصنعة.." ¹².

قال الفراء ¹³: "وقال بعضهم: خلَقَهُمْ لِيَفْعَلُوا فَفَعَلَ بَعْضُهُمْ وَتَرَكَ بَعْضٌ، وَلَيْسَ فِيهِ لِأَهْلِ الْقَدْرِ حُجَّةٌ، وَقَدْ فُسِّرَ" ¹⁴.

قال الألوسي في روحه: "لأن الآية سيقَّت لبيان صنيع المكذِبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها (..) والظاهر أن المراد بها ما كانت بالاختيار دون التي بالتسخير الثابتة لجميع المخلوقات، وهي الدلالة المنبِّهة على كونها مخلوقة وأنها خَلُقَ فاعل حكيم، ويعبر عنها

¹⁰ ن: "جامع البيان في تأويل القرآن" للطبري، مصدر سابق (22/ 444)

¹¹ نفس المرجع (22/ 445)؛

¹² ن: "الجامع لأحكام القرآن" القرطبي، مصدر سابق.. (17 / 55)؛

¹³ الفراء (144 - 207 هـ / 761 - 822 م)، هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد أبو زكرياء، المعروف بالفراء؛ إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب؛ كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، ولد بالكوفة، وانتقل إلى بغداد؛ وتوفي في طريق مكة؛ وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها، عارفا بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال..

له مؤلفات كثيرة؛ ولما مات وجد «كتاب سيبويه» تحت رأسه، فقيل: إنه كان يتتبع خطاه ويتعمد مخالفته...

نقلا عن: الأعلام للزركلي؛ بتصرف..

¹⁴ ن: "معاني القرآن"؛ لأبي زكريا الفراء؛ المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي؛ الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر؛ الطبعة: الأولى، بدون تاريخ (89/3)

بالسجود كما في قوله تعالى: وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ [الرحمن: 6] وأل في الجن والإنس على المشهور للاستغراق، واللام قيل: للغاية؛ والعبادة وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والإنس لأجلها أي لإرادتها منهم إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك، لاستلزام الإرادة الإلهية للمراد كما بُيِّنَ في الأصول مع أن التخلف بالمشاهدة، وأيضا ظاهر قوله تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ [الأعراف: 179] يدل على إرادة المعاصي من الكثير ليستحقوا بها جهنم فينا في إرادة العبادة، لكن لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها، حيث ركب سبحانه فيهم عقولا وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد، جعل خلقهم مغيا بها مبالغة بتشبيه المعد له الشيء بالغاية ومثله شائع في العرف، ألا تراهم يقولون للقوي جسمه: هو مخلوق للمصارعة، وللبقر: هي مخلوقة للحرث¹⁵.

قلت: أما قوله أن العبادة لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لكون بعضهم لم يحققوا ذلك واقعا، فهذا فيه إشكال!! فإننا نقول أرادها منهم ولكنه سبحانه لم يجبرهم عليها بل ترك لهم الخيار، وذلك مقتضى التكليف، أو نقول أرادها منهم إرادة شرعية دون الإرادة القدرية؛ ولذلك يقول في موطن آخر: "(..)" وقد سمعت أن منهم من يقسم الإرادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتكوينية تتعلق بالمعاصي وغيرها (..) ويقال: إن العبادة مرادة منهم أيضا لكن بالإرادة الشرعية¹⁶.

ولزيد من الإيضاح لإزالة هذا الإشكال الذي يتبادر من كلام الألوسي، أسوق كلاما للزمخشري يقول فيه: "أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها¹⁷؛ فإن قلت: لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا؟ قلت: إنما أراد منهم

¹⁵ ن: "روح المعاني" الألوسي؛ مصدر سابق، بتصرف (21 / 14)

¹⁶ ن: نفس المصدر بتصرف، (22 / 14)

¹⁷ أي إرادة شرعية، أما الإرادة الكونية القدرية فإنها شاملة لكل ما يصدر من العباد طاعة وعصيانا، إيمانا وكفرا، عبادة وعدمها؛ إذ لا يمكن أن يقع شيء في كونه خارجا عن إرادته..

أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختر بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم¹⁸.

وللبیان أكثر وإزالة هذا اللبس، أُورد كلاما للعلامة ابن عاشور نُجِّلِي من خلاله الفرق بين الإرادة التكوينية القدريّة وبين الإرادة الشرعية، إذ البعض يخلط بينهما فيوقع نفسه في التعارض؛ يقول رحمه الله: "فمعنى الإرادة هنا: الرضى والمحبة، وليس معناها الصفة الإلهية التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم، التي اشتق منها اسمه تعالى: المريد لأن إطلاق الإرادة على ذلك إطلاق آخر، فليس المراد هنا تعليل تصرفات الخلق الناشئة عن اكتسابهم على اصطلاح الأشاعرة، أو عن قدرتهم على اصطلاح المعتزلة - على تقارب ما بين الاصطلاحين - لظهور أن تصرفات الخلق قد تكون مناقضة لإرادة الله منهم بمعنى الإرادة الصفة، فالله تعالى خلق الناس على تركيب يقتضي النظر في وجود الإله ويسوق إلى توحيده، ولكن كسب الناس يجرف أعمالهم عن المهيع الذي خلقوا لأجله، وأسباب تمكنهم من الانحراف كثيرة راجعة إلى تشابك الدواعي والتصرفات والآلات والموانع؛ (..) أي فحصل تناقض بين الأمر التكويني والأمر التشريعي¹⁹

ويقول أيضا موضحا معنى العبادة والحصر المتعلق بها: "معنى العبادة في اللغة العربية قبل حدوث المصطلحات الشرعية دقيق الدلالة، وكلمات أئمة اللغة فيه خفية، والذي يستخلص منها أنها إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكا ذاتيا مستمرا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون وقومهما لنا عابدون (المؤمنون: 47)؛ فالحصر المستفاد من قوله: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون قصر علة خلق الله للإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصر إضافي وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول ليعبدون، أي إلا ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرا حقيقيا فإننا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكننا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه، لأن حكم الله تعالى من أفعاله

¹⁸ ن: "الكشاف" الزمخشري مصدر سابق (4/ 406).

¹⁹ ن: "التحرير التنوير" مرجع سابق، بتصرف (26/ 25).

كثيرة لا نحيط بها، وذَكَرُ بعضها كما هنا لا يقتضي عدم وجود حكمة أخرى، ألا ترى أن الله ذكر حِكْمًا للخلق غير هذه كقوله: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم [هود: 118، 119] بله ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجن كقوله في خلق عيسى ولنجعل آية للناس ورحمة منا [مريم: 21]²⁰

استنتاج:

من خلال ما سبق من كلام بعض المفسرين لتلك الآية وما تم إيرادها في الباب الأول²¹ يتبين لنا ما يلي:

○ أن جميع الخلق مأمورون بالعبادة طوعا وكرها، ف"أل" التي دخلت على "الجن" و"الإنس" هي للاستغراق؛ وأنه سبحانه أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، أو بتعبير الشاطبي لله دره: "إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا"²²؛ وهو ما يتوافق مع وظيفتهم الاستخلافية العمرانية..

○ أن اختيار بعضهم ترك العبادة لا يعني عدم عموم القاعدة، وإنما يعني شذوذهم عن القاعدة، واستنكافهم عن الوظيفة التي أنيطت بهم، وبالتالي خيانتهم للأمانة التي حُمِّلوها..

○ أن العبادة تشمل كل حركة يقوم بها الإنسان لإعمار الكون وإصلاحه، مستجيبا بذلك لأمر خالقه، ومحققا غاية وجوده؛ ولا تقتصر على مجرد الشعائر الدينية!!

○ أن العبادة تبرّر خلق المخلوقات، وتعطي لوجودهم معنى وغاية²³..

○ أن العبادة من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر ولا عمرانهم في الأرض بدون إدراكها

²⁰ ن: نفس المرجع، بتصرف (27 / 27).

²¹ ن: المطلب الثاني من المبحث الثالث في الفصل الأول من الباب الأول في هذه الأطروحة.

²² ن: "الموافقات"، مرجع سابق (289/2).

²³ هذه الجملة كانت ممّا كتبه أستاذي المشرف الدكتور سعيد شبار من تعليق عند تصحيحه لورقات هذا البحث، فله جزيل الشكر والامتنان.

واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها..

وخلاصة القول أن مفهوم العبادة الوارد في هذه الآية، التي جعلتها قاعدة عمرانية كبرى، هي: "كل الأعمال الباطنة والظاهرة التي يقوم بها العبد ذلاً وحباً لخالقه سبحانه، وتحقيقاً لمراد الله تعالى وتنفيذاً لأمانة الاستخلاف، وهي عمران الأرض بما يؤول على العباد والبلاد بالنفع والصالح في المعاش والمعاد"

المطلب الثاني: أدلتها وبراهينها

هذه القاعدة العظيمة لها أدلتها من القرآن والسنة، وهي أدلة مستفيضة وكثيرة، وهو ما

يدل على كونها قاعدة كلية كبرى!!

ففي القرآن وحده نجد ألفاظ العبادة بأوضاعها الاشتقاقية المختلفة، حسب "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"²⁴ فقد وردت في سبعة وسبعين ومائتي موضع من كتاب الله. وهذه هي الصور التي جاءت عليها ألفاظ العبادة في القرآن الكريم - الأرقام الموجودة بجوار الكلمات تُشير إلى عدد مرات وجودها في القرآن الكريم -: عَبْدَ (1)، عَبْدُكُمْ (1)، عَبْدَنَا (1)، عَبْدَانَاهُمْ (1)، أَعْبُدْ (13)، تَعْبُدُوا (7)، تَعْبُدُونَ (23)، نَعْبُدْ (7)، نَعْبُدُهُمْ (1)، يَعْْبُدْ (8)، يَعْْبُدُوا (3)، يَعْْبُدُونَ (12)، لِيَعْبُدُونَ (1)، يَعْْبُدُونِي (1)، يَعْْبُدُوهَا (1)، أَعْبُدْ (3)، فَاَعْبُدْنِي (1)، فَاَعْبُدْهُ (2)، اَعْبُدُوا (21)، فَاَعْبُدُونِ (3)، اَعْبُدُونِي (1)، اَعْبُدُوهُ (6)، يُعْبُدُونَ (1)، عَبَدْتُ (1)؛ الْعَبْدُ (10)، عَبْدًا (6)، عَبْدًا (5)، عَبْدِهِ (7)، عَبْدَيْنِ (1)، الْعِبَاد (20)، عِبَادِي (4)، عِبَادًا (2)، عِبَادُكَ (9)، عِبَادُكُمْ (1)، عِبَادَنَا (12)، عِبَادَهُ (34)، عِبَادِي (17)، لِلْعَبِيد (5)، عَابِدْ (1)، عَابِدَاتٍ (1)، عَابِدُونَ (5)، عَابِدِينَ (5)، بِعِبَادَةٍ (1)، عِبَادَتِكُمْ (1)، عِبَادَتِهِ (4)، بِعِبَادَتِهِمْ (2)، عِبَادَتِي (1)..

أما السنة في هذا الشأن فأكثر من أن يُحاط به، خاصة إذا اعتبرنا مرادفاتهما، إذ مما هو معلوم أنّ نصوص السنة من الكثرة بمكان بخلاف نصوص القرآن؛ ومن ثمّ فنكتفي بذكر نماذج منها نراها تؤدي المقصود..

وأول حديث أبدأ به يقرّر الآية التي جعلتها قاعدة لهذا المبحث؛ إنه حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - الذي قال فيه: ((كنت ردف النبي ﷺ، على حمار يقال له عفير، فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد

²⁴ ن: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" لفؤاد عبد الباقي، مرجع سابق، باب العين، من ص: 541، إلى: 546

على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً))؛ الحديث²⁵

وفي حديث آخر لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: (بَعَثْتُ بَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرِ ضِمَامَ بْنَ ثَعْلَبَةَ، وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، وَكَانَ ضِمَامٌ رَجُلًا جَلْدًا أَشْعَرَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي سَأَلْتُكَ وَمُعَلِّطٌ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ، قَالَ: لَا أَحَدٌ فِي نَفْسِي، فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، قَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ، وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، اللَّهُ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولًا؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ، وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ) الحديث²⁶

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيَتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: انْتَوَهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخَيْرُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي، لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيَتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً قَالَ: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} (الرعد: 24))²⁷

وفي صحيح البخاري أن أبا سفيان بن حرب سأل هرقل أسئلة كثيرة كان منها: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: (اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا

²⁵ - أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: 2856؛ (29/2)

²⁶ - أخرجه الإمام أحمد في المسند (209/4) ..

²⁷ . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (131/11) ..

بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة).²⁸ الحديث..

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديثه هذا: (أن أناسا من عبد القيس قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا نبي الله، إنا حي من ربيعة، وبيننا وبينك كفار مضر، ولا نقدر عليك إلا في أشهر الحرم، فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا، وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمركم بأربع، (...): اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم)"²⁹ الحديث..

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اعْبُدُوا الرَّحْمَنَ وَأَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ)³⁰ الحديث..

وأخرج الإمام مالك بسنده عن أبي هريرة، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعتة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)³¹

- عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه ابن مسعود رضي الله عنه قال: (بينما رجل فيمن كان قبلكم، كان في مملكته، فتفكر، فعلم أن ذلك منقطع عنه، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه، فتسرب فانساب ذات ليلة من قصره، فأصبح في مملكة غيره، وأتى ساحل البحر، وكان به يضرب اللبن بالأجر، فيأكل ويتصدق بالفضل، فلم يزل كذلك، حتى رقي

²⁸ ن: "صحيح البخاري"، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ " (8/1)

²⁹ ن: "صحيح مسلم"، باب الأمر بالإيمان بالله ورسول الله ﷺ " (48/1)

³⁰ ن: "الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان"؛ لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م، "باب الأمر بالإيمان بالله ورسول الله ﷺ" (242/2)

³¹ ن: "موطأ الإمام مالك"، مصدر سابق (952/2)

أمره إلى ملكهم، وعبادته وفضله، فأرسل ملكهم إليه أن يأتيه، فأبى أن يأتيه، فأعاد، ثم أعاد إليه، فأبى أن يأتيه، وقال: ما له وما لي؟ قال: فركب الملك، فلما رآه الرجل ولى هارباً، فلما رأى ذلك الملك ركض في أثره، فلم يدركه، قال: فناداه: يا عبد الله، إنه ليس عليك مني بأس، فأقام حتى أدركه، فقال له: من أنت رحمك الله؟ قال: أنا فلان بن فلان، صاحب ملك كذا وكذا، تفكرت في أمري، فعلمت أن ما أنا فيه منقطع، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي، فتركته وجئت هاهنا أعبد ربي عز وجل، فقال: ما أنت بأحوج إلى ما صنعت مني، قال: ثم نزل عن دابته، فسيبها، ثم تبعه، فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل، فدعوا الله أن يميتهما جميعاً، قال: فماتا " قال عبد الله: لو كنت برميلة مصر، لأريتكم قبورهما بالنعث الذي نعت لنا رسول الله ﷺ)³²

فهذه نماذج من الأحاديث تدل على أهمية العبادة ومركزيتها العمرانية، فهي حق الله على عباده بمقتضى خالقيته لهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَبَّهُمْ يَتَّبِعُوا رَبَّهُمْ﴾³³

³² ن: "مسند الإمام أحمد"، مصدر سابق (336 / 7)

³³ البقرة: 21

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

إن المتأمل لهذه الآية التي تمثل قاعدة عمرانية كبرى ليجدها باسطة أجنحتها على مجالات عمرانية من الكثرة بمكان، بل لا يمكن حصرها في عدد معين، إذ هي تشمل كل مجالات الحياة كما سيأتي بيانه في هذا المطلب، ومن ثم كانت من الأهمية والغاية العظمى، ولا أدل على ذلك من أنها حصرت علة الخلق في تحقيق عبديته وعبوديته، مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً - في هذه الأطروحة³⁴ - أن مفهوم العبودية مفهوم دقيق عميق، وكامل شامل، ومما ذكرت في ذلك وأؤكد عليه هنا هو: أن العبادة: هي استسلام الإنسان كله، ظاهره وباطنه، قلبه وقالبه لله رب العالمين (..) وهو منطوق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له، وبذلك

أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ³⁵

ومن ثم فإن الإسلام قد طبع جميع أعمال الإنسان بصبغة العبودية، إذا قصد العبد بهذه الأعمال وجه الله ومرضاته، وقام بها على الوجه المشروع الموافق لمراد الله، وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة، فالمزارع والصانع والتاجر والطبيب والفلكي، بله المصلي والصائم والحاج.. وغيرهم تعتبر أعمالهم عبادة لله إذا قصد بها كل منهم وجه الله تعالى، ونفع عباد الله وعمران البلاد تحقيقاً لأمر الله سبحانه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾³⁶؛ ولنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: (كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن

³⁴ ن: "المسألة الثالثة" من المطلب: 2 في المبحث: 3 من الفصل الأول في الباب الأول.

³⁵ سورة الأنعام: 162-163

³⁶ هود: 60

الطريق صدقة³⁷

فها هو الحديث أضفى على الأمور العادية صفة العبودية، وجعل القيام بها عبادة يُتاب عليها المسلم؛ وهو ما يجعل معنى العبادة يَحُومُ حول جميع مجالات الحياة!! فيستغرق صغيرها وكبيرها ودِقِّها وجلِّها، وكلِّياتها الأساسية، كما يشمل جزئياتها المتنوعة..

ومن الأدلة المقررة لهذا المعنى الجامعة لحقائقه قوله ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان)³⁸؛ فهذا دليل واضح على أن مسمى الإيمان - الذي هو ركن العبادة الأعظم - يشمل كل مناحي الحياة، طولا وعرضا، سطحا وعمقا؛ (..) وهو مدلول القاعدة التي ندندن حولها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾³⁹؛ وهو ما أمر الله به الناس جميعا بمقتضى خالقيته لهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁴⁰؛ "أي لا تنسوا أنكم مجرد عبيد لا آلهة، فلا أحد منكم خلق نفسه! فاستجيبوا لسيدكم الذي له الفضل وحده في إخراجكم من ظلمات العدم إلى نور الوجود! إذ بذلك كان حقه عليكم: أن تخلصوا له العبادة وحده دون سواه! إنه الخالق الأوحد للبشرية جميعا أولها وآخرها! ومن ثمَّ وجب التخلّي عن الكبرياء الشيطاني، والخضوع لله الواحد القهار خضوع ذلة واستسلام وافتقار، وخوف ورجاء، وشكر ومحبة؛ على ما خلق ورزق وهدى! فذلك مقتضى قوله تعالى: {اعبدوا ربكم}"⁴¹

فإذا كان ذلك كذلك - وهو حقا كذلك - فإن مفهوم العبادة بما بيّناه قبلُ يقتضي أن تكون حياة الإنسان - كلّ الإنسان فردا أو جماعة - كلّها ظاهرها وباطنها، من آداب الأكل

³⁷ أخرجه البخاري (226/5) في الصلح، ومسلم رقم: 1009 في الزكاة.

³⁸ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (1/ 63)، باب شعب الإيمان.

³⁹ الذاريات: 56

⁴⁰ البقرة: 29

⁴¹ ن: " مجالس القرآن"؛ فريد الأنصاري، مرجع سابق، (78/3)

والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم وسياسة المال وشئون المعاملات والعقوبات والعلاقات الدولية في الحرب والسلم، وغير ذلك من شئون الحياة، كل ذلك خاضع لإرادة الله سبحانه، لا لأحد سواه!! وهو ما يجعل هذه القاعدة العمرانية تبسط أجنحتها على كل مجالات الحياة، الفكرية منها والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية كما أسلفت من قبل!!

ولتحقيق ذلك خاطب الله عباده المؤمنين في كتابه العزيز بأوامرٍ شاملةٍ لجميع شئون الحياة، وليست مقصورةً على الشعائر فقط كما يظن كثيرٌ من المسلمين اليوم - مع الأسف الشديد - وها هو رسولنا الكريم ﷺ يصحح للصحابه مفهوم العبادة ويبيّن لهم بقوله: (وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر!)⁴²

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: (إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أثبتَ عليها، حتى اللقمة تجعلها في فيِّ امرأتك)⁴³؛ وأجدي مضطراً لأن أذكر حديثاً في تمام الروعة والبيان!! وهو حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه، قال: مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً وتفاهراً فهو في سبيل الشيطان)⁴⁴؛ فأَيُّ فهم للعبادة هذا؟ وأي مدلول ذاك!!

ومن ثمّ فقد صار فهم الصحابة للعبادة على وزان ذلك تماماً؛ فهذا معاذ بن جبل رضي

⁴² جزء من حديث أخرجه مسلم رقم: 1006، في الزكاة

⁴³ جزء من حديث سعد بن أبي وقاص في الوصية. أخرجه البخاري (165/3)، ومسلم رقم (1628) ،

⁴⁴ أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، وقال الألباني: "صحيح لغيره"؛ كما في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (1692). وهو

في صحيح الجامع رقم، (1428)

الله عنه يقول: "لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي" ⁴⁵ ..

وأغتنم الفرصة لأسوق كلاماً للسيد قطب في الظلال، غاية في الروعة والجمال؛ إذ يقول رحمه الله في معنى قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ما نصه: " وإن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غايةً معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء..

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود، هي العبادة لله، أو هي العبودية لله (..) ولا بد أن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار..

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة، ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر؛ فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا.. وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم؛ وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان؛ نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)؛ فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني؛ وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها

⁴⁵ ن: " سير أعلام النبلاء؛ مصدر سابق، (449/1)

وترقية الحياة فيها؛ كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام"⁴⁶..

وهكذا نجد كلام السيد قطب يعضد ما ذهب إليه في الباب الأول - بعدما عرّفت كلاً من العبادة والعمران والاستخلاف - من بيان العلاقة الثلاثية بين مصطلحات العمران والعبادة والاستخلاف؛ حيث قلت: "إن إدراك مفهوم العمران كمصطلح مركزي لموضوع بحثنا يقتضي منا ربطه بمفهومي العبادة والاستخلاف"؛ ذلك أن الخالق جل جلاله جعل الإنسان خليفة في الأرض فكلّفه بعمارتهما - مادياً ومعنوياً - وتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان وهي المتجسّدة في العبادة بمفهومها الشامل الكامل؛ ومن ثمّ فإنّ العمران والعبادة لله تعالى - بمفهومهما الذي بيّنت بالتفصيل فيما سبق - وجهان لعملة واحدة وهي القيام بأمانة الاستخلاف"⁴⁷؛ كما قلت قبل ذلك أنه: "لا عمران من دون عبادة، ولا عبادة على الوجه الحقيقي من غير عمران، وأي خلل أو خطل في أحدهما يُحدثُ فساداً وتُلْمة ونقيصة في الآخر!!"⁴⁸.

خلاصة:

نخلص ممّا سبق إلى أن قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹ يمثل قاعدة كلية كبرى تضم كل مجالات عمران الإنسان، وهو ما جعلني أجعلها على رأس القواعد العمرانية، كما أننا لو فعلناها طبقاً لمفهومها الشامل لما بيّنته، وكانت لها آثارٌ استشرافية عظيمة للأمة الإسلامية، بل وللإنسانية جمعاء، ولا غرو في ذلك ولا عجب!! وها الآية ناطقة بذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹..

⁴⁶ ن: "في ظلال القرآن"، مرجع سابق، بتصرف (6 / 3386)

⁴⁷ ن: "المسألة الرابعة: العلاقة الثلاثية" من المطلب الثاني في المبحث الثالث من الفصل الأول، في الباب الأول.

⁴⁸ ن: "المسألة الثالثة: علاقة العبادة بالعمران" نفس المطلب السابق..

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

اه ثم اه لو استثمرت هذه القاعدة بمفهومها الضارب في أعماق الوجود!! لكان لذلك الأثر الكبير في الواقع العمراني للأمة إنشاءً وتعميراً لحاضرها واستشرافاً لمستقبلها الموعود؛ وذلك أن الأمة إنما كانت: "يوم كانت بالدين، ولن تكون في يوم من الأيام إلا بالدين!! (...)" وبهذا بنى المسلم عمرانته الدنيوي الحضاري العظيم، يوم كان حاضراً في التاريخ؛ وتلك هي القضية! 49

ولتحقيق ذلك لابد أولاً من تصحيح مفهوم العبادة لدى المسلمين خصوصاً والناس عموماً، وقد بينت في الفصل الأول من الباب السابق ما للمفهوم المصطلحي من أهمية عظمى، سواء تعلّق الأمر بالجانب الفكري أو الجانب العملي، إذ: "المصطلح ذو جسامه كبيرة من حيث حملته المعرفية ودلالته المفاهيمية، وما ينبج من ذلك من سلوك حضاري وأثر عمراني، سواء تعلّق الأمر بالجانب الفكري الوجداني الانفعالي، أو بالجانب العملي الامتثالي، وخاصة المصطلح الشرعي لما له من خصائص ومميزات بما ارتبط بالخطاب الشرعي للعلوم الشرعية الواصفة للدين، والموجهة لتدوين المخاطبين، فهما وتنزيلاً، تعبداً وسلوكاً وتوجّهاً لله الواحد القهار" 50.

وإنك لتعجب أشدّ العجب حينما ترى أغلب المسلمين يحصرون معنى العبادة في أركان الإسلام، ومن ثمّ فترى المسلم له أوجه كثيرة، وأحوال عديدة، وجه وحال في المسجد، وحال أخرى في السوق، فتلفاه في المسجد ساجداً راکعاً، وفي بيعه وشرائه كاذباً مخادعاً، ممّا يجعله يعيش انفصاماً خطيراً بين دينه - الذي جاء ليُخرجه من داعية هواه إلى عبودية مولاه - وبين تدينه الذي يجسّد من خلاله فهمه لهذا الدين..

ومن أجل ذلك كانت أول خطوة في هذا الباب هو تصحيح التصور لمفهوم العبادة، فيكون معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من

49 ن: " الفطرية" فريد الأنصاري، بتصرف، مرجع سابق، ص: 15..

50 ن: " مفاهيم ومصطلحات" الفصل الأول من الباب الأول من هذه الأطروحة.

مجرد الشعائر؛ فهي كما يقول السيد قطب - رحمه الله - : " التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التبعّد لله؛ بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله.. كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة، طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له، ثم يجده في الآخرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما(..)

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال، فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها، ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته، ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك، فهذه النتائج ليست داخلية في واجبه ولا في حسابه، وليست من شأنه، إنما هو قدر الله ومشيتته، وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيتته⁵¹

استنتاج:

حينما يرقى الناس إلى هذا المستوى من الفهم للعبادة فأبشر بخير لمستقبل الأمة العمراني!! واعلم يقينا أنها ستقوم من هذه الوهدة الساحقة، وستعود لها ريادتها وسيادتها، فإن ذلك محرّك قوي لإقلاع الطيران العمراني وتحقيق الشهود الحضاري!!

⁵¹ ن: "في ظلال القرآن"، مرجع سابق، بتصرف (6 / 3388 ؛ 3389)

ولعل هذا هو السر الذي جعل كل رسول يبدأ حملته العمرانية الإصلاحية بشعار: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، وما ذلك إلا لتضمّن مفهوم العبادة كلّ أنواع الإصلاح التي تتعلق بالفرد والمجتمع؛ ومن ثمّ فإنّ الإنسان إذا أراد أن ينطلق في بناء عمرانه فإنّ خطوة البداية تكون أولاً - وقد أكدنا على هذا قبل - أو بعبارة أخرى لتغيير نفسه من الخواء إلى العمران ف﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾⁵²؛ وهو ما أكّد عليه مالك بن نبي وجعله أول مرحلة لبناء الحضارة؛ وقد ذكرْتُ هذا قبل، فلا حاجة لإعادته فليُنظر هنالك!!⁵³

⁵² الرعد: 12

⁵³ ن: " المبحث الثاني من الفصل الثاني؛ في الباب الأول من هذه الأطروحة.

المبحث الثاني: قاعدة (العلم نقطة الانطلاق، وشرط الاستحقاق)

إذا كانت القاعدة العمرانية الأولى تتعلق بالعبادة المرادفة للعمران بمفهوميهما الجامع كما بيّنت في الباب الأول حيث قلت: "إنّ مفهومي العمران والعبادة متداخلان ومترابطان، حتى إنّ أحدهما يصدق على جميع أفراد الآخر وينطبق عليه تماما"؛ وقلت أيضا: "إنّ العمران والعبادة لله تعالى بمفهوميهما الكلي الشامل وجهان لعملة واحدة وهي القيام بأمانة الاستخلاف"⁵⁴..

وإذا كان ذلك كذلك، وهو كذلك حقا!! فإن القاعدة العمرانية الثانية التي ينبغي أن تكون تالية لها في الذكر، مشروطة معها في الوجود، هي هذه: (العلم نقطة الانطلاق وشرط الاستحقاق) وذلك بعد تأمل طويل لنصوص النقل، وقواعد العقل، وأحداث التاريخ ووقائعه.. حيث تأكد لي أنّ كل مشروع معنوي أو مادي في المعاش أو المعاد لا بد أن يُبنى على العلم، وأن كل تقدم حضاري عمراني يكون مُنطلقه العلم، لذلك قلت في ديباجة هذه القاعدة: (العلم نقطة الانطلاق وشرط الاستحقاق) وقد اعتبرتها قاعدة عمرانية كلية تتعلق بأصول المعرفة عموما، والمعرفة الدينية خصوصا، وتستحق أن تكون من كبريات القواعد العمرانية كما سيأتي إيضاحه؛ فما مفهوم هذه القاعدة وما دلالتها؟ وما هي أدلتها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية لعمران الأمة؟

وللجواب عن هذه الأسئلة المركزية، يتطلب منّي تخصيص مطلب مستقل للجواب عن كل سؤال، ممّا يجعل الحديث عن ذلك يستغرق مطالب أربعة، أوضح فيها كلّ جانب من جوانب هذه القاعدة العمرانية التي جعلتها في المرتبة الثانية من قواعد العمران في هذا البحث، والمتعلقة بأصول الدين والإيمان؛ وهذه المطالب تأتي كما يلي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحججها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

⁵⁴ ن: "المسألتين: الثالثة والرابعة" من المطلب الثاني في المبحث الرابع من الفصل الأول؛ الباب الأول.

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

إن تدقيق النظر في هذه القاعدة العمرانية الكبرى يوحي بوضوح وجلاء أنها تتألف من شطرين؛ أولهما: العلم نقطة الانطلاق، أي هو نقطة البداية لكل مشروع عمراني، روحيا كان أو ماديا، في المعاش أو المعاد، آجلا أو عاجلا، وثانيهما: أن العلم شرط الاستحقاق، أي استحقاق الاستخلاف للقيام بالأمانة التي كُلفها الإنسان من لدن الكريم المنان، وهي إنشاء وإقامة العمران!!

ومن جهة أخرى أنّ متعلّق هذه القاعدة هو العلم؛ وقد سبق الكلام عن مفهومه والمقصود به في هذا السياق، حيث أطلقت عليه اسم (العلم العمراني)؛ وقلت فيه إنه: "كل علم نافع يُقيم الحياة كلّها بشقيها الروحي والمادي، الديني والدنيوي، العاجل والآجل على حد سواء؛ فيدخل فيه فنون الشريعة كلّها، ويشمل علوم الحياة أجمعها أيضا، بما في ذلك علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا.. وقد جاءت كلمة (العلم) في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله الكريم ﷺ مطلقة دونما تقييد أو تحديد، لتشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى تحقيق واجبات الخلافة والعمران في هذا الوجود(...). فيشمل العلم بالله تعالى، والعلم بالإنسان، والعلم بالأكوان"⁵⁵.

فهذه القاعدة العمرانية الكبرى في شطرها الأول تجعل العلم - بمفهومه العمراني - بداية البدايات لكل عمل عمراني، فالعلم - أي علمٍ نافع - بمثابة محرك السيارة؛ ومما هو معلوم أنه لا يمكن البتة لأي سيارة أن تعمل، بله أن تنطلق دون محرك لها، وأي عطب أو خلل يحدث في المحرك ينعكس حتما على هيكل السيارة وعملها؛ ذاك شأن العلم بالنسبة للعمران؛ ولذلك كان الشرط الأول لهذه القاعدة العمرانية - (العلم نقطة الانطلاق) - يقرّر هذا المعنى الذي ندندن حوله، ولذلك جعل البخاري - رحمه الله - بابا ضمن كتاب "العلم"، بعنوان: "باب العلم قبل القول والعمل" مستدلا بقوله تعالى: ﴿بَاغْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ

⁵⁵ ن: "المسألة الثالثة من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثالث؛ الباب الأول"

لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿٥٦﴾؛ وهذه الترجمة موافقة لقولنا: "العلم نقطة

الانطلاق"

والتاريخ يشهد أنّ كل حضارة كانت شرارة انطلاقها تتمثل في الحركة العلمية، فلو أخذنا على سبيل المثال الحضارة اليونانية التي ذاع صيتها في العالم كلّهُ وتُرجمت كتبها إلى اللغات الإنسانية واستفادت من علومها الحضارات التي جاءت بعدها؛ نجد أن الحضارة اليونانية انقذت شرارتها بظهور الحروف الهجائية اليونانية، فانتقل المجتمع اليوناني من مجتمع أمّي لا يقرأ ولا يكتب إلى مجتمع مثقّف عالم، وانتشرت الكتابة بين أفرادهِ فاستُخدمت في كل المجالات، ونشطت الحركة الثقافية بين اليونانيين، فبرز الفكر الفلسفي على يد مجموعة من الفلاسفة اليونانيين بدل الفكر الأسطوري الخرافي؛ ولعلّ ما أنتجه الفلاسفة اليونان في ميادين العلم والمعرفة خير شاهد على ذلك، فوجد مثلا: "الفيلسوف فيثاغورس أبو الفلسفة الميثالية - كما يلقّبونه - اهتم كثيراً بعدد من المواضيع العلمية والرياضية والموسيقية، وكان اهتمامه كبيرا بالرياضيات وخصوصا بالأرقام، ومبرهنته المشهورة لازالت تدرس إلى يومنا هذا، كما اهتم بالموسيقى وقال أن الكون يتألف من التمازج بين العدد والنغم... وكانت آراء سقراط أيضا وأفكاره ذات أثر بليغ في حياة اليونانيين، فقد نادى بالديمقراطية للتخلص من الأحكام الجائرة، واستغلال العبيد؛ وكذلك أفلاطون الذي تطرق لعلم الأفكار؛ وتلميذه أرسطو الذي استوعب مجالات المعرفة كلّها تقريبا.."⁵⁷

أما الحضارة الإسلامية فهي قائمة على العلم من أساسها؛ فمنذ الصيحة الأولى كانت دعوة إلى العلم والتعلم؛ ولنترك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تحدّثنا عن بداية البدايات فيما رواه البخاري في صحيحه أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن

⁵⁶ محمد: 20

⁵⁷ ن: مثلا "سنن قيام الحضارات وسقوطها قديما وحديثا مقارنة بآراء ابن خلدون"، تأليف عبد اللطيف بن محمد بن عبد العزيز الحميدان، نشر مكتبة العبيكان. الرياض. ط: 1؛ سنة: 1438 هـ / 2017 م، ص: 53 - 54؛ بتصرف كثير..

ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ؛ قال: " فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: { اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم } [العلق: 2] " فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده..⁵⁸

فها أنت ترى من خلال هذا الحديث أن أول ما نزل من الوحي هو الأمر بالقراءة التي هي من وسائل التعليم والتعلم؛ والعجيب في الأمر أن الرسول ﷺ الذي تنزل عليه القرآن أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك كان جوابه ﷺ على أمر جبريل عليه السلام ما أنا بقارئ، وكان العرب أيضا لا يعرفون شيئا من العلوم إلا النزر القليل، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم بكل مجالاتها.. فدل ذلك على أن قضية العلم هي قضية البداية لإقامة الحياة وازدهار الحضارات، وأنه بمثابة اللبنة الأولى لإنشاء وإقامة العمران؛ فالقرآن الكريم الذي هو كتاب عمران - كما سميته سابقا - يُعلم الناس جميعا من أول يوم، بل من أول لحظة أن قضية العلم قضية مركزية لصالح العمران وإصلاحه؛ فهذا هو الإمام الطبري - شيخ المفسرين - يروي عن قتادة أنه قرأ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) حتى بلغ (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) قال: القلم: نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقيم، ولم يصلح عيش⁵⁹؛ وما القلم ياترى؟! إن هو إلا أداة العلم والتعلم.. ويزداد الأمر توكيدا حينما نعلم أن ثاني ما نزل من القرآن الكريم سورة أقسم الله فيها بالقلم؛ ومن المعلوم أن الله تعالى إذا أقسم بشيء فإنما ذلك لشرف المقسم به، وهو القلم هنا، ولذلك سميت السورة باسمه؛ فقد روى الطبري أيضا: " عن مجاهد، قال: إن أول سورة أنزلت: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، ثم (ن وَالْقَلَمِ)"⁶⁰

⁵⁸ رواه البخاري، رقم الحديث: 3

⁵⁹ ن: " جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام الطبري، مصدر سابق (24 / 519)

⁶⁰ ن: نفس المرجع (24 / 522)

وقد ذكرت سابقاً⁶¹ أنه لم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز (القرآن) هي التي تتحدث عن العلم وقيمه وأهميته، بل كان هذا منهجاً ثابتاً في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ ولا أدلّ على ذلك من أنّ كلمة "العلم" بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله تعالى قد بلغت 779 مرة⁶²!! أي بمعدل سبع مراتٍ - تقريباً - في كل سورة!! وهذا عن كلمة "العلم" بمادتها الثلاثية (ع ل م) فقط، بغض النظر عن كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم من مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبيئة.. وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحتُّ عليه.

أضف إلى ذلك ما جاء في السنة النبوية التي يكاد يكون إحصاء هذه الكلمة فيها مستحيلاً .

من أجل ذلك كله كان العلم مضماراً للتنافس لتحقيق الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)⁶³؛ ومن ثمّ فلا غرو أن يأمر الله عز وجل رسوله الكريم ﷺ أن يطلب الاستزادة منه، فقال تعالى موجّهاً نبيه والأمة الإسلامية من بعده: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁶⁴؛ وما ذلك إلا لدور العلم الكبير في العملية العمرانية والحركة الحضارية ؛ فتأمل وأبصر!!

⁶¹ ن: " المسألة الخامسة" من المبحث الثاني في الفصل الثالث من الباب الأول

⁶² ن: " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن"، مرجع سابق؛ من ص: 576، إلى ص: 589

⁶³ رواه البخاري: "كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة"، رقم: 73، ومسلم: "كتاب صلاة المسافرين"، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه رقم: 816

⁶⁴ طه: 111

أما الشرط الثاني من القاعدة وهو : (أن العلم شرط الاستحقاق)، فلا أدل على ذلك مما ورد في سورة البقرة في سياق الحديث عن آدم الخليفة ومؤهلاته الاستخلافية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِيَّةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَالَوْ أَن تَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْشُ نُسُخَ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِيَّةِ فَقَالَ أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٦﴾ فَالَوْ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْيُيُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٨﴾﴾⁶⁵

وقد ذكرت - فيما سبق - كلاما لفريد الأنصاري رحمه الله تبصرة للآيات أكرر بعضا منه هنا لنفاسته والحاجة إليه، وهو قوله: "يُعَلِّم - سبحانه - ما جعل للإنسان من مواهب وقدرات على التعلم والتعليم، والفهم والإدراك، والتخاطب والتواصل، وما جهّزه به جل وعلا من قدرات عقلية خارقة، يكون بها سائر ضروب الاختراع والإبداع مما تقوم به عمارة الأرض؛ ومن ثمّ عرض سبحانه على الملائكة آية عظيمة لتفوق هذا المخلوق وتمييزه، فقال تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ)؛ ويدخل في ذلك القدرة على (...) الإبداع والتفكير!! وقد آتاه الله من ذلك موهبتين متكاملتين هما: التعلم والتعليم؛ لأنه تعالى علّمه فتعلم، وأمره بتعليم الملائكة فعلم!! وبهذين كان التطور العمراني في المجتمعات البشرية؛ فكان للإنسان هذا التفوق العجيب في الغوص على المعاني العميقة، واستنباط الحقائق الدفينة في كلّ المجالات العلمية، الروحية والحسية سواء، مما لم يؤتّه الله أحدا من العالمين"⁶⁶.

⁶⁵ البقرة: 30. 33.⁶⁶ ن: " مجالس القرآن" مرجع سابق، بتصرف (106/3 . 107).

استخلاص:

إذن فزبدة القول أن قاعدة: " (العلم نقطة الانطلاق وشرط الاستحقاق) تعني أن العلم هو أسُّ العمران وأساسه؛ فمنه المنطلق وبه الإقلاع الذي يجعل الإنسان المعمر خليفة الله في أرضه أي سيّد الكائنات ومديرها، فيسخرها في إعمار الكون وعمرانه بما يحقق وظيفة الاستخلاف التي أنيطت به كخليفة لله في أرضه!!

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية وحجيتها

هذه القاعدة العظيمة لها أدلتها من القرآن والسنة، ومن أقوال أهل العلم؛ وهي أدلة مستفيضة وكثيرة، مما يدل على أهمية هذه القاعدة، وأنها من القواعد العمرانية الكبرى!!

وقد سبق أن قلت في موطن سابق: "أن المتتبع لكلمة (العلم) بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله تعالى سيجدها قد بلغت 779 مرة حسب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن!! أي بمعدل سبع مراتٍ - تقريباً - في كل سورة!! وهذا عن كلمة "العلم" بمادتها الثلاثية (ع ل م) فقط، فكيف لو اعتبرنا كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم من مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبيئة.. وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحتُّ عليه"⁶⁷

أمّا ورود هذه الكلمة في السنة النبوية عن سيد ولد عدنان، فأوشك أن يكون من الكثرة بغير حساب؛ فقد وردت كلمة "العلم" في صحيح البخاري مثلاً أكثر من ثلاثمائة مرة، وهذا كتاب واحد من كتب السنة، فكيف بكتب السنة الأخرى الكثيرة ما يحوي أضعاف ما في صحيح البخاري، مثل موطأ الإمام مالك صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه و الدارمي والبيهقي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وكذلك معجم الطبراني وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم، وغيرهم كثير..

وبناء على ذلك فإنني سأكتفي بذكر بعض الأدلة الواردة في هذا الموضوع بالقدر الذي أخاله يحقق الغرض المقصود، ويُلبِّي الهدف المنشود؛ ومن ثمَّ فسأذكر بعض الآي القرآنية وأردفها بأحاديث نبوية، وأعضدها ببعض أقوال الراسخين في العلم من الأمة المحمّدية..

وليكن البدء من القرآن في تأصيل هذه القاعدة، إذ هو أصل الأصول، وعليه مدار الوصول؛ فقد شغل مفهوم العلم في القرآن الكريم حيّزاً هاماً من الآيات، والناظر في القرآن يجد أن الله تعالى أضاف العلم لنفسه، إذ العلم صفة من صفاته الثابتة لذاته؛ ومن ذلك قوله

⁶⁷ ن: المسألة الخامسة من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثالث؛ الباب الأول من هذه الأطروحة، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن، من ص: 576، إلى ص: 589، مرجع سابق..

تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁶⁸؛ وإضافة العلم لله جاءت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة منها صيغة "أعلم" قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾⁶⁹؛ وصيغة "عليم" ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾⁷⁰؛ وصيغة "علام" ﴿إِنَّكَ أَنْتُمْ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾⁷¹؛ واختلاف هذه الصيغ لبيان أن صفة العلم من أعظم الصفات الإلهية التي تدل على عظمة خالق الأكوان ومبدع العمران؛ وهي في حق الله صفة أزلية أبدية قائمة بذاته؛ وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "وأنه عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم ديبب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحللول والانتقال"⁷² وقد سمى نفسه - سبحانه - بعدة أسماء تفيد هذه الصفة، منها (العليم) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁷³، ومنها: (الخبير) ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون، قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁷⁴؛ ومنها (الحكيم) ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف، فيكون أمره وحكمه طبقاً لذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾⁷⁵؛ ومنها:

⁶⁸ البقرة: 214

⁶⁹ آل عمران: 167

⁷⁰ البقرة: 95

⁷¹ المائدة: 109

⁷² ن: "الإحياء"؛ مرجع سابق (1 / 90)

⁷³ الشعراء: 220

⁷⁴ الملك: 14

⁷⁵ الزخرف: 84

(الشهيد) ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر، والسر والعلن، وأنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصِيَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٦﴾ ومنها (الحفيظ) ويختص بأنه لا ينسى ما علم ، قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ ﴿٧٧﴾ ومنها (المحصي) ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي حِكْمٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٧٨﴾ وكل هذه المعاني جمعتها كلمة ابن كثير في وصف علم الله تعالى بقوله: "الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون" ⁷⁹.

وقد ترجم هذه المعاني ابن القيم في نونيته:

وهو العليم أحاط علما بالذي في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدا وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيف يكون ذاك الأمر ذا إمكان

وكما أضاف الله تعالى العلم لنفسه أضافه للإنسان وربطه بتعليم الله إيّاه، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ⁸⁰؛ وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⁸¹.

ومن المعلوم أن هذه الآي من كلام رب العالمين، هي أول ما نزل على قلب محمد الأمين ﷺ،

⁷⁶ . المجادلة: 6

⁷⁷ . هود: 57

⁷⁸ . يس: 12

⁷⁹ . ن: "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير؛ مصدر سابق (148/5)

⁸⁰ . الرحمان: 1 . 2

⁸¹ . العلق: 3 . 4 . 5

وقد ذكرت في موطن سابق حينما تناولت هذه الآيات الكريمة - عند الحديث عن وسائل العمران⁸² - أنّ اصطفاء موضوع "العلم" في النزول الأول من بين العديد من المواضيع التي يتضمنها القرآن الكريم، مع أنّ الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾⁸³؛ وكذلك الشأن بالنسبة للعرب وقتذاك عدا القليل منهم، فيه دليل واضح وقوي على أنّ قضية العلم قضية جوهرية في إقامة الحياة وازدهار الحضارات، وأنه بمثابة صرخة أولى للقران لإقامة العمران؛ وبهذا يكون الإسلام بمثابة ثورة علمية حقيقية مسحت صفة "الجاهلية" عن العرب!!

وقد مدح الله نبيه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾⁸⁴؛ وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله عزّ من قائل: ﴿بِأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾⁸⁵؛ وقد بيّن سبحانه عدم المساواة بين العالم والجاهل نظراً لما تميّز به العالم من تلك الصفة المميّزة له، فقال تعالى: ﴿فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁸⁶؛ قال العلامة ابن عاشور: "والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار، والمقصود: إثبات عدم المساواة بين الفريقين، وعدم المساواة يكتفى به عن التفضيل، والمراد: تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون، كقوله تعالى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين [النساء: 95]

⁸² ن: "المسألة الخامسة" من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثالث في الباب الأول

⁸³ العنكبوت: 48

⁸⁴ النساء: 113

⁸⁵ البقرة: 25

⁸⁶ الزمر: 9

الآية⁸⁷؛ وللتمييز بين المؤمن العالم والمؤمن العابد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾⁸⁸؛ قال البيضاوي⁸⁹ في تفسيره: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة؛ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة، ولذلك يُقْتَدَى بالعالم في أفعاله ولا يُقْتَدَى بغيره"⁹⁰..

والأدلة من القرآن حول أهمية العلم ودوره العمراني من الكثرة بمكان، وهي لا تخفى على كل خبير بهذا الميدان؛ وخشية أن أطيل سأكتفي بهذا القدر لأخلص إلى حقيقة يقينية وهي أن العلم - كما ذكرت في هذه القاعدة - هو نقطة البدء والانطلاق لبناء صرح العمران بشقيه الروحي والمادي؛ ويرحم الله البخاري الذي انتخب بابا في صحيحه ضمّنه كتاب "العلم"، بعنوان "باب العلم قبل القول والعمل" مستدلا بقوله تعالى: ﴿بَا عِلْمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾⁹¹؛ وقد نقل ابن حجر كلاما لابن المنير أنه قال: "أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعْتَبَرَانِ إِلَّا بِهِ، فهو متقدّم عليهما لأنه

⁸⁷ ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور، مرجع سابق (23 / 348)

⁸⁸ المجادلة: 11

⁸⁹ البيضاوي هو ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد. قاض وإمام مبرز من بلاد فارس. تولى قضاء شيراز، وكان صالحا متعبدا، أثنى العلماء عليه وعلى مؤلفاته، وأبرزها المنهاج الوجيز في أصول الفقه، وتفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لخصه من تفسيري الزمخشري والرازي وأضاف إليهما ملاحظات في مواضع كثيرة؛ ولد البيضاوي في مدينة البيضاء قرب شيراز. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ ولادته. توفي في تبريز سنة: 691 هـ ..

نقلا عن: الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

⁹⁰ ن: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لناصر الدين أبي سعيد البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الأولى سنة: 1418 هـ (5 / 195)

⁹¹ محمد: 20

مصحح للنية المصححة للعمل⁹²؛ ومن المعلوم في القاعدة الأصولية " أن المفرد المعروف بأل يفيد العموم كما هو عند جمهور الأصوليين"⁹³؛ فيكون المعنى من كلام البخاري أن كل قول وكل عمل في أي مجال من مجالات العمران يحتاج إلى ما يناسبه من العلم؛ ولأجل ذلك جعله - أي العلم - الرسول ﷺ مجالا للتنافس لتحقيق الصلاح و الفلاح في الدنيا والآخرة؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ : (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)⁹⁴؛ فالعلم أعظم النعم التي أنعم بها الله العليم الخبير على مخلوقاته .. فلا غرو إذن أن يكون العلم من الأشياء القليلة التي أمر الله عز وجل رسوله الكريم ﷺ أن يطلب الاستزادة منها، فقال تعالى موجهًا نبيه والأمة الإسلامية من بعده: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁹⁵؛ وقد ذكرتُ أن المقصود بالعلم هنا هو العلم العمراني - كما سمّيته قبل⁹⁶ - وما ذلك إلا لدور العلم الكبير في العملية العمرانية و الحركة الحضارية ؛ فتأمل وأبصر!!

وأما الأحاديث التي تدل على هذه القاعدة العمرانية فأخاها كثيرة ومستفيضة جدا، لذا سأقتصر على إيراد نماذج منها تفي بالمراد والمقصود؛ وسأسوقها على الشكل الآتي:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكرُ الله، وما والاه، وعالمٌ أو متعلمٌ)⁹⁷؛ فهذا أنت ترى معي من خلال هذا الحديث الذي يمثل قاعدة عظيمة مفادها أن الدنيا ممقوتة مرغوب عنها

⁹² ن: " فتح الباري بشرح صحيح البخاري" لابن حجر، مصدر سابق (216 / 1)

⁹³ ن: مثلا " نيل السؤل على مرتقى الوصول" ص: 147؛ قال الناظم رحمه الله في هذه المسألة: " ومفرد مع أل إذا الجنسُ خفًا " أي أن المفرد المعرف بأل هو من أدوات العموم، إذا خفا أي إذا ظهر فيه العموم، نحو قوله تعالى: {وأحل الله البيع}

⁹⁴ البخاري: "كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة"، رقم: 73، ومسلم: "كتاب صلاة المسافرين"، باب من

يقوم بالقرآن ويعلمه رقم: 816

⁹⁵ طه: 111

⁹⁶ ن: " المسألة السابعة" من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثالث؛ الباب الأول من هذه الأطروحة

⁹⁷ رواه الترمذي.

إذا انتفى منها العلم، وذلك أنّ بانتفائه يحلّ الجهل - فهما نقيضان لا يجتمعان ولا ينتفیان - وبالجهل تخرب الدنيا وينهدّ عمرانها ويؤول إلى يباب؛ وهو ما أخبر به ﷺ في حديث آخر - أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يُقْبَضَ العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن..)⁹⁸؛ ومن أجل الحفاظ على هذه الحياة و عمرانها جعل النبي ﷺ طلب العلم واجبا فقال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)⁹⁹؛ والمقصود هنا بالعلم هو كل علم لا بد منه لعمران الدنيا و هو ما سمّيته بالعلم العمراني¹⁰⁰، والدليل على ذلك دخول "ال" على العلم ليفيد العموم كما هي القاعدة الأصولية المعلومة؛ أضف إلى ذلك ما جاء في قوله ﷺ: (إنّ الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير)¹⁰¹؛ وكذا ما جاء في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ جاء مسجدي هذا، لم يأتِه إلا خيرٌ يتعلّمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومَنْ جاء لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره)¹⁰²؛ فهذا دليل على أنّ كل علم نافع مطلوب و مقصود؛ و ممّا يؤكّد هذا عمليا أن الرسول ﷺ أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلّم لسان اليهود، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتعلّمتُ له كتاب يهودَ، وقال: ((إني والله ما آمن يهودَ على كتابي)، فتعلّمته، فلم يمرّ بي إلا نصف شهرٍ حتى حدّقتُه، فكنت أكتب له إذا كتّب، وأقرأ له إذا كُتّب إليه)¹⁰³.

وقد اعتبر النبي ﷺ طريق العلم سبيلا للجنة، لما يحصل بسببه من بركات وخيرات

⁹⁸ أخرجه البخاري (6037)، ومسلم (157)

⁹⁹ رواه ابن ماجه والطبراني.

¹⁰⁰ ن: " المسألة الثالثة من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثالث؛ الباب الأول"

¹⁰¹ رواه الترمذي.

¹⁰² رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعب الإيمان.

¹⁰³ رواه أبو داود والترمذي

الدنيا والآخرة، وما يُنتجُ من صلاح البلاد و العباد؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)¹⁰⁴؛ بل ويجعل النبي ﷺ العلم سبباً لنيل الرحمات في العاجل والآجل فيقول في حديث يشع بأنوار النبوة، فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رَضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْخَيْتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ)¹⁰⁵؛ ويضيف عليه الصلاة والسلام في حديث عجيب ما للعلم من دور كبير في عمران الدنيا وصلاحها، فعن أبي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمَلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بَنِيَّتُهُ، فَأَجْرُهُمَا سُوءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمَلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بَنِيَّتُهُ، فَوَزَّرَهُمَا سُوءٌ)¹⁰⁶؛ فانظر يا صاح إلى أهمية العلم في تحقيق منافع الدنيا وبركاتها، وذاك هو عمرانها حقاً وصدقاً!!

ومن أجل ذلك كان دعاء النبي ﷺ: (اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً..)؛ وكان ﷺ يشجّع على التعلم فيقول: (إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرّر الخير يعطه، ومن يتقّ الشر يوقه)¹⁰⁷؛ وكان يحذّر من انتزاع العلم و زواله بموت

¹⁰⁴ . رواه مسلم.

¹⁰⁵ . رواه أبو داود والترمذي.

¹⁰⁶ . رواه الترمذي وأصله في مسلم.

¹⁰⁷ . رواه الطبراني وغيره، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

أهله و عدم وجود مَنْ يَخْلُفهم و ما ينتج عن ذلك من ضلال وضياع للإنسان والعمران، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جَهَالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) ..¹⁰⁸

أما أدلة هذه القاعدة من كلام السلف فأقتصر على كلام الماوردي أورده في كتابه أدب الدنيا والدين إذ يقول: "اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب؛ لأن شرفه يثمر على صاحبه، وفضله ينمي على طالبه (...) وقال مصعب بن الزبير: تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا وإن لم يكن لك مال كان لك مالا؛ وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم.

(...) وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقومك ويسدك صغيرا، ويقدمك ويسودك كبيرا، ويصلح زيفك وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوم عوجك وميلك، ويصح همتك، وأملك.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن؛ فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال:

لا يكون العلي مثل الديني ... لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المرء ... قضاء من الإمام علي

وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل؛ لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم؛ وهذا أبلغ في فضله؛ لأن فضله لا يعلم إلا به، فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله، واستزدلوا أهله، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة، والطرف المشتهاة، أولى أن يكون إقبالهم عليها، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها، وقد قال ابن المعتز في

منثور الحكم: العالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالماً. وهذا صحيح،¹⁰⁹

استنتاج:

إذن كل ما ذُكر من الأدلة يدل على أن العلم ضروري لإقامة العمران، وأنه حاضر في كل مجالاته ومناحيه المختلفة؛ ومن ثمّ كان منطوق القاعدة هو: (العلم نقطة الانطلاق وشرط الاستحقاق)؛ وهو ما يبرز أهمية القاعدة وتنوّع مجالاتها العمرانية، وهو ما نُفرد له الحديث في المطلب الموالي:

¹⁰⁹ ن: " أدب الدنيا والدين"، للماوردي؛ بتصرف قليل؛ مرجع سابق (1/ 36-37).

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال المطلبين السابقين اللذين تمَّ فيهما تعريف القاعدة وبيان دلالاتها العمرانية وأدلتها البرهانية تبدو ذا أهمية كبرى متعدّدة المجالات؛ بل تشمل كل مجالات الحياة ومناحيها المختلفة والمتشعبة..

ومّا يؤكّد هذا ويقرّره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾¹¹⁰؛ فهذه آية عجيبة وأصل عظيم في كون العلم أساس كل عمل وبداية كل مشروع عمراني، فقد جاء بعد أداة النهي (لا) الفعل المضارع (تَقْفُ)، والقاعدة أن الفعل إذا ورد في سياق النهي أو النفي فإنه يدل على العموم، كما هو مذهب الجمهور من المالكية والشافعية¹¹¹؛ والحاصل أن الله تعالى نهي الإنسان أن يتبع ما ليس له به علم مطلقاً، وهذا يشمل جميع الأحوال والأزمنة والأمكنة، لأن العموم يَنْصَبُ على هذه الأمور جميعاً؛ فالعبد منهي عن اتباع ما ليس له به علم في كل وقت وفي كل قضية، سواء كانت تتعلق بحقوق الله أو حقوق الآدميين، أو تعلّقت بأمر المعاش أو المعاد أو غير ذلك من الأمور؛ وهو ما يدل بمفهوم المخالفة أن العلم مأمور به في كل شيء وفي كل مجال من مجالات العمران البشري، وهو ما تؤكّده الآية في قوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: بلفظه العام؛ ذلك أن لفظة (مَا) تفيد العموم، فيدخل في ذلك الكلام في الأعراض من الغيبة والنميمة، والقذف والبهت والكذب وسائر أنواع الاعتقادات الباطلة هذا فيما يفعله الإنسان؛ وكذا الشأن فيما يتلقاه عن غيره من تصديق الأقوال والإشاعات الكاذبة، والأفكار الفاسدة، والمذاهب المنحرفة، والتقاليد المستوردة؛ فالواجب على العبد أن يضبط جميع تصرفاته فلا يحكم إلا بعلم، ولا يعتقد إلا بعلم، ولا يفعل شيئاً إلا بعلم؛ يقول ابن تيمية - رحمه الله -¹¹² والله يحب الكلام بعلم وعدل، ويكره الكلام بجهل وظلم، وقد حرم سبحانه الكلام بلا علم مطلقاً، وخص القول عليه بلا علم بالنهي، فقال تعالى: ﴿وَلَا

¹¹⁰ الإسراء: 36

¹¹¹ قال ابن عاصم في النكرات أو الفعل الذي يأتي في سياق النفي . ومثله ما جاء في سياق النهي:

والنكرات في سياق نفيها &&& نَعَمْ كالفعل الذي في طيها

تَقْفُ}، وقال: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ} (...) "112

ولقد ذكر الشيخ القرضاوي - حفظه الله - في ثنايا هذه الآية أنها تدل على: " أن القرآن يعمل على تربية العقلية العلمية في المسلم؛ فهناك نوعان من العقليات:

1 - عقلية خرافية، تصدق الأوهام، وتجري وراء الأباطيل، وتسمع كل ما يقال لها، وتتبع كل ناعق، وهذه عقلية يرفضها الإسلام.

2 - والعقلية الأخرى وهي التي يريد بها الإسلام، العقلية التي تتبع الدليل وتخضع للمنطق في العقليات، وتمشي وراء الملاحظة والتجربة في الماديات، وتستعمل الأدوات التي وهبها الله إياها: السمع والبصر والفؤاد.. فهذه أدوات المعرفة كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ 113 .

ثم يقول بعد ذلك: " فمن هنا يجب أن يستعمل الإنسان سمعه، فبه تنتقل المعلومات من الناس بعضهم إلى بعض بطريق الرواية؛ والبصر به تكون الملاحظة والتجربة، وعليهما قام صرح العلوم الكونية؛ والفؤاد - أي العقل - به يستعمل الإنسان المنطق، ويستنتج النتائج من المقدمات.

وهذه الأدوات، هي النوافذ التي يطل منها الإنسان على أمور هذه الحياة، والكون، والشرع، وعلى خلق الله تعالى، وعلى نهيه وأمره؛ فلا يجوز إذن أن يعطلها ويهملها، ويتبع الظنون والأوهام أو يتبع الإشاعات والأباطيل (...) لهذا حذرت الآية من إهمال هذه القوى، فقال تعالى مخاطباً الإنسان: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} "114 ..

إذن يتضح لنا من خلال ما سبق أن العلم هو إكسير الحياة وروح العمران؛ وأنه شرطٌ لعمران

112 ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، بتصرف مصدر سابق، (96 / 16)

113 النحل: 78

114 ن: موقع الشيخ القرضاوي : <https://www.al-qaradawi.net/node/3603> تفسير آية (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

الذات عمرانا يؤهلها للقيام بتبعات التكليف الاستخلافي، وبالتالي تحقيق السيادة والريادة في كل مجال من مجالات الحياة؛ فالإسلام - كما قال الشيخ القرضاوي - يريد العقلية التي تتبع الدليل والبرهان وتخضع للمنطق والعلم في العقلليات، وتمشي وراء الملاحظة والتجربة في الماديات، وتستعمل الأدوات التي وهبها الله إياها من سمع وبصر وفؤاد.. فهذه أدوات المعرفة والعلم.

ولقد تحدّث الشيخ - حفظه الله - في كتابه الماتع (الرسول والعلم) عن مجالات العلم بمفهومه الإسلامي الشامل لكل مناحي الحياة ومجالاتها، بل لأمر المعاش والمعاد أيضا، للمادة والروح، في العاجل والآجل؛ بخلاف مفهومه عند الغربيين الذين لا يؤمنون إلا بعالم المادة؛ فقال حفظه الله: "وعلى هذا يشمل العلم في الإسلام مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة (العلم) بمفهومها الغربي الحديث.

فيشمل العلم مجال: (ما وراء الطبيعة) مما جاء به الوحي، فكشف به عن حقائق الوجود الكبرى، وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التي حيرت الإنسان منذ فكر وتلفسف وهي: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟

بالجواب هن هذه الأسئلة عرف الإنسان مبدأه ومصيره ورسالته، عرف نفسه وعرف ربه واطمأن إلى غايته.

وهذا أولى ما يطلق عليه لفظ: (العلم) بل هو كما يسميه الإمام ابن عبد البر: (العلم الأعلى).

ويشمل العلم مجال الإنسان وما يتعلق به من دراسات، تبحث عن جوانب حياته، وعلاقاته المكانية، والزمانية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغير ذلك مما تهتم به العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويشمل العلم مجال (الماديات) المبنوثة في الكون علويه وسفليه، وهي تتضمن علوم الطبيعة، والكمياء، والأحياء، والفلك، والطب، والهندسة وغيرها، مما يقوم على الملاحظة والتجربة.

وهذا المعنى أو هذا المجال، هو الذي يقف عنده الغربيون اليوم، لا يجاوزونه إذا تحدثوا

عن " العلم " لأنه وحده الذي يخضع للاختبار والقياس، وتحكم عليه المشاهدة والتجربة، ويمكن إدخاله " المعمل " أو " المختبر " .

وأقول: إن الإسلام لا يقف عقبة في سبيل هذا النوع من (العلم) الذي تعتبر المادة موضوعاً له، ولا يعده مقابلاً للإيمان، أو معادياً له، كما اعتبرت ذلك أديان أخرى في مراحل تاريخية معينة.

بل أقول بكل صراحة واعتزاز: إن تعاليم القرآن والسنة قد هيأت المناخ النفسي والعقلي الذي ينبت فيه هذا العلم، بحيث ترسخ أصوله، وتمتد فروعه، ويؤتي أكله بإذن الله.¹¹⁵

وقد ذكر الشيخ القرضاوي عدة مجالات عمرانية وظّف فيها النبي ﷺ العلمَ توظيفاً عميقاً من ذلك:

1 - تكوين العقلية العلمية: وهي العقلية التي لا تقبل نتائج بغير مقدمات، ولا تؤمن إلا بالحجة والبرهان، فلا تنصاع للعواطف والظنون في موطن يُطلب فيه اليقين المجرد، والعلم المحقق

2 - محاربة الأمية: كما تجلّى ذلك واضحاً في أسرى بدر، حيث جعل من بين فكاكهم تعليم عشرة من غلمان المسلمين الكتابة والقراءة، كما روت ذلك كتب السيرة..

3- تعلم اللغات: فقد كان عنده ﷺ من أصحابه رضي الله عنهم من يتقن الفارسية والرومية والحبشية ويكفيه هم الترجمة منها وإليها؛ ولم يكن من يعرف لغة اليهود، فانتدب لذلك صاحبه زيد بن ثابت كاتب وحيه..

4 - المجال العسكري: حيث نزل النبي ﷺ عند رأي الحباب بن المنذر الأنصاري في غزوة بدر الكبرى، كما نزل عند رأي سعد بن معاذ عندما أشار عليه ببناء عريش للرسول ﷺ القائد؛ وكذا أشار الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب فوافقه ﷺ على ذلك..

¹¹⁵ ن: " الرسول والعلم " للدكتور يوسف القرضاوي؛ دار الصحوة دون طبعة ولا تاريخ، ص: 37 . 38

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لألفيناه يدعو إلى الالتزام بالعلم وأدواته في كل صغيرة وكبيرة؛ والانطلاق منه في كل ميدان ومجال من ميادين العمران ومجالاته؛ ولنسق بعض الأمثلة على ذلك:

مجال العقيدة: وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿بَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾¹¹⁶؛ قال

القرطبي: "قوله تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا الله" قال الماوردي: وفيه - وإن كان الرسول عالماً بالله - ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني - ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً؛ الثالث - يعني فاذا ذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه؛ وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به "فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك" فأمر بالعمل بعد العلم"¹¹⁷؛ و قال السعدي: "العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه؛ وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك..

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو، أمور:

أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبه، والتأله له وحده لا شريك له"¹¹⁸

¹¹⁶ محمد: 20

¹¹⁷ ن: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، مرجع سابق (16 / 241 . 242)

¹¹⁸ ن: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي؛ الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ - 2000 م (787/1).

وقد ذكرت في غير ما مرة من هذا البحث أنّ البخاري - رحمه الله - استدللّ بهذه الآية على وجوب أسبقية العلم على كل قول وعمل، فقال باب العلم قبل القول والعمل" ¹¹⁹ .

وقد وظّف القرآن الكريم أساليب علمية كثيرة للاستدلال والبرهنة على وحدانية الله وربوبيته للعالم حتى ذهب بعض الأشاعرة إلى عدم صحة إيمان المقلّد، بل لابد أن يكون إيمان المكلف مبنيًا على الدليل العلمي، وهو ما أشار إليه العلامة ابن عاشر في منظومته:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى مَنْ كُفِّفَا مُمَكَّنًا مِنْ نَظَرٍ أَنْ يَعْرِفَا
اللهَ وَالرُّسُلَ بِالصِّفَاتِ مِمَّا عَلَيْهَا نَصَبَ الْآيَاتِ

مجال العبادة:

فإن الله لا يُعبد بالجهل، بل العلم شرط من شروط قبول العبادة؛ ففي الصلاة مثلاً نجد حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وصلُّوا كما رأيتموني أصلي) ¹²⁰، وهذا يقتضي تعلّماً وتعلّماً..

وهذا شبيه بما ثبت عن النبي ﷺ في فريضة الحج بعدما رأى الناس حجّه وتعرّفوا على مناسكه، كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: ((رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: (لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجتي هذه)) ¹²¹؛ ويعني: تعلّموا مِنِّي واحفظوا الأمور التي أتيت بها في حجّتي من الأقوال والأفعال، والهيئات وهي أمور الحجّ، وهي مناسككم، فخذوها عني وافعلوها، واحفظوها واعملوها بها، وعلموها الناس..

وفي الصيام يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ¹²²؛ فربط

¹¹⁹ سبق ذكره في المسألة السابعة من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثالث في الباب الأول..

¹²⁰ جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6008

¹²¹ رواه مسلم في صحيحه؛ رقم: 1297

¹²² البقرة: 184

الإقبال على الصيام بتوفر العلم..

وهكذا في سائر العبادات فلا بد من العلم لتكون على الوجه الصحيح، وإلا كان أمره مردودا عليه لقول النبي ﷺ (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) ¹²³؛ أي عليه شرعنا، وهذا ما نصّت عليه القاعدة الفقهية (لا يحل لامرئ أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه)؛ إذن لا بد من معرفة الشرع ليكون عمل العبد موافقا له، وتلك المعرفة يلزم منها التّعلم لحصول العلم؛ وذلك لأن العلم يسبق العمل، ويدل عليه، ويرشد إليه، فهو دليل له من ناحية، وشرط لقبوله من ناحية أخرى، فلا عمل بلا علم، وقد يوجد علم بلا عمل، والمعنى: أنه كلما وجد العمل لزم وجود العلم، بخلاف عكسه، ولهذا قيل: العلم بدون عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون..

مجال السلوك والقيم:

وهذا المجال يسميه البعض بالتصوف، وقد يسمى بالإحسان، وهو أرفع مقامات التّعبد فهو كما عرفه الرسول الأعظم ﷺ في حديث جبريل المشهور: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..) ¹²⁴ الحديث؛ وهذا المقام هو مقام المشاهدة كما يسميه القوم، وأساسه العلم بالله، وهو منطوق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ¹²⁵

فها أنت يا صاح ترى معي أنّ أساس هذا المجال ومنطلقه العلم، وقد سمّاه البعض بعلم التصوف واعتبروه من علوم الشريعة الإسلامية، وهو كذلك حقا وصدقا!! ومنه حديث حارثة حينما سأله النبي ﷺ قائلا له: (كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا حقا، فقال ﷺ: "وما حقيقة إيمانك؟" قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزا، فقال ﷺ: "عرفت فالزم"، عبد نور الله قلبه بالإيمان !!) ¹²⁶؛ فقوله "عرفت فالزم !! " دليل

¹²³ أخرجه: البخاري (2697)، ومسلم (1718)، واللفظ له.

¹²⁴ صحيح البخاري رقم 50 ؛ و مسلم رقم: 8

¹²⁵ فاطر: 28

¹²⁶ أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف، وله طرق أخرى لكنها معلولة كلها..

على كون العلم أساسَ هذا المقام وجناحه الذي يطير به إليه!!

ولنستمع إلى تقرير ابن خلدون في كتابه المقدمته يقول: "علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لا تزال عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة (...) - إلى أن قال -: وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة، إذن فالذي حدث هو الاسم، وتمييز المقبلين على العبادة باسم التصوف، أما النهج والطريقة فهي نفس ما كان عليه الصحابة والتابعون ومن بعدهم (...) - ثم قال بعدما تكلم عن الأحوال والمقامات التي خاضوا فيها - : " فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها إلى غيرها (...) فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه، وصار علم الشريعة عل صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقى منها، من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك. فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام، والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة عبادة فقط. وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت، يعني أن نفس هذه العلوم ابتدأت أولا من طريق التلقي شفويا ثم دونت كما وقع في التصوف تماما" ¹²⁷ .

مجال الماديات والتجربة:

وهذا مجال قائم على العلم بامتياز، منه المنطلق وعليه البناء، فكل ما توصل إليه الإنسان من تطور وتقدم في الصناعات والمخترعات بكل أنواعها كان أساسها العلم التجريبي القائم

¹²⁷ ن: "المقدمة" لابن خلدون مصدر سابق، بتصرف (505/1)

على البحث والتجربة ...

ومن المعلوم أن العلوم التجريبية قد ازدهرت في ظل الإسلام ازدهاراً لم يسبق له مثيل، وأن العلاقة بين الدين في أوروبا وبين العلم التجريبي كانت متأزمة إلى حد كبير كما هو معلوم...، وأدت إلى فصل الدين عن الحياة، وأن العالم الإسلامي قد شهد في القرون الأخيرة استيراداً للأزمة، من باب التقليد الأعمى..

ومما يجب استحضاره في هذا الصدد أن القرآن الكريم ذكر في أكثر من سياق العلم التجريبي الصناعي وأشاد به، ولعل أوضح آية في ذلك قوله تعالى في حق نبي الله داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾¹²⁸؛ يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في ذوق عمراني لهذه الآية: " {وَعَلَّمْنَاهُ ...} (...) ، والإنسان دائماً في حاجة إلى معرفة وتعلم، لأنه خليفة الله في الأرض، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس، هذه الحركة تحتاج إلى فهم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير ليناً قابلاً للتشكيل (...)

وقضايا العلم التي تحتاجها حركة الإنسان في الأرض نوعان: نوع لم يأمن الله فيه الخلق على أنفسهم، فجاء من الله بالوحي، (...) - ونوع آخر من العلوم - لا تختلف فيها الأهواء، بل تحاول أن تلتقي عليها وتتسابق إليها، وربما يسرق بعضهم من بعض، هذه الأمور تركها الحق - سبحانه - لعمل العقول وطموحاتها، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم، ولو من الأدنى كما تعلم ابن آدم (قابيل) من الغراب، كيف يوارى سوءة أخيه، فقال سبحانه: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ...} [المائدة: 31].

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات في الكون حين نعمل فيها العقل، ونرتب بعض الظواهر على بعض، نتوصل منها إلى حقائق علمية، وقد تأتي القضية العلمية بالتجربة، أو بالخاطر يقذفه الله في قلب الإنسان؛ فقله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ...} [الأنبياء: 128].

[80] يصح أن نقول: كان هذا التعليم بالوحي، أو بالتجربة أو الإلقاء في الرُّوع، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام¹²⁹

وقد ذكر الله عز وجل في موطن آخر ما أنعم به على نبيه الكريمن داوود و ابنه سليمان عليه - عليهما السلام - من علوم تجريبية و صناعية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوتِيَهُ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١١﴾ أَنْ إِعْمَلْ سَبِغَتٍ وَقَدِيرٍ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلِسَلِيمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْفِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِيْبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِبَالٍ كَالْجَوَابِ وَفُدُورٍ رَّاسِيَتْ إِعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٤﴾﴾¹³⁰؛ ولا شك أن إيراد القرآن الكريم لهذه النماذج فيه إشادة

بهذا النوع من العلوم في هذا المجال العمراني، بل وفيه دعوة إلى أتباع القرآن بتعميق البحث العلمي في هذا المجال الذي صار المسلمون عالة على غيرهم - مع الأسف - وما كان لهم أن يكونوا كذلك لو غيروا من تعاملهم السلبي مع القرآن الكريم..

ولا يفوتني أن أسوق في هذا الصدد ما ذكره الله تعالى في قصة ذي القرنين، هذا الملك العادل الذي مكّن الله له في الأرض بسبب ما توصل إليه من علوم صناعية وظّفها في إقامة العدل بين الناس وإنصاف المظلومين وردع الظالمين فقال تعالى في شأنه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْفَرْقَيْنِ فُلْ سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٧﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٢٨﴾﴾ وإن من أهم الأسباب التي حازها ذو القرنين هي علوم الصناعات التي استطاع أن يحقق قوة رادعة لاعتداء الظالمين، وخاصة صناعة الحديد، كما

¹²⁹ ن: " تفسير الشعراوي"، مرجع سابق، بتصرف زيادة وحذف، (15/ 9610)

¹³⁰ سبأ: 10، 13

جاء في القصة: ﴿فَالُوا يَلَذَا أَلْفَرْنَيْسَ إِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلْ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سُدًّا﴾ ﴿٩١﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ بِأَعْيُنُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿٩٢﴾ أَتُونِي زُرًّا الْحَدِيدَ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْقَيْنِ قَالَ أَنْبِخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ فِطْرًا﴾ ﴿٩٣﴾ فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ﴿٩٤﴾¹³¹؛ فهذا شاهد قوي يدل على أهمية العلم في تحقيق القوة الرادعة لكل ظالم أو معتد أثيم، وهو ما يجب على أمة القرآن الالتفات إليه والاهتمام به حتى يتمكنوا من رفع هذا الذل الذي نزل بهم من قبل أعدائهم..

تلك بعض الأمثلة التي أوردناها من القرآن الكريم في مجال الصناعة - وهي قائمة على العلم التجريبي كما هو معلوم - والأمثلة كثيرة جدا في القرآن لا يسمح الوقت لذكرها كلها فهي تحتاج إلى مؤلف كامل ومستقل!!

ولو رجعنا إلى السنة النبوية لوجدناها مليئة بالأمثلة؛ فالرسول الكريم ﷺ كما يقول الشيخ القرضاوي: " سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعا، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعا.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له؛ وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته؛ فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئا؛ فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية؛ حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية (أنتم أعلم بأمر دنياكم)؛ فهذه الشؤون الدنيوية الفنية

المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها، فهم بها أدري وأعلم¹³².

وهو ما ثبت في صحيح مسلم من رواية عائشة: (أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصا - أي رديئا - ما لنخلكم؟ قالوا: قلت: كذا وكذا، قال ﷺ: أنتم أعلم بدنياكم)¹³³.
فقوله ﷺ (أنتم أعلم بدنياكم) في إشارة قوية وصريحة إلى أن الأمور الدنيوية تعتمد على الخبرة والتجربة، وهو ما يُفهم منه الحثّ على البحث العلمي التجريبي؛ وهو ما يجعلنا ندرك يقينا أن الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر قد خالفت المنهجية القرآنية والنبوية في مجال البحث العلمي الذي يمكن استثماره في كل مجالات العمران البشري، لتعود لها سيادتها العلمية وريادتها القيادية؛ وبالتالي تستعيد عافيتها التي فقدتها منذ وقت طويل!!

كل ذلك جعلنا نصوغ هذه القاعدة العمرانية بهذه الديباجة: (العلم نقطة الانطلاق وشرط الاستحقاق)، والتي لها استشرافها اليانع والمثمر على عمران الأمة الإسلامية خصوصا، والعمران البشري عموما؛ وهو ما نخصص له المطلب الرابع الآتي.

¹³² ن: "الرسول والعلم" للقرضاوي، مرجع سابق؛ ص: 48-49

¹³³ رواه مسلم ، رقم: 2363

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

إن النظر في هذه القاعدة العمرانية الكبرى واستحضار دلالاتها ومجالاتها بما بيّنت قبل، لِيُثْمِرُ تفعيلُها مستقبلاً عمرانياً ناجحاً تَصْلُحُ به البلاد ويسعد به العباد؛ إذ العلم أساس كل نجاح في جميع ميادين العمران، فبه يُعرف الماضي كيف كان؟ ويعرف الحاضر كيف هو كائن؟ وكيف سيكون المستقبل؟ وإلا حَيِّمَ الجهل كل جانب فأثّر ضياعاً وخراباً، وظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رِيبُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾¹³⁴.

إن خلاص الجميع من هذا الوضع المزري كما يقول الأستاذ جودت سعيد: "إنما يتم في التوجه إلى إدراك الماضي ومعرفة ما كان وكيف كان؛ لتحصل لنا قدرة على التعاون لبناء ما سيكون وكيف يكون؛ وعند هذا سندرك كيف تكون مساعدة الله لنا للقيام بالمهمات الموكولة إلينا ونفهم معنى رحمة الله في أسلوب امتحان ذكائنا، ونبدأ بعد ذلك بالشكر لله على ما بين أيدينا من آيات لتنبؤاً مقام سلطان العلم وسلطان التسخير.. وبهذا يكون لشكرنا وحمدنا لله معنى (...)

إن من حُرْمِ الموقف العلمي يقف موقف المغلق المتشائم المحروم من الآمال ومن الرحمة والتسامح؛ وهو موقف الفاشلين المغلق عليهم آفاق حل المشكلات، إنهم حملة الحقد والساعون إلى الانتقام والتأهجون سبيل (علّي وعلى أعدائي)، وهم الذين يعالجون المشكلات بقطع الرؤوس بدل ترشيدها وهدايتها.. هذا إذا كانوا من المستكبرين في الأرض، أما إن كانوا من المستضعفين في الأرض، فيظلون يجتزون أحقادهم ويتحينون الفرصة للإحاطة بالرؤوس التي عجزوا عن تقديم ما يهديها ويرشدها..

إن العلم هو الذي يعطي الرحمة، والعفو، والصفح والتسامح، والعلماء هم الذين يبنون الحق ويرحمون الخلق كما يقول ابن تيمية، أما الجهل فهو الذي يعطي الفظاظة والغلظة (...)

فإذا حصل لك يوماً شعور بالانفعال جعلك ترفض شيئاً أمامك لعجزك عن حله بسبله

الصحيحة، أو رأيت من يفعل ذلك ثم أتبع عمله بقوله: هذا أمر غير قابل للحل، فاعلم أن هذا الموقف غير علمي (...). لأن العلم رحمة وعفو، وصفح وتسامح، وهداية وأمل مشرق، وليس يأساً مطبقاً، وهذا معنى كون السماوات والأرض خلقت بالحق، أي قابلة لحل مشكلاتها وتسخيرها لا هدمها..

وإذا رأيت الناس يائسين من تغيير أوضاعهم وحل مشكلاتهم (...) فاعلم أن سبب ذلك هو اليأس المبين واليأس قرين الكفر (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)، والعجز والكسل والجبن والبخل من ذراري الجهل.. وإن الفعالية، والنشاط، والشجاعة، والكرم، من نتائج العلم والفهم؛ والعلم بالتعلم، والحلم بالتحلم¹³⁵

إذن من خلال كلام الأستاذ سعيد يتبين لنا أن سبب المشكلات العالمية اليوم عموماً، ومشكلات أمتنا الإسلامية خصوصاً، هو الجهل الذي يتخبط فيه الإنسان المعاصر اليوم على وجه العموم، والإنسان المسلم على وجه الخصوص؛ ولا مخرج من هذه المآسي إلا بالعودة إلى العلم تعليماً وتعلماً تلقيناً وتدريباً!

إنّ الإنسان الغربي اليوم وإن قطع أشواطاً ضخمة في ميادين العلم التجريبي أو الطبيعي، إلا أنه لا زال قابعاً في غياهب الجهل المتعلق بالأخلاق والقيم، وهو ما لاحظته الأستاذ جودت سعيد في كلام الفيلسوف برتراند راسل¹³⁶، في كتابه (النظرة العلمية) في نهاية مقدمته حيث يقول: {فالقوة الجديدة للعلم تكون خيرة بقدر الحكمة التي يتميز بها الإنسان، فلا بد إذاً من زيادة الحكمة التي هي الإدراك السليم لغاية الحياة، وهذا لا يقدمه العلم، فالزيادة منه لا تكفي}؛ يقول الأستاذ جودت سعيد معلقاً على كلام راسل: "هذا الكلام موجز ولكنه واضح وهو خطير ومشوش في آن واحد، لأنه يقصر العلم على ما يتعلق بالطبيعة (آيات الافاق) ولا يعتبر ما يتعلق بالأنفس والأخلاق علماً. وهذا موقف

¹³⁵ ن " أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع " لجودت سعيد؛ الطبعة الأولى: 1408 هـ / 1988م، طبع بموافقة الإفتاء العام والتدريس الديني بدمشق رقم 906 تاريخ 1986/10/1؛ ص: 86-88

¹³⁶ برتراند راسل (1872م / 1970 م) فيلسوف ومنطقي إنجليزي، من أعماله: " مبادئ الرياضيات"، و " مشكلات الفلسفة " نقلاً عن الكتاب المدرسي الأولى بكالوريا " في رحاب الفلسفة"

مبتور¹³⁷.

ثم إن أي دولة أو شعب يريد أن يتبوأ المكانة العليا في سلم التقدم العالمي لابد أن تكون البداية من العلم، وهذا معنى قولنا في قاعدتنا العمرانية (العلم نقطة الانطلاق)، فهذه اليابان أدركت أنّ النهوض بالتعليم ليشكل قاعدة صلبة لبناء البلاد، وأيقنت أنّ النظام التعليمي هو أساس عمارة الدولة وتطورها، فأنشأت جيلاً كاملاً يحمل الذكاء التحليلي والقدرة على الاختراع والابتكار، مما أدى إلى التطور السريع في جميع المجالات..

يقول جودت سعيد أيضاً: "إنه اليابان - هذا العملاق القزم - حيث محيت فيه الأمية منذ القرن التاسع عشر (وإن نسبة تعليم الفتيات ازدادت في اليابان، فقد وصلت نسبة من ينهين الثانوية العامة (95%)". ويلعب الكتاب دوراً بارزاً في حياة الفرد الياباني، فمؤسسات النشر اليابانية تصدر (35 ألف) عنوان جديد سنوياً تقريباً، وها يمثل ضعفي ما ينشر في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن اليابان ثاني أعظم قوة صناعية في العالم¹³⁸

وبالعلم أيضاً يستحق الإنسان فرداً وجماعة وأمة الريادة والقيادة والعزة والسيادة، هنا وهناك، في المعاش والمعاد؛ فهذا نبي الله يوسف استحق القيام على خزائن مصر بالعلم وحسن التخطيط فقال الله حكاية عنه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ

عَلِيمٌ﴾¹³⁹؛ فمكّن الله له بتلك المؤهلات ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ

مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾¹⁴⁰؛ وكذلك الشأن بالنسبة للذي انتدب نفسه ليأتي بعرش ملكة سبأ

"بلقيس"، فإنما استحق ذلك بالعلم قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا

ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ

¹³⁷ ن " أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع " لجودت سعيد؛ مرجع سابق، ص: 9

¹³⁸ نفس المرجع، ص: 9

¹³⁹ يوسف: 55

¹⁴⁰ يوسف: 56

رَبِّ لِيَبْلُوَنِي ءَآشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ¹⁴¹؛ ومن ثم قلت في شطر القاعدة الثاني: (و - العلم - شرط الاستحقاق)

ولا ننسى أن نستحضر قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام، حيث لعب العلم دورا استشرافيا مهما في نجاة هذا الطائر من عقوبة سليمان عليه السلام بسبب غيابه، ﴿وَتَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٦١﴾ لَا عَذَابَ بَنَّهُ، عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ، أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٢﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَلٍ مَبْنًى يَفِينٍ ﴿٦٣﴾ إِنِّي وَجَدْتُ لِامْرَأَةٍ تَمْلِكُهُمْ وَآتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾¹⁴² كما أتاح للحضارة السلিমانيّة إمكانية الانفتاح على حضارة سبأ، وإدراج هذه الأخيرة تحت قيادة سليمان وعمرانه الموسوم بإسلامه لرب العالمين بعدما رأت التفوق العمراني لسليمان عليه السلام ﴿فِيلَ لَهَا آدْخُلِي الْصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ فَوَارِيرَ ﴿٦٤﴾ فَالَتْ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾¹⁴³؛ تلك إذا قضية العلم!! الذي يلعب دورا مركزيا في ازدهار العمران وبناء الإنسان!!

خلاصة:

إنّ الأمة الإسلامية لو أخذت بهذه القاعدة العمرانية الكبرى: (العلم نقطة الانطلاق وشرط الاستحقاق)؛ وطبقها كلّ فرد في أي مشروع يريد إقامته، واستثمرتها الأمة في مشاريعها العمرانية وكان استحقاق المسؤولية وتوليّ المناصب بهذا الشرط دون محاباة أو محسوبية، لكان لذلك الأثر العظيم في عمران الأمة في كل ميادين الحياة، إذ أنّي أزعّم أن هذه القاعدة لها دور عظيم وجليل استشرافا لمصير الأمة الحضاري والعمراني على حدٍ سواء..

¹⁴¹ النمل: 39، 40.

¹⁴² النمل: 20، 23.

¹⁴³ النمل: 45، 46.

إنّ ما يقع في الدول العربية والإسلامية اليوم من صراعات دموية يقتل أفرادها بعضهم بعضاً، ليبينّ درجة الجهل الذي خيم على أجوائها فأنتج إرهاباً وتشدّداً وتهاجراً أصبح من هوله الحليم حيراناً.. وأزعم أنه لا حل يبدو في الأفق القريب إلا إذا عادت أمة "إقرأ" إلى القراءة كوسيلة للتعلّم والتعليم وللترقي والترقي على وزن حديث رسول الله (اقرأ وارتق)¹ !!

المبحث الثالث: قاعدة (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)

هذه قاعدة عمرانية جعلتها ثلاثة في الترتيب، تتعلق بالعقيدة وأصول الدين، وهي من القواعد الأساس التي يقوم عليها العمران، كما هو مقرر في السنة والقرآن، ويمكن إدراجها ضمن القاعدة الأولى فتلك أعم وهذه أخص؛ فتأمل!!

وقد ذكرت في الباب الأول عند الحديث عن شروط العمران أنّ التوحيد هو المحرك الفاعل لكل حركة عمرانية، وهو ما يبيّن أهمية هذه القاعدة العمرانية!!

فما دلالة هذه القاعدة؟ وما هي براهينها وحججها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية للعمران؟

هذه مجموعة من التساؤلات نوردها على هذه القاعدة، إذ بالإجابة عنها يتّضح دورها العمراني وأثرها الحضاري، وهو ما يقتضي تخصيصنا لكل تساؤل مطلباً مستقلاً نوضح من خلال الجواب عنه جانباً معيناً من جوانب تلك القاعدة؛ وهذه المطالب نوردها في الصورة الآتية:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: براهينها وأدلتها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

إِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ هذه القاعدة العمرانية الكبرى ونظر فيها ليجدُها تتألف من جزئين متقابلين؛ أولهما: (التوحيد والإيمان عمران)، هكذا بأسلوب الحصر والقصر على وزان حديث رسول الله ﷺ (الدين النصيحة)¹⁴⁴؛ وعلى غرار قوله ﷺ (الحج عرفة)¹⁴⁵؛ ومن المعلوم أَنَّ أسلوب الحصر من أقسام مفهوم المخالفة عند الأصوليين، ومنه - أي الحصر - حصر المبتدأ في الخبر¹⁴⁶ كما هو في هذه القاعدة العمرانية: (التوحيد والإيمان عمران)، فهو - أي الحصر - يدل بمفهومه على نفي العمران عن غير التوحيد والإيمان، وهو ما دلّ عليه الشطر الثاني من القاعدة بمنطوقه، أي قولنا: (والشرك والكفر خراب للإنسان)؛ فكانت القاعدة بذلك تدل بمنطوقها ومفهومها معا على أن الشرك والكفر خراب للإنسان ويباب للأوطان، وقد ذكرت في مسألة أثناء الحديث عن شروط العمران¹⁴⁷ أنَّ فقدان التوحيد - الذي هو إكسير الدين والعمود الفقري للإيمان - زوال للعمران وخراب له، وهو ما دلّ عليه كل من القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ والواقع..

وقد ذكر القرآن الكريم مجموعة من القصص التي مفادها أنَّ زوال عمران أقوام كثيرين كان بسبب شركهم بالله تعالى وتمردهم على رسله وأنبيائه، فكان الشرك والكفر بذلك سببا من أسباب خراب العمران، وهو منطوق قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ - ائِمَّةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَعَبَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ بِأَذَاهَا

¹⁴⁴ الحديث أخرجه مسلم، رقم: 55، وانفرد به عن البخاري، وأخرجه أبو داود في "كتاب الأدب" "باب في النصيحة" رقم: 4944، وأخرجه النسائي في "كتاب البيعة" "باب النصيحة للإمام" رقم: 4208.

¹⁴⁵ الحديث أخرجه أحمد في مسنده، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في السنن. كما رواه ابن حبان والحاكم وصحاحه من رواية عبد الرحمن بن يعمر الديلي: أن ناسًا من أهل نجد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة فسألوه، فأمر منادياً فنادى "الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه". وفي لفظ لأبي داود: "الحج الحج يوم عرفة". وفي رواية لأحمد: "الحج حج عرفة".

¹⁴⁶ ن مثلاً: "إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول" للإمام الحافظ محمد الشوكاني، تحقيق د: شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، ط: 3؛ 1430 هـ / 2009 م (531 / 2)

¹⁴⁷ في المسألة الخامسة من المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثاني في الباب الأول..

اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ
 بِكَذِّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤٩﴾؛ فهؤلاء الذين منَّ الله عليهم بما جعل
 عمرانهم توفرت فيه كل أسباب الرخاء والازدهار، ولكنهم أعرضوا وبدّلوا نعمة الله كفراً
 وجحوداً، فبعث الله لهم رسولا يَعْرِفُونَهُ يذكّرهم بالله بأن يؤمنوا به ويوحّدوه، ويطيعوه ويشكروه
 على النعمة، فما كان منهم إلا أن تمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذّبوا بعذاب الاستئصال
 الشامل، وآل عمرانهم إلى خراب ويباب!! ﴿١٥٠﴾ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿١٥١﴾!! ومن ذلك أيضاً ما أخبر به المصطفى ﷺ من أنباء زوال الدنيا وفنائها وأن
 سبب ذلك زوال الدين ورفع الإيمان من الأرض؛ فعن أنس - رضي الله عنه - أنّ رسول الله
 ﷺ قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ)¹⁴⁹، فهذا الحديث دليل
 على أن زوال العالم وخراب العمران يكون سببه زوال التوحيد والإيمان من الأرض، وقد ثبت
 بروايات أخرى أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق الذين لا يعرفون معروفا ولا يُنكرون
 منكراً؛ وهو ما يؤكّد أنّ العمران الذي نتحدّث عنه لا يمكن أن يتحقّق على الوجه المطلوب إلا
 بتحقيق توحيد الله والإيمان به، ومجانبة الكفر والشرك؛ فتأمل وأبصر!!

والسبب في ذلك أن الدين الحق القائم على الإيمان المتضمّن للعقيدة الصحيحة، يمثّل
 عاملاً أساساً في الدفع إلى عمران الأرض روحياً ومادياً، وهو ما قرّره أثناء حديثي عن
 مفهوم العمران في الاصطلاح، وكان ممّا توصّلت إليه بعد تأمّل لهذا المصطلح أنه: " لا
 عمران من دون عبادة"¹⁵⁰؛ وهو مدلول شطر قاعدتنا العمرانية ها هنا: (التوحيد والإيمان
 عمران)؛ إذ التوحيد والإيمان يمثّلان جوهر العبادة؛ فتأمل وأبصر!!

وقد يطلق لفظ "الدين" ويُراد به التوحيد - كما ورد عند الإمام الماوردي وقد سبقت

148 . النحل: 112 / 113

149 . سبق تخرجه

150 . ن: المسألة الثانية بعنوان: (العمران والعبادة) في المطلب الثاني من المبحث الثالث في الفصل الأول من

الباب الأول.

الإشارة إليه¹⁵¹ - ولذلك اعتبرته شرطاً في العمران، كما هو شرط في العبادة، وهو ما يسميه القرآن إسلاماً من خلال استقراء آي القرآن الكريم؛ ودونك نصوص ذلك من القرآن فتدبرها!! من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾¹⁵²؛ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾¹⁵³؛ وقوله سبحانه أيضاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾¹⁵⁴؛ والآيات كثيرة في هذا الصدد، كلّها تدلّ على أنّ المقصود بالدين هو الإسلام، وأنّ المقصود بهذا الأخير هو التوحيد، ولذلك كان الأنبياء جميعاً مسلمين كما جاء في آي القرآن الكريم، أي موحدّين وإن اختلفت شرائعهم، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (إنا معشر الأنبياء ديننا واحد)¹⁵⁵..

وقد قرّرت فيما مضى أنّ التوحيد هو الدافع والمنتج لكل حركة عمرانية، ومما رسّخ ذلك في ذهني حتى صار يقينا عندي ما أصّله كثير من العلماء؛ منهم الإمام الماوردي الذي اعتبر الدين - أي التوحيد - قاعدة أولى في صلاح الدنيا، وصلاحها لازم لعمرانها كما هو معلوم، يقول رحمه الله: "اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتزمة، ستة أشياء هي قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح"¹⁵⁶؛ ثم يوضّح وظيفة الدين في صلاح الدنيا أي عمرانها، فيقول لله درّه: "فأما القاعدة الأولى: فهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها،

¹⁵¹ . ورد ذلك عند الحديث عن الشرط الأول (التوحيد والإيمان) من شروط العمران؛ في المطلب: 1، من المبحث 2، في الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الأطروحة..

¹⁵² . آل عمران: 19

¹⁵³ . آل عمران: 85

¹⁵⁴ . المائدة: 4

¹⁵⁵ . متفق عليه..

¹⁵⁶ ن: " أدب الدنيا والدين " للماوردي، مصدر سابق، (1 / 133)

ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهرا للسرائر، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس في خلواتها، نصوحا لها في ملماقتها؛ وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها؛ فكأن الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه، مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي، واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء¹⁵⁷؛ ويتحدث ابن خلدون - وهو الخبير بالعمران - عن دور الدين في إقامة العمران والاجتماع البشري فيقول: "إذا كان الدين بالتبوءة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب حُلق الكِبَر والمنافسة منهم فسهُل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التّحاسد والتّنافس، فإذا كان فيهم النّبّي أو الوليّ الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، يُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تمّ اجتماعهم وحصل لهم التّغلب والملك"¹⁵⁸..

وقد أشار القرآن الكريم إلى دور الإيمان وأهميته في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَيْءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾¹⁵⁹؛ وسبب ذلك أنّ التوحيد إذا غاب وارتفع وحل مكانه الكفر أو الشرك أو هما معا كان الخراب محققا واليباب واقعا؛ كما يقول الدكتور عبد الحميد أبو سليمان: "ومن دونها - أي الرؤية التوحيدية - لا يعود للحياة والوجود، ولنظامه البديع الرائع، من الذّرة حتى المجرة معنى، ولا بد أن ينتهي مفهوم الحياة والوجود حينها إلى تقبل مفهوم الفوضى والعشية، الذي لا يمكن أن يتقبله واقع نظام الكون البديع، ولا حسّ الفطرة ولا منطق ميزان العقل السليم"¹⁶⁰!!

¹⁵⁷ ن: المصدر السابق (1 / 133)

¹⁵⁸ ن: "المقدمة" مصدر سابق، ص: 335

¹⁵⁹ الأعراف: 95

¹⁶⁰ ن: "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية" مرجع سابق، ص: 117

استنتاج:

فها أنت ترى من خلال ما سبق ذكره أنه لا معنى للحياة والوجود من غير توحيد، وأن نظام العمران سيختل؛ وبالتالي سيؤول إلى خراب وبياب عند غياب التوحيد وحلول الشرك والكفر؛ ومن كَم كان الدين بمثابة حجر الأساس للبناء العمراني، أو يمكن اعتباره المحرك الفاعل لكل حكمة عمرانية يقوم بها الإنسان المعمر؛ وهو ما يؤكد دور التوحيد العظيم لتشييد العمران وإقامته - كان العمران روحيا أو ماديا على حد سواء - ويُسفر عن خطورة الكفر والشرك على الإنسان والعمران!! ومن كَم كانت دياجة القاعدة العمرانية هي: (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)، فتأمل!!

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

هذه القاعدة العظيمة لها أدلتها من الشريعة الإسلامية، ومن أقوال أهل العلم؛ وهي أدلة مستفيضة وكثيرة، مما يدل على أهمية هذه القاعدة العمرانية أيضاً، وأنها من القواعد العمرانية الكبرى التي وجب الاهتمام بها ودراستها دراسة عميقة حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وسأعرض جملة من الأدلة الشرعية تُبرز أهمية التوحيد والإيمان في تحقيق مصالح ومنافع الإنسان، وبالتالي تحقيق عمرانهِ - بالمفهوم الذي أصّلته في الباب الأول - كما أنني سأسوق مجموعة من الأدلة تدل على مفسد كل من الشرك والكفر المؤديين في آخر المطاف إلى خراب الإنسان وبياب العمران!!

أبدأ بأول آية أراها أصلاً عظيماً لهذا الباب وهي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾¹⁶¹؛ هذه الآية عجيبة فهي في حدّ ذاتها قاعدة أساس للعمران تتضمن كل كلمات قاعدتنا العمرانية التي ندندن حولها: (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)؛ فهي - أي الآية - تضمّنت وعد الله بالاستخلاف الذي يعتبر العمران وظيفته الكبرى، كما بيّنت سابقاً¹⁶²؛ كما وعدهم عز وجل بالتمكين الذي يُعتبر ثمرة من ثمار العمران، وكذا وعدهم بالأمن الذي يعتبر من أهمّ ركائز العمران ودعائمه؛ وجعل هذه الموعودات مشترطة بإقامة أسبابها وتحقيق شروطها وانتفاء موانعها، فأما الأسباب والشروط فتجلّت في الإيمان والأعمال الصالحة والعبادة، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا

¹⁶¹ . النور: 55

¹⁶² ن: المسألة الثانية (علاقة الاستخلاف بالعمران) من المطلب الأول في المبحث الثالث من الفصل الأول؛ الباب الأول..

الصَّلِحَتِ، ﴿وَيَعْبُدُونَنِي﴾؛ وأما الموانع فهي الواردة في قوله تعالى: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾؛ وهو ما تُقرّره قاعدتنا العمرانية: (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)؛ ولمزيد من الإيضاح والبيان نورد كلاماً للعلامة المقاصدي ابن عاشور - رحمه الله - في تنويره وتحريره لأسرار هذه الآية الكريمة حيث يقول: "ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم: وإن تطيعوه تهتدوا [النور: 54]؛ وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات (...) والتعريف في الصالحات للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد لأن إبطال الفساد صلاح (...) وهذه التكاليف التي جعلها الله قواماً لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن، صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها؛ وكانت الموعدة كالمسبب عليها، فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع¹⁶³، وجعل الإيمان عمودها وشرطاً للخروج من

¹⁶³ في مقابل خطاب التكليف؛ والقصد منه رحمه الله هو بيان الربط بين الأسباب ومسبباتها، وبين الشروط ومشروطاتها، وبين المقدمات ونتائجها، وليس المقصود أن الإنسان غير مكلف بها، إذ الإيمان من أوجب الواجبات، وكذا العمل الصالح؛ ومن المعلوم أن خطاب الوضع من السبب والشرط والمانع ينقسم عند الأصوليين إلى قسمين: قسم غير مقدور عليه وهو محض لخطاب الوضع، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، كالزوال مثلاً فإنه سبب لإيجاب صلاة الظهر، و كالحول فهو شرط لوجوب الزكاة، وكالحيض فهو مانع من الصلاة؛ وقسم آخر في طوق المكلف فهو يعتبر من خطاب التكليف أيضاً، كالبيع فهو سبب للملك، وكالغسل من الجنابة فهو شرط في صحة الصلاة، وكالدين فهو مانع من إيجاب الزكاة؛ وإلى هذا أشار ابن عاصم في منظومته:

وبعض في الأسباب من مقدور	مكلف كالبيع والتدور
وبعضها ليست له مقدورة	كالفجر والزوال والضرورة
ومثلها الشروط والموانع	معاً كالأمرين فيها واقع
كالغسل أو كالحول للزكاة	والدين أو كالحيض للفتاة
ثم يقول بعد ذلك: فعبر مقدور بكليها اعتبر	من جهة الوضع بحيث ما نظير
واعتبر المقدور حيث وقعاً	من جهة التكليف والوضع معاً

عهدة التكليف بها وتوثيقا لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته؛ فبه يتييسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها¹⁶⁴ ويزيل - رحمه الله - إشكالا قد يرد على الأذهان، وهو ماذا لو انتفى شرط الإيمان فقط وتحققت الشروط الأخرى؟! فيقول: "فلو أن قوما غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنبوا من سيرتهم صورا تشبه الحقائق التي يجتنبها المسلمون، لأن تلك الأعمال صارت أسبابا وسنا تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سننا وقوانين عمرانية، سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بحجوده أو بالإشراك به أو بعدم تصديق رسوله، يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد؛ ألا ترى أن القادة الأوروبيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما ما رسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية، قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة، وكرهة البغي والعدوان، فعظمت دولهم واستقامت أمورهم؛ ولا عجب في ذلك فقد سلط الله الآشوريين وهم مشركون على بني إسرائيل لفسادهم¹⁶⁵."

تلك آية بدأت بها في البرهنة على هذه القاعدة العمرانية، بل يمكنني أن أقول إن القاعدة ترجمة لتلك الآية؛ ويمكن أن أضيف آيات أخر تمثل دليلا قويا آخر لهذه القاعدة، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٤) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَلِيدِينَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَلِإِنَّمَا يُوَجَّى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٧﴾¹⁶⁶؛ فهذه آية أخر عجيبة تدل على مضمون القاعدة العمرانية التي بين أيدينا،

164. ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور؛ مرجع سابق، بتصرف (18 / 282 284)

165. نفس المرجع (18 / 284 285)

166. النور: 55

حيث جاء وصفُ الوارثين لعمران الأرض بالصلاح والعبدية، وهما من لوازم التوحيد والإيمان، فتنبّه!

ويمكن أن نستدل بآية أخرى تمثل شاهدا قويا للقاعدة التي نحن بصدددها، وهي بشارة الله الواردة في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّخْلَفُونَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹⁶⁷؛ فمن المعلوم أن هذه البشارة وردت مطلقة لتشمل كل ما يُسعد المؤمن في العاجل والآجل، في المعاش والمعاد؛ وإذا كان العمران بالمفهوم الذي أصّلت - في أكثر من مرة - هو تحقيق لمصالح الحياة الإنسانية وفق مبدأ الاستخلاف الإلهي، فهو ممّا يدخل ضمن البشارة التي وردت في الآية الآنف ذكرها، ممّا نستنتج منه أن الإيمان منتج للعمران، وبتعبير القاعدة التي نحن بصدددها (أن التوحيد والإيمان عمران)

ولا يخفى علينا أيضا أنّ من ثمرات التوحيد والإيمان الأمن الذي يُعتبر من أهم ركائز العمران، وقد ذكره الإمام الماوردي في قوله: "اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة، ستة أشياء هي قواعدُها، وإن تفرغت، وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح"¹⁶⁸؛ هذا الأمن الوارد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّسْتَقِيمُونَ﴾¹⁶⁹؛ وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَمْسَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾¹⁷⁰؛ فنفي عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن. فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة؛ وقد جعل النبي ﷺ الأمن من أهم مقومات الاجتماع البشري، فقال (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت

¹⁶⁷ البقرة: 223

¹⁶⁸ ن: "أدب الدنيا والدين" للماوردي، مصدر سابق، (1 / 133)

¹⁶⁹ الأنعام: 82

¹⁷⁰ الأنعام: 48

يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)¹⁷¹؛ ولله درّ الشاعر:

إذا اجتمع الإسلام والقوت للفتى وأضحى صحيحاً جسمه وهو في أمنٍ

فقد ملك الدنيا جميعاً وحازها وحق عليه الشكر لله ذي المنّ

ويقول الله تعالى في آية معجزة موضحة للقاعدة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّمَّنْ ذَكَرَ آوْ
انْبِئْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾¹⁷²؛ فالحياة الطيبة هي التي تكون في الدنيا كما قال المفسرون وهي ثمرة العمران
الذي نتحدّث عنه هنا، فتأمل!!

ومن الأدلّة القوية في هذا الصدد أيضا أنّ الأنبياء - عليهم سلام الله أجمعين - جميعا
كانت وظيفتهم تتحدّد في إقامة العمران بمفهومه الذي بيّنت - أكثر من مرة - وكان البدء
في ذلك من التوحيد، وما ذلك إلا لكونه شرطا وأساسا لإقامة العمران ووجوده، وهو ما
بيّنه القرآن الكريم في سياق قصص الأنبياء مع أقوامهم فقد كانت كلمتهم الموحّدة التي لا
يُزحونها: ﴿يَقُولُوا لِمَا كَلَّمَكَ اللَّهُ مَعَ الْوَحْيِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيُضِلَّكَ سُبُلَ الْبَعْثِ﴾¹⁷³؛ وقرّره في أكثر من سياق،
من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾¹⁷⁴؛ وجوهر ذلك وأساسه توحيد الله بكل ما يصدر عن العبد من حركة أو
فعل عمراني، فردا كان المعمّر أو جماعة، وبالتالي ربط عمران الإنسان بقصدية التوجّه للرحيم
الرحمان؛ وفي ذلك يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله: "فالمقصود بالخلافة القيام بعمران

¹⁷¹ . رواه الترمذي في سننه من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي برقم (2346)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (274/2) برقم (1913).

¹⁷² . النحل: 97

¹⁷³ . هود: 50

¹⁷⁴ . النحل: 36

الأرض وإصلاحها وتوجيه القلوب إلى توحيد الله رب العالمين¹⁷⁵

ولتأكيد ذلك أننا إذا رجعنا إلى آية هود - التي طالما استدلت بها - وفيها يقول نبي الله صالح عليه السلام لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾، نجد أنها جعلت العمران مبنياً على الإيمان بالله وعبادته، فقد أمر نبي الله صالح عليه السلام قومه بأن يقيموا عمرانهم على عبادة الله وتوحيده وأن يستغفروا الله على ما صدر منهم من الشرك بعبادة الأصنام فيتوبوا إلى توحيدِهِ، وذلك أن بقاء عمرانهم وازدهاره مشروط ورهين بتوحيد الله عز وجل والإيمان به، وأنَّ الشرك أو الكفر مُؤذِنٌ بخراب عمرانهم، وهو ما نبّه إليه سبحانه وتعالى عبر آية صارخة في أذن كل سامع: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾¹⁷⁶؛ وهذه آية - كما ذكرت سابقاً - مؤطرة لطبيعة العمران وموجهة للإنسان المستعمر، إذ العمران لا يكون عمراناً على وجه الحقيقة إلا إذا ارتبط بالبينات التي جاء بها رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، وعلى رأسها الإيمان بالله وإخلاص العمل له سبحانه، وهو ما يندرج تحت مسمى التوحيد، فدلّ ذلك دلالة يقينية على أن التوحيد والإيمان شرط من شروط تحقق العمران وبقائه، فإذا تنكّب هذا الإنسان المستعمر عن بينات الله آل عمرانهِ إلى يباب وخراب، فكان بذلك من الظالمين البائدين، ومن الهالكين الخاسرين، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمَهُمْ﴾..

ومن الأدلة أيضاً على خطورة الكفر والشرك علاوة على الأدلة السابقة، قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

¹⁷⁵ ن: "مجالس القرآن"، لفريد الأنصاري، مرجع سابق (3/ 104)

¹⁷⁶ الروم: 9

يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِفَآئِهِمْ
 فَبِحَبَطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُفِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنَ﴾¹⁷⁷؛ هكذا دلّت هتان الآيتان
 على خطورة الكفر في العاجل والآجل، في المعاش والمعاد، نسأل العافية..

وهناك آيات وآيات كلها تتناول دور التوحيد والإيمان في إقامة العمران، وخطورة الشرك أو
 الكفران!! نكتفي بهذا القدر خشية الإطالة..

إلا أنه لا يفوتني أن أسجل هنا كلمة للدكتور عبد المجيد النجار في غاية الأهمية لها علاقة
 بهذا الموضوع، حيث يقول: "إنّ العقيدة الإسلامية التي هي الفكرة الدافعة للتّحضر تنبني
 على أساس التوحيد، فهو عمودها الذي يقوم بها جميعا(..) فما من حقيقة من حقائق
 الدين الشاملة، عقدية كانت أو تشريعية إلا وهي منبثقة عن التوحيد وراجعة إليه، فهو روح
 الدين كلّ، الساري فيه مسرى الماء من النبات، أيما موضع انسحب منه أصابه الجفاف،
 وآل إلى التلاشي..

وعقيدة هذا موقعها من الدين من شأنها أن تطبع معتنقيها في ممارستهم للحياة كلّها فكرا
 ووجدانا وسلوكا بطابع الوحدة، بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائرا في بنيته وغايته
 على قانون من الوحدة التي تتألف بها المختلفات، وتتوحد بها المقاييس، وتلتقي بها المشارب
 على هدف مشترك"¹⁷⁸

¹⁷⁷ . النحل: 97

¹⁷⁸ ن: " الشهود الحضاري للأمة الإسلامية" د: عبد المجيد النجار، مرجع سابق، (1/ 64 - 65) بتصرف

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

إنّ هذه القاعدة من خلال تناولنا لمفهومها وأدلتها يتجلى دورها وأهميتها، حيث تتعدّد مجالاتها العمرانية؛ ولبيان هذه المسألة أفتتح بكلام للدكتور النّجار تتجلى من خلاله أهمية هذه القاعدة ودورها العمراني الفريد، حيث يقول: " بهذا الفكر التوحيدي يفسّر الكون على أنه في معرض كثرة موجوداته وأحداثه، فإنّه يرجع إلى وحدة العلة ووحدة القانون، فإنّ كل ما يقع فيه من كائنات وظواهر وتصاريف إنّما هي راجعة إلى نواميس موحّدة، ترجع الكثرة فيها إلى وحدة السبب الأول الواحد؛ وبهذا الفكر يُفسّر المجتمع أيضا على أنه في معرض الكثرة في شعوبه وأفراده إنّما هو راجع إلى وحدة جامعة بسبب وحدة الأصل ووحدة الغاية، ووحدة المبدأ في تكريم الإنسان بمقتضى الإنسانية فيه، ثمّ إنه يخضع إلى وحدة في مقياس التفاضل، وهو ميزان التقوى الذي يوزن به الناس جميعا؛ ويتربّب على هذا إجراء القانون المنظم للمجتمع على وحدة في الاعتبار، ووحدة في الجزاء ثوابا وعقابا.." ¹⁷⁹.

فقد تناول النّجار من خلال هذا النص دور التوحيد والإيمان في مجالين كبيرين مجال الطبيعة أو الكون ومجال المجتمع البشري؛ وهكذا باقي المجالات التي نرى التوحيد والإيمان يوجّهان الإنسان المعمر توجيهها علميا دقيقا، وهكذا استطاع المسلمون بهذه العقيدة أن ينطلقوا في حركة عمرانهم، " يبنون معارفهم الكونية والإنسانية بمنهج فكري توحيدي، فإذا هم يباشرون الحياة الإنسانية بنظر يفسر طبيعتها، ويقدر كل تصاريفها الفردية والاجتماعية على محور موحّد يبينها على مراد الله تعالى، ويسوقها في ابتغاء مرضاته، وإذا هم يباشرون المادة الكونية بنظر يفسرها على وحدة من القانون في تكوينها ومنقلباتها اهتداء بوحدة المكوّن والمدبّر بها، ثم يضمّ العقل الإسلامي حصيلة النظر الثاني إلى الأول لتنشأ منهما حركة العلوم الإسلامية، وتتطور منظومة بسلك يوحدّها جميعا في سياق الغرض الديني الذي به نشأت وتطورت أساسا من أسس الإنجاز الخلافي في الأرض، ويتبين هذا المنهج التوحيدي جليا من خلال كل من العلوم التي أنشأها المسلمون إنشاء، والعلوم التي اقتبسوها من

¹⁷⁹ ن: "فقه التحضر الإسلامي" د عبد المجيد النّجار، مرجع سابق، ص: 66

الكسب الإنساني السابق وأدخلوها في دائرة الثقافة الإسلامية..¹⁸⁰

وحينما نرجع إلى مؤسس علم العمران العلامة ابن خلدون في كتابه الموسوم بالمقدمة نجده يؤكد على مكانة الدين ودوره في إقامة العمران في كل مجالاته، حيث اعتبر: "أنّ الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إمّا من نبوة أو دعوة حق.."¹⁸¹؛ وهنا ندرك أهميّة الدين عند ابن خلدون - وهو الخبير بأحوال الدول وسياساتها وأسباب نهوضها وعلل أفلها - من حيث كونه المحرك للجماعة والباعث لاجتماعها الفاعل، ومن ثمّ المنتج للعمران، وفق المنظومة القيمية الإسلامية المستمدّة من الوحي، ليكون بها العمران في حقيقته التي غابت عن الفلاسفة والماديين من الغربيين وأمثالهم ممّن تأثّروا بفكرهم، ممّن ترجموا أو تناولوا مقدّمة ابن خلدون بالدراسة والتحليل، ومنهم من غيّبها عمدا لفصل علم العمران عن الرؤية الكونية التوحيدية، وجعل ابن خلدون مفكراً مادّياً، بينما العمران عنده يعني مهمّة الإنسان الوجودية المتمثلة في تحقيق مهمة الاستخلاف، وأداء الأمانة التي أشفقت من حملها أعظم المخلوقات، وهي مهمّة وأمانة لا تنفصل فيها العبادة والطّاعة لله عن تعمير الأرض ونشر قيم الخير والحق، - وهو ما أكّدت عليه أكثر من مرة في ثنايا هذا البحث - حتّى يتسنى للإنسان تحقيق إنسانيّته كلّما ارتقى ونجح في تحقيق وظيفته الوجودية، واجتهد في طاعة التّعالم الإلهية، والعمل بموجبها للإحاطة بأبعاد خلافته في الأرض!!

وفي هذا المطلب بيان لبعض تلك المجالات التي لا أزعم أنني سأحيط بها علماً، فهذا دونه خطر القتاد! ولكن حسبي أن أحاول حسب المستطاع؛ وسأقتصر على أهمها، وإليك البيان؛ والله المستعان!!

• المجال الروحي (الإيمان مصدر عمران روح الإنسان)

سبق أن قلت - فيما سبق - إنّ العمران الروحي الوجداني هو الأصل والأساس والمنطلق لتصحيح أي مسار عمراني حضاري، إذ أنّ الإنسان هو المعمّر أي المكلف بالتعمير من

¹⁸⁰ . نفس المرجع، ص: 66

¹⁸¹ ن: "المقدّمة" مرجع سابق، ص: 171..

لدى الحكيم الخبير، ولا يمكن أن يُعَمَّر حتى يكون هو عامراً أولاً، إذ فاقد الشيء لا يُعطيه، وإنما عمران الإنسان المُعَمَّر بعمران روحه ووجدانه وأحاسيسه الباطنية، وذلك أن الروح لها عمرانها الذي به يسمو هذا الإنسان، فالروح هو موطن تشريف الله للإنسان، وهذا هو مجال تفعيل الدين والإيمان!! إذ الإيمان الحق أعطى الإنسان الدور الرائد في عمران الأرض وخلافتها، وهو دور مركزي في نظام الكون كله، يمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية، والتأثير.

إن الشخصية الإنسانية السوية لا تتكون إلا من خلال الإيمان والعقيدة الصحيحة، سواء نظرنا في ذلك إلى معاني الحياة التي يقدمها الإيمان، أو إلى تحقيق طموح العقل، أو الاستجابة لأشواق الروح التي لا توجد إلا في رحاب الإيمان، فهو المحرك الأقوى إلى الخير والصالح بما يحقق عمران البلاد والعباد؛ ولعلّ أوضح دليل على أثر الإيمان في صياغة الإنسان، وصناعته ما ذكره الحق سبحانه في كتابه العظيم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِسُجُودٍ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾¹⁸²؛ فقلب الإنسان المُعَمَّر يحتاج إلى ما يُعَمِّر ويجي به أولاً، وإلا فقد الحياة الحقيقية التي لا عمران بغيرها، فهذا الإيمان دعوة إلى الحياة بكل صورها ومعانيها، وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، من ثناء وحيوية وعطاء، هذا الإيمان هو دعوة إلى منهج للحياة العامرة بالسعادة والطمأنينة، وعودة للوعي والفكر إلى حد تستحيل فيه المقارنة بين المؤمن وغيره؛ وهو منطوق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^{١٨} وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾¹⁸³ ..

وتتجلى أهمية الإيمان في بناء الفرد بناءً سوياً، في أن الله عز وجل حين أرسل رسله تترى أمرهم بادئ ذي بدء بإصلاح العقيدة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُؤْتِيهِ إِلَهُهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾¹⁸⁴؛ فالإيمان هو القضية الأولى التي

¹⁸² الأنفال: 24¹⁸³ فاطر: 18، 22¹⁸⁴ الأنبياء: 25

يتصدى لها الأنبياء منذ اليوم الأول في الدعوة، فقد بدأ الرسول ﷺ أولى خطواته في دعوة الناس إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هذه هي لبُّ دعوته ﷺ، وظل يركز عليها طوال ثلاث عشرة سنة، يركز جُلَّ جهده في تربية النفوس لتحمل أكبر طاقة إيمانية يتسع لها القلب البشري، وهي القضية الكبرى والأساسية في هذا الدين الذي سيقوم عليه ذلك البناء الضخم، لأن الأمور الأخرى هي نتيجة منطقية، أو ثمرة من ثمار هذا الإيمان السليم، لأنَّه متى استقر الإيمان في النفس استقر معه في الوقت ذاته النظام الذي تمثل فيه هذا الإيمان، ولما بدأ البناء بالفعل - في المدينة المنورة - شمع خلال سنوات قلائل، بل إن الحضارة الإسلامية بسطت نفوذها على العالم القديم بسرعة مذهلة حتى عُدَّ ذلك معجزة، ولولا هذا الأساس لما تحقق ذلك كله؛ "ولقد كانت حركة هذه الأمة بإيمانها في مجالات العمران المختلفة أعظم حركة في التاريخ، فلزم في أن يكون الأساس الذي يقوم عليه بناؤها العمراني أرسخ الأساس، وأعمقها... كانت الهداية إلى التوحيد هي قمة العطاء الرباني لهذه الأمة، وهي كذلك قمة العطاء الذي قدمته هذه الأمة للبشرية"¹⁸⁵.

لقد كانت الجزيرة العربية تعيش جاهلية جهلاء، وفي ظلام دامس، دون أن تستفيد من الحضارات الأخرى التي كانت تبسط نفوذها على أطرافها، بل تكون أحياناً عرضة لتصارع نفوذ تلك الحضارات فما أن شَعَّ نور الإسلام حتى كوَّن الإسلام أعظم حضارة، وهذه الحضارة ولدت في ظل الإيمان، بل انبثقت منه، ونمت وازدهرت في ظله، ولم تخرج من ظله، إلا حينما أصابها الانحراف، وكما قال الإمام مالك رحمه الله: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها"¹⁸⁶!!

وإذا كان محور الدين هو إخلاص العبادة لله، وهو تزكية للنفس الإنسانية، وتطهير لها من

¹⁸⁵ ن: "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" محمد قطب، ط1، الرياض: دار الوطن للنشر، 1411هـ / 1991م، بتصرف ص: 131-135.

¹⁸⁶ ن: "تنقيح أحاديث التعليق" ابن عبد الهادي، يوسف بن عبد الهادي الحنبلي، تحقيق أيمن صالح شعبان، بيروت، دار الكتب العلمية، (3/ 442)

الأردان، قال تعالى: ﴿فَدَّ أَفْلَحَ مَن تَزَجَّي﴾¹⁸⁷؛ وهي من مهام الرسل - عليهم السلام - "وليست تزكية النفس بدورها إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق وجد... فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو كدورات الأهواء، والرعونات، يخلص صاحبها في تحمل كل ما يجب أن يتحمله في سبيل بني جنسه من المهام، والواجبات المختلفة، وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها، يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنسل، ابتغاء مصالحه، وأهوائه الشخصية، مهما تحلى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، وإذا فالوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقة، إنما هي عمارة الأرض"¹⁸⁸.

• المجال الاجتماعي (الإيمان يورث المحبة بين المؤمنين)

ومجال المحبة والتآلف بين أفراد المجتمع مجال خصب للإيمان؛ ومعلوم أن العمران ينشأ في مجتمع، ولا بد أن يكون هذا المجتمع قوي الأواصر بين أفرادها، وأقوى الروابط هي التي تقوم على الحب والإخاء، ولا يمكن بناء عمران أو حضارة إنسانية من أفراد يسود بينهم الكره والحقد، إذ لا بد لصناع الحضارة ومنشئي العمران أن يعملوا كفريق واحد مترابط، وهذا لا يتحقق إلا بالحب، بأن يحب بعضهم بعضاً، ويتفانى كل أفراد الفريق بأن يسد كل واحد منهم ثغرة، وبهذه الروح الحية النابضة يُقام العمران وتُبنى الحضارة، وهنا يبرز دور الإيمان؛ ويرى توينبي أن من أسباب سقوط الحضارة أن الصفوة تفقد روح التآلف والوحدة، فقال: "فإذا أصاب الصفوة تصدّع أو تدهور ففي حالات الهيئات الحاكمة لا تزال الجماعة بخير من الناحية السياسية ما دامت هذه الجماعة متحدة، أو متآلفة على الأقل، وفي هذه الحالة لا تتأثر الجماعة كثيراً بما نزل بها من خطوب، ما دامت صفوحتها القائدة سليمة، ولكن البلاء يأتي عندما تصاب هذه الصفوة،

¹⁸⁷ .الأعلى: 14.

¹⁸⁸ ن: "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"، محمد سعيد رمضان البوطي، ط2، دمشق: دار الفكر، (1419هـ/1998م)، ص24.

أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها، فتختلف كلمتها، وتعجز عن القيادة"¹⁸⁹

ومن نافلة القول أن أعظم الحب وأخلصه، هو الحب في الله، وهو ثمرة من أعظم ثمار الإيمان والتوحيد، وهو نعمة إلهية، وإشراق ربانية، ونور يقذفه الله في قلوب المؤمنين:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ لَوْ أَنبَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَتْ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾¹⁹⁰؛ وفي الحديث (والذي نفسي بيده لا تدخلوا

الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)¹⁹¹؛ وهو ما ظهر جليا في سياسة قائد هذه الأمة النبي محمد ﷺ لبناء

عمران الأمة الإسلامية وتأسيس قواعد حضارتها التي أظلت العالم بظلالها الوارفة وأنوارها الساطعة رذحا من الزمن، حيث: "استطاع رسول الله ﷺ أن يقيم رابطة العقيدة مقام رابطة الأسرة والدم، فوحد بين قلوب كانت متباينة، وبين أفراد فرقتهم بالأمس العصبية القبلية، وجمعهم اليوم شخصية فريدة قويّة، متصلة بالله تتلقى وحيا وأوامر إلهية وافية بمطالب البشرية الخلقية والروحية والحياتية"¹⁹²؛ وقد اتخذ ﷺ خطوتين لتحقيق ذلك - كما هو مقرر في السيرة - أولهما تجلّت في بناء المسجد، وهو أول عمل قام به ﷺ منذ لحظة حلوله بالمدينة، وأزدها ﷺ بخطوة ثانية كان لها الأثر العظيم في تقوية اللحمة الاجتماعية بين المسلمين، وهي المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، التي لم تقم على النسب وإنما قامت على التوحيد والإيمان؛ فتأمل !!

والجميع يدرك أنّ الإنسان بقدر ابتعاده عن الدين تتحكّم فيه أهوائه، ويضيع باتّباع اجتهاداته البعيدة عن توجيه الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ إِن تَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ

¹⁸⁹ راجع مثلاً: "الحضارة" لمؤنس حسن، ص 111-114

¹⁹⁰ الأنفال: 63

¹⁹¹ رواه مسلم في صحيحه: الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم: (54)

¹⁹² ن: "الحضارة العربية الإسلامية" للدكتور شوقي مرجع سابق ص: 196.

لَقَبَسَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ¹⁹³؛ وهو ما نبّه عليه ابن خلدون في قوله: "وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾¹⁹⁴؛ وسرّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف؛ وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتّحدت وجهتها، فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتّسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة"¹⁹⁵.

ومن هذه الركيزة الإيمانية أصبح المجتمع الإسلامي يشكل لحمة واحدة، كجسد واحد، (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)¹⁹⁶؛ وقد مثّل الرسول ﷺ المجتمع الإسلامي كبناء محكم مترابط يشد بعضه بعضاً، لأنه مجتمع إيماني يسوده الحب في الله، (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) وشبّك ﷺ أصابعه¹⁹⁷، فالمؤمنون مثّلهم كحجارة قوية في بناء محكم متين، والإيمان يشكل الرابط الذي يربط هذا البناء، ولولا هذا الرابط لظلت الأحجار متناثرة لا تشكل بناء، فالإيمان هو الذي وحد بينهم، وألّف بين قلوبهم، وبه نشأ البنيان وقوي، وهذا الترابط والقوة ضرورية لعملية البناء الحضاري العمراني، إذ المجتمع الإسلامي لم يعرف الطبقة المقيّنة كما في الديانة الهندوسية، أو كما عاشته أوروبا في العصور الوسطى، لأن المجتمع بني على أساس أخوة الدين والإيمان، ولما أظهرت النعرة الطبقة رأسها في المجتمع قضى عليها رسول الله ﷺ في مهدها، فلما عيّر أبو ذر رضي الله

¹⁹³ المؤمنون: 71

¹⁹⁴ الأنفال: 64

¹⁹⁵ ن: "المقدمة"، مصدر سابق، ص: 172

¹⁹⁶ رواه مسلم في صحيحه: البر، باب بيان تراحم المسلمين تعاطفهم، رقم: (2586)،

¹⁹⁷ رواه البخاري في صحيحه: الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره،

عنه رجلاً بأمه قال له النبي ﷺ: (أَعْيَرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ أَمَرُوْهُ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ)¹⁹⁸..

وهكذا نجد أن الإيمان يلعب دوراً مهماً في تقوية أواصر المجتمع بتربيتهم على المحبة والإيثار مما يقوي عمارتهم ويقيم حضارتهم..

• المجال التطبيقي العملي: (دور الإيمان في مجال العمل الصالح)

إن الإيمان الحق إذا مس القلب أحدث انقلاباً في تصورات الإنسان وانقلاباً في المشاعر، وانقلاباً في سلوك الإنسان مع ربه ونفسه والآخرين، ويتجلى جمال الإيمان الصحيح وعظمته حين يتحول إلى سلوك عملي عمري، إذ المقصود من الإيمان أن يتحول إلى سلوك عملي، فهو محرك العمران - كما سبق أن بيّنت - ولذا فإن الجليل سبحانه غالباً ما يقرن الإيمان بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾¹⁹⁹؛ فالعمل الصالح جزء من الإيمان، فالمؤمن يعلم أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيستحضر مراقبة ربه عز وجل له، ويجانب المعصية، وقد يقع في المعصية فيتذكر سعة رحمة الله، وأنه التواب فيبادر إلى التوبة، وعندما يوقن أن الله هو النافع الضار فلا يخشى أحداً إلا الله، وعندما يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فلا يطلب الرزق من غيره، وهكذا يترك الإيمان أثراً بالغاً في العقل، والنفس، والوجدان، والسلوك، ولعل هذا الفهم هو الذي يرمي إليه الرسول ﷺ بقوله: (إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة)²⁰⁰، وهذا هو الفهم الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم من الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، وجاء في الأخبار بينا سيدنا عمر رضي الله عنه يسيّر في أزقة المدينة المنورة ليلاً فإذا به يسمع صوت امرأة تقول لابنتها: يا بنية

¹⁹⁸ . رواه البخاري في صحيحه: الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية

¹⁹⁹ . البقرة: 25

²⁰⁰ . رواه مسلم في صحيحه، الذكر، باب في أسماء الله تعالى، رقم: (2677)،

اخلطي الماء باللبن، فقالت الفتاة لأُمها: إن عمر نَهانَا عن ذلك، فقالت الأم: إن عمر لا يرانا، فقالت الفتاة: إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا²⁰¹.

فالعمل الصالح ما هو إلا ثمرة بديهية للإيمان الصحيح، ومن لوازمه؛ فكيف يستقيم أمر الدنيا ويُقام عمرانها بدون الإيمان بالله وحبّه، والخشية منه؟! لا شك أن الإنسان في هذه الحالة سيفقد الثقة بأقرب الناس إليه، لأن القانون الذي سيسود هو المصلحة والنفعية، ومن المعلوم أننا لا نستطيع أن نعيش في مجتمع مادي بحت، لا تحكمه قيم عليا وأخلاق مثلى؛ وقيام الحضارة الإنسانية وعمرانها لا يتم إلا من خلال سيادة القيم، والعمل الدؤوب، وهذا ما يكفله الإيمان الصحيح؛ وهو ما تدلّ عليه قاعدة: (التوحيد والإيمان عمران؛ والشرك والكفر خراب للإنسان) العمرانية التي نحن بصدددها..

تلك مجالات عمرانية ثلاثة انتخبناها تبرز فيها أهمية هذه القاعدة ومكانتها الحضارية، ولا تزال هناك مجالات أخرى لم أعرج عليها خشية الإطالة؛ وانتقل الآن إلى المطلب الأخير لهذه القاعدة..

²⁰¹ . ن: "مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" ابن الجوزي، عبد الرحمن، تحقيق علي محمد عمر، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1417هـ/1997م، بتصرف، ص95.

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

بعد هذه الجولة المتأنية مع هذه القاعدة العمرانية الكبرى في محطاتها المتنوعة، بدءاً بدلالاتها مروراً بأدلتها ثم أهميتها ومجالاتها العمرانية؛ أنتقل إلى دورها الاستشرافي لعمران الأمة خصوصاً والإنسانية عموماً، والمتأمل في القاعدة باستحضار دلالاتها وأدلتها ودورها في مجالات العمران كلها، ليقن أن المسلمين لو أخذوا بهذه القاعدة لاستطاعوا أن يستردّوا مجدهم المسلوب وعزّهم المفقود في المستقبل القريب، ولتمكّنوا من إعادة بناء عمرانهم التليد وحضارتهم الوارفة الضلال، وذلك لاعتبارات عدّة نُجملها فيما يلي:

• الإيمان والتوحيد يعطي دفعة قوية لحركة العمران:

وهذه أول لمسة استشرافية لهذه القاعدة العمرانية، حيث إن التوحيد يُعطي دفعةً قوية لحركة الحياة والعمل، ويضفي قدسية على الحياة ليكون لها معنى سامٍ باعتبارها مزرعة الآخرة: ﴿وَقُلْ إِعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾²⁰²؛ قال الإمام الرازي في مفاتيحه: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم، فيه ترغيب عظيم للمطيعين، وترهيب عظيم للمذنبين، فكأنه تعالى قال: اجتهدوا في المستقبل، فإن لعملكم في الدنيا حكماً وفي الآخرة حكماً؛ أما حكمه في الدنيا فهو أنه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وإن كان معصية حصل منه الذم العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة؛ فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعهده"²⁰³؛ فقله (اجتهدوا في المستقبل) دليل على المعنى الاستشرافي للآية، أما قوله (فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعهده) فمعناه كل ما يتعلق بالعمران بجميع مجالاته، وهو ما

²⁰² التوبة: 106

²⁰³ ن: "مفاتيح الغيب" للإمام الرازي؛ مصدر سابق (142/16)

قصده من كون الإيمان والتوحيد لهما دور استشرافي لعمران الأمة، لأنهما يجعلان العمل جزءاً لا يتجزأ عنهما..

وقد سبق أن ذكرت كلاماً للدكتور القرضاوي في غاية الروعة، أكرّره هنا للحاجة إليه، يقول - حفظه الله - : "الإسلام حريص على أن يدفع المسلمين ليعملوا ويكدحوا في إطار السنن الكونية ، للإنتاج والكسب والتنمية، ولا يتوانوا عن ذلك، ويدعّوا غيرهم من الأمم يأخذون زمام المبادرة منهم ، بل عليهم أن يتقربوا إلى الله بالعمل في عمارة أرضه، ويعبّدوا ذلك من العبادة التي خلقهم الله لها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²⁰⁴؛ وهو أيضاً جزء من مهمّة الخلافة التي اختارهم الله للقيام بها، حين قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾²⁰⁵؛ وكانت عمارة الأرض ضمن هذه الخلافة، ولذا كان رسل الله يذكرّون بها أقوامهم²⁰⁶؛

ومّا يؤكّد هذا أنّ الفقهاء جعلوا تعلم أصول الحراثة والزراعة والصناعة ونحوها ممّا تتم به المعاش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية التي إن لم تحقّق للأمة كفايتها منها كانت آثمة لتقصيرها في تنفيذ مراد الله؛ وقد قرّر المحقّقون من علماء الأمة: كالغزالي والقرافي و الشاطبي و النووي و العز بن عبد السلام، و ابن تيمية وغيرهم²⁰⁷: أن كلّ صناعة يحتاج إليها المسلمون، فإن تعلّمها وإتقانها وتوافرها فرض كفاية على الأمة، تأثم الأمة كلها بعدم تحصيلها تحصيلاً كافياً.. وكذلك العلوم بكل أصنافها وأنواعها، مثل علم الطب والتشريح والهندسة والفلك والكيمياء الفيزياء وغيرها؛ وسواء كانت الأمة تحتاج إليه في المجال المدني أم في المجال العسكري، حتى تحمي دارها وأهلها من أعدائها، وحتى تكون في مأمن من خطرهم وشرّهم.

²⁰⁴ الذاريات: الآية 56.

²⁰⁵ البقرة: 30

²⁰⁶ ن: " مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال " للقرضاوي، بتصرف، مرجع سابق، ص: 24 25

²⁰⁷ ن: مثلاً "إحياء علوم الدين" (1/ 16)؛ و "روضة الطالبين" (10/ 223)، و"قواعد الأحكام في مصالح الأناس" (1/ 4)، و "مجموع الفتاوى" لابن تيمية: (28/ 79)، (29/ 194).

والقصد من هذا كله أنّ الأمة لو آمنت حقاً وتديّنت صدقاً، لكان لذلك الأثر الكبير على مستقبلها العمراني وكيانها الحضاري، ولن تبقى في هذه الحال المزرية التي فقدت فيها أسباب عزّها وريادتها؛ كذلك كان، والله المستعان!!

• الإيمان يورث الصبر، وهو الزاد لتحمل تكاليف العمران:

بناء العمران وإنشاء الحضارة ليس بالأمر الهين، بل يحتاج إلى تعب، وعمل جاد، وصبر، فالحضارة إذاً لا تبنى إلا على سواعد رجال قد وطّئوا أنفسهم على الصبر، وتحمل المشاق في سبيل رفع راية الأمة، وهم بحاجة إلى الصبر حتى بعد قيام عمرانهم لئلا يبطروا ولا يعصوا الله، والإيمان هو الزاد لتحمل تكاليف العمران و أعباء الحياة و مشاقها، لأن الحياة مليئة بمتاعب كثيرة، والإيمان هو الذي يعطي الإنسان الصبر على لأواء الحياة، وبلائها، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: (الصبر والسماحة) ²⁰⁸؛ والعبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، فلا يخلو الصبر من نوعين: فالحياة إما بلاء ومشقة ومرض فيحتاج المؤمن إلى صبر حتى لا ييأس ولا يقنط، وإما صحة ومتاع دنيا فيحتاج إلى صبر حتى لا يبطر، ولا يطغى، ولا يركن إليها، فهو في جميع الأحوال يراعي حق الله تعالى، والمؤمن يعلم حق العلم أن الدنيا دار ابتلاء، وقد أعد الله للصابرين أجراً عظيماً، ويستقل المؤمن كل المتاعب في جنب الله لما أعدّه الله تعالى من الأجر الجزيل للصابرين، وهكذا يثبت المؤمن على خط واحد في اليسر والعسر، شكر في النعمة، وصبر في المصيبة، وفي الحديث (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له) ²⁰⁹.

• الإيمان يورث الشجاعة لإقامة العمران والحفاظ عليه:

"لا شك أن الأمم التي يتحلى أفرادها بالشجاعة والبسالة والإقدام أقدر على التغلب

²⁰⁸ . رواه البيهقي، أحمد بن حسين، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، ط1، بومباي: الدار السلفية، 1406هـ/1986م، رقم: (9262).

²⁰⁹ . رواه مسلم في صحيحه: الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم: (2999).

وانتزاع الملك مما في أيدي سواهم من الأمم²¹⁰؛ والإيمان كما مرّ بنا يولد قوة إضافية للعمل، كما يولد لدى الفرد جملة من الفضائل الكريمة منها: الجرأة والشجاعة والإقدام؛ والشجاعة مطلوبة في كل ميادين الحياة، لأن الإيمان يغرس في النفوس أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى، فما دام متوكلاً عليه معتمداً عليه فلا يرهب باطلاً، ولا يخشى ظالماً، والثقة بالله ورجاء ما عنده كنز من الآمال الصادقة لا ينفد ولا يزول، ولا يعرف اليأس والقنوط، فلو تقطعت بالمؤمن السبل جميعاً يعلم أن الله لا يخذله، ولو وقف أهل الأرض جميعاً في وجهه لا ينقطع رجاءه بالله، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾²¹¹..

والشجاعة مطلوبة لاستنهاض الأمة للانبعاث الحضاري والبناء العمراني، وذلك يقتضي المواجهة مع المتقاعسين والمتخاذلين، ولا يصمد إلا من كان عنده الشجاعة، والصبر على البلاء، وفي سير الأنبياء - عليهم السلام - خير دليل على ذلك، فسيدنا رسول الله ﷺ لم تلن له قناة وهو يدعو قومه، مع ما لاقاه من صد وإعراض، وإيذاء، ولكن مع ذلك استطاع بشجاعته أن يُقيم عمراناً لم يعرف له التاريخ مثيلاً..

ثم إنّ الشجاعة مطلوبة للمحافظة على حضارة الدولة وعمرانها، ففي يوم بدر الكبرى حرض الرسول ﷺ المسلمين على القتال، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)) قال: يقول عُمير بن الحُمَام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض، قال: (نعم) قال: بخ بخ، فقال: رسول الله ﷺ: (ما يملكك على قولك بخ بخ) قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: (لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة) قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى

²¹⁰ ن: "المقدمة" لابن خلدون، بتصرف، ص: 98-99.

²¹¹ التوبة: 106

212 ((قتل

• الإيمان سبب السعادة الحقيقية والراحة والطمأنينة:

الإنسان المتشائم الشقي، والمحزون المكلم، لا قدرة له على العطاء، لأن الحياة في نظره لا تستحق كل هذا العناء، فالمحزون المتشائم لا يمكن أن يقيم حضارة أو يُنشئ عمراناً، بل الذي يقيم الحضارة هو السعيد المتفائل، الذي يرى في المستقبل غداً مشرقاً، والإيمان هو الباعث على الرضا والطمأنينة لأن "القلب لا يصلح ولا ينعم، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة الله وحده، وحبه، والإنابة إليه"²¹³.

فالإنسان مهما أوتي من أمر الدنيا فإذا ظل بعيداً عن الله فلن يجد راحة ولا طمأنينة، لأن الإنسان مركب من الجسد والروح، فكما أن للجسد متطلبات وغذاء فكذلك للروح غذاء، وقد ذكرت - قبل هذا - أن عمران الروح هو أساس العمران المادي؛ فالإيمان هو الذي يغذي جانب الروح، والسعادة والطمأنينة ضروريتان لعطاء الإنسان، وإبداعه، لإعمار الكون، فالمؤمن متفائل أبداً، واثق بكرم مولاه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾²¹⁴.

والإيمان يُشعر المؤمن بالانسجام والراحة والطمأنينة، ولا يعرف حقيقة هذه النعمة إلا من فقدوها، فالذين يعيشون في ظل عقيدة مهتزة، غير يقينية، يعيشون في قلق واضطراب: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَرْيَبٌ﴾²¹⁵؛ وهكذا إذا لامس الإيمان شغاف القلوب أغناها وأسعدها، وزرع فيها الثبات، والطمأنينة، والثقة بما عند الله، والفرح بالله، والأنس به حتى في أحلك الأوقات، وعند

²¹² رواه مسلم في صحيحه: كتاب الإمامة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم: (1901) ..

²¹³ ن: "رسالة العبودية" لابن تيمية، مصدر سابق، ص 47.

²¹⁴ الرعد: 28

²¹⁵ الشورى: 14

المللمات والخطوب، وكل هذه المعاني السامية ضرورية للعمران فتأمل !!

هذه لمسات يتبين من خلالها أن هذه القاعدة العمرانية لها استشراف عظيم
لعمران الإنسان، ولو أن الأمة الإسلامية أخذت بهذه القاعدة، وقامت بتفعيلها
وتنزيلها في كل مجالات الحياة لاستطاعت أن تُغيّر الكثير من أوضاعها المزرية،
وأن تجدَ الحلول الناجعة لكثير من المعضلات التي تعاني منها اليوم، سواء على
مستوى الأفراد أو الحكومات أو الدول !!

الفصل الثاني

قواعد عمرانية متعلقة بالعبادات

من المعلوم لكل دارس للشرعية الإسلامية أنّ للعبادات مقاصد جليّة ومتنوعة، تحدّث عنها العلماء قديما وحديثا، ومن هذه المقاصد والأهداف المتجلّية في العبادات هي تلك المتعلقة بالجانب العمراني بشقيه الروحي والمادي، سواء تعلّق الأمر بالفرد أو المجتمع؛ وهنا أذكر كلاما للعلامة ابن عاشور - إمام المقاصد في العصر الحديث - نظرا لجودة كلامه وأهميته في هذا الصدد، حيث يقول في المقدمة الرابعة من تفسيره:

"إن القرآن - ومنه العبادات فهي واردة فيه - أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم (...). فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية؛ فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر؛ وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، (...) وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذا هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع.²¹⁶"

فقد "وضع الإسلام للتركيزية نظاما متكاملا معجزا كسائر نظم الإسلام، كفيلا بتحقيقها على أتم وجه وأكمل، فمن بوابات تركية النفس الأساسية "العبادات"؛ فالعبادات في الإسلام تحمل عمقا فلسفيا وروحيا يجعل كل عبادة أو شعيرة (الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج...) نظاما واسعا قادرا على بناء النفس الإنسانية في كل جوانبها الجسدية والنفسية والروحية والعقلية، ومن العبادات تتأسس اللبنة الأولى للتركيزية التي تظهر آثارها وانعكاساتها على السلوك الإنساني (...). وهذا يتم بالكشف عن علاقة العقيدة بتحرير الوجدان الإنساني بعد تنقية تصوراتها، ثم يتبع ذلك تركية السلوك الفردي من خلال

²¹⁶ ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور، مرجع سابق بتصرف زيادة ونقصانا، (38 / 1)

الكشف عن علاقة التوحيد والإيمان بتحرير الوجدان واستقامة الإنسان على السبيل الذي رسمه الخالق العظيم؛ فهناك **العبادات الفردية، والعبادات الجماعية، والواجبات العينية والواجبات الكفائية**"²¹⁷ ..

من خلال هذين النصين يتضح لنا أنّ للعبادات مقاصدَ عمرانية وأهدافا تربوية حضارية، وسنحاول أن نرصد بعض القواعد العمرانية المتعلقة بأركان العبادات، مُخصّصين لكل قاعدة مبحثا مستقلا، يندرج تحته مطالب لفحص القاعدة واستكناه حقائقها، واستشراف نتائجها العمرانية..

ونكتفي هنا بإيراد قاعدتين اثنتين نراهما يحققان الغرض المقصود والهدف المنشود؛ نخصص لكل واحدة منهما مبحثا مستقلا كما يلي:

المبحث الأول: قاعدة (الصلاة عمود العمران وروحه)

المبحث الثاني: قاعدة (الزكاة فريضة شرعية وضرورة عمرانية)

²¹⁷ ن: " الأسرة في مقاصد الشريعة" زينب طه العلواني، ط: 1؛ سنة: 1434هـ/2013م؛ بتصرف ص: 76- 77 .

المبحث الأول: قاعدة (الصلاة عمود العمران وروحه)

هذه قاعدة عمرانية تتعلق بأصل من أصول العبادات، وهو الصلاة، ارتأيت البدء بها باعتبارها من أهم القواعد العمرانية المتعلقة بالعبادات؛ فما مفهوم هذه القاعدة ودلالاتها؟ وما هي براهينها وأدلتها؟ وأين تتجلى قيمتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية لعمران الأمة؟

هذه مجموعة من التساؤلات نوردتها على كل قاعدة، إذ بالإجابة عنها يتّضح دور القاعدة العمراني، وهو ما يقتضي تخصيصنا لكل تساؤل مطلباً مستقلاً نوضح من خلال الجواب عنه جانباً معيناً من جوانب تلك القاعدة..

وهذه المطالب تأتي كما يلي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وبراهينها:

المطلب الثالث: قيمة القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

نشير بادئ ذي بدء إلى أن هذه القاعدة اقتبسناها من حديث سيدنا رسول الله ﷺ المروي عن معاذ رضي الله عنه، وفيه: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد)²¹⁸

أمّا عن مدلول القاعدة "الصلاة عمود العمران وروحه" فلا بد من تناول مفرداتها بالبيان والتوضيح، إذ بيان الكل يعتمد على بيان الجزء..

أمّا الصلاة فمعناها لغة ما ذكره صاحب اللسان، نلخصه فيما يلي: "صلا: الصلاة: الركوع والسجود (...)"؛ والصلاة: الدعاء والاستغفار (...)"؛ قال الأزهري: هذه الصلاة عندي الرحمة؛ ومنه قوله عز وجل: إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً؛ فالصلاة من الملائكة دعاء واستغفار، ومن الله رحمة، وبه سميت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار (...)"؛ وأما قوله تعالى: أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة (...)"، قال ابن الأعرابي: الصلاة من الله رحمة، ومن المخلوقين الملائكة والإنس والجن: القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح؛ والصلاة من الطير والهوام التسبيح؛ وقال الزجاج: الأصل في الصلاة اللزوم. يقال: قد صلي واصطلى إذا لز، ومن هذا من يصلى في النار أي يلزم النار (...)"؛ إنما الصلاة لزوم ما فرض الله تعالى، والصلاة من أعظم الفرض الذي أمر بلزومه؛ والصلاة: واحدة الصلوات المفروضة (...) وهي العبادة

²¹⁸ جزء من حديث أخرجه الترمذي عن معاذ رضي الله عنه، و قال حديث حسن صحيح؛ و نصه: (عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ : الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ يعملون ﴾ ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد؛ ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟».

المخصصة، وأصلها الدعاء في اللغة فسميت ببعض أجزائها، وقيل: أصلها في اللغة التعظيم، وسميت الصلاة المخصصة صلاة لما فيها من تعظيم الرب تعالى وتقدس²¹⁹ وفي الشرع عرفها ابن عرفة بقوله: "قربة فعلية ذات إحرام وسجود فقط"²²⁰، ويدخل في هذا التعريف سجود التلاوة، وعرفها الجرجاني بقوله: "عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة، بشرائط محصورة، في أوقات مقدرة"²²¹ وبعد تعريفنا للصلاة لغة وشرعا نتقل إلى تعريف المصطلح الثاني المكون للقاعدة، وهو "عمود"

يقول ابن فارس: " (عمد) العين والميم والبدال أصل كبير، فروعه كثيرة ترجع إلى معنى، وهو الاستقامة في الشيء، منتصبا أو ممتدا، وكذلك في الرأي وإرادة الشيء (...) قال الخليل: والعمد: أن تعمد الشيء بعماد يمسكه ويعتمد عليه؛ قال ابن ذرّيد: عمدت الشيء: أسندته؛ والشيء الذي يسند إليه عماد، وجمع العماد عمد، ويقال عمود وعمد؛ والعمود من خشب أو حديد، والجمع أعمدة؛ ويكون ذلك في عمد الخباء (...) وعمود الأمر: قوامه الذي لا يستقيم إلا به؛ وعميد القوم: سيدهم ومعتمدهم الذي يعتمدونه إذا حز بهم [أمر] فزعوا إليه"²²²

وقال صاحب اللسان: "والعمود: الخشبة القائمة في وسط الخباء، والجمع أعمدة وعمد، والعمد اسم للجمع، ويقال: كل خباء معمد(..) وعميد الأمر: قوامه، والعميد: السيد المعتمد عليه في الأمور أو المعمود إليه"²²³

²¹⁹ ن: "لسان العرب" لابن منظور؛ مرجع سابق، بتصرف (14/ 464 466)

²²⁰ ن: "الهداية الكافية الشافعية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية"؛ ل محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي (ت: 894هـ) الناشر: المكتبة العلمية؛ الطبعة: الأولى، 1350هـ؛ ص: 65

²²¹ ن: "التعريفات" للجرجاني؛ مرجع سابق؛ ص 134.

²²² ن: "مقاييس اللغة" لابن فارس، مصدر سابق، بتصرف (4/ 137 138)

²²³ ن: "لسان العرب" لابن منظور، مرجع سابق، بتصرف (3/ 303 305)

فإذا كانت الصلاة سواء بالمعنى اللغوي الذي يشمل الدعاء والاستغفار والرحمة من الله والتسبيح والزموم، أو بالمعنى الشرعي الذي هو العبادة المخصوصة المعروفة التي تشمل كل المعاني اللغوية، إذ هذه الأخيرة كلها مندرجة تحت المعنى الأول - أي الشرعي - ؛ ومن ثمّ فإنّ المقصود من الصلاة في القاعدة التي بين أيدينا هو المعنى الشرعي، أي هي العبادة المعهودة في الشرع؛ وبالتالي فإنّ هذه العبادة هي عمود العمران وروحه، أي هي قوامه الذي لا يستقيم إلا به، إذ عمود الأمر - كما قال ابن فارس - قوامه الذي لا يستقيم إلا به، أمّا قولنا و"روحه" فهو زيادة توضيح لمعنى عموده، إذ روح الشيء هو جوهره وسرّ حياته؛ فتأمل !!

استنتاج وخلاصة:

وبالتالي فبناء على هذه القاعدة العمرانية نستنتج أنه لا عمران بغير صلاة؛ فإذا كان الدين لا قومة له إلا بالصلاة، إذ هي عموده وروحه؛ وقد سبق أن قرّرنا من خلال قاعدة: (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)؛ أنه لا عمران بالمفهوم الذي أصّلنا إلا بالتوحيد؛ فنستنتج منه أنه لا عمران أيضا إلا بالصلاة بناء على قولنا: لا عمران إلا بالتوحيد ولا توحيد إلا بالصلاة، فينتج عنه: لا عمران إلا بالصلاة، وهذا معنى قولنا في القاعدة: (الصلاة عمود العمران وروحه).. وهو ما سنؤكّده بأدلّته في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية وحججها

إنّ أدلة هذه القاعدة العظيمة كثيرة ومتنوعة، سواء كانت من نصوص الشريعة الإسلامية مباشرة، أو من أقوال أهل العلم استنباطاً من تلك النصوص الشرعية؛ وهو ما يُنبئ عن أهميتها ودورها العمراني، ويوجب الاهتمام بها ودراستها دراسة عميقة مستوعبة، فينفع الله بها البلاد والعباد، في المعاش والمعاد..

وسأعرض جملة من الأدلة الشرعية تُبرز أهمية الصلاة ودورها في تحقيق مصالح الإنسان ومنافعه ودرء المفاسد عنه، وبالتالي إقامة عمران الروحي أصالة، وعمرانه المادي تبعاً؛ ومن تلك الأدلة عينها يُؤخذ ما يدلّ - منطوقاً أو مفهوماً - على خطورة إهمال الصلاة وعواقب ذلك على عمران الإنسان في الحال أو المآل!!

ولتكن البداية من الحديث الذي اقتبست منه هذه القاعدة العمرانية، ونصه: (عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ : الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ يعملون ﴾ ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد..²²⁴ الحديث؛ فهذا الحديث هو عمدة قاعدتنا، إذ هي - أي القاعدة - على وزن قوله ﷺ (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة..).

وفي رواية للإمام أحمد؛ ((ثم قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (إن شئت حدثتك يا معاذ برأس هذا الأمر، وقوام هذا الأمر وذروة السنام)؛ فقال معاذ: بلى بأبي وأمي أنت يا نبي الله فحدثني؛ فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله

²²⁴ رواه الترمذي؛ وقال هذا حديث حسن صحيح؛ رقم: 2616

وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وإن قوام هذا الأمر إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله..))²²⁵..

إنَّ أول شيء نلاحظه من خلال الروایتين الآنف ذكرهما من حديث النبي ﷺ هو أن الصلاة حاضرة بقوة في تحقيق منافع الدنيا والآخرة وإنتاج خيري المعاش والمعاد، هذا أولاً؛ وثانياً أن كلمات الحديث وازنة من حيث الدلالة فهي تشهد بحق على صدق قاعدتنا العمرانية، وذلك أن: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة؛ فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاط إلا به ولا يثبت إلا به، ولو سقط العمود لسقط الفسطاط ولم يثبت بدونه؛"²²⁶ "ويعني بالأمر: الدين الذي بعث به وهو الإسلام، وقد جاء تفسيره في الرواية الأخرى بالشهادتين، فمن لم يقرَّ بهما ظاهراً وباطناً، فليس من الإسلام في شيء؛ وأما قوام الدين الذي يقوم به الدين كما يقوم الفسطاط على عموده، فهو الصلاة"²²⁷؛ ولتوضيح هذا الأمر أكثر فقد: "قال التوربشتي: أراد بالأمر هنا: أمر الدين، وبالإسلام كلمتي الشهادة، يعني ما لم يُقرَّ العبدُ بهما لم يكن له من الدين شيء أصلاً، وإذا أقرَّ بهما حصل له أصل الدين، إلا أنه ليس له قوَّة وكمال، كالبيت الذي ليس له عمود، فإذا صُلِّي وداوم على الصلاة قوي دينه، ولكنه لم يكن له رِفْعَةٌ وكمال، فإذا جاهد حصلَ لدينه الرِفْعَةُ"²²⁸..

²²⁵ . رواه الإمام أحمد ابن حنبل (36 / 434)

²²⁶ . ن: "جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم"؛ لابن رجب الحنبلي (ت: 795هـ)؛ المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس؛ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت؛ الطبعة: السابعة، 1422هـ - 2001م؛ (1/ 147)

²²⁷ . نفس المصدر (2/ 812)

²²⁸ . ن: "قوت المغتذي على جامع الترمذي"؛ لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)؛ إعداد الطالب: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، إشراف: الدكتور سعدي الهاشمي؛ رسالة الدكتوراة - جامعة أم القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة؛ عام النشر: 1424 هـ (2/ 689)

إذن من خلال ما سبق نستنتج أنه لا دين لمن لا صلاة له، وهو منطوق حديث سيدنا رسول الله ﷺ: (بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة)²²⁹؛ وحديث: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر)²³⁰؛ ولذلك قال عمر رضي الله عنه: " لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وقال سعد وعلي بن أبي طالب: تركها، فقد كفر؛ وقال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر غير الصلاة؛ وقال أيوب السخيتاني: ترك الصلاة كفر، لا يختلف فيه؛ وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف، وهو قول ابن المبارك وأحمد وإسحاق، وحكى إسحاق عليه إجماع أهل العلم! وقال محمد بن نصر المروزي: هو قول جمهور أهل الحديث؛ وذهب طائفة منهم إلى أن من ترك شيئاً من أركان الإسلام الخمسة عمداً أنه كافر بذلك؛ وروي ذلك عن سعيد بن جبير ونافع والحكم، وهو رواية عن أحمد اختارها طائفة من أصحابه، وهو قول ابن حبيب من المالكية²³¹

ولفريد الأنصاري رحمه الله كلمة مؤجّهة في هذا الموضوع، يقول فيها: " الدين هو العبادة؛ والعبادة هي الصلاة! نعم، لعبادة الله أشكال شتى من الفرائض والنوافل والأعمال والحركات (...) ولكن ذلك كله مجموع في معنى الصلاة؛ فلا شيء من ذلك يكون عبادة حتى يرتقي إلى معنى الصلاة، ذوقاً ووجداناً!! ولذلك كانت الصلاة هي أعظم ما في الدين!! "²³²

ومما يؤكّد أن الصلاة عمود العمران، ولا عمران على وجه الحقيقة من غير صلاة، أنه سبق من خلال تعريفنا للعمران في اللغة أنّ من معانيه كما قال صاحب اللسان:

وَعَمَرَ فَلَانٌ رَكَعَتَيْنِ إِذَا صَلَّاهُمَا، وَهُوَ يَعْمُرُ رَبَّهُ أَيُّ يُصَلِّي وَيَصُومُ. (...)؛ يُقَالُ رَجُلٌ عَمَّارٌ إِذَا كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ كَثِيرَ الصِّيَامِ؛ وَرَجُلٌ عَمَّارٌ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْإِيمَانِ الثَّابِتُ فِي

²²⁹ . رواه مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري

²³⁰ . رواه الترمذي رقم: 2622؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: 4143..

²³¹ ن: "جامع العلوم والحكم" لابن رجب الحنبلي مصدر سابق (1/ 147)

²³² ن: " (جمالية الدين)" مرجع سابق؛ بتصرف؛ ص 193

أمره التَّخِينُ الْوَرِعُ²³³؛ إذن فيها نحن نجد أنفسنا في الجانب اللغوي مع شاهد قوي على كون الصلاة عمراناً، ويمكن أن نؤكد على هذا بقول للإمام الراغب الأصفهاني - و قد سبق أن ذكرته، أذكر بعضاً منه للحاجة إليه ها هنا - ونصه: " لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسه ونجسه، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة (..)؛ لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل، فكل إناء بالذي فيه ينضح (...) ولهذا قيل: من طابت نفسه طاب عمله، ومن خبثت نفسه خبث عمله، (..) بل قد أشار تعالى إلى ذلك بقوله (..) : (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا²³⁴)

فإذا كان لا يصلح لخلافة الله تعالى - حسب كلام الراغب - ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس، وهو كذلك! فهنا يتجلى دور الصلاة لتأهيل الإنسان للقيام بوظيفة العمران؛ وهو ما أفصحت به آية من كتاب الله تعالى القائل فيها: ﴿وَأَمِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾²³⁵؛ وهذه آية عجيبة تبين دور الصلاة في صناعة الإنسان ليكون صالحاً للعمران؛ أو بتعبير الراغب الأصفهاني أن الصلاة تعمل على تطهير نفسه ليكون صالحاً لخلافة الله في أرضه ليعمرها؛ فهي - أي الصلاة - كما يقول الأديب الأريب فريد الأنصاري - رحمه الله - قد أسند الله تعالى فعل النهي إليها: "كأنها هي ذاتها شخص معنوي في هيئة نبي مرسل يؤدي مهمة تبليغية، أو عبد مصلح يقوم بوظيفته الإصلاحية!! (...) لأن معنى أن تصلي هو أن ترحل عن خطاياك إلى الله. تخرج من دركات العادة إلى درجات العبادة، وهذا يعبر عن حقائق لا يعلم عمقها إلا الله! إذ تتحول الأذواق وتبدل (...)

²³³ ن: " ن: " لسان العرب"، مرجع سابق؛ بتصرف (4 / 602)، وما بعدها،

²³⁴ ن: " الذريعة إلى مكارم الشريعة"؛ الراغب الأصفهاني؛ مصدر سابق؛ بتصرف (1/ 86، 87)

²³⁵ العنكبوت: 45

وتصبح خلقاً آخر (...) إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر²³⁶ نعم إن الصلاة صناعة للإنسان لبناء العمران، وبذلك كانت الصلاة عمود العمران وروحه؛ تلك حقيقة لمن تأمل وأبصر!!

ومن أجل تحقيق ذلك أمر الله تعالى عباده بالمحافظة على هذه الصلاة، فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾²³⁷؛ ولأجل ذلك لم تسقط حتى على المقاتلين وهم في مواجهة العدو في المعركة فقال سبحانه بعد تلك الآية الأنف ذكرها مباشرة: ﴿إِن خِفْتُمْ قَرِيبًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾²³⁸؛ وبذلك كانت مناط تحقيق الفلاح والصلاح، فقال عز من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْيَرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾²³⁹

فها أنت ترى معي يا صاح أن أول وسيلة لتحقيق الفلاح والصلاح هي الصلاة، وأن آخرها هي الصلاة؛ فهي الفاتحة والخاتمة!! وهي البداية والنهاية!! بل ربط الخالق سبحانه هذه الفريضة بالوقت - الذي من معانيه العمران كما بيّنا قبل - فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ

²³⁶ ن: "بلاغ الرسالة القرآنية" لفريد الأنصاري، دار السلام، ط: 1 سنة: 1430 هـ / 2009 م، بتصرف؛ ص: 115

²³⁷ البقرة: 238

²³⁸ البقرة: 239

²³⁹ المؤمنون من: 1 إلى: 11

كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْفُوتًا ﴿٢٤٠﴾ ..

يقول فريد الأنصاري في لمسة إيمانية عمرانية عجيبة: "كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. نعدّه بالصلاة عدا.. ذلك أنّ الأوقات الخمسة رموز لليوم كلّ: فجرًا، فظهرًا، فعصرًا، فمغربًا، فعشاء! (...). فالوقت كله إذن هو الصلاة! أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمر كله (...). وإنما فرض الله الصلاة عمرًا، لا حركة ولا سكونة إلا صلاة! ألم يفرضها الله عز وجل أول ما فرضها خمسين صلاة؟ ثمّ خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات! فإنما الحسنة بعشر أمثالها!"²⁴¹

هكذا كانت الصلاة مرتبطة بعمر الإنسان، أي أنها تعمر الإنسان، فكانت بذلك عمرانا بهذا الاعتبار؛ وباعتبار ما تُحدثه من تجلّيات على شخصية الإنسان وصناعته بما بيّنا قبل، فهي عمود العمران وروحه؛ ولذلك كانت إضاعتها أو التهاون بها خسارة للإنسان وخراباً للعمران!!

وقد قارن القرآن الكريم بين الأنبياء - عليهم صلوات الله و سلامه - الذين أقاموا عمرانهم على الصلاة وبين الخلف الذين جاءوا من بعدهم ممّن ضيّعوها أو فرطوا فيها، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝ ﴿٢٤٠﴾ (٢٤٠) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْفُوزُونَ غِيًّا﴾²⁴²؛ ومن ثمّ جعل النبي ﷺ الصلاة خير الأعمال بعد الإيمان على الإطلاق، فقال: (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)²⁴³؛ هكذا بيّن النبي ﷺ في كلامه الجامع أن الصلاة هي أفضل الأعمال التي يقوم بها المؤمن بناء لعمرانه الروحي أصالة ثم

²⁴⁰ النساء: 103

²⁴¹ ن: "قناديل الصلاة" لفريد الأنصاري، مرجع سابق، بتصرف؛ ص: 101

²⁴² الذاريات: الآية 56.

²⁴³ رواه أحمد وأحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وغيرهم، وصححه الألباني في الجامع الصغير رقم 952

عمرانه المادي تبعا!!

استنتاج:

وهكذا أثبتت تلك الأدلة بمنطوقها ومفهومها أنّ الصلاة عمود العمران وروحه
طبقاً للقاعدة العمرانية (الصلاة عمود العمران وروحه) التي نحن بصدددها، والله
المستعان!!

المطلب الثالث: قيمة القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال الجواب عن السؤالين الأولين في المطلبين السابقين ننتقل إلى الجواب عن السؤال الثالث، والمتعلق بدور القاعدة وأهميتها، ثم بيان مجالاتها العمرانية، وهو ما نخصّص له هذا المطلب كاملاً..

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى قاعدتنا العمرانية (الصلاة عمود العمران و روحه) من خلال تناولنا لمفهومها وأدلتها ألفيناها ذات دور عمراني كبير، لأنّ الصلاة - كما يقول فريد الأنصاري رحمه الله - "هي العبادة التي يدخل من خلالها الإنسان إلى نسق الكون ليدور بفلك العابدين سيرا إلى الله العلي الكبير، في صحبة الكائنات السائرات من النباتات إلى المجرات، لا فوضى و لا عصيان ولا تمرد، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾"²⁴⁴.²⁴⁵؛ ويقول في موضع آخر؛ "وأما الصلاة فهي زاد الأنبياء والصديقين للمهمات الصعبة! وهي أنيس الغرباء والمهمومين في الليالي الحالكة، ومطية التوابين الذين تأخرت بهم الذنوب حتى غاب الركب عنهم وانقطعت أشباحه، فهم الآن بصلاتهم سُرّة على الأثر يسعون (...). باكين متبتّلين بين يدي التواب الرحيم! عساهم يحمدون عند الصبح السرى، فيلتقون الأحبة!"²⁴⁶؛ ويقول أيضاً: "أنّ الاستعانة بالصبر والصلاة هو منهج الربانيين عند الدخول في ابتلاءات الأعمال العظيمة من ثبات على الحق، أو دفع لعدو؛ ففي الصبر تفويض للملك الواحد الأحد، ورضى بما قدّر ودبر! وبالصلاة يفتح باب القلب على معراج الروح، فتصفو المناجاة للرحمان، ويتلقى القلب مددا لا ينقطع كوثره الفياض! فلا يخرج العبد من صلاته إلا وقد اكتسب هدى جديداً وتأييداً سديداً! ومسالح من ملائكة الرحمن تحيط به من كل مكان؟ ذلك ديدن الأنبياء وزاد الصّديقين ولباس الأولياء والصالحين!"²⁴⁷..

²⁴⁴ .يس: 40

²⁴⁵ . ن: " بلاغ الرسالة القرآنية" فريد الأنصاري، مرجع سابق؛ بتصرف كثير ص: 122.

²⁴⁶ . ن: " مجالس القرآن" فريد الأنصاري، مرجع سابق؛ بتصرف قليل (127/3)

²⁴⁷ . نفس المرجع، (133/3)

وهكذا نستشف من كلامه رحمه الله أنّ الصلاة أعظم وسيلة مساعدة على القيام بأعباء الابتلاءات، وأقوى زاد لإنجاز التكاليف المنوطة بالإنسان؛ وجماع ذلك، الابتلاء بإقامة وبناء العمران، وبذلك كانت الصلاة عموده - أي العمران - وروحه؛ وهنا تتجلى أهمية هذه القاعدة ودورها الكبير في العديد من مناحي الحياة ومجالات العمران! نتناول بعضاً منها توضيحاً وتحلية لهذه القضية!!

• مجال العقيدة:

سبق أن قرّرت فيما مضى²⁴⁸ أنّ التوحيد هو المحرك الفاعل لكل حركة عمرانية، وأن نظام العمران سيختل عند غياب التوحيد وحلول الشرك والكفر، ومن ثمّ كان الدين بمثابة حجر الأساس للبناء العمراني؛ معتمداً في ذلك كلّ على أدلة مستفيضة من نصوص الشريعة وأقوال العلماء، كالإمام الماوردي الذي اعتبر الدين قاعدة أولى في صلاح الدنيا، وابن خلدون - وهو الخبير بالعمران - الذي تحدّث عن دور الدين في إقامة العمران والاجتماع البشري، وغيرهما ممّن ذكرته ومّن لم أذكره؛ وهو ما يؤكّد دور التوحيد في تشييد العمران وإقامته - كان العمران روحياً أو مادياً على حدّ سواء - ويُسفر عن خطورة الكفر والشرك على الإنسان والعمران!!

ثم إن العقيدة - بوصفها إيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره - تعتبر أساس الدين الذي يجعل العبادة لله هي غاية الوجود ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾²⁴⁹.

والعبادة التي تعني تحقيق الطاعة والامتثال لمنهج الله في الحياة، فهي غاية ومقصد كل شعيرة عبادية في الإسلام، فهي ما وجدت إلا لتساعد الإنسان على تحقيق عبوديته وعبديته لله رب العالمين، والصلاة تأتي في مقدمة الشعائر التعبدية في الإسلام، لأنها أكثر هذه

²⁴⁸ ن: " المسألة الأولى في المطلب الأول من المبحث الثاني في الفصل الثاني من الباب الأول؛ وكذلك القاعدة الثالثة (الدين

والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان) من الفصل الأول من هذا الباب

²⁴⁹ الذاريات: 56

الشعائر تجسيدا لحقيقة العبادة لله تعالى وروحها، في كل جزئية من جزئياتها، من خلال كثافة وقوة سريان المعاني العقدية في كل أقوالها وأفعالها وأحوالها من التكبير إلى التسليم؛ فتنبه!! والجانب العقدي في الصلاة قوي الحضور، فهو مقصدها الأساس؛ كما يشهد لذلك هذا النداء العلوي الموجه لكليم الرحمن موسى عليه السلام بالواد المقدس طوى، في موقف رباني رهيب، تقشعر منه الأبدان؛ ويضطرب لجلاله الوجدان! ويكلم الله موسى كلاما يسمعه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ۖ وَأَنَا إِخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (٢١) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾²⁵⁰؛ فيكون أول الوحي أمرا بإخلاص التوحيد والعبادة لله، ويكون التعبير عن ذلك كله بإقام الصلاة؛ ذكراً لله وتوحيدا وتفريدا!!²⁵¹

والصلاة كما هو واضح من النص القرآني السابق، تستهدف تحقيق حالة الذكر المستمر لله، وما يعنيه ذلك من تجسيد لمقتضيات العقيدة في حياته بشكل دائم، يتعد به عن الغفلة وضعف الإرادة والتسيب، والانجراف في متاهات الشرك والضلال كما يسميها القرآن، ويحقق له الاطمئنان والسكينة والتوازن في حياته، كما هو منطوق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾²⁵²؛ وقمة مراحل الذكر تتحقق في الصلاة، عندما ينخلع الإنسان من الدنيا وينقطع لمناجاة ربه لبعض الوقت، على اعتبار أن الصلاة في جوهرها هي مناجاة ينفرد فيها الإنسان مع ربه خالقه جل في علاه؛ وهو ما أشار إليه نبينا ﷺ: (إن المؤمن إذا كان في الصلاة، فإنما يناجي ربه)²⁵³.

ومن ثم فإن الصلاة من هذه الناحية، شرعت لتكون مدرسة تعليمية للمسلم لغرس حقائق العقيدة ومقتضياتها العملية التطبيقية المتجلية في كل مجالات العمران، لتشييد حضارة وارفة

²⁵⁰ طه: 11 / 14

²⁵¹ ن: "فناديل الصلاة" لفريد الأنصاري، مرجع سابق، بتصرف زيادة ونقصانا؛ ص: 147

²⁵² الرعد: 28

²⁵³ صحيح البخاري، باب المصلي يناجي ربه عز وجل، حديث رقم: 413.

الظلال تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولعلنا في هذا الصدد نستحضر قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَاَنْتَشِرُوا فِي
الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥٤﴾؛
وهكذا تظهر حقائق العقيدة ومقتضياتها حية في حياة الفرد والمجتمع معاً إنشاءً لعمران
الأرض وتحقيقاً لوظيفة الإنسان الاستخلافية!!²⁵⁵

• المجال الروحي:

في حديثنا عن أنواع العمران قررنا أنه ذو شقين روحي وجداني ومادي جسماني، بل
الروحي هو الأساس والأصل والمقدمة، والثاني هو فرع عن الأول ونتيجة له..
والصلاة في الإسلام تغذي الجانب الروحي من العمران أصالة، بل والجانب المادي تبعاً؛
إذ هي - أي الصلاة - تعمل على تقوية صلة المسلم الذاتية بالله، بحيث ترتقي علاقته الروحية
بربه إلى مستوى عالٍ من اليقظة الروحية الدائمة، التي تمكنه من أن يعبد فيها كأنه يراه
ويستشعر حضوره القوي المستمر في حياته²⁵⁶؛ كما نطق به سيدنا رسول الله ﷺ مبيناً
ذلك المقام السامي، مقام الإحسان بقوله: (الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن
تراه فإنه يراك)²⁵⁷..

ولا يخفى ما لهذا البعد الروحي من أهمية كبيرة في حياة الإنسان العمرانية، فهو يشكل
نقطة ارتكاز أساسية في الكيان الإنساني، كما يقول محمد قطب: ²⁵⁸ "إن الطاقة الروحية في
الإنسان هي أكبر طاقاته، وأعظمها، وأشدّها اتصالاً بحقائق الوجود؛ فطاقة الجسم محدودة
بكيانه المادي وبما تدركه الحواس؛ وطاقة العقل أكثر طلاقة، ولكنها محدودة بما يعقل (...)",

²⁵⁴ الجمعة: 9 / 10

²⁵⁵ ن: مثلاً "فن الذكر والدعاء" لمحمد الغزالي، ط4، دار الشروق، القاهرة 2006، ص: 7.

²⁵⁶ ن: مثلاً "الخواص الخمسة في القرآن" لمحمد الغزالي، مرجع سابق، ص: 71

²⁵⁷ صحيح البخاري، باب سؤال جبريل للنبي حديث رقم 4777

وطاقة الروح وحدها في كيان الإنسان هي التي لا تعرف الحدود والقيود، هي وحدها التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل.. تملك الاتصال بالله²⁵⁸ والصلاة حين تنمّي الجانب الروحي في الإنسان، فإنما تُسهم مباشرة في تقوية الإيمان وتعزيزه.

والجانب الروحي - كما بيّنا في أكثر من مناسبة - مصدر الطاقة التي تتيح للإنسان إقامة عمرانه وإنشاء حضارته، بما يتوافق مع وظيفته الاستخلافية!!

ومن هذا المنطلق، فإن الإسلام في نظره الشمولية المتكاملة للإنسان والعمران جاء مستوعباً لكل أبعاد الشخصية الإنسانية العمرانية، بشكل متوازن ومتكامل عجيب؛ ولعل شعيرة الصلاة تُقدّم لنا خير مثال على هذه الشمولية المتوازنة في النظرة إلى الإنسان والعمران؛ من خلال عنايتها بخدمة الجوانب المادية، وتنمية الجوانب الأخرى عقلية كانت أو روحية أو اجتماعية. إلى أبعد الحدود؛ ولعل ما ورد في حديث سيدنا رسول الله فيما يرويه عن ربه عز وجل، ما يشير إلى قوة خدمة الصلاة لهذا البعد الروحي في الشخصية الإنسانية، ورفع درجة الإيمان؛ فقد جاء في الحديث القدسي: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)²⁵⁹

والصلاة بهيئتها المعهودة شرعاً، تُنتج قوة الإيمان لدى الإنسان، وتُثمر درجات المراقبة والمحاسبة والخوف من الله، والمحبة له والإقبال عليه، بامثال أوامره واجتناب محاذيره والوقوف عند حدوده، وهو ما يعمل على رفع درجة الصلاح الذاتي لدى الإنسان أولاً، ثم رفع درجة إيجابيته الاجتماعية ثانياً، وهو ما يُثمر عمراناً متكاملًا، وحضارة إنسانية يانعة بالمصالح والمنافع في المعاش والمعاد، للبلاد والعباد!!

• المجال التربوي:

²⁵⁸ ن: "منهج التربية الإسلامية" لمحمد قطب، مرجع سابق، بتصرف قليل، ص: 47.

²⁵⁹ صحيح البخاري، باب التواضع، حديث رقم: 6502..

لا شك أن التربية والتزكية من أهم مقاصد الإسلام ومنطلقاته التي بنى عليها عمرانها وأقام بها حضارته التليدة، بل لقد كانت إحدى الوظائف الأساسية لرسالة الإسلام، ولبعثة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَهِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾²⁶⁰؛ والتزكية هي: "التربية للنفس بما يجعلها تترقى في مدارج الإيمان، وتتخلق بمقاماته، سيرا إلى الله بجناحي الخوف والرجاء، وأشواق المحبة؛ حتى تتخلص بتقواها من هواها وتكون خالصة لمولاه"²⁶¹؛ ويمكن تعريفها أيضا بأنها: "تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كما لها عن طريق التدريب والتثقيف"²⁶²

وكما هو واضح من التعريف فإن التربية تنزع إلى كل ما هو عملي ومؤثر في حياة الإنسان وإقامة العمران، بخلاف مفهوم العلم الذي يستهدف عادة تزويد الإنسان بالمعلومات والمعارف العلمية الصحيحة²⁶³، التي تتولى العملية التربوية تحويلها إلى واقع عملي وسلوكي واجتماعي وثقافي؛ وهو ما ينسجم تماماً مع المنطق العملي الإيجابي الذي يتميز به الإسلام، ويؤكدده في كل تشريعاته؛ وهو ما يقوم عليه العمران الإنساني، إذ لا عمران من غير عمل، ولذلك ذهب الشاطبي - وغيره من العلماء المحققين - إلى القول بأن كل علم لا يفيد عملاً فليس في الشريعة ما يدل على استحسانه²⁶⁴؛ بل وَرَدَ في القرآن التشنيع الشديدُ بظاهرة

²⁶⁰ .ال عمران: 164

²⁶¹ .ن: " مجالس القرآن" لفريد الأنصاري، مرجع سابق؛ (230/3)

²⁶² .ن: "المعجم الفلسفي"، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة للنشر والمطابع، القاهرة 1983م؛ ص: 49..

²⁶³ .ن، مثلاً: "ميلاد مجتمع" مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق؛ ط: 3 سنة: 1406هـ/ 1986م؛ ص: 69 وما بعدها.

²⁶⁴ .ن: " الموافقات"، أبو إسحاق الشاطبي، مصدر سابق؛ (1/ 73)

التناقض بين العلم والعمل، ومخالفة القول للفعل، كما نرى ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ 265 كَبَر مَفْتًا عِنْدَ اللَّهِ أُن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ 265

ومن هنا يتجلى القصد التربوي في كل الشعائر العبادية في الإسلام بكل قوة، وفي مقدمتها الصلاة بوصفها الفريضة العبادية العملية الأولى في منظومة الشعائر العبادية الإسلامية، التي تقوم على تربية الإنسان على كل القيم والأخلاق البانية، وتهذبه من كل الأوصاف القذحية الهادمة لكل من الإنسان والعمران؛ قال تعالى: ﴿وَأَفِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ 266.

فالصلاة بصفاتها التعبدية، أكبر مُعين على تقوية صبر الإنسان وإرادته في مقاومة المغريات والانحرافات في حياته، وامتلاك القدرة على المحافظة على توازنه واستقامته، والعمل الدؤوب الباني للعمران والمُقيم لحضارة الإنسان!! ولذلك أمرنا المولى تبارك وتعالى بالاستعانة بها لتحقيق كل ذلك، فقال سبحانه ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ 267

استنتاج:

وهكذا كانت الصلاة أفضل شعيرة للإنسان تؤهله لتقويم الجانب العملي والسلوكي في حياته، وهو الجانب المعول عليه في العمران، كما جاء عن النبي العدنان: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). تلك مجالات عمرانية ثلاثة اصطفتها لإبراز أهمية القاعدة ومكانتها الحضارية، ولا زالت هناك مجالات أخرى لم أعرج عليها خشية الإطالة؛ وانتقل الآن إلى المطلب الأخير لهذه القاعدة.

265. الصف: 1. 2.

266. العنكبوت: 45.

267. البقرة: 44.

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

بعد هذه الجولة مع هذه القاعدة العمرانية التَّعبدية، في محطاتها المتعددة المتنوعة، بدءاً بدلالاتها، مروراً بأدلتها ثم أهميتها ومجالاتها العمرانية؛ أنتقل إلى دورها الاستشرافي لعمران الأمة الإسلامية؛ والمتأمل لواقع الأمة اليوم - مع الأسف - ليجد أن الأمة ضيّعت هذه الفريضة - الصلاة أعني - التي اعتبرناها **عمود العمران وروحه**؛ نعم ضيّعتها فضاع وخرب عمرانها، ولو أقامتها من جديد لقام عمرانها وازَّيَّنت حضارتها!!

إذ في الصلاة تقوية النفس والإرادة عاجلاً وآجلاً، فهي تزرع في الوجدان الاعتزاز بالله تعالى دون غيره، والسمو عن الدنيا ومظاهرها، والترفع عن مغرياتها وأهوائها، فتعمل الصلاة على ترويض النفس تشديداً وتهذيباً؛ فكانت بذلك أعظم مُصلح للإنسان ليتأهل لبناء العمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾²⁶⁸

كما أن في الصلاة راحة نفسية كبيرة، وطمأنينة روحية، إذ "للصلاة في الإسلام جمال الدخول في موكب الكون العابد، سيرا إلى الله تسبيحا وتمجيذاً، فذلك إذن مقام الأنس البهي"²⁶⁹ ولذلك كانت قُرّة عينِ المصطفى حيث قال: (حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قُرّة عيني في الصلاة)²⁷⁰؛ وكان عليه السلام إذا حزبه أمرٌ قال: (أرحنا بها يا بلال)²⁷¹.

وفي الصلاة: تدريب على حب النظام والتزام التنظيم في الأعمال وشؤون الحياة، لأدائها في أوقات منظمة، وبما يتعلم المرء خصال الحلم والأناة، والسكينة والوقار، ويتعوّد على حصر الذهن في المفيد النافع، لتركيز الانتباه في معاني آيات القرآن وعظمة الله تعالى ومعاني الصلاة؛

²⁶⁸ البقرة: 152

²⁶⁹ ن: " جمالية الدين " فريد الأنصاري، دار السلام؛ ط1؛ 1430هـ / 2009م؛ ص: 194

²⁷⁰ رواه النسائي رقم: 3939

²⁷¹ رواه أبو داود، رقم: 4958

وهذا ينمي العقل الذي يعتبر أحد ضروريات العمران!!

كما أن الصلاة مدرسة خلقية عملية انضباطية تربي فضيلة الصدق والأمانة، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾²⁷²..

وهي تُسهِم في إقرار العقيدة الجامعة لأفراد المجتمع، وتقويتها في نفوسهم، وفي تنظيم الجماعة في تماسكها حول هذه العقيدة، وفيها تقوية الشعور بالجماعة، وتنمية روابط الانتماء للأمة، وتحقيق التضامن الاجتماعي، ووحدة الفكر والجماعة التي هي بمثابة الجسد الواحد كما وصفه الحبيب المصطفى ﷺ: (إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)²⁷³..

كما يتعلم المصلي التنظيم والانضباط، فهي خمسة أوقات تتخلل اليوم والليلة، والإنسان المنظم هو الإنسان الصالح اجتماعياً وسياسياً، وبالتالي فتنظيم الوقت من أمور النجاح في الحياة بكل مرافقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، المكونة للعمران..

كما أنّ الصلاة تساهم في تقوية الإحساس بالهوية الذاتية للأفراد، وبالسعي للحفاظ عليها، وهذه تعتبر واحدة من أهم معضلات الإنسان المسلم المعاصر في الحفاظ على الهوية، وفي أداء ما تتطلبه منه؛ وبالتالي فللمسلمين علامات منها الحفاظ على صلاتهم، وهذا ما جعلهم يقومون ببناء المساجد في كل مكان حطوا فيه، ليكون ذلك علامة على وجود هوية إسلامية واضحة وصريحة، توجب الاحترام لها انطلاقاً من موثيق حقوق الإنسان.

كما أن المسلم يدرك من خلال مقاصد الصلاة المفهوم الصحيح للتحرر، بأنه تحرر ذاتي من كل أشكال الرق والاستعباد، فالفرد إذا قام للصلاة بين يدي خالقه، قياماً لله بواجب العبودية، إذ العبودية لله تعني الارتقاء عن كل أشكال الاستغلال والرق والعبودية الدنيوية؛ وهذا الارتقاء يشكل عاملاً مهماً من عوامل البناء النفسي للفرد، فهو يدفعه نحو الإبداع بكل

²⁷² العنكبوت: 45

²⁷³ سبق تخريجه ص 79

أشكاله وأنواعه المختلفة؛ وكل ذلك له دور فعال في إقامة العمران!!

وفي صلاة الجماعة خاصة فوائد عميقة وكثيرة، من أهمها إعلان مظهر المساواة، وقوة الصف الواحد، ووحدة الكلمة، والتدريب على الطاعة في القضايا العامة أو المشتركة، باتباع الإمام فيما يُرضي الله تعالى، والاتجاه نحو هدف واحد وغاية نبيلة سامية، هي الفوز برضوان الله تعالى؛ وهذا كله ضروري لبناء العمران، بل هو أساس من أسسه التي لا قيام له إلا بها فتأمل!!

كما أن بها تعارف المسلمين وتآلفهم، وتعاونهم على البر والتقوى، وكل ما يحقق مصالح المعاش والمعاد، وتغذية الاهتمام بأوضاع وأحوال المسلمين العامة، ومساندة الضعيف والمريض والسجين.. الخ، ويعد المسجد والصلاة فيه مقراً لقاعدة شعبية منظمة متعاونة متآزرة، تخرج القيادة، وتدعم السلطة الشرعية، وتصحح انحرافات وأخطاءها بالكلمة الناصحة والموعظة الحسنة، والقول اللين، والنقد البناء الهادف، لأن (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)²⁷⁴.

استخلاص:

وخلاصة الأمر أن الصلاة لها آثار استشرافية في مختلف مجالات العمران، لو أدرك الناس ذلك وصلُّوا حقاً، لكان لذلك فوائد جلية على الفرد والمجتمع في الحال والمآل، فهي: "مفتاح صلاح المجتمع، وأول أعمال التجديد فيه؛ وبقدر إقبال الناس عليها يكون تقويم مراحل البعثة، ومعرفة ما قطعت من أشواط؛ نعم، الصلاة من حيث هي عبادة، لا من حيث هي عادة! (...)
بل الصلاة بما هي رباط وجداني! وحركة فردية وجماعية تصل الناس بالله عقيدة وشرعية، وتصنع عمارتهم الإيمانية في طريق بعثة التجديد"²⁷⁵

²⁷⁴ . مخرج في الصحيحين

²⁷⁵ ن: " الفطرية" لفريد الأنصاري، مرجع سابق؛ ص: 212

المبحث الثاني: قاعدة (الزكاة فريضة شرعية وضرورة عمرانية)

هذه قاعدة عمرانية لا تقل أهمية عن سابقتها تتعلّق أيضا بأصل من أصول العبادات، وهو الزكاة، جعلتها ثانية في هذا الفصل، إذ أراها من أهم القواعد العمرانية المتعلقة بالعبادات؛ وقد صغتها بهذه الديباجة بعد تأملي لنصوص القرآن والسنة، وخاصة شطرها الأول، أي قولنا: (الزكاة فريضة شرعية)؛ أما شطرها الأخير وهو قولنا: (ضرورة عمرانية)، فإني صغتها من خلال استقرائي لكلام العلماء والمفكرين من المفسرين والفقهاء وعلماء الاجتماع، خلال تناولهم لمقاصد الزكاة وآثارها المتنوعة على الفرد والمجتمع؛ وللبحث في هذه القاعدة من زواياها المتعددة نضع - كالعادة - بين أيدينا طائفة من التساؤلات، نصوغها على الشكل الآتي:

ما مفهوم هذه القاعدة ودلالاتها؟ وما هي أدلتها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية في عمران الأمة؟

هذه مجموعة من التساؤلات نوردتها على كل قاعدة، إذ بالإجابة عنها يتّضح دور القاعدة العمراني، وهو ما يقتضي تخصيصنا لكل تساؤل مطلباً مستقلاً نوضّح من خلال الجواب عنه جانباً معيّناً من جوانب تلك القاعدة..

وهذه المطالب كما جرت العادة هي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحججها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

لبيان مفهوم القاعدة لابد من تناول مفرداتها بالبيان والتوضيح، إذ بيان الكل متوقف على بيان الجزء؛ والمتأمل للقاعدة التي بين أيدينا يُلفيها مركبة من قاعدتين، الأولى: الزكاة فريضة شرعية، والثانية: و - أي الزكاة - ضرورة عمرانية؛ أي أن مسمى الزكاة يرتبط من جهة بالشرع، ومن جهة أخرى يرتبط بالعمران، وبالتالي فإن دراسة مدلول هذه القاعدة يتطلب منا تناولها من الجانبين معاً، وهو ما سنقوم به بإذن الله تعالى..

وأول لفظة تتركب منها القاعدة هي الزكاة، ولها مدلولان لغوي واصطلاحي؛ فأما مفهومها اللغوي فنكتفي بما ذكره ابن فارس بقوله: "الزاي والكاف والحرف المعتل أصل يدل على نماء وزيادة، وقال: والأصل في ذلك كله راجع إلى معنيين، وهما النماء والطهارة"²⁷⁵؛ أما في اصطلاح الفقهاء فلها تعاريف كثيرة متقاربة جداً، لذا نكتفي بتعريف واحد وهو تعريف بالمعنى الاسمي؛ فالزكاة إذن: "جزء من المال، شَرُطُ وجوبه لمستحقه بلوغ المال نصائباً"²⁷⁶؛ ولا شك أننا نقصد بالزكاة في هذه القاعدة العمرانية معناها الشرعي أصالة وكذلك معناها اللغوي بالتبع، ولا يخفى ما للمعنى اللغوي من علاقة بالمعنى الشرعي، إذ المعنى الأول داخل في الثاني وملحوظ فيه بقوة!! وليس هذا محلّ توضيح ذلك!

أما قولنا فريضة شرعية أي أنّ الشرع الحكيم هو الذي أوجبها وفرضها على عباده المؤمنين، وقد ثبتت بنصوص قطعية من القرآن والسنة، ووقع الإجماع عليها، فهي ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة؛ تولى ربُّ العالمين تحديدها مع مصارفها، وقد بيّن رسول الله ﷺ معظم تفاصيلها في سنته الشريفة..

كل ذلك من أجل إسعادهم في الدنيا والآخرة، إذ من المعلوم أنّ الله تعالى غني عن عباده، إذا شرع شيئاً فإنما يشرعه لتحقيق مصالحهم بدفع المفسدة عنهم، أو جلب المنفعة

²⁷⁵ ن: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس؛ مرجع سابق (3/ 17)

²⁷⁶ ن: "شرح حدود ابن عرفة" للرباعي؛ نشر: المكتبة العلمية، الطبعة: الأولى، 1350هـ؛ (140/1)؛ "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل" للحطاب الرّعيني المالكي (ت: 954هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، 1412هـ/ 1992م (3/

لهم في العاجل أو الآجل، وفيما يتعلق بأمور المعاش أو المعاد!!

أما كونها ضرورة عمرانية، أي أنه لابد منها لعمران الناس، لأن الغرض الذي فرضت من أجله الزكاة هو القضاء على مجموعة من المشاكل الاجتماعية التي لا يمكن أن يخلو منها أي مجتمع كائنا ما كان؛ ذلك لأن الأشخاص تختلف طبائعهم وتختلف فطنتهم وذكاؤهم من حيث الكد والسعاية في أقواتهم وأرزاقهم، فالاختلاف طبيعة في الناس مطردة، فهم مختلفون في شتى أمورهم، ومتفاوتون في جميع شؤونهم، وأمر الأرزاق مما اختلف الناس في تدبيره والسعي في أسبابه، وهذه سنة ربانية وحكمة إلهية، ثابتة في الاجتماع البشري بشهادة الواقع ومنطوق القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَبَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾²⁷⁷؛ وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادٍّ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ بِهِمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾²⁷⁸..

وهنا لا يفوتني أن أذكر كلاما للشيخ القرضاوي في كتابه فقه الزكاة نظرا لأهميته، نقله بعضه عن كتابي الأموال، وتاريخ البلاذري: "ولقد سدّت الزكاة كل ما يتصور من أنواع الحاجات، الناشئة عن العجز الفردي أو الخلل الاجتماعي، أو الظروف العارضة التي لا يسلم من تأثيرها بشر.

ونحن نقرأ فيما كتبه الإمام الزهري لعمر بن عبد العزيز عن مواضع السنّة، في الزكاة أن فيها نصيبا للزمنى والمقعدين، ونصيبا لكل مسكين به عاهة لا يستطيع حيلة ولا تقلبا في الأرض، ونصيبا للمساكين الذين يسألون ويستطعمون - حتى يأخذوا كفايتهم ولا يحتاجوا بعدها إلى السؤال - ونصيبا لمن في السجون من أهل الإسلام، ممن ليس له أحد، ونصيبا لمن يحضر المساجد من المساكين الذين لا عطاء لهم ولا سهم - ليس لهم رواتب، ولا معاشات

²⁷⁷ الزخرف: 32

²⁷⁸ النحل: 71

منتظمة - ولا يسألون الناس، ونصيبا لمن أصابه فقر وعليه دين ولم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يتهم في دينه أو قال في دينه، ونصيبا لكل مسافر ليس له مأوى ولا أهل يأوي إليهم، فيؤوي ويُطعم وتُعلم دابته حتى يجد منزلا أو يقضي حاجة.

فهو - أي حق الزكاة - ضمان شامل لكل أصناف المحتاجين، وكل حاجاتهم المختلفة بدنية ونفسية وعقلية، وقد رأينا كيف اعتُبر الزواج من الحاجات التي يجب إشباعها، وكذلك كتب العلم لأهلها..

ولم يكن ذلك خاصا بالمسلمين وحدهم، بل شمل كل من يعيش في ظل دولتهم من اليهود والنصارى، كما فعل سيدنا عمر مع اليهودي الذي وجده يسأل عن الأبواب، وأمر بكفالاته من بيت مال المسلمين، وجعل ذلك مبدءا له ولأمثاله؛ كما أنه حين رأى في طريقه إلى دمشق قوما مجذومين من النصارى أمر أن يُرتب لهم معاش من بيت المال الإسلامي²⁷⁹

خلاصة:

وزبدة القول أن مفهوم قاعدة (الزكاة فريضة شرعية وضرورة عمرانية) أن هذه الشعيرة الإسلامية المسماة بالزكاة أوجبها الله تعالى على عباده لما لها من دور أساس لإقامة العمران البشري، وذلك بما بيّنت من خصائص تشتمل عليها هذه الفريضة الربانية؛ وقد أثبتت هذه الشعيرة نجاعتها عبر العصور، وأتت أكلها رغم اختلاف الزمن والمكان والحال، وذلك لما تَقَصَّدَتْهُ من أهداف اجتماعية، على رأسها القضاء على جميع الفوارق الاجتماعية بين البشر مهما اختلفت ديانتهم ولغتهم وألوانهم!!

²⁷⁹ ن: "فقه الزكاة" للقرضاوي، مكتبة وهبة، ط: 25؛ سنة 1427هـ / 2006م؛ (894893/2) نقلا عن: "الأموال"

للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، و عن تاريخ البلاذري

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

إنّ الحديث عن أدلة هذه القاعدة يختلف عن حديثنا عن أدلة القواعد السابقة، نظرا لارتباط القاعدة بجهتين الأولى شرعية والثانية عمرانية، ومن ثمّ فإنّ من الأدلة ما يرتبط بالجهة الشرعية، ومنها ما يرتبط بالجهة العمرانية، ومنها أيضا ما يرتبط بالجهتين معا؛ وقد تكون نصوصا شرعية مباشرة من الكتاب والسنة، وقد تكون من أقوال أهل العلم المستنبطة من تلك النصوص الشرعية وغيرها ؛ وهو ما يُنبئ عن أهميّة هذه القاعدة ودورها العمراني، ويوجبُ الاهتمامَ بها ودراستها دراسة عميقة مستوعبة حتى يظهر آثارها على البلاد والعباد، في المعاش والمعاد..

وسأتناول طائفة من الأدلة بالتحليل والبيان، أبيّن من خلالها أهمية الزكاة ودورها العمراني في تحقيق مصالح الإنسان ومنافعه ودرء المفسد عنه والمضار، وبالتالي المساهمة في ازدهار عمرانه بناء على فعاليتها القوية اقتصاديا واجتماعيا وأخلاقيا.. لنخلص في آخر المطاف إلى أهمية هذه القاعدة العمرانية التي نحن بصددتها!!

ولتكن البداية في إيراد الأدلة من القرآن الكريم، أصل الأصول ومفتاح الوصول؛ فقد وردت لفظة (الزكاة) في القرآن الكريم اثنين وثلاثين مرة؛ ثلاثون تعريفا، واثنان تنكيها، وقد تكرر ذكرها أكثر من مرة في بعض السور الكريمة، كما في سورة البقرة جاءت خمس مرات؛ في الآيات (43، 83، 110، 177، 277)، وفي سورة النساء (77، 162)، والمائدة (12، 55)، والتوبة أربع مرات (5، 11، 18، 71)، ومريم (13، 31، 55)، والنور (56، 37)، والحج (41، 78)، وأما في سور الأعراف والكهف والأنبياء و المؤمنون والنمل والروم ولقمان والأحزاب وفصلت والمجادلة والمزمل والبنية فقد ذكرت مرة واحدة..

ثم إذا تقصينا معناها في القرآن الكريم نجدها على معنيين رئيسين:

المعنى الأول: زكاة النفس، وذلك عن طريق تشذيبها وتهذيبها بما يحقق لها فلاحها وصلاحها، وجماع ذلك كله عمرانها عقديا وعباديا وسلوكيا، وهو ما يؤهلها لإعمار الأرض

وعمرانها؛ تلك التزكية الواردة في قوله تعالى: ﴿فَدَ أَفْلَحَ مَن زَكَّيْهَا﴾²⁸⁰؛ وقوله سبحانه: ﴿بَارِدُنَا أَن يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾²⁸¹؛ وقد تحدّث عن هذه القضية أثناء كلامي عن شروط العمران²⁸²؛ فلا حاجة لإعادته هنا!!

المعنى الثاني: زكاة المال، وهو المعنى المقصود أصالة في هذه القاعدة، وهو كما بينت في المطلب السابق: "إنفاق جزء معلوم من المال النامي إذا بلغ نصاباً في مصارف مخصوصة"²⁸³؛ وقد جاء هذا المعنى واضحاً في آي كثيرة من القرآن الكريم، خاصة في تلك التي قرنت فيها الزكاة بالصلاة؛ نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُفَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾²⁸⁴؛ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾²⁸⁵؛ حيث نلمس في هذه المقابلة بين الربا والزكاة أن المراد منها قطعاً هو إخراج حصة من المال رداً على من يقصرها على زكاة الأنفس، كما يعضده قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾²⁸⁶..

ومن أجمل ما يذكر في هذا الموضوع، ما نقله ابن قدامة عن أبي محمد بن قتيبة في

²⁸⁰ الشمس: 9

²⁸¹ الكهف: 81

²⁸² ن: المطلب الثاني في المبحث الثاني من الفصل الثالث في الباب الأول.

²⁸³ ن: "معجم لغة الفقهاء"، لمحمد رواس، دار النفائس، بيروت، ط1، 1996م، ص 208.

²⁸⁴ البقرة: 110

²⁸⁵ الروم: 39

²⁸⁶ الليل: 18

الاستدلال على وجوب الزكاة وردا على منكريها، قال: " الزكاة من الرّكاء والنماء والزيادة، سميت بذلك لأنها تثمر المال وتنميه؛ يقال: زكا الزرع، إذا كثر ريعه، وزكت النفقة، إذا بورك فيها؛ وهي في الشريعة حق يجب في المال، فعند إطلاق لفظها في موارد الشريعة ينصرف إلى ذلك؛ والزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة، وهي واجبة بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع أئمة أما الكتاب، فقول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، وأما السنة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذًا إلى اليمن، فقال: (أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم) متفق عليه؛ (...) وأجمع المسلمون في جميع الأعصار على وجوبها، واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعيها، فروى البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله؟ فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا (...) كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها؛ قال عمر: فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق²⁸⁷

كما لا ننسى أن نشير إلى أن القرآن الكريم في تشريعه للزكاة حين فرضها الله تعالى على عباده قرنها في مواضع كثيرة بالصلاة (26 مرة من أصل 32 مرة) وردت فيها لفظة «زكاة» معرفة ونكرة، وبصيغ مختلفة تفيد الأمر بها، نشير إلى بعضها، منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ- اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ

²⁸⁷ ن: "المعني"، لابن قدامة، دار إحياء التراث العربي. ط1، سنة النشر: 1985م؛ كتاب الزكاة للقرضاوي، مرجع سابق،

وَحِينَ الْبَاسِ ۖ وَذَلِكِ الَّذِينَ صَدَفُوا ۖ وَذَلِكِ هُمُ الْمُتَفُونَ ﴿٢٨٨﴾؛ وقوله سبحانه: ﴿بِإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٨٩﴾، و قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا غُلَبِينَ﴾ ﴿٢٩٠﴾؛ والآيات كثيرة في هذا الصدد نكتفي بهذا القدر خشية الإطالة!!

أما الأحاديث فهي كثيرة جدا نقتصر على ذكر ثلاثة منها؛ ففي الحديث المشهور الصحيح عن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان) ²⁹¹؛ وروى الإمام مالك، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر الأنصاري، عن عطاء بن يسار؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بخير الناس منزلا؟) (رجل آخذ بعنان فرسه، يجاهد في سبيل الله؛ ألا أخبركم بخير الناس منزلا بعده؟ رجل معتزل في غنيمة؛ يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد الله، ولا يشرك به شيئا) ²⁹²؛ وعن جرير بن عبد الله، رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله ﷺ أما الأدلة العقلية على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم) ²⁹³؛ والأحاديث كثيرة جدا في هذا الباب!!

على هذه القاعدة العمرانية فهي متعددة أيضا، و أفضل ما قيل في ذلك ما ذكره العلامة

الأصولي المتكلم الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾

²⁸⁸ البقرة: 177

²⁸⁹ التوبة: 5

²⁹⁰ الأنبياء: 73

²⁹¹ رواه البخاري، رقم: 8

²⁹² رواه مالك في الموطأ، باب الترغيب في الجهاد (622/3)؛ رقم: 1619

²⁹³ رواه البخاري، رقم: 524..

أَلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَا۟مِرُونَ ﴿٢٩٤﴾؛ في قوله: "وفي هذه الآية مسائل: المسألة الأولى: وجه النظم في هذه الآية من وجوه، الأول: أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وذلك لأن الموجودات، إما الخالق وإما الخلق، فأما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة، ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله، وأما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال، لأنه ضد الشفقة على خلق الله" ²⁹⁴

هذه الحقيقة القرآنية والنبوية والعقلية أيضاً، تؤكد أنّ على المجتمع المسلم أن يهتم بهذه الفريضة مؤسساتياً، كاهتمامه بالصلاة؛ ببناء المساجد وفرشها وتجهيزها، لإقامتها بما يكفل حفظ الدين، واستمرار أدائها في أحسن الظروف، فهذا الاقتران بين الصلاة التي هي صلة وربط بين العبد وربّه، وبين الزكاة التي هي صلة وربط بين الإنسان والإنسان، وأيضاً بين الصلاة التي هي عبادة روحية وجسمية، وبين الزكاة التي هي عبادة مالية، يُبين أثر هذه الروابط على المجتمع، فالأولى اتصال بالخالق سبحانه يظهر أثرها في المخلوق، والثانية اتصال بالمخلوق ويظهر أثرها مع الخالق سبحانه وتعالى، بمعنى أن من داوم على الصلاة وراعى مقاصدها تحقق له الصلة مع الله بتحقيق غاياتها؛ الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، ومن داوم

²⁹⁴ فصلت: 6-7

²⁹⁵ ن: "مفاتيح الغيب" الفخر الرازي، مصدر سابق، (86/12)

على أداء الزكاة، واعتنى في ذلك بمقاصدها، تحقق له الأثر المقصود في التراحم والتعاون والتكافل، وظهر أثر ذلك في علاقته مع ربه، بإنماء ماله ومضاعفة الأجر له في الآخرة.

خلاصة:

كل ما سبق من الأدلة يوضح أهمية الزكاة في حياة المسلمين، وما يحققه هذا التشريع من مصالح ومنافع، في مجالات العمران المتعددة، حيث تتأكد ضرورته في هذا العصر الذي أصبحت فيه بعض الدول الإسلامية تعاني من ضعف الموارد وتأثيره على الاقتصاد الوطني، وبالتالي العجز المالي في صندوق الموازنة، علماً أن الدول الأخرى التي اعتنت بهذه الفريضة وحققَت من خلالها المقاصد من تشريعها بإحداث صندوق مالي مستقل، استطاعت أن تتجاوز الكثير من الصعوبات؛ كل ذلك يؤكد أهمية قاعدتنا العمرانية الموسومة ب: (الزكاة فريضة شرعية، وضرورة عمرانية)!!

وأختم هذا المطلب بكلام لصاحب المنار أثناء تفسيره للآية: 43 من سورة البقرة؛ يؤكد فيه على كون الزكاة ضرورة عمرانية، يقول فيه: " ثم أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من الله تعالى بالزكاة التي هي عنوان الإيمان ومظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس، وقد عُهد في القرآن قرن الأمر بإتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة، فمن أقام الصلاة (...) فهو جدير ببذل المال في سبيله، مواساة لعياله ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته، فإن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو علة في بدنه، فيجب على الآخرين الأخذ بيده، وأن يكونوا عوناً له، حفظاً للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر، وشكراً لله على ما ميزهم به من النعمة، وظاهر أن الغني في حاجة دائمة إلى الفقير، كما أن الفقير في حاجة إليه، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون؛ لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق في سبل الخير علامة من علامات الإيمان وجعل

البخل من آيات النفاق والكفر"²⁹⁶؛ وتتأكد ضرورة الزكاة العمرانية بما تشتمل عليه من آثار قوية في مجالات عمرانية عديدة، مما يدل على أهمية هذه القاعدة، ودورها العمراني في تحقيق الوظيفة الاستخلافية للإنسان!! وهو ما سنخصص للحديث عنه المطلب الآتي وإليكه:

²⁹⁶ ن: "تفسير المنار" لرشيد رضا، مرجع سابق (1/ 243-244)

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال المطلبين السابقين اللذين تمّ فيهما تناول مفهوم القاعدة، وبيان دلالاتها العمرانية وأدلتها البرهانية، يتضح أنها ذات دور كبير في مجالات عمرانية متعدّدة!!

إنّ ممّا يؤكّد على أهمية هذه القاعدة وعلى تعدّد مجالاتها العمرانية أنّ الزكاة نظام فريد، ومؤسسة مالية لها وظيفتها المهمة في حياة المجتمع، من تحقيق التكافل الاجتماعي والتأمين ضد العجز والكوارث والفقر، وإزالة الحسد والبغضاء، وتطهير الأنفس، وتنمية الخير عند الناس، كما أنّها تُعين الدولة على تحقيق المصالح والمنافع العامة للمواطنين، وأيضاً هي مورد مالي من موارد الدولة التي تسهم في تغطية كثير من النفقات التي يحتاجها المجتمع²⁹⁷؛ كما أنّ مقاصدها الحُكْمِيّة تتعدّى فهم الوظائف الاجتماعية بما يحقق النظام المالي الإسلامي، من حلول للمشكلات الاقتصادية التي تعرفها المجتمعات، فهي تعتبر أهمّ وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي في الحياة، وتُساهم في حلّ مشكلة البطالة، وتشغيل عددٍ من العاطلين عن العمل..

إنّ ربط نظام الزكاة بهذه الأسس والمقوّمات المالية يبيّن أهمية تشريع هذه الفريضة ومقاصدها الخاصة والعامة في شتى مجالات العمران!! وممّا يُعزّضُ هذا ما قاله د. محمد الزحيلي في كتابه التطبيقات المعاصرة للزكاة: "الزكاة لها أهدافٌ عقديّة وروحية، ونفسية واجتماعية، واقتصادية وصحية وتربوية"²⁹⁸!!

وجاء في كتاب غياث الأمم في التياث الظلم للإمام الجويني: "فأمّا سدُّ الحاجات والخصاصات، فمن أهم المهمّات، وإذا بنينا على غالب الأمر في العادات، وفرضنا انتفاء الزمان عن الجوائح والعاهات، وضروب الآفات، ووفّق المثلون الموسرون لأداء الزكّوات، انطبقت فضلاتُ أموال الأغنياء على أقدارِ الحاجات"²⁹⁸..

وللخروج من هذه العمومات نرصد طائفة من المجالات العمرانية - توضيحاً وتحلية لهذه

²⁹⁷ ن. مثلاً: "موسوعة الإدارة المالية في الإسلام"؛ عبدالعزيز الحياط: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (929/3)

²⁹⁸ ن: "الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم"؛ للجويني مصدر سابق، (1/ 232 . 233)

القضية!! - التي تقوم الزكاة فيها بدور رائد وفعال، في تحقيق منافع ومصالح للفرد والمجتمع، للمعطي والآخذ على حد سواء، في المعاش والمعاد!!

• المجال العقدي:

يتجلى دور الزكاة في المجال العقدي الإيماني في جعل أحد أصناف مستحقي الزكاة هو "في سبيل الله" الوارد في آية التوبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ قَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾²⁹⁹؛ يقول رشيد رضا في بيان صنف "في سبيل الله" من أصناف الزكاة، بعدما ذكر أقوال العلماء المختلفة بشيء من التفصيل، يقول - رحمه الله -: "والتحقيق: أن سبيل الله هنا مصالح المسلمين العامة التي بها قوام أمر الدين والدولة دون الأفراد، وأن حج الأفراد ليس منها؛ لأنه واجب على المستطيع دون غيره، وهو من الفرائض العينية بشرطه كالصلاة والصيام، لا من المصالح الدينية الدولية، (...)، ولكن شعيرة الحج وإقامة الأمة لها منها، فيجوز الصرف من هذا السهم على تأمين طرق الحج وتوفير الماء والغذاء وأسباب الصحة للحجاج إن لم يوجد لذلك مصرف آخر"³⁰⁰..

ويقول أيضا ناقلا كلام الشيخ حسن صديق خان - رحمه الله - في الروضة الندية: "ومن جملة سبيل الله الصرف في العلماء، الذين يقومون بمصالح المسلمين الدينية، فإن لهم في مال الله نصيبا سواء كانوا أغنياء أو فقراء؛ بل الصرف في هذه الجهة من أهم الأمور؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء وحملة الدين وبهم تحفظ بيضة الإسلام، وشريعة سيد الأنام"³⁰¹..

ويقول خليل في مختصره في بيان صنف في سبيل الله ممن تُصرف له الزكاة: "ومجاهد وآلته ولو غنيا: كجاسوس"³⁰²، ويقول الدردير في شرحه على متن خليل: "وأشار للسابع بقوله

²⁹⁹ التوبة: 60

³⁰⁰ ن: "تفسير المنار" محمد رشيد رضا؛ مرجع سابق، بتصرف قليل، (10/ 435)

³⁰¹ ن: نفس المرجع (10/ 432)

³⁰² ن: "مختصر العلامة خليل"؛ لخليل بن إسحاق؛ المحقق: أحمد جاد، دار الحديث/القاهرة؛ ط: 1 سنة: 142هـ/2005م؛ ص: 59

(ومجاهد) أي المتلبس به إن كان ممن يجب عليه لكونه حرا مسلما ذكرا بالغاً قادراً (...). ويدخل فيه المرباط (وآلته) كسيف ورمح تشتري منها (ولو) كان المجاهد (غنيا) حين غزوه (كجاسوس) يرسل للاطلاع على عورات العدو ويعلمنا بها فيعطى ولو كافراً³⁰³

وقد ذهب الشيخ القرضاوي في كتابه فقه الزكاة³⁰⁴ حين تناول هذه النوع مما تصرف فيه الزكاة بعدما تناول أقوال كل المذاهب السنية وغيرها، إلى أن كل ما يخدم دين الإسلام ويدافع عن بيضة المسلمين ويحفظ هوية وعقيدة الإسلام، بالدفاع عنها من الغزو الفكري والثقافي الذي يهدد كيان الإسلام والمسلمين، كل ذلك في مسمى " في سبيل الله"، وبالتالي وجب صرف الزكاة فيه؛ إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب!!

وخلاصة القول أن الزكاة لها دور عظيم في هذا المجال الذي يُعتبر أهمّ مجال من مجالات العمران لدى الإنسان!!

• المجال الاجتماعي:

وأهم شيء تحقّقه الزكاة في هذا المجال هو ما يسمى اليوم بالتكافل أو التضامن الاجتماعي؛ وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله الشريف لمعاذ رضي الله عنه: (فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض الله عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)³⁰⁵؛ فالحديث صريح في الدور الاجتماعي الذي تقوم به الزكاة؛ وفي هذا الصدد يقول الدكتور القرضاوي: "إنّ الزكاة تعد بذلك أول تشريع منظم في سبيل ضمان اجتماعي، لا يعتمد على الصدقات الفردية التطوعية، بل يقوم على مساعدات حكومية دورية منتظمة، مساعدات غايتها تحقيق الكفاية لكل محتاج (...). ولم يكن ذلك خاصا بالمسلمين وحدهم، بل شمل من يعيش في ظل دولتهم من اليهود و النصارى..

هذا هو الضمان الاجتماعي، الذي لم تفكر فيه الدول الغربية إلا منذ وقت قريب، ولم

³⁰³ ن: "الشرح الكبير" للشيخ أحمد الدردير على مختصر خليل، دار الفكر، بدون طبعة، (497/1)

³⁰⁴ ن: "فقه الزكاة" للشيخ قرضاوي؛ مرجع سابق، من ص: 647 إلى ص: 681

³⁰⁵ متفق عليه، واللفظ للبخاري

تصل به إلى مستوى ضمان الإسلام في شموله لكل محتاج، وتحقيق الكفاية الكاملة له ولأسرته.. ومع هذا لم تفكر فيه إخلاصاً لله ولا رحمة بالضعفاء، ولكن دفعته إلى الثورات (...)

والعجيب أن يسبق الإسلام هذه الدول بقرون عديدة في إقامة ضمان اجتماعي يفرضه الدين - عن طريق فريضة الزكاة - وتنظمه الدولة، وتقام من أجله الحروب، - كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين حارب مانعي الزكاة - استخلاصاً لحقوق الفقراء من براثن الأغنياء." 306

ونظام الزكاة هو أحد شقي نظام الضمان الاجتماعي، وشقها الثاني هو التأمين الاجتماعي، ونظام الضمان الاجتماعي هو أحد شقي نظام الرعاية الاجتماعية، وشقها الآخر هو الخدمات الاجتماعية، والرعاية الاجتماعية هي أحد شقي التكافل، والشق الآخر هو الأمن؛ وعندما شرعت الزكاة خلال الفتح الإسلامي لأوروبا، لم يستطع الحكام في أوروبا أن يزيلوا نظام الزكاة بعد انحسار الإسلام عن أوروبا خوفاً من اندلاع الانتفاضات الشعبية والثورة على أنظمة الحكم، وتفادياً لشعور الشعب بأن الإسلام هو دين التكافل بين أفراد الأمة، استبدل القائمون على الأمر أسم الزكاة باسم آخر للتمويه هو كلمة المساعدات الاجتماعية". 307

• المجال الاقتصادي:

لا خلاف بين العقلاء أن أساس المشاكل الاقتصادية والاجتماعية هو الفقر، بل هو أساس المشاكل الدينية أيضاً، فما فتئت المشاكل بمختلف أنواعها من جهل وأمراض وكفر تنشأ عن الفقر؛ فالفقر خطر على العقيدة، وخطر على الأخلاق، وخطر على سلامة التفكير، على الأسرة والمجتمع، ولذلك استعاذ النبي ﷺ بالله من شره، فعن عائشة رضي الله

306 ن: "مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام" د: يوسف القرضاوي، بدون طبعة، بتصرف كثير زيادة ونقصاً؛ وكتاب "فقه الزكاة" مرجع سابق، (2/892-893)

307 ن: "الإسلام والضمان الاجتماعي" الدكتور الفنجري؛ دار ثقيف للنشر، الرياض الطبعة الثانية، 1982؛ بتصرف ص51.

عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ: (لهم إني أعوذ بك من فتنة النار ومن عذاب النار وأعوذ بك من فتنة الغنى وأعوذ بك من فتنة الفقر)³⁰⁸، وقد قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر في تعوذه بالكفر وهو شر ما يستعاذ به، وفي ذلك دلالة على خطره فعن أبي بكر مرفوعاً: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)³⁰⁹..

فالفقر قد يجر إلى الكفر لأنه قد يحمل على حسد الأغنياء، والحسد يأكل الحسنات، وقد يدفع إلى التذلل وعدم الرضا بالقضاء والقدر، والسخط على كل شيء، ومن هنا فإن الفقر إن لم يكن كفراً فهو جائرٌ إليه، كما جاء في الأثر: (كاد الفقر أن يكون كفراً)³¹⁰؛ وكما ذكر الإمام الراوي بقوله: "أن الأغنياء لو لم يقوموا بإصلاح مهمات الفقراء فرمى حملهم شدة الحاجة ومضرة المسكنة على الالتحاق بأعداء المسلمين، أو على الإقدام على الأفعال المنكرة كالسرقة وغيرها فكان إيجاب الزكاة يفيد هذه الفائدة فوجب القول بوجودها"³¹¹

لذلك كانت أهم ما تقصد إلى محاربته هذه الشعيرة الربانية هو الفقر وما يدور في فلكه من المشاكل الفرعية، ونجد ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفَقْرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾³¹²..

كما يوجد بيان هذا المقصد أيضاً في بعض أحاديث النبي ﷺ، كما في زكاة الفطر في قوله ﷺ عن ابن عمر وفيه: (أغنوهم - أي الفقراء - عن الطواف في هذا اليوم)³¹³؛ وفي

³⁰⁸ . رواه البخاري في صحيحه، باب الاستعاذة من فتنة الغنى، رقم: 6015

³⁰⁹ . رواه الإمام النسائي رقم: 1347؛ وصححه ابن حبان في "صحيحه" (3 / 303)، والحاكم في "مستدرکه" (1 / 383)، والألباني في "صحيح النسائي" ..

³¹⁰ . مروي عن أنس بن مالك؛ وفيه راوٍ ضعيف؛ ن: "المقاصد الحسنة" للسخاوي، الرقم: 368

³¹¹ . ن: "مفاتيح الغيب" أو ما يسمى "بالتفسير الكبير" للرازي؛ مصدر سابق؛ (16 / 80)

³¹² . التوبة: 60

³¹³ . أصله في الصحيحين

وصيته ﷺ كذلك لمعاذ رضي الله عنه، لما بعثه لليمن: (فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض الله عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)³¹⁴..

وهناك مجالات أخرى - نضرب عنها صفحا خشية الإطالة - تلعب فيها هذه الفريضة دورا بارزا، وتحقق فيها نتائج يانعة مثمرة، مما يتأكد معه أهمية هذه القاعدة العمرانية، وآثارها الاستشرافية للإنسان والعمران!! وهو ما نختم به هذا المبحث في المطلب الرابع والأخير..

³¹⁴ . سبق تخريجه

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

بعد هذه الجولة المتأنية مع هذه القاعدة العمرانية الكبرى في محطاتها المتنوعة، بدءاً بدلالاتها مروراً بأدلتها، ثم أهميتها ومجالاتها العمرانية؛ أنتقل إلى دورها الاستشرافي لعمران الأمة خصوصاً والإنسانية عموماً، والناظر بعمق في هذه القاعدة باستحضار دلالاتها وأدلتها ودورها في مجالات العمران كلها، ليقن يقيناً جازماً أن المسلمين لو أخذوا بهذه القاعدة موظفين مقاصدها التشريعية، لاستطاعوا أن يستردّوا مجدهم المسلوب، وعزّهم المفقود في المستقبل القريب، ولتمكّنوا من إعادة بناء عمرانهم التليد وحضارتهم الوارفة الظلال، وذلك لاعتبارات ومقاصد عدّة تروم الزكاة نحو تحقيقها؛ نُجملها فيما يلي:

• أولاً الزكاة والتوجيه الاقتصادي:

وهذا أثر استفتحت به لأنه قلّما ينتبه إليه المكلف بالزكاة، والسبب هو أنّ المزي لا ينظر إلا إلى النقص الذي تحدّثه الزكاة بإخراج جزء معين من المال، بينما الحقيقة أنّ الزكاة تعتبر من أهمّ العوامل التي تدفع برب المال إلى استثماره في ما يحقق أرباحاً زائدة على ما تستهلك هذه الفريضة!! فينمو المال ويزداد بدل أن يبقى مكنوزاً فتأكله الزكاة؛ ويعتبر هذا الأثر من أهم الآثار الاستشرافية لهذه الفريضة على المستوى العمراني للأمة؛ يقول الدكتور القرضاوي: "وللزكاة أثرها في الجانب الاقتصادي (...)"، فإنها بما تستقطعه من أرباب المال تدفعهم إلى العمل على تعويض ما أخذ منهم؛ وهذا أوضح ما يكون في زكاة النقود، فقد حرّم الإسلام كنزها، وحبسها عن التداول والتّشهير، وجاء في ذلك وعيد الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾³¹⁵..

ولم يكتف بهذا الوعيد الهادر الشديد، بل (...) وضع الخطة الحكيمة لإخراج النقود من الخزائن وذلك حين فرض 2,5% على الثروة النقدية، سواء استغلها صاحبها أم لم يستغلها؛ فالزكاة بذلك سوط يسوقه سوقاً إلى إخراج النقود لتعمل وتغل وتكسب وتنمى، حتى لا

يأتي عليها مرور الأعوام، وفي هذا جاءت الأحاديث والآثار: (اتجروا بأموال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة)³¹⁶..

إن إسهام الزكاة يظهر من خلال العمل المتلاحق على تدوير الأموال واستثمارها في تشييد المصانع، وإقامة العمائر، وزراعة الأراضي، وتبادل السلع والمنتجات، وعدم تجميد الأموال وتعطيلها حتى لا تتآكل وتتناقص بالزكاة في آخر الحول، إن لم تُستثمر وتُنمى، وبهذا الاستثمار المتلاحق للأموال التي ستُخرج منها الزكاة لاحقاً، تصبح الزكاة ركيزة أساسية من ركائز دفع عجلة التنمية الاقتصادية وزيادة الدخل.

• ثانياً: مقصد تحقيق السلم الاجتماعي والألفة

هذا من أهم مقاصد الزكاة أيضاً، وهو أشهر من أن يوضح؛ ذلك أن أداء الزكاة يترك أثراً نفسياً لدى الآخذ والمعطي، كما قال الإمام الرازي: "الحكمة في إيجاب الزكاة أمور، بعضها مصالح عائدة إلى مُعْطِي الزكاة، وبعضها عائدة إلى آخذ الزكاة"³¹⁷؛ ومما تحقّقه هذه الفريضة أنّها تقضي على جميع الأمراض النفسية والقلبية، وهو مقصود قوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾³¹⁸؛ "فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة، (...)"؛ أي تطهرهم وتركهم عن الاستغراق في طلب الدنيا"³¹⁹؛ فأداء الزكاة هو طهارة للمعطي وتركه له، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى السلام النفسي الذي بدوره يُنتج سلاماً اجتماعياً خالياً من الحقد والحسد والغل بين الفقراء والأغنياء، إذ النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها؛ وفي ذلك يقول الإمام الرازي: "والوجه الخامس: أن الخلق إذا علموا في الإنسان كونه ساعياً في إيصال

³¹⁶ ن: "فقه الزكاة"، للقرضاوي، مرجع سابق، بتصرف نقصا (896/2)

³¹⁷ ن: " مفاتيح الغيب " أو ما يسمى " بالتفسير الكبير " للرازي؛ مصدر سابق؛ (16 / 77)

³¹⁸ التوبة: 103

³¹⁹ ن: " مفاتيح الغيب " أو ما يسمى " بالتفسير الكبير " للرازي؛ مصدر سابق؛ بتصرف قليل (16 / 77)

الخيرات إليهم، وفي دفع الآفات عنهم، أحبوه بالطبع ومالت نفوسهم إليه لا محالة، (...). فالفقراء إذا علموا أن الرجل الغني يصرف إليهم طائفة من ماله، وأنه كلما كان ماله أكثر كان الذي يصرفه إليهم من ذلك المال أكثر، أمدوه بالدعاء والهمة، وللقلوب آثار وللأرواح حرارة، فصارت تلك الدعوات سببا لبقاء ذلك³²⁰؛ ويقول أيضا: "والوجه الثاني عشر: أن إيجاب الزكاة يوجب حصول الألف بالمودة بين المسلمين، وزوال الحقد والحسد عنهم"³²¹ كما تُعزز الزكاة وحدة المجتمع الإسلامي وتتجاوز الجغرافية السياسية لبلدانه، إذ الأصل في الزكاة المحلية أن توزع على فقراء البلد الذي تجب منه، لكن ذلك لا يمنع جواز نقلها إلى حيث تمس الحاجة إليها، وفي ذلك إشعار للمسلمين بوحدة أمتهم وبوحدة ذمتهم أيضاً..

• ثالثاً: مقصد تحقيق المساواة

ومن المقاصد أيضاً التي تتغيها هذه الفريضة الإسلامية، مقصد تحقيق المساواة بين أفراد المجتمع، حيث يعتبر هذا المقصد من أجل الآثار الاستشرافية للعمران الإسلامي؛ وهذا ما جاء التعليل به صريحاً في قوله تعالى: ﴿مَّا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنَ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾³²²؛ فتداول المال يحقق المساواة بين أفراد المجتمع الواحد، ويقضي على الفوارق الطبقيّة بين البشر، وقد رغب الإسلام في هذا الأمر، ومن الآليات التي نصبها لتحقيق مقصد المساواة، آلية الزكاة، التي تجعل المال متداولاً بين كل فئات المجتمع.

يقول الشيخ القرضاوي - حفظه الله -: "وإذا كان قد أقرّ التفاوت بين الناس في المعاش والأرزاق، (...) فمن المقرر أنّ الاعتراف بهذا التفاوت والتفاضل ليس معناه أن يدع الإسلام الغنيّ يزداد غنىً والفقير يزداد فقراً، فتتسع الشقّة بين الفريقين، ويصبح الأغنياء في المجتمع

³²⁰ ن: المصدر السابق؛ بتصرف قليل (16 / 78)

³²¹ ن: نفس المصدر؛ بتصرف قليل (16 / 79)

³²² الحشر: 7

طبقةٌ كُتِبَ لها أن تعيش في أبراج من العاج تتوارث النعيم والغنى، ويُمسي الفقراء طبقةً كُتِبَ عليها أن تموت في أكواخ من البؤس والحرمان..

بل تدخل الإسلام بتشريعاته القانونية، وتنظيماته العملية، ووصاياها الترغيبية والترهيبية، لتقريب المسافة بين هؤلاء وأولئك؛ فعمل على الحد من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء³²³..

وأخيرا هذا غيض من فيض!! ذكرته لبيان الآثار الاستشرافية لهذه القاعدة العمرانية التي دُبِّجَتها ب (الزكاة فريضة شرعية، وضرورة عمرانية)، وقد اتضح فعلا أن الزكاة فريضة أوجبها الخالق سبحانه وتعالى على عباده، لكونها إحدى ضرورات العمران البشري التي لا قيام له إلا بها؛ وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾¹

³²³ ن: "فقه الزكاة" للقرضاوي، مرجع سابق، بتصرف (901 / 2)

الفصل الثالث

قواعد عمرانية

متعلقة بالتصوف والسلوك

لا مزية لكل دارس لعلم التربية والسلوك أو ما يصطلح عليه بعلم التصوف، أنه مشحون بقواعد وأصول ترجع إليها فروع ومسائله؛ وقد ألف الشيخ أحمد زروق الفاسي (846 هـ - / 899 هـ -) كتاباً سماه (قواعد التصوف)³²⁴، حيث ضمّنه 225 قاعدة في علم التصوف؛ وقد بيّن مؤلفه رحمه الله أنّ التصوف علم قائم على أصول ضابطة وقواعد حاكمية، فإذا خالف منتسب لهذا المذهب - أي التصوف - قواعد فلا يعني ذلك إنكار المذهب وفساده جملة؛ وهو ما بيّنه رحمه في قاعدته الذهبية الخامسة والثلاثين، :³²⁵ "يعتبر الفرع بأصله وقاعدته، فإن وافق قُبِلَ، وإلا رد على مدعيه؛ (...) فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين، وكالمطعون عليهم من المتفقيهن، ويردّ قولهم، ويُجتنب فعلهم، ولا يترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له، وظهورهم فيه."³²⁵ والمقصود هنا أن علم التصوف ليس خلوّاً من القواعد والأصول كما يظن البعض، بل مثله في ذلك مثل باقي علوم الشريعة كالفقه والتفسير والحديث، فكلها راجعة إلى أصولها وقواعدها..

وقد سبق أن بيّنت أن التزكية من أهم وسائل العمران³²⁶، ولا ريب أن علم التصوف والسلوك من أهم وظائفه وأهدافه التي ينحوها تربية الإنسان وتركيبته ليتأهل للقيام بوظيفة العمران المكلف بها من لدن الرحيم الرحمان!!

وبناء على ما سلف فإن هناك مجموعة من القواعد العمرانية المتعلقة بعلم السلوك والتصوف، سأنخب منها ثلاثة أتناولها بالدراسة وفق المنهجية التي اعتمدتها في الفصلين السابقين، لأنّ الغرض من ذلك هو تقديم مجموعة من القواعد العمرانية، تمثل رؤية

³²⁴. تسمية الكتاب "قواعد التصوف؛ على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة"؛ ألفه الشيخ أحمد زروق الفاسي رحمه الله؛ مرجع سابق.

³²⁵. نفس المصدر، بتصرف ص: 51

³²⁶. المطلب الثاني من المبحث الثاني في الفصل الثالث من الباب الأول

استراتيجية واستشرافية لتجديد الأمة عمرانيا وحضاريا!!

وهذه المباحث هي:

المبحث الأول: قاعدة (صلاح العمران بصلاح الإنسان)

المبحث الثاني: قاعدة (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)

المبحث الثالث: قاعدة (الظلم مؤذن بخراب العمران)

المبحث الأول: قاعدة (صلاح العمران بصلاح الإنسان)

هذه قاعدة عمرانية تتعلق بأصل من أصول التربية والسلوك، جعلتها أولى القواعد في هذا الفصل، إذ تمثل إحدى كبريات القواعد المرتبطة بعلم التصوف، إن لم تكن أكبرها، حيث يمكن إدراج مجموعة من القواعد الصغرى تحتها؛ وقد صغتها بهذه الديباجة بعد تأملي لنصوص القرآن والسنة، وكلام أهل الملة!

ولدراسة هذه القاعدة دراسة متأنية مثمرة، نقدّم من خلالها - بإذن الله تعالى - ما يُسهم بشكل أو بآخر في بناء عمران الأمة المحمدية حتى يستوي على سوقه فيعجبُ العمرانيين ليغيط به المخربين والمفسدين، فيتحقق لأمتنا - بإذن الله - شهودها الحضاري وريقها العمراني!!

من أجل ذلك، كان لابد من النظر في هذه القاعدة العمرانية عبر زواياها المتعددة، بوضع مجموعة من التساؤلات نسوقها - كالعادة - كما يلي:

ما مفهوم هذه القاعدة؟ وما أدلتها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما هي آثارها الاستشرافية؟

تلك أسئلة أربعة، تقتضي الإجابة عنها تخصيصَ مطلب مستقل لكل سؤال!! ممّا يجعل الحديث عن ذلك يستغرق مطالبَ أربعةً أوضح في ثناياها كلّ جانب من جوانب تلك القاعدة العمرانية، التي أخاها من أهمّ القواعد العمرانية ليس في هذا الفصل فحسب، بل في الموضوع كله؛ إذ تتصل بكلية من كليات الشريعة الكبرى، كما سيتبين - بإذن الله - من خلال دراستها؛ ذلك ما كان، والله المستعان!!

وهذه المطالب جاءت كالعادة في الصورة الآتية:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحججها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

لتجلية معنى القاعدة ومغزاها لابد من تناول مفرداتها بالبيان والتوضيح؛ والمتأمل للقاعدة التي بين أيدينا يُلفيها مركبة من ثلاثة مصطلحات، اثنان سبق بيانهما وتوضيحهما، وهما العمران³²⁷ والإنسان³²⁸؛ أمّا الثالث وهو مصطلح الصلاح، فلم يسبق أن تناولناه، وبالتالي فلا بد من بيانه حتى تتضح الرؤية كاملة، لأنه يمثل الجزء الأهم من أجزاء القاعدة، فتأمل!!

وبيان هذا المفهوم يتوقف على تناوله من نافذتين: لغوية واصطلاحية، وسنحاول الإيجاز قدر ما يتحقق به الغرض؛ فما معنى الصلاح؟!

لو رجعنا إلى مفهومه في المعاجم اللغوية، فهناك قول ابن فارس: "(صلح) الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد؛ يقال: صلح الشيء يصلح صلاحاً؛ ويقال: صلح بفتح اللام."³²⁹ وقول ابن منظور: "والإصلاح: نقيض الإفساد؛ والمصلحة: الصلاح؛ والمصلحة واحدة المصالح؛ والاستصلاح: نقيض الاستفساد؛ وأصلح الشيء بعد فساد: أقامه؛ وأصلح الدابة: أحسن إليها فصلحت."³³⁰ والصلاح عند أبي البقاء الكفوي: "هو سلوك طريق الهدى وقيل: هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل؛ والصلاح: المستقيم الحال في نفسه وقال بعضهم: القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد؛ والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى الأنبياء والمرسلين"³³¹..

³²⁷ ورد تعريفه لغة واصطلاحاً في المبحث الثاني من الفصل الأول؛ الباب الأول

³²⁸ ورد تعريفه في المسألة الأولى من المطلب الأول عند الحديث عن أركان العمران في المبحث الثالث من

الفصل الثاني؛ الباب الأول

³²⁹ ن: "مقاييس اللغة" لابن فارس، مصدر سابق، (303/3)

³³⁰ ن: "لسان العرب" لابن منظور، مصدر سابق، (517/2)، بتصرف

³³¹ ن: "الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية"؛ لأبي البقاء الكفوي؛ مصدر سابق (561/1)

يقول أستاذنا الدكتور سعيد شبار معلقاً على تعريف أبي البقاء الكفوي: " فجعل رحمه الله الصلاح متردداً بين صلاح النفس في ذاتها، وصلاحها مع غيرها؛ مع تحديد سبل الصلاح في الهداية الشرعية والعقلية..

ومنهم من حمل الصلاح على الاستقامة والإحسان والاعتدال، والرعاية والتعهد، والمسألة والتوادة.. وغيرها، مما يدل على سلامة الحال في الظاهر والباطن في الفرد كما في الجماعة"³³²

وإذا رجعنا إلى المفهوم الاصطلاحي فإنه لا يبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي؛ حيث نجد الإمام الراغب الأصفهاني في بحثه عن هذا المصطلح ومدلوله في القرآن، يقول:

صلح: الصلاح ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقبول في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيئًا - ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها - والذين آمنوا وعملوا الصالحات)؛ والصلح يختص بإزالة النفاق بين الناس يُقال منه اصطلاحوا وتصلحوا [يُصلحها بينهما صلحاً - والصلح خير - وإن تُصلحُوا وتتقوا - فأصلحوا بينهما - فأصلحوا بين أخويكم]"³³³

والصلاح هنا يراد به أن يكون الإنسان صالحاً في ذاته، قد بدأ بنفسه فطهرها وهذبها وأقامها على الصراط فأصبحت نفساً طيبة صالحة؛ يقول الإمام الغزالي رحمه الله: " فحق على كل مسلم ان يبدأ بنفسه فيصلحها.."³³⁴

ويقول الآلوسي رحمه الله: " الصلاح هو عبارة عن الإتيان بما ينبغي، والتحرز عما لا

³³² ن: " الثقافة والعولمة"؛ للدكتور سعيد شبار؛ نشر: دار الإنماء الثقافي؛ ط:1، سنة 2014م؛ ص: 62

³³³ ن: "مفردات الراغب"؛ مصدر سابق، ص284.

³³⁴ ن: "إحياء علوم الدين"؛ مصدر سابق، (343/2)

ينبغي³³⁵؛ ويقول في موضع آخر: "والصلاح ضد الفساد، وهو جامع لكل خير، وله مراتب غير متناهية، ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"³³⁶..

وزبدة القول أن الصلاح هو جماع كل خير ونفع، ودرء كل شر وسوء، معاشا ومعادا، وضده الفساد؛ وقد قيل وبضدها تتمايز الأشياء!

وهنا لابد أن أشير إلى أنّ الصلاح لا يمكن أن يتحقق على الوجه الأكمل إلا عن طريق الإصلاح كعملية تغييرية داخلية وخارجية، وأزعم أنّ هذا هو السر الذي يتجلى في كون القرآن الكريم يقرن في كثير من آيه المباركة الإيمان بالعمل الصالح، مما يدل على أن الإيمان يمثل عملية إصلاحية داخلية تُنتج صلاحا وفلاحا؛ وهنا نلمس العلاقة الجدلية تفاعلا وانفعالا بين الصلاح والإصلاح، فلا صلاح دون إصلاح، ولا إصلاح مثمر دون صلاح!! وفي هذا الصدد يقول الإمام الرباني الصوفي الغزالي رحمه الله: "هداية الغير فرع للاهتمام، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة؛ والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح، فمن ليس بصلاح في نفسه فكيف يصلح غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج"³³⁷؛ وبالتالي فقولنا (صلاح العمران بصلاح الإنسان) يقتضي عملية الإصلاح، فتأمل!!

والعجيب في الأمر أن الفعل (أصلح) المتعدي، قد يعني الفعل اللازم (صلح)، كما ذكر ذلك الإمام الألوسي في روحه: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، (...) وَأَصْلَحُوا أَي دَخَلُوا فِي الصَّلَاحِ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لَازِمٌ مِنْ قَبِيلِ - أَصْبَحُوا - أَي دَخَلُوا فِي الصَّبَاحِ،

³³⁵ ن: "روح المعاني"؛ للألوسي مصدر سابق، (203/4)

³³⁶ المصدر السابق، (345/10)

³³⁷ ن: "إحياء علوم الدين" للغزالي، مصدر سابق، (312/2)

ويجوز أن يكون متعديا والمفعول محذوف - أي أصلحوا ما أفسدوا - "338

فإذا صلح الإنسان في نفسه عبر منهج التزكية بواسطة المجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾³³⁹؛ ثم أصلح غيره عبر وسائل الإصلاح، وعلى رأسها وسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه المعروفة شرعا وعرفا - ليس محل بياها هنا - حصل الإصلاح لتقائيا للمجتمع، لأنّ صلاح الكل من صلاح الجزء، وهذا ما نطق به القرآن الكريم في غير ما آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾³⁴⁰؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يمثل وسيلة إصلاحية تعتبر قوام بقاء المجتمع وخيريته!!

فإذا تحقق صلاح المجتمع تحقق صلاح عمران له لزوما وتلقائيا دون كلفة!! وهو ما نطق به كتاب الله عز وجل حقا وصدقا: ﴿إِنْ أُلِّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³⁴¹؛ فتغيير الخراب إلى عمران، وتبديل المحن إلى منحة، والنّقم إلى نعم، كل ذلك منطلقه ومقدّمته من الإنسان ذاته، من تغييره النفسي الذاتي؛ وهذا معنى قاعدتنا العمرانية: (صلاح العمران بصلاح الإنسان) التي جعلت ديباجتها عبارة عن قضية حملية - بتعبير المناطقة - موضوعها (صلاح العمران)، ومحمولها يمكن تقديره هنا حسب

³³⁸ ن: "روح المعاني" للآلوسي، مصدر سابق، (209/2)

³³⁹ العنكبوت: 69

³⁴⁰ آل عمران: 110

³⁴¹ الرعد: 11

معنى الباء³⁴² الداخلة على (صلاح الإنسان).

فقد يكون معناها المصاحبة، فيكون محمول القضية (مصاحب)؛ فيكون معنى القاعدة أن صلاح العمران مصاحب لصلاح الإنسان، أي ملازم له لا ينفك عنه، وهذا صحيح؛ وقد يكون معناها - أي الباء - الاستعانة فيكون المعنى أن صلاح الإنسان مُعِينٌ ومساعدٌ لتحقيق صلاح العمران، وهو كذلك! وقد يكون معناها السببية، فنقدّر محمول القضية (مُسَبَّبٌ)، وبالتالي فالقاعدة تعني أن صلاح العمران مُسَبَّبٌ لصلاح الإنسان، أي أن صلاح الإنسان سَبَبٌ في تحقيق صلاح العمران، وهو صحيح كذلك!

فكل هذه المعاني الثلاث صحيحة تحتملها هذه القاعدة العمرانية؛ بل يمكن أن نضيف معنى رابعا للباء - أي الداخلة على صلاح الإنسان - وهو الإلصاق، وهو المعنى المتفق عليه عند اللغويين، فيكون معنى القاعدة أن صلاح العمران لاصق لصلاح الإنسان ولازم له ولا ينفك عنه ولا يتخلف ولا يختلف، وهو صحيح أيضا! والدليل على ذلك أننا نستطيع أن نحول هذه القاعدة العمرانية من قضية حملية (صلاح العمران بصلاح الإنسان)، إلى قضية شرطية متصلة لزومية فنقول (كلما كان الإنسان صالحا كان العمران صالحا)، ومعلوم عند المناطق ما بين المقدم والتالي من لزوم واتصال في القضية الشرطية المتصلة³⁴³، فتنبه!!

³⁴² الباء حرف جر لها معان كثيرة أوصلها ابن هشام الأنصاري في مغني اللبيب (1/101 . 106) إلى 14 معنى؛ بينما سبويه اكتفى بمعنى واحد وهو الإلصاق، وهو المعنى الأصل الذي لا يفارقها..

³⁴³ القضايا عند المناطق تنقسم إلى قسمين: قضية حملية تتكون من موضوع ومحمول ونسبة بينهما؛ وقضية شرطية تتركب من مقدم وتالي، وهذه الأخيرة تنقسم إلى: شرطية متصلة، وشرطية منفصلة؛ ولمزيد من التفصيل يُرجع إلى " ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة " لعبد الرحمان حسن حنككة الميداني، ط:12 (1432هـ/2011)، ص:68، إلى:117؛ وكذلك " شرح نظم السلم المنورق " للقويسني، مرجع سابق، ص34 36

ولتأكيد ما سبق فإن الشريعة الإسلامية جاءت بأحكامها لإصلاح الإنسان من أجل تحقيق صلاح العمران؛ يقول الطاهر بن عاشور: "فقد انتظم لنا الآن أن المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد؛ وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساد؛ فإنه لما كان هو المهيمن على هذا العالم كان في صلاحه صلاح العالم وأحواله؛ ولذلك نرى الإسلام عاجل صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعته وهو النوع كله"³⁴⁴؛ إذن فلا صلاح لعمران العالم إلا بصلاح الإنسان بمجموعه وأفراده!!

وقد يبرز سؤال قوي في الأذهان، لماذا كان صلاح العمران مرهونا بصلاح الإنسان؟! والجواب باختصار من جهتين، الأولى: أنه لا تعمير ولا عمران بغير إنسان!! فهو المحور الأساس، وقطب الرchy في عملية العمران، إذ يعتبر - أي الإنسان - المعمّر والمسؤول عن العمران مُدْ أن جعله خالقه سبحانه وتعالى خليفة في أرضه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾³⁴⁵؛ والجهة الثانية: أنّ عمارة الأرض وعمرانها يتأثر سلبا وإيجابا بنوعية هذا الإنسان وما يعتقده من تصورات وتصديقات، وما يتميز به من مبادئ وأخلاق، وهو ما قرّره القرآن الكريم عبر قصصه المعجز الذي تناول عمران واجتماع أقوام خلوا من قبل ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾³⁴⁶؛ فكانوا عبرة للمعتبرين، وآية للمتوسمين!!

³⁴⁴ ن: "مقاصد الشريعة الإسلامية"؛ لابن عاشور، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سنة 1425 هـ/ 2004 م، (197/3)

³⁴⁵ البقرة: 30

³⁴⁶ الروم: 9

"فكما يكون فكر الإنسان وتصوره للحياة؛ تكون عمارته المادية"³⁴⁷؛ وقد سبق أن بسطت الكلام بأدلتها في هذا الأمر عند حديثي عن أول ركن من أركان العمران، فلا داعي لتكراره؛ فليُنظر هناك³⁴⁸..

وجَماع القول ولَبُّهُ " أن تحضير الإنسان شرط أساسي، وسابق على العمران، وما لم ننجح في ذلك فإن جهودنا في إعمار الأرض ستكون ضعيفة الثمار، محدودة النجاح، بل إن كل إنجازات الإنسان على الصعد المادية والعمرانية على مدار التاريخ، كان يتم تدميرها بسبب حماقات الإنسان ورعونته وانحرافه عن الصراط المستقيم!! وهذا ما تقرّره قاعدتنا العمرانية: (صلاح العمران بصلاح الإنسان)؛ المتعلقة بعلم السلوك والتربية، أو ما يسمى بعلم التصوف؛ حيث تعتبر قاعدة مركزية في بحثنا هذا، دَلَّ عليها عنوان الأطروحة بديباجته الموسومة ب(فقه قواعد العمران وعلاقته بالإنسان) فتنبّه إليه، وتأمله!!

³⁴⁷ ن: " الفطرية" لفريد الأنصاري؛ مرجع سابق، ص: 209..

³⁴⁸ ذكرت ذلك بالتفصيل مع الأدلة في المطلب: 1، من المبحث: 3، من الفصل الثاني؛ الباب الأول.

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

هذه القاعدة العظيمة لها أدلتها من الشريعة الإسلامية، ومن أقوال أهل العلم؛ وهي أدلة مستفيضة وكثيرة، مما يدل على أهميتها ومكانتها الحضارية، وأنها من القواعد العمرانية الكبرى التي وجب الاهتمام بها ودراستها دراسة عميقة حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها!!

وسأعرض جملة من الأدلة الشرعية تُبرِّز أهمية صلاح الإنسان وإصلاحه، ودور ذلك في تحقيق صلاح العمران؛ كما أنني سأستأنس ببعض الأدلة على خطورة الفساد بمختلف أنواعه على عمران الإنسان وحضارته، إذ بضدها تتمايز الأشياء!!

وبادئ ذي بدء فلا بد أن أشير إلى أنّ لفظ (صلاح) ومشتقاته بلغ وروده في القرآن الكريم مئة وثمانين موضعاً؛ ثلاثون مرة بصيغة الفعل بأزمته الثلاثة، ومئة وخمسون اسماً بصيغ مختلفة³⁴⁹؛ مما يدل على حضور هذا المصطلح في النص القرآني بقوة؛ أضف إلى ذلك أن ضد هذه الكلمة - الفساد أعني - ذكره الله تعالى في مقابل الصلاح في القرآن الكريم خمسين مرة³⁵⁰؛ هذا بغض النظر عن ذكر وسائل الإصلاح كالأمر بالمعروف والنهي المنكر، وهو كثير في القرآن، أو ذكر التغيير أو الأمر بتزكية النفس أو مجاهدتها أو الأمر بالإيمان أو الإحسان أو التقوى، أو النهي عن كل فساد أو إفساد.. أو التذكير بالآخرة، وبيان ثواب الصالحين المصلحين، وعقاب الفاسدين المفسدين.. وغير ذلك مما يطول ذكره..

كما لا ننسى أن نبين أن السنة النبوية مشحونة بمثل ما ذكرت مما تضمنه القرآن الكريم في هذا الصدد وزيادة، نظراً لاستفاضة الأحاديث الشريفة وما يتعلّق بها من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، وقد ذكر بعض الباحثين أن مصطلح (صلاح) بمشتقاته

³⁴⁹ ن: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"؛ ل محمد فؤاد عبد الباقي؛ مصدر سابق، ص 504 إلى 507

³⁵⁰ المصدر السابق، ص 629 630

ورد في أربعة وتسعين وثلاثمائة حديث³⁵¹؛ وأظن أن العدد يكون أكثر من ذلك، فقد جعل الإمام البخاري رحمه الله فقط في صحيحه كتابا خاصا بالصلح ضمّنه أربعة عشر بابا؛ هذا بغض النظر عن نصوص السيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبغض النظر كما ذكرت - قبل - عن الألفاظ الأخرى التي ترمي إلى المقصد والمعنى ذاتهما؛ لذلك كان مقصد الشريعة الإسلامية بنصوصها القرآنية والحديثية وقواعدها هو إصلاح الإنسان لإصلاح العمران، فتنبه!! وهو ما ذكره الشيخ التونسي ابن عاشور بقوله: "إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا - من كليات دلائلها، ومن جزئياتها المستقرأة - أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان"³⁵²؛ وهو ما تتضمنه قاعدتنا العمرانية: (صلاح العمران بصلاح الإنسان)!! المرتبطة بعنوان الأطروحة المركزي، كما أشرت آنفا!!

وأحسب أن من أهم الأدلة التي تقرّر القاعدة العمرانية التي نحن بصدددها، حيث تعتبر أصلا عظيما لهذا الباب، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾³⁵³؛ أي الأرض التي جعلها الله مسرحا للعمران، وقد سبق أن بينت³⁵⁴ أن الله تعالى هيأ الأرض وأودع فيها من البركات والخيرات، وزودها بقوانين ونواميس تمكّن الإنسان من تسخيرها وتوظيفها في تحقيق العمران بما يتوافق مع وظيفة الاستخلاف عبودية لله تعالى وتعبدا، وبالتالي فالأرض بمذه

³⁵¹ ن: " الثقافة والعولمة" د سعيد شبار، مرجع سابق، ص63؛ نقلا عن أطروحة جامعية بعنوان "مفهوم الصلاح والإصلاح في القرآن والحديث"، نوقشت بكلية الآداب (ظهر المهرز)، فاس..

³⁵² ن: " مقاصد الشريعة" لابن عاشور، مرجع سابق (194/3)

³⁵³ الأنبياء: 105.

³⁵⁴ في المطلب الثالث من المبحث 3، في الفصل الثاني من الباب الأول..

الخصائص والمميزات صالحة ومهيأة للعمران، ولذلك كان الواجب على الإنسان أن يستثمر الأرض بكل ما فيها لتحقيق ما يعود على عمرانه بالنفع والصلاح في المعاش والمعاد، وأن يتجنب إفسادها: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾³⁵⁵؛ ومن ثم كان الإنسان الصالح هو الذي يستطيع إصلاح الأرض: "بعدم مصادمة هذه النواميس، بل بالتفاعل الإيجابي معها وفق سنة التسخير ومبدأ الاستخلاف (...). وكل اعتداء سافر على شيء من هذه المستخرات هو إفساد فيها، سواء كان تلويثا لمائها وهوائها، أو تدميرا لبناتها وكائناتها.. بالحروب أو النفايات أو بالتجارب. وبكل بحث عن الربح الفاحش على حساب الطبيعة وجمالها"³⁵⁶..

ولأجل ذلك قضى الله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾؛ يقول الإمام الشعراوي في لفظة عمرانية عميقة عجيبة لهذه الآية الكريمة: ". ويكون المعنى أن الله يُمكن الصالح من الأرض، الصالح الذي يَعْمُرُها ولو كان كافراً - فعليه كفره - لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله، (...) يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾³⁵⁷؛ لكن عمارة الكفار للأرض وتمكينهم للحضارة سرعان ما تنزل بهم النكبات، وتنقلب عليهم حضارتهم، (...)، فَمَنْ أَتَقَنَ النُّوَاحِيَ الْمَادِيَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ أَخَذَهَا وَتَرَفَ بِهَا فِي الدِّينَا، أَمَّا الصَّلَاحُ الدِّينِي وَالْخُلُقِي وَالْقِيَمِي فَهُوَ سَبِيلٌ لَتَرَفِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ.

وهكذا تشمل الآية (..) الصلاح المادي الدنيوي، والصلاح المعنوي الأخروي، (...)

³⁵⁵ . الأعراف: 56

³⁵⁶ ن: "الثقافة والعولمة" د سعيد شبار، مرجع سابق، بتصرف قليل ص 64

³⁵⁷ . الشورى: 20

ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظّمها (...) وهذا لا يقوم به البشر، وإنما ربُّ البشر الذي يعلم ما يُصلحهم ويُشرّع لهم ما يُسعدهم."358..

ولذلك كان وعد الله للصالحين بالتمكين في الأرض بتحقيق عمرانها بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾359؛ وهذه الآية عجيبة فهي في حدّ ذاتها قاعدة أساس للعمران تتضمن كل كلمات قاعدتنا العمرانية التي ندندن حولها وزيادة؛ يقول الإمام الرازي لله دره: "فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أي الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكيين كما استخلف عليها من قبلهم (...)، وأنه يمكن لهم دينهم، وتمكينه ذلك هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم"360.

إذن فلا سيادة ولا ريادة، ولا استخلاف ولا ملك ولا غلبة، - وكل ذلك يدخل في معنى صلاح العمران - إلا بالعمل الصالح الذي لا يصدر إلا من إنسان صالح، إذ كل إناء بالذي فيه ينضح!!

وقد جنّب الله تعالى الصالحين المصلحين هلاك عمرانهم ووقايتهم من كل الدمار بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾361؛ فيتضح

358 ن: "تفسير الشعراوي" للشيخ الشعراوي، مرجع سابق، بتصرف كثير (9672 9667/16)

359 النور: 55

360 ن: "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي؛ مصدر سابق (412/24)

361 هود: 117

من خلال ظلال هذه الآية أنّ صلاح العمران منوط بصلاح المعمر؛ يقول الشعراوي في تفسير هذه الآية: "... إن المصلح هو الذي يترك الصالح على صلاحه، أو يزيده صلاحاً يؤدي إلى ترفه وراحته، والوصول إلى الغاية بأقل مجهود في أقل وقت..

والقرى التي يصلح أهلها؛ لا يهلكها الله؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون، ولم تتعاند الحركات؛ بل تتساند وتتعاقد، ويتواجد المجتمع المنشود؛ وهذا لا يتحقق إلا بمنهج الله الذي خلق!!

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوي، ولكنهم اهتموا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل الأمم الملحدة التي اهتمت إلى شيء ينظم حياتهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشري أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس (...)"³⁶² ولكن يبقى - في نظري - هذا نادر الوجود، وربما متعذر الوجود؛ إذ سرعان ما يزيغ الإنسان وتتغلب الشهوة على الفطرة، فتعارض مصالح الناس فيقع بذلك من الفساد العريض العميم، ما الله به عليم!! وهو ما أقره كثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الغربيين، مثل (أوغست كونت Auguste Comte)³⁶³؛ علاوة على علماء الإسلام الذين يجمعون على ذلك؛ ومن أجل ذلك اعتبرنا الإيمان والتوحيد عند الحديث عن شروط العمران من أهمها، فذكرت كلام الإمام الماوردي وغيره حينئذ³⁶⁴؛ كما قررت أيضا - دائما في الباب الأول³⁶⁵ - أنّ الإيمان روح العمران وحياته التي

³⁶² ن: "تفسير الشعراوي" مرجع سابق، بتصرف كثير: زيادة ونقصانا، (11/ 6753 وما بعدها..

³⁶³ أوغست كونت (Auguste Comte) (1798 / 1857) عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي؛ أنظر "الدين واليات الضبط الاجتماع"، الدكتور فالح جابر جاسم الغرابي؛ من مجلة أورو، العدد الثاني، 2017م؛ ص: 422 وما بعدها..

³⁶⁴ ذكرت ذلك مطولا بأدلتها وبراهنه في خمس مسائل ضمن المطلب الأول تحت عنوان "التوحيد والإيمان"؛ من المبحث: 2 المتعلق بشروط العمران، من الفصل 2 في الباب الأول.

³⁶⁵ أوردت ذلك بالتفصيل في المسألة الثانية، عند الحديث عن صفة الإيمان والربانية التي تعتبر إحدى صفات الإنسان المعمر؛ في المبحث: 3، الذي خصصته للكلام عن أركان العمران؛ من الفصل 2 في الباب الأول.

تسري في كيانه، فإذا انطفأت هذه الروح انهدم العمران، وآل إلى خراب وبياب! إذ أنّ المؤمن موقن أنّ عمران الأرض بالعمل الصالح واجب ديني يأثم بتركه أو الإخلال به، فتأمل!!

ويدخل في مستمى صلاح الإنسان أيضا حسب هذا الموضوع: "استخراج واستكشاف سنن وقواعد عمران الأرض واجتماعه في أمنه وغذائه وسائر حاجاته، والتفاعل الإيجابي مع كل ذلك؛ وإلا كان في مصادمته لها هلاكه وخراب عمرانه وحضارته؛ وهو ما يهدد الإنسان المعاصر بسبب فسادهِ وإفساده لبيئته، المصاحب لطغيانه وجبروته، وتمردّه على خالقه"³⁶⁶؛ حتى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾³⁶⁷؛ فيا ليتهم يرجعون عن الفساد والإفساد إلى الصلاح والإصلاح، ففيه خيرهم ونجاتهم!!

وقد بيّن النبي ﷺ خطورة فساد الإنسان على مصير العمران الإنساني في أحاديث كثيرة أكتفي بإيراد حديثين منها خشية الإطالة، فعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها أن النبي ﷺ، دخل عليها يوما فزعا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه؛ وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله: أهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم إذا كثر الخبث)³⁶⁸؛ وعن عبد الله بن عمر، قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في

³⁶⁶ ن: " الثقافة والعولمة" د سعيد شبار، مرجع سابق، بتصرف كثير زيادة ونقصا، ص 65

³⁶⁷ .الروم: 41

³⁶⁸ . رواه البخاري بلفظه في صحيحه، رقم: 3346؛ ومسلم أيضا، رقم: 2880

أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم)³⁶⁹.

ومن الملاحظ بوضوح من خلال الحديثين الشريفين أن فساد الإنسان في أخلاقه وقيمه يُنتج فساد العمران وخرابه، وهو ما يدل بقياس العكس أن صلاح الإنسان يُثمر صلاح العمران، فهي معادلة ثنائية، وهو مضمون قاعدتنا العمرانية (صلاح العمران بصلاح الإنسان)؛ فتأمل!!

ولذلك نهي الشرع الحنيف عن كل أنواع الفساد بداية بالكفر إلى أقل شيء يندرج تحت مسمى الفساد، ومن المعلوم عند الأصوليين أن النهي عن الشيء أمر بضده، وأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فيكون الأمر بالصلاح والإصلاح نهي عن الفساد والإفساد، والعكس صحيح؛ وبالتالي فجميع الأدلة الآمرة بالصلاح والإصلاح يستفاد منها النهي عن ضدهما، وكذلك الأدلة الناهية عن الفساد والإفساد يؤخذ منها الأمر عن ضدهما، فتنبه!!

هذا وإن إصلاح نفس الإنسان وعمرانها عبر الإيمان بالله مع عملية التزكية، تحلية وتحلية، تشديدا وتهذيبا، ليعتبر مقدّمة أساس في تحقيق صلاح الإنسان، ثم بعد ذلك صلاح العمران بنزول الخيرات والبركات، وقد أكد القرآن على هذه الحقيقة في غير ما آية وأكثر من سياق؛ وها الآية ناطقة فتأملها!! واقرأ معي إن شئت قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْيَاءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ

³⁶⁹ . رواه ابن ماجه في سننه بلفظه، رقم: 4019، والطبراني في الأوسط أيضا، رقم: 4671، وغيرها بسند صحيح

وَالْأَرْضِ وَلَكِ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣٧٠﴾

استنتاج:

تلك حقيقة قرآنية كونية، وسنة اجتماعية، وقاعدة عمرانية جديرة

بالتأمل والتدبر، من أجل إصلاح الإنسان وبناء العمران!!

وهكذا أوردنا طائفة من الأدلة شاهدة بمنطوقها ومفهومها بحق على
أنّ (صلاح العمران بصلاح الإنسان)؛ فكانت قاعدة عمرانية لها دورها الكبير
في العديد من مجالات العمران، وهو ما نفرد للحديث عنه المطلب القادم.

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال الجواب عن السؤالين الأولين في المطلبين السابقين ننتقل إلى الجواب عن السؤال الثالث، والمتعلق بدور القاعدة وأهميتها العمرانية في مجالات الحياة المختلفة..

وإذا دققنا النظر مرة أخرى في هذه القاعدة العمرانية (صلاح العمران بصلاح الإنسان) من خلال تناولنا لمفهومها وأدلتها ألفيناها ذات دور عمراني عميق، لأنّ صفة الصلاح وعملية الإصلاح المرتبطتين بالمعمّر - الإنسان - تندرج في مجالات عمرانية عديدة، ممّا يؤكّد على قوة هذه القاعدة وحضورها المؤثّر والقوي في عمران الإنسان في العاجل والآجل، وفي المعاش والمعاد!!

ومن أجل بيان ذلك كان لابد من الحديث عن بعض المجالات التي تؤطرها هذه القاعدة العمرانية، ويظهر من خلالها أثرها القوي ودورها الفعال سواء تعلق الأمر بالإنسان نفسه كفاعل عمراني، أو ارتبط بالعمران كأثر ونتيجة لهذا الإنسان في المعاش أو المعاد!!

• المجال العقدي الفكري:

وهذا من أهم المجالات التي تحتاج إلى إصلاح وتجديد مستمر، لأنّ العقائد إذا صحت استقامت الأعمال والأبدان، وصلحت الحضارة والعمران، ولعلّ هذا ممّا يستفاد من حديث سيدنا رسول الله ﷺ: (ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلّحت صلّح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)³⁷¹؛ فعبّر هنا عن الإيمان بالقلب، لأنّ هذا الأخير محلّ الإيمان، وهذا من باب ذكر المحلّ وإرادة الحال، وهو من أنواع المجاز المرسل؛ والواقع خير شاهد على ذلك، فإن الإنسان حينما يؤمن بالله فإن حياته تستقيم وعمله يصلح، إذ هو يراقب الله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة، لعلمه أن الله تعالى

³⁷¹ . رواه البخاري في صحيحه بلفظه، رقم: 52؛ ومسلم رقم: 1599

مطلع عليه، لا تخفى عليه خافية، ولعل أوضح مثال على ذلك حين أمرت الأم بنتها أن تَحِطُ اللَّبَنَ بالماء ليكثر فتبيعه فتربح كثيرا - وكان عمر رضي الله عنه نهي عن ذلك، لأنه من باب الغش - وهي تقول إنَّ عمر رضي الله عنه لا يراها، قالت لها البنت: "إن كان عمر لا يرانا فإن الله يرانا"³⁷²؛ هكذا يتجلى دور الإيمان في إصلاح العمل، وهو ما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا﴾³⁷³؛ فالإيمان الصادق في القلب تتبعه الاستقامة في الأعمال تلقائيا ودون كلفة، والعكس صحيح، فأني عطب في الإيمان يجري أيضا على الأعمال، وهو ما يُفسرُ به فساد واقع المسلمين اليوم مع الأسف!! ولذلك كان السرُّ كلُّ السرِّ في صلاح الإيمان وإصلاحه! وهو ما يبيّنه منهج القرآن الكريم في إرداف الإيمان بالعمل الصالح، في الكثير من آيه الكريمة، وسياقاته العديدة الحكيمة، فتأمله ففيه البرهان الواضح!!

ولذلك عُرفَ منهج القرآن بـ "تصحيح الاعتقاد..." حتى إذا سلمت العقائد من البدع تَبَعَهَا سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية - دينية ودنيوية - وتهدبت بالملكات السليمة، وسرى الإصلاح منهم إلى الأمة جمعاء"³⁷⁴؛ وهو ما ينعكس على عمرانهم بالصلاح والفلاح!

وهذا هو السرُّ في اهتمام المرحلة المكية بإصلاح العقيدة دون غيرها، حتى إن النبي ﷺ كان في بداية دعوته المكية يقول ويردّد: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)

³⁷² . القصة بأكملها في "مسند الفاروق عمر" لابن كثير، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، نشر: دار الوفاء، المنصورة؛ ط: الأولى، 1411هـ - 1991م؛ (393/1)

³⁷³ . فصلت: 29.

³⁷⁴ ن: "الإصلاح بالإسلام معالم المشروع الحضاري للإمام محمد عبده" محمد عمارة، مؤسسة نخضة مصر، القاهرة، ط1، 2006م؛ بتصرف يسير، ص15

الحديث³⁷⁵؛ وفعلا لقد تفاعل ذلك الجيل القرآني الفريد مع تلك الكلمة التوحيدية - رغم شدة المعارضة، وبطش العدو - حتى تحولوا " من بشر عاديين، مرتبطين بعلائق التراب، إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء!! وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ"³⁷⁶، والعمران!!

ولله درّ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها حينما قالت بحسبها وفقهها العمراني: (إنما أنزل أول ما نزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، ولا تنزوا، لقالوا: لا ندع الخمر ولا الزنا أبدا)³⁷⁷

ولذلك اتفق الأنبياء جميعا في التركيز على إصلاح عقائد أقوامهم، فكان شعارهم جميعا في بناء عمرانهم: ﴿يَفْقَهُمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾³⁷⁸؛ وهو ما بيّنه النبي ﷺ بقوله: (إنا معشر الأنبياء ديننا واحد)³⁷⁹.. أي منطلقنا في الإصلاح

وبناء العمران واحد، وهو إصلاح الإيمان لتحقيق صلاح العمران!

وباختصار شديد فإن مجال العقيدة يعدُّ أول مجال من مجالات الإصلاح التي تلعب دورا مهما في صلاح العمران ورقيه وازدهاره؛ وقد سبق أن فصلت الكلام في هذه القضية في

³⁷⁵ . رواه ابن حبان في صحيحه، رقم: 6562؛ والدارقطني بسند صحيح، رقم: 2976؛ وغيرهما..

³⁷⁶ ن: "جمالية الدين" لفريد الأنصاري، مرجع سابق، ص 63

³⁷⁷ . رواه البخاري في صحيحه، رقم: 4993

³⁷⁸ . هود: 50

³⁷⁹ . سبق تخريجه

الباب الأول عند الحديث عن شروط العمران، فليرجع إليه³⁸⁰

• المجال السلوكي الأخلاقي:

والجانب الأخلاقي أيضا يعتبر مجالا خصبا لإعمال هذه القاعدة العمرانية؛ ذلك أن الأخلاق والقيم لها تأثيرها الكبير في عمران الناس وحضارتهم، ولذلك عني القرآن الكريم بهذا المجال عناية فائقة، حتى غدا هذا الكتاب الكريم - القرآن أقصد - دستورا للأخلاق وأصلا لها، ولا أدل على ذلك من قول مولانا عائشة الفقيهة - رضي الله عنها - حينما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ: (كان خلقه القرآن)³⁸¹؛ وقد قال شوقي لله دره:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والحقيقة أنه " لا يستطيع أي مجتمع من المجتمعات أن يعيش أفراده متفاهمين متعاونين سعداء، ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية وعمرانية، ومتى فقدت الأخلاق (...) تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار والدمار"³⁸²

ومن المعلوم أن العالم المعاصر يعاني اليوم من أزمة أخلاقية دمّرت الأخضر واليابس، رغم رفعه لشعارات فضفاضة يكاد يريقها يذهب بالأبصار، لكن حين أسفر الصبح عن نقاب الليل الأسود، صارت ﴿كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ

³⁸⁰ ذكرت ذلك مطولا بأدلتة وبراهنه في خمس مسائل ضمن المطلب الأول تحت عنوان "التوحيد والإيمان"؛ من المبحث: 2 المتعلق بشروط العمران، من الفصل 2 في الباب الأول.

³⁸¹ أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم: 308، وغيره بسند صحيح.

³⁸² ن: "الأخلاق الإسلامية وأسسها"، عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط: 4؛ 1417هـ/1996م؛ بتصرف قليل (34 33/1)

يَجِدُهُ شَيْئاً³⁸³؛ وبدأ المفكرون وعلماء الاجتماع والفلاسفة الغربيون يدقون ناقوس الخطر، ذلك أنّ ما كان يراه الغرب صواباً وفخراً، أصبح يمثل مصدر الخطر عليه الذي قد يُؤدّي به، وأنّ الحُجُب بدأت تتكشف مع تصاعد مظاهر التراجع الأخلاقي في شتى الميادين!!

ولا أنسى أن أذكر هنا شاهداً قوياً على ذلك - وأنا أكتب هذه السطور - أن جائحة كورونا التي أصابت دول العالم اليوم، كشفت القناع المزيف عن الغرب الذي لبسه مدة من الزمن، وعزّت عن عوره، وأزالت الغشاوة عن أعين قوم من جلدتنا طالما تغنّوا بالغرب واتخذوه سلطاناً وليّاً؛ وأوضحت - هذه الكورونا - هذا التردّي الأخلاقي للغربيين أنفسهم قبل غيرهم، حيث تجلّى ذلك في عنصريته - أي الغرب وعلى رأسه أمريكا - تجاه الشعوب الإفريقية، حتى نادى بعض أطباء فرنسا بإجراء اختبارات للقاحات طبية على الأفارقة ضد فيروس كورونا³⁸⁴، مما سبب غضباً واسعاً في أوساط الدول الإفريقية التي رأت ذلك نوعاً من العبودية والعنصرية في زمن الحضارات والديمقراطية واحسرتها!! بل وكشفت زيف ما كان ينادي به الغرب في العلن - زعماً منه - من التقدم والحضارة والحرية والمساواة وغيرها من القيم الكونية، وإذ به يمارس أبشع الجرائم في حق الأفارقة والعرب والمسلمين، بل وأظهرت وثائق جديدة مدى جشع الولايات المتحدة الأمريكية، وقدرة مسؤوليها على التحكم في دواليب العالم من خلال الضغط المتكرر والمتواصل على المنظمات الدولية التي تموّلها بقوة للتأثير في قراراتها لصالحها، من ذلك - خاصة في هذا الظرف - منظمة الصحة العالمية³⁸⁵،

383 . النور: 38

384 . جاءت تلك التصريحات عبر برنامج حوارى بثته القناة التلفزيونية الفرنسية LCI في بداية أبريل 2020م، إذ طرح الدكتور (جان بول ميرا)، والدكتور (وكاميل لوكت) فكرة مضمونها جعل سكان القارة الإفريقية الفقراء فئران تجارب لفحص لقاحات جديدة ضد فيروس كورونا المستجد كوفيد 19

385 . لقد أمر الرئيس الأمريكي . ترامب . بتوقيف تمويل بلاده للمنظمة الصحية العالمية في ظل هذا الوباء العالمي، متهماً إياها بالتقصير في خدماتها.

كل ذلك وغيره كثير³⁸⁶ كشف مدى الانحطاط الأخلاقي للغرب، وهو ما يُنذر بخراب عمرانهِ وبيابهِ، إذ أنّ الظلم مؤذن بخراب العمران! ذلك ما كان، والله المستعان!!

وقد وضع القرآن الكريم سنة في مصير من ساءت أخلاقهم، تجلّت في هلاكهم، ودمار عمرانهم ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَفُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾³⁸⁷؛ فهذه الآية الكريمة صريحة في بيان سنة الله في إهلاك الناس بسبب فسق مترفيهم وسوء أخلاقهم، وستبقى سنة ماضية يسري حكمها على كل قوم فسدت أخلاقهم وساءت طباعهم؛ ممّا يوجب عليهم الاعتناء وإصلاح أخلاقهم قبل حلول وعد الله الذي لا يحابي أحدا من الخلق بحال!! يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: "هذا نص قاطع في أن هلاك الأمم وضعف شأنها، وانحلال قواها، إنّما يكون بالشهوات المتحكمة، والأهواء المردية، وسيطرة ذلك على الذين يوجهونها"³⁸⁸ وحينما انخرمت فرنسا أمام ألمانيا بقيادة هتلر في الحرب العالمية الثانية هزيمة ساحقة، وقف أحد رجالاتهم الكبار في البرلمان الفرنسي قائلا: "إنّ فرنسا لم تنهزم من ضعف، ولم تؤت من قلة في العدد أو العتاد، ولم يصبها ما أصابها لتخلّف مصانعها أو لعدم الكفاية الإنتاجية فيها؛ ولكن تدهور الأخلاق، وإسفاف الأهداف وضياع المثل، وموت الضمير، والاستهتار بالغايات، وشيوع الرذيلة هو الذي جعلنا اليوم نقف هذا الموقف

³⁸⁶ هناك أمور كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، تدل على انحطاط الدول الغربية أخلاقيا، وعلى رأسها أمريكا، وتعتبر الحروب التي يقوم بها الغرب بطريق مباشر أو غير مباشر ضد المستضعفين من المسلمين وغيرهم، من أوضح الأدلة على فساد الغرب الأخلاقي!!

³⁸⁷ الإسراء: 16

³⁸⁸ ن: "مجلة لواء الإسلام"، العدد: 5؛ سنة: 1388هـ؛ ص 259

المهين³⁸⁹

وأقول إن ما ذكره هذا المسؤول الفرنسي مما يتعلق بتردي الأخلاق لدى الفرنسيين التي أوقعتهم فيما وقعوا فيه من الهزيمة من لدن ألمانيا، هي ذاتها وزيادة!! التي أوقعت المسلمين فيما وقعوا فيه اليوم من ذل للإنسان وخراب للعمران، وتلك سنة جارية!! وصدق ربي إذ يقول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾³⁹⁰!! وقد حذر النبي ﷺ من خطورة فساد الأخلاق على الأفراد والمجتمعات، وبيّن في غير ما حديث عاقبة ذلك على عمرانهم وحضارتهم، أذكر بحديث سبق ذكره نظراً لأهميته في هذا السياق، وهو قول الرسول ﷺ، فقال: (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم)³⁹¹!!

ولذلك ركز النبي ﷺ على أهمية الأخلاق والقيم، ودورها في بناء عمران الناس، ولا أدلّ على ذلك من حصر الرسول ﷺ رسالته الخاتمة في مقصد بناء الأخلاق وإكمالها

³⁸⁹ ن: "القرآن وشيعة المسلمين" إبراهيم أبو الخضب، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، دون طبعة أو تاريخ؛ ص172.

³⁹⁰ الإسراء: 16

³⁹¹ سبق تخريجه في ص 150 من هذا الباب

(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)³⁹²

وبناء على ذلك يتضح أن مجال الأخلاق من أهم المجالات التي وجب فيها تفعيل هذه القاعدة العمرانية المتعلقة بالصلاح والإصلاح، وهو ما يهتم به علم التصوف، إذ لطالما اشتغل أرباب السلوك على الاهتمام بالنفس الإنسانية تربية وتركية، تخلية وتحلية، تشذيباً وتهذيباً للراقي بهذه النفس إلى مدارج الكمال فتعمر إيماناً وإحساناً ثم تفيض عمراناً على الوجود من حولها، وتلك من أهم وظائف النبي ﷺ كما حدّدها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَمِن ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾³⁹³

• المجال الاقتصادي:

وهذا أيضاً لا يقل أهمية عما سبق ذكره، إلا أنني جعلته في المرتبة الثالثة، نظراً لارتباط هذا الجانب - أي الاقتصادي - بالجانبين السابقين، العقيدة والأخلاق، وتأثره بهما سلباً وإيجاباً، إلا أن المال أيضاً يعتبر عصب الحياة، وهو من إحدى ضروريات الحياة التي جاءت الشرائع السماوية لرعايتها وتنميتها..

والاقتصاد في المنظور الإسلامي يجب أن يرتبط بالعقيدة الإسلامية، والمنهج الوسطي في التعامل مع المال من غير إفراط أو تفريط، ولا إسراف أو تقتير، كما أصّلت ذلك النصوص الشرعية من الكتاب والسنة..

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الله خص المال باستخلاف الإنسان فيه، كما في

³⁹² رواه الهيثمي عن أبي هريرة بسند صحيح، (191/8)

³⁹³ آل عمران: 164

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾³⁹⁴؛ وهذا جدير بالتأمل حيث خص المال بهذه الصفة مع أنه يندرج تحت الاستخلاف العام الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾³⁹⁵؛ وفي حديث رسول الله: (إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها..) ³⁹⁶؛ ولعل الحكمة في ذلك تعود إلى أهمية المال ودوره الرئيس في إقامة عمران الناس، وكذا ميل النفوس إليه وطغيانها به، ممّا قد يصرفهم عن المهمة العظمى المتمثلة في القيام بالواجب الاستخلافي الذي تدخل تحته وظيفة إقامة العمران³⁹⁷، تحقيقاً لعبودية الواحد الديان، وهو ما يمثّل امتحاناً عسيراً بالنسبة للإنسان؛ والنصوص دونك شاهدة ومقرّرة لذلك، من ذلك حديث النبي ﷺ الذي جمع فيه بين هذين الوصفين الخطيرين للمال، استخلاف الإنسان فيه وفتنته به؛ وذلك قوله ﷺ: (وإن هذا المال حلو، من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع)³⁹⁸؛ وفي رواية: (إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون)³⁹⁹..

فمن خلال ذينك الحديثين نستنتج أن المال الذي يمثّل عجلة الاقتصاد وعصب الحياة، قد وصف بوصفين خطيرين وهما أنه فتنة للإنسان، وأنّ هذا الأخير مستخلف فيه، ولذلك اهتم به الإسلام وجعله ضرورة من ضرورات الوجود، فأحاطه بمجموعة من الأحكام

³⁹⁴ الحديد: 7

³⁹⁵ البقرة: 30

³⁹⁶ جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، رقم: 2742

³⁹⁷ راجع المطلب الأول "الاستخلاف وعلاقته بالعمران"، من المبحث الرابع، في الفصل الأول، من

الباب الأول..

³⁹⁸ جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6427

³⁹⁹ سبق تخرجه

والضوابط تجب مراعاتها حتى يؤدي المال وظيفته العمرانية على أتم وجه، وهو ما عبر عنه النبي ﷺ: (من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعيم المعونة هو)⁴⁰⁰؛ ووصفه النبي بالمال الصالح في حديث عجيب يمثل قاعدة عمرانية من الأهمية في موضوعنا بمكان، ومثلها تشد الرحال؛ فعن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: ((بعث إلي النبي صلى الله عليه وسلم فأمرني أن آخذ علي ثيابي وسلاحي، ثم آتية، ففعلت فأتيته وهو يتوضأ، فصعد إلي البصر ثم طأطأ، ثم قال: (يا عمرو، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله، وأرغب لك رغبة من المال صالحة)، قلت: إني لم أسلم رغبة في المال، إنما أسلمت رغبة في الإسلام، فأكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ⁴⁰¹؛ فدل هذا الحديث بمنطوقه أن المال مقصود شرعا شريطة توفر صفة الصلاح فيه، وهو ما نرومه في هذه المسألة من قاعدتنا العمرانية، فتأمل!!

إن المجال الاقتصادي وجب مراعاة ضوابط الإصلاح فيه، حتى يكون وسيلة تعمير وعمران؛ وهذه الضوابط نجملها فيما يلي:

1. اعتبار المال الصالح قوام الحياة، وخير يجب المحافظة عليه.
2. إيجاب العمل والكسب على كل قادر.
3. الكشف عن منابع الثروات، ووجوب الإفادة منها.
4. الأمر بالاقتصاد في المعيشة، والنهي عن الإسراف.
5. تحريم موارد الكسب الخبيث.
6. تحريم الاكتناز وتشجيع الاستثمار.
7. التكافل الاقتصادي، وتقريب الفوارق بين طبقات المجتمع.
8. الحث على التزام القيم والأخلاق الإسلامية في المعاملات.

⁴⁰⁰ سبق تخريجه.

⁴⁰¹ رواه البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح؛ رقم: 299، والحاكم، رقم: 2130.

9. تحريم استغلال السلطة في النفوذ.

10- مسؤولية الدولة عن النظام الاقتصادي⁴⁰²

تلك ضوابط عشرة كاملة، تؤطر الاقتصاد المالي في الإسلام، لها أدلتها من الكتاب والسنة، ضربنا عنها صفحا خشية الإطالة؛ والمقصود من هذا كله أنّ المجال الاقتصادي مجال خصب تؤطره قاعدتنا العمرانية الموسومة ب (صلاح العمران بصلاح الإنسان)!

• المجال الاجتماعي:

الاجتماع إحدى خواص الإنسان كما هو معلوم عند الفلاسفة؛ يقول ابن خلدون: "ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدنيّ بالطبع أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران"⁴⁰³، وقد سبق أن قلت أن العمران عند ابن خلدون ليس بمفهومه الشامل والعام الذي أصّلته في هذه الأطروحة؛ وإنما يقصد به ما سمّيته العمران الاجتماعي⁴⁰⁴، أو ما أطلق عليه الاجتماع البشريّ، وهو الوارد أيضا في قوله: "فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للنوع الإنسانيّ، وإلاّ لم يكمل وجودهم وما أرادته الله من اعتماد العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم"⁴⁰⁵

لقد أحسن ابن خلدون رحمه الله وأبدع في المقدمة حيث تحدث عن ضرورة الاجتماع

⁴⁰² ن: "الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن"، د: توفيق علي زبادي دار المقاصد، ط:1؛ 1437هـ / 2016م،

ص 673

⁴⁰³ ن: المقدمة"، لابن خلدون، مصدر سابق، (54/1)

⁴⁰⁴ أشرت إلى هذا في المسألة الخامسة: "العمران في اصطلاح العلماء"، من المطلب الثاني، في المبحث

الثالث، من الفصل الأول، في الباب الأول من الأطروحة.

⁴⁰⁵ ن: المقدمة" مصدر سابق، (55/1)

للإنسان، حيث لا يستطيع الفرد أن يعيش منعزلاً عن مجتمعه⁴⁰⁶ نظراً لعدم قدرته على تحقيق ضروراته الحيوانية إلا بالاستعانة ببني جلدته، وضرب لذلك مثلاً بقوله: "فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها، وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بدّ في ذلك كلّ من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتمّ حياته لما رغبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبتل نوع البشر؛ وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة، وتمّت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه"⁴⁰⁷

ثم بيّن في مقدمته قواعد ذهبية في تحقيق صلاح المجتمع، من بين ذلك قوله: "ثم إنّ هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرّره وتمّ عمران العالم بهم، فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، (...) ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم؛ فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتّى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك"⁴⁰⁸؛ فهو يقصد هنا أن المجتمع لا بد له من سلطة تضبطه، وترعى شؤونه، وتقيم العدل فيه، وإلا كانت الفوضى والاضطراب، وحل الظلم مكان العدل؛ والظلم مؤذن بخراب العمران، كما عبّر ابن خلدون في قاعدته الذهبية

⁴⁰⁶ هذه مسألة اختلف فيها الفلاسفة بين من يجعل الاجتماع ضرورياً لا مناص منه للإنسان، وبين من يجعله اتفاقاً فقط كالفيلسوف جون جاك روسو الفرنسي (1712-1778)، الذي اشتهر بفكرة العقد الاجتماعي كأساس للمجتمع والدولة..

⁴⁰⁷ ن: المقدمة" مصدر سابق، (55/1)

⁴⁰⁸ المصدر سابق، بتصرف يسير (55/1 56).

الأخرى⁴⁰⁹، والقصد هنا أنه لا بد من حاكم، حتى قيل: "السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل ضعيف وملهوف"⁴¹⁰؛ وقد سبق أن تناولت هذه القضية بالتفصيل عند الحديث عن شروط العمران، فليرجع إليه⁴¹¹؛ وسأخصص قاعدة عمرانية لهذه القضية في الفصل القادم بإذن الله تعالى⁴¹²..

والقصد أن ابن خلدون في المقدمة، وغيره من العلماء كالإمام الماوردي والراغب الأصفهاني والجويني وغيرهم كتبوا في هذه القضية المرتبطة بالجانب الاجتماعي البشري، علاوة على المفكرين المعاصرين من الإسلاميين والغربيين الذين أفردوا مؤلفات في علم الاجتماع..

ولو رجعنا إلى نصوص الشرع من الكتاب والسنة لوجدناها حافلة بالقواعد والأسس المنظمة لهذا الجانب من أجل إصلاحه وصلاحه؛ ومن ثم فقد شمل الإصلاح الاجتماعي في الإسلام مايلي:

1. علاقة الأرحام وذوي القربى.

2. علاقة الجوار.

3. علاقة الصدقة.

4. العلاقة بعامة المسلمين

⁴⁰⁹ هذه قاعدة عمرانية سأفرد لها بحثاً مستقلاً. إن شاء الله. في الفصل القادم المتعلق بالسياسة الشرعية، وقد استنبطتها من كلام ابن خلدون، فقد جعلها عنواناً للفصل 43 من الباب الثالث في المقدمة (353/1)
⁴¹⁰ ذكره البيهقي في شعب الإيمان، وفيه راو ضعيف اسمه "أبو سعيد ابن سنان" (2500/6)، وهو مري بألفاظ مختلفة عند غيره بطرق ضعيفة؛ وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (45/35)،

⁴¹¹ أوردت ذلك مطولاً في المسألة الرابعة تحت عنوان "العدل في السياسة العظمى"؛ في المطلب الثاني من المبحث: 2 في الفصل: الثاني؛ من الباب الأول من هذه الأطروحة..

⁴¹² هذه القاعدة ديباجتها (لا عمران إلا بسلطان)؛ وستكون أول قاعدة عمرانية ضمن القواعد المتعلقة بالسياسة الشرعية في الفصل الرابع من هذا الباب.

5. لعلاقة بغير المسلمين

6. العناية بالصحة العامة

وهذا الذي ذكرناه له أدلته من الكتاب والسنة، بل وأُفردت فيه مؤلفات قديما وحديثا، ولولا خشية الإطالة لذكرنا جملة من ذلك⁴¹³

وخلاصة القول أن المجال الاجتماعي من المجالات الخصبة التي تُوْطَرها هذه القاعدة العمرانية التي نحن بصددِها (صلاح العمران بصلاح الإنسان)، وإن صلاح الجانب الاجتماعي من أهم جوانب الإصلاح في الإنسان لتحقيق صلاح عمرانه!!

• المجال السياسي:

وهذا جانب حساس جدا، له ارتباط وثيق بالجانب الاجتماعي في الإنسان، ولذلك تناولته النصوص الشرعية من الكتاب والسنة بالرعاية والتوجيه، لأنه يمثل ركيزة أساسية في عمران الإنسان، ولا أدلّ على ذلك من تسمية الحاكم الذي يعتبر رأس الهرم السياسي بالخليفة الذي معناه خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، كما قرّر ذلك الإمام الماوردي والإمام الجويني، وابن خلدون وغيرهم كثير⁴¹⁴؛ وقد أفرد علماء الإسلام المتقدمون مؤلفات في هذا الجانب، كان القصد من ورائها توجيه النصائح للحكام وولاية الأمور من أجل إصلاح المجال السياسي للأمة، وهو ما يدل على مركزية هذا الجانب وضرورته العمرانية؛ هذا علاوة على تأليف العلماء المحدثين من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسيين من المسلمين والغربين؛ وقد خصصت الجامعات التعليمية في العالم المعاصر شعبة من الشعب التي يقصدها الطلاب تتعلق بهذا الجانب، وهي

⁴¹³ ن: ذلك بالتفصيل في "الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن" د: توفيق علي زبادي، مرجع سابق؛ من ص: 593 إلى ص: 624

⁴¹⁴ ن: ذلك في "الأحكام السلطانية" للماوردي، مصدر سابق (15/1) و"الغياثي" للجويني، مصدر سابق (22/1)؛ و"المقدمة" لابن خلدون، مصدر سابق (191/1)، وغيرهم كثير

الشعبة السياسية أو القانون؛ كل ذلك ممّا ذكرنا وغيره يدل دلالة قاطعة على الدور العمراني المنوط بهذا المجال، فتأمل!!

وقد خصصت - فيما سبق - مطلباً كاملاً بعنوان (وجود الإمام راعي العمران)⁴¹⁵؛ كما أنني سأفرد فصلاً كاملاً يتعلق بالسياسة الشرعية، سأتناول من خلاله بعض القواعد العمرانية المنظمة لهذا المجال؛ وبناءً على ذلك، ونظراً لخشية الإطالة فسأكتفي بهذه الإشارات السريعة هنا، على أن يتم التفصيل والبسط أكثر في الفصل القادم بإذن الله، فهو سبحانه وتعالى المقصود والمحمود!!

خلاصة واستنتاج:

وأخيراً وليس آخراً نقول إن هذه القاعدة العمرانية لها سلطتها الضابطة لمختلف مجالات عمران الإنسان، لذا وجب استثمارها والأخذ بها وتوظيف مقتضياتها؛ وبالتالي جعلها منهجاً استشرافياً لعمران الأمة حتى تستعيد عافيتها، وتسترد ريادتها العمرانية وقيادتها الحضارية!!

ذلك ما سنبحر في أمواج بحره الزاخر، فنستخرج من جواهره الباهر، بإذن الله تعالى القادر!!

⁴¹⁵ ورد ذلك مطولاً في خمس عشرة صفحة تقريباً، في خمس مسائل ضمن المطلب 3، من المبحث 2، في الفصل الثاني، من الباب الأول من هذه الأطروحة.

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

إن تأمل هذه القاعدة العمرانية التي نحن بصدددها، واستحضار دلالاتها ومجالاتها بما بيّنت آنفاً، لِيُثْمِرَ تفعيلها مستقبلاً عمرانياً ناجحاً تصلح به البلاد ويسعد به العباد؛ إذ الإصلاح عملية مصاحبة يجب القيام بها من لدن الإنسان المعمر في كل المجالات الحياتية، كما تمّ إيضاحه في المطلب السابق، ثم إنه مقدّمة ضرورية لنتيجة الصلاح.

وبعد هذه الجولة المتأنية مع تلك القاعدة الكبرى في محطاتها المتنوعة؛ أنتقل إلى بيان دورها الاستشرافي لعمران الأمة خصوصاً والإنسانية عموماً، والناظر بعمق في تلك القاعدة ليقن يقيناً جازماً أن المسلمين لو أخذوا بهذه القاعدة وفعلوا مقتضياتها بدءاً من أنفسهم عبر عملية التربية والتزكية، مروراً بكل ما يرتبط بهم من مجالات الحياة المختلفة والمتعددة، لاستطاعوا أن يستردّوا مجدهم المملوك، وعزّهم المفقود في المستقبل القريب، ولتمكّنوا من إعادة بناء عمرانهم التليد، وحضارتهم كما كانت في العهد الرشيد؛ والله على ما أقول شهيد!!

لقد سبق أن بيّنا من خلال مدلول هذه القاعدة في المطلب الأول أن صلاح العمران مرهون بصلاح الإنسان، وبالتالي فصلاح الإنسان مقدّمة ضرورية لاستشراف صلاح العمران فتأمل!!

وإضافة لما ذكرناه من مجالات تمثّل عملية الإصلاح فيها حركة استشرافية لصلاح العمران وازدهاره، نرصد بعض الخطوات الإصلاحية الأخرى الضرورية التي تمثّل رؤية مستقبلية تُفرّز حضارة إنسانية مشهودة، وعمراناً يانعاً مقصوداً!!

أ) وأول عملية إصلاحية للإنسان تبدأ من الفرد كوحدة مكونة للمجتمع؛ وأول ما يجب إصلاحه من الفرد هو نفسه وروحه التي بين جنبيه، وهو ما أسميته من قبل بعمران الروح الذي اعتبرته أصلاً لكل عمران؛ حيث قلت: "إن العمران الروحي الوجداني النفسي هو الأصل والأساس والمنطلق لتصحيح أي مسار عمراني حضاري، إذ أنّ

الإنسان المعمر هو المسؤول عن العمران من لدن الحكيم الديان، ولا يمكن أن يقوم بذلك إلا إذا كان هو عامرا أولا، إذ فاقد الشيء لا يُعطيه، وإنما عمران الإنسان المعمر بعمران روحه ونفسه ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره وكل خلجات قلبه " 416 ..

فإصلاح الإنسان لنفسه هي تركيته لها عبر عمليتي التشذيب والتهديب، والتخلية والتخلية، وهو ما يقتضي مخالفتها لأهوائها وإلزامها بأوامر بارئها، فثُمَّتَ غذاؤها ودواؤها وما تقوم به حياتها وتحقق سعادتها، وبالتالي يتم وينمو عمرانها؛ إن تلك العملية أطلق عليها القرآن اسمَ الجهاد؛ وأيُّ جهادٍ هذا؟! إنه جهاد النفس بها وفيها؛ فأيّة صعوبة وأيُّ كَلَفٍ ذاك!! وَمَنْ ذا يستطيعه يا ترى؟! لكن أبشر بمعونة ومعية خالقك إن أنت بدأت، فلمسة بأناملك للزرّ تتدفق عليك شلالات الأنوار وبوارق الأسرار!! ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁴¹⁷؛ ذلك ما كان، والله المستعان!!

لأجل ذلك كان كلّ تغيير منشود وكل عمران مقصود متوقفا على التغيير الداخلي للنفس، و هو ما يمكن أن يُنتج عمراننا روحيا، و الذي يمثل مقدمة ضرورية لإنشاء العمران المادي، و ها هي الآية ناطقة بذلك و مقرّرة له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁴¹⁸؛ نعم بهذا التعبير المعجز الضارب في أعماق الوجدان، وبهذا التغيير المرتبط بالإنسان المعمر والمتمثل في حركته الداخلية العميقة يقع التغيير الثاني المتصل بمن أمره بين الكاف والنون، وفق مراد الله المتعلق بسننه وقوانينه في خلقه، وكذا أحكامه وشرعه!!

416. سبق ذكر هذا الكلام في المطلب: 1؛ من المبحث الثاني من الفصل: 2؛ وذكرته أيضا في المطلب: 2،

من المبحث 2، من الفصل 3؛ في الباب الأول من هذه الأطروحة..

⁴¹⁷ العنكبوت: 69.

⁴¹⁸ الرعد: 11

(ب) بعد إصلاح الأنفس يأتي إصلاح الأسرة، ومعلوم أن الأسرة تعتبر أهم لبنة مكوّنة للمجتمع، وبالتالي فلا يمكن تحقيق صلاح المجتمع إلا بإصلاح الأسر المكونة له، فيعتبر إصلاح الأسرة خطوة استشرافية مهمة وحساسة لصلاح العمران!!
ومن المعلوم أن الأسر تعاني اليوم أكثر من أي وقت مضى من فساد عريض، وخاصة في الأخلاق والقيم، مما نتج عنه كثرة الطلاق، وضياع الأبناء، وقطع الرحم، وكثرة العقوق، وغير ذلك كثير ممّا تشقق من هوله الأرض وتحرّر له الجبال هداً!! فإذا ظلّت الأسر على هذه الحال كان ذلك خراباً للمجتمع ويباباً للعمران، لا سمح الله؛ وبالتالي فإن إصلاح الأسر من أهم الخطوات الجدّية في طريق إصلاح المجتمع وإقامة العمران!!

(ج) إصلاح التعليم، حيث يعتبر هذا الأمر من أهم الخطوات الاستشرافية لإصلاح العمران وإقامته، لأنه يمكن القول - باختصار - لا شيء يمكن أن يتحقق بغير علم، ولذلك جعلت القاعدة الثانية من هذه الأطروحة تتعلق بموضوع العلم وهي (العلم شرط الاستحقاق ونقطة الانطلاق)؛ وهو فعلاً نقطة الانطلاق لاستشراف عمران صالح بالمفهوم الذي أصلت في هذه الأطروحة؛ وقد فصلت فيها ما يجب الرجوع إليه لأهميته!!⁴¹⁹

ومن المؤسف أن أغلب الدول العربية والإسلامية، ومنها المغرب تعاني من أزمة حقيقية في هذا الميدان، فهي تحتل المراتب الدنيا في العالم من حيث جودة التعلم ومواكبته لمستجدات العصر، ولذلك ينادي الغيورون بإصلاح وتجديد التعليم لكونه قاطرة التقدم، واللبنة الأولى والأساس لبناء العمران، وقد جعل المغرب أولوية التعليم في المرتبة الثانية بعد الوحدة الترابية، حيث أحدث ما يسمى بالميثاق الوطني للتربية

⁴¹⁹ فصلت الكلام حول تلك القاعدة العمرانية في المبحث 2، من الفصل الأول المتعلق بالقواعد العمرانية

في العقيدة وأصول الإيمان؛ من الباب الثاني من هذه الأطروحة.

والتكوين، الذي وضعته لجنة ملكية خاصة، حيث يمثل هذا الميثاق رؤية استراتيجية استشرافية تصل إلى سنة: 2030م⁴²⁰؛ ومع ذلك فلا يزال المغرب يعاني من الهشاشة في المجال التعليمي؛ والقصد من هذا كله أن إصلاح التعليم يمثل حركة استشرافية لتحقيق حضارة يانعة، وعمران صالح!!

وهكذا يتأكد لنا أن لقاعدة: (صالح العمران بصالح الإنسان) آثاراً استشرافيةً لعمران الإنسان عموماً، ولعمران المسلمين خصوصاً، مما يُوجب علينا تفعيلها واستثمارها سواء كان ذلك على مستوى الأفراد فيما يتعلق به أو بمن هم تحت ولايته، أو كان على مستوى المجتمعات والدول والحكومات!!

⁴²⁰ ن: في ذلك مثلاً: "المعين في التربية" د: العربي اسليماني، المطبعة والوراقة الوطنية، ط: 8؛ سنة 2015م

المبحث الثاني: قاعدة (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)

هذه قاعدة عمرانية رتبها ثانياً اثنتين في هذا الفصل، لها ارتباط وثيق بعلم التصوف والسلوك، كما يمكن إدراجها أيضاً ضمن قواعد علم المقاصد، وهي بمثابة قاعدة مكملّة للقاعدة السابقة، وموجهة لها، إذ أنّ صفة الصلاح المشترطة في الإنسان المعمر لتحقيق صلاح العمران متعلّقة بالمصالح، وهذه الأخيرة منها ما هو مرتبط بالجانب الروحي والمعنوي من الإنسان، ومنها ما هو منوط بالشقّ المادي والحسي منه - أي الإنسان - ، وغير ذلك ممّا فصلّ فيه الأصوليون، وقد يقع بين هذين النوعين من المصالح تعارض وتصادم، فيحتاج إلى ترجيح عند تعذّر الجمع؛ فجاءت هذه القاعدة من أجل حلّ هذا الإشكال، وإزالة هذا النزاع!

وقد صغت ديباجة هذه القاعدة العمرانية من خلال استقرائي لإشارات وردت في بعض المؤلفات في علم الكلام والتصوف وأصول الفقه، مستأنسا في ذلك ببعض القواعد الفقهية والمقاصدية⁴²¹

وكما جرت العادة في منهجيتنا التي اخترناها في تناول وتحليل هذه القواعد العمرانية، حيث نفتتح عند دراسة كل قاعدة بمجموعة من التساؤلات تأتي كما يلي:

ما معنى هذه القاعدة؟ وما هي أدلّتها وحججها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية في عمران الأمة؟

فتلك أسئلة أربعة، لا بد من الإجابة عنها للإفصاح عن دور القاعدة العمراني، من أجل تفعيلها واستثمارها، استشرافاً لتتأججها العمرانية والحضارية!!

⁴²¹ ن: مثلاً القاعدة الخامسة عشرة: "عناية الشرع بالمصالح المعنوية أبلغ من عنايته بالمصالح المادية"؛ من كتاب: "قواعد المقاصد"، د: أحمد الريسوني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي؛ مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، ط: الأولى؛ سنة: 1441 هـ / 2020 م؛ ص 97

وتأتي دراسة هذه القاعدة عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وبراهينها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

إذا تأملنا هذه القاعدة العمرانية (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)، نجد مصطلح (المصالح) أو المصلحة يمثل المكوّن الأساس للقاعدة، وبالتالي فالمعنى العام للقاعدة منوط بهذا المصطلح، الذي شابه كثير من الاضطراب المفاهيمي بسبب اختلاف المرجعيات والأيدولوجيات للمتناولين له تنظيراً وتأصيلاً وتنزيلاً!

ومفهوم المصلحة اللغوي لا يتعد كثيراً عن مصطلح (الصالح) الذي سبق تناوله في القاعدة السابقة، لأن المصطلحين (المصلحة والصالح) كلاهما يرجعان إلى نفس الجذر اللغوي؛ وبناء على ذلك فإنّ المصلحة تعني - باختصار - المنفعة وهي ضد المفسدة والمضرة، قال ابن منظور: "والمصلحة: الصالح؛ والمصلحة واحدة المصالح"⁴²².

أما في الاصطلاح:

فالحديث عن المصلحة يختلف باختلاف الدارسين لها - كما سبقت الإشارة إليه - فهناك علماء الشريعة من الأصوليين وغيرهم، وهناك الفلاسفة والسياسيون، وهناك الحديثيون...!! ولذلك كثر الخلاف حول ماهيتها وحقيقتها بين مشرق ومغرب، كما قال القائل:

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ومن المعلوم الذي لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان⁴²³، أنّ المصلحة هي

⁴²² ن: "لسان العرب" لابن منظور؛ مصدر سابق؛ (517/2)

⁴²³ قيل إنّ الرسول ﷺ هو أول من قال هذا المثل؛ وفي ذلك أحاديث كلها مروية بطرق ضعيفة، منها ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: هجت امرأة من بني خزيمة النبي ﷺ بهجاء لها، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فاشتد عليه ذلك، وقال: «من لي بها»، فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله ! وكانت تمّارة؛ تبيع التمر، قال: فأتاها، فقال لها: عندك تمر؛ فقالت: نعم؛ فأرته تمرّاً، فقال أردت أجود من هذا؛ قال: فدخلت لترّيه؛ قال: فدخل خلفها ونظر يميناً وشمالاً، فلم ير إلا خواناً، فعلا به رأسها

الدافع الأول للنشاط الإنساني في كل مجالات الحياة الإنسانية؛ فكل ما يسعى إليه الإنسان، أيُّ إنسانٍ، من فكر أو عمل يرجع في حقيقته إلى دافع خفي هو المصلحة، وهذا الدافع لا يتوقف عند غاية الفرد، وإنما تسعى إليه الجماعة والدولة والأمة، بل والإنسانية جمعاء؛ فالكُل يسعى تنقيها عنها - أي المصلحة - سواء كانت مادية أو معنوية، فردية أو جماعية، عاجلة أو آجلة، دنيوية أو أخروية.

لكن المشكلة - كما قلت قبل قليل - متى نُعدُّ الشيء مصلحة ومتى لا يكون كذلك؟! ومتى نعتبر الشيء نفعاً ومتى يكون ضرراً؟! ومتى نجعله مصلحة راجحة ومتى نتصوره مصلحة مرجوحة؟!

تلك بعض الأسئلة التي يمكن من خلال الإجابة عنها - ودونها خُط القِتاد - إلقاء الضوء على القاعدة العمرانية التي نحن بصدد دراستها!

ولأجل الحصول على إدراك جيد وصحيح لمفهوم المصلحة، وخاصة تلك التي نقصدها في قاعدتنا العمرانية؛ كان لا بد أن ننظر إليها من عدة جهات وفي عدة مستويات:

يمكن أن ننظر إليها في بداية الأمر نظرة إجمالية بسيطة، فنقول: إن المصلحة هي جلب كل ما فيه خير ومنفعة لمجموع الناس ولأفرادهم، أو درء مفسدة أو مضرة عنهم؛ وهذا المعنى أشار إليه الإمام الغزالي بقوله: "أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة..." فإنَّ جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصالح الخلق في تحصيل مقاصدهم⁴²⁴

حتى دمعها به، قال: ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! قد كفيْتُكُها؛ قال: فقال النبي ﷺ: (إنه لا ينتطح فيها عنزان)، فأرسلها مثلاً.

⁴²⁴ ن: "المستصفى" لأبي حامد الغزالي الطوسي (ت: 505هـ)؛ تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1413هـ / 1993م؛ (174/1)

ومن جهة ثانية ننظر إليها فنجدها حسب قوتها النفعية، وحاجة الناس إليها تنقسم إلى ثلاثة مراتب: ضرورية، وحاجية، وتحسينية⁴²⁵..

ويمكن أن نقسمها باعتبار آخر، فتتنوع إلى مصالح مادية، ومصالح معنوية، ويدخل في المصالح المادية: الأبدان والأموال وما يخدمهما، وتدخل في المصالح المعنوية المصالح الروحية والعقلية والنفسية والخلقية؛ وهناك تقسيمات أخرى لا يتسع المقام لذكرها..

والتقسيم الأخير هو المشار إليه في قاعدتنا حيث ذكرنا فيها المصالح المعنوية والمصالح المادية، وكيفية الترجيح عند التعارض كما سيأتي بيانه بأدلته بإذن الله تعالى!!

ومن أَلطف تعاريف المصلحة ما ذكره الإمام الشاطبي إمام المقاصد بقوله: "وأعني بالمصالح ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان وتمام عيشه، ونيله ما تقتضيه أوصافه الشهوانية والعقلانية على الإطلاق، حتى يكون مُنعمًا على الإطلاق"⁴²⁶؛ فهذا أنت ترى معي أنّ الإمام الشاطبي حينما تحدّث عن مفهوم المصلحة ربطها بالجانبين معا، بالجانب الشهواني المادي الحيواني من الإنسان، وتلك هي المصالح المادية، وربطها أيضا بالجانب الآخر وهو الجانب العقلي الروحاني الوجداني، وتلك هي المصالح المعنوية؛ ثم أنط ذلك كلّهُ بقيام حياة الإنسان وتمام عيشه؛ وهو عمرانه الذي كُلفَ به وفق وظيفة الاستخلاف؛ فدلّ كلامه دلالة واضحة على أهميّة النوعين معا من المصالح لقيام العمران، وصلاح الإنسان!!

والنظر إلى المصلحة باعتبارها منفعة مادية ترتبط بالأبدان والأموال وما يدور في فلكهما، أو منفعة روحية ترتبط بالروح والنفس والقيم والأخلاق، هذا الذي وقع فيه المدُّ والجُرُزُ - إن صحَّ التعبير - بين النوع الأول والثاني، والإثبات والإقصاء لهذا النوع أو ذاك، بسبب اختلاف المرجعيات والأيدولوجيات - كما سبق ذكره - فهناك من يرى المصلحة متمخّضة في ما هو مادي دون ما هو روحي، وهؤلاء هم الماديون من الرأسماليين

⁴²⁵ ن: المقدمة التاسعة "الموافقات" للشاطبي؛ مصدر سابق، (1/ 108)

⁴²⁶ ن: المصدر سابق، (2/ 44)

وغيرهم مَن أُشربوا العَاجِلَة في قلوبهم، فصاروا عبيدا لها لا يرون غيرها!!

وهناك فريق ثانٍ يجعل المصلحة متعلّقة بما هو روحي وجداني أخلاقي، أما ما يرتبط بالمادة فهو رجس من عمل الشيطان، فهؤلاء هم الرهبانيون ومَن تشبه بهم وتزيّ بزِيّهم، أو تأثّر بأفكارهم!!

وهناك فريق ثالث لا من هؤلاء ولا من أولئك مَن نهج نهجا وسطا لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلوّ في هذه أو تلك ولا تسبب!! فأثبت المصالح الروحية المعنوية والمصالح المادية الجسمانية على حدّ سواء؛ وذلك أنّ الإنسان مزدوج الصنعة، له مطالب روحية، وجدانية، سماوية، وأخرى مادية، جسمانية، أرضية؛ وهذه هي منهجية الإسلام المتوازنة؛ وهو ما حرّره المحققون من علماء الإسلام الذين متّحوا نظريتهم من روح الشريعة الإسلامية الغراء!

وقد نبّه ابن تيمية رحمه الله قديما على هذا الخلل في الموازنة بين المصالح المادية والمصالح الروحية والمعنوية، وحذر من ذلك وكشف عن آثارها الوخيمة بقوله: " وكثير من الناس يقصر نظره عن معرفة ما يحبه الله ورسوله من مصالح القلوب والنفوس ومفاسدها، وما ينفعها من حقائق الإيمان وما يضرها من الغفلة والشهوة (...) فتجد كثيراً من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن؛ وغاية كثير منهم إذا تعدّى ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس وتهذيب الأخلاق بمبلغهم من العلم.

وقوم من الخائضين في أصول الفقه وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة، إذا تكلموا في المناسبة، وأن ترتيب الشارع للأحكام على الأوصاف المناسبة يتضمّن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان (أخروية ودينية)، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمّن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة

والظاهرة من أنواع المعارف بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وأحوال القلوب وأعمالها، كمحبة الله وخشيته وإخلاص الدين له، والتوكل عليه والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة".⁴²⁷

فابن تيمية رحمه الله في هذا النص يؤكد على أن الشريعة الإسلامية بأحكامها جاءت لتلبية مصالح العباد بنوعيهما الروحية والمادية، في المعاش والمعاد؛ وهذا هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض؛ وهو ما يجب أن يُقِيمَ عليه الإنسان عمرانَه وبيئَه به حضارته؛ وإلا اختلَّ العمران وهلك الإنسان!!

لقد وقع في عصرنا أقبح مما أشار إليه ابن تيمية، حيث هناك مَنْ عطلَّ المصالح الروحية جملة وتفصيلاً، وآمن بالمادة قبله وسبيلاً، فضلَّ ضلالاً مبيناً؛ والقصد هنا أن الشريعة الإسلامية بنصوصها وأحكامها ومقاصدها أثبتت النوعين معا من المصالح التي لا بد منها لإقامة العمران، وكيف لا؟! وهي من ألزمت الإنسان وأجبت عليه إقامة العمران، وبالتالي فالشريعة أدري بما يُقِيمُ العمرانَ ويحفظه؛ وأعلم بطبيعة المصالح من الإنسان نفسه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁴²⁸؛ وهي - أي الشريعة - قائمة على المصالح، وهذا ما أشار إليه ابن القيم لله دره بقوله: "فإنَّ الشريعة مبناهَا وأساسها على الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كُلُّها، ورحمة كُلُّها، ومصالحُ كُلِّها، وحكمة كُلِّها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى البعث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل"⁴²⁹.

فقوله الشريعة عدل كلها يعني - ممَّا يعنيه - أن الشريعة تنظر إلى المصالح الروحية والمادية نظرة معتدلة، لا غلو فيها ولا تفريط، لا طغيان في الميزان ولا إفساد؛ وهذا ممَّا يدخل تحت

⁴²⁷ ن: "مجموع الفتاوى"، ابن تيمية؛ مصدر سابق؛ (233/32 - 334).

⁴²⁸ الرحمن: 5، 6، 7.

⁴²⁹ ن: "إعلام الموقعين" لابن القيم؛ مصدر سابق، (3/ 11).

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿١﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٢﴾ وَأَفِيضُوا الْكَوْزَ بِالْفِئْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٣﴾﴾⁴³⁰؛ فتغليب المصالح المادية على الروحية إخلال في الميزان، وظلم للعمران والإنسان؛ فكيف بمن ألغى المصالح الروحية بالكلية؟!

ولأجل ذلك كله فإننا جعلنا ديباجة هذه القاعدة العمرانية: (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)؛ حيث قصدنا بمدلولها أولا إثبات وجود النوعين معا من المصالح المعنوية الروحية، والمادية الجسمانية؛ إضافة إلى أمر آخر وهو الأظهر من سياق القاعدة، وهو تقديم وترجيح المصالح المعنوية على المادية عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما؛ وهو ما جعلني أُدمج هذه القاعدة ضمن القواعد العمرانية المرتبطة بعلم التصوف والسلوك؛ لأنّ من أهم وظائف هذا العلم هو تنمية الجانب الروحي من الإنسان، إذ هو موطن التكليف والتشريف منه؛ ومن ثمّ فلا يكفي إثبات النوعين من المصالح فحسب؛ بل لابد من الترجيح والتقديم فيما بينها عند التعارض!! وهي مسألة متعلّقة بعدم إمكانية الجمع بينهما، أمّا إذا أمكن الجمع بينهما فلا ترجيح وقتئذٍ، ولا إهمال يومئذٍ؛ إذ الجمع أولى من الترجيح لأنّه إعمال وتوظيف للنوعين معا من المصلحة، وهو الواجب عمرانا وشرعا؛ ومن المعلوم أنّ الإعمال مقدّم على الإهمال، كما هو مقرّر في أصول الفقه في باب التعارض والترجيح؛ فتأمل!!

وتقديمنا للمصالح المعنوية الروحية الوجدانية على المنافع المادية هو ما يتناسب مع نصوص الشريعة وقواعدها ومقاصدها - كما سيأتي بيانه بأدلته في المطلب القادم - وهو ما شهد به تاريخ الأمم والحضارات، حسب الدراسات التاريخية، كما يتوافق أيضا مع ما أثبتناه في الباب الأول - من هذه الأطروحة - تنظيرا وتقريرا، حين تحدّث عن أنواع العمران؛ وكان من بين ما قرّرت أنّه العمران الروحيّ هو الأساس والأصل والمقدمة للعمران الماديّ، وأنّ الاقتصار على العمران الماديّ دون الجانب الروحيّ هو خراب للعمران

⁴³⁰ الرحمن: 7. 6. 5

وبياب⁴³¹؛ وأنَّ النظرةَ الإسلاميةَ قائمةٌ في إنشائها للعمران على ذلك، حتى قلت - من بين ما قلته هنالك - أنَّ تطبيق الإسلام بنظرته المعتدلة هذه يُنتج عمراناً وتحضراً، وأنَّ النكوص عنه يساوي تخلفاً وخراباً⁴³²؛ والتاريخ يشهد بهذا، وقد سقت بعض شهادات الغربيين المنصفين على ذلك⁴³³!

وخلاصة القول:

إن هذه القاعدة العمرانية (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران) أثبتت بديباجتها هذه، النوعين معا من المصالح والمنافع، الروحية منها والمادية؛ بل ورجّحت الروحيةَ منها على المادية عند التعارض، واعتبرت ذلك من واجبات العمران، إذ ينتج عن خلاف ذلك ضياع للعمران وهلاك للإنسان؛ ذلك ما كان، والله المستعان!

⁴³¹. راجع المطلب الرابع من المبحث الأول؛ في الفصل الثاني، من الباب الأول من هذه الأطروحة..

⁴³². سبق أن قلت أنَّ "تطبيق الإسلام يُنتج عمراناً وتحضراً، وأنَّ النكوص عنه يساوي تخلفاً وخراباً" وقد ذكرت أنه يمكن جعلها قاعدة عمرانية؛ وقد أوردتها في المسألة الخامسة بعنوان: "المسلمون الأوائل أقاموا العمرانين معا"؛ وذلك في المطلب: 3، من من المبحث الأول؛ في الفصل الثاني، من الباب الأول من هذه الأطروحة.

⁴³³. راجع المسألة السادسة بعنوان: "الغريبيون يُشيدون بالنظرة العمرانية للإسلام"؛ في المطلب: 3؛ من المبحث الأول؛ في الفصل الثاني، من الباب الأول من هذه الأطروحة.

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

هذه القاعدة العظيمة لها أدلتها من القرآن والسنة، ومن أقوال أهل العلم؛ وهي أدلة مستفيضة وكثيرة، بل ترتبط بنوع من أنواع الفقه وهو فقه الموازنات؛ وقد قعد له الفقهاء قواعد يمكن الاستفادة منها وتوظيفها توظيفاً عمرانياً؛ كل ذلك يدل على أهمية هذه القاعدة العمرانية، وقوّتها الحجاجية.

وسأعرض جملة من الأدلة الشرعية تُبرز أهمية مراعاة النوعين من المصالح المعنوية والمادية، مع التركيز على المعنوية منها وترجيحها على المصالح المادية عند التعارض، وأهمية ذلك في إقامة العمران الإنساني!!

ومن الأمثلة الشرعية القوية التي تبرز فيها المصالح المعنوية والمصالح المادية، قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾⁴³⁴؛ فهذه آية ناطقة بوضوح في كون الصلاة إنما شرعت لاشتغالها على كُلِّ من المصالح المعنوية والمادية الظاهرة، التي يقوم بها وعليها العمران البشري؛ وقد ذكرت مجموعة من تلك المصالح عندما تناولنا قاعدة (الصلاة عمود العمران وروحه) بالدراسة والتحليل⁴³⁵، فلا داعي لإعادته؛ إلا أنني هنا أؤكد على مسألة التركيز على المعاني والمصالح الروحية المعنوية وتقديمها على المصالح المادية، في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ وهو ما يدل على تقديم وترجيح المصالح الروحية والمعنوية على المصالح المادية الجسمانية، وهو ما أثبتناه في قاعدتنا العمرانية بقولنا: (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في

⁴³⁴ . العنكبوت: 45

⁴³⁵ . أوردت ذلك بالتفصيل في المطلبين 3 و4، من المبحث الأول من الفصل الثاني في هذا الباب من هذه الأطروحة.

العمران) ..

ومن الأدلة الشرعية أيضا على ذلك قوله تعالى في شأن الزكاة: ﴿حُذِّمِ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁴³⁶؛ فهذه الآية ذكرت بمنطوقها مصلحة معنوية تتعلق بالجانب الروحي، وهو تطهير النفس وتزكيتها من أدرانها وأرجاسها المعنوية، ولم تعرج الآية على المصالح والعلل المادية أو الاجتماعية كسد حاجات الفقراء وإقامة التكافل الاجتماعي، وغير ذلك مما سبق أن ذكرناه عند دراسة قاعدة: (الزكاة فريضة شرعية، وضرورة عمرانية)⁴³⁷؛ وهذا يدل على أن المصالح المعنوية هي الأهم لقيام عمران الأمة؛ وهو ما يغفل عنه كثير من الناس؛ بل هناك مَنْ يُنكر تلك المصالح بسبب غشاوة الفكر المادي التي حجبته عنه الرؤية !!

ويُستدل أيضا لقاعدتنا بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁴³⁸؛ ولا شك أن للصيام فوائد ومنافع متعددة منها الروحية والمادية، لكن الآية غيّت تشريع هذه الفريضة بمصلحة واحدة وهي حصول التقوى، ومن المعلوم أن كلمة التقوى بغض النظر عن مفهومها ارتبطت بالقلوب، والدليل قول النبي ﷺ: (التقوى ها هنا، وأشار إلى القلب ..) الحديث⁴³⁹؛ ومما لا ريب فيه أن مصالح القلوب كلها روحية، وهذا دليل على تقديم المصالح الروحية على المصالح المادية، لأن في الصيام مصالح مادية، تحدث

⁴³⁶ التوبة: 103

⁴³⁷ راجع ذلك في المطلب: 3، من المبحث الثاني، في الفصل: 2، من هذا الباب لهذه الأطروحة

⁴³⁸ البقرة: 183

⁴³⁹ جزء من حيث رواه مسلم في صحيحه، رقم: 2564؛ والترمذي في سننه، رقم: 1927

عنها العلماء ووردت في بعض أحاديث الرسول ﷺ، ليس محل ذكرها هنا؛ وإنما القصد أن نؤكد على مسألة اهتمام الشرع الحنيف بالمصالح المعنوية وتقديمها على المادية منها، والدليل على ذلك أن المسلم عندما يغيب هذه المعاني الروحية والقلبية عن العبادات عند مزاولته لها، ويكتفي بالمادية منها فإنها تفقد مشروعيتها، كمن يصوم مثلاً من أجل الحماية الصحية، ولا يحقق مقاصد الصيام الروحية والوجدانية، فإن صيامه هذا مردود عليه؛ وذلك ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: (ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وربّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر)⁴⁴⁰.

فهذه كلها أدلة تدل على أهمية المصالح الروحية وتقديمها على المادية، ووجوب ذلك في البناء العمراني، وهو ما تؤكده القاعدة الصوفية التربوية: (أعمال القلوب أفضل من أعمال الجوارح)؛ ونطقت به قاعدتنا العمرانية التي بين أيدينا (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)..⁴⁴⁰

ومن الأدلة أيضاً ما ورد في سورة الحج في سياق الحديث عن فريضة الحج وما حوته من مصالح روحية ومادية، ومنافع إيمانية قلبية وجدانية، وأخرى اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٥﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَاجِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ فَإِذَا اكْتَمَلَ الْأَيَّامُ انْفَضَّ عَنْكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي هَدَاكُمْ لِكُلِّ فَصْلٍ طَائِفَةٍ فَاذْكُرُوا الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَاسْأَلُوا بِلَدِّكُمْ ذِكْرَ اللَّهِ فَأَنْتُمْ عَلَىٰ حَذَرٍ أَنْ تُبَدِّلُوا مَا تُمْنُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الحج: 25-26) ثم لِيَفْضُوا تَبَثَّهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٧﴾ (الحج: 27) (ثمن) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ

⁴⁴⁰ أخرجه النسائي في السنن الكبرى بسند صحيح، رقم: 3249؛ وابن ماجه، رقم: 1690

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٨﴾ حُنَبَاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ
فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطِبُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ
﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفَوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٠﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْغَتِي ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا
لِّيَذْكُرُوا بِاسْمِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ
أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ
عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُفِيعِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٣﴾ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا
لَكُمْ مِنْ شَعْبِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا بِاسْمِ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا
وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْفَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ
التَّفْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ ٤٤١؛

لقد سقت هذه الآي الكريمة رغم طولها نظرا لما أظهرته من المصالح والمنافع سواء منها
الروحية أو المادية التي اشتملت عليها فريضة الحج وما ارتبط بها من مناسك وشعائر؛ وللحج
خصوصية، وأية خصوصية!! فهي اجتمعت فيها أوجه العبادات من قلبية وبدنية ومالية،
ولذلك كانت المصالح والمنافع تبعا لذلك؛ إلا أن السمة البارزة فيها هو التركيز على المنافع
الروحية؛ ولك أن تتأمل معي قوله عز من قائل: ﴿ وَيَذْكُرُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي أَيَّامِ
مَعْلُومَاتٍ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفَوَى الْقُلُوبِ ﴾،
وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا بِاسْمِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةٍ إِلَّا نَعَمَ ﴿١﴾؛ ثم تأمل خاتمة هذه الآيات الناصعة: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّفْؤَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَبْدِيكُمْ﴾.

كل هذه أدلة واضحة على تأكيد وتركيز القرآن الكريم - وهو كتاب عمران كما سبقت الإشارة إليه - على المصالح المعنوية وترجيحها على المنافع المادية، لكن ذلك لا يدل على إهدار المصالح المادية، كلا كلا!! إذ لابد منها لإقامة العمران وبناء الحضارة، إلا أن غرض الشريعة الإسلامية من نصوصها هو إقامة الاعتبار والوزن الثقيل للمصالح المعنوية خاصة؛ فالمصالح المادية لا تحتاج إلى تأكيد، لأنها - بكل بساطة - تفرض نفسها بشكل قوي على الإنسان وغيروته وأعرافه؛ فالناس يطلبون ما يقيم حياتهم وصحتهم، وما يدفع جوعهم وآلامهم وأمراضهم، ويبحثون تلقائياً عن المتع والمصالح المادية في المباني والأثاث والمأكولات والمراكب والحلي وما إلى ذلك.

لكن الذي يحتاج إلى عناية ورعاية هي المصالح المعنوية، والجوانب المعنوية في التكاليف الشرعية؛ إذ أن المصالح المعنوية عادة ما تُهدر وتُنسى، ولذلك وجب التذكير والاحتفاء بها، ولأن الجانب الروحي في العمران هو الأصل والموجه للجانب المادي فيه، وأنّ الاقتصار على المادي دون الجانب الروحي هو خراب للعمران، وهلاك للإنسان!! وقد سبق بيان هذا ما لا يحتاج إلى مزيد تفصيل⁴⁴².

تلك أدلة ترتبط بالأمر أثبتت حجّة قاعدتنا العمرانية؛ نضيف إليه مثالا يتعلق بالنهي الذي يدل على التحريم؛ من ذلك ما يتعلق بتحريم الخمر والميسر الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ

⁴⁴² سبق ذكر هذا الكلام في مواطن عديدة؛ منها ما ورد في المطلب:1؛ من المبحث الثاني من الفصل

2؛ وذكرته أيضا في المطلب:2، من المبحث 2، من الفصل3؛ في الباب الأول من هذه الأطروحة..

عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوَفِّعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ⁴⁴³؛ فهنا علل تحريم الخمر والميسر بما يترتب عليها من فاسد اجتماعية وأخلاقية وقيمية، والأهم من ذلك كله أنها تشغل عن الصلاة وعن ذكر الله، وهذه مفسدة دينية روحية وهي الأخطر؛ والفقهاء مثلاً نجدهم يعللون تحريم الخمر بالإسكار؛ أي أنها تُذهِبُ العقل، وتضر الجسم، وهذا كله صحيح، ولكن القرآن ركز على شيء آخر يتعلق بالفساد الأخلاقي والاجتماعي؛ ثم الفساد المتمثل في صرف الناس عن ذكر الله وعن الصلاة؛ وهذه كلها مفاصد معنوية ومفاصد أخلاقية وتعبدية؛ ومعلوم أنّ درء المفاصد هو مصلحة، وهذا ما يسمّيه الشاطبي حفظ المصالح من جهة العدم؛ وقد سبق أن ذكرنا هذا في تعريف المصلحة؛ وهو ما نطق به الإمام الصوفي الأصولي أبو حامد الغزالي رحمه الله بقوله: "أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يُفَوِّت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة"⁴⁴⁴

تلك أدلة من القرآن الكريم شاهدة بأمرها ونهيها على حجة قاعدتنا العمرانية؛ ونضيف إليها شاهداً واحداً من السنة - وشواهدا كثيرة - نكتفي به خشية الإطالة، وهو حديث سيدنا رسول الله ﷺ بأبي وأمي وروحي، القائل فيه: (تبايعوني على ألا

⁴⁴³ الحج: 27، 37

⁴⁴⁴ ن: "المستصفى" لأبي حامد الغزالي، مصدر سابق؛ (174/1)

تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، - في رواية - ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف؛ فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له وطهور⁴⁴⁵.

فهذا الحديث يدل على البعد المعنوي للمصالح التي اشتمل عليها هذا الحديث الشريف، فبدأ بالبند الأول الذي يرتبط ببند الشرك وإعلان التوحيد لله رب العلمين، أو ما يتعلق بضرورة ومصلحة الدين، ومن المعلوم أن هذه البيعة النبوية كانت بمثابة الإرهاصات الأولى لبناء عمران الدولة الإسلامية وإنشاء حضارتها؛ وهو ما يشهد له ترتيب العلماء للضرورات الخمس التي يأتي الدين في المرتبة الأولى، كما رأينا من خلال نص الإمام الغزالي، أي أنه يُرجَّح على غيره، ولذلك اعتبرناه ضرورة من ضرورات العمران في قاعدتنا العمرانية (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)⁴⁴⁶؛ فتأمل!!

وأختم بكلام للإمام الشاطبي يوضح فيه هذه القضية فيقول: "الصلاة - مثلاً - أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له؛ قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14]، وقال: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45]، وفي الحديث: (إن المصلي ينجي ربه)؛ ثم إن لها مقاصد تابعة: كالنهى عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكد الدنيا في الخبر: (أرحنا بها يا بلال)، وفي الصحيح: (وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة)، وطلب الرزق بها؛ قال الله تعالى: {وَأْمُرْ

⁴⁴⁵ أخرجه: البخاري (3892).

⁴⁴⁶ وردت هذه القاعدة في المبحث الثالث من الفصل الأول في الباب الثاني، كما ورد قبل ذلك في المطلب الأول في المبحث الثاني من الفصل الثاني في الباب الأول.. من هذه الأطروحة

أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ { [طه: 132]، وفي الحديث تفسير هذا المعنى، وإنجاح الحاجات، كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة، وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي الفائدة العامة الخالصة، وكون المصلي في خفارة الله، في الحديث: (من صلى الصبح لم يزل في ذمة الله)، ونيل أشرف المنازل؛ قال تعالى: {وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمُودًا} [الإسراء: 79]؛ فأعطى بقيام الليل المقام المحمود..

وفي الصيام سد مسالك الشيطان، والدخول من باب الريان، والاستعانة على التحصين في العزبة في الحديث: (من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوج)، ثم قال: (ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم فإنه له وجاء)؛ وقال: (الصيام جنة)، وقال: (ومن كان من أهل الصيام؛ دعي من باب الريان)؛ وكذلك سائر العبادات فيها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية، وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية، وهي الانقياد والخضوع لله كما تقدم 447¹¹

هكذا أوضح هذا الإمام من خلال كلامه أنّ هناك مصالح ومقاصد أصلية وأخرى تابعة لها؛ وأنّ هناك توازناً بين المقاصد الظاهرة والمقاصد المعنوية الروحية؛ ممّا يدل على أن العمران لا يقوم إلا بالنوعين معاً من المصالح، وأنّ الروحية والمعنوية منها مقدّمة على المصالح المادية، وهو ما تقرّره قاعدتنا العمرانية: (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)، بمنطوقها ومفهومها! **استنتاج:**

إذن نستنتج ممّا سبق أنّ هذه القاعدة العمرانية لها أدلّتها التي تشهد لها بقوتها الفاعلة في العمران؛ وهو ما يمكن توظيفه في مجالات مختلفة، نستطيع من خلالها الإسهام في تصحيح مسار الشهود الحضاري للأمة؛ وهو ما نجلّيه في المطلب الثالث؛ وإليه بإذن الله.

⁴⁴⁷ ن: "الموافقات"، الشاطبي، مصدر سابق، (142/3 - 143).

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال الجواب عن السؤالين الأولين في المطلبين السابقين ننتقل إلى الجواب عن السؤال الثالث، والمتعلق بدور القاعدة وأهميتها العمرانية في مجالات الحياة المختلفة..

ومن خلال ما سبق بيانه من مدلول هذه القاعدة العمرانية، ومعانيها السارية بين أحضان مصطلحاتها؛ وما تمَّ إيرادُه من أدلة وبراهينَ شاهدةٍ على مصداقيتها، يبدو من غير ارتياب أنَّ هذه القاعدة يمكن استثمارها وتفعيلها في مجالات عمرانية عديدة، ممَّا يؤكِّد على قوتها وحضورها المؤثِّر والقوي في عمران الإنسان في المعاش والمعاد، لما يُصلح البلاد ويُسعد العباد!!

وتصديرًا لهذا المطلب أقول إن كل إنسان يسعى إلى تحقيق السعادة في هذه الحياة؛ فهذا ممَّا لا يختلف فيه المقاصد والرغبات، وإنَّ توفير ذلك يتجلى في جلب المصالح والمنافع ودفع المفاسد والمضار، إلا أن تحديد مفهومي المصلحة والمفسدة يختلف من إنسان إلى آخر إلى حدِّ التناقض، حسب المعتقد والخلفية الفكرية الإيديولوجية؛ وقد سبقت الإشارة إليه في المطلب الأول من هذا المبحث..

وإذا كانت الرؤية المادية لا تؤمن إلا بالمصالح المادية الشهوانية، وهو ما يسوق إلى تنازع الإنسان مع الوجود في إطار المنظور المادي، في صورة معركة طاحنة.. وكأن كلا منهما قد انفصل عن الآخر؛ وهو ما كان له أثره المدمر والخطير على العمران؛ وقد تمثل ذلك الأثر في تخريب الإنسان نفسه بسبب ما تفتقت عنه عبقريته العقلية، وما أنتجته يداها، فأصبح ﴿كَأَنِّي نَفَضْتُ غَرْلَهَا مِنْ بُعْدِ قُوَّةٍ أُنْكَشْتُ﴾⁴⁴⁸؛ وهذا بخلاف النظرة الإسلامية للحياة والكون، المبنية على مزج المصالح المادية بالروحية، بل تقديم الروحية والمعنوية على المادية الأرضية؛ لأن حاجة الإنسان إلى ما هو روعي أكد من حاجته إلى ما هو مادي؛ وهو ما يؤدي إلى إقامة الانسجام والتكامل بين الإنسان والكون، بحيث

يسيران بإيقاع متوازن، جنباً إلى جنب، نحو بناء عمران منشود؛ تحقيقاً لغاية الإله المعبود 449

وقاعدتنا الموسومة بـ (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)، نحاول من خلالها أن نُعيدَ للإنسان عموماً - والمسلم خصوصاً - توازنه في هذه القضية الشائكة، التي كانت سبباً في مزالِق حضارية وعمرانية خطيرة؛ والتي تتعلق باعتبار المصالح والمفاسد سواء الروحية منها أو المادية؛ والقاعدة تدعو إلى النظر في ذلك بميزان القسط والعدل، من غير إفراط ولا إفسار، وهو المنهج الذي جاءت به شريعة الإسلام الغراء من أجل استثماره في مجالات العمران المختلفة؛ نذكر بعضاً منها فيما يلي:

• المجال العقدي:

حينما نتأمل موضوع الإيمان بالله وما يرتبط به من أركان العقيدة الإسلامية بموضوعية وإنصاف، فإنك تجد نفسك أمام مصالح ومنافع لا يمكن حصرها ولا عدّها، وهي تشمل الروحية بل والمادية أيضاً؛ ومن ثمّ فإنّه لا يمكننا أن نحيط بها علماً، بله أن نحيطها ذكراً، وكيف للمحصور فهما وإدراكاً أن يحيط بمنافع الإيمان بمن ﴿لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾⁴⁵⁰؛ ومن ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁴⁵¹؛ ومن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

⁴⁴⁹ أنظر ذلك مفصلاً في المطلب: 2، بعنوان (علاقة الإنسان بالكون)، وقد أدرجت فيه ثلاث مسائل؛ من المبحث الأول في الفصل: 3، من الباب الأول من هذه الأطروحة.

⁴⁵⁰ البقرة: جزء من آية الكرسي

⁴⁵¹ الأنعام: 104

﴿⁴⁵²؛ ولذلك فإننا سنشير إلى بعض هذه المصالح التي لو أدركها الناس لدخلوا في دين الله أفواجا، ولأقاموا عمرانهم على أسس متينة لا تنال منها عوادي الزمان؛ إذ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَبِيَ وَوَكَيْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾⁴⁵³؛ نعم بالإيمان يهتدي الإنسان إلى إقامة العمران، فتحصل له السيادة والريادة والعزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَئِكَ الْمُنْتَفِعِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁴⁵⁴؛ لأنهم لم يستحضروا أن الله ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾⁴⁵⁵؛ وأن ﴿أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٢٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁴⁵⁶؛ الفوز العظيم الذي جعل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ انْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁴⁵⁷؛ وهذه آية جامعة لكل المصالح الدنيوية

⁴⁵² . الشورى: 11

⁴⁵³ . التوبة: 18

⁴⁵⁴ . الجمعة: 8

⁴⁵⁵ . البقرة: 257

⁴⁵⁶ . يونس: 62 _ 63 _ 64

⁴⁵⁷ . النحل: 97

المعنوية منها والمادية، وممانعة من كل مفسدة ومضرة روحية وجسمانية في الدنيا، كل ذلك معبرٌ عنه بكلمة "الحياة الطيبة"، وأوشك المفسرون أن يُجمعوا على أن ذلك في الدنيا، وهذه الحياة الطيبة لا تتحقق للجماعة إلا بالعمران المنشود الذي قصدنا مفهومه في هذه الأطروحة؛ وأما قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فهذا في الآخرة، وفيها يتحقق العمران السرمدي الذي فيه (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)⁴⁵⁸؛ تلك مصالح ومنافع روحية ومادية يجنيها المؤمن من عقيدته وإيمانه الصادق، فوجب استحضارها واستثمارها فيما هو صالح لعمرانه!

ثم لا ننسى أن نستحضر ما يجنيه المؤمن من سعادة قلبية وفرح وجداني عجيب لا تقوم له الدنيا بحذاقها، وقد جاء هذا عبر آي القرآن الكريم في أساليب وإشارات مختلفة لا يتسع المقام لذكرها، نكتفي بإيراد آية كريمة، وهي قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^{٢١} الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ⁴⁵⁹؛ وهو ما يُكسب العبد سعادة لا يشقى بعدها، وإن طرقت بابه جميع الخطوب ونزلت بساحته كل الكروب، ولُنستمع إلى سيدنا رسول الله ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له)⁴⁶⁰؛ وهل بعد هذا البيان بيان!!

⁴⁵⁸ جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه، رقم: 2825، ورواه غيره بطرق مختلفة..

⁴⁵⁹ الرعد: 30.

⁴⁶⁰ رواه مسلم في صحيحه، رقم: 2999.

ولفريد الأنصاري كلمة وجدانية في هذا السياق، يقول: "إنَّ عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم، ولا في السنة النبوية؛ إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك؛ وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعباراتها القرآنية الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلا عجيبا؛ إذ يتحوّلون بسرعة وبعمق كبير من بشر عاديين، مرتبطين بعلائق التراب، إلى خلّائق سماوية تنافس الملائكة في السماء!! وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ولذلك حقّق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ"⁴⁶¹، والعمران!! ثم يُردف الكلام بمواجهته الجياشة فيقول لله دره: "إنَّ السر الذي تتضمنه عقيدة (لا إله إلا الله) والذي به غيّرت مجرى التاريخ مرات ومرات، والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام؛ إنما يكمن في جمالها! ذلك الشيء الذي لا يُدرك إلا بحاسة القلب"⁴⁶²؛ ذلك ﴿لِمَسْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى لَسَمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾⁴⁶³.

يقول الدكتور اليوناني ك. ووتيراكيس: "إنَّ الشَّخص الذي لا يؤمن بالله كما ينبغي مهما كان جنسه ونسبه، هو أكبر سَمًا من الأفعى، وأكثر وحشية من الحيوانات المفترسة، وهو فوق ذلك لو حصل على الدنيا كلّها لا تشبع غريزته النّهمة، وحرصه على جمع الأموال، ويبقى أسير الأوهام والأحلام حتّى قد يدّعي الإلهية متعقبا طريق البلهاء المتفلسفين الضّالّين، ولا يُجزم عن القيام بأيّ عمل ضارّ ضدّ بني جنسه"⁴⁶⁴؛ فهل يمكن لعمران أو حضارة أن تقوم لها قائمة حينما تغيب العقيدة؟!

⁴⁶¹ ن: "جمالية الدين" لفرید الأنصاري، مرجع سابق، ص 63

⁴⁶² ن: نفس المرجع سابق، ص 65

⁴⁶³ ق: 37

⁴⁶⁴ ن: "المصلحة والأخلاق بين الإيمان والكفر"، عمر بلقاضي، في: 2019/12/26؛ نقلا عن الموقع:

belkadi_omar16@yahoo.fr

وهذا هو السرّ في اهتمام المرحلة المكية بإصلاح العقيدة دون غيرها، حتى إن النبي ﷺ كان في بداية دعوته المكية يقول ويردّد: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) الحديث 465

نعم بالعقيدة الإسلامية الصافية يحصل الفلاح الجالب للمصالح الروحية والمادية في المعاش والمعاد؛ والتي يقوم عليها عمران الإنسان وتزدهر حضارته، وبفقدان العقيدة والإيمان، تنعدم مصالح العمران، ويهلك الإنسان؛ ذلك ما نطق به القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁴⁶⁶.

• المجال التعبدي:

وللعبادة دور وأيُّ دور؟! ولها مصالح ومنافع وأيَّة مصالح؟! وقد ذكرت - في المطلب السالف - جملة من المصالح التي تشتمل عليها طائفة من العبادات من أركان الإسلام، وذكرت كلاماً للعلامة الشاطبي بيّن فيه بعض مصالح العبادة وركّز على المصالح الروحية منها؛ كما نبّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية؛ ولذلك لا داعي لإعادة ذلك؛ وإنما نضيف إشارات موجزة تتعلق ببعض المصالح العامة للتعبد، والتي لها علاقة مباشرة بعمران الإنسان

ولابد أن أذكر هنا أنه سبق لنا أن العبادة والعمران يندمجان في مهمة واحدة، وهي القيام بأمانة الاستخلاف؛⁴⁶⁷ وأنه لا يمكن إقامة العمران على الوجه الحقيقي

⁴⁶⁵ . رواه ابن حبان في صحيحه، رقم: 6562؛ والدارقطني بسند صحيح، رقم: 2976؛ وغيرهما..

⁴⁶⁶ . الأعراف: 95

⁴⁶⁷ . ذكرت هذه المسألة مرات كثيرة في مواطن مختلفة من الباب الأول من هذه الأطروحة؛ من ذلك ما ذكرته في حاشية المسألة الثانية من المطلب الثالث، من المبحث 3 (أركان العمران)، من الفصل الأول في

في غياب العبادة، وبالتالي فمقاصد التّعبد ومصالحه هي خادمة للعمران وداخله في مقاصده؛ وهذا ما وجب تقريره والتنبيه إليه!

والخلاصة من كل سبق " أن العمران الإسلامي والحضارة الإسلامية، لا يزالان قائمين ما دام هناك توظيف واستحضار لمقاصد التّعبد؛ وكلما ضعف وتلاشى ذلك كلما كان إيذاناً بالانحلال وانفكاك عرى المجتمع وضياع الحضارة وخراب العمران!! وإن تمثل مصالح التّعبد الإسلامي وتقديم المصالح الروحية الوجدانية على المادية، يُسهمُ بشكل كبير على الانضباط والإقبال على هذه الأعمال التعبدية التي لها دور كبير في تنمية العمران وتقوية حضارة الإنسان، لأن تلك المنافع والمصالح التي تشتمل عليها العبادات تلعب دوراً كبيراً في تماسك المجتمع حتى يصير كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً؛ و(كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)⁴⁶⁸؛ وهذا يبدوا واضحاً بشكل جلي في شعيرة صلاة الجماعة وفي فريضة الزكاة، كما سبق بيانه بصورة مفصلة⁴⁶⁹..

كل ذلك يمكن أن نجمله في كلمة واحدة تجمع معانيه وتجسد غايته، وهي كلمة العبودية لله عز وجل، تذلاً وخضوعاً واستسلاماً لله الواحد القهار؛ وإن لحظات الصعود

الباب الأول؛ من هذه الأطروحة: " قلت : هناك ترابط وثيق، وتلاقح حقيق، و تقاطع عميق، بين هذه المصطلحات الثلاث (العبادة و العمران و الاستخلاف) ، ممّا تبين لي في حدود بحثي أنه يصعب التفريق بينها من حيث مجالاتها و امتداداتها و ظلالها ، لا من حيث مفاهيمها فهي مختلفة باختلاف ألفاظها ، و لذلك هذه المفاهيم الثلاث تحتاج إلى بحث عميق يُفرد لها لتجلية حقائقها و استكناه دقائقها "...

⁴⁶⁸ سبق تخريجه ص 79

⁴⁶⁹ راجع المبحث الثاني: قاعدة (الزكاة فريضة شرعية وضرورة عمرانية)، من الفصل 2؛ من الباب الثاني من هذه الأطروحة

"في التاريخ الإسلامي الطويل، كانت تبدأ مع ساعات الإحساس الكامل بهذه العبودية لله، وتحولها إلى حركة كاملة، تحكم الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وإن حالات الهبوط فيه كانت تتزامن مع فقد الإحساس، ولو إلى حين"⁴⁷⁰

• المجال السلوكي:

ونقصد بهذا المجال الجانب التربوي منه؛ أي عملية تهيئة النفس وتزكيتها عن طريق مخالفتها لأهوائها وإلزامها بأوامر خالقها، فذاك غذاؤها ودواؤها وما يقوم به عمرائها؛ فللنفس عمران، وأي عمران؟! إنه عمران يقوم على تغيير النفس من السيئ إلى الحسن ثم إلى الأحسن، وذلك بإجبار النفس على ترجيح المصالح الروحية والمعنوية الوجدانية على المادية الشهوانية الحيوانية، وذلك مرتقى صعب على النفس فدونه خطر القتاد! إنه الجهاد الأكبر، وأي جهاد أكبر من أن تُجاهد النفس نفسها بنفسها؟! وأن تخالف بها طباعها فتلك سباحتها عكس تيار شهواتها ونزواتها، وفي ذلك كَلْفُها ومشقتها؛ لكنّها ضريبة مقام الإحسان! وأي إحسان هذا؟! والجواب ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁴⁷¹.

إنّ الجانب الأخلاقي مجال خصب لإدراك المصالح والمنافع؛ بل هو مصنع المنافع والمصالح التي تمثل محرّكا قويا لإقلاع الطيران العمراني في سماء الوجود الحضاري؛ إنّ النبي ﷺ ما أقام عمرانه إلا بالأخلاق، بل ما بُعث إلا لإتمام عمران الأخلاق، فهو القائل ﷺ بأبي وأمي وروحي (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)⁴⁷²؛ وحتى ينجو البنيان العمراني والكيان الحضاري للأمة الإسلامية، فلا بد من الرجوع إلى الأخلاق السامية

⁴⁷⁰ ن: "المصلحة والأخلاق بين الإيمان والكفر"؛ عمر بلقاضي، مرجع سابق؛ بتصرف كثير زيادة ونقصانا..

⁴⁷¹ -العنكبوت: 69.

⁴⁷² سبق تخريجه ص 159

والقيم الربانية، التي تمثل روح العمران وسرّ حياته؛ ولا مفرّ من العمل على إزالة ما علق بالنفوس من علل وأدواء كالأنانية والأثرة، والانغماس في المفاسد - التي يظنها البعض مصالح - الشهوانية الطينية والملذات البهيمية العابرة التي استحكمت في النفوس اليوم؛ وأزعم أنّ ما وقعت فيه الإنسانية عموماً والأمة الإسلامية خصوصاً من انتكاسة أخلاقية دمّرت الإنسان قبل العمران! كان من أهم أسبابه غيابٌ مثل هذه النظرة العمرانية التي تضمّنتها هذه القاعدة العمرانية التي تنصّ على وجوب تقديم وتغليب الجانب الروحي والوجداني للمصالح على الجانب المادي الحيواني.

• المجال الاجتماعي:

إن القاعدة العمرانية التي بين أيدينا لها دور قوي في المجال الاجتماعي نظراً لما يقع في العلاقات بين أفراد المجتمع من تصادم بين المصالح والمنافع بسبب المشاحة والمكايسة في التعامل بينهم؛ ومن ثمّ فإذا غابت المصالح الروحية والمعنوية وتمحّضت المصالح المادية، آل المجتمع إلى أشتاتٍ من الناس لا تجمعهم جامعة، ولا ينظم عقدهم ناظم؛ فتتأزم العلاقات ويغيب حسّ الجماعة وتسود الأنانية والسلطوية، وغيرها من الأمراض الأخلاقية التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية اليوم..

وإنّ هذه القاعدة العمرانية ومثيلاًتها من القواعد المنظّمة كفيلاً لأن تُرجع المياه إلى سواقيها والأمور إلى نصابها، إذ أنّ تغليب المعاني الروحية كالإيثار والمحبة والصدق والعدل والإحسان، على المعاني المادية كالمشاحة والأنانية والغش والكذب والتدليس.. ضروري لتقوية أواصر المجتمع وعلاقات أفرادهِ، التي تمثل دوراً هاماً في تنمية العمران وتشديد الحضارة..

ولقد أقام الإسلام مجموعة من التشريعات في باب المعاملات تحدثت عنها كتب الفقه، كلها تقوم على ترجيح المصالح المعنوية على المصالح المادية؛ فالقرآن الكريم أمر

بأداء الأمانات على أحسن وجه، وإقامة العدل الذي يعتبر قيمة اجتماعية هامة بالنسبة لإقامة العمران؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁴⁷³؛ وفي هذا الإطار أيضا دعا النبي ﷺ إلى تغليب المسامحة على المشاحة في المبادلات التجارية التي يغلب عليها الطابع النفعي المادي، ورُتب على ذلك الرحمة الإلهية من أجل التشجيع على ذلك فقال ﷺ: (رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى، سمحا إذا قضى)⁴⁷⁴؛ والمسامحة هنا قد تدخل في مسمى الإيثار الذي لا ينبع إلا من قلب تشرب بثقافة ترجيح المصالح المعنوية الوجدانية على المادية الأرضية، ولذا رتب القرآن الكريم الفلاح، وهي كلمة جامعة لحصول كل مرغوب والنجاة من كل مرهوب، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَإِنَّ زَوْجَيْكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁴⁷⁵

" إن كل الآداب والأخلاق والتشريعات التي جاءت في القرآن الكريم و السنة النبوية ذات صبغة اجتماعية واضحة، وإن الهدف منها تنظيم الحياة في المجتمع الإسلامي على أساس مبادئ العدل والمساواة والحق التي جاء بها الإسلام؛ إن مجتمعا تسري في أوصاله مثل تلك القيم، لا يمكن أن يتسرب إليه الوهن والاختلال، لأن أفرادها لا يكتفون بالوقوف عند حدودهم، فذلك حد أدنى، بل إنهم ليتجاوزون ذلك إلى تقديم العون إلى

⁴⁷³ النساء: 57

⁴⁷⁴ رواه ابن حبان في صحيحه بهذا اللفظ عن جابر بن عبد الله؛ رقم: 4903؛ ورواه البخاري بنحوه في صحيحه،

رقم: 2076

⁴⁷⁵ الحشر: 9

بعضهم بعضاً، وتفريج كرب بعضهم بعضاً"⁴⁷⁶؛ عملاً بما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، وَمَنْ فَرَّجَ عن مسلم كربةً، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)⁴⁷⁷

وخلاصة القول: إنّ هذه القاعدة يمكن استثمارها بقوة وتفعيلها في المجال الاجتماعي تفعيلًا يخدم قضايا الأمة الإسلامية ويقيم عمرانها، ويساهم بشكل كبير في انتشالها من هذه السقطة العمرانية ومن هذه الوهدة الأخلاقية!

بيان واستنتاج:

وأخيراً وليس آخراً أقول: إنه من خلال جولة هذا المطلب بين تلك المجالات يتّضح أنّ هذه القاعدة العمرانية لها سلطتها المنظّمة لمختلف مجالات عمران الإنسان، لذا وجب استثمارها والأخذ بها وتوظيف مقتضياتها؛ وبالتالي جعلها منهجاً استشرافياً لعمران الأمة حتى تستعيد عافيتها، وتسترد ريادتها العمرانية وقيادتها الحضارية!!

⁴⁷⁶ ن: "المصلحة والأخلاق بين الإيمان والكفر"؛ عمر بلقاضي، في: 2019/12/26؛ مرجع سابق

⁴⁷⁷ رواه البخاري في صحيحه رقم: 2442؛ ورواه أبو داود بسند صحيح، رقم: 4893، واللفظ له.

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

وبعد هذه الجولة المتأنية مع تلك القاعدة الكبرى في محطاتها المتنوعة؛ أنتقل إلى بيان دورها الاستشرافي لعمران الأمة خصوصاً والإنسانية عموماً، والناظر بعمق في تلك القاعدة ليقن يقيناً جازماً أنها وضعت ميزاناً مُحكما يستطيع الإنسان بتوظيفه أن يعيش في توازن بين مطالب الروح وحاجيات الجسم؛ وفي ذلك تحقيق سعادته واطمئنانه، وتقدّم حضارته وازدهار عمرانه!!

لقد سبق أن بيّنا في أكثر من مناسبة وعبر أكثر من مَهَيِّعٍ، سواء في الباب الأول أو في هذا الباب، أن صلاح العمران مرهون بصلاح الإنسان، وهو ما يجعلنا ندرك أن صلاحه - أي الإنسان - مقدّمة ضرورية لاستشراف صلاح العمران فتأمل!!

وإنّ قاعدة (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)، تعمل على هذا الوزان، أي تُعيد للإنسان توازنه الفكري والسلوكي استشرافاً لعمران متوازن وحضارة معتدلة، حيث يصير الإنسان المعمر مُقْسِطاً في تحصيله لمصالحه، فلا يقتصر على المصالح المادية الحيوانية دون مصالح الروح والوجدان، فيستغرق وقته وفكره وجسمه في الانغماس في الشهوات البهيمية، تاركاً روحه في خواء قاتل، ممّا يسبب له ضنكا في عيشه وشقاء في حياته؛ كما أنه لا يجوز - حسب القاعدة - أن يهمل الإنسان متطلبات الجسم بحكم تكوينه الحيواني، فذلك ضرب من السلبية التي حاربها الإسلام في أكثر من مناسبة، وفي غير ما موضع، واعتبرها ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾⁴⁷⁸؛ وسمى القرآن الكريم ذلك المنهج اعتداءً صريحاً، ونهى عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ

اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٤٧٩﴾

وإنما القاعدة تؤسس لمنهج متوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد، - وتجعله واجبا
عمرانيا - لتحقيق النوعين من المصالح الروحية الوجدانية والمنافع المادية الحيوانية من غير
إفراط ولا تفريط، ومن دون غلو ولا تسبب، بل بميزان العدل والقسطاس المستقيم ﴿٤٨٠﴾
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٤٨٠﴾؛ وهذا لا يتنافى مع ترجيح المصالح المعنوية الروحية
على المادية الجسمانية عند التعارض، كما تدل على ذلك القاعدة التي بين أيدينا، وكما
بيّنا في أكثر من مناسبة من هذه الأطروحة⁴⁸¹؛ وقد رسم النبي ﷺ منهجا وسطيا
متوازنا يوجه به كلٌّ مَنْ جَنَحَ به السيرُ ذات اليمين أو ذات الشمال، من ذلك قوله
ﷺ: (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ
كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)⁴⁸²

وزبدة القول وخلاصته: أنّ هذه القاعدة العمرانية تمثّل دوارا استشرافيا لعمران
الإنسان إن أحسنَ توظيفها، وتمّ تنزيلها وفقّ مناطاتها الخاصة والعامة، كل نفس في
نفسها، وكل مجتمع في مجموعه، وهو ما يتطلب تكاثف الجهود على كل الأصعدة حتى
نعبّر إلى برّ الأمان، فيتحقق العمران ويسعد الإنسان، بفضل الرحيم الرحمان!!

⁴⁷⁹ المائدة: 89

⁴⁸⁰ الإسراء: 35

⁴⁸¹ سبق أن بيّنا في أكثر من مناسبة أنّ أشرف شيء في الإنسان هو جانبه الروحاني، وبناء على ذلك
كان العمران الروحي هو أصل العمران المادي؛ وكان من بين ما قلته أن: "العمران الروحي الوجداني النفسي
هو الأصل والأساس والمنطلق لتصحيح أي مسار عمراني حضاري، إذ أنّ الإنسان المعمر هو المسؤول عن
العمران من لدن الحكيم الدّيان، ولا يمكن أن يقوم بذلك إلا إذا كان هو عامرا أولا، إذ فاقده الشيء لا
يُعطيهِ، وإنما عمران الإنسان المعمر بعمران روحه ونفسه ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره وكل خلجات قلبه،
وقد جليت هذا الأمر فيما سبق أثناء حديثي عن أنواع العمران" ..

⁴⁸² سبق تخرجه

المبحث الثالث: قاعدة (الظلم مؤذن بخراب العمران)

هذه قاعدة عمرانية عامة مطردة، أدرجتها مع قواعد أصول التصوف والسلوك، ويمكن جعلها أيضا ضمن قواعد أصول السياسة الشرعية، أي ضمن قواعد الفصل الموالي، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عموم هذه القاعدة وشمولها، وانبساط سهولها وتضاريسها؛ فهي من القوانين الكونية المؤطرة لحياة الإنسان باعتباره عبدا مكلفا ومسؤولا، فاعلا ومنفعلا؛ وأصلها مقولة خلدونية رصينة، ذكرها رائد العمران - ابن خلدون - في موضعين بهذه الصيغة من المقدمة⁴⁸³؛ ولعل قوة هذه القاعدة العمرانية نابعة من كونها تقترب في عمقها الدلالي والتداولي من تلك القوانين الكونية الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية، ذات الخطاب العام الموجه لكل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وثقافتهم ودياناتهم، سارية في الكون بكل عدل ومساواة لا تحايي أحدا من الناس بحال من الأحوال..

ولدراسة هذه القاعدة دراسة متأنية مثمرة؛ ونظرا لشموليتها وعمومها - كما سبقت الإشارة - كان لابد من الإبحار في أوضاعها الفكرية عبر سفن منهجيتنا الموسومة بتقديم أسئلة أربعة تتشوّف بها الموضوع.

فما مفهوم هذه القاعدة؟ وما أدلتها وحجّيتها؟ وأين تتجلى قيمتها ومجالاتها العمرانية؟ وما آثارها الاستشرافية في العمران؟

فتلك أسئلة أربعة، نتجول من خلال ثناياها بالإجابة عنها لبيان دور القاعدة العمرانية وأهميتها الحضارية، استشرافا لعمران مزدهر وحضارة راقية، ترتقي عبرها الأمة بأفرادها ومجموعها في مدارج الكمال الإنساني، تحقيقا لشهودها البشري، بإذن القدير العلي!!

⁴⁸³ أوردها ابن خلدون بهذه الصيغة في (1 / 51)، وعنونَ بها الفصل 43 من الباب الثالث (353/1)

من المقدمة.

وهذه المطالب تأتي على الصورة المقررة كما يلي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحجيتها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

جرت العادة أننا عند تناولنا لبيان مفهوم القاعدة أن نبدأ بمعالجة مفرداتها بالبيان والتوضيح، نظراً لوجود العلاقة بين بيان الجزء وبيان الكل؛ وإذا نظرنا للقاعدة التي بين أيدينا نجد أنها مركبة من أربعة ألفاظ (الظلم، مؤذن، خراب، العمران)؛ أما لفظة (العمران) فقد بيناه في غير ما مرة باعتباره المصطلح الرئيس الذي تدور عليه الأطروحة..

إذن نبدأ بمصطلح (الظلم) الذي يعتبر المصطلح المركزي للقاعدة التي بين أيدينا؛ فما دلالاته اللغوية والاصطلاحية؟!

أمّا مفهومه في اللغة فقد تناولته معاجم اللغة تناولاً يرجع كله إلى أن: "أصل الظلم: الجور ومجاوزة الحد، يقال: ظلمه، يظلمه ظلمًا، وظُلماً، ومَظْلَمَةً، فالظُّلْمُ مَصْدَرٌ حَقِيقِيٌّ، والظُّلْمُ الاسم، وهو ظالم وظلوم. وأصل الظلم، وضع الشيء في غير موضعه"⁴⁸⁴

أما معناه اصطلاحاً: فقد وردت في أقوال أهمها:

قال الراغب الأصفهاني هو: "وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إمّا بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه"⁴⁸⁵، وهذا المعنى يرجع إلى المعنى اللغوي؛ وقال الشريف الجرجاني: "هو عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل وهو الجور؛ وقيل: هو التصرف في ملك الغير، ومجاوزة الحد"⁴⁸⁶؛ وله مرادفات من أشهرها: الجور، البغي، الحيف، العدوان، الطغيان، الإجحاف.. الخ

⁴⁸⁴ ن: "النهاية في غريب الحديث والأثر"، لابن الأثير؛ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م (161/3)، و"القاموس المحيط" للفيروز آبادي ص 1134، "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" للفيومي، المكتبة العلمية - بيروت؛ دون طبعة أو تاريخ؛ ص 146.

⁴⁸⁵ ن: "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني؛ مصدر سابق ص 537.

⁴⁸⁶ ن: "التعريفات" للجرجاني؛ مصدر سابق، ص 186.

ثم لا ننسى أن نبين بأن الظلم نقيض العدل، وقد سبق الحديث عنه عند الكلام عن شروط العمران في الباب الأول⁴⁸⁷؛ ومما هو معلوم أنّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، وهناك مَنْ قال أنّ العدل والظلم من باب التضاييف، كما هو حال الأبوة والبنوة؛ لكن بعد التأمل فإنّ الرأي الأول هو الراجح؛ لأنّ التضاييف ليس تناقض وإنما هو تكامل كما الشأن بين الأبوة والبنوة؛ وهذا لا يمكن أن يثبت بين الظلم والعدل؛ وإنما العلاقة بينهما هي التناقض؛ والله أعلم!!

ولا يفوتني أن أشير إلى أنّ التعريفين السابقين في الاصطلاح تبين من خلالهما أنّ الظلم له أنواع، وقلّ من يتفطن لهذا، إذ هناك مَنْ يحصره - أي الظلم - في التعدي على حقوق الآخرين بغير حق، وهذا في الحقيقة نوع واحد فقط من أنواعه الكثيرة؛ ولو رجعنا إلى القرآن الكريم الذي جاء ليصحّح تصورات الناس، نجد أنه يذكر الظلم ومشتقاته عبر سياقاته المتعددة بمعاني مختلفة كلها تدور حول معنى: منع الحق ومجاوزته، ووضع الشيء في غير موضعه، وقد يكون الظلم من الكبائر، وقد يكون من الصغائر؛ كما أنه يتنوع بتنوّع المجالات التي يقع فيها، نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

- الظلم العقدي كالإلحاد والشرك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

﴾⁴⁸⁸؛ وهو من باب وضع الشيء في غير موضعه المختص به، وهذا الشيء هنا هو العبادة التي تُصرف لغير الله تعالى..

- الظلم الأخلاقي: كالغيبة والنميمة واحتقار الناس والتعاطي للفواحش وغير ذلك مما حرّمه الإسلام، وهو كثير وسنفصل فيه بإذن الله في المطلب الثالث من هذا المبحث..

⁴⁸⁷ ورد ذلك بالتفصيل في مسائل أربعة من المطلب 2؛ في الفصل الثاني؛ من الباب الأول من هذه

الأطروحة

⁴⁸⁸ لقمان: 12

- الظلم الاجتماعي: هذا أنواعه كثيرة جدا تتعلق بظلم الناس بعضهم لبعض فرادى أو جماعات، شعوباً أو قبائل أو دولاً؛ وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ وَكَذَلِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁴⁸⁹

- الظلم السياسي: وهذا أيضاً من أخطر أنواع الظلم، وله آثار مدمرة للعمران، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله⁴⁹⁰؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾⁴⁹¹

هذه أمهات أنواع الظلم الذي يمثل خراباً للعمران! ثم لا بد أن نشير إلى أن ابن خلدون حاول أن يجلي هذا الأمر الذي يتعلق بتعدد أنواع الظلم فقال: "ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك؛ وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وخصّاب الأملاك على العموم ظلمة؛ ووبال ذلك كلّ عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادّتها، لإذهابه الآمال من أهله"⁴⁹².

وأما لفظة (مؤذن) فإنها ترجع إلى فعل (أذن)، وهي في اللغة ترجع كلها إلى معنى: أَعْلَمَ وَأَوْجَبَ؛ فقد أورد الإمام الزبيدي في تاجه ما مختصره:

⁴⁸⁹ . الشورى: 42

⁴⁹⁰ . ن: المبحث الأول من الفصل الرابع في هذا الباب الثاني، مع قاعدة (لا عمران إلا بسطان)

⁴⁹¹ . النساء: 57

⁴⁹² . ن: "المقدمة" لابن خلدون؛ مصدر سابق، (1/ 355 356)

" (أَذِنَ بِالشَّيْءِ، كَسَمِعَ، إِذْنًا، بِالْكَسْرِ وَيُحَرِّكُ، {وَأَذَانًا} وَأَذَانَةً)، كَسَحَابٍ وَسَحَابَةً: (عَلِمَ بِهِ) ؛) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَأَذِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ} أَيِ كُونُوا عَلَى عِلْمٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، مَعْنَاهُ يَعْلَمُ اللَّهُ؛ وَيُقَالُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا بِإِذْنِهِ؛ (..) {أَذَنَهُ بِهِ: أَعْلَمَهُ} ؛) وَقَدْ قُرِئَ: فَأَذِنُوا بِحَرْبٍ، أَيِ أَعْلَمُوا كُلَّ مَنْ لَمْ يَتْرِكِ الرَّبَّ بِأَنَّهُ حَرْبٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ (...)؛ {وَتَأَذَّنَ} لِيَفْعَلَنَّ: أَيِ (أَقْسَمَ) وَقَالَ؛ وَبِهِ فَسَّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ}، وَ قَالَ الزَّجَّاجُ: تَأَذَّنَ هُنَا بِمَعْنَى (أَعْلَمَ) ؛ وَقَالَ اللَّيْثُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: {تَأَذَّنْتُ لِأَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا يُرَادُ بِهِ إِيجَابُ الْفِعْلِ، وَقَدْ {أَذَنَ وَتَأَذَّنَ} بِمَعْنَى، كَمَا يَقَالُ: أَيْقَنَ وَتَيَقَّنَ (...) مُؤَذِّنَةً: أَيِ مُعَلِّمَةً. {وَالْمُؤَذِّنَاتِ: النِّسْوَةُ يَعْلَمْنَ بِأَوْقَاتِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ عَامِيَةً." 493

أما مصطلح (خراب) فهو باختصار ضد العمران، وقد سبق أن عرفنا مفهوم العمران، وقد قيل: "بضدها تتمايز الأشياء"، وفي ذلك يقول ابن فارس:

"(خَرِبَ) الْخَاءُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّشَلُّمِ وَالتَّثْقُبِ؛ فَالْخُرْبَةُ: التَّثْقِبَةُ. وَالْعَبْدُ الْأَخْرَبُ: الْمُتَثَقِبُ الْأُذُنِ. وَالْخُرْبُ: ثَقُبُ الْوَرِكِ. وَالْخُرْبَةُ: عُرْوَةُ الْمَزَادَةِ.

وَمِنْ الْبَابِ، وَهُوَ الْأَصْلُ، الْخَرَابُ: ضِدُّ الْعِمَارَةِ. وَالْخُرْبُ: مُنْقَطَعُ الْجُمُهورِ مِنَ الرَّمْلِ؛ فَأَمَّا الْخَارِبُ فَسَارِقُ الْإِبِلِ خَاصَّةً ؛ وَهُوَ الْقِيَاسُ، لِأَنَّ السَّرِقَ. إِيقَاعُ ثُلْمَةٍ فِي الْمَالِ؛ وَمِمَّا شَدَّ عَنِ الْبَابِ الْخُرْبُ، وَهُوَ ذِكْرُ الْخُبَارَى، وَالْجَمْعُ خَرَبَانٌ" 494

إذن من خلال ما سبق من بيان الألفاظ الثلاثة (الظلم، ومؤذن، وخراب)، نستنتج أن الظلم - الذي هو وضع الشيء في غير محله، والذي هو نقيض للعدل - مُعْلِمٌ وَمُوجِبٌ

493 ن: "تاج العروس من جواهر القاموس"؛ لمحمد بن محمد الزبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين؛

نشر: دار الهداية؛ دون طبعة أو تاريخ؛ بتصرف (34 / 161 168 171)

494 ن: "مقاييس اللغة" لابن فارس، مصدر سابق؛ (174/2)

لخراب وزوال العمران وبيابه!!

لكن يثور سؤال وجيه، وهو كيف يكون الظلم مُنتَجًا ومُوجِبًا لخراب العمران؟! أو بعبارة أخرى أُنّي للظلم أن يؤدي إلى خراب العمران وزواله؟!

والجواب من خبير العمران العلامة ابن خلدون رحمه الله حيث يُبين ذلك بوضوح في قوله: "اعلم أنّ العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أنّ غايتها ومصيرها انتهاكها من أيديهم؛ وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عامّا في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك، لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيرا، كان الانقباض عن الكسب على نسبته؛ والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنّما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتفضت الأحوال، وابدعّر⁴⁹⁵ الناس في الآفاق، من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخفّ ساكن القطر، وخلت دياره، وخرجت أمصاره، واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنّها صورة للعمران، تفسد بفساد مادّتها ضرورة"⁴⁹⁶

وخلاصة ما ذهب إليه ابن خلدون أن الناس متى أيقنوا بأن الظلمة سيستولون على ثمار أتعابهم، وسيحرمونهم عرق جبينهم فإنهم سيكفون عن العمل، وسينفرون من الكد والتعب، وسيخلدون إلى الراحة والتواكل ما دامت ثمار أعمالهم لا تصل إلى أيديهم، وهذا ما سينتج عنه حتما توقف الحركة والعمل وقلة الإنتاج والصناعات ممّا يعتبر مؤشرا

⁴⁹⁵ بمعنى: تفرق.

⁴⁹⁶ ن: "المقدمة" مصدر سابق، (1/ 353-354)

خطيرا على دُنُوّ الخراب، كما أشار إليه في قاعدة أخرى بقوله: " إن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع"⁴⁹⁷، كل ذلك بسبب الظلم؛ وبقدر استمرار الظلم واتساعه يكون الخراب، وذلك أنه قد يقع نوع من الظلم فلا يقع خراب للعمران بالكلية وإن كان بالجزئية ممّا يخفى على بعض الناس، فيظنّ الملاحظ لذلك أنّ هذه القاعدة غير مطّردة، والجواب عن هذا الإشكال أنّ خراب العمران الناتج عن الظلم مبني على المناسبة بين نسبة الظلم وعظم العمران، وهو ما يوضّحه ابن خلدون بقوله: " ولا تنظر في ذلك إلى أنّ الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدّول التي بها ولم يقع فيها خراب؛ واعلم أنّ ذلك إنّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر، فلمّا كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله متّسعة بما لا ينحصر كان وقوع النّقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا، لأنّ النّقص إنّما يقع بالتدرّج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتّساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلّا بعد حين، وقد تذهب تلك الدّولة المعتدية من أصلها قبل خراب، وتجيء الدّولة الأخرى فترفعه بجِدَّتْها وتجبر النّقص الذي كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به، إلّا أنّ ذلك في الأقلّ النّادر؛ والمراد من هذا أنّ حصول النّقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بدّ منه لما قدّمناه، ووباله عائد على الدّول"⁴⁹⁸

هكذا تضعنا مقولة ابن خلدون أمام طرفين متلازمين تلازم السبب والنتيجة: (الظلم) و(خراب العمران)؛ إن العلاقة بينهما علاقة سببية منطقية تلازمية مفادها أن الظلم هو سبب خراب العمران، وبعبارة أخرى أنّ الظلم مانع ومُزِيلٌ بالضرورة للعمران!!

⁴⁹⁷ ن: المصدر السابق، في الفصل العشرين من الباب الخامس (506 /1) .

⁴⁹⁸ ن: نفس المصدر (355 /1) .

وإذا كان العدل شرط يتحقق به العمران ويقوم عليه، كما سبق بيانه في الباب الأول عند الحديث عن شروط العمران؛ والظلم مُوجِبٌ للخراب ومُعِلِّمٌ به؛ فإنه يمكن من خلال ذلك أن نحصل على المعادلات العمرانية الآتية:

1. الظلم ← الخراب
2. العدل ← العمران
3. العدل = ~~الظلم~~
4. العمران = ~~الخراب~~

تلك المعادلات الأربعة استخلصناها من القاعدة العمرانية (الظلم مؤذنٌ بخراب العمران)؛ ومن مفاهيم مصطلحاتها، مستأنسين على ذلك بكلام ابن خلدون في مقدّمته، مع الاعتماد على ما سبق بيانه في الباب الأول فيما يتعلق بالعدل كشرط أساس لقيام العمران البشري؛ وهو ما يُؤكّد حقاً وصدقاً أن: (الظلم مؤذنٌ بخراب العمران).

وهي قاعدة جاءت في صورة قضية حملية، موضوعها أو المحكوم عليه هو (الظلم)، ومحمولها أو المحكوم به هو (مؤذنٌ بخراب العمران)؛ فيكون معنى القاعدة أنّ الظلم محكوم عليه بخراب العمران، وهو كذلك !!

توضيح وبيان:

ولتوضيح القاعدة أكثر يمكن أن نُحوّلها إلى قضية شرطية متصلة فتصير هكذا: كلما كان الظلم موجوداً، كان مؤذنًا بخراب العمران؛ فمقدّم هذه القضية الشرطية المتصلة هو (كلّما كان الظلم موجوداً)، وتاليها هو (كان مؤذنًا بخراب العمران)؛ ومعلوم عند المناطق ما بين المقدّم والتالي من تلازم في القضية الشرطية المتصلة بخلاف المنفصلة، فاللازم هو التالي وهو هنا: (خراب العمران)، والملزوم هو المقدّم وهو: (وجود الظلم).

فالنتيجة أنّ (خراب العمران) لازم ل(وجود الظلم)، أي أنّ الظلم سببٌ لخراب العمران، وهذا مدلول قاعدتنا العمرانية: (الظلم مؤذنٌ بخراب العمران)؛ التي لها من الأدلة والبراهين الكثير والكثير، وهو ما سنخصص للحديث عنه المطلب الثاني:

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

هذه القاعدة العظيمة لها أدلتها من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن أقوال أهل العلم ممن خبروا أحوال الاجتماع البشري وعرفوا علله وأدواءه؛ وهي أدلة مستفيضة وكثيرة، مما يدل على مركزية هذه القاعدة العمرانية ودورها المنوط بالحضارة الإنسانية والعمران البشري.

ولقد جعلتها مرتبطة بعلم التصوف لما لهذا العلم من دور كبير في تربية النفس الإنسانية والراقي بها في مدارج العدل ومنازل الإحسان، حتى تتخلص من وهدة الظلم وتنتشل ذاتها بذاتها من دركات البغي والعدوان؛ فالنفس، كل نفس في نفسها إذا خلّدت إلى الأرض تحكّمت فيها شهواتها ونزواتها فارتكست وانتكست في طرق وأودية البغي والعدوان، تظلم نفسها بنفسها بتدسّيتها وإيغالها في غياهب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتظلم غيرها بالسطو على حقوق الآخرين، بسبب أنّها المتحكّمة فيها بدل الأنا الأعلى - على حد تعبير الفلاسفة - مما ينتج عنه مجتمعا ممزّق الأوصال مضطرب الأحوال، فتسود الفوضى بين العباد ويخرب عمران البلاد!!

وإن من أبرز الأدلة على خطورة الظلم أنّ فعل (ظلم) ومشتقاته في القرآن الكريم في نحو (289) موضعاً، وقد جاء الفعل (ظلم) في صورة خمس وثلاثين مشتقة لغوية، أكثرها وروداً مشتقة (ظالمين)⁴⁹⁹، إضافة إلى بعض الألفاظ التي تمثل مرادفات لمصطلح الظلم كالبغي والعدوان والجنف والطغيان وغيرها من المرادفات؛ ولا شك أنّ هذه الكثرة تدل على مدى خطورة هذا الداء العضال على الأفراد والجماعات وعمرانهم!

بل إنّ القرآن الكريم أعطى حيّزاً مهماً للحديث عن علاقة الظلم بهلاك الأمم وخراب عمرانها، فذكر ذلك في غير ما آية وفي أكثر من سياق عبر العديد من سوره وآيه الكريمة، وخاصة المكية منها، ودعا إلى النّظر في تاريخ هلاك الظالمين، حتى يتجنّب

⁴⁹⁹ ن: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، مرجع سابق؛ مادة (ظلم)

الناس الظلم محافظة على أنفسهم من الهلاك، وعمرانهم من الخراب؛ لأن القاعدة العامة أنّ الظلم موجب لخراب العمران ومُسبّب لهلاك الإنسان؛ ولذلك نجد القرآن الكريم حينما يذكر مآل الظالمين يخاطب العباد ويدعوهم إلى التّظر في ذلك حتى لا يتلبّسوا بأسباب الهلاك، وهذا كثير في القرآن الكريم، نسوق من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ فُورَةً وَآثَارُوا فِي الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁵⁰⁰؛ أي أنّ الله تعالى لم يهلكهم ويُخرّب عمرانهم إلا بسبب ظلمهم وعدوانهم؛ وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق دعوة ظالمي قريش إلى النظر في مجموعة من السنن الكونية والقواعد الاجتماعية، من بينها التفكير في نظام الخلق وبناء الكون، حيث إنه قائم بالحق وعلى الحق؛ والحق هنا هو العدل، وأنه لا مكان للظلم في كون الله العريض الفسيح: ﴿أَوَلَمْ يَتَّبِعْكُمُ فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾⁵⁰¹؛ ثم جاء بعدها الدعوة إلى تأمل مصائر الأقسام التي جنحت إلى الظلم والعدوان، فكان مآلها إلى الهلاك وخراب العمران، رغم ما أوتوا من قوة وعنفوان!!

ونظرا لكثرة الآي الكريمة - كما ذكرت - التي تدل على حجّية هذه القاعدة العمرانية، فإنّني سأكتفي بسرد بعضها الذي أراه محققا للغرض المقصود، والهدف المنشود، دون زيادة أو نقصان، والله المستعان!!

ومن أقوى الآيات القرآنية - حسب ترتيب سور القرآن الكريم - التي تدل على

⁵⁰⁰ . الروم: 9

⁵⁰¹ . الروم: 8

أَنَّ (الظلم مؤذنٌ بخراب العمران)؛ قول الحق جلَّت قدرته: ﴿بَفُطُوعِ دَابِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁵⁰²؛ يقول إمام المفسرين: "فاستؤصل القوم الذين عَتَوْا على ربهم، وكذَّبوا رسله، وخالفوا أمره، عن آخرهم، فلم يترك منهم أحد إلا أهلك بغتةً إذ جاءهم عذاب الله"⁵⁰³؛ وفي آية أخرى يقول سبحانه مبيناً أثر الظلم على العمران: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾⁵⁰⁴؛ يقول الشيخ رشيد رضا في تفسير هذه الآية كلاماً في غاية الأهمية، لمثله تُرْفَعُ التَّحِيَّةُ!!:"بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ شَأْنَهُ فِي النَّاسِ وَشَأْنَهُمْ مَعَهُ بِمَقْتَضَى الطَّبَعِ الْبَشَرِيِّ وَطُغْيَانِ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ؛ لِيَعْتَبِرَ بِهِ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ يَعْقِلُهُ؛ (...) (ولقد أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) الخطاب لأمة الدعوة المحمدية، وجه أولاً وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة فيها، فهو التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان المخاطبين لموضوعه، والقرون: الأمم، وهو جمع قرن بالفتح، ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد؛ وقد ذكر إهلاك القرون في آيات عديدة من السور المكية، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه باللام "ولقد" وصرح بأن سبب هلاكهم وقوع الظلم منهم، كما قال في سورة الكهف: (وتلك القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (الكهف: 59) ولما ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له (...)

وإهلاك الله الأمم بالظلم نوعان:

(أحدهما) هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع البشري، وهي أن الظلم سبب لفساد

⁵⁰² الأنعام: 45

⁵⁰³ ن: "جامع البيان في تأويل القرآن"، للإمام الطبري؛ مصدر سابق (363/11)

⁵⁰⁴ يونس: 13

العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاء مؤقتا، إن كان إفساد الظلم لها عارضا لم يجهز على استعدادها للحياة واستعدادها للاستقلال (...). أو دائما إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغلبة؛ كما قال في سورة الأنبياء: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) (الأنبياء 11)؛ وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في البشر، وهو قسمان: ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق، وظلم الحكام الذي يُفسد بأس الأمة في جملتها، وهذه السنة دائمة في الأمم ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها، (...).

(ثانيهما) عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلا لهدايتها بالإيمان والعمل الصالح، وأعظم أركانه العدل، فعاندوا الرسل، فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيء الآيات، وهو ما بينه تعالى بقوله: (وجاءتهم رسلكم بالبينات) الدالة على صدقهم فيما جاءوهم به وما كانوا ليؤمنوا، أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا؛ لأنهم مرنوا على الكفر، واطمأنوا به، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقتزنة بأعماله الإجرامية من ظلم وفسق وفجور⁵⁰⁵؛ إذن كل ما ذكره الشيخ رضا من خلال تلك الآية يشهد أن الظلم مؤذن ومُسبِّب لزوال العمران وخرابه؛ فكانت بذلك قاعدة: (الظلم مؤذن بخراب العمران) حقا وصدقا!!

ويُبين الحق سبحانه وتعالى في آيات - مشرقة الأنوار محكمة الأسرار - علة هلاك ثمود - قوم صالح عليه السلام - في قوله: ﴿بَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ إِنَّآ دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥١﴾ بِتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

⁵⁰⁵ ن: "تفسير المنار" مرجع سابق (11 / 258 . 259)

﴿لَا يَأْتِيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْفُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ لَكُمْ رَحْمَةً ۖ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾⁵⁰⁶؛ فكانت

علة هلاكهم هي الظلم! ونجاة المؤمنين هي التقوى المبنية على العدل واتباع الظلم!!

ومما يدل أن الظلم مخرب للعمران وأن هذه القاعدة مطردة وعامة قول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

﴿⁵⁰⁷؛ وللعلامة رشيد رضا كلاما من الأهمية بمكان في هذا الزمان، لمثله تُصرف

الأزمان!! في قوله تعالى: ﴿قُلُوبًا كَانَتْ مِنَ الْفُرُوقِ مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ أَتُؤَلُّوا بِفَيْتَةٍ

يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۚ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾⁵⁰⁸؛ والمعنى: فهلا كان - أي وجد - من أولئك الأقوام الذين

وأهلها مُصْلِحُونَ

أهلكناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض، جماعة أصحاب بقية من النهي والرأي

والصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض، وهو الظلم واتباع الهوى والشهوات التي تفسد

عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحول نهيهم إياهم دون هلاكهم، فإن من سنتنا ألا نهلك

قوما إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم، كما يأتي في الآية التالية: - إلا قليلا ممن أنجينا

منهم - أي لم يكن فيهم بقية من هؤلاء العقلاء الأخيار، الناهين عن المنكر، الأمرين

بالمعروف، ولكن كان هنالك قليل من الذين أنجيناهم، أو هم الذين أنجيناهم مع الرسل

منهم، وكانوا منبذين لا يقبل نهيهم وأمرهم، مهددين مع رسلهم بالطرد والإبعاد، بعد

الأذى والاضطهاد - واتباع الذين ظلموا - وهم الأكثرون منهم - ما أترفوا فيه - أي: ما

رزقناهم وآتيناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا.

⁵⁰⁶ النمل: 51 / 53

⁵⁰⁷ هود: 102

⁵⁰⁸ هود: 116 117

(...) فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان؛ والظلم والإجرام يظهر في الكبراء والرؤساء، ويسري بالتقليد في الدهماء، فيكون سبب الهلاك باستتصال، أو فقد الاستقلال، وذلك قوله تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها}؛ وفي الآية وجه آخر، وهو أنه ليس من سنته تعالى أن يهلك القرى بظلم يقع فيها - مع تفسير الظلم بالشرك⁵⁰⁹ - وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية، وأحكامهم المدنية والتأديبية، فلا يخسسون الحقوق كقوم شعيب، ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون في ناديم المنكر كقوم لوط، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود، ولا يذلون لمتكبر جبار يستعبد الضعفاء، كقوم فرعون - بل لابد أن يضمنوا إلى الشرك الإفساد في الأعمال والأحكام، وهو الظلم المدمر للعمران، ويحتمل أن يراد أنه لا يهلكها بظلم قليل من أهلها لأنفسهم، إذا كان الجمهور الأكبر منهم مصلحين في حل أعمالهم ومعاملاتهم للناس (...). فتتكير الظلم في هذا للتقليل والتحقير، وفيما قبله للتعظيم، وهو مأخوذ من قوله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} لقمان: 13؛ والآية تدل على أن إهلاك المصلحين ظلم فلذلك يتنزه الله عنه؛ وذكر المفسرون في الوجه الثاني القول المشهور المعبر عن تجارب الناس، وهو أن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، والأوجه الثلاثة في الآية صحيحة.⁵¹⁰

ومن الآيات التي تشهد لهذه القاعدة العمرانية، قوله تعالى: ﴿فَكَأَيُّ مِّنْ فَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِيرٌ مُّعْطَلَةٌ وَفَصْرِ مَّشِيدٍ﴾⁵¹¹؛ يقول الشيخ الشعراوي: "ومعنى: {أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}، أي: بسبب ظلمها، ولا يُغَيِّرُ الله ما يقوم حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم، وفي آية أخرى يقول تعالى:

509. في النسخة يوجد (مع تفسير الظلم والشرك) لكن هذا المعنى لا يستقيم، وإنما الصحيح ما أثبتته؛ والله أعلم

510. ن: "تفسير المنار" مرجع سابق؛ بتصرف (12/ 158 . 160)

511. الحج: 45

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112]؛ فهلاك القرى لا بُدَّ أن يكون له سبب، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت {خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا}. {؛ الشيء الخاوي يعني: الذي سقط وتهدَّم على غيره، وقوله: {على عُرُوشِهَا}. يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك، حيث سقط السقف أولاً، ثم انهارت عليه الجدران، أو: أن الله تعالى قلبها رأساً على عَقَب، وجعل عاليها سافلها؛ وقوله سبحانه: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ}. { (...) أي: البئر الذي يشربون منه. "512

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْبَارِ وَيَوْمَ الْفَيْمَةِ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْفَيْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٦٩﴾؛ وهذا وصف لطغيان فرعون وجنوده الذي بلغ ظلمه لبني إسرائيل أنه كان يذبح أبناءهم، ويُبقي بناتهم أحياء للخدمة والاستعباد، وبلغ من عتوه وجبروته أن ادعى الربوبية والألوهية، فكان ظلمه ذاك سببا لهلاكه وخراب عمرانه !!

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبِئْسَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَمْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا فَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ ءَايَاتِنَا

⁵¹² ن: " تفسير الشعراوي"، مرجع سابق، بتصرف (16/ 9857)

⁵¹³ القصص: 39/ 42

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥١٤﴾؛ وهذه أيضا آيات واضحة في كون الظلم مؤديا إلى هلاك الإنسان وخراب العمران؛ والآيات كثيرة جدا في هذا الباب - نكتفي بهذا القدر - وهو ما يدل حقا على أن: (الظلم مؤذن بخراب العمران)!!

ومن أجل ما قرأت في هذا الباب ما رواه ابن ماجة عن جابر رضي الله عنه أنه قال: (لما رجع الصحابة رضي الله عنهم، المهاجرين من الحبشة إلى المدينة قال لهم رسول الله ﷺ: "أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ". قَالَ فَنِيَّةٌ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَحَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "صَدَقْتَ، صَدَقْتَ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ)" ⁵¹⁴؛ وفي رواية صحيحة للسيوطي، أنه قال: (كيف يقدّس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من قوَّيها، وهو غير متعنع)؛ فهذا حديث واضح في أنّ الظلم إذا ساد في أمة دون أن يُنصَفَ فيها المظلوم فإنّها أمة مهزومة، وهذا ما نراه في واقعنا المعاصر، فإنّ الدول التي يغيب فيها العدل ويسود فيها الظلم والطغيان هي دول مستعبدة لا قدّم لها وساق!!

والعجيب أنّ عاقبة الظلم كانت معلومة لدى القوم، وقصصُ الظالمين كانت تُروى في نواديهم، فهذا مجاهد يروي لنا قصة من أخبار قريش قبل الإسلام، أنه: "دخل قوم مكة تجارا من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب، فنزلوا بذي طوى تحت سمرة يستظلون بها، فاخترزوا ملة لهم، ولم يكن معهم آدم، فقام رجل منهم إلى قوسه، فوضع

⁵¹⁴ . القصص: 58، 59.

⁵¹⁵ . أخرجه ابن ماجة، بسند حسن، رقم 3255.

عليها سهمًا، ثم رمى به ظبية من طباء الحرم وهي حولهم ترعى، فقاموا إليها فسلخواها، وطبخوا لحمها ليأتمدوا به، فبينما قدرهم على النار تغلي بلحمه وبعضهم يشتهي، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة، فأحرقت القوم جميعًا، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات اللاتي كانوا تحتها، فلما كان من شأن الغلام التيمي ما كان من هتكه أستار الكعبة، قال في ذلك عبد شمس بن عبد مناف شعرا، وهو يذكرهم الطبي وما أصاب أصحابه، ويخوف قريشا النقم وكان من حديث الغلام التيمي أنه أقبل ذات يوم حتى دخل المسجد وقريش في أنديتهم، فضرب بيده إلى ناحية من أستار الكعبة، فهتك بعضها، ثم خرج يسعى وقريش تنظر إليه، ولم يقم إليه أحد، فوثب إليه عبد شمس يسعى في أثره حتى أدركه، فأخذه ثم نادى بأعلى صوته: يا آل قصي، يا آل عبد مناف، فَهَطَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعَ هَذَا الْغُلَامُ؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: فَأُقْسِمُ بِرَبِّ الْكُعْبَةِ لَتُعْظِمَنَّ حُرْمَتَهَا، وَلَتَكُفَّنَّ سَفَهَاءَكُمْ عَنِ انْتِهَاكِ حُرْمَتِهَا، أَوْ لَيَنْزِلَنَّ بِكُمْ مَا نَزَلَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْافٍ: لَيْسَ لَكَ بِضَرْبِهِ حَاجَةٌ، وَلَكِنْ انْظُرْ، فَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ فَأَقْطَعْ يَدَهُ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ، فَأَمَرَ بِهِ فَضْرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَالَ فِي ذَلِكَ عَبْدُ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنْافٍ: يَا رَحَالَاتِ قُرَيْشٍ بَلَدٌ ... مَنْ يُرِدْ فِيهِ مَلَدَاتِ الظُّلْمِ

يَقْرَعُ السِّنَّ وَشِيكََا نَادِمًا ... حِينَ لَا يَنْفَعُ عُذْرُ مَنْ ظَلَمَ

طَهَّرُوا الْأَثْوَابَ لَا تَلْتَحِفُوا ... دُونَ بَرِّ اللَّهِ عُذْرًا يَنْتَقِمُ

ثُمَّ قَوْمُوا عَصَبًا مِنْ دُونِهِ ... بِوَفَاءِ الْآلِ فِي الشَّهْرِ الْأَصَمِّ

قَبْلَهَا أَلْحَدَ فِيهِ مُلْحِدٌ ... قَتَلَا قَادَ ابْنِ عَادِ بْنِ إِزْمَ

هَلْ سَمِعْتُمْ بِقَبِيلِ عَرَبٍ ... عَطَبُوا أَوْ بِقَبِيلٍ مِنْ عَجَمِ

هَلَكُوا فِي ظَبْيَةٍ يَتْبَعُهَا ... شَادِنٌ أَحْوَى لَهُ طَرْفُ أَحَمِّ

فَرَمَاهَا بِصَهَارٍ رِيْشِهِ ... وَشَوَى مِنْ لَحْمِهِ ثُمَّ يَشَمُّ

فَرَمَاهُ بِشِهَابٍ ثَاقِبٍ ... مِثْلَ مَا أُوقِدَ فِي الرِّيحِ الضَّرْمُ" ⁵¹⁶

وهذا يدل على أنَّ قريشا كانت تعلم أنَّ من أحدث ظلما بالبيت الحرام تكون عاقبته وخيمة؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفُ فِيهِ وَالْبَادِءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِفْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ⁵¹⁷

ومن الأحاديث التي تدل أن الظلم مُهْلِكٌ للإنسان ومُخَرَّبٌ للعمران ما رواه الإمام البخاري وغيره عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: (أن أسامة كرم النبي صلى الله عليه وسلم في امرأة، فقال ﷺ: (إنما هلك من كان قبلكم، أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضع ويتركون الشريف، والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها)) ⁵¹⁸؛ وهذا حديث واضح في أنَّ اختلال ميزان العدل عاقبته وخيمة على الإنسان والعمران!!

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة جدا كلها تشهد على أنَّ (الظلم مؤذنٌ بخراب العمران)؛ ونجد العلامة ابن خلدون يبيِّن حكمة تحريم الظلم بكلام تقصيدي تعليمي، لمثله تشد الرحال، فيقول: "واعلم أنَّ هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه؛ وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين

⁵¹⁶ ن: "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" لأبي الوليد محمد بن عبد الله المكي المعروف بالأزرقي (ت: 250هـ)؛ تحقيق: رشدي الصالح ملخص، نشر: دار الأندلس للنشر - بيروت. دون طبعة أو تاريخ؛ (2 / 146 . 147)

⁵¹⁷ الحج: 25

⁵¹⁸ رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6787

والنفس والعقل والنسل والمال؛ فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع، لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً، وأدلتته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر؛ ولو كان كل واحد قادراً على الظلم لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وُضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقترافها، من الزنا والقتل والسكر، إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه، لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه، وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه (...)"⁵¹⁹.

قلت: والسبب في عدم وضع عقوبة محددة للظلم كسائر الحدود، فيما يبدو - والله أعلم - أن الظلم غير منضبط، بل هو متفاوت جداً، ولذلك تكون العقوبة مناسبة لمقدار الظلم، كحدّ الحراة مثلاً، فتأمل!!

وقد جاء أيضاً في رسالة اليوسي: "وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم، وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر"⁵²⁰، وقد

⁵¹⁹ ن: "المقدمة" مصدر سابق (1/ 356)

⁵²⁰ هذه المسألة فيها نظر، فقد ذكرها ابن تيمية في مجموع الفتاوى، وغيره؛ وهي قولهم "إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة"؛ إلا أن هذا الكلام كما قلت فيه نظر لعدة اعتبارات؛ الاعتبار الأول: أن القرآن سمى الشرك ظلماً في كثير من آيه الكريمة؛ الاعتبار الثاني: أن جمهور المفسرين قديماً وحديثاً يفسرون الآيات القرآنية التي ورد فيها الظلم بالشرك؛ الاعتبار الثالث: أنه بناء على ذلك لا يمكن تسمية الدولة الكافرة عادلة إلا تجوّزاً؛ لكن يمكن أن نوجه هذا الكلام بأنه إذا تعارض الكفر والعدل مع الظلم والإسلام فإن العدل مع الكفر يرجح في الدنيا - عكس الآخرة - على الظلم مع الإسلام؛ لسببين: أولاً: أن حقوق الله في الدنيا مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحة!! والسبب الثاني أن الله أقام عمران الدنيا على العدل الضابط لعلاقات الناس فيما بينهم، بغض النظر عن العقيدة وأنّ الظلم يعتبر اختلالاً لميزان نظام الحياة وهذا هو ما بيّنه ابن خلدون في مقدّمته في غير ما مناسبة؛

عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم، والكلمة المسموعة، والراحة من كل منغص، لما كانوا يتحفظون عليه من العدل في الرعية استصلاحاً لدنياههم⁵²¹..

وأختم بمثال نقله ابن خلدون وغيره من علماء التاريخ، وهو ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس: "عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة، بضرب المثل في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: «إن بوما ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام»؛ فتنبّه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك، إن الملك لا يتم عزّه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيّه، ولا قوام للشرعية إلا بالملك ولا عزّ للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل؛ والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة، نصبه الربّ وجعل له قيماً وهو الملك؛ وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمّارها، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسوّحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمّار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلّوا ديارهم وأووا إلى ما تعذرّ من الضياع فسكنوها فقلّت العمارة وخربت الضياع وقلّت الأموال وهلك الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من

ثم لا بد أن نبين أنّ الإسلام إذا تمكّن من القلوب لا يمكن أن يُنتج ظلماً يهدم العمران، لأن من أهداف الإسلام إصلاح الإنسان وأي خلل طرأ على تصرف الإنسان فهو يرجع إلى خلل الاعتقاد لقوله ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ..) الحديث؛ وقوله ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده..) الحديث.

⁵²¹ ن: "رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي"، لحسن اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، البيضاء، ط: 1؛ 1401 هـ / 1981م؛ (241/1)

الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها؛ فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فنفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران، وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض⁵²²

وينقل ابن خلدون أيضا عن الموبدان في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي. "أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشرعية إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك"⁵²³

وقد تكلم ابن خلدون في مقدمته عن هذه المسألة بما يطول ذكره كما نقل غيره في هذا الباب كالإمام الطبري في تاريخه، وكذلك ابن تيمية في فتاواه الكبرى وفي السياسة الشرعية وغيره ممن كتب في الأحكام السلطانية ونصائح الملوك وغير ذلك كثير مما لا يسمح الوقت بذكره كله؛ والمقصود من هذا أن الظلم مهلك للإنسان ومخرب للعمران، وهو أمر مجمع عليه بين عقلاء وحكماء الأنام وعلماء الإسلام؛ فكانت بذلك قاعدة: (الظلم مؤذن بخراب العمران) قاعدة عمرانية كبرى !!

⁵²² ن: "المقدمة"؛ مصدر سابق، (1/ 353 354) .

⁵²³ ن: "المقدمة" لابن خلدون؛ مصدر سابق، (1/ 51 354) .

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

لقد اتضح من خلال المطلب السابق الذي تناولنا فيه مجموعة من الأدلة - وهي من الكثرة بمكان - التي شهدت بحق على أنّ قاعدة (الظلم مؤذن بخراب العمران) قاعدة عمرانية عظيمة الأثر، بعيدة النظر، بما بينت وأوضحت من أنّ الظلم مهما كان صغيراً فإنه يمثل ثلماً في كيان العمران وجرحاً في جسمه لا يندمل إلا بالبرّوح من منطقة الظلم والحلول بساحة العدل والإحسان!!

ثم إنّ العمران لا يمكن أن يتحقق وجودياً إلا بالتعاون الصادر عن الاجتماع البشري، وهذا الأخير لا يحصل إلا بالألفة والمحبة النابعة من القلب والوجدان، والقائمة على العدل والإحسان، لا على الظلم والطغيان!! وأظنّ أنّ القرآن أشار إلى هذه المعاني التي ذكّرت، وذلك في آية عمرانية نورانية بامتياز؛ فلنتأملها فهي ناطقة بذلك؛ قال الحق جلّ جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنبَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا آَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁵²⁴؛ فهذا نحن نرى أنّ الخطاب موجّه لنبيّنا الكريم ﷺ الذي ما جاء إلا من أجل إقامة العمران - بالمعنى الذي أصلنا - وفق مبدأ الاستخلاف، لكن ذلك الهدف منوط بالتعاون من لدن المؤمنين - بعد تأييد الله - المبني على تأليف القلوب ﴿وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وهذا الأخير قائم على العدل والإحسان، مجافٍ للظلم والعدوان؛ لأنه لا يمكن أن يحصل اجتماع، بلّة تعاون بساحة قائدها الجور والعدوان، ولذلك استبعدت الملائكة تحقيق عمران الأرض مع الظلم المتمثل في الإفساد وسفك الدماء، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْبِكُ الدِّمَاءَ﴾⁵²⁵؛ ولذلك كان النزاع

⁵²⁴ الأنفال: 62/ 64

⁵²⁵ البقرة: 30

والخلاف المبني على الظلم والعدوان سببا ذريعا في ضعف الدول وفشلها في تحقيق مظاهر العمران، كما بين القرآن: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْنَةً لَّكُمْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁵²⁶؛ وكما يشهد بذلك الواقع المعاصر في البلاد المتخلفة التي لا تهدأ فيها الصراعات؛ ولأجل ذلك كان النبي ﷺ حريصا على محاربة الظلم بكل أنواعه وضروبه في كل مجالات الحياة، حفاظا على وحدة المجتمع..

ولبيان أهمية القاعدة التي بين أيدينا وخطورة الظلم لابد أن نشير إلى أن الظلم الذي هو نقيض العدل - كما سبق بيانه - يمكن أن نتصوره في كل مناحي الحياة ومجالات العمران، لأن الفعل البشري الذي يحصل به العمران أو الخراب، إما أن يتصف بالعدل - ومعه الإحسان - أو الظلم، ولا ثالث لهما!! وقد سبقت الإشارة إلى أن الظلم نقيض العدل، ومعلوم أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ والله درّ العلامة العز بن عبد السلام حيث أشار في كتابه قواعد الأحكام إلى هذا المعنى الذي ذكرت، وهو يقول: "وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها والزجر عن المفسدات بأسرها قوله تعالى {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون} [النحل: 90] فإن الألف واللام في العدل والإحسان للعموم والاستغراق، فلا يبقى من دق العدل وجله شيء إلا اندرج في قوله {إن الله يأمر بالعدل}؛ ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان؛ والعدل هو التسوية والإنصاف، والإحسان: إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة وكذلك الألف واللام في الفحشاء والمنكر والبغى عامة مستغرقة لأنواع الفواحش ولما يذكر من الأقوال والأعمال؛ وأفرد البغى - وهو ظلم الناس - بالذكر مع اندراجه في الفحشاء والمنكر للاهتمام به، فإن العرب إذا اهتموا أتوا بمسميات العام؛ ولهذا أفرد البغى وهو

الظلم مع اندراجہ فی الفحشاء والمنکر للاهتمام به، كما أفرد إيتاء ذي القربى بالذكر مع اندراجہ بالعدل والإحسان⁵²⁷. ولتأكيد هذه المسألة نستشهد بكلام لابن تيمية: " لكن المقصود أن كل خير فهو داخل في القسط والعدل، وكل شر فهو داخل في الظلم، وإذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء وعلى كل أحد، والظلم محرماً في كل شيء ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلاً سواء كان مسلماً أو كافراً أو كان ظالماً، بل الظلم إنما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضاً"⁵²⁸

وسنشير في هذا المطلب إلى بعض المجالات العمرانية التي يمثّل فيها الظلم عاملاً يهدم العمران وينقض بنيانه:

• المجال العقدي:

وهذا أول مجال قائم على العدل، فلا مكان للظلم فيه؛ فالله سبحانه وتعالى من أسمائه وصفاته العدل؛ وأحكامه دائرة بين العدل والإحسان؛ فهو سبحانه منزّه عن الظلم، لأنّه - أي الظلم - من صفات النقص التي هي ضد الكمال، فالله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ وقد نزه نفسه عن هذه الصفة القدحية تنزيهاً كاملاً فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁵²⁹؛ وقد حرّم على عباده الظلم لما ينتج عنه من الفساد كما جاء في الحديث القدسي المشهور: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)⁵³⁰

⁵²⁷ ن: "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"؛ للعز بن عبد السلام، مصدر سابق، (189/2 . 190)

⁵²⁸ ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية؛ مصدر سابق، (97 /1)

⁵²⁹ النساء: 40

⁵³⁰ رواه مسلم في صحيحه، رقم: 2577

وقد أقام هذا الكون على الحق والعدل، فهو خالق السموات والأرض بالحق، يقول سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾⁵³¹، ويقول أيضا: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁵³²، والحق هنا هو العدل؛ و يقول عزّ من قائل في شأن اتباع الهوى الذي يغلب عليه الجنوح إلى الأثرة و الأنانية وحب الذات، وبالتالي الوقوع في الظلم: ﴿وَلَوْ إِتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾⁵³³، فدلّ ذلك على أن العدل جوهر قيام الموجودات، من الفرش إلى العرش، ومن الذرة إلى المجرة، وهو سبحانه وتعالى قائم بالقسط، أي قائم على شؤون العدالة والعدل في خلقه وفي أمره: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ فَأَيُّمًا بِالْفِسْطِ﴾⁵³⁴..

وقد أرسل رسله جميعا - عليهم السلام - لإقامة العدل ومحاربة الظلم بكل أنواعه؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْفِسْطِ﴾⁵³⁵؛ فكان العدل مقصد كل كتاب أنزل ونبي أرسل؛ ومن العدل في هذا الباب أن جاء كل رسول بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده، بمقتضى انفراده بالخلق والتقدير؛ واعتُبرت عبادة غيره ظلم في حق الله أولا، وظلم في الواقع ثانيا، لأنّ التسوية بين المختلفين في الدرجة والرتبة هو من معاني الظلم و تجلياته، ومن هذا الوجه يعتبر التوحيد مظهراً من أهم مظاهر العدل ، والشرك بما يتضمنه من مساواة بين

⁵³¹ الحجر: 85

⁵³² النحل: 3

⁵³³ المؤمنون: 71

⁵³⁴ آل عمران: 18

⁵³⁵ الحديد: 24

المختلفين هو عين الظلم و ذاته؛ بل هو أشنع أنواع الظلم و أقبحها على الإطلاق ، لأنه مساواة بين الذي يخلق والذي لا يخلق !! قال تعالى: ﴿ أَقَمَّنَ يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَقَلًّا تَذَكَّرُونَ ﴾⁵³⁶، و قد جاءت هذه الآية في سياق ذكر خَلْقِ الله لكثير من الموجودات لبيان فساد عقيدة المشركين الذين يتخذون من دون الله أندادا يجعلونها مساوية لله في العبودية وفي التدبير - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ويقول الله سبحانه وتعالى في سياق آخر: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾⁵³⁷ ؛ أي يساوون بين الذي خلق السموات والأرض ، وبين المخلوق الذي لا يملك من أمره شيئا، فهذه المساواة الظالمة يُقْبَحُ ووقعها من الإنسان، فهذه التسوية في العبودية لغير الله سبحانه وتعالى هي شكل من الظلم، بل هي أعظم الظلم على الإطلاق لأن ذلك قلب للحقائق، ولآجل ذلك حذر لقمان الحكيم ولده من الشرك قائلا : ﴿ يَبْنِي لَّا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾⁵³⁸

وقد وصف سبحانه من ادعى الألوهية كفرعون والنمرود بالظالم فقال: جزاء الظالمين بادعاء الألوهية، فقال: ﴿ وَمَنْ يَفْلُ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ ۚ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾⁵³⁹؛ وسمى النصار ظالمين لأنهم ادعوا لعيسى عليه السلام الألوهية: ﴿ لَفَذَ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

⁵³⁶ النحل: 17

⁵³⁷ الأنعام: 1 2

⁵³⁸ لقمان: 12

⁵³⁹ الأنبياء: 29

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوِيَهُ النَّارَ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ⁵⁴⁰؛ وهذا كثير في القرآن الكريم في القرآن؛ وقد ذكرنا غيضا من فيض لأن المقام لا يسمح بذكر كل الأدلة!

ومن صور الظلم أيضا في هذا المجال ما وقع فيه بعض الفرق المجانبة للصواب في مسألة القدر وخلق أفعال العباد، فذهب القدرية إلى نفي القدر وأن الله لم يخلق أفعال العباد، وهذا ظلم في حق الله تعالى لما يستلزم من وصفه بالجهل - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وفي المقابل نجد الجبرية حيث يزعمون أن العبد مجبر على أفعاله، وهذا أيضا ظلم لله، لأنه يستلزم تكليفهم بما لا طاقة لهم به، وهو محال، كما أنه سيدفع الناس إلى التواكل وعدم العمل، وفيه من الخطر على العمران بسبب تقاعس الناس عن العمل، وقد سبق أن رأينا من خلال كلام ابن خلدون أن العمران يكون بوفرة الأعمال، بل وجعلنا الفعل البشري من أركان العمران⁵⁴¹؛ وأهل السنة ومنهم الأشعرية سلكوا منهج العدل والوسط فقالوا إن الله تعالى خلق الإنسان وأفعاله، وجعل له إرادة، وقدرة، واختياراً، ومشئئة، وهبها الله له لتكون أفعاله منه حقيقة لا مجازاً، ولم يحاسبه إلا على أعماله التي هي بإرادته واختياره، أن القدر سر الله في خلقه، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ضلالة؛ وهذا الاعتقاد الذي اعتمده الأشاعرة هو الذي يتناسب مع تحقيق عمران الأرض بالعمل الصالح..

ومن أخطر صور الظلم في مجال العقيدة لأنها جمعت بين ظلم الله وظلم العباد، وأنتجت خرابا للعمران وفساد للإنسان ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ الإسلام، وهو ما وقع فيه البعض من التكفير والتفسيق والتبديع فاستحلوا دماء الأبرياء وقتلوا أهل الإسلام وفجروا وأحرقوا وكل ذلك بسبب الظلم النابع من سوء فهم عقيدة الإسلام بصفائها ورحمتها

⁵⁴⁰ المائدة: 72

⁵⁴¹ أوردنا ذلك في المطلب 2 من المبحث 3 في الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الأطروحة.

وعظمتها..

ولا تزال صور كثيرة تمثل الظلم المتعلق بمجال الاعتقاد لا يتسع المقام لذكرها؛ ويُعتبر الظلم في هذا المجال خطير جدا لأن كل أنواع الظلم الواقعة في المجالات الأخرى هي نابعة بالأساس من هذا المجال أو متأثرة به على الأقل؛ وقد ذكرت في غير ما مرة من هذه الأطروحة أن أول مجال للإصلاح هو الجانب العقدي⁵⁴²، وهذا هو منهج القرآن ومنهج النبي ﷺ؛ ومن ثم فالظلم العقدي - إن صح التعبير - هو أخطر أنواع الظلم المخرب للعمران!!

• المجال التعبدى:

وهذا الجانب لا يختلف كثيرا عن السابق، ولذا سأختصر فيه الكلام اختصارا؛ وأقول إن العبادات كلها مبنية على العدل والوسطية، ولا احتمال فيها للظلم أو العدوانية البتة؛ والمتأمل للشعائر التعبدية يُلفيها جميعها تقصد وتهدف إلى العدل واليسر ورفع الحرج، وترفض التشدد والغلو والتنطع، كما ترفض التسيب والتخلي والتّميع، ولو أخذنا على سبيل المثال الوضوء فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ توضأ ثلاثا، ثلاثا، ثم قال: مَنْ زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم)⁵⁴³؛ فقد وصف النبي ﷺ الزائد والناقص على السواء، بالظلم لأن كل من حاد عن العدل والوسط سواء بزيادة أن نقصان يسمى ظلما؛ وهذا ليس خاصا بعبادة الوضوء، بل هو منهج نبوي إسلامي في كل العبادات؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ قال أحدهم:

⁵⁴² راجع المبحث الأول والمبحث الثاني من هذا الفصل

⁵⁴³ رواه مسلم رقم: 165

أما أنا فيأني أُصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً؛ فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني⁵⁴⁴؛ فالنبي ﷺ بأبي وأمي يقدمنا لنا منهجاً وسطياً قائماً على العدل والقسطاس المستقيم، دون غلو أو ظلم أو عدوان.

ولو أن المسلمين استفادوا من الشعائر التي يزاولونها لرحل الظلم من بلادهم بلا رجعة ورفرت راية العدل خفاقة في جو السماء، وازدهر العمران، وارتقت الحضارة في مدارج التقدم والرفق!! والله در الصحابي الجليل ربي بن عامر الذي تشبّع بهذا المنهج قلباً وقالبا، ورفع رأسه لتعانق كوكب الجوزاء، حينما سأله رستم: ما جاء بكم؟ فقال: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"⁵⁴⁵؛ نعم فالإسلام كله عدل، ولو تأملنا مثلاً صلاة الجماعة بنظامها العادل الذي يجعل الناس كلهم سواء أمام رب الأرض والسماء!! ثم الزكاة كيف تُعلم الغني التواضع والعدل في مال الله حيث يبحث عن الفقير والمسكين واليتيم.. ليسلم له حقه؛ وكذا الصيام بمعانيه الروحانية الراقية، أما الحج فمظاهر العدل بادية للعيان لا تحتاج لبرهان!!

والنصوص الشرعية من القرآن والسنة دونك من الكثرة في هذا الصدد، نكتفي بهذا القدر مخافة الإطالة؛ لنخرج بفائدة وهي أن العبادات في الشريعة الإسلامية قائمة على منهج الوسطية والاعتدال، وأنها تحارب الظلم والتطرف بكل أشكاله وضروبه؛ وهذا ما يجعل الإنسان حائراً عند المقارنة بين واقع المسلمين اليوم وبين مقاصد تلك العبادات؛ فيتساءل

أين نحن!!؟

⁵⁴⁴ . رواه البخاري في صحيحه، رقم: 5063

⁵⁴⁵ . ن: "البداية والنهاية"؛ لابن كثير (7 / 46 47)

• المجال الاجتماعي:

الحديث عن الظلم الاجتماعي هو حديث ذو شجون كما يقال، لكنني أؤكد على أنه فرع عن النوعين السابقين؛ أي أنه لو خلا الجانب العقدي من الظلم، وفهم الإنسان العقيدة الإسلامية فهما صحيحا دون غلو أو تسيب، وسلمت العبادات من ذلك، وذلك بمزاولتها بالمنهج النبوي كما أشرت قبل، ولم يُهملها الإنسان - لأن تركها من أقبح صور الظلم أيضا - لقام المجتمع على أبقى صور العدل ولا انتفى الظلم بشتى أنواعه وصوره، لأن العقيدة الصحيحة والعبادة المستقيمة تعمل عملها الإصلاحي في القلوب والمواجيد فتنتج صلاحا وفلاحا في القوالب والجوارح؛ وهذا على وزان حديث سيدنا رسول الله ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)⁵⁴⁶، ومن ثمّ فلمشكلة في القلوب طبعاً، وقد تحدّثت بما فيه الكفاية عن دور صلاح الجانب الروحي للإنسان والذي لقّبه بال عمران الروحي وأنه أصل للعمران المادي، فلا داعي لإعادته فليُنظر في موضعه⁵⁴⁷؛ وكذلك الشأن فإنّ فساد الروح والقلب ينعكس على الجوارح بفساد أعمالها، ولعل هذا ما يُفسّر أنواع الظلم التي تخيم على سماء العلاقات الاجتماعية من الأسرة كأصغر مكون اجتماعي، إلى الحي الواحد، ثم الشعب الواحد، ثم الأمة والإنسانية جمعاء!

هذا وإنّ صور الظلم الاجتماعي تعدّدت وتنوعت منها القبيح والخطير ومنها ما دون ذلك؛ لو أخذنا مثلاً بعض صورته التي تتعلق بأصغر كيان اجتماعي وهو الأسرة، فنجد عقوق الوالدين! وفي المقابل إهمال تربية الأبناء من لدن الأباء، وقد نجد الرجل يخون

⁵⁴⁶ سبق تخريجه.

⁵⁴⁷ تحدّثت عن هذا بالتفصيل في أربعة مطالب من المبحث الأول في الفصل الثاني من الباب الأول لهذه

زوجته أو تخون المرأة زوجها، أو إيقاع الضرر بأحد الزوجين؛ وإذا عدنا إلى القرآن الكريم وهو يتحدث عن الأحكام التي تنظم علاقة أفراد الأسرة فيما بينهم، فيذللها بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁵⁴⁸؛ حدود الله هي الأحكام التي شرعها لحفظ الأسرة وحماية الأسرة في الزواج والطلاق والميراث والوصايا وغيرها، فلا يجوز الاعتداء عليها؛ كما نجده أيضا يصف مضارة الرجل لزوجته ظلما فيقول سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾⁵⁴⁹؛ فكل هذا يدخل في الظلم الاجتماعي.

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى إحدى سور القرآن الكريم المدنية وهي سورة الحجرات، أو سورة الأخلاق كما يسميها البعض، لوجدناها حذرت من كثير من الأخلاق السيئة التي تتعلق بالمجتمع كله، واعتبرت الملازم لها ظلما، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِبِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁵⁵⁰

وقد جعل النبي ﷺ إحدى صفات المسلم البارزة أنه لا يظلم أخاه المسلم، بل ينصره إن كان ظلما بنهيه عن الظلم، وإن مظلوما بالوقوف إلى جانبه؛ وذلك قوله ﷺ:

⁵⁴⁸ البقرة: 229

⁵⁴⁹ البقرة: 231

⁵⁵⁰ الحجرات: 11

(الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ)
⁵⁵¹؛ ولا يكفي هذا، بل أوجب الرسول ﷺ نصره إن وقع منه أو عليه ظلم؛ فقال
 ﷺ: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا،
 أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)
⁵⁵²؛ وهذا منهج فريد، وفيه أحاديث نبوية لا يسمح المقام بتناولها.

والكلام يطول في هذا، فله ذيلوله وخيوطه المتشعبة، لكن خلاصة القول أن كل ما
 يتضرر به الآخرون، ويكون سببا في زرع فتيل الخصومات ويفرق جسم المجتمع يعتبر
 ظلما اجتماعيا ينعكس بالسلب على عمران المجتمع!! وقد سبق معنا حديث يبين
 خطورة الظلم الاجتماعي وآثاره الوخيمة على العمران! خاصة حينما يصير ظاهرة! وهو
 قوله ﷺ: (كيف يقدّس الله أمة لا يأخذُ ضعيفها حقّه من قويّها، وهو غير متّنع!)⁵⁵³

• المجال السياسي:

لا ريب أن السياسة لها دورها المؤثر في المجتمع والعمران فهي التي تسوسه وتنظم شؤونه
 وتعالج أموره، فهي مأخوذة من الفعل سَاسَ يَسُوسُ؛ سياسة: وهي القيام على الشيء
 بما يصلحه؛ والسياسة أيضا: فعل السائس يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها
 وراضها، والوالي يسوس رعيته⁵⁵⁴؛ وتعني أيضا في الاصطلاح علاقة الحاكم بالمحكوم في
 الدولة، أو الراعي بالرعية، أو السلطة بالشعب، وهو ما يسمى بالسياسة الشرعية في
 الفقه الإسلامي؛ وقد ألف فيه العلماء قديما وحديثا.

⁵⁵¹ سبق تحريجه.

⁵⁵² رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6952

⁵⁵³ سبق تحريجه.

⁵⁵⁴ ن: "لسان العرب" مادة سوس، مرجع سابق (7/ 301)

وإذا كانت السياسة لها قيادة المجتمع وإدارة أمور العمران، فهي إذن من الخطورة بمكان!! وأي خلل أو ثلمة تصيب هذا المجال تؤثر سلباً في جسم العمران وكيانه، لما لهذا الجانب من أمر القيادة والسيادة؛ ولذلك كان للظلم في هذا المجال عواقبه الفظيعة على الفرد والمجتمع!! ولأجل ذلك لما بعث أبو بكر بجيوش المسلمين إلى الشام كان من وصيته ليزيد بن معاوية وهو على رأس أحد الجيوش بعدما طلب منه أن يوصيه، فقال له: "إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك، وشاورهم في الأمر، واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نُصروا على عدوهم"⁵⁵⁵.

ومن أجمل ما قرأت في هذا الباب ما ذكره الطبري عن عماد الدين زنكي في قوله: "وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد، قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها، وامتألت أهلًا وسكانًا (...)" وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت في أيامه، وما بعدها، من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك؛ وكان أيضاً شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد، وكان يقول: إن لم نحفظ نساء الأجناد بالهيبة، وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار"⁵⁵⁶؛ فهذا يدل على أنّ العدل من الحاكم - الذي يتبوأ رأس هرم السياسة - يُقيم عمران البلاد، و أنّ الظلم منه خراب للعمران وهلاك للإنسان!

وسأذكر كلاماً في غاية الأهمية يتعلق بهذا المجال للقاضي حسين بن محمد المهدي - عضو المحكمة العليا للجمهورية اليمنية - يقول: "إنّ القاعدة الأساسية في السياسة

⁵⁵⁵ ن: "فتوح الشام"، للواقدي (ت 207هـ) نشر دار الكتب العلمية، ط: 1؛ 1417هـ / 1997م؛ (8/1)

⁵⁵⁶ ن: "تاريخ الطبري" لابن جرير (ت 310هـ)؛ نشر دار التراث - بيروت؛ ط: 2؛ 1387هـ؛ بتصرف، (9/ 142)

الشرعية هي إقامة العدل والمساواة، فالعدل والمساواة من مبادئ النظام السياسي في الدولة الإسلامية الذي يقيد السلطة العامة في كافة أنشطتها السياسية، لأن الإسلام نظر إلى الناس نظرة واحدة، وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁵⁵⁷ (...)

والمساواة تكون في جميع مجالات الحياة، فالمساواة يجب أن تتحقق في الوظائف العامة وفي التكاليف العامة وأمام القضاء وفي غير ذلك من مجالات الحياة المختلفة، والمساواة بلا شك أنها أساس العدل وأساس الحكم وأساس الملك، وإقامة العدل في الوظائف العامة وفي المجتمعات لها من أهم الواجبات المناطة بولاية الأمور؛ (...). وإذا كان إسناد وظائف الدولة المهمة من صلاحية رئيس الدولة فإن من واجبه أن يتحرى وأن يستشير فيمن يكون الأصلح لكل عمل من أعمال الدولة، ولا يجوز أن يعدل عن الأصلح إلى غيره لنحو قرابة أو صداقة أو حزبية أو أي معنى من المعاني التي لا علاقة لها بصلاح الشخص لما يراد توليته من أعمال⁵⁵⁸؛ وما ذكره فيما يتعلق بالوظائف من أهم الأشياء التي يقع فيها الحيف والظلم، حيث تدخل فيها حسابات أخرى مجانية للعدل..

ومن جميل ما قرأت أيضا في هذا الصدد أن الشيخ محمد رشيد رضى صاحب "تفسير المنار" كان من بين ما ذكر في الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾⁵⁵⁹؛ قال: "فإنه - أي ابن تيمية في كتاب السياسة الشرعية - توسع في

⁵⁵⁷ الحجرات: 13

⁵⁵⁸ ن: "الشورى في الشريعة الإسلامية"، القاضي حسين بن محمد المهدي؛ تقديم: د. عبدالعزيز المقالح، سجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة، بدار الكتاب في 4 / 7 / 2006م، مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي؛ بتصرف كثير ص 119 120 121

⁵⁵⁹ النساء: 58

ذكر أنواع الأمانة التي أودعها الله في أيدي الحكام، ومنها ألا يولوا الأمور إلا خيار الناس الصالحين لها، وأورد في ذلك أحاديث كثيرة منها الحديث المشهور - أي برواية البخاري له (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة)، أي: ساعة قيامة الأمة وهلاكها ؛ لأن لكل أمة ساعة، أي: وقتا تهلك فيه أو يذهب استقلالها⁵⁶⁰،

ويشير ابن الموصلي إلى أنه " لَيْسَ فَوْق رُتْبَةِ السُّلْطَانِ الشَّرِيرِ رُتْبَةُ لَشَرِّهِ لِأَن شَرَّهُ يعمّ، وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد، وتُفْتَرَفُ المعاصي والآثام، وكذلك السلطان إذا عدل انتشر العدل في الرعية فأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذَهَبَتْ رسوم الجور، فأرسلت السماء غيثها، وأخرجت الأرض بركاتها، ونمت تجارتهم وزكت زروعهم، وتناسلت أنعامهم ودرّت أرزاقهم ورخصت أسعارهم، فواسى البخل وأفضل الكريم وقضيت الحقوق وأعيرت المواعين وتهادوا فضول الأطمعة والتحف، فهان كل الحطام لكثرته وذلّ بعد عزّته، فتماسكت على الناس مروءاتهم وحفظت عليهم أديانهم، وبهذا يتبيّن لك أن الوالي مأجور على ما يتعاطاه من إقامة العدل وعلى ما يتعاطاه الناس بسببه⁵⁶¹، وهذا ما يجعل المجال السياسي من أهم مجالات العمران التي يؤثر فيها الظلم تأثيرا عظيما على العمران كله !!

استنتاج:

تلك مجالات عمرانية اصطفتيتها لأبرز من خلالها أهمية هذه القاعدة ومكانتها الحضارية؛ وأن يحصل لدينا يقين (أن الظلم مؤذن بخراب العمران)!! لنعمل جميعا كلٌّ في موقعه وحسب إمكانيته لتفعيل هذه القاعدة، أقصد بذلك تجنب الظلم الذي يهدد العباد ويُفسد البلاد؛ استشرافا لحضارة أجمل وعمران أكمل!!

⁵⁶⁰ ن: " تفسير المنار"، لمحمد رشيد رضا؛ مرجع سابق (5/ 140)

⁵⁶¹ ن: " حسن السلوك الحافظ دولة الملوك"، مصدر سابق ص: 6564

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية

اه ثم اه لو استثمرت هذه القاعدة بمفهومها الضارب في أعماق الوجود!! لكان لذلك الأثر الكبير في الواقع العمراني للأمة إنشاءً وتعميراً لحاضرها واستشرافاً لمستقبلها الموعود؛ وذلك أن الأمة إنما كانت يوم كانت بالعدل لا بالظلم! حينما امتثلت قول ربها: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾⁵⁶² وَأَفِيْمُوا الْوَزْنَ بِالْفِسْطِ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ⁵⁶²؛ واستوعبت قول الحق تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁵⁶³؛ فاستشرفوا بهذه الآية ومثيلائها حضارة أينعت ثمارها في مشارق الأرض ومغاربها، وعمرانا حلقت سعادته في جو الأرض وسماؤها!!

ويوم أن حل الظلم وساد البغي أرجاء البلاد، ونال الطغيان ما ناله من العباد، ذُبلت أوراق الحضارة، وتضعّض بناء العمران وكيانه؛ وكان ما كان، والله المستعان!

ومن خلال دراستنا لقاعدة (الظلم مؤذن بخراب العمران) عبر محطات الثلاث، بدءاً بمفهومها، مروراً بأدلتها ثم أهميتها ومجالاتها، وصولاً لدورها الاستشرافي من أجل إعادة الأمة الإسلامية إلى سالف عهدتها المشهود لها، للقيام بواجبها الرسالي المنوط بها، إلى أن ترحل الخلائق إلى بارئها!

ولتحقيق هذا الدور الاستشرافي كان لابد من اتخاذ مجموعة من الخطوات؛ نذكر أهمها فيما يلي:

• تحقيق حق الخالقية:

⁵⁶² الرحمن: 7 8

⁵⁶³ النحل: 90

وذلك أن إقامة العدل تستلزم القيام بحق الخالق أولاً وقبل كل شيء، من الإقرار بربوبيته وتوحيده بالعبودية، وفي ذلك توازن لروح الإنسان ووجدانه، وتوافق مع طبيعته وجبلته؛ كما أن ما يصدر من العبد من شرك أو كفر أو جحود في حق خالقه يعتبر من أشد أنواع الظلم؛ لأن من معاني الظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ كما يعتبر انحراف للإنسان عن وجهته، وجنوح عن قبلته؛ ولذلك سمى القرآن الشرك ظلماً عظيماً:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁵⁶⁴..

وبعد استقراء كثير من أقوال المفسرين للآيات التي جاءت في سياق هلاك الأمم بسبب الظلم، نخدمهم فسروه - أي الظلم - بالشرك؛ فهذا إمام المفسرين، الإمام الطبري يقول في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾⁵⁶⁵؛ يقول: "قال أبو جعفر: (...) (لما ظلموا) ، يقول: لما أشركوا وخالفوا أمر الله ونهيه .."⁵⁶⁶؛ فقد فسر الظلم بالشرك والمعاصي؛ ويقول الشيخ ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ﴾^{١١} ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾^{١٢} "إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ" أَلَا بُعْدًا لِّتَمُودَ" ⁵⁶⁷؛ "وعبر عن تمود بالذين ظلموا للإيماء بالموصول إلى علة ترتب الحكم، أي لظلمهم وهو ظلم الشرك."⁵⁶⁸

⁵⁶⁴ لقمان: 13

⁵⁶⁵ يونس: 13

⁵⁶⁶ ن: "جامع البيان في تأويل القرآن"، للإمام الطبري؛ مصدر سابق (37/15)

⁵⁶⁷ هود: 67

⁵⁶⁸ ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور، مرجع سابق (114/12)

والعجيب في الأمر أن يُروى: "أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظلمة، وإن كانت مسلمة؛ ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام"⁵⁶⁹؛ وهذا فيه نظر!! فمن جهة أن الدولة لا توصف بالعدل وهي كافرة أو مشركة كما رأينا من خلال سياقات القرآن الكريم وكلام المفسرين، ومن جهة أخرى أن الشرك يجزّ معه مظالم أخرى لأن أصحاب الشرك لا يؤمنون بشرع يمنع الناس عن الظلم؛ وهذا ما ذكره ابن عاشور بقوله: "والمراد بالذين ظلموا المشركون، فإن الشرك أعظم الظلم، لأنه اعتداء على حق الله تعالى على عباده في أن يعترفوا له بالربوبية وحده، وأن الشرك يستتبع مظالم عدة لأن أصحاب الشرك لا يؤمنون بشرع يزع الناس عن الظلم"⁵⁷⁰؛ ومن جهة ثالثة أن الدين المتمثل في التوحيد أساسا شرط رئيس في قيام الدول وازدهار العمران، كما سبق بيانه، حيث قدّمنا مجموعة من القواعد المتعلقة بهذه المسألة مع ذكر أدلتها في الباب الأول⁵⁷¹؛ تمّ حصرها فيما يلي:

1. التوحيد والإيمان شرط للعمران
2. التوحيد هو المحرّك الفاعل لكل حركة عمرانية
3. تأسيس الأنبياء عمراهم على التوحيد
4. مركزية التوحيد في عمران الأمم والدول

⁵⁶⁹ ن: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" لابن تيمية؛ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية؛ ط: 1؛ 1418هـ؛ بتصرف؛ ص: 29

⁵⁷⁰ ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور، مرجع سابق (231/7)

⁵⁷¹ جعلتها عبارة عن عناوين لبعض المسائل، وذلك أثناء الحديث عن شروط العمران في المطلب الأول عبر مسائله الخمس من المبحث 2 في الفصل 2 من الباب الأول؛ وتحدثت عنها بالتفصيل مذيلة بأدلتها من الكتاب والسنة وكلام العلماء كالإمام الماوردي وابن خلدون والدكتور عبد المجيد النجار وغيرهم.. وإن لم أتعامل معها بالمنهجية التي تعاملت فيها مع القواعد العمرانية في هذا الباب الثاني؛ لأن الباب الأول كان تنظيرا للأطروحة؛ حيث أفردت كل باب بالمنهجية التي رأيتها مناسبة!!

5. الدين - التوحيد - أهم باعث للعمران والحضارة

6. فقدان التوحيد خراب للعمران وبياب

• توفية الذات الإنسانية حقها في الرعاية من غير إجحاف ولا طغيان:

الذات في أمس الحاجة إلى إنصافها من نفسها، وإقامة العدل بينها وبين ذاتها؛ فكم من نفس ظلمت نفسها بنفسها عن قصد أو من غير قصد، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁵⁷²؛ وذلك عبر إغراقها في غياهب الشهوات البهيمية التي لا تنتهي، دون النظر إلى أذواقها الروحانية الوجدانية، فأخلدت إلى الأرض وهي عاجزة عن التحليق منكسرة الجناح، وكم من نفس انقطعت عن طيبات الدنيا وحرمت نفسها من حاجيتها قصد تعذيبها، وذلك ظلم لها ما أنزل الله به من سلطان، وإنما هي ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾⁵⁷³

وللخروج بالنفس من الظلم الواقع بها من ذاتها!! كان لابد من تربيتها عبر منهج التصوف السني القائم على الكتاب والسنة، كما بين سيد الطائفة الإمام الجنيد رحمه الله؛ وهو منهج التربية والتزكية؛ وهذا ما دفعني إلى جعل هذه القاعدة العمرانية المتعلقة بالظلم منضوية تحت فصل التصوف؛ لأن الإنسان المعمر لا يمكن أن يساهم في بناء العمران إلا إذا كان عامرا هو أولا، ولن يتأتى له ذلك إلا بإنصاف نفسه وإبعادها عن الظلم عن طريق منهج التربية والتزكية؛ وقد سبقت الإشارة إلى هذا أثناء الحديث عن وسائل العمران والتي كانت

⁵⁷² . آل عمران: 117

⁵⁷³ . الحديد: 26

التركية إحداها، وكان من بين ما قلت: "إن تركية النفس محرّك قويّ لإقلاع الطيران العمرانيّ والحضاريّ، وأصل من أصول السلوك الإيمانيّ؛ وحصنٌ يُدَادُ به الفعلُ العمرانيّ للإنسان عن الطغيان والفساد والظلم، وبالتالي يحميه من الخراب واليباب، والأفول والذهاب!! فالتركية بما هي عملية في التغيير لترقية الذات الإنسانية من داخلها، وانتشالها من حماتها ومسنونها، لتحلّق عامرة معمرة إلى بارئها وخالقها، فترسخ كوامن الخير والقوة بها وتتنقّى من جميع أدرانها وأرجاسها؛ كل ذلك من خلال تربية نفس الإنسان تهذيباً وتشذيباً وتركيباً، تخلية وتخلية ثم تجليّة وترقيّة، لتحقيق خلافة الله في خلقه، وعمرانه في أرضه"⁵⁷⁴..

وجماع الكلام أن النّفس في حاجة إلى إنصافها من ذاتها وإبعاد الظلم عنها منها عبر عملية التركية والتربية، وتلك خطوة أساس في استشراف عمران كامل وفق وظيفة الاستخلاف!!

• الانخراط الإيجابي مع المجتمع في عملية العمران:

وهذا من أهم الخطوات الاستشرافية لبناء عمران الأمة، وهو مشروط بإنصاف المجتمع بكل أفراد من النفس، وهو لا يتحقق بين عشية وضحاها بل لابد من مكابدة ومجاهدة للنفس التي قد تنجذب إلى الأنانية والأثرة بدل الإيثار، فيصدر منها ظلم للمجتمع قد يكون عبر صور متنوعة، كالحسد والغش والنميمة والسرقة والرشوة، والعقوق والقتل.. وغير ذلك من صور الاعتداء والبغي والظلم التي يجب تطهير النفس منها؛ والتي تعاني منها مجتمعاتنا الإسلامية اليوم بشكل رهيب لم يسبق له مثيل؛ فقد ساءت الأخلاق وانخرمت القيم فصرنا نعيش عالم الغاب بصورة يشمئز منها الفؤاد وترتعد منها الفرائس؛ حتى صار الحليم حيران!! وإيّم الله إنّ الإنسان ليخلو بنفسه ويتساءل:

⁵⁷⁴ . ورد ذلك بالتفصيل والبيان من الباب الأول في المطلب 2 بعنوان (تركية النفس عبر مقامي التخلية والتخلية) من المبحث 2؛ من الفصل 3.

أهذا حقا هو الإسلام الذي يعيشه الناس اليوم؟! الإسلام الذي ما جاء إلا لبناء الإنسان قبل تشييد العمران! وما جاء الرسول ﷺ إلا من أجل أن يهذب الأخلاق ويُقَوِّمَ اعوجاجها، ويزيل كل المفسد والأضرار؛ فقد تركها بأبي وأمي وروحي هو ﷺ شعارا باقيا ما بقيت الحياة؛ حيث قال ﷺ في عبارة جامعة تزيل كل المفسد والأضرار (لا ضرر ولا ضرار)⁵⁷⁵؛ فأين نحن وأين مجتمعاتنا من هذا؟! تلك حكمة نبوية - من حِكْمِهِ ﷺ - اعتبرها الفقهاء قاعدة كبرى تدرج تحتها عشرات آلاف الجزئيات التي تضبط العلاقات الاجتماعية؛ وبالمناسبة فهذه القاعدة يمكن اعتبارها قاعدة عمرانية كبرى!!

• تفاعل الإنسان مع الأكوان لإقامة العمران من غير ظلم ولا عدوان:

أظن أنّ من أهم أسباب ضعف المسلمين أمام دول العالم اليوم هو تقاعسهم في هذا الجانب، وعدم التفاعل الإيجابي مع الكون بما يقتضي إنماء عمرانهم وازدهار حضارتهم؛ ويعتبر هذا نوع من الظلم، باعتبار عدم العمل والأخذ بسنن التعمير الماثلة في آي القرآن الكريم - وقد ذكرت هذا في الباب الأول - وقد يندرج هذا في قوله تعالى: ﴿ أَقْتُمُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْفِيلَةِ يَرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾⁵⁷⁶؛ وما تعانيه أمة القرآن من ضعف وهوان بين الأمم أظنه من تجليات الخزي ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ نسأل الله أن ينجينا من ﴿ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ يوم القيامة!! وقد بينت: "أن استثمار ما سخره الله تعالى من

⁵⁷⁵ . رواه الإمام مالك في موطئه؛ رقم: 2758 ؛ (4 / 1078)

⁵⁷⁶ . البقرة: 85

النعم المبنوثة في الكون من لدن الإنسان المستخلف يعتبر من أسس العمران التي لا يتم إلا بها، فكان بذلك تكليفا يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة، كما جاء في الحديث: (يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني)⁵⁷⁷،⁵⁷⁸

ومن الظلم أيضا ما وقع فيه الغرب الرسالي العالمي من سباق محموم في استنفاد ثروات الطبيعة بشكل جنوني أدى إلى انتشار رغبات جامحة في الاستهلاك الذي يصل إلى حد التبيد " وأخذ يظهر للكثيرين بوضوح أن هذا النمو الجنوني لو استمر بهذا المعدل لأدّى إلى دمار العالم ، أو استنفاد موارده التي لا يمكن تجديد الكثير منها أو تعويضه ، وهكذا بدأ عدد كبير من المفكرين في الدول المتقدمة يرفعون أصواتهم محذرين ومشككين في جدوى فكرة السيطرة على الطبيعة بالمعنى الذي استخدمت به منذ بداية العصر الحديث، داعين إلى الاستعاضة عنها بفكر التعاون مع الطبيعة"⁵⁷⁹

وبناء على ذلك أقول إنّ المنهجين معا يُعتبران ظلما وعدوانا للكون وللعمران، بل وللإنسان نفسه ولو بعد حين!!

والمنهجية السليمة هي التي لا إفراط فيها - كما فعل الغرب - ولا تفريط - كما فعل المسلمون اليوم - بل هي ما قرره الإسلام عبر كتابه المسطور في التعامل مع الكون المنظور؛ وذلك بتفاعل الإنسان مع الأكوان لإقامة العمران من غير ظلم ولا عدوان!!

⁵⁷⁷ سبق تحريجه

⁵⁷⁸ وردت هذه الفقرة في المسألة الثالثة من المطلب 3؛ في المبحث 1؛ من الفصل 3، في الباب الأول من

الأطروحة

⁵⁷⁹ ن: " الموسوعة البيئية العربية " لسعيد الحفار، مرجع سابق. (1/ 72)

وأخيراً:

وبعد هذه الرحلة الفكرية الماتعة بين تضاريس هذه القاعدة وسهولها ومنارات سبلها، يتّضح لنا أن (الظلم مؤذن بخراب العمران) ومفسد لنوع الإنسان؛ وعليه فإن الانضباط بمضمون هذه القاعدة العمرانية يعدّ استشرافاً نافعا لبناء عمران الأمة وإعادة عافيتها وشهودها الحضاري!!

وفي ختام هذا الفصل الذي ضمّنته ثلاث قواعد عمرانية بصبغة صوفية تربوية قائمة على رؤية إصلاحية للإنسان الخليفة ليتأهل لبناء العمران على أسس النظرية القرآنية وفق الوظيفة الاستخلافية، تحقيقاً للغاية الوجودية على وزان أنوار قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾⁵⁸⁰

الفصل الرابع

قواعد عمرانية

في السياسة الشرعية

هذا الفصل سيشمل ثلاث قواعد عمرانية لها علاقة بالسياسة الشرعية؛ ومن المعلوم أنّ هذه الأخيرة - أي السياسة الشرعية - لها دور كبير ومؤثر في الكينونة العمرانية؛ وقد سبق في الفصل السابق أن ذكرت " أنّ السياسة لها دورها المؤثر في المجتمع والعمران، فهي التي تسوسه وتنظم شؤونه وتعالج أموره، فهي مأخوذة من الفعل سَاسَ يَسُوسُ؛ سياسة: وهي القيام على الشيء بما يصلحه؛ والسياسة أيضا: فعل السائس يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته⁵⁸¹؛ وتعني أيضا في الاصطلاح علاقة الحاكم بالمحكوم في الدولة، أو الراعي بالرعية، أو السلطة بالشعب، وهو ما يسمى بالسياسة الشرعية في الفقه الإسلامي؛ وقد ألف فيه العلماء قديما وحديثا⁵⁸²

وإذا رجعنا إلى نصوص الشريعة الإسلامية فإنّ مصطلح السياسة - ومشتقاته - لا نجدها إلا في حديث واحد للنبي ﷺ وهو قوله: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بَبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَأَلَّوْا، أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ)⁵⁸³؛ قال ابن حجر: " قوله: (تسوسهم الأنبياء) أي أنّهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد، بعث الله لهم نبيا يقيم لهم أمرهم، ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة، وفيه إشارة إلى أنّه لا بد للرعية من قائم بأمورها، يحملها على الطريق الحسنة، وينصف المظلوم من الظالم⁵⁸⁴

⁵⁸¹ - ن: "لسان العرب" مادة سوس، مرجع سابق (301 / 7)

⁵⁸² أوردت هذا الكلام في المجال السياسي عند الحديث عن أهمية قاعدة: "الظلم مؤذن بخراب العمران" ومجالاتها العمرانية، في المبحث الثالث من الفصل 3، من هذا الباب.

⁵⁸³ أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: 3455. كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

⁵⁸⁴ ن: "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني، مصدر سابق؛ (497/6).

والسياسة هنا وُصِفَتْ بالشرعية، أي نسبة إلى الشريعة الإسلامية؛ أي أنّ هذه السياسة التي تعني رعاية وتدير شؤون الرعية والمجتمع قائمة على قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها الإصلاحية؛ فيكون معناها العام هو: رعاية الشؤون العامة في مختلف نواحي ومجالات العمران من خلال الحكم بما يحقق مصالح العباد، وفق أصول الدين الإسلامي وقواعده الاجتهادية؛ وهو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: "وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وغيره، إلا أنّ ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم، فقوانينها إذا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية، والافتداء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم"⁵⁸⁵؛ إذن من خلال كلام ابن خلدون يتبين أنّ هناك سياسة شرعية وأخرى غير شرعية، وهو كذلك؛ وقصدنا هنا هي السياسة الشرعية..

والعمران الذي نتحدث عنه - في هذه الأطروحة - لا بد له من سياسة شرعية تنظم شؤونه وتخطّط له بدقة استشرافاً لمستقبله؛ ولذلك اهتمّ علماؤنا قديماً وحديثاً بهذا الموضوع وألفوا فيه كتباً في غاية الأهمية، نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر:

1. كتاب "الرد على سير الأوزاعي"، لأبي يوسف (ت: 182 هـ)، بحث فيه مسائل الحرب، والجهاد، والغنائم، وتناول موضوع السياسة الاقتصادية للدولة الإسلامية.

2. كتاب "السير الكبير"؛ محمد بن الحسن الشيباني (ت 189 هـ)، وهو من أول الكتب التي صُنفت في القانون الدولي وقواعد الحرب.

3. كتاب "الإمامة والسياسة"؛ ابن قُتيبة الدِّينَوْرِيّ (ت 276 هـ)، والكتاب يؤرّخ للخلافة.

⁵⁸⁵ ن: "المقدمة" مصدر سابق، (378/1)،

4. كتاب "الأحكام السلطانية، والولايات الدينية"؛ للقاضي الشافعي أبي الحسن علي الماوردي (ت 450 هـ)؛ وهو من أجل ما أُلّف في هذا الميدان؛ وألف أيضا "نصيحة الملوك"؛ وغيرها من الكتب التي أَلفها رحمه الله في هذا الجانب..

5. كتاب "غِيَاثُ الْأُمَمِ، فِي الثَّبَاتِ الظُّلْمِ"؛ لإمام الحرمين الجويني (ت 478 هـ) وهو في موضوع الإمامة؛ وتلميذه الغزالي أيضا كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"..

6. لابن تيمية (ت 728 هـ) كتاب "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، وتلميذه ابن القيم كتابه: "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية"

7. وأيضا من أهم ما أُلّف في هذا الميدان، كتاب العلامة ابن خلدون "المقدمة" من كتابه الكبير: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"؛ فهو في غاية الأهمية في هذا الشأن..

8. وللمعاصرين كتب أخرى منها كتاب: "السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها" للدكتور القرضاوي..

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أهمية هذا الجانب ودوره في تأطير العمران البشري؛ وقد أحسن الإمام الغزالي حين قال: "إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وهي الآلة الموصلة إلى الله عزّ وجلّ لمن اتخذها آلةً ومنزلاً لا لمن يتخذها مستقرّاً ووطناً، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين، وأعمالهم وحِرْفُهُمْ وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام؛ أحدها: أصول لا قوام للعالم دونها وهي أربعة: الزراعة وهي للمطعم، والحياكة وهي للملبس، والبناء وهو للمسكن، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها"، ثم قال: "وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر

الصناعات، ولذلك يستخدم - لا محالة - صاحب هذه الصناعة سائر الصناعات⁵⁸⁶.

وخلاصة القول أنّ العمران لا بد له من سياسة شرعية ترعى شؤونَه وتنظّم أمورَه؛ وهي قائمة على قواعد وأصول تجمع جزئياتها ومساائلها؛ ومن ثمّ فإنّنا سنختار منها ثلاثة قواعد يقوم عليها العمران وتنضبط بها الحضارة حتى يتحقق للإنسان المعمر سعادته في الدنيا والآخرة!!

وكالعادة فإنّني سأخصص كل قاعدة بمبحث مستقل تندرج تحته أربعة مطالب نتناول من خلالها بعض الزوايا الفكرية لكل قاعدة من تلك القواعد العمرانية؛ ذلك ما نريد، والله هو الوليّ الحميد!!

ومباحث هذا الفصل تأتي على الشكل الآتي:

المبحث الأول: قاعدة (لا عمرانَ إلا بسلطان)

المبحث الثاني: قاعدة (الوحدة والاجتماع قوة للعمران والفرقة ضعف وخراب)

المبحث الثالث: قاعدة (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة)

⁵⁸⁶ ن: "إحياء علوم الدين"، (126/1 - 127).

المبحث الأول: قاعدة (لا عمران إلا بسطان)

هذه قاعدة عمرانية مرتبطة بأصل من أصول السياسة الشرعية، جعلتها أولى القواعد في هذا الفصل نظراً لأهميتها ومركزيتها في هذا الباب، بل أزعّم أنها أكبر قاعدة على الإطلاق في باب السياسة الشرعية كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى؛ كما يمكن إدراج مجموعة من القواعد تحتها⁵⁸⁷.

وقد صغتها بهذه الديباجة استخلاصاً من تأملي لكثير من نصوص الشريعة التي تتعلق بهذا الشأن، ومن كلام بعض العلماء المهتمين بمجال السياسة الشرعية، وعلم الاجتماع، وعلى رأس أولئك العلامة ابن خلدون الذي قال في الفصل الثاني والخمسين من المقدمة: "أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره"⁵⁸⁸، وقد مرّ بنا أيضاً ما ذكره ابن حجر في بيان حديث النبي ﷺ السابق: (كَانَتْ بُنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ..⁵⁸⁹ الحديث؛ قال ابن حجر: "وفيه إشارة إلى أنه لا بد للرعية من قائم بأمورها، يحملها على الطريق الحسنة، وينصف المظلوم من الظالم"⁵⁹⁰، وهو ما أكدّه ابن تيمية بقوله: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس"⁵⁹¹؛ إذن بناء على ذلك صغت هذه القاعدة العمرانية (لا عمران إلا بسطان) ولأجل إبراز دور القاعدة الحضاري للمساهمة في إنجاح مشروع الأمة العمراني، جرت

⁵⁸⁷ مثل قاعدة: "تصرف الراعي منوط بمصلحة رعيته"

⁵⁸⁸ ن: "المقدمة" مصدر سابق، (377/1)

⁵⁸⁹ سبق تخريجه

⁵⁹⁰ ن: "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني، مصدر سابق؛ (497/6).

⁵⁹¹ ن: "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، مصدر سابق؛ (390/28).

العادة أن تتم دراسة القاعدة - أي قاعدة - بتناولها عبر منهجية محدّدة تقتضي النظر فيها - أي القاعدة - من زوايا أربع، تحدّدها تساؤلات معيّنة تأتي على الهيئة الآتية:

ما مفهوم هذه القاعدة؟ وما أدلّتها وبراهينها؟ وأين تتجلى قيمتها ومجالاتها العمرانية؟ وما هي آثارها الاستشرافية في عمران الأمة؟

تلك أسئلة أربعة، تمثّل نوافذ مهمّة نطلّ عبرها على أهمّ جوانب تلك القاعدة، التي أخاها أهمّ قاعدة من القواعد العمرانية التي تتعلّق بالسياسة الشرعية، كما سيتبين - بإذن الله - من خلال دراستها؛ والله المستعان!!

وهذه المطالب التي تمثّل نوافذ نستشف من خلالها حقائق هذه القاعدة، نسوقها كما يلي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحجّيتها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

دأبنا على أن يكون البدء ببيان المصطلحات التي تتركب منها القاعدة، كل مصطلح على حدة، بناء على أن بيان الكل متوقف على بيان الجزء؛ وهذه القاعدة التي بين أيدينا تتركب من مصطلحين مركزيين وهما: العمران والسلطان؛ أما الأول فقد بيناه أكثر من مرة لكونه المصطلح المركزي لهذه الأطروحة؛ أما الثاني وهو السلطان فقد سبقت الإشارة إلى مرادفه وهو الخليفة أو الإمام؛ لكن لا بأس أن نتناول مصطلح السلطان لغة واصطلاحاً ولو على سبيل الإيجاز:

قال ابن فارس: "(سُلْطَ) السَّيْنُ وَاللَّامُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْقُوَّةُ وَالْقَهْرُ؛ مِنْ ذَلِكَ السَّلَاطَةُ، مِنَ التَّسَلُّطِ وَهُوَ الْقَهْرُ، وَلِذَلِكَ سَمِيَ السُّلْطَانُ سُلْطَانًا؛ وَالسُّلْطَانُ الْحُجَّةُ؛ وَالسَّلِيْطُ مِنَ الرِّجَالِ: الْفَصِيحُ اللِّسَانِ الدَّرْبُ؛ وَالسَّلِيْطَةُ: الْمَرْأَةُ الصَّخَّابَةُ"⁵⁹²

وقال ابن منظور: "والسلطان: الحجة والبرهان (...). والسلطان إنما سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه (...). والسلطان: الحجة ولذلك قيل للأمرء سلاطين لأنهم الذين تقام بهم الحجة والحقوق؛ (...). والسلطان: الوالي، وهو فعلاَن، يذكر ويؤنث، والجمع السلاطين؛ والسلطان: قدرة الملك، يذكر ويؤنث (...). وقال الليث: السلطان قدرة الملك وقدرة من جعل ذلك له وإن لم يكن ملكاً، (...). والنون في السلطان زائدة لأن أصل بنائه السليط؛ وقال أبو بكر: في السلطان قولان: أحدهما أن يكون سمي سلطاناً لتسليطه، والآخر أن يكون سمي سلطاناً لأنه حجة من حجج الله"⁵⁹³

⁵⁹² ن: "مقاييس اللغة" لابن فارس، مصدر سابق (95/3)

⁵⁹³ ن: "لسان العرب" لابن منظور، مصدر سابق (321/7)

المعنى الاصطلاحي:

قبل أن نبيّن معنى السلطان في الاصطلاح السياسي أو العمراني لابد أن نعلم أولاً أن لفظ (السلطان) ورد في القرآن الكريم في تسعة وثلاثين موضعاً، جاء في موضعين بصيغة الفعل، أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾⁵⁹⁴، ثانيهما: قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾⁵⁹⁵، وجاء في سبعة وثلاثين موضعاً بصيغة الاسم، (سلطان) من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعِزُّبٌ أَتَجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾⁵⁹⁶، وقد ورد هذا المصطلح في القرآن بالمعنيين الرئيسين اللذين وردا في اللغة وهما: أولاً بمعنى الحجة والبرهان، والثاني بمعنى (التسليط) و(القهر)!

والفقهاء الذين كتبوا في الأحكام السلطانية كالإمام الماوردي، وفي السياسة الشرعية، كانوا يطلقون اسم السلطان على خليفة المسلمين؛ والمعنى اللغوي يؤيد ذلك، فإن السلطان سُمِّيَ بذلك لتسليطه على رعيته بالقوة، ولأنه حجة من حجج الله، ولذلك قيل للأمراء سلاطين لأنهم الذين تقام بهم الحجة والحقوق؛ وهو المعنى الذي نقصده في هذه القاعدة العمرانية: (لا عمران إلا بسلطان)؛ أي الخليفة أو الملك أو الإمام وهو: " في العرف الإسلامي هو: الخليفة الذي يحكم الأمة نيابة عن رسول الله صلى الله عليه

⁵⁹⁴ النساء: 90

⁵⁹⁵ الحشر: 6

⁵⁹⁶ الأعراف: 71

وسلم في إقامة الدين وسياسة الدنيا به؛ فهو الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية الواحدة كما صورت ذلك الأحاديث النبوية، وجسده الواقع التاريخي للخلفاء الراشدين ومن بعدهم .

والخليفة يسوس الأمة بنفسه، وبمن ينوب عنه في إدارة البلاد وسياسة العباد، ممن تعينه الأمة نائباً عنه، ومن يُنْيِيه هو عن نفسه، من الولاة على الأقاليم أو الجيوش، والمؤسسات ونحوها، ممن يقومون على السلطة التنفيذية⁵⁹⁷.

ولابن خلدون رحمه الله كلمة مضيئة في هذه المسألة، حيث يقول: "إن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فصاحب الشرع متصرف في الأمرين؛ أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها، وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري، وقد قدّمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت، وقدّمنا أن المُلْك وسطوته كافٍ في حصول هذه المصالح، نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح"⁵⁹⁸

إذن بعد بيان معنى السلطان الذي ورد في القاعدة، ننتقل إلى المعنى العام للقاعدة الذي يستفاد من نظمها.

وأول ما يلاحظ أنّ قاعدة (لا عمرانَ إلا بسلطان) بدأت بـ "لا" النافية للجنس، التي تفيد نفي الخبر عن جميع أفراد جنس اسمها على سبيل التنقيص والجزم؛ والخبر هنا

⁵⁹⁷ ن: " السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها" للقرضاوي، مرجع سابق؛ ص 48

⁵⁹⁸ ن: " المقدمة"، مصدر سابق، ابن خلدون، (202)

متعلق بشبه الجملة "بسلطان"، وتقديره "موجود"؛ واسمها هنا هو "عمران" وهو نكرة ولذلك جاء مبنيًا على الفتح، أي أنّ "لا" عاملة عملها، وبالتالي فهي تفيد نفي وجود أيّ عمران عند انعدام السلطان، نصًا وجزمًا كما هو معلوم عند اللغويين⁵⁹⁹؛ لأنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، كما هو متفق عليه أيضًا عند الأصوليين! وفي هذا يقول صاحب نثر الورود على مراقي السُّعود: "والحاصل أنّ النكرة إن بنيت مع "لا" على الفتح تعمّ باتفاق بين النحويين والأصوليين،⁶⁰⁰ ولذلك يسمّى هذا الأسلوب عند المناطقة بالسلب الكلّي، أي أنّ القضية كلية سالبة؛ وبالتالي فإن معنى القاعدة العمرانية التي بين أيدينا هو: "نفي جميع أفراد العمران كائنا ما كان عند انعدام السلطان" أي "لا عمرانٌ موجودٌ إلاّ بوجود السلطان"؛ ويمكن أن نقول أيضًا:

"لا عمرانٌ كائنٌ عند غياب السلطان"

⁵⁹⁹ ن: "شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك" لابن عقيل الهمداني المصري (ت: 769هـ)؛ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد؛ الناشر: دار التراث - القاهرة؛ ط: 20؛ سنة: 1400 هـ - 1980 م (5/2)؛ وفي هذا يقول ابن مالك في ألفيته: "عمل إن اجعل للا في نكره ... مفردة جاءتك أو مكرره"؛ يقول الشارح: "هذا هو القسم الثالث من الحروف الناسخة للابتداء وهي "لا" التي لنفي الجنس والمراد بها (لا) التي قصد بها التنصيص على استغراق النفي للجنس كله (...). وهي تعمل عمل إن فتنبص المبتدأ اسمًا لها وترفع الخبر خبرًا لها، ولا فرق في هذا العمل بين المفردة وهي التي لم تتكرر نحو: لا غلام رجل قائم وبين المكررة نحو: لا حول ولا قوة إلا بالله"

⁶⁰⁰ يقول الشيخ عبد الله العلوي الشنقيطي في كتابه المراقي: "وفي سياق النفي منها يُذكر. إذا بُني أو زيد من مُنكرٍ" ينظر كتاب: "نثر الورود على مراقي السُّعود"، مرجع سابق (254/1)؛ ويقول ابن عاصم في نظمه: (والنكرات في سياق نفيها .. تعم كالفعل الذي في طيها) يعني أنّ النكرات تعم. إذا كانت مسبوقه ب "لا" التي لنفي الجنس، وكانت النكرة مبنية على الفتح؛ يُنظر كتاب "نيل السؤل على مرتقى الوصول"؛ مرجع سابق ص: 149

وهذه القاعدة أيضا جاء فيها الاستثناء ب: "إلا" بعد النفي، وهو من أساليب الحصر والقصر، وهو من أنواع مفهوم المخالفة عند الأصوليين، خاصة المالكية⁶⁰¹؛ فيكون المعنى أن العمران محصور عند وجود السلطان؛ أي أن العمران منعدم عند انعدام السلطان؛ وحسب مفهوم المخالفة: "أنّ العمران يمكن أن يوجد إذا وجد السلطان"؛ طبعاً إذا انتفت الموانع ووُجدت الأسباب؛ وهو ما عبّرنا عنه فيما سبق بالشرطية، حيث اعتبرنا وجود الإمام شرط من شروط العمران⁶⁰²، والشرط يلزم من عدمه عدم المشروط الذي هو العمران؛ وهو ما يتناسب مع هذه القاعدة العمرانية (لا عمران إلا بسلطان)؛ فله الحمد والمثنة!!

وبعد بيان معنى هذه القاعدة العمرانية، فهي تحتاج إلى أدلة وبراهين للاستدلال على حجّيتها؛ وهو ما نخصّص له المطلب الآتي:

⁶⁰¹ من المعلوم أنّ المذهب المالكي من أكثر المذاهب التي أخذت بمفهوم المخالفة، وأخذ به الشافعية أيضاً، وبعض الحنابلة؛ وخالف الجمهور الحنفية فلم يأخذوا به؛ ويسمى عندهم دليل الخطاب، وتنبية الخطاب؛ وهو "أن المسكوت عنه يخالف حكم المنطوق به" مع شروط ذكرها ليس محل إيرادها هنا؛ يقول ابن عاصم؛ ن: "نيل السؤل"، مرجع سابق (1/ 59)

وإن يكن في حكمه قد خالفه فإنّه المفهوم ذو المخالفة

وتميّز الدليل للخطاب وخصّة النعمان باجتنب

⁶⁰² أوردنا ذلك بالتفصيل في المطلب 3: بعنوان: "وجود الإمام - أي الحاكم - راعي العمران؛ من المبحث 2؛ في الفصل 2؛ من الباب الأول من هذه الأطروحة

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

إنّ هذه القاعدة يمكن أن نستخلص أدلتها من سياقات القرآن الكريم وقصصه ومقاصده، ولها أدلة من أحاديث النبي ﷺ وكذا من سيرته ﷺ وسير أصحابه رضي الله عنهم خاصة تاريخ الفترة الرشيدة، وكذا الوقائع التاريخية، إضافة إلى الواقع الذي نعيشه اليوم، ولعلّ الواقع خير شاهد وأوضح دليل! وكذلك سنستأنس بأقوال أهل العلم الذين كتبوا وألفوا في موضوع السياسة الشرعية وعلم الاجتماع؛ وهذا التنوع من مصادر الأدلة إن دلّ على شيء فإنما يدل على قيمة القاعدة العمرانية وقوّتها الحضارية ممّا يستدعي العناية بها وتفعيلها في الحركة الإنسانية.

وسأعرض جملة من الأدلة والبراهين التي تُبرز أهمية السلطان ودوره في تحقيق العمران، وما يتعلق به من جلب المصالح ودرء المفاسد المتعلقة بالإنسان؛ وعواقب فقدان السلطان في الحال والمآل على عمران الإنسان!!

ولتكن البداية من القرآن فهو أصدق برهان، وأقوى بيان! ومن آيه التي تدل على ضرورة وجود السلطان من أجل سلامة العمران، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٨﴾⁶⁰³، قال الشيخ محمد رشيد رضى في مناره: "هاتان الآيتان هما أساس

الحكومة الإسلامية، ولو لم ينزل في القرآن غيرهما لكفتا المسلمين في ذلك إذا هم بنوا جميع الأحكام عليهما"⁶⁰⁴؛ وهو أمر صحيح! حيث تعتبر الآيتان أصلا في تنظيم العلاقة بين أولياء الأمور الذين يمثلون السلطان (السلطة) وبين الرعية؛ وهذا يستلزم وجود السلطان!!

والسلطان أو أولو الأمر يدخل فيهم الأمراء الذين يمثلون السلطة التنفيذية، والعلماء الذين يمثلون السلطة التشريعية، كما يدخل أعوانهم؛ يقول ابن تيمية: " (أولو الأمر) أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء، والأمراء (...) ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان، وكل من كان متبوعا فإنه من أولي الأمر"⁶⁰⁵؛ إلا أن الإمام أو الخليفة هو على رأس هؤلاء، ولذلك اشترط علماء الإسلام فيه مجموعة من الشروط التي تؤهله لقيادة المجتمع وبناء العمران، وقد سبقت الإشارة إليها في موضع سابق فلتنظر فيه⁶⁰⁶

قال ابن عطية الأندلسي في تفسير الآيتين: "قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزيد بن أسلم و شهر بن حوشب، وابن زيد: هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة؛ قال القاضي أبو محمد: فهو للنبي عليه السلام وأمرائه، ثم يتناول من بعدهم"؛ ثم ذكر مجموعة من أقوال المفسرين، ثم قال: "والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس، ومع

⁶⁰⁴ ن: "تفسير المنار"، مرجع سابق (5 / 136)

⁶⁰⁵ ن: " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " لابن تيمية، مصدر سابق (1 / 53)

⁶⁰⁶ ن: المسألة الخامسة بعنوان: " المواصفات التي ينبغي توافرها في الإمام " من المطلب 3؛ في المبحث 2؛ من الفصل الثاني في الباب الأول.

أن سببها ما ذكرناه تتناول الولاية فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات وعدل الحكومات وغيره.."607؛ وهذا كله يدل وجوب اتخاذ ولي الأمر أي السلطان، ويستلزمه، فتنبه!

وقال الإمام الرازي وهو يتحدث عن المسائل التي تندرج تحت الآيتين السالفتين: "المسألة الرابعة: قوله: وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل كالتصريح بأنه ليس لجميع الناس أن يشرعوا في الحكم، بل ذلك لبعضهم، ثم بقيت الآية مجملة في أنه بأي طريق يصير حاكما ولما دلت سائر الدلائل على أنه لا بد للأمة من الإمام الأعظم، وأنه هو الذي ينصب القضاة والولاة في البلاد، صارت تلك الدلائل كالبيان لما في هذه الآية من الإجمال"608؛ ثم قال في الآية الأخرى: "قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا"609..

فقوله: "ولما دلت سائر الدلائل على أنه لا بد للأمة من الإمام الأعظم"، يشير إلى أن هناك أدلة تُوجبُ تنصيب الإمام الأعظم، وهو كذلك، وسيأتي ذكر مزيد منها؛ لكن لا ننسى أن الآيتين السالفتين من سورة النساء من الأدلة التي تشهد لذلك وتُوجِّبه، لأنها تحت الرعية وتُلزمهم بطاعة ولاية الأمور وعلى رأسهم إمام المسلمين وسلطانهم، وهذا في حد ذاته يستلزم وجود إمام لهم وسلطان يرعى شؤونهم!!

607 ن: "اخرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر: دار الكتب العلمية. بيروت؛ ط: 1؛ سنة: 1422 هـ؛ (2/ 70)

608 ن: "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي؛ مصدر سابق؛ (10 / 111)

609 ن: المصدر السابق؛ (10 / 112)

ويذكر الإمام القرطبي في تفسيره للآيتين السالفتين: "لما تقدم إلى الولاية في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته عز وجل أولاً، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً، (...) قال سهل بن عبد الله رحمه الله: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم."⁶¹⁰

وهذا الكلام كله يدل على وجوب وجود السلطان، بل تعظيمه أيضاً وتوقيره وطاعته؛ وأن ذلك فيه حفظ لمصالح الناس وإقامة عمرائهم! ولذلك قال بعدها: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي "ذلك الذي شرعناه لكم في تأسيس حكومتكم، وإصلاح أمركم، (...) خير لكم في نفسه، لأنه أقوى أساس لحكومتكم، والله أعلم منكم بما هو خير لكم، (...) وهو على كونه خيراً في نفسه أحسن تأويلاً أي مآلاً وعاقبة؛ لأنه يقطع عرق التنازع ويسد ذرائع الفتن والمفاسد"⁶¹¹

إذن من خلال كلام المفسرين لتينك الآيتين الكريمتين يتضح أن وجود السلطان واجب لإقامة العمران وسلامته من الخراب، كما تُنظَّم الآيتان العلاقة بين السلطان وولاياته مع الرعية؛ وقد مضى في الباب السابق من هذه الأطروحة⁶¹² كلامٌ غايةً في النَّفَاسَةِ لابن الأزرق الغرناطي - رحمه الله - في بيان الحاجة إلى السلطان لانتظام أمور العمران؛ نضيفُ إليه كلاماً في منتهى الروعة للإمام الغزالي رحمه الله، يقول فيه: "وأما المقدمة الثانية وهو أن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظم إلا بسلطان مطاع فتشهد له مشاهدة

⁶¹⁰ ن: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، مصدر سابق؛ بتصرف كثير (5 / 259 261)

⁶¹¹ ن: "تفسير المنار"، مرجع سابق (5 / 156)

⁶¹² أوردنا ذلك بالتفصيل في المطلب 3: بعنوان: "وجود الإمام أي الحاكم راعي العمران؛ من المبحث 2؛ في الفصل 2؛ من الباب الأول من هذه الأطروحة

أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة، وإن ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعم السيف وشمل القحط وهلك المواشي وبطلت الصناعات، وكان كل غلب سلب ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم إن بقي حياً، والأكثر يهلكون تحت ظلال السيوف، ولهذا قيل: الدين والسلطان توأمان، ولهذا قيل: الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع.⁶¹³ ويقول ابن الأزرقي: "إن توهم الاستغناء عن السلطان باطل؛ أما في الدين فلا تمتنع حمل الناس على ما عرفوا منه طوعاً أو كرها دون نصبه، إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن؛ وأما في الدنيا فلا ن حامل الطبع والدين لا يكفي في إقامة مصالحها على الوجه الأفضل غالباً؛ قال الآمدي ولذلك نجد من لا سلطان لهم كالذئاب الشاردة والأسود الضارية لا يُبقي بعضهم على بعض ولا يحافظون على سنة ولا فرض؛ قال: ولهذا قيل السيف والسنان يفعلان ما لا يفعل البرهان"⁶¹⁴..

وما سبق ذكره نراه اليوم في بعض الدول العربية حينما لم يبق فيها سلطان أو حاكم صارت الرعية كالأسود الضارية، بل حتى الأسود تستحي أن تفعل ما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان اليوم في تلك الدول؛ وهذا الذي يقع في سورية وليبيا واليمن وغيرها من الدول الإسلامية - مع الأسف - خير شاهد على ذلك؛ والله المستعان!! ولذلك قال ابن خلدون بقوله: "العمران دون الملك والدولة متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع"⁶¹⁵!!

ومن تأمل قصص القرآن ألَّفَها تقرّر وتؤكد على ضرورة السلطان للإقلاع في بناء

⁶¹³ ن: "الاقتصاد في الاعتقاد"؛ للغزالي، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي؛ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط: 1، سنة: 1424 هـ - 2004 م؛ (1/ 128).

⁶¹⁴ ن: "بدائع السلك في طبائع الملك"؛ لابن الأزرقي، مصدر سابق (1/ 68 69)..⁶¹⁵

⁶¹⁵ ن: "المقدمة" مصدر سابق، (1/ 188)

الحضارات فكل نبي يأمر قومه بقوله: ﴿بَاتَّفُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾⁶¹⁶، كما في سورة الشعراء التي ساقّت مجموعة من الأنبياء والمرسلين وكانت تلك الكلمة شعارهم جميعاً لأقوامهم وهي تنصّ على الطاعة للرسول الذي يمثّل السلطة والقيادة التي يجب على الجميع الانضواء تحتها وإلا كان مارقاً عن الجماعة ومنشقا عن الصف؛ ويفهم من ذلك الشعار أنّ أي إنشاء للعمران أو بناء لحضارة الإنسان يقتضي قائداً يمثّل سلطة القيادة؛ وهو ما تقرّره قاعدة: (لا عمران إلا بسلطان)

وبناء على ذلك كلّ يرى أهل السنة أن نصب الإمام واجبٌ شرعاً لتنظيم حياة الناس والمحافظة على الكليات الخمس، التي لا قوام للعمران إلا بها فهي من ضروريات الحياة كما ذكر الغزالي والشاطبي وغيرهما، ولأجل ذلك يعتبر جماهير المسلمين سلطة الإمام ضرورة اجتماعية وأداة من أدوات الأمة في إقامة العدل وحراسة الدين وسياسة الدنيا!!

وهو ما أدركه الصحابة رضوان الله عليهم في أول نازلة بعد وفاة النبي ﷺ؛ فلقد قدّموا مبايعة أبي بكر على دفنه ﷺ - مع وجوب تعجيل دفن الميت إكراماً له، فكيف والحال هنا هو رسول الله ﷺ؟! - لما علموا من وجوب المبادرة إلى بيعة إمام عليهم، لما فيه من معاني القوة والجماعة والتآلف، وما ينتج عن تخلفه من فساد عريض، للإنسان والعمران⁶¹⁷! وقد روى الإمام الطبري أنّ: "عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول الله ص؟ قال: نعم، قال: فمتى بُويعَ أبو بكر؟ قال: يوم مات

⁶¹⁶ الشعراء: 108

⁶¹⁷ ورد تفصيل ذلك بعنوان: (حديث السَّقِيفَةِ) في كتاب: "تاريخ الطبري"، الطبري، مصدر سابق (3 / 203)

وما بعدها

رسول الله ﷺ كَرَهُوا أَنْ يَبْقَوْا بَعْضَ يَوْمٍ وَلَيْسُوا فِي جَمَاعَةٍ قَالَ: فَخَالَفَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟
قَالَ: لَا إِلَّا مُرْتَدًّا أَوْ مَنْ قَدْ كَادَ أَنْ يَرْتَدَّ..⁶¹⁸

وأظنَّ أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم فعلوا ذلك نتيجة ما تشرَّبوه من أحاديث نبوية في الموضوع - وهي من الكثرة بمكان - تدل على وجوب مبايعة الإمام، وما عاشوه من تجربة أيضا قبل الإسلام في الجاهلية حيث لم يكن لهم خيط رابط ولا إمام ضابط، بل كانوا طوائف شتى وفِرَقًا قددا، آراؤهم مُتَنَاقِضَةٌ وعلاقاتهم متناحرة!!

ومن أوضح الأحاديث التي تدل على وجوب السلطان ما رواه الإمام مسلم عن نافع، قال: (جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطْرَحُوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتِك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية))⁶¹⁹؛ وفي رواية للبخاري عن نافع، قال: (لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر، حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة) وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كانت الفيصل بيني وبينه))⁶²⁰؛ ويشير ابن حجر العسقلاني في لمسة

618. نفس المصدر (3 / 207)

619. رواه مسلم في صحيحه، رقم: 1851؛ ورواه البخاري بنحوه، رقم: 7111.

620. رواه البخاري في صحيحه، رقم: 7111.

عمرانية لهذا الحديث بقوله: " وفي هذا الحديث وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق"⁶²¹

وفي رواية للإمام أحمد: (من نزع يده من طاعة، فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وهو مفارق للجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية)⁶²²؛ فقلوه ﷺ: (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)، أو (وهو مفارق للجماعة)؛ يدل دلالة واضحة على وجوب مبايعة الإمام وجوباً عينياً، أي يجب على المجتمع جميعه أن يُنصّبوا سلطاناً، ولا يجوز لأحد أن يخرج عن تلك الجماعة؛ لما في الخروج من مخالفة أمر السلطان وإحداث الفتن التي تجرّ الناس إلى سفك الدماء، وفساد الأرض والسماء؛ وهو ما نراه رأي العين في الدول العربية والإسلامية التي برزت فيها تلك الفتن الدّهماء!! ولذلك قال الإمام النووي: " أجمع العلماء على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة"⁶²³؛ وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (سمعت رسول الله ﷺ، يقول: (من خلع يدا من طاعة لقي الله لا حجة له، ومن مات ليس في رقبته بيعة مات موة جاهلية))⁶²⁴؛ وفي رواية ثالثة: (مَنْ مَاتَ وَلَا بِيَعَةَ عَلَيْهِ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)⁶²⁵؛ قال الإمام البغوي⁶²⁶: " إذا مات الإمام فاستخلف بعده رجلاً صالحاً للإمامة، فله

621. ن: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، مصدر سابق (13/ 71 - 72).

622. رواه أحمد في مسند عبد الله بن عمر، رقم: 5551؛ (5/ 108).

623. ن: "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج" لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: 676هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت، ط: 2؛ السنة: 1392 هـ؛ (12/ 205)

624. ن: "مستخرج أبي عوانة" لأبي عوانة يعقوب النيسابوري الإسفراييني (ت: 316هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، نشر: دار المعرفة. بيروت، ط: 1؛ السنة: 1419هـ/1998م.؛ رقم الحديث: 7153؛ (4/ 415)

625. رواه الطبراني في الأوسط؛ رقم الحديث: 225 (1/ 78)

626. هو: أبو محمد (ت 516 هـ) الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي الشافعي، صاحب التصانيف، الملقّب بركن الدين، ومحمي السنة. محدّث فقيه مفسر؛ كان سيّداً إماماً، زاهداً؛ بُورك له في تصانيفه، ورُزق فيها القبول التام، من

الولاية، ولا تحل منازعته فيها، كما فعل الصديق رضي الله عنه، استخلف بعده عمر رضي الله عنه، ولو مات الإمام ولم يستخلف أحداً، فيجب على أهل الحل والعقد أن يجتمعوا على بيعة رجل يقوم بأمر المسلمين، كما اجتمعت الصحابة رضي الله عنهم على بيعة أبي بكر رضي الله عنه، ولم يقضوا شيئاً من أمر تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه حتى أحكموا أمر البيعة" ⁶²⁷؛ وفي حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ ⁶²⁸ يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقَتِلَ فَقِتْلَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدُهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ) ⁶²⁹..

فهذه الأحاديث - وغيرها كثير - ناطقة بأوضح بيان بضرورة أن يكون للناس سلطان، وأنه يجب عليهم أن يبايعوه، ويطيعوه، وإلا كانوا كأهل الجاهلية في تركهم الأمور فوضى، كما أن في الإشارة إلى الميعة الجاهلية وعيداً شديداً لكل من تسوّل له نفسه أن يمتنع من مبايعة الإمام، أو يشق عصا الطاعة؛ وهو ما تقرّره قاعدتنا العمرانية (لا عمران إلا بسلطان)!!

وعلاوة على ذلك نجد في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام

مصنفاته المفيدة: شرح السنة، وهو كتاب عظيم في بابه لا يستغني عنه طالب علم. ومعالم التنزيل؛ والمصاييح؛ والتهذيب في فقه الشافعية، وغيرها. نقلا عن الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

627. ن: "شرح السنة" لأبي محمد الحسين البغوي؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، نشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت؛ ط: 2، سنة: 1403 هـ / 1983 م؛ (10 / 81)

628. قالوا: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه.

629. ن: "مختصر صحيح مسلم" للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المؤلف: عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري (ت: 656 هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط: 6؛ سنة: 1407 هـ / 1987 م؛ رقم الحديث: 1232؛ (2 / 334).

أحداثاً تُبرزُ أهمية السلطان، وأنه أمرٌ ضروري لقيام العمران، ولعلّ أشهر حدث على ذلك حدث بيعة العقبة الثانية حين بايع الأوس و الخزرج . بعد إسلامهم . رسول الله ﷺ فيما روى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله ..) ؛ وكانت تلك البيعة بداية بدايات الدولة الإسلامية بقيادة النبي محمد ﷺ لإقامة عمراتها و بناء حضارتها، ولعل ما تضمّنته هذه البيعة من ألفاظ وبنود يدل على ضرورة السلطان لبناء الأوطان، أوضح دلالة وأصدق بيان وهو ما أجمع أهل الحكمة والبرهان!! قال ابن العربي: " واجتمع الحكماء أنه لا ينبغي للمرء أن ينزل بلدةً ليس فيها خمسة أشياء: سلطان قاهر، وقاضٍ عادل، وسوق قائمة، وطبيب عالم، ونهر جارٍ"⁶³⁰

وروي أيضاً أنّ: " عمرو بن العاص رضي الله عنه قال لابنه: يا بني!! احفظ عني ما أوصيك به، إمام عدل خير من مطر وابل، وأسدٌ حطوم خيرٌ من إمام ظلوم، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم"⁶³¹.

وقال أيضاً: " وينسب إلى أرسطوطاليس: العالم بستانٌ سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيه به السُّنة، السُّنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضّده الجيش، الجيش أعوان يكتفهم المال، المال رزق تجمععه الرعية، الرعية عبيدٌ يتعبدهم العدل، العدل مألوفٌ وهو صلاح العالم"⁶³².

كل ما سبق من الأدلة بمختلف أنواعها يشهد حقاً أنه: (لا عمرانَ بغير سلطان)،

⁶³⁰ ن: "مجة المجالس وأنس المجالس" لأبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي (ت: 463هـ)؛ دون طبعة أو تاريخ (201/1)

⁶³¹ نفس المصدر (71/1)

⁶³² نفسه (71/1)

وهو ما أكّده إمام الحرمين الجويني في كلام يُكتب بماء الذهب بقوله: "ولا يرتاب من معه مسكة من عقل أن الذب عن الحوزة، والنضال دون حفظ البيضة محتوم شرعا، ولو تُرك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع، ولا يزعمهم وازع، ولا يردعهم عن اتباع خطوات الشيطان رادع، مع تفنن الآراء، وتفرق الأهواء لانتشر النظام، وهلك العظام، وتوثبت الطغام والعوام، وتحزبت الآراء المتناقضة، وتفرقت الإرادات المتعارضة، وملك الأرذلون سراة الناس، وفضت المجامع، واتسع الخرق على الراقع، وفشت الخصومات، واستحوذ على أهل الدين ذوو العرامات، وتبددت الجماعات، ولا حاجة إلى الإطناب بعد حصول البيان، وما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن!! فإذا تقرر وجوب نصب الإمام، فالذي صار إليه جماهير الأئمة أن وجوب النصب مستفاد من الشرع المنقول، غير متلقى من قضايا العقول"⁶³³

وهكذا أوردنا ثلّة من الأدلة شاهدة بمنطوقها ومفهومها بحق على أنّه (لا عمران إلا بسلطان)؛ فكانت قاعدة عمرانية لها قوّتها الحجاجية ومنزلتها الحضارية؛ ولمزيد من التأكيد على دورها العمراني الكبير كان لابد من الحديث عن المجالات العمرانية التي تبسط هذه القاعدة أجنحتها عليها من أجل إقلاع حضاري يُعيد للأمة مكانتها الشهودية على العالمين!!

⁶³³ ن: "الغياثي" لإمام الحرمين، مصدر سابق، (1/ 23 . 24)

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال المطلب الأول تعرفنا على مفهوم القاعدة ودلالاتها فتوصلنا إلى أنه لا يمكن للعمران أن يحصل دون وجود السلطان، حيث يعتبر هذا الأخير شرطا أساسا لقيام العمران؛ وقد قدّمنا الأدلة على ذلك في المطلب الثاني ممّا أكسب القاعدة قوّة حجاجية يطمئن إليها الجنان وتنقاد لها الأركان!!

ولا شك أنّ ذلك يدل على أهمية القاعدة ومركزيتها الحضارية، ولإيضاح ذلك أكثر نخصص هذا المطلب للحديث عن أهمّ المجالات التي يمكن توظيف القاعدة فيها عمرانيا وحضاريا.

وقد مرّ بنا في موضع سابق⁶³⁴ أن بيّنا أن الخلافة أو الإمامة في الاصطلاح الإسلامي تعني القيادة الإسلامية؛ فهي رئاسة تامة، وزعامة عامة، وخلافة للنسبة لحراسة الدين وإقامته، وحفظ الحوزة، وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السماوات والأرض، ورفع الظلم، والقضاء في الخصومات، وسياسة الرعية ورعاية شئونها، والقيام على مصالحها، وإظهار شرائع الدين، ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم، ومراعاة الفقراء والمساكين، وسياسة الدنيا بتطبيق الشريعة، وإقامة حدودها، والائتمار بأوامرها والانتهاز عن نواهيها، والتزام أحكامها، وتطبيق أنظمتها في الحكم والقضاء والإدارة، والاقتصاد، والتعليم والاجتماع، والإعلام والعقوبات وسائر المجالات العمرانية..

وهو ما قاله الجويني: "رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا؛ مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف،

⁶³⁴ . ورد ذلك في المسألة الأولى من المطلب 3، في المبحث 2؛ من الفصل الثاني في الباب الأول

وكف الخيف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفائها على المستحقين.⁶³⁵ ويقول ابن خلدون: "وإذ قد بينّا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة، في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة أو إمامة، والقائم به خليفة أو إمام"⁶³⁶

ولقد تحدّث العلماء قديما عن مهام الإمام أشرنا إلى بعض كلامهم في إحدى المسائل من الباب السابق⁶³⁷

واعتمادا على ذلك يتبيّن أنّ قاعدة (لا عمرانَ إلا بالسلطان) التي بين أيدينا تؤطّر مجالات عمرانية كثيرة يمكن حصرها فيما يلي:

• المجال الديني:

فقد سبق أنّ الدين وما يتعلّق به من أمور هو روح العمران ونخاعه؛ أو إن شئت فهو العمران الروحي كما سميناه من قبل؛ والسلطان أو الإمام هو حامي حمى الملة والدين، أو بتعبير الماوردي والتهانوي وابن خلدون وغيرهم هو القائم ب: "حراسة الدين وسياسة الدنيا"⁶³⁸

ولا يمكن لعمران الدين، أو دين العمران، أو العمران الروحي، أن تقوم له قائمة إذا لم يرعه السلطان، ورعاية السلطان له تختلف باختلاف مجالات الدين المتعددة، فهناك

⁶³⁵ ن: "الغيائي" الجويني؛ مصدر سابق (22/1)

⁶³⁶ ن: "مقدمة ابن خلدون" (191/1)

⁶³⁷ ذكرت ذلك في المسألة الرابعة بعنوان: "مكانة الإمام ومهامه العمرانية" من المطلب 3؛ في المبحث 2؛ من الفصل 2؛ في الباب الأول.

⁶³⁸ ن: "الأحكام السلطانية" للماوردي (15/1)؛ و"كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي (92 / 1)؛ و"المقدمة" لابن خلدون (191 / 1)

أصول الدين، وهناك فروعه، وهناك ما يظهر في صورة جماعية أو ما بعكس ذلك؛ وهناك ما يتعلق بالمؤمنين، وما يتعلق بغيرهم، إلى آخر تلك الأنواع والتفريعات؛ وقد فصل فيها الإمام الجويني في كتابه الماتع "الغياثي"، يقول: "فأما نظره - أي السلطان - في الدين، فينقسم إلى النظر في أصل الدين، وإلى النظر في فروعه" ⁶³⁹

ثم قال: "فأما القول في أصل الدين فينقسم إلى: حفظ الدين بأقصى الوسع على المؤمنين، ودفع شبهات الزائعين (...). وإلى دعاء الجاحدين والكافرين، إلى التزام الحق المبين." ⁶⁴⁰.

فذكر ما يتعلق بالقسم الأول ويندرج فيه المؤمنون الثابتون على دينهم دون التباسهم ببدعة أو ضلالة؛ وكذا المؤمنون الذين تلبسوا ببدعة أو غيرها؛

فأما إن تعلّق الأمر بالصنف الأول فقال فيه: "إن صفا الدين عن الكدر والأقذاء، وانتفض عن شوائب البدع والأهواء، كان حقا على الإمام أن يرعاهم بنفسه ورقبائه، بالأعين الكائلة، فيرقبهم بذاته وأمنائه بالآذان الواعية، ويشارفهم مشارفة الضنين ذخائره، ويصونهم عن نواجم الأهواء، وهواجم الآراء، فإن منع المبادي أهون من قطع التماذي" ⁶⁴¹.

أما إن تعلّق الأمر بالزائعين المبتدعين فإنّ واجب الإمام تجاههم حدّده بقوله: "إن كان ما انتحله ذلك الزائع النابغ ردة استتابه - أي الإمام؛ فإن أبي واستقر وأصر، تقدم بضرب رقبتة" ⁶⁴².؛ هذا طبعا إذا كانت بدعته مكفّرة؛ أما إن لم تكن كذلك فلا يُقتل،

⁶³⁹ ن: "الغياثي" للجويني، مصدر سابق (183/1)

⁶⁴⁰ ن: المصدر السابق (184/1)

⁶⁴¹ ن: المصدر السابق (184/1)

⁶⁴² ن: المصدر السابق، بتصرف (184/1 185)

وإنما يعزّر كما هو معلوم في كتب الفقه؛ وكل هذا الذي ذكره إمام الحرمين هو من باب حراسة حوزة الدين من الخائضين والمعتدين حتى لا يظلّ الدين ألعوبة، وهو ما نشاهده اليوم في البلاد الإسلامية فمن قائل أنه تنصّر ومن قائل أنه أصبح ملحدًا وآخر تشييع، إلى آخر المذاهب والنحل، كل ذلك تحت مظلة الحرية وحقوق الإنسان الكاذبة وغير ذلك من الكلام - ليس محلّ تفصيله هنا - وهو في الحقيقة: "حق أريد به باطل"

ثم انتقل - رحمه الله - إلى القسم الثاني فقال: "والقسم الثاني في أصل الدين: السعي في دعاء الكافرين إليه فأقول: قد أيد الله عزت قدرته الدين بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، وحفه بالقوة والعدة والشوكة والنجدة، والإمام القوام على أهل الإسلام مأمور باستعمال منهاج الحجاج في أحسن الجدال، فإن نجح، وإلا ترقى إلى أعمال الأبطال المصطلين بنار القتال، فللدعاء إلى الدين الحق مسلكان: أحدهما الحجة وإيضاح المحجة. والثاني الاقتهار بغرار السيوف، وإيراد الجاحدين الجاهدين مناهل الخوف"⁶⁴³؛ والقصد هنا أنّ السلطان يجب عليه أن يحرس الدين من أعدائه بالحجة والبيان، وعلى رأس ذلك القرآن الكريم، كما قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾⁶⁴⁴؛ أي جاهدكم بحجج القرآن وبراهينه، فذلك كفيل بهداية المنصفين إلى رب العالمين!! أو بالسيف إذا كانوا من المعتدين الذين حاربوا دين رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَفَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾⁶⁴⁵.

ثم انتقل - لله درّه - إلى رعاية الإمام أو السلطان لفروع الدين فقال: "فأما القول في

⁶⁴³ ن: المصدر السابق، بتصرف (1/ 195 196)

⁶⁴⁴ الفرقان: 52

⁶⁴⁵ البقرة: 189

ذكر تفاصيل نظر الإمام في فروع الدين فهذا مما يتسع فيه الكلام، وتكثر الأقسام⁶⁴⁶ ثم تحدث عن فروع الدين من العبادات التي تحتاج إلى رعاية السلطان ونظره، وبيّن أقسامها بقوله: " ما كان منها شعارا ظاهرا في الإسلام، تعلق به نظر الإمام؛ وذلك ينقسم إلى: ما يرتبط باجتماع عدد كبير، وجم غفير، كالجمع والأعياد ومجامع الحجيج؛ ما لا يتعلق باجتماع، كالأذان وعقد الجماعات فيما عدا الجمعة من الصلوات"⁶⁴⁷.

ثم بدأ ببيان القسم الأول فقال: "فأما ما يتعلق بشهود جمع كبير، فلا ينبغي للإمام أن يغفل عنه، فإن الناس إذا كثروا عظم الزحام، وجمع المجمع أخيفا، وألف أصنافا، خيف في مزدحم القوم أمور محذورة.

فإذا كان منهم ذو نجدة وبأس، يكف عادية إن هم بها معتدون كان الجمع محروسا، ودرأت هيئة الوالي ظنونا وحدوسا، ولذلك أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد فتح مكة أبا بكر - رضي الله عنه - على الحجيج، ثم استمرت تلك السنة في كل سنة، فلم يخل حج عن إمام، أو مستناب من جهة إمام، ولذلك صدر الخلفاء مياسير الأمراء، وذوي الألوية بإقامة الجمع، فإنها تجمع الجماعات، وهي إن لم تصن عرضة الفتن والآفات - وختم هذه المسألة بقوله: - هذا وجه نظر الإمام في الشعار الذي يجمع جمعا كثيرا"⁶⁴⁸.

ثم انتقل إلى القسم الثاني من الشعائر الظاهرة فقال فيها: "فأما الشعار الظاهر الذي

⁶⁴⁶ ن: " الغياثي " للجويني، مصدر سابق (197/1)

⁶⁴⁷ ن: المصدر السابق، بتصرف (199-198/1)

⁶⁴⁸ ن: المصدر السابق، بتصرف (200 - 199/1)

لا يتضمن اجتماع جماعات، فهو كالأذان وإقامة الجماعات في سائر الصلوات، فإن عطل أهل ناحية الأذان والجماعات، تعرض لهم الإمام، وحملهم على إقامة الشعار، فإن أبوا ففي العلماء من يسوغ للسلطان أن يحملهم عليه بالسيف، ومنهم من لم يجوز ذلك، والمسألة مجتهد فيها، وتفصيلها موكول إلى الفقهاء⁶⁴⁹

ثم انتقل إلى العبادات غير الظاهرة أي التي تتعلق بالأفراد في تدينهم فقال: "فأما ما لم يكن شعارا ظاهرا من العبادات البدنية، فلا يظهر تطرق الإمام إليه إلا أن ترفع إليه واقعة فيرى فيها رأيه"⁶⁵⁰

ثم ختم بملخصه فقال: "فهذا مجموع القول فيما يتعلق بالأئمة من أصل الدين وفروعه"⁶⁵¹.

إذن نلاحظ من خلال كلام الإمام الجويني أن الدين بأصوله وفروعه يحتاج لرعاية السلطان وحمايته حتى تُحفظ بيضته وتُساج حدوده، ولا يتناول عليه الأقسام أو يَسْرَح في جَنَانِهِ الأغنام!! وهو ما تقرّره القاعدة العمرانية التي نحن بصدددها (لا عمران إلا بسلطان)؛ وقد سبق أنّ الدين جزء لا يتجزأ عن العمران؛ إذ هو روح العمران ودمه الذي يجري في عروقه!!

• المجال الديني:

وهذا المجال أرحب وأوسع فهو قسيم المجال الأول؛ وقد سبق أنّ السلطان أو الإمام

⁶⁴⁹ . ن: نفس المصدر، (1/ 200)

⁶⁵⁰ . ن: نفس المصدر، بتصرف (1/ 200)

⁶⁵¹ . ن: نفس المصدر، (1/ 200)

مسؤول عن حراسة الدين وسياسة الدنيا؛ بل أقول إنّ مسؤولية السلطان في رعاية شؤون الدنيا وسياستها هي أصعب وأشد؛ لأن الدين أصوله على الأقل ثابتة وإنما هي في حاجة إلى حفظ ورعاية، أمّا أمور الدنيا فهي جد متطورة وسريعة التغير، ولذلك تحتاج إلى اجتهاد وتجديد؛ ولا أعني بذلك أنّ الدين لا يحتاج للتجديد كلا كلا!! وإنما أقصد أنّ الغالب على الدين هو الثبات لثبات أصوله، وإنما الذي يتغير فيه فروعُه، بل إنّ المتغير فيه جلّه وأغلبه يتعلق بتغير أحوال الدنيا من الزمان والمكان والأحوال، وهذا معلوم لدى أهل الاختصاص، وهو ما يسمّى عندهم بمتغيرات الفتوى⁶⁵²؛ أما الدنيا فهي متغيرة الأحوال والأحداث والزمان والمكان وخاصة في عصرنا هذا، عصر الطفرات الصناعية والبيولوجية والبيئية والمواصلات، حتى غدا العالم قرية صغيرة كما يقال!

كل ذلك كان سببا في أن أمور المعاش تحتاج إلى سياسة حكيمة ورؤية سليمة، يحمل علمها السلطان بمساعدة أعوانه ووزرائه وغيرهم من العلماء؛ وهذا أمر ضروري كما قال الإمام الغزالي: "السلطان ضروري في نظام الدنيا، ونظام الدنيا ضروري في نظام الدين، ونظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة، وهو مقصود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلى تركه فاعلم ذلك".⁶⁵³

والحديث عن مهام السلطان - أو الإمام - في المجال الديني يصعب حصره في هذه السطور إذ هو يحتاج إلى مؤلف خاص به؛ نظرا لكثرة المجالات الدنيوية وخاصة في زماننا هذا؛ إضافة إلى أنه يصعب الفصل بين ما هو دنيوي ممّا هو ديني لتداخل المجالين

⁶⁵² من أروع الكتب التي ألفت في عصرنا واطّلت عليها أكثر من مرة، كتاب للشيخ د يوسف القرضاوي "موجبات تغير الفتوى في عصرنا"؛ دار الشروق، ط: 2؛ سنة 2009م

⁶⁵³ ن: "الاقتصاد في الاعتقاد" للغزالي، مصدر سابق (1/ 128)

وترابطهما، وهذا معلوم في شريعة الإسلام بخلاف بعض النظريات الأيديولوجية، بل سبق أن بيّنا في أكثر من مناسبة⁶⁵⁴ أنّ الأمور الدنيوية تُعتبر ديناً في المنظور الإسلامي إذا توفّر القصد الربّاني والهدف المصلحي!

وقد تحدث العلماء قديماً عن مهام السلطان في مجالات الدنيا المختلفة؛ وخاصة الذين ألفوا في مجال السياسة الشرعية؛ على رأسهم الإمام الماوردي الذي ألف عدة كتب في هذا المجال؛ وكذا الإمام الجويني الذي حصر نظر الإمام ومهمّته المتعلقة بأمر الدنيا في ركيزتين أساسيتين عبّر عنهما بقوله: "فالتقسيم الأولي الكلي طلب ما لم يحصل، وحفظ ما حصل"⁶⁵⁵؛ وهذا مهم جداً للحفاظ على عمران الدولة وسيادتها؛ فلا يكتفي السلطان بحفظ ما هو مكتسب فحسب، بل يتشوف إلى ما يعود على دولته ورعيته بالأفضل والأحسن والأكمل، بله أن يُفَرِّط في ما هو مكتسب وحاصل!! ثم ربط الإمام الجويني (حفظ ما حصل) بالجانب الأمني للدولة داخليا وخارجيا، وذلك قوله: "والقول في حفظ ما حصل ينقسم إلى حفظه عن الكفار، وإلى حفظ أهله عن التواثب والتغالب، والتقاطع والتدابير والتواصل" وهذا مهم جداً لحفظ حوزة الدولة، وخاصة في زمن العولمة الذي نعيشه حيث كسّرت الدول الرأسمالية المتوحشة عن أنيابها لأكل كلِّ دولة ضعيفة ولو بعد حين! وما يحصل لبعض الدول الإسلامية من إذلال وتخريب من لدن الغرب أو الشرق لأقوى شاهد على ذلك!!

وأناطَ إمام الحرمين (طلب ما لم يحصل) بالدعوة وقسمها إلى قسمين:

دعوة الحجة والبرهان حيث قال: "الدعوة المقرونة بالأدلة والبراهين، والمقصد منها

⁶⁵⁴ ورد ذلك في مواطنٍ عديدةٍ من الباب الأول من هذه الأطروحة؛ أنظر مثلاً المطلب 2، و3، من

المبحث الأول في الفصل 2

⁶⁵⁵ ن: "الغياثي" للجويني، مصدر سابق (1/ 201)

إزالة الشبهات، وإيضاح البيّنات، والدعاء إلى الحق بأوضح الدلالات⁶⁵⁶

ودعوة القهر والقوة، بقوله: "الدعوة القهرية المؤيدة بالسيف المسلول على المارقين الذين أبوا واستكبروا بعد وضوح الحق المبين"⁶⁵⁷، وأظنّ أنّ هذا خاص بالمعتدين كما هو معلوم من أصول ومقاصد الدعوة الإسلامية.

وللإمام الماوردي تقعيد في منتهى النفاسة يمكن إرجاع كل مصالح الدنيا المتعلقة بعمرانها إليه؛ حيث اعتبر أنّ سياسة الدنيا تقوم على أربع قواعد حدّدها بقوله: "وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره فتشتمل على أربع قواعد وهي: 1) عمارة البلدان، 2) وحراسة الرعية، 3) وتدريب الجند، 4) وتقدير الأموال"⁶⁵⁸ ومن تأمل هذه القواعد وجدها ذا أهمية كبرى في إقامة العمران وإنشاء الحضارة.

وقد فصل الإمام الماوردي في هذه القواعد وتحدّث عنها بطريقة شافية وكافية لا يتسع المقام للتعريج عليها كلّها؛ وتحدّث في كتاب آخر وهو: (درر السلوك في سياسة الملوك)؛ عن بعض الجوانب الأخرى التي لها دور كبير في رعاية العمران زيادة على هذه القواعد التي ذكرها؛ وعلى رأسها العدل الذي يمكن أن نعتبره قاعدة خامسة مضافة إلى تلك القواعد؛ وقد سبق أن اعتبرناه شرطاً أساسياً عند الحديث عن شروط العمران في الباب الأول⁶⁵⁹؛ كما زاد مسألة ثانية تتعلّق بالاهتمام بالعلم والعلماء، وهذا الأمر من الأهمية

⁶⁵⁶ ن: "الغياثي" مصدر سابق (1/ 207)

⁶⁵⁷ ن: المصدر نفسه (1/ 207)

⁶⁵⁸ ن: "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك" للماوردي؛ المحقق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي؛ الناشر: دار النهضة العربية - بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ (1/ 158)

⁶⁵⁹ ورد ذلك في المطلب 2، من المبحث 2، في الفصل الثاني من الباب الأول.

بمكان في عملية الإقلاع العمراني والتّرقّي الحضاري، وقد اعتبرت في الباب الأول⁶⁶⁰ من هذا البحث العلم والتّعلّم على رأس وسائل العمران التي تمثّل ذرائع يتمّ عبر سلوكها تحقيق العمارة المنشودة والحضارة المحمودة

وقد أشار إلى العدل في مسألة سمّاها: (الاهتمام بأمن السبل والمسالك)، قال فيها: "ويهتم كل الاهتمام بأمن سبلهم ومسالكهم وتهذيب طرقهم ومفاوزهم من أهل الزعارة والمفسدين لينتشر النَّاسُ في متاجرهم آمِنين فكثُر جلبهم وتخصبت بلادهم ويكون نفع جميعهم عامًا ودخل موادهم جَامًا فيصير رفق السُّلْطَانِ بذلك أعظم من رفق رعيته وعقباه أنفع في مملكته

وَيَنْبَغِي أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَفْسِهِ فِي الْحَقِّ لَهُمْ وَعَلَيْهِ وَلَا يَقْدَمُ فِيهِ شَرِيفًا عَلَى مَشْرُوفٍ وَلَا قَوِيًّا عَلَى ضَعِيفٍ بَلْ يَعْدِلُ بَيْنَ جَمِيعِهِمْ فِي الْقَضَاءِ وَيَجْرِي الْحُكْمَ عَلَى الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ بِالسَّوَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْسَمُ لِمَوَادِ الظُّلْمَةِ وَأَقْطَعُ لَشَرِّهِ الْعُلْبَةِ؛ وَقَدْ قِيلَ مِنْ جَارَتْ قَضِيَّتُهُ ضَاعَتْ رَعِيَّتُهُ (...) وَيَتَعَهَّدُ حَالَةَ الْفَقِيرِ بَيْنَهُمْ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَةِ وَيُرَاعِي خَلَةَ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ بِالزُّورِ وَالصَّلَةِ فَإِنْ إِحْسَانَهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ يَشْكُرُهُ عَلَيْهِ الْأَغْنِيَاءُ؛ وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحُكْمِ بِالرَّاعِي تَصْلَحُ الرِّعْيَةُ وَبِالْعَدْلِ تَمْلِكُ الْبَرِّيَّةُ"⁶⁶¹

وأشار إلى القضية الأخرى وهي من الأولوية بمكان، وهي: "رعاية العلم ومراعاة العلماء: فَأَمَّا الْعِلْمُ فَيَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَهُ وَيَسْتَبْطِنَ أَهْلَهُ لِيَكُونَ بِالْعِلْمِ مُوسُومًا وَإِلَيْهِ مَنْسُوبًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَوْسُومٌ بِسَيِّمٍ مِنْ قَارِبِهِ وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ أَفَاعِيلٌ مِنْ صَاحِبِهِ وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ)، وَقَالَ (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ

⁶⁶⁰ ورد ذلك في المطلب 1 بعنوان: (وسيلة العلم)، من المبحث 2، في الفصل الثالث من الباب الأول، من هذه الأطروحة.

⁶⁶¹ ن: "درر السلوك في سياسة الملوك" للماوردي؛ المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن - الرياض؛ دون سنة الطبع؛ بتصرف، (1/ 114 / 118)

أحب) 662

تلك طائفة ممّا يقوم به وعليه السلطان في المجالات الحياتية، من أجل إنشاء حضارة مشهودة وعمارة محمودة!

خلاصة واستنتاج:

وخلاصة القول: أن مهام السلطان سواء في المجال الديني أو الدنيوي متشعبة وكثيرة يصعب استقصاؤها وجردّها، لكن يمكن تلخيصها في كلمة موجزة وهي أنّ السلطان مسؤول عن جلب مصالح البلاد والعباد ودرء المفاسد عنهم في المعاش والمعاد؛ وأنه لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بوجود السلطان؛ ولذلك تحقّق أنّه: (لا عمران إلا بسلطان) فتأمل!!

وأخيرا وليس آخرا نقول إن هذه القاعدة العمرانية لها سلطتها الضابطة لمختلف مجالات عمران الإنسان، لذا وجب استثمارها والأخذ بها وتوظيف مقتضياتها؛ وخاصة في هذا العصر العصيب الذي نرى فيه العالم يعاني من اضطرابات سياسية ربما لم يسبق أن مرّ بمثلها؛ وهو ما يتطلّب منا جعل هذه القاعدة العمرانية ومثيلائها منهجا استشرافيا لعمران الأمة حتى تستعيد عافيتها من هذه المعاناة المؤلمة، وتسترد ريادتها العمرانية وقيادتها الحضارية!!

ذلك ما سنعرّج عليه في ثنايا المطلب الآتي علّنا نستطيع أن نرسم آفاقا مشرقة تضيء المسار الحضاري للأمة وتحدّد بعض معالمها العمرانية!

662 . نفس المصدر، بتصرف، (1/ 119)

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

إن التأمل في هذه القاعدة العمرانية التي نحن بصدددها، بعد تحديد مفهومها واستحضار دلالاتها ومجالاتها بما بيّنت آنفاً، يجعلنا نؤمن أنّ استثمارها وتفعيل مقتضياتها في مجالات العمران المختلفة يُنتج مستقبلاً عمرانياً ناجحاً تصلح به البلاد ويسعد به العباد؛ إذ "أن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، ونظام الدنيا لا يحصل إلا بإمام مطاع"⁶⁶³

لقد سبق أن بيّنا من خلال مدلول هذه القاعدة في المطلب الأول أنه لا عمران إلا بوجود السلطان، وأن هذا الأخير تجب على الرعية طاعته في غير معصية الله عز وجل، وأنّ الأمة أي أمة بقدر ما يكون سلطانها أقوى يكون عمرانها أكمل والعكس صحيح، أن السلطان إذا كان ضعيفاً كانت الدولة ضعيفة أيضاً، بله إذا فقد السلطان فلا دولة ولا عمران!

وكل أمة تحتاج إلى قائد تلتف حوله وتجاهد تحت رايته، يحمي حوزتها، ويدافع عن حقوقها ومكتسباتها، ويقىم فيها شعائر دينها، ويحفظ ضرورياتها، ويقمع عنها أهل الشر والفساد والطغيان؛ حتى لا تتفرق كلمتها، وتذهب ريحها، وينقلب عزها ذلاً، ويطمع فيها الأعداء، وتكثر فيها الفتن والأهواء! ومن ثمّ كان اتخاذ السلطان له من الآثار الاستشرافية الحميدة على عمران الأمة؛ وهو ما ذكر بعضه الإمام الماوردي - لله درّه - في بيان شافٍ وكافٍ حينما تحدّث عمّا تنصلح به الدنيا - أي ما يقوم به عمران الناس و تبني عليه حضارتهم؛ يقول رحمه الله : " وأما القاعدة الثانية: فهي سلطان قاهر تتألف من رهبة الأهواء المختلفة، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة، وتكفّ بسطوته

⁶⁶³ ن: "الاقتصاد في الاعتقاد"؛ للغزالي، مصدر سابق، (1/ 127).

الأيدي المتغلبة، وتمتنع من خوفه النفوس العادية - أي الباغية - ؛ لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه إلا بمنايع قوي، ورادع ملي؛ وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

(...) وروي عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن) (..) فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها؛ ثم لما في السلطان من حراسة الدين والدنيا والذبّ عنهما ودفع الأهواء منه، وحراسة التبديل فيه، وزجر من شذ عنه بارتداد، أو بغى فيه بعناد، أو سعى فيه بفساد؛ وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية، أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء، وتحريف ذوي الآراء، فليس دين زال سلطانه إلا بُدلت أحكامه، وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر فيه وهاية أثر⁶⁶⁴؛ سبحان الله!! إن سنن الله ونواميسه في خلقه وعمرانهم لا تتخلف ولا تختلف ولا تحابي أحدا من الخلق بحال!! كأنما يصف حال بعض الدول العربية في وقتنا الراهن بعد سقوط حكامها أو ضعفهم على الأقل، كسوريا والعراق وليبيا واليمن، وما وقع فيها من سفك للدماء، وهتك لأعراض النساء، وتخریب للأرض والبناء، وتسلب للخونة والأعداء!!

وأشار الشيخ رشيد رضا أيضا إلى بعض فوائد السلطنة والخلافة فقال: "الخِلافة مناط الوحدة، ومصدر الاشتراع، وسلك النظام، وكفالة تنفيذ الأحكام، وأركانها أهل الحل

⁶⁶⁴ ن: "أدب الدنيا والدين" مصدر سابق، بتصرف (1/ 134؛ 135)

وَالْعَقْدُ رِجَالُ الشُّورَى، وَرَأْسُهُمُ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ⁶⁶⁵

ويمكن أن نختصر هذه الآثار الاستشرافية فيما يلي:

1. إنّ اتخاذ السلطان وطاعته يساهم بشكل كبير في تحقيق مصالح الأمة الدينية والدنيوية، وحفظ ضرورياتها، وانتظام أمورها وشؤونها، والدفاع عن حقوقها، وقمع أهل البغي والفساد عنها، وسد ذرائع الفتن والأهواء عنها وتسلط الأعداء عليها.
2. إنّ ذلك يحمل الرعية على موجب الشرع في عباداتهم ومعاملاتهم، وإقامة حدود الله تعالى وحقوقه فيهم.
3. الالتزام بالنظم والقوانين، والحفاظ عليها، وهي من المصالح المرسلّة لولي الأمر؛ لذا أوجب الله عزّ وجلّ طاعته في المعروف، وهيبته هيبة للمجتمع وازدهار للعمران؛ والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن!
4. بالسلطان تقام الحقوق ويسود العدل ويتجنّب الناس الفوضى والعدوان الذي يُسبّبُه فقدان السلطان أو ضعفه، كما نرى في بعض البلدان التي سقط فيها الحاكم، أو تدهور حكمه، فصار الناس يقتل بعضهم بعضا على أتفه الأسباب!
5. إنّ في طاعة السلطان تماسكا وتلاحما، بين الراعي والرعية، وإظهارا للدولة بمظهر القوة والعزة والغلبة والرهبة أمام الأعداء.
6. إنّ في الطاعة كبحا لجماح النفس وهواها، وردّها عن غيها، وشهواتها وشبهاتها الباطلة والمنحرفة، التي قد تدفع إلى الخروج والعصيان، والتمرد على الأئمة والولادة والحكام.

⁶⁶⁵ ن: " الخلافة" لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الزهراء للإعلام العربي مصر، القاهرة، دون طبعة أو تاريخ، ص

7. إن في الطاعة تربية للنفس، وترويضاً لها على الانقياد والامتثال، لكافة أوامر الشارع، والانتهاز عن نواهيه.

8. بحفظ السلطان تحفظ وحدة المجتمع وتآلف أفرادها مما ينتج عمراناً قوياً وحضارة مزدهرة؛ إذ "الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعفٌ وخراب"!!⁶⁶⁶

استنتاج:

هذه لمحة موجزة حاولت أن أعرج فيها على بعض الفوائد المستقبلية المرتبطة بعمران الإنسان وحضارته، والتي يمكن تحقيقها عن طريق توظيف هذه القاعدة العمرانية توظيفاً مبنياً على قواعده وأصوله مع مراعاة شروطه وأسبابه التي تحدث عنها العلماء في كتب السياسة الشرعية، وقد تمت الإشارة إلى بعضها بقدر ما سمح به المقام!

وفي مسك الختام نقول: إنّ هذه القاعدة العمرانية (لا عمرانَ إلا بسلطان) تمثل طاقة استشرافية لعمران الإنسان إن أحسنَ توظيفها، وتمّ تنزيلها وفقّ مناطقها الخاصة والعامة، كل نفس في نفسها، وكل مجتمع في مجموعته، وهو ما يتطلب تكثيف الجهود على كل الأصعدة حتى نَعْبُرَ إلى برِّ الأمان، فيتحقق العمران ويسعد الإنسان، بفضل الرحيم الرحمان؛ ذلك ما كان، والله المستعان!!

⁶⁶⁶ هذه قاعدة عمرانية من الأهمية بمكان، في علاقتها بالسياسة والعمران؛ سأخصص لها الحديث في

المبحث القادم بإذن الله تعالى وهو في الصفحة الموالية.

المبحث الثاني: قاعدة (الوحدة والاجتماع قوة للعمران والفرقة ضعف وخراب)

هذه قاعدة عمرانية جعلتها ثمانية اثنتين في هذا الفصل، تندرج ضمن قواعد السياسة الشرعية، ولها ارتباط وثيق بعلم المقاصد أيضا، وهي قاعدة مكّلة للقاعدة السابقة، حيث تعتبر ثمرة لها ومن لوازمها، إذ أنّ وجود السلطان بالشروط والمواصفات التي سبقت الإشارة إليها - في الباب السابق - ⁶⁶⁷ يسنّهم بشكل كبير في اجتماع كلمة الرعية وتوحيد صفّها؛ وهو ما يُعطي قوةً للمجتمع والدولة والعمران، ويُجنّبها ويلات الفرقة والشتات الذي يُفضي في آخر المطاف إلى خراب العمران وبيابه!! ومن هذا المنظور تصبح الوحدة هي الخطوة الأهم في عملية الإصلاح السياسي العمراني، لأنها أهم عوامل بناء المجتمعات والدول والحضارات، لأن مشاريع النهوض الحضاري العمراني وليدة مجتمع متماسك موحد، وليست وليدة أفراد متنازعون مشتّتون؛ ولذلك كانت هذه القاعدة في إطارها السياسي والعمراني من أبرز القواعد وأهمّها تنظيرا وتطبيقا.

ذلك ما تُوجّيه صياغة هذه القاعدة العمرانية بدياجتها التي تمّت عبر استقرائي لأي القرآن العظيم، وتوجيهات النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وكذا ما ورد من درر الكلام لعلمائنا وساداتنا رضي الله عنهم.

ولدراسة هذه القاعدة العمرانية واستخلاص فوائدها ودررها الحضارية جرت العادة أن نطرق أبوابها بمجموعة من التساؤلات المبلورة كما يلي:

ما مفهوم هذه القاعدة؟ وما أدلّتها؟ وأين تتجلى أهميتها ومجالاتها العمرانية؟ وما

⁶⁶⁷ ن: المسألة الخامسة بعنوان: "المواصفات التي ينبغي توافرها في الإمام" من المطلب 3؛ في المبحث 2؛ من الفصل 2؛ الباب الأول.

آثارها الاستشرافية في عمران الأمة؟

تلك أسئلة أربعة، لا بد من السباحة في أمواجها والغوص في لججها لاصطياد ثمارها ونتائجها، من أجل تفعيلها واستثمارها، استشرافا لنتائجها العمرانية والحضارية!!
وتحقيقا لذلك: وكعادتنا نورد المطالب التي نناقش في ضوئها القاعدة العمرانية، وهي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحجتها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

إذا دققنا النظر في هذه القاعدة العمرانية (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب)، نجدها تتكوّن من مصطلحات وأضدادها، ومن ثمّ يمكن تقسيمها إلى شطرين متضادين، الأول يتكون من الألفاظ الآتية: (الوحدة، الاجتماع، قوة، العمران)، والشرط الثاني يتكون من أضداد ألفاظ الأول: (الفرقة، ضعف، خراب)، هذا من جهة أولى.

ومن جهة ثانية نجد أنّ القاعدة تكونت من مقدّمتين ونتيجتين؛ فالمقدمة الأولى: الوحدة والاجتماع ونتيجتها قوة للعمران؛ والمقدّمة الثانية - وهي عكس المقدمة الأولى - وهي: الفرقة ونتيجتها ضعف وخراب - وهي عكس النتيجة الأولى - فتأمل!

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى مفردات القاعدة وجدنا منها ما سبق تعريفه كالعمران، والخراب الذي هو ضده؛ أما المفردات الجديدة فهي الوحدة، والجماعة، والقوة، والضعف؛ وهاته الأخيرة هي التي سنتناول بالبيان والتعريف، لنستنتج المفهوم العام للقاعدة، لأن معرفة الكل تتوقف على معرفة أجزائه - كما نكرّر دائماً -

أولاً: تعريف الوحدة

المعنى اللغوي:

ترجع لفظة (الوحدة) في معاجم العربية إلى الجذر الثلاثي (وحد)، والناظر في تلك المعاجم يجد أن مادة (و ح د) لها عدة معانٍ؛ قال ابن فارس: "الواو والحاء والذال أصلٌ واحد يدل على الانفراد، ومن ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم

مثله، والواحد: المنفرد"⁶⁶⁸

وفي عند ابن منظور: "الواحد بني على انقطاع النظير وعوز المثل، والوحيد بني على الوحدة والانفراد عن الأصحاب من طريق بينونته عنهم، والعرب تقول: أنتم حي واحد، والوحدة: الانفراد؛ يقال: رأيت وحده، وجلس وحده (...) وحكى سبويه: الوحدة في معنى التّوحد"⁶⁶⁹

المعنى الاصطلاحي:

الوحدة: "هي اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات في سائر أمور حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئاً واحداً، أو أمةً واحدةً، يقال: اتحد البلدان، أي: صارا بلدًا واحدًا"⁶⁷⁰، حتى يصيروا كالبناء الواحد وهو مستفاد من المعنى اللغوي الذي حكاه سبويه بقوله: الوحدة في معنى التّوحد؛ ومنه ما يسمى اليوم بالاتحاد الأوربي، والولايات المتحدة الأمريكية، والإمارات المتحدة العربية..

ووحدة المجتمع هي: توحد أفرادهم جميعاً، واجتماعهم على أساس الدين الحق الذي أنزله الله عز وجل، بحيث تلغى بينهم جميع الروابط الأخرى، كالروابط العرقية والقومية وروابط اللغة، ويصبحون كالجسد الواحد يشد بعضه.

ثانياً: تعريف الاجتماع:

⁶⁶⁸ ن: "مقاييس اللغة"، مصدر سابق (90/6)

⁶⁶⁹ ن: "لسان العرب" لابن منظور؛ مرجع سابق، بتصرف، (15/165، وما بعدها)

⁶⁷⁰ ن: "وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية"، بحث مقدم للملتقى الأول للعلماء المسلمين في مكة المكرمة

المعنى اللغوي:

الاجتماع هو: "التتام الشيء، وضم بعضه إلى بعض، وهو خلاف التفريق"⁶⁷¹.

المعنى الاصطلاحي:

هو اجتماع الناس على مبادئ معيّنة، وعدم تفرقهم، واجتماع القلوب بائتلافها، وعدم تفرقها.

الصلة بين الاجتماع والوحدة في المنظور الإسلامي:

الاجتماع من صور وحدة الأمة الإسلامية، وهو مطلب عزيز، يتجلى مظاهره في أعظم الشعائر التعبدية؛ كالصلاة مع الجماعة، ومناسك الحج.

ثالثاً: تعريف القوةالمعنى اللغوي:

(قوي) القاف والواو والياء أصلان متباينان، يدل أحدهما على شدة وخلاف ضعف، والآخر على خلاف هذا وعلى قلة خير؛ فالأول القوة، والقوي: خلاف الضعيف؛ وأصل ذلك من القوى

والأصل الآخر: القواء: الأرض لا أهل بها؛ ويقال: أقوت الدار: خلت، وأقوى القوم: صاروا بالقواء والقي؛ ويقولون: بات فلان القواء وبات القفر، إذا بات على غير طعم"⁶⁷².

⁶⁷¹ ن: "مقاييس اللغة"، مصدر سابق، (1/ 479)، "لسان العرب"، لابن منظور، مرجع سابق، (53/8)

⁶⁷² ن: "مقاييس اللغة" لابن فارس؛ مصدر سابق؛ (5/ 3736)

والمقصود في هذه القاعدة التي بين أيدينا هو المعنى الأول.

المعنى الاصطلاحي:

القوة ضد الضعف، ولفظ القوة وضع لِمَا يُمكن الحيوان من فعل ما شق من العمل، ثم نقل إلى مبدئه، وتكون القوة في البدن كما في قوله تعالى على لسان عاد: { فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }، وتكون القوة في القلب، كما في قوله تعالى: { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا }، وقد تكون في المعاون من الخارج، كما في قوله تعالى: { قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ }، وفي بيان القدرة الإلهية كما في قوله تعالى: { ...إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } "673

"ويقال شخص قوي إذا كان ذا طاقة على العمل، والقوة عكس الضعف، ويقال ألعاب القوى، وقوة الإرادة وقوة البنية، وجمعها قوات، ومنها قوات الجيش بمعنى فيلق من فيالق الجيش "القوات البرية، والقوات البحرية"674..

رابعاً: تعريف الفرقة والضعف

بقي لدينا مصطلحا "الفرقة والضعف" ومعناها سواء اللغوي أو الاصطلاحي يستفاد من مصطلحي "الاجتماع والقوة"؛ إذ هما ضدان، وقد قيل بضدّها تتمايز الأشياء؛ وبالتالي فإننا نقول في ذلك:

- الفرقة هي ضد الوحدة والاجتماع لغة واصطلاحاً.

673 ن: "الكليات" لأبي البقاء الكفوي؛ مصدر سابق، بتصرف، ص 717 - 719

674 ن: "المعجم العربي الأساسي" جماعة من كبار العلماء؛ بدون طبعة؛ ص 1017 - 1018

- والضعف هو ضد والقوة لغة واصطلاحاً.

وبعد تعريفنا لمصطلحات القاعدة كل على حدة، ننتقل إلى التعريف المركب والعام للقاعدة؛ ونقول: إنَّ مَنْ تَأَمَّلَ هذه القاعدة العمرانية الكبرى ونظر فيها ليجدُها تترَكَّب من شطرين متقابلين؛ أولهما: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران)، هكذا في صورة قضية عملية، موضوعها الوحدة والاجتماع ومحمولها قوة للعمران، أو مبتدأها الوحدة وعطف عليه الاجتماع، وخبرها قوة الجار والمجرور متعلق بالخبر؛ فيكون معنى هذا الشرط من القاعدة أنَّ الوحدة والاجتماع باعتبارهما وصفا للمجتمع سببٌ لقوة العمران، وهذا هو منطوق هذه الجملة من القاعدة؛ ومفهومها أن عكس الوحدة والاجتماع يُنتج ضعفاً للعمران، وهو منطوق شرط القاعدة الثاني: (الفرقة ضعف وخراب)؛ فكان بذلك عجز القاعدة يؤكد صدرها؛ فتأمل !

وهذه القاعدة كما ذكرت في بداية هذا المبحث تعتبر مكملّة للقاعدة الأولى من هذا الفصل، وثمرتها لها، إذ أنَّ اجتماع الناس ووحدهم لا تتحقّق إلا بائتلافهم واجتماعهم على إمام وسلطان واحد، واجتماع كلمتهم، وأنّ التفرق والتحزب المقيت هلاك وخراب، فبالاجتماع تحصل الألفة والرحمة والمودة والقوة والبناء والعمران، وبالتفرقة يحصل النزاع والصراع ثم الضعف والهوان، ثم الدمار والخراب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْنَةً شَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁶⁷⁵؛ ولذلك حينما أراد النبي ﷺ أي يُشيد عمران دولته، كان من أهم الخطوات التي سلكها ﷺ أنه آخى بين المهاجرين والأنصار، وأمرهم بالسمع والطاعة له ﷺ ليس لكونه رسولا فحسب، بل لكونه أيضا قائد البلاد وسلطانها - إن صح التعبير - بعدما كانوا متناحرين متفرقين لا

⁶⁷⁵ الأنفال: 47.

يجمعهم شيء فلا سمع ولا طاعة، بل كانوا يعدون السمع و الطاعة مهانة ورذالة ومذلة!

والمقصود من ذلك كلّهُ أنّ (الوحدة والاجتماع) يُنتِجُ (قوةً للعمران)، وأنّ (الفرقة) تُثْمِرُ (ضعفاً وخراباً)؛ وهو مضمون قاعدتنا العمرانية: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب؛ أي للعمران) التي نحن بصدددها، والتي تشهد لها من الأدلة والبراهين الكثير والكثير، وهو ما سنخصص للحديث عنه المطلب الآتي:

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية

حينما نجول بفكرنا في ربوع هذه القاعدة العمرانية نجد لها أدلتها عبر آي القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً، منطوقاً ومفهوماً، وكذا السنة النبوية بأقوالها وأحداثها؛ وعلماء الاجتماع والسياسة مُقَرَّرُونَ بمضمونها؛ والتاريخ والواقع خير شاهد وأفصح دليل!

ولقد جرت العادة في هذه الأطروحة أن يكون البدء في سوق الأدلة بكتاب الله تعالى، فهو البرهان الساطع والنور اللامع، ليس له من دافع، وأول آية نستدل بها لهذه القاعدة هي قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾⁶⁷⁶

وقد تعمّدت البدء بهذه الآية الكريمة احتجاجاً للقاعدة العمرانية التي بين أيدينا، وإن كانت هناك آيات أُخر سابقة لها من حيث النزول تدل على هذه القاعدة أيضاً؛ إلا أن هذه الآية لها خصوصيتها لأنها تؤصّل لقيام الدولة الإسلامية وبناء عمرانها بقيادة النبي ﷺ، كما أنها تقرن بين طرفين مختلفين؛ أولهما قبل قيام الدولة الإسلامية حيث العداوة والتقاتل بين أفراد المجتمع اليَثْرِيّ الذي ستقام الدولة على أرضه؛ وقد دامت تلك الحرب الضروس مدة تربو على قرن من الزمن بين الأوس والخزرج حتى دمّرت الأخضر واليابس، وأهلك الحث والنسل؛ وثانيهما: بعد هجرة النبي الكريم ﷺ، وشروعه في تأسيس الدولة وإقامة حضارة الإسلام وعمرانه، فكانت الآية بمثابة وضع الأسس النظرية التي يقوم عليها عمران الإسلام وحضارته، وكان على رأس ذلك الأمر بالاعتصام بحبل الله تعالى الذي فسره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالطاعة

والجماعة؛ فقد روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية أنه قال: "يا أيها الناس، عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة، هو خيرٌ مما تستحبون في الفرقة"⁶⁷⁷.

كما أن الآية الكريمة حذّرت من الفرقة التي تكون بسبب الخلاف والعداء، وهذه من أهم أسباب خراب العمران وهلاك الإنسان؛ ولذلك رَوَى الطبري عن قتادة في معنى هذه الآية الكريمة قوله: " {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم}، كنتم تذابحون فيها، يأكل شديداً ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام، فأخى به بينكم، وألف به بينكم؛ أما والله الذي لا إله إلا هو، إنّ الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذابٌ"⁶⁷⁸

وفي هذا المعنى يقول الطبري: "قال ابن إسحاق" كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام وهم على ذلك، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأم، فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم؛ ثم إن الله عز وجل أطفأ ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم

فذكرهم جل ثناؤه إذ وعظهم، عظيم ما كانوا فيه في جاهليتهم من البلاء والشقاء بمعادة بعضهم بعضاً وقتل بعضهم بعضاً، وخوف بعضهم من بعض، وما صاروا إليه بالإسلام واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والإيمان به وبما جاء به، من الائتلاف والاجتماع، وأمن بعضهم من بعض، ومصير بعضهم لبعض إخواناً"⁶⁷⁹

وفي ضوء هذه الآية المباركة يقول صاحب المنار في لمسة عمرانية رائعة ما نصه: "ومن

⁶⁷⁷ ن: "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام الطبري، مصدر سابق، بتصرف (75 / 7)

⁶⁷⁸ ن: المصدر السابق، (77 / 7)

⁶⁷⁹ ن: المصدر السابق، (78 / 7)

القواعد المسلمة: أنه لا تقوم لقوم قائمة إلا إذا كان لهم جامعة تضمهم ووحدة تجمعهم وتربط بعضهم ببعض، فيكونون بذلك أمة حية كأنها جسد واحد(..) فإذا كانت الجامعة الموحدة للأمة هي مصدر حياتها - سواء أكانت مؤمنة أم كافرة - فلا شك أن المؤمنين أولى بالوحدة من غيرهم لأنهم يعتقدون أن لهم إلهًا واحدًا يرجعون في جميع شئوهم إلى حكمه الذي يعلو جميع الأهواء، ويحول دون التفرق والخلاف، بل هذا هو ينبوع الحياة الاجتماعية لما دون الأمم من الجمعيات حتى البيوت (العائلات)؛ ولما كان لكل جامعة وكل وحدة حفاظ يحفظها أرشدنا سبحانه وتعالى إلى ما نحفظ به جامعتنا التي هي مناط وحدتنا - وأعني بها الاعتصام بجبله⁶⁸⁰

ولا نقل أن هذا الأمر خاص بالمسلمين فحسب - وإن كانوا هم بدرجة أولى - بل هو عام بالإنسانية جمعاء إن هم أرادوا أن يحافظوا على حضارتهم من الزوال، ولعل أبرز آية تدل على ذلك هي قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"⁶⁸¹؛ فهذه آية لو أخذ بها العالم اليوم لحَيَّى الإنسان وسلم العمران؛ وهنا نترك صاحب الظلال بقلمه السيال وأسلوبه الميَّال يحدثنا بقوله: "يا أيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم؛ من ذكر وأنثى، وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل؛ إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام؛ فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات؛ وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني

⁶⁸⁰ ن: "تفسير المنار" مرجع سابق، بتصرف (22 / 4)

⁶⁸¹ الحجرات: 13

من حساب في ميزان الله؛ إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)؛ والكريم حقا هو الكريم عند الله؛ وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: إن الله عليم خبير (...).

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس؛ ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت؛ وكلها من الجاهلية وإليها، تنزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام! 682

ومن الآيات الشاهدة على هذه القاعدة أيضا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْنَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁶⁸³؛ وهذه الآية واضحة في أنّ التنازع والتصارع الذي هو من لوازم الفرقة والخلاف يؤدي إلى الفشل في كل مناحي الحياة ومجالات العمران، وإن كانت الآية جاءت في سياق الحديث عن أحداث غزوة أحد، إلا أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون..

والواقع يشهد بهذا؛ فها هي الدول التي شبّ في الخلاف وبرزت الفرقة بين أفرادها نراها صارت أثرا بعد عين، وهي السياسة ذاتها التي تنهجهما الدول الرأسمالي المتوحشة إزاء الدول الضعيفة بناء على قاعدتهم الملعونة "فرّق تسد"؛ كما فعلت فرنسا حينما استخربت المغرب - وليس استعمرته كما يروج - حيث قامت بإصدار الظهير البربري (17 من ذي الحجة

⁶⁸² ن: "في ظلال القرآن" سيد قطب، مرجع سابق، بتصرف (6/ 3346)

⁶⁸³ الأنفال: 46

1340هـ/16 من مايو 1930م) من أجل تشتيت وحدة المغاربة والتفافهم حول أمير البلاد؛ ولا تزال المخططات مستمرة بصور شتى وطرائق قديدا، وبحيل لا تنطلي إلا على السذج!!

يقول العلامة ابن عاشور في الآية الآنف ذكرها: "وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل لأنه يثير التّغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو، (...) وتذهب ربحكم، والمعنى: وتزول قوتكم ونفوذ أمركم، وذلك لأن التنازع يفضي إلى التفرق، وهو يوهن أمر الأمة" 684

ومن الآيات أيضا في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ 685﴾؛ وهذه الآية تدل بالنص والقطع أن الوحدة كانت أعظم مقاصد الأديان السماوية عبر التاريخ؛ لأنها تُعتبر أهم عوامل قيام المجتمعات والدول والحضارات، وقيام العمران وبناء الإنسان، كما أن الفرقة هي أهم عوامل سقوط ذلك ودماره وخرابه !!

ولا غرو أن تنال الوحدة هذه المكانة في القرآن الكريم وسائر الرسائل السماوية، لأن بالوحدة يتآلف الناس ويُنتجون أمة قوية وقادرة على تحقيق وظيفة الاستخلاف

684 ن: "التحرير والتنوير" لابن عاشور، مرجع سابق، بتصرف (23 / 10)

685 الشورى: 13

التي أنيطت بالإنسان منذ وجوده في هذا الكون، وبالفرقة يتصدّع جسم الأمة فينهار بناؤها وتسيل دماؤها، ويخرب عمرانها، وهذا هو سرّ اهتمام الأنبياء والمرسلين بدعوة أقوامهم إلى الوحدة والاتحاد وتحذيرهم من الفرقة والانشقاق؛ بل إنّ القرآن الكريم بيّن أنّ علة بعث الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - نزول الكتب السماوية هو إقامة الوحدة وتحقيق الاجتماع عبر حل الخلافات التي تؤدي إلى الفرقة والتنازع، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁶⁸⁶.

والآيات كثيرة في هذا المعنى وكلها تشهد أن (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب)!!

أما الأحاديث في هذا الموضوع؛ فدونك وهي من الكثرة بمكان؛ نكتفي بسوق نماذج منها خشية الإطالة:

الحديث الأول: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: (أنّ رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر الجماعة رحمة والفرقة عذاب)⁶⁸⁷؛ وهذا الحديث قريب من قاعدتنا العمرانية

⁶⁸⁶ . البقرة: 211

⁶⁸⁷ . رواه الإمام أحمد في المسند رقم: 18472، بإسناد ضعيف، لكن تشهد له طرق عديدة، وقد حسنه الألباني في

صحيح الجامع، رقم: 3109

: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب)؛ وفي رواية أخرى عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها (عليكم بالجماعة فالزموها فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب).

الحديث الثاني: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوة الجنة فعليه بالجماعة)⁶⁸⁸، فالجماعة والوحدة أصل لكل خير في المعاش والمعاد، والفرقة سبب لكل الشرور!

الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى الأمير فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصا الله)⁶⁸⁹؛ وهذا الحديث يدل على وجوب طاعة الأمير التي يلزم منها حصول الوحدة والاجتماع؛ ويرم عصيان الأمير الذي يؤدي إلى الفرقة والخروج عن الجماعة، وقد سبق أن تناولنا هذا الأمر بالتفصيل في قاعدة: (لا عمرانَ إلا بسطان)

الحديث الرابع: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لن تجتمع أمتي على ضلاله، فعليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة)⁶⁹⁰؛ وهذا حديث في فضل جماعة وأمة الإسلام التي اجتمعت على الدين الحق المشتمل على كل أسباب العمران!!

الحديث الخامس: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من خرج من

⁶⁸⁸ رواه الإمام الترمذي بنحوه، رقم: 2165، بسند صحيح، وهو مروي طرق عديدة.

⁶⁸⁹ رواه الإمام الترمذي بنحوه، رقم: 2165، بسند صحيح، وهو مروي طرق عديدة.

⁶⁹⁰ رواه الإمام الطبراني في الكبير رقم: 13623 بسند صحيح.

الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمَيَّةٍ يغضب للعَصْبَةِ أو يدعو لعصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لكل ذي عهد عهده فليس مني ولست منه⁶⁹¹.

الحديث السادس: عن رجل قال انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقول: (أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة)⁶⁹²

الحديث السابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث؛ أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وتسمعوا وتطيعوا لمن ولاة الله أمركم؛ وأنهاكم عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال)⁶⁹³

الحديث الثامن: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (دعانا النبي ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)⁶⁹⁴؛ فهذا الحديث تضمن بنود بيعة الصحابة للرسول الكريم، وهي بنود اشتملت على مقومات الجماعة والائتلاف، ونبذ الفرقة والخلاف!

الحديث التاسع: عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم

⁶⁹¹ . رواه مسلم في صحيحه، رقم: 1848

⁶⁹² . رواه الإمام الأرنبوط في تخریج المسند رقم: 23145، بسند حسن لغيره

⁶⁹³ . رواه الإمام ابن حبان في صحيحه، رقم: 4560، بسند صحيح

⁶⁹⁴ . متفق عليه.

قال: (وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع)⁶⁹⁵

هذا غيض من فيض كما يقال!! وإلا فالأحاديث في هذا الموضوع كثيرة جدا يصعب حصرها وضبطها، مما يدل على أنّ المعنى المشار إليه فيها متواتر، كما أنّ دلالة هذه الأحاديث على معنى "الأمر بلزوم الجماعة والوحدة والنهي عن الفرقة والاختلاف"

نصية وقطعية؛ مما يقرّر كلية وعموم هذه القاعدة العمرانية!!

ولمزيد من التأكيد والتدليل لهذه القاعدة وتعزيز مفهومها لابد أن نستحضر ذلك الحدث العظيم في السيرة النبوية الذي يدل على أهمية تأليف القلوب ورأب صدع المجتمع وتوحيد الكلمة، وسدّ ذرائع الخلاف والفرقة والنزاع في إقامة الدولة الإسلامية وبناء عمرائها؛ إنه حدث مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في صورة لا يمكن أن تتجلى إلا في منهج الإسلام الذي يؤلف القلوب قبل القوالب؛ إضافة أيضا إلى عقده ﷺ اتفاقاً مع قاطني المدينة من غير المسلمين، حيث أبرم معهم معاهدة وكتب بذلك وثيقة تُسمّى وثيقة المدينة، تلك الوثيقة التي جمعت كل من يعيش بالمدينة من مسلمين وغيرهم؛ وهو ما يدل على أنّ النبي كان يؤمن بالتعددية الفكرية والعقدية لكن في إطار الوحدة والوفاق الذي يحافظ على كيان الدولة من التصدع والزوال!

قال أبو بكر محمد الطرطوشي المالكي في كتابه سراج الملوك: "أيها الأجناد أقلوا الخلاف على الأمراء فلا ظفر مع الخلاف، ولا جماعة لمن اختلف عليه؛ قال الله تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} (الأنفال: 46) فأول الظفر الاجتماع وأول الخذلان

⁶⁹⁵ هذا طرف من حديث رواه الترمذي في سننه، بسند صحيح، رقم: 2863

الافتراق، وعماد الجماعة السمع والطاعة"⁶⁹⁶

أما التاريخ فقد حدثنا عن سقوط الأندلس "إسبانيا الآن وجزء من البرتغال" بعد أن حكمها المسلمون قرابة ثمانمائة عام، أسسوا فيها الحضارة الحديثة، واكتشفوا العلوم التجريبية التي نقلها عنهم الغرب؛ وصار الأمر على ذلك إلى أن حدثت الفُرقة بين الأمراء وبين الحكومة المركزية، لدرجة أن الأمراء تحالفوا مع أعدائهم ضد حكومتهم، فكانت النتيجة أن فقدوا أعظم حضارة، وتحولت المساجد في الأندلس إلى كنائس، وأصبح الأمر أثرًا بعد عين، وتظل إلى الآن بزخارفها ومعالمها شاهدةً على حضارة المسلمين وتقديهم التي ضاعت بسبب اختلاف المسلمين وتفرقهم.

وهنا لابد أن أسجل كلمة في هذا المضممار للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني يقول فيها: "يجب علينا أن نُقَوِّي الأواصر الإسلامية بِحَيْثُ يتساند مسلمو الصين والهند وأفريقيا مع باقي المسلمين في شَتَّى أنحاء الأرض؛ وأنه لمن دواعي الأسف ألا يقوم أي تعاون بَيْنَنَا وَبَيْنَ إيران، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَسْعَى إلى التقارب مَعَنَا كَيْلَا تصبح العوبة بيد روسيا وإنكلترا"⁶⁹⁷

وقد تكلم كثير من العلماء عن هذه المسألة، وأوجبوا لتحقيقها مبايعة السلطان من أجل حفظ الأوطان وقيام العمران، كابن خلدون في مقدمته، والإمام الطبري في تاريخه، وكذلك ابن تيمية في كتبه خاصة كتابه "السياسة الشرعية" وغيره ممن كتب في الأحكام السلطانية ونصائح الملوك، وغير ذلك كثير مما لا يسمح الوقت بذكره كله؛ والمقصود من هذا أن الوحدة والاجتماع والتآلف بين أفراد المجتمع يمثل قوة للعمران، وأن عكس

⁶⁹⁶ ن: "سراج الملوك" مصدر سابق (1/ 181).

⁶⁹⁷ ن: "مذكراتي السياسية"؛ السلطان عبد الحميد الثاني؛ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: 5 سنة: 1406هـ؛

ذلك من الخلاف والفرقة والتنازع مهلك للنوع الإنساني ومدّمر للعمران، وهو أمرٌ مُجمَعٌ عليه بين عقلاء وحكماء الأنام وعلماء الإسلام؛ فكانت بذلك قاعدة: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب) قاعدة عمرانية كبرى!! يمكن أن يُستَهِمَ تفعيلها في العديد من مجالات العمران، في تصحيح مسار الشهود الحضاري للأمة؛ وهو ما نفرد له الحديث في المطلب القادم؛ وإليه بإذن الله:

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال الجواب عن السؤالين الأولين في المطلبين السابقين ننتقل إلى الجواب عن السؤال الثالث، والمتعلق بدور القاعدة وأهميتها العمرانية في مجالات الحياة المختلفة..

ومن خلال ما سبق بيانه من مدلول هذه القاعدة العمرانية، ومعانيها السارية بين أحضان مصطلحاتها؛ وما تم إيرادها من أدلة وبراهين شاهدة على مصداقيتها، يبدو من غير ارتياب أنّ هذه القاعدة يمكن استثمارها وتفعيلها في مجالات عمرانية عديدة، مما يؤكد على قوتها وحضورها المؤثر والقوي في عمران الإنسان في المعاش والمعاد، لما يصلح البلاد ويُسعد العباد!

وتصديرًا لهذا المطلب أقول إن كل إنسان يسعى إلى تحقيق الحياة الكريمة في معاشه؛ فهذا مما لا يختلف فيه المقاصد والرغبات، والأهداف والغيات؛ وإنّ توفير ذلك يتجلى في حصول التعاون والتكامل بين أفراد المجتمع، ونبد الفرقة والتنازع بينهم؛ وهو ما يمكن تحصيله عبر مجالات عمرانية عديدة يمكن إجمالها فيما يلي:

• المجال العقدي الفكري:

وهذا مجال تبرز فيه هذه القاعدة العمرانية بشكل جلي لا يحتاج لبيان، فالعقيدة مبنية على التوحيد والوحدة واجتماع الكلمة، ومن درس السياق القرآني والحديثي المتعلق بالعقيدة لأدرك هذه الحقيقة بما لا مجال للشك فيها؛ إذ الوحدة في المنظور القرآني سنة كونية وهي ناظمة للحياة البشرية أيضا؛ ولذلك كانت الوحدة هي أصل من أصول كافة أديان السماء كما ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿٦٩٨﴾؛ روى الإمام الطبري بسنده عن أبي بن كعب في: "قوله: "كان الناس أمة واحدة" كانوا أمة واحدة مسلمين كلهم، ثم اختلفوا من بعد آدم؛ فكان أبي يقرأ: "كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" إلى: "فيما اختلفوا فيه"؛ وإن الله إنما بعث الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف"؛ ثم قال: "فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به؛ وذلك أن الله عز وجل قال في سورة "يونس": ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾⁶⁹⁹؛ فتوعد عز وجل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة"⁷⁰⁰.

كما تعتبر الوحدة والاجتماع مقصدا عظيما من مقاصد الإسلام، وفريضة جماعية من فرائض الشريعة، حتى غدت - أي الوحدة - قرينة التوحيد في القرآن، بل من أعظم مقاصده، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾⁷⁰¹؛ وفي آية أخرى: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾⁷⁰²؛ ذلك أن كلمة التوحيد تقود إلى وحدة الكلمة والصف، كما يوحيه السياق للآيتين الكريمتين؛ فقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾⁷⁰² فهذه

⁶⁹⁸ البقرة: 211

⁶⁹⁹ يونس: 19

⁷⁰⁰ ن: "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام الطبري، مصدر سابق، بتصرف (4/ 278-279)

⁷⁰¹ الأنبياء: 92

⁷⁰² الأنبياء: 92

وحدة الكلمة والصف؛ وقوله: □ وَأَنَا رَبُّكُمْ بِأَعْبُدُونِ ﴿ مع قوله: □ وَأَنَا رَبُّكُمْ بِاتَّقُونَ ﴿ فهذه كلمة التوحيد؛ ومن الملاحظ في هذا السياق تقديم وحدة الأمة على كلمة التوحيد، وفيه لطيفة دقيقة وهي أن العبودية لله بخلاف العبودية لغيره تجر نفعاً للمخلوق لا نفعاً للخالق بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مَزْزٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَمِيلُ ﴿٥٣﴾ 703؛ كما يدل على أنه لا يمكن أن تتحقق وحدة مجتمع ولا اجتماع أمة على وجه التمام والكمال إلا بالتوحيد، إذ به تتوحد القلوب قبل قوالها !!

قال عبد الوهاب خلاف: "اتفقت كلمة علماء المسلمين على أن الدولة الإسلامية إنما تعتمد في تكوينها على الوحدة الدينية، وأن جميع من جمعتهم هذه الوحدة هم أمة واحدة وإن اختلفوا في اللغة أو الجنس أو الحكومات أو الملوك أو سائر المميزات القومية، لأن وحدة الدين غلبت كل هذه الفروق" 704؛ ولذلك قيل: كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، فتأمل!! ولذلك كان المؤمنون بهذا المعنى إخوة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ بِأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ 705؛ يقول السيد قطب في ظلال هذه الآية: "ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه" 706

703 الذاريات: 56 / 58

704 ن: "السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية"، للشيخ عبد الوهاب خلاف، الناشر: دار القلم، الطبعة: 1408 هـ/1988م، ص 73

705 الحجرات: 10

706 ن: "في ظلال القرآن"، للسيد قطب، مرجع سابق، (6 / 3342)

ولعل هذا هو السر الذي جعل كل رسول يبدأ دعوته بقوله: ﴿يَقُومُوا لِلَّهِ مِائَةً ذَاتَ أَلْفِ نَفْسٍ مِنْ بَيْنِ أُمَّةٍ﴾⁷⁰⁷؛ حيث كانوا متفقين جميعاً في هذا الأصل، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ «عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»⁷⁰⁸؛ وهو الشأن نفسه لرسول الله ﷺ حيث كان شعاره منذ انطلاقة دعوته العمرانية بقوله: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)⁷⁰⁹.

وحينما تضع عقيدة التوحيد، ويدخلها الدّخن في قلوب العبيد، فيسلك الناس طرائق قديداً ويتحزّبون أحزاباً عدداً: ﴿بَتَفَطَّطُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ﴾⁷¹⁰؛ فهنا تبرز الفرقة وينشأ الخلاف والنزاع ويكثر الصراع، وهو ما نراه في واقعنا حينما ضمّر التوحيد في وجدان الناس وأحاسيسهم، فكان ما كان من الشقاق والصراع؛ وقد حدّثنا الله تعالى من هذا المآل الخطير حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁷¹¹؛ وكذلك نبيه ﷺ نهي عن ذلك نهياً تحذيرياً فقال: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)⁷¹²؛ وقد وقعت أمة التوحيد فيما حدّثها منه نبيها ﷺ مع الأسف حتى صرنا أضحوكة العالم!!

إذن من خلال ما سبق بيانه وهو غيض من فيض وقليل من كثير، نستنتج أنّ مجال

⁷⁰⁷ .هود: 50

⁷⁰⁸ .النحل: 36

⁷⁰⁹ . سبق تحريجه

⁷¹⁰ . المؤمنون: 54

⁷¹¹ . آل عمران: 105

⁷¹² . جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، رقم: 1739

العقيدة هو مجال يمكن توظيفه لوحدة الناس واجتماع كلمتهم ووحدة صفهم ونبذ كل ألوان الشقاق والنزاع والفرقة، وبالتالي تكون قاعدة: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب) حاضرة بقوة في هذا الميدان الذي يعتبر من أهم المجالات العمرانية كما سبق بيانه في غير ما مرة!

• مجال العبادات:

لقد جاءت عبادات الإسلام كلها لتؤكد حقيقة معنى الوحدة؛ فصلاة الجماعة عبادة يومية جعلت منها الشريعة السمحة مظهراً من مظاهر الاتحاد والانسجام والتآلف؛ فالمسلمون يجتمعون عدة مرات في اليوم الواحد في مظهر كله وحدة وانتظام، صفوفهم خلف إمام واحد وفي اتجاه قبلة واحدة، وقلوبهم نحو هدف واحد، هو طاعة الله وامتنال أمره وأداء فرضه؛ كما أن صلاة الجمعة، مظهر آخر من مظاهر الاتحاد والاجتماع للنظر في راهن واقع الأمة وما تعيشه من أوضاع وما تواجهه من تحديات ومشكلات وأوهاق، وهي دورة تدريبية أسبوعية إسلامية تجسّد جانباً من جوانب حرص المنهج الإسلامي على وحدة الأمة؛ وكذلك الشأن لصلاة العيدين، بل هي أكثر عمقا، وأعمق أثرا، لمن تأمل!

"إن الصلاة من أعظم وأجلّ الفرائض والعبادات الجامعة للمشاعر والقلوب، ففي أجوائها يشعر المسلم في كلّ يوم يتصرّم، برسوخ معنى الوحدة والانتماء للأمة؛ فهو في الصلوات الخمس يتّجه إلى الكعبة الشريفة بمكة المكرمة، قبلة المسلمين أجمعين، فيحس بأنه واحد من ألوف الملايين من إخوان العقيدة ممن يتّجهون إلى هذه القبلة، فيشعر بأن قلبه مرتبط بالله رب العالمين، ومرتبطة بالمسلمين في شتى بقاع المعمورة بهذه القبلة

التي توحد قلوبهم ومشاعرهم وغاياتهم⁷¹³.

أما الزكاة، فهي العبادة التي تستهدف دعم صلة المسلم بإخوة العقيدة والإيمان، والتطهر من رذيلة الشحّ وسطوة النفس، فالزكاة سلوك تحرري فاعل من إसार هوى النفس وأنانية الذات، وهي أيضا عمل جهادي من صميم الأعمال والمنجزات الداعمة المعضّدة لقوة المجتمع من الداخل، لكونه يُسهم في سدّ ثغرات الضعف والاحتياج والمسغبة التي يخلفها الفقر في كيان المجتمع المسلم.

"ولا ريب في أن الجماعة التي ينتشر فيها الإملاق والاحتياج والعوز، تشتعل فيها العداوة والبغضاء والحقد، وتكثر الجرائم وتتفكك الأواصر، فيهتز كيان الأمة بما يشيع بين جنباتها من فرقة وتقاطع وعداوة؛ لذلك شرع الله الزكاة كوسيلة عملية سلوكية تقوي وشيجة المودة بين الأغنياء والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متكافلة متعاونة على الخير العام"⁷¹⁴

أما صوم رمضان من كلّ عام فهو ينطوي على أبعاد ودلالات كثيرة، من أهمها تربية المسلم وإشعاره بأنه فردٌ من أمة كبيرة لها رسالتها وقسماتها العقدية والاجتماعية والعمرانية المتميزة؛ ففي توقيت الصيام بطلوع الفجر ونهايته بإقبال أول الليل أثناء الغروب، حكمةٌ لتوحيد حركة المسلمين وضبط تصرفاتهم العامة مع إضفاء صبغة خاصة عليها، فمعنى الوحدة والتآلف محسوس في كلّ مضامين وسلوك عبادة صوم رمضان. ويُعدّ الحجّ إلى بيت الله الحرام من أبرز المظاهر العبادية التي يتجلى من خلالها الجانب

⁷¹³ ن: "الوحدة الإسلامية"، محمد أبو زهرة، دار الرائد العربي، بيروت، دون طبعة، ص 235.

⁷¹⁴ ن: "الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة"، محمد عبد العليم العدوي، دار البيان للطبع والنشر، ط1، القاهرة، 2003م، ص:66

الوحدوي، إذ إنه أعظم مؤتمر يجتمع فيه المسلمون من جميع أقطار الدنيا تلبية لنداء ربهم وتأدية مناسكهم في عبادة جماعية تضمّ المسلمين على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأجناسهم وأقطارهم وأحوالهم، في قلوب خاشعة متبتلة خاضعة لم يوحدتها سوى الإسلام ولم يجمع بينها إلا التقوى والعمل الصالح.

وفي الحج دعوة صريحة إلى توحيد الكلمة والموقف بين المسلمين، فهو تجمّع ضخم للمسلمين، يوحد بينهم ويوثق عراهم ويجمع شتاتهم، ويؤدي إلى تعارف أبناء الأمة الإسلامية وتبادل المنافع المادية والمعنوية بينهم؛ وفيه كذلك إذابة للفوارق الطبقية والمادية، ودعوة إلى أن يكونوا كالجسد الواحد، ولا أدلّ على ذلك من لباس الإحرام الموغل في البساطة، وما يرمز إليه من الوحدة والتماثل والاتحاد دون ميز أو تمايز اعتمادا على الاعتبار المادية المحسوسة.

"إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يقصدون مكة المكرمة طائعين مختارين لهدف فريد، هو أن يعلنوا بمخبرهم ومظهرهم عبوديتهم لله الواحد الأحد، وليرسخوا الوحدة والاجتماع بينهم ولينبذوا التفرق والتنازع والتعادي والتنافر والتشاحن؛ فالحج أساسه وقوامه إخلاص العبودية لله، لكن ترجمة ذلك عمليا يتجسد في تحقيق وحدة الأمة وإحلال الألفة والمودة والرحمة بين شعوبها وتفعيل التناصر والتضامن بين كل المسلمين، لأن هناك تلازما حقيقيا بين التوحيد والوحدة كما سبق أن أشرت إلى ذلك؛ وهذا التلازم يشعر به المسلم بقوة في موسم الحج، فهذه حقيقة تجلي أحد مقاصد هذا الركن الجليل، لأن الحج ليس مجرد رحلة أو مظاهر وشعارات وتلاوات ونسك، بل هو تطبيق عملي حيّ لمقررات العقيدة الصحيحة، واستنباط للعبر والدروس التي تؤكّد من خلال مناسك الحج في مؤتمره الجامع، على أن الأمة الإسلامية لكي تسترجع مكانتها

وعافيتها ودورها في الشهود الحضاري، لا مندوحة عن أن يتلازم عندها وفي كلّ حياتها التوحيد والوحدة اعتقاداً وعملاً⁷¹⁵

• مجال المعاملات:

لا شك أنّ من تأمل أحكام الشريعة في المعاملات ألفاها تنحو جهة تحقيق وحدة الأمة واجتماعها حيث إنّها تقوم على قواعد العدل والوسطية وتنفّي الضرر والضرار؛ فكل ما من شأنه أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء ويشتت صفهم ويفرق وحدتهم حرّمه الإسلام ومنعه؛ والأمثلة على ذلك من الكثرة بمكان، ومن الأهمية بميزان؛ فلو أخذنا على سبيل المثال قاعدة: (لا ضرر ولا ضرار)، التي تعتبر من القواعد الكبرى في الفقه الإسلامي حيث تندرج تحتها الكثير من الجزئيات والمسائل في مختلف أبواب الفقه؛ وللإشارة فهي مأخوذة من الحديث النبوي المشهور المروي عن سيدنا رسول الله ﷺ ونصه: (لا ضرر ولا ضرار)⁷¹⁶..

وهذه القاعدة تتجلى عنايتها بدفع الضرر - الذي قد يؤدي في آخر المطاف إلى النزاع والفرقة - قبل وقوعه من باب الوقاية، ورفع وإزالته بعد وقوعه؛ ولذلك كانت هذه القاعدة⁷¹⁷ بمثابة أمّ لمجموعة من القواعد المنضوية تحتها، نذكر من بينها:

1. قاعدة (الضرر يُزال): ومن فروع هذه القاعدة: الرد بالعيب، جميع أنواع الخيار، والنهي عن الاحتكار، والتسعير عند فساد السوق وغير ذلك من الأحكام التي تزيل

⁷¹⁵ ن: "مجلة الحج"، "الحج تلازم بين التوحيد والوحدة" معالي عبد الحميد حمودة؛ السنة الثالثة والخمسون، الجزء السادس، ذو الحجة 1418 هـ/ أبريل 1998م، ص: 36.

⁷¹⁶ أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب القضاء في المرفق؛ رقم: 2758

⁷¹⁷ يمكن جعلها قاعدة عمرانية كبرى في هذا الفصل المتعلق بالسياسة الشرعية

الضرر؛ ومنع السوم عند الركون للبيع وحصول الاتفاق بين البائع والمشتري؛ وغيرها من الفروع والمسائل في المعاملات..

2. قاعدة (الضرر لا يزال بمثله): وهذه القاعدة تعتبر ضابطاً يحكم عمل القاعدة السابقة، ويضع حداً لمجال عملها حتى لا تتعداه إلى ما يسبب ضرراً عكسياً.

3. قاعدة (الضرر يدفع بقدر الإمكان): فيحقق مثلاً للقاضي منع المدين من السفر بناءً على طلب الدائن حتى يوكل وكيلاً عنه بالخصومة، ولا يصح منه عزل هذا الوكيل مادام مسافراً منعا لضرر الدائن..

4. قاعدة (يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام): وهذه القاعدة تبرز فيها المصلحة العامة التي تقتضي وحدة المجتمع وتقوية روابطه، ونبتد أشكال الأنانية وحب الذات.

وهناك قواعد أخرى كثيرة كقاعدة (سد الذرائع)، وعلى إثرها حرم كل ما من شأنه أن يقوّض بناء المجتمع أو يهدم عمرانه، كتحريم تلقي السلع والركبان المنهي عنه في الحديث الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يبيع بعضكم على بيع بعض، تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق)⁷¹⁸، وتحريم الغرر في العقود المالية وغيرها، فقد روى الإمام مالك بسنده أن (النبي ﷺ نهى عن الغرر)⁷¹⁹؛ وغيرها من المسائل الفقهية التي يطول ذكرها ويصعب حصرها!

والقصد هنا أن مجال المعاملات مبني على مقصد توحيد الأمة وجمع كلمتها وإزالة كل ما يُسبب تمزيقاً وحدتها وتصدّع بنيانها، حتى يقوى عمرانها وتنمو حضارتها؛ وهو ما يجعل

⁷¹⁸ . رواه البخاري، رقم: 2165

⁷¹⁹ . رواه مالك في الموطأ، باب بيع الغرر؛ رقم: 2451

قاعدة: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب) ماثلة وفاعلة في هذا الميدان العمراني بصورة بارزة ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾⁷²⁰.

• المجال السياسي:

وإذا نظرنا إلى هذا المجال نجد أنّ هذه قاعدة: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب) التي نحن بصددتها تمثل أهمّ موجّه من موجهاته - أي المجال السياسي - ؛ وقد سبق أن ذكرنا في المطلب الرابع من المبحث الفارط ما ذكره العلامة رشيد رضا من أنّ: "الخِلافة مناط الوحدة، ومصدر الاشتراع، وسلك النظام، وكفالة تنفيذ الأحكام، وأركانها أهل الحل والعقد رجال الشورى، ورؤيسهم الإمام الأعظم"⁷²¹؛ كما قلت: "إن في طاعة السلطان تماسكا وتلاحما، بين الراعي والرعية، وإظهارا للدولة بمظهر القوة والعزة والغلبة والرهبة أمام الأعداء؛ وبحفظ السلطان تحفظ وحدة المجتمع ويتآلف أفرادهم ممّا ينتج عمراننا قويا وحضارة مزدهرة"⁷²²

ولتحقيق الوحدة والاجتماع بما يتعلّق بهذا المجال أمرنا الشرع الحنيف على لسان رسول الله بالوفاء في البيعة للإمام وعدم منازعته الأمر في كثير من الأحاديث بلغت مبلغ التواتر المعنوي؛ أكتفي بذكر ثلاثة منها يكمل بعضها بعضا:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا

⁷²⁰ ق: 37

⁷²¹ ن: "الخِلافة" لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الزهراء للإعلام العربي القاهرة، دون طبعة أو تاريخ، ص 105

⁷²² أوردت ذلك في المطلب 4، ضمن الآثار الاستشرافية لقاعدة: "لا عمرانَ إلا بسلطان"، من المبحث الأول من هذا الفصل.

بوع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) ⁷²³؛ وهذا دليل قوي في قطع فتيل النزاع والاختلاف!!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم واسألوا الله الذي لكم فإن الله سائلهم عما استرعاكم) ⁷²⁴

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) ⁷²⁵

كما يمكن الحديث هنا عن قيمة العدل التي يجب التقيّد بها في المجال السياسي بدءاً من الحاكم الأعلى إلى أصغر مسؤول؛ وقد أفضت الكلام عن هذه القيمة - التي اعتبرها علماء المقاصد المعاصرون ضرورة من ضرورات الحياة التي وجب الالتزام بها - في مواطن كثيرة من هذه الأطروحة بما يفي بالغرض المقصود، فلا داعي لتكراره ⁷²⁶

⁷²³ . رواه مسلم في صحيحه، رقم: 1853

⁷²⁴ . متفق عليه

⁷²⁵ . متفق عليه

⁷²⁶ . ورد الحديث عن ذلك في مواضع متعددة من هذه الأطروحة؛ من ذلك تخصيص المطلب 2 بعنوان: "العدل في العمران"، وقد أطلت الكلام في ذلك عبر مسائل ثلاث، وخصّصت المسألة الثالثة للعدل في السياسة العظمى؛ كان ذلك في المبحث 2 المتعلق بشروط العمران من الفصل الثاني في الباب الأول؛ كما خصّصت المبحث الثالث من الفصل 3 من هذا الباب قاعدة بعنوان: (الظلم مؤذن بخراب العمران)، باعتبار الظلم نقيض العدل، وبضدها تتمايز الأشياء!!

خلاصة:

وأخيرا أقول: لقد اتضح من خلال هذه الجولة الفكرية بين ثنايا هذا المطلب أنّ هذه القاعدة العمرانية: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب) لها سلطتها المنظّمة لمختلف مجالات عمران الإنسان، والضابطة لحركة الإنسان العمرانية؛ لذا وجب استثمارها والأخذ بها وتوظيف مقتضياتها؛ وبالتالي جعلها منهجا استشرافيا لعمران الأمة حتى تستعيد عافيتها، وتستردّ ريادتها العمرانية وقيادتها الحضارية!! وهو ما سنتناوله باقتضاب في المطلب القادم:

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

إن تأمل هذه القاعدة العمرانية التي نحن بصدددها، واستحضار دلالاتها ومجالاتها بما بينت آنفاً، ليُثْمِرَ تفعيلها مستقبلاً عمرانياً ناجحاً تَصْلُحُ به البلاد ويسعد به العباد؛ إذ الوحدة والاجتماع ضرورة عمرانية، والفرقة والخلاف خطر على الإنسان والعمران!!

وبعد هذه الجولة المتأنية مع تلك القاعدة الكبرى في محطاتها المتنوعة؛ أنتقل إلى بيان دورها الاستشرافي لعمران الأمة خصوصاً والإنسانية عموماً، والمتأمل بعمق في القاعدة ليدرك إدراكاً قاطعاً أن المسلمين لو أخذوا بهذه القاعدة وفعلوا مقتضياتها بدءاً من أصغر مكّون وهو الأسرة إلى أكبره وهو الأمة جمعاء، لاستطاعوا أن يستردّوا جميع ما سُلِبَ من أرضهم، وما أُهين من عرضهم، ولتمكّنوا من إعادة بناء عمرانهم التّليد، وحضارتهم كما كانت في العهد الرشيد؛ والله على ما أقول شهيد!!

فلو طبّقت هذه القاعدة في الأسرة حيث كانت كلمتها واحدة، كل فرد من أفرادها يقوم بواجبه إزاء الآخر لأثمر ذلك قوة للأسرة في بنائها وتماسكها في أجزائها، وظللتها الرحمة والسكينة، وترعرع أطفالها في جو من الصفاء والنقاء لا يعرفون انحرافاً ولا زيغاً ولا ضلالاً؛ وما نراه اليوم من اختلال أسري ونزاعات تملأ المحاكم يُنذر بمصير خطير على كل من الإنسان والعمران!! والحل الوحيد هو العودة إلى أدبيات وأخلاقيات الوحدة الأسرية ورأب صدع بنائها، إذ في ذلك استشراف لمستقبل عمران الأسرة وبعده قيام حضارة الأمة وعمرانها!!

وكذلك الأمر في الدولة - كما سبقت الإشارة - فحين تجتمع كلمتها وراء حاكم واحد تدين له بالطاعة والانقياد، ويكون حكمه قائماً على العدل بين رعيته دون محاباة

أو تمييز، فإن هذه الدولة يقوى عمرانها ويشتد بأسها، ويخافها أعداؤها؛ وحين يكثر النزاع في الدولة بين أفرادها بسبب الشعارات المختلفة سواء منها العرقية أو الحزبية أو الإيديولوجية.. وتسيطر الأثنية على أفراد المجتمع فهذا يؤدي حتما إلى انهيار المجتمع وخراب عمرانها؛ ولذلك نجد نصوص الشريعة - كما مرّ بنا فيما سبق - تدعو إلى الوحدة واجتماع الكلمة وتُلزِمُ المكلفين بكل ما من شأنه يحقق ذلك، وتنهى كل ما يؤدي إلى النزاع والشقاق وغير ذلك مما يُقَوِّضُ بناء المجتمع وكيان الأمة؛ كل ذلك استشرافا لبناء عمران الأمة وتقوية حضارتها..

وفي المقابل نجد أعداء الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء يعملون ليل نهار وبكل الوسائل للتفريق بين الأمة الإسلامية، بل بين الدولة الواحدة لإضعافها والسيطرة عليها بناء على نظريتهم المشؤومة "فرّق تسد"؛ وهو ما نراه عبر الشريط التاريخي الطويل، بدءا من الصراع الدامي الذي كان بين الأوس والخزرج الذي استمر أزيد من قرن من الزمن، والقبيلتان ترجعان إلى أصل واحد في النسب كما قال ابن اسحاق، وكان سبب تلك العداوة اليهود الذين كانوا يُغْدُونَهَا بِشَيْطَنَتِهِمْ كما تحكي كتب السيرة، وكتب التفاسير؛ فلما جاء الإسلام وحّد بينهم حتى صاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا؛ فاستطاع النبي أن يبني بهم حضارة عظمى لم يعرف لها التاريخ مثيلا..

ولو نظرنا إلى حضارة الأندلس - الفردوس المفقود - التي أقام المسلمون فيها دولة من أكثر دول العالم تحضراً وعمرانا آنذا، حيث عاش فيها المسلمون بسعادة وغنى واستمرّ ذلك لمدة ثمانية قرون تقريبا؛ ثم بعد تلك المدة الطويلة سُلِبَت إلى يومنا هذا؛ وذلك راجع لأسباب عدة كان على رأسها اندلاع النزاعات بين ملوك الطوائف حتى استعدى

بعضهم على بعض بموالاة ملوك النصارى، وانتشر النزاع بين عموم المسلمين، فتنازع العرب مع البربر، وتنازع اليمانية مع القيسية، وكان نتيجة هذا النزاع مقتل عدد كبير من المسلمين، حيث فاق عدد القتلى أضعاف قتلى فتح الأندلس؛ وهكذا ضعف سلطان المسلمين وانهدم عمرائهم، حتى صاروا لقمة سائغة في أيدي النصارى ففعلوا بهم الأفاعيل مما يندى له الجبين، وأُجِّلِي المسلمون من غير رجعة؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا بِتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾⁷²⁷؛ إِي وَاللَّهِ تِلْكَ

قاعدة وسنة كونية مطردة لا تحاي أحدا بحال!!

ونفس الأمر لو نظرنا إلى حال المسلمين اليوم فقد ضعفت دولهم وانهار عمرائهم وأهينت مقدساتهم، فقد سُلِبَ المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث المساجد، وسُلِيت كثير من الأراضي الإسلامية، وصار المسلمون حقول تجارب للقاصي والداني.. إلى آخر هذه الأوصاف الخطيرة؛ ومن أهم أسباب هذا الوضع الكارثي التنازع بين المسلمين خاصة منذ سقوط الخلافة الإسلامية، وقد كان وراء ذلك اليهود كعادتهم وكما هو معلوم من سجلات التاريخ..

وللخروج من هذا الوضع المزري لابد من استثمار قاعدتنا العمرانية: (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب)؛ سواء كان على سبيل الدولة الواحدة بكل مكوناتها، أو كان على سبيل الأمة جمعاء، إذ تعتبر هذه القاعدة العمرانية بمثابة انطلاق استشرافي لعمران زاهر وحضارة منشودة.

وأخيرا:

هذه جولة موجزة حاولت فيها أن أشير إلى بعض النتائج المستقبلية لهذه القاعدة

⁷²⁷ . الأنفال: 46

العمرانية المرتبطة بعمران الأمة وحضارتها، والتي يمكن تحقيقها عن طريق توظيف هذه القاعدة في مختلف كيانات الأمة، بدءاً بالأسرة كأصغر كيان، إلى أكبر كيان وهو الأمة جمعاء؛ توظيفاً مبنياً على قواعده وأصوله؛ ولن أزعج أنني أحطت بفوائد هذه القاعدة المستقبلية، ولكن حسبي أنني بدأت بالإشارة إلى ذلك على أن يأتي مَنْ يُكملُ ويتمم هذا المشروع!

وفي مسك الختام نقول: إنّ هذه القاعدة العمرانية (الوحدة والاجتماع قوة للعمران، والفرقة ضعف وخراب)؛ تمثل طاقة استشرافية لعمران الإنسان إن أُحْسِنَ توظيفُها، وتمّ تنزيلُها وفقّ مناطاتها الخاصة والعامة، كل نفس في نفسها، وكل مجتمع في مجموعته، وهو ما يتطلب تكثيف الجهود على كل الأصعدة حتى نَعْبُرَ إلى برِّ الأمان، فيتحقق العمران ويسعد الإنسان، بفضل الرحيم الرحمان؛ ذلك ما كان، والله المستعان!!

المبحث الثالث: قاعدة (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة)

هذه قاعدة عمرانية مرتبطة بأصل من أصول السياسة الشرعية، جعلتها خاتمة القواعد في هذا الفصل، وهي مبيّنة لقاعدة: (لا عمرانَ إلا بسلطان)، وقد سبقت الإشارة في المبحث الأول من هذا الفصل عند دراسة قاعدة: (لا عمرانَ إلا بسلطان) أنه يمكن إدراج مجموعة من القواعد تحتها؛ وأزعم أنّ من أهمّ القواعد العمرانية المنضوية تحتها هذه القاعدة: (تصرف الراعي منوط بالمصلحة)، فهي تجلي حدود السلطة العامة، ومعالم التدبير الإداري، في حكم الولاية وتصرفاتهم على الرعية، كما سيأتي بيانه عند الحديث عن مفهوم القاعدة في المطلب الأول.

وقد ذكرت هذه القاعدة في كتب قواعد الفقه لبيان أن تصرف الحاكم على الرعية يجب أن يكون منوطاً بالمصلحة؛ كما ذكرت في مؤلفات مقاصد الشريعة، لأنّ هذه القاعدة مرتبطة بقاعدة (جلب المصالح ودرء المفاسد) التي تعتبر من أمهات القواعد المقاصدية، كما يمكن ربطها بحفظ الضروريات من جانبي الوجود والعدم..

وقد جاءت بصيغ مختلفة كلها تدور حول نفس المعنى المقصود؛ من هذه الصيغ

مثلاً:

1. التصرف على الرعية منوط بالمصلحة.
2. اجتهاد الأئمة والقضاة بحسب المصلحة.
3. منزلة الإمام من الرعية منزلة الولي من اليتيم.
4. الولي عليه أن يتصرف لمصلحة المولى عليه.

ولأجل إبراز دور القاعدة الحضاري للمساهمة في إنجاح مشروع الأمة العمراني، جرت العادة أن تتم دراسة القاعدة - أي قاعدة - بتناولها عبر منهجية محدّدة تقتضي النظر فيها - أي القاعدة - من زوايا أربع، تحدّدها تساؤلات معيّنة تأتي على الهيئة الآتية:

ما مفهوم هذه القاعدة؟ وما أدلّتها وحجّيتها؟ وأين تتجلى قيمتها ومجالاتها العمرانية؟ وما هي آثارها الاستشرافية في العمران؟

تلك أسئلة أربعة، تشكّل مسالك رئيسة نسلك عبرها لإدراك دور القاعدة العمراني ووظيفتها الحضارية للأمة الإسلامية خصوصا وللإنسانية عموما؛ والله المستعان!!

وتأتي المطالب في صورتها البهية كما يلي:

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

المطلب الثاني: أدلتها وحجّيتها

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها

قد جرت العادة في منهجية بيان مفهوم أية قاعدة عمرانية أن يكون البدء ببيان المصطلحات التي تتركب منها القاعدة، كل مصطلح على حدة، إيماناً منا أن بيان الكل متوقف على بيان الجزء؛ وهذه القاعدة التي بين أيدينا تتألف من خمسة مصطلحات جاءت مرتبة على الشكل الآتي: (تصرف؛ الراعي؛ الرعية؛ منوط؛ المصلحة)، وكلها تحتاج إلى بيان لغوي واصطلاحي عدا المصطلح الأخير - أي المصلحة - فقد سبق بيانه في الفصل السابق⁷²⁸

وأول مصطلح نشعر في بيانه هو "التصرف"، فما مفهومه اللغوي والاصطلاحي؟
أما معناه في اللغة فهو راجع إلى الصرف؛ قال ابن فارس: " (صَرَفَ) الصَّادُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ مُعْظَمُ بَابِهِ يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ صَرَفْتُ الْقَوْمَ صَرْفًا وَانْصَرَفُوا، إِذَا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا. (..) وَالصَّرْفُ فِي الْقُرْآنِ: التَّوْبَةُ؛ لِأَنَّهُ يُرْجَعُ بِهِ عَنْ رُتْبَةِ الْمُذْنِبِينَ؛ (...) وَمَعْنَى الصَّرْفِ عِنْدَنَا أَنَّهُ شَيْءٌ صُرِفَ إِلَى شَيْءٍ، (...) وَتَصْرِيفُ الدَّرَاهِمِ فِي الْبِيعَاتِ كُلِّهَا: إِنْفَاقُهَا؛ (...) وَيُقَالُ لِحَدَثِ الدَّهْرِ: صَرْفٌ، وَالْجَمْعُ: صُرُوفٌ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِالنَّاسِ، أَيْ يُقَلَّبُهُمْ وَيُرَدِّدُهُمْ." ⁷²⁹

والتَّصَرَّفُ اصطلاحاً: لم أجد تعريفاً دقيقاً للفقهاء المتقدمين، وإنما استعملوه بمعناه اللغوي؛ وقد عرّفه بعض المتأخرين بقوله: "أنَّ التصرف هو كل ما صدر عن الشخص بإرادته من قول أو فعل، يُرتَّب عليه الشرع أثراً من الآثار، سواء كان في صالح ذلك

⁷²⁸ ورد ذلك في المبحث الأول عند دراسة قاعدة (صلاح العمران بصلاح الإنسان) من الفصل الثالث في هذا الباب من هذه الأطروحة..

⁷²⁹ ن: "مقاييس اللغة" مصدر سابق؛ بتصرف، (3/ 342 343)

الشخص أم لا⁷³⁰

أو يمكن أن نقول أنّ التصرف هو ما يصدر عن الشخص من قرارات وتدابير يكون لها أثرها في العاجل والآجل..

أما مصطلح "الراعي"، فمعناه في اللغة أشار إليه ابن فارس بقوله: "الرَّاءُ وَالْعَيْنُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْمُرَاقَبَةُ وَالْحِفْظُ، وَالْآخَرُ الرَّجُوعُ.

فَالأَوَّلُ رَعَيْتُ الشَّيْءَ، رَقَبْتُهُ؛ وَرَعَيْتُهُ، إِذَا لَاحَظْتُهُ. وَالرَّاعِي: الْوَالِي. قَالَ أَبُو قَيْسٍ:

لَيْسَ قَطًّا مِثْلَ قُطِيٍّ وَلَا أَل.... مَرَعِي فِي الْأَقْوَامِ كَالرَّاعِي؛ وَالْجَمِيعُ الرِّعَاءُ، وَهُوَ جَمْعٌ عَلَى فِعَالٍ نَادِرٍ، وَرِعَاةٌ أَيْضًا. وَرَاعَيْتُ [الْأَمْرَ] نَظَرْتُ إِلَّا مَ يَصِيرُ. (..) وَالْإِرْعَاءُ: الْإِبْقَاءُ، وَهُوَ مِنْ ذَاكَ الْأَصْلِ؛ لِأَنَّهُ يُحَافِظُ عَلَى مَا يُحَافِظُ عَلَيْهِ (..)؛ وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: ارْعَوَى عَنِ الْقَبِيحِ، إِذَا رَجَعَ⁷³¹

والراعي اصطلاحاً هو: كل من وليّ أمراً بالحفظ والسياسة والرعاية؛ ومنه قول النبي: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"⁷³²

والرعية: عامة الناس الذين هم تحت مسؤولية الراعي يحفظهم ويسوسهم ويرعى شؤونهم المتعلقة بالمعاش والمعاد.

ومصطلح "منوط" مشتق في اللغة من فعل (نَوَطَ)، وهو كما قال ابن فارس: "التَّوْنُ

⁷³⁰ ن: "قاعدة التصرف على الرعية منوط بالمصلحة، دراسة تأصيلية تطبيقية فقهية"، د: ناصر بن محمد الغامدي، مجلة جامعة أم القرى، العدد: 46؛ سنة: 1430هـ؛ ص: 10

⁷³¹ ن: "مقاييس اللغة" مصدر سابق؛ بتصريف، (2/ 309308)

⁷³² ن: "مقاييس اللغة" مصدر سابق؛ بتصريف، (2/ 309. 308)

وَالْوَأُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْلِيْقِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. وَنُطْتُ بِهِ: عَلَّقْتُهُ بِهِ. وَالنَّوْطُ: مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ أَيْضًا، وَالْجُمُعُ أَنْوَاطٌ. "733

وفي الاصطلاح لا يبعد عن المعنى اللغوي؛ فيكون المقصود منه الربط بالمصلحة.

وبناء على ما سبق فإنَّ التعريف العام لقاعدة (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة) هو: "أنَّ ما يصدر من تدابير وقرارات عن ذوي المسؤوليات والوظائف العامة يجب أن تكون مبنية على رعاية مصالح عموم الناس ومقيّدة بها، وألا تكون ارتجالية، أو مزاجية، أو قائمة على اعتبار الأغراض الشخصية، أو مبنية على المحاباة أو المحسوبية"734

قال الشيخ أحمد الزرقا: "التصرّف على الرعية منوط بالمصلحة، أي: إنّ نفاذ تصرف الراعي على الرعية ولزومه عليهم شأؤوا أو أبوا، معلق ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه، دينية كانت أو دنيوية؛ فإنّ تضمن منفعة ما وجب عليهم تنفيذه، وإلا رُدّ".735

وهكذا فإن كل تصرف يصدر من الراعي - أي المسؤول - في أمور الناس دون أن يراعي مصالحهم العاجلة والآجلة المرتبطة بالمعاش أو المعاد، فهو مرفوض ولا مشروعية له البتة!

وهذا المعنى ذكره القرافي الفقيه المالكي رحمه الله بقوله: "كلُّ مَنْ وَلِيَ ولايةَ الخلافةِ فما دونها لا يحِلُّ له أن يتصرّف إلا بجلب مصلحةٍ أو درء مفسدةٍ"736

ويمكن أن يقال: "إن هذه القاعدة تضبط الحدود التي يتصرف في نطاقها كل من

733 ن: "مقاييس اللغة" مصدر سابق؛ بتصرف، (370 / 5)

734 ن: "قواعد المقاصد" للريسوني، مرجع سابق؛ بتصرف، ص: 141

735 ن: "شرح القواعد الفقهية" لأحمد الزرقا، نشر دار الغرب الإسلامي بيروت؛ ط: 1؛ سنة: 1410هـ؛

القاعدة: 57

736 ن: "الفروق" للقرافي، مصدر سابق، (76 / 4)

ولي شيئاً من أمور العامة من إمام أو والٍ أو أمير أو قاضٍ أو موظف، وتفيد أن أعمال هؤلاء وتصرفاتهم وأفعالهم لا بد أن تكون مبنية على مصلحة الجماعة؛ لأن الولاة والأمراء والقضاة وغيرهم ليسوا عمّالاً لأنفسهم إنما هم وكلاء على الأمة في القيام بشؤونها، فعليهم مراعاة كل ما يقيم العدل ويزيل الظلم ويحق الحق ويصون الأخلاق، والحرص على أموال العامة ورعايتها وإنفاقها فيما يعود على الأمة بالخير، كما لا يجوز لهم أن يجابوا بها أحداً دون أحد لجأه أو لسلطان⁷³⁷.

ولذلك فإنّ ما يفعله بعض المسؤولين من جعل الوظيفة - التي حمّلوا تبعاتها - غنيمة ومكسباً لتحقيق مكاسب شخصية والإضرار بالآخرين يعتبر خيانة من أكبر الجرائم في حق الوطن والرعية من المواطنين، كما دلّت على ذلك أحاديث كثيرة ستأتي الإشارة إلى بعضها في المطلب القادم بإذن الله تعالى!

خلاصة واستنتاج:

وخلاصة القول أن القاعدة تعني: أنّ نفاذَ تصرّف الراعي وهو كل من وُلّيَ أمراً من أمور العامة بدءاً من السلطان إلى أصغر موظف من الدولة ولزومه على الرّعية مرتبط بوجود المنفعة والمصلحة في تصرّفه سواء كانت ضرورية أو حاجية أو تحسينية، وسواء دينية كانت أو دنيوية، عاجلة أو آجلة، لأنه إنّما أُعطي السلطة لمصلحة العباد وصيانة دينهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم وجميع ضرورياتهم وحاجاتهم؛ وهو مُؤتمّنٌ من قِبَل الشارع على مصلحة مَنْ تحت يده..

وهذه القاعدة العمرانية دلت عليها كثير من الأدلة والبراهين في الكتاب والسنة والآثار؛ وهو ما سنبيّنه بإذن الله في المطلب القادم..

⁷³⁷ ن: "الخراج" لأبي يوسف، الطبعة السلفية، ط: الثالثة، سنة: 1382 هـ ص: 65

المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية وحجيتها

حينما ندقق النظر في هذه القاعدة العمرانية نجد لها أدلتها من خلال سياقات آي القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً، منطوقاً ومفهوماً، ولها أدلة من أحاديث النبي ﷺ وكذا من سيرته ﷺ وسير أصحابه رضي الله عنهم؛ والفقهاء وعلماء المقاصد! وكذلك سنستأنس بأقوال أهل العلم الذين كتبوا وألفوا في موضوع السياسة الشرعية وعلم الاجتماع.

وهذا التنوع من مصادر الأدلة إن دلّ على شيء فإنما يدل على قيمة القاعدة العمرانية وقوّتها الحضارية ممّا يستدعي العناية بها وتفعيلها في الحركة العمرانية.

ولتكن البداية من القرآن فهو أصدق برهان، وأقوى بيان! ومن آيه التي تدل على طبيعة تصرف الراعي إزاء رعيته من أجل سلامة العمران، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ۝﴾⁷³⁸ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝

⁷³⁸، قال الشيخ رضا في مناره: "هاتان الآيتان هما أساس الحكومة الإسلامية، ولو لم ينزل في القرآن غيرهما لكفتا المسلمين في ذلك إذا هم بنوا جميع الأحكام عليهما"⁷³⁹؛ وهو أمر صحيح! حيث تعتبر الآيتان أصلاً في تنظيم العلاقة بين أولياء الأمور الذين يمثلون (السلطة) وبين الرعية!!

⁷³⁸ النساء: 58 / 59

⁷³⁹ ن: "تفسير المنار"، مرجع سابق (5 / 136)

وقد سبق الاستدلال بهذه الآيات على قاعدة (لا عمرانَ إلا بسلطان)، وتصلح دليلاً على هذه القاعدة أيضاً، أي قاعدة: (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة)، وهذا راجع إلى العلاقة الرابطة بين القاعدتين، وقد سبقت الإشارة في بداية المبحث أنّ القاعدة الثانية مبيّنة وموضّحة للقاعدة الأولى، فتنبّه!

وقد سبق ذكر قول ابن عطية الأندلسي في تفسير الآيتين؛ وفيه: "والأظهر في الآية أنّها عامة في جميع الناس، و(..) تتناول الولاية فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال وردّ الظالمات وعدل الحكومات وغيره."⁷⁴⁰ وهذا كلّه يدل وجوب انضباط تصرف الراعي بالمصلحة إزاء رعيته، وعلى رأس ذلك الانضباط بالعدل دون ظلم أو بغي أو عدوان، ومن المعلوم أنّ العدل أساس تحقيق المصالح ودرء المفاسد، فتأمل!

وقد ذكر الإمام الرازي وغيره قول علي رضي الله عنه ما تضمّنته هذه الآيات البيّنات وهو يتحدث عن المسائل التي تندرج تحت الآيتين السالفتين: "قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا"⁷⁴¹؛ ولا شك أنّ من الأمانة والعدل المأمور به شرعاً التقيد بما يجلب المصالح ويدرأ المفاسد عند التصرف في أمور الرعية

ويذكر رشيد رضا في تفسيره المنار: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي: "ذلك الذي شرعناه لكم في تأسيس حكومتكم، وإصلاح أمركم، (...) خير لكم في نفسه، لأنه أقوى أساس لحكومتكم، والله أعلم منكم بما هو خير لكم، (...) وهو على كونه خيراً في نفسه أحسن تأويلاً أي مآلاً وعاقبة؛ لأنه يقطع عرق النزاع ويسد ذرائع الفتن

⁷⁴⁰ ن: "الحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي، مصدر سابق، بتصرف (70 / 2)

⁷⁴¹ ن: "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي؛ مصدر سابق؛ (10 / 112)

والمفاسد⁷⁴²

ويمكن أن يُستدلّ على هذه القاعدة بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾⁷⁴³؛ والشاهد من هذه الآية الكريمة ومثيلاتها أنّه إذا كان الشرع الحنيف أوجب على ولاية الأمور أن يراعوا مصلحة اليتيم، وهي مصلحة خاصة؛ فمن باب أولى وأحرى وجوب مراعاة المصلحة العامة المتعلقة بعموم الناس؛ إذ من المعلوم أنّ اعتناء الشرع بالمصلحة العامة أكد من اعتناؤه بالمصلحة الخاصة..

أما الأحاديث الشاهدة على هذه القاعدة فهي متعددة وكثيرة؛ نكتفي بما نراه موفياً بالغرض:

من ذلك قوله ﷺ: (ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لم يجهد لهم وينصح لهم كنصحه وجهده لنفسه إلا لم يدخل معهم الجنة)⁷⁴⁴

وقوله النبي ﷺ: (ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)⁷⁴⁵

"فهذان حديثان يدلان على التحذير من غشّ المسلمين من قبل مَنْ قلّده الله تعالى شيئاً من أمرهم واسترعاهم عليهم، ونصبه لمصلحتهم في دينهم ودنياهم، وأنّ الواجب

⁷⁴² ن: "تفسير المنار"، مرجع سابق (5/ 156)

⁷⁴³ أخرجه مسلم

⁷⁴⁴ أخرجه مسلم

⁷⁴⁵ متفق عليه.

على من وَلِيَ شيئاً من أمور المسلمين، عاماً كان أو خاصاً، أن ينصح لهم ويحفظ حقوقهم، ويقيم العدل بينهم، ويسعى في تحقيق مصالحهم ودرء المفساد عنهم⁷⁴⁶ ومن المواقف النبوية الدالة على أن تصرف الراعي لا بد أن يكون في إطار تحقيق المصلحة ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً فأوقد ناراً وقال: ادخلوها، فأرادوا أن يدخلوها وقال آخرون: إنما فررنا منها، فذكروا للنبي ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلوها لم يزلوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين: لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف)⁷⁴⁷

فهذا دليل واضح في أن طاعة الراعي والولي منوطة بسعي هذا الأخير في تحقيق منفعة رعيته، وجلب مصالح الدارين ودرء مفسدتهما؛ ومما يشمل هذا الحديث أن تصرف الراعي بخلاف المصلحة لرعيته من المعصية التي لا تجب الطاعة له شرعاً ولا عرفاً.

فقد جاء في الحديث: (من ولي من أمور هذه الأمة عملاً فلم يحطها بنصح، لم يرح رائحة الجنة)⁷⁴⁸.

وهذا حديث يكاد يخلع القلب حيث يحتمل المسؤولين تبعات ثقيلة إزاء من ولاهم الله عليهم؛ وأنّ التهاون في ذلك أو الغش في تلك الوظيفة بأي وجه من وجوه الغش

⁷⁴⁶ ن: "قاعدة التصرف على الرعية منوط بالمصلحة" نقلاً عن كتاب: "المطلع على ألفاظ المقنع" لأبي الفتح

البعلي، مرجع سابق، بتصرف قليل، ص: 27

⁷⁴⁷ رواه البخاري.

⁷⁴⁸ متفق عليه.

يؤدي بصاحبه إلى البوار، وبئس القرار!!

ومن الأحاديث الشاهدة لهذه القاعدة العمرانية ما رواه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (أَلَا كُتُّكُمْ رَاعٍ، وَكُتُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُتُّكُمْ رَاعٍ، وَكُتُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ⁷⁴⁹.

وهذا حديث كاف وشاف في موضوع تحمل المسؤولية أية مسؤولية؛ والله المستعان!! وهناك آثار كثيرة ومتعددة من أقوال الصحابة رضي الله عنهم وأفعالهم تشهد لهذه القاعدة أيضاً؛ ومن استقرأ أفعال الخلفاء الراشدين - الذين أُمِرنا بالاعتداء بهم على لسان رسول الله ﷺ ⁷⁵⁰ - في هذا الأمر وجد سجالاتهم طافحة بجلال الأعمال، التي كان منطلقها تحقيق مصالح الرعية إما بجلب المنافع أو دفع المضار عنهم؛ نذكر من بينها ما يلي:

ويعتبر أبرز عمل قام به أول خليفة لرسول الله ﷺ هو محاربة مانعي الزكاة والمرتدين، ويُعتبر اجتهداً قام به الصديق رضي الله عنه معتمداً في ذلك على مراعاة مصلحة رعيته بالحفاظ على ضرورة الدين؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: "لما توفي رسول الله

⁷⁴⁹ متفق عليه.

⁷⁵⁰ وهو ما دلّ عليه حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه، وفيه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وكان أبو بكر بعده، وكَفَرَ من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر! كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى)؟! قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها؛ قال عمر: فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق"⁷⁵¹

وكذلك جمعه للمصحف حينما اشتد القتل في غزوة اليمامة كما جاء في صحيح البخاري: (قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر)⁷⁵²؛ وهناك أمور أخرى قام بها أبو بكر رضي الله عنه كان الدافع لها هو تحقيق مصلحة رعيته، لا يتسع المقام لذكرها..

أما إذا رجعنا إلى سيدنا عمر رضي الله عنه فله اجتهادات كثيرة، نوجز الكلام في أهمها:

1. وأول هذه الآثار ما أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" عن عمر بن الخطاب

⁷⁵¹ أخرجه البخاري رقم: 7285، ومسلم رقم: 32.

⁷⁵² رواه البخاري في صحيحه، رقم: 4986.

رضي الله تعالى عنه، أنه قال: (أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، وإن أيسرت رددته، فإن استغنيت استعفت)⁷⁵³؛ وهذا يدل دلالة واضحة على أن الإمام، أو مَنْ دونه من المسؤولين إنما يتصرف وفقاً للمصلحة العامة، وليس لتحقيق رغباته الشخصية، وأغراضه الذاتية كما يفعل بعض الناس اليوم حيث يوظفون أموال الدولة - التي هي حق للشعب كله - في أغراضهم الشخصية، بل ويختلسونها بطرق خفية، يا ويلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁷⁵⁴!!

2. التوقف عن إنفاق سهم المؤلفة قلوبهم:

كان للمؤلفة قلوبهم، وهم حديثو العهد بالدخول إلى الإسلام، ممن ارتبط دخولهم إليه بأسباب سياسية واجتماعية أو غيرها، دون قناعة إيمانية بالضرورة، سهم رئيسي من أسهم الزكاة كما نص القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁷⁵⁵؛ واستمر هذا السهم أو النصيب من مصارف الزكاة حتى عهد عمر بن الخطاب، الذي رأى عدم حاجة المسلمين إلى الاستمرار في إنفاقه بعد أن أصبحت الأمة والدولة الإسلامية في وضع متنام من القوة العسكرية والسكانية والجغرافية، على نحو انتفت معه الحاجة من وجهة نظر عمر إلى الاستمرار في دفعه، وبذلك أصبح اعتناق العقيدة محكوم بمبدئه الأصلي والأساسي: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾⁷⁵⁶؛ وهذا فيه دليل واضح على أن تصرف عمر رضي الله عنه كمسؤول عن رعيته كان موجّهاً ببوصلة

⁷⁵³ أخرجه ابن كثير أيضا بسند صحيح في تفسيره (190/2)، كما أخرجه البيهقي رقم: 11321

⁷⁵⁴ المطففين: 6

⁷⁵⁵ التوبة: 60

⁷⁵⁶ الكهف: 29

مصلحة الأمة؛ فله درّه!!

3. وقف تطبيق حد السرقة في عام الرمادة

كان عام الرمادة عام قحط شديد في الجزيرة العربية، على نحو اضطر معه ساكنتها لأكل الميتة وأكل ما تبقى من أوراق الشجر، جراء موت المزروعات والكلاء ومن ثم الماشية نتيجة للحر والجفاف الشديد؛ وفي هذا العام أوقف عمر بن الخطاب حد السرقة، في مخالفة ظاهرة للنص القرآني الصريح والواضح في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوهُمَا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁷⁵⁷؛ مراعاة لشبهة الاضطرار الذي قد يتعرض له السارق !

4. وقف قسمة أرض السواد:

وهذه القضية من أهم القضايا الاجتهادية التي قام بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بعد فتح العراق ومصر البلدان اللذين يشتهران بأراضييهما الزراعية الخصبة الواسعة في وديان أنهر كل من النيل ودجلة والفرات، رأى عمر بدلاً من تقسيم أراضي تلك البلدان على الفاتحين كما حدث في عهد النبي ﷺ في تجارب الفتح السابقة، أن يجعلها ملكاً لدولة الخلافة ومن ثم جميع المسلمين في الحاضر والمقبل من الأيام، وذلك عبر فرض الخراج عليها.

ويبدو هنا أن الدوافع التي دفعت عمر رضي الله عنه لاتخاذ هذا القرار كانت هي رغبته في خلق موارد مستدامة للدولة من جهة، ومن جهة أخرى الحيلولة دون تكوين طبقة إقطاعية تستحوذ على كل الأراضي والأموال في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت.

5. إيقاع الطلقات الثلاث كطلقة واحدة:

عن ابن عباس قال: (كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وستين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: (إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم». فأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ)⁷⁵⁸؛ ولعل المصلحة التي دفعت بعمر رضي الله عنه فعل ذلك هو تأديب المخالفين في أمر الطلاق حتى يرتدعوا.

وهناك اجتهادات كثيرة أخرى لعمر بن الخطاب ولعثمان وعلي رضي الله عنهم وعن صحابة رسول الله أجمعين لا يتسع المقام للتعريج عليها..

والمقصود مما سبق من أدلة أنّ قاعدة (تصرف الراعي منوط بمصلحة الرعية) لها شواهد وأدلتها التي تعطيها حجّة نستند إليها في إقامة عمراننا وبناء حضارتنا؛ فكانت بذلك قاعدة عمرانية لها دورها الكبير في العديد من مجالات العمران؛ وهو ما نفرد له الحديث في المطلب الآتي:

⁷⁵⁸ . رواه مسلم رقم:

المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية

من خلال الجواب عن السؤالين الأولين في المطلبين السابقين ننتقل إلى الجواب عن السؤال الثالث، والمتعلق بدور القاعدة وأهميتها العمرانية في مجالات الحياة المختلفة..

وإذا دققنا النظر مرة أخرى في هذه القاعدة العمرانية (تصرف الراعي منوط بمصلحة الرعية) من خلال تناولنا لمفهومها وأدلتها يجعلنا ندرك قوتها من حيث الحجية وفعاليتها العمرانية، وندرك أيضا خطورة نبذها وراء الظهور وعدم الأخذ بها، وما ينتج عن ذلك من استبداد وظلم وطغيان، ولربما أدى إلى فوضى ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ ﴾⁷⁵⁹؛ وهو ما يُعطي هذه القاعدة دورا عمرانيا متينا، لأن ربط تصرف الراعي على رعيته بالمصلحة، يجعل المسؤولية لا تبرح أي مسؤول من مسؤولي الدولة كائنا ما كان، وبالتالي يكون فعله وقوله وفق هذا المنظور، فلا يتصرف تبعاً لرغبته وأهوائه فيضل ويضل كما قال الله تعالى: ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ بِأَحْكُمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾⁷⁶⁰؛ وهذا ما يؤكد قوة هذه القاعدة وحضورها المؤثر والقوي في عمران الإنسان في العاجل والآجل، وفي المعاش والمعاد!!

والحديث عن ربط التصرف بالمصلحة يجعلنا نستحضر مراتب المصالح التي جعلها العلماء في ثلاث درجات متفاوتة من حيث القوة، بدءاً بالضرورة ثم الحاجة ثم التحسينية؛ ويمكن أن نجملها في قسمين رئيسين، دينية ودنيوية؛ وهو ما أشار إليه ابن

⁷⁵⁹ الذاريات: 42

⁷⁶⁰ ص: 25

خلدون من خلال تعريفه للإمامة التي هي وظيفة الراعي ؛ يقول رحمه الله: " فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"⁷⁶¹؛ وبناء على هذا سنجمل الحديث عن تطبيقات هذه القاعدة - التي من خلالها تبرز أهميتها العمرانية - في مجالين واسعين وهما: المجال الديني، والمجال الدنيوي، إذ يمكن إدراج كلّ المجالات تحتها:

• المجال الديني:

وهذا المجال يتجلى فيه دور الراعي تجليا بارزا وبصور مختلفة ومتعددة، وهو ما عبر عنه ابن خلدون ب(حراسة الدين)، وهذا المعنى هو المشار إليه في كتاب سراج الملوك للطرطوشي بقوله: " وقال كعب: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان، والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضها إلا ببعض"⁷⁶²؛ ومن هنا فإنّ تصرف الراعي ينبغي أن يكون محققا لمصلحة حفظ الدين من جانبي الوجود والعدم - بتعبير الشاطبي - وأيّ تصرف من الراعي يكون بخلاف ذلك فهو خارج عن الشرعية، ولا تجب طاعة الرعية له في ذلك، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكل تصرف لا يخدم الدين فهو معصية لله تعالى. وإقامة الدين والحفاظ على ثوابته مقصد أساس من مقاصد تولية الراعي وتصرفه على رعيته في الإسلام، وهذا ما نلاحظه في تعريف العلماء للخلافة كما مرّ بنا عند الأئمة: الجويني والماوردي وابن خلدون وغيرهم⁷⁶³؛ فالحاكم الأول، أو الإمام الأعظم، وكل من

⁷⁶¹ ن: "المقدمة" مصدر سابق (1/ 239)

⁷⁶² ن: "سراج الملوك" للطرطوشي، مصدر سابق، (1/ 61)؛.

⁷⁶³ ورد ذلك في المسألة الأولى من المطلب 3، في المبحث 2، من الفصل الثاني في الباب الأول من هذه الأطروحة.

يلي عنه أمراً مخاطباً ومسؤول عن إقامة الناس على جادة طريق الدين، والأمة ملزمة بطاعتهم في ذلك؛ "وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب الله وسنة نبيكم ويقسموا بينكم فيئكم)... فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان، كان من أفضل أهل زمانه، وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله"⁷⁶⁴؛ لأن الحاكم أو الراعي إنما أعطي حق التصرف بمقتضى البيعة بشرط الحفاظ على حوزة الدين وحماية بيضة الإسلام، وهو المعنى الذي أشار إليه الإمام ابن حجر بقوله: "والأصل في مبايعة الإمام أن يبايعه على أن يعمل بالحق ويقيم الحدود ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر..⁷⁶⁵"

ومن المعلوم أنّ البيعة عهد بين الراعي والرعية وهي: عقد وكالة بين أفراد الأمة وولي الأمر، وهذه الوكالة هي قيام ولي الأمر بما فيه صلاح الناس في دينهم بإقامة شرائعه وتطبيق حدوده، وحماية البلاد من كيد الكائدين، وشر الأشرار في الداخل والخارج، ونشر الأمان والاطمئنان، وعهد بالتزام الرعية بالسمع والطاعة، ولكل من الطرفين واجبات وحقوق كفلتها الشريعة، فهي إعطاء العهد من المبايع على السمع والطاعة للإمام في غير معصية، في المنشط والمكره والعسر واليسر وعدم منازعته الأمر وتفويض الأمور إليه؛ قال ابن خلدون في مقدمته: "اعلم أنّ البيعة هي العهد على الطاعة كأنّ المبايع يعاهد أميره على أنّه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمر المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره..⁷⁶⁶"

⁷⁶⁴ ن: "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" مصدر سابق، (2221/1)

⁷⁶⁵ ن: "الفتح" مصدر سابق، (203 / 13)

⁷⁶⁶ ن: "المقدمة" مصدر سابق، (261/1)

وبناء على ما تقدم فإنه لا يجوز للحاكم أو من ينوب منابه في أي مسؤولية من مهام الدولة أن يفعل ما يتنافى مع ثوابت الدين والعقيدة بلة أن يهدم الدين كما فعل بعضُ العلمانيين بدعاوى زائفة يُعني بطلانها عن إبطالها وفسادها عن إفسادها؛ كما فعل بورقيبة في تونس في القرن الماضي حين ألزم الناس بالإفطار في رمضان بدعوى أن الصيام يُضعفُ الاقتصاد ويضرّ الصحة - وهي دعوى مترهلة ليس محلّ تنفيذها هنا - وهو الذي لم يصم أو يصلى يوماً ليعرف هل يضعفه الصيام أم لا؛ ولم يقف بورقيبة عند هذا الأمر، بل قال ساخراً من القرآن: هل هناك شخص ينام 300 عام، يقصد أهل الكهف الذين خلد ذكرهم القرآن الكريم؛ وهذا جهل منه عن طلاقة القدرة في حق الله تعالى، وأن الله الذي يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير؛ وتهكم من تحول العصا إلى ثعبان، تلك القصة التي وردت في القرآن الكريم ضمن معجزات سيدنا موسى عليه السلام، ناسياً أو متناسياً أنها وردت في كل الكتب السماوية، لكنه لم يستطع أن يهاجم أي دين سوى الإسلام، ولم يسفّه أي حضارة سوى حضارته، لأنه يعرف تبعات الهجوم على الآخرين؛ كما استهزأ من الحجاب الذي فرضه الإسلام على المسلمة؛ ودعا إلى تغيير الميراث زاعماً أن الإسلام ظلم الأنثى⁷⁶⁷.. وغيرها من الأمور التي قام بها هذا الزعيم الملهم الذي لم يصنع شيئاً عدا الفساد والإفساد للبلاد والعباد، والتشويش على رعيته في أمور المعاش والمعاد؛ فالقاعدة التي نحن بصدد دراستها تقف سدا منيعاً أمام مثل هذه التصرفات الشيطانية، والترهات الإبليسية!!

وقد سبق أن سقت كلاماً للإمام الجويني تحدّث فيه عن تصرف الإمام المتعلّق بحفظ

⁷⁶⁷ ن: مقال "بورقيبة والسبسي.. الصيام والمواريث"، ناجح إبراهيم؛ نشر في: الجمعة 25 أغسطس 2017؛

9:10 م؛ بجريدة الشروق الإلكترونية.

الدين فروع وأصوله، وكان من قوله: "فأما القول في أصل الدين فينقسم إلى: حفظ الدين بأقصى الوسع على المؤمنين، ودفع شبهات الزائغين (...) وإلى دعاء الجاحدين والكافرين، إلى التزام الحق المبين."⁷⁶⁸

ثم قال في هذا الصدد: "كان حقا على الإمام أن يرعاهم - أي الناس الذين تحت ولايته - بنفسه ورقبائه، بالأعين الكالئة، فيرقبهم بذاته وأمنائه بالآذان الواعية، ويشارفهم مشارفة الضنين ذخائره، ويصونهم عن نواجم الأهواء، وهواجم الآراء، فإن منع المبادي أهون من قطع التماذي"⁷⁶⁹.

ثم تحدّث عن مسؤولية الإمام عن الزائغين المبتدعين بقوله: "إن كان ما انتحله ذلك الزائغ النابغ ردة استتابه - أي الإمام؛ فإن أبي واستقر وأصر، تقدم بضرب رقبتة"⁷⁷⁰.؛ هذا طبعا إذا كانت بدعته مكفّرة؛ أما إن لم تكن كذلك فلا يُقتل، وإنما يعزّر كما هو معلوم في كتب الفقه؛ وكل هذا الذي ذكره إمام الحرمين هو من باب حراسة حوزة الدين من الخائضين والمعتدين حتى لا يظللّ الدين ألعوبة، وهو ما نشاهده اليوم في البلاد الإسلامية مع الأسف فما بين الفينة والأخرى يُطلّ علينا بعض المعتوهين من مرضى النفوس عبر منصات التواصل الاجتماعي بكلام كله ردة وكفر صريح دون خوف ولا حياء، ولا شك أنّ هذا يمثل خطرا في دين الإسلام وتدين المسلمين، خاصة حينما تضعف الثقافة الإسلامية عند الناس كزماننا هذا !!

⁷⁶⁸ ن: " الغياثي " للجويني مصدر سابق (184/1)

⁷⁶⁹ ن: المصدر السابق (184/1)

⁷⁷⁰ ن: المصدر السابق، بتصرف (185 184/1)

وقد فصل رحمه الله الحديث عن وظيفة حماية الدين من قبل الراعي بما هي مسؤولية منوطة بتصرف الراعي على الرعية؛ وقد سبق ذكر ذلك بالتفصيل فلا حاجة لإعادته هنا، فيُنظر هناك⁷⁷¹

• المجال الديني:

وهذا مجال رحب وخطير نظرا لتأثره الكبير والمباشر بتصرف الراعي سلبا وإيجابا، وهو مجال خصب للتشريعات والاجتهادات وسنّ القوانين المنظّمة له، وهذه السمة راجعة لما اتّسم به - هذا المجال - من التغيرات السريعة وخاصة في زماننا هذا، ولذلك نجد علماءنا يحكّمون فيه قواعد اجتهادية كالمصلحة المرسلّة والاستحسان والعرف، وغيرها من القواعد التي تتسم بالمرونة والسعة واستيعاب جميع المتغيرات؛ وقد سبق القول في قاعدة: (لا عمران إلا بسلطان) أنّ مسؤولية السلطان في رعاية شؤون الدنيا وسياستها لهي أصعب وأشد؛ لأن الدين أصوله على الأقل ثابتة وإنما هي في حاجة إلى حفظ ورعاية، أمّا أمور الدنيا فهي جد متطورة وسريعة التغير في الأحوال والأحداث والزمان والمكان وخاصة في عصرنا هذا، عصر الطفرات الصناعية والبيولوجية والبيئية والمواصلات؛ ولذلك تحتاج إلى اجتهاد وتجديد، وعناية وترشيد.

وقد سبق الحديث بشيء من التفصيل والبيان عن سياسة الراعي ونظره المصلحي في هذا الجانب، حيث تمّت الإشارة إلى كلام للإمام الجويني والإمام الماوردي في هذا الصدد؛ وقد بنى هذا الأخير سياسة الراعي - أو السلطان - للمجال الديني على قواعد أربع حدّدها.

بقوله: "وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره فتشتمل على أربع قواعد وهي:

⁷⁷¹. أوردت ذلك بالتفصيل في المبحث الأول من هذا الفصل ضمن قاعدة: "لا عمران إلا بسلطان"

(1) عمارة البلدان، (2) وحراسة الرعية، (3) وتدير الجند، (4) وتقدير الأموال "772 وهي في نظري تمثل قواعد كبرى في إقامة العمران وإنشاء الحضارة، لمن تأملها!!

ويتأكد أمر تصرف الراعي في شؤون رعيته في زماننا هذا وتزداد خطورته نظرا لما يعرفه العالم اليوم من تسابق محموم بين الدول نحو تحقيق الصدارة والتحكم والسيطرة في الدول المستضعفة واستنزاف خيراتها وثرواتها المكشوفة والمخبوءة؛ فلا مكانة للضعيف بين الأقوياء!! - وهذا أمر معلوم لدى القاضي والداني - وهو ما يجعل مسؤولية الراعي نحو رعيته في غاية من الصعوبة والكلفة! وإنما الموفق من وفقه الله، والمعصوم من عصمه الله!!

والمقصود أن قاعدة (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة) تعتبر قاعدة عمرانية أساس في السياسة الشرعية الداخلية والخارجية، والولايات العامة والخاصة في الإسلام، فهي تبلي حدود السلطة العامة، وترسم حدود الإدارات العامة والسياسة الشرعية في سلطات الولاية وتصرفاتهم على الرعية، كما تُعطي للسلطة صلاحيات واسعة في الدولة، تقوم ضمنها بما تشاء من التصرفات والتنظيمات؛ وأوجبت على الأمة إنفاذها والعمل بها، وعدم التحايل عليها، مما يعني أن لهذه التصرفات سنداً من الشرع؛ وهذا يتطلب من السلطة أن تكون تصرفاتها، في حدود مصلحة من هم تحت ولايتها، وتحقيق النفع العام لرعيته، بعيداً عن المفسدة والضرر؛ لأن الشرع لا يكون سنداً وظهيراً لتصرفات فاسدة، أو ضارة بالناس، أو مقيدة لشيء مباح دون مصلحة راجحة، أو منفعة مقصودة؛ لأن الولاية من الخليفة فمن دونه ليسوا عمالاً لأنفسهم، وإنما هم وكلاء عن الأمة في القيام بأصلح التدابير لإقامة العدل، ودفع الظلم، وصيانة الحقوق والأخلاق، وضبط الأمن، ونشر العلم، وتطهير المجتمع من الفساد، وتحقيق كل خير للأمة بأفضل الوسائل، مما يُعبّر عنه بالمصلحة العامة، فكل عمل أو تصرف من الولاية

772 ن: "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك" للماوردي؛ مصدر سابق (1/ 158).

على خلاف هذه المصلحة مما يقصد به استئثار أو استبداد، أو يؤدي إلى ضرر أو فساد، هو غير جائز!!

وقد أحسن العلامة أبو بكر الأهدل حين صاغ في هذه القاعدة نظماً، قال فيه:

تَصَرَّفُ الْإِمَامُ لِلرَّعِيَّةِ *** أُنِيطَ بِالْمَصْلَحَةِ الْمَرْعِيَّةِ

وهذه نصَّ عليها الشافعي *** إذ قال قولاً ما له من دافع

منزلة الإمام من مرعيه *** منزلة الوالي من مؤليه

وأصلها روي من قول عمر *** فيما حكاه الأصل فانظر ما ذكر

فيلزم الإمام في التصرف *** على الأنام منهج الشرع الوفي

فلا يجوز نصبه لفاسق *** يؤم في الصلاة بالخلائق

وهذه الصورة عُدَّتْ وَاحِدَةً *** من التي انطوت عليها القاعدة⁷⁷³

وأخيراً وليس آخراً نقول إن هذه القاعدة العمرانية لها سلطتها الضابطة لمختلف مجالات عمران الإنسان وخاصة ما له علاقة بسياسة الرعاية؛ لذا وجب استثمارها والأخذ بها وتوظيف مقتضياتها؛ وخاصة في هذا العصر العصيب الذي لا مكان فيه للضعفاء أو الجبناء؛ وهو ما يتطلب منا جميعاً جعل هذه القاعدة العمرانية ومثيلاً منهاجاً استشرافياً لعمران الأمة حتى تتخلص مما أصابها من وهن وضعف، وتسترد ريادة العمرانية وقيادتها الحضارية!!

ذلك ما سنعرِّج عليه في ثنايا المطلب الآتي علّنا نستطيع أن نرسم آفاقاً مشرقة تضيء المسار الحضاري للأمة وتحدّد بعض معالمها العمرانية!

⁷⁷³ ن: "شرح الفرائد البهية في نظم القواعد الفقهية" للأهدل، شرحها محمد صالح موسى؛ مؤسسة الرسالة بيروت،

المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة

إن النظر في هذه القاعدة العمرانية التي نحن بصدد دراستها، واستحضار دلالاتها ومجالاتها بما بيّنت آنفاً، لِيُثْمِرَ تفعيلُها مستقبلاً عمرانياً ناجحاً تصلح به البلاد ويسعد به العباد؛ إذ يعتبر نَوْطُ تصرف الراعي على رعيته بالمصلحة شرطاً أساسياً في نجاح الحركة العمرانية، ومقدّمة ضرورية في البناء الحضاري لأي أمة في تاريخ الإنسانية.

وبعد جولتنا المتأنية مع هذه القاعدة المهمة في محطاتها المتنوعة؛ أنتقل إلى بيان دورها الاستشرافي لعمران الأمة خصوصاً والإنسانية عموماً، والناظر بعمق في تلك القاعدة ليقون يقيناً ما له مِنْ مَيِّنٍ أَنَّ المسلمين لو أخذوا بهذه القاعدة وفعلوا مقتضياتها بدءاً من الحاكم - السلطان أو الرئيس - الذي يمثل أعلى سلطة في البلاد، إلى أصغر مسؤول ولو كان رب أسرة؛ لقول النبي ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ..) الحديث⁷⁷⁴؛ حتى يُنَاطَ تصرف كل واحد بالمصلحة في كل صغيرة وكبيرة من مجالات الحياة المختلفة والمتعددة، لاستطاعوا أن يستردّوا مجدهم المسلوب، وعزّهم المفقود في المستقبل القريب، ولتمكّنوا من إعادة بناء عمرانهم التليد، وحضارتهم كما كانت في العهد الرشيد!!

إنّ ربط تصرف الراعي على الرعية بالمصلحة سواء كانت مصلحة ضرورية أو حاجية أو تحسينية، وسواء كانت دينية أو دنيوية يمثل دعامة قوية في إقامة عمران الإنسان وحضارة الأمة الإسلامية؛ فتصرف الراعي في المجال الديني حينما يكون منوطاً بمصلحة حفظ دين المجتمع سواء من جانب الوجود كالإزام الناس بالمحافظة على صلاة الجمع

⁷⁷⁴ جزء من حديث سبق تخريجُه.

والجماعات أو دفع زكاة أموالهم، ويدخل فيه ما فعله أبو بكر رضي الله عنه حين أمر بجمع القرآن بعد حثّ عمر رضي الله عنه له بعد مقتل سبعين من القراء في غزوة اليمامة، وكانت حجة عمرة لأبي بكر قوله : (هو والله خير) أي فيه مصلحة حفظ القرآن من الضياع بموت حفظته؛ أو كانت مصلحة حفظ الدين من جانب عدم كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حينما قتل أهل الردّة ومانعي الزكاة؛ ولا شك أنّ تصرف الراعي بهذا الشكل وعلى هذا المستوى يساهم بشكل كبير في الحفاظ على حوزة الدين من الضياع والاندثار؛ ومن اليقين أنّ لهذا العمل دوراً استشرافياً لعمران الأمة الروحي؛ ودونه ضياع لتدين الأمة وهويتها، ثم خراب لعمرانها الروحي، وفي الأخير يباب لعمرانها المادي وزوال!!

وكذلك الشأن في المجال الديني، وهذا مجال رحب لتصرف الراعي - كما سبقت الإشارة لذلك - فإن نوط تصرفه بمصلحة الأمة والحفاظ على مكتسباتها الحضارية سواء كان في مجال العلوم الحياتية، أو مجال البيئة، أو المجال الصناعي، أو الفلاحي.. أو غير ذلك، يحفظ لها سيادتها وريادتها بين الشعوب والأمم..

وإن تصرف الراعي بخلاف مصلحة الأمة واستئثار مصلحته الخاصة قد يدفعه إلى خيانة رعيته وموالاتة الأعداء وهو ما يتسبّب في تسلطهم على البلاد والعباد، وقد يؤدي هذا إلى خراب البلاد وفناء العباد؛ وقد حدّثنا التاريخ عن خيانة كل من الوزير بن العلقمي ونصير الدين الطوسي للخلافة العباسية وارتكابهما جريمة حضارية كبيرة بحق المسلمين، يقول عنها ابن كثير راوياً أحداث سنة 642هـ: " ثم دخلت سنة اثنين وأربعين وستمئة فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن

أحمد بن علي بن محمد العلقمي المشؤم على نفسه، وعلى أهل بغداد، الذي لم يعصم المستعصم في وزارته، فإنه لم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة، فإنه هو الذي أعان على المسلمين في قضية هولاءكو وجنوده قبحه الله وإياهم⁷⁷⁵؛ وكان هذا سببا في خراب عمران الدولة العباسية؛ ومثل هذا كثير في تاريخ الحضارات الإنسانية عموما، والحضارة الإسلامية خصوصا!! ولا يزال الأمر يتكرر في عصرنا هذا من بعض حكام العرب والمسلمين في كثير من المواقف والقضايا المصيرية للأمة الإسلامية؛ وعلى رأسها قضية القدس الشريف وفلسطين المحتلة!! حيث نجد منهم مَنْ يرجح مصلحته الخاصة على حساب مصلحة الأمة وهو ما يُوقع الأمة في ضعف وخراب لعمرانها وبياب لحضارتها، والله المستعان!! وللخروج من هذا الوضع المزري لابد من استثمار قاعدتنا العمرانية: (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة) سواء كان على سبيل الدولة الواحدة بكل مكوناتها، أو كان على سبيل الأمة جمعاء، إذ تعتبر هذه القاعدة العمرانية بمثابة انطلاق استشرافي لعمران زاهر وحضارة منشودة!!

هذه جولة موجزة حاولت فيها أن أشير إلى بعض النتائج المستقبلية لهذه القاعدة العمرانية المرتبطة بعمران الأمة وحضارتها، والتي يمكن تحقيقها عن طريق توظيف هذه القاعدة في مختلف كيانات الأمة، بدءا بالأسرة كأصغر كيان، إلى أكبر كيان وهو الأمة جمعاء؛ توظيفا مبنيا على قواعده وأصوله؛ ولن أزعم أنني أحطت بفوائد هذه القاعدة المستقبلية، ولكن حسبي أنني بدأت بالإشارة إلى ذلك على أن يأتي مَنْ يُكملُ ويتم هذا المشروع الهادف!!

⁷⁷⁵ ن: "البداية والنهاية" لابن كثير، مصدر سابق؛ (13 / 192)

وفي مسك الختام:

نقول: إنّ هذه القاعدة العمرانية (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة) تمثل طاقة استشرافية لعمران الإنسان إن أُحْسِنَ توظيفُها، وتَمَّ تنزيلُها وَفُقَ مناطقها الخاصة والعامة، كل نفس في نفسها، وكل مجتمع في مجموعه، وهو ما يتطلب تكثيف الجهود على كل الأصعدة حتى نَعْبُرَ إلى بَرِّ الأمان، فيتحقق العمران ويسعد الإنسان، بفضل الرحيم الرحمان؛ ذلك ما كان، والله المستعان!!

خاتمة

وبعد هذه الجولة الفكرية الممتعة والشاقة - في نفس الوقت - بين جنبات هذا الموضوع البكر الذي تناولت من خلاله تقعيد العمران وعلاقته بالإنسان، تأصيلاً وتحليلاً ودراسة، وآثاره الاستشرافية لمستقبل الأمة العمراني والحضاري؛ ألخص نتائج هذا البحث معقبا عليها ببعض التوصيات والاقتراحات أسوقها فيما يلي:

- إن موضوع التقعيد العمراني لم يحظَ بالعناية اللازمة من لدن الباحثين كما هو الشأن لبعض العلوم التي لقيت عناية فائقة؛ ومن ثم فإنّ البحث في قواعد العمران يحتاج إلى عناية خاصة ويتطلب جهداً كبيراً بالدراسة والتحليل، وخاصة إذا علمنا أن موضوع العمران يتعلّق بمصير الأمة خاصة، والإنسانية عامة!
- لقد أطلعنا الدراسة المصطلحية لمفهوم العمران وذلك من خلال تتبع دلالاته في القرآن والسنة واللغة أن مفهومه لدى كثير من الباحثين والمفكرين، بله عامة الناس عرف تعضيّة وتحجيماً، وأن الكثير منهم حصره في البنيان، ومن توسع في دلالاته جعله في المنشآت المادية فقط؛ في حين أنّنا ألفيناه مصطلحاً أوسع من ذلك بكثير وأشمل لكل فعل إنساني فيشمل الجانب الروحي والوجداني بكل مكوناته وأبعاده.. وهو ما سميّناه **بالعمران الروحي**؛ كما يشمل الجانب المادي بمختلف تجلياته ومقوماته.. والذي أطلقنا عليه **العمران المادي**..

- لقد توصلنا من خلال البحث والدراسة أن **العمران الروحي أصل وأساس ومقدّمة للعمران المادي**، وأن هذا الأخير فرع عن الأول ونتيجة له؛ وبالتالي فهو يتأثر بالأول مداً وجزراً، سلماً وإيجاباً، زيادة ونقصاناً؛ وعليه فالواجب يفرض على الإنسان العناية بالجانب الروحي من العمران، أي عمارة النفس والروح بالمعاني الإيمانية والأشواق الوجدانية والقيم الضرورية التي بها يصلح العمران المادي لزوماً.. وأنّ مشكلة الإنسان

المعاصر اليوم تكمن في عنايته بالجانب المادي للعمران وإهماله لروح العمران وجوهره؛ وهو نوع من الفساد والإفساد الذي يَنْقُضُ العمرانَ ويؤول به إلى خراب ويباب!! أنّ مصطلح العمران يساوي مصطلح العبادة في الماصّدق - بتعبير المناطقة - أي أن المصطلحين متساويان حيث أنّ أفراد كل منهما هي نفس أفراد الآخر؛ وهذا التساوي هو إحدى النسب المعروفة..

○ أنه لا عمران على وجه الحقيقة دون عبادة بمفهومها الواسع، ولا عبادة على الوجه الحقيقي من غير عمران، فهما متلازمان لا ينفكان؛ وأنّ أي خلل أو خطل في أحدها يُحدِثُ فسادا وتُلْمَة ونقيصة في الآخر، وهما المرادان بالاستخلاف التعبدي والحضاري.

○ أنّ إدراك مفهوم العمران كمصطلح مركزي لموضوع بحثنا يقتضي ربطه بمفهومي العبادة والاستخلاف؛ ذلك أن الخالق جل جلاله جعل الإنسان خليفة في الأرض فكلفه بعمارتهما - ماديا ومعنويا - وتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان وهي المتجسّدة في العبادة بمفهومها الشامل الكامل!!

○ أنّ العمران والعبادة لله تعالى - بمفهومهما الذي يبيّن بالتفصيل في هذا البحث - وجهان لعملة واحدة وهي القيام بأمانة الاستخلاف!!

○ قد ثبت من خلال البحث أنّ الدين - أي التوحيد - له دور عظيم في تشييد العمران وإقامته - كان العمران روحيا أو ماديا على حدّ سواء - كما أنّ الكفر والشرك خطر على الإنسان والعمران!! ومن ثمّ كانت ديباجة إحدى القواعد العمرانية هي: (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)، فتأمّله!!

○ أن العمران يرتبط ارتباطا وطيدا وقويا بالإنسان، فيتأثر الأول بالأخير سلبا وإيجابا، صلاحا وفسادا، بناء وخرابا!! حيث إن الإنسان أنيطت به مسؤولية الخلافة التي يُعتبر العمران وظيفتها الأساس!!

○ أن العمران الحقيقي يقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد بالمفهوم الشرعي المقاصدي، وليس بالمفهوم الوضعي لهما الذي يخضع في غالب أمره لشهوات ورغبات الأنا!! أو ما يُسمّى الهو عند الفيلسوف "سغموند فرويد"!!

○ أنّ العمران الذي يُسعد العباد ويصلح البلاد لا بد له من قواعد وأصول يقوم عليها وترجع إليها فروعه وجزئياته ومسائله، لضبطها وترشيد العمل الحضاري المتعلق بها؛ وهو ما دفعني إلى القيام بجدد بعض القواعد العمرانية التي تمثل أصولا لكثير من فروع العمران ومسائله وجزئياته في مجالات مختلفة، ثم بيان ثمارها الحضارية عند تنزيلها وتحقيق منطقتها العامة والخاصة؛ كل ذلك استشرافا لعمران أفضل للأمة وحضارة أرقى!!

○ أن فقه العمران علم جديد من حيث تميّزه وتخصّصه وبنائه، فيحتاج إلى استكمال لبناته وضبط قضاياها؛ ومن أهمّ ذلك استخراج قواعده الضابطة لجزئياته ومسائله، وتحريرها وتفعيلها، لكي تؤدي وظائفها، استشرافا لعمران يُسعد العباد ويُصلح البلاد، وتحقيقا لحضارة تحقّق مصالح العباد في المعاش والمعاد!

○ أنّ عملي في هذا الموضوع لم أقصد استخراج كل القواعد العمرانية، فتحقيق هذا الأمر دونه خسر القتاد؛ فهو يحتاج - كما أسلفت قبل - إلى فريق بحث عملي أكاديمي منظم ومهيكل على غرار ما قامت به بعض الجامعات الفقهية في استخراج القواعد الفقهية، وإنما اكتفيت ببعض النماذج المرتبطة ببعض المجالات التي رأيتها من الأهمية بمكان، كل ذلك من أجل إبراز أهمية التقعيد العمراني، وبيان آثاره الاستشرافية لعمران الأمة الإسلامية خاصة، وعمران الإنسانية عامة

○ أثبتت البحث أنّ هذا العلم - فقه العمران - أقصد - علم واسع تدخل ضمنه مجموعة من الفنون والعلوم، ويبسط أجنحته على مجالات الحياة كلها، نظرا لشمولية هذا المفهوم كما سبقت الإشارة إليه، وبالتالي فهو أحوج ما يكون إلى الضبط والتنظيم؛ وأحسب أن القواعد هي الجديرة بتحقيق هذا المقصد العظيم!!

○ ثبت أيضا أنّ فقه العمران هو فقه يرتبط بشهود الأمة الإسلامية وكيانها ووجودها، فالاعتناء به اعتناء بالأمة ومستقبلها؛ وإضاعته وإهماله إضاعة لمستقبل الأمة وخيانة للأمانة، ونكوص عن مهمة الاستخلاف!!

وبعد هذه الإشارات المقتضية لأهم ما أسفر عنه البحث واشتمل عليه بين جوانحه؛ لابد أن أشير إلى أنّ هنالك مسائل أخرى تتصل بهذا الموضوع الشاسع لم يسمح المقام لعرضها ودراستها، أجعلها في صورة توصيات لعل الله تعالى يُقيّض لها مَنْ يتناولها بالنظر والدراسة حتى يكتمل هذا الصرح وتزهو أزهار بستانه اليبانة!!

ونذكر أهم هذه التوصيات فيما يلي:

■ أن موضوع العمران ما يزال في حاجة ملحة إلى المزيد من البحث والدراسة في مسائله تنظيراً وتأصيلاً وتحليلاً، إذ هو موضوع يرتبط بتفاصيل الحياة كلها ومجالاتها المختلفة؛ وهذا يحتاج إلى تكثيف الجهود وتظافرها من لدن الباحثين..

■ أن قضية تععيد العمران وتأصيله من الأهمية بمكان، ومن الصعوبة أيضاً بميزان، وهو ما يفرض تكاثف جهود الباحثين عن طريق فريق عمل أكاديمي، لأن تحقيق هذا الهدف دونه خطر القتاد، إذا لا يكفي جهد باحث واحد مهما اجتهد لإيفاء الموضوع حقه ومستحقه!

■ أن هذه القواعد العمرانية تحتاج إلى تخرجها من كتب التراث الإسلامي، ثم تجريدتها وتنقيحها، ثم ترتيبها حسب مجالات الحياة المختلفة، وحسب موضوعاتها المتنوعة، ويمكن أن تكون في ذلك مثلها مثل قواعد الفقه الإسلامي وأصوله.

■ أن هذه القواعد تحتاج إلى تحقيق مناطاتها العامة والخاصة، وتنزيلها في أرض الواقع من أجل إنقاذ الأمة من غياهب الضعف والهوان، ورد الاعتبار لها وتحقيق شهودها الحضاري ونمائها العمراني؛ وهذا هو الجانب الأهم في هذا الموضوع، كما يمثل الدافع الأساس لخوض غمار هذا البحث!

■ أنّ الحضارة المعاصرة اليوم التي تتخبط في ألوان الحرمان تحتاج إلى حكماء يرشدونها إلى مثل هذه القواعد، علّها تصحو من غفلتها وتنهض من كبوتها، وتعيد الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها! فهل من داع ومرشد إلى ذلك؟!

وأخيرا أقول إنّني لا أزعم ولا أدعي الإتيان بشيء بلغ التمام والكمال، إذ الكمال لله وحده دون سواه؛ لكن حسبي أنّني لم أدخر جهدا في البحث، ولم أقصّر في الطلب والسعي لإخراج هذا العمل في هذه الصورة، حيث كتبت ما غلب على ظنيّ أنه صواب، مع الحرص على تحصيل الجودة والجودة، والإعراض والصّفح عمّا خالف ذلك، مسهّما قدر المستطاع في تكوين لبنة مهمة في موضوع العمران البشري؛ فإن وافقت الصواب وسلكت الحق فذلك محض توفيق الله وفضله، ﴿وَإِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. وإن أخطأت أو جانبت الصواب ولا بد، (إذ كل بني آدم خطاء، وخير الخطّائين التّوّابون)، فذلك لضعفي وقلة حيلتي؛ والله أسأل أن يتقبّل منّي فيما أصبت، ويجعله خالصا لوجهه الكريم؛ نافعا به في كل وقت وحين، وأن يتجاوز عني فيما أخطأت أو قصّرت، ويغفر لي ما قدّمت وما أخرت..

كما أسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزي عني خير الجزاء وأفضله أستاذي الكريم، صاحب الصدر الرحب الدكتور سعيد شبار على ما أولاني به من عناية ورعاية، وما أجاد عليّ من وقته الثمين رغم كثرة مشاغله وارتباطاته، حيث لم يأل جهدا - حفظه الله ورعاه - في تشجيعي وإرشادي بتوجيهاته وإرشاداته العلمية الرصينة التي كانت تمثّل زادا وفيرا في طريقي نحو الهدف المنشود؛ فله مني الشكر الوفير، وله الجزاء الأوفى من العليّ القدير.

صاحب أعلى مقام، محمد رسول السلام، وعلى آله وصحبه الكرام.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

مصادر التفسير ومعاني القرآن الكريم

- "أحكام القرآن للجصاص" للجصاص الحنفي، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين؛ الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان؛ الطبعة: الأولى، 1415هـ/1994م
- "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لناصر الدين أبي سعيد البضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الأولى سنة: 1418 هـ
- "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"؛ الشنقيطي؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، عام النشر: 1415 هـ/ 1995 م
- "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" للعلامة الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس سنة النشر: 1984م
- "تفسير البحر المحيط" أبو حيان الأندلسي؛ المحقق: صدقي محمد جميل؛ الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: 1420هـ
- "تفسير الشعراوي" لمحمد متولي الشعراوي؛ الناشر: مطابع أخبار اليوم، دون سنة الطبع.
- "تفسير العز بن عبد السلام" المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم؛ بيروت، الطبعة: الأولى: 1416هـ/ 1996م

- "تفسير القرآن الحكيم" (تفسير المنار)؛ لمحمد رشيد رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م.
- "تفسير القرآن العظيم" لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير؛ المحقق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ / 1999م
- "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" للمؤلف: د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ
- "تفسير أبي السعود" (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي محمد (ت: 982هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت؛ دون طبعة
- "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق؛ الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ / 2000م
- "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي؛ بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ / 2001م
- "الجامع لأحكام القرآن" لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر: دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ / 1964م.
- "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لشهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية؛ بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ

▪ "فتح القدير" محمد بن علي الشوكاني؛ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب؛ دمشق، بيروت؛ الطبعة: الأولى، سنة: 1414 هـ

▪ " في ظلال القرآن" للسيد قطب؛ دار الشروق؛ ط: الثانية والثلاثون، سنة: 1423 هـ / 2003 م

▪ "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"؛ للزمخشري؛ الناشر: دار الكتاب العربي؛ بيروت؛ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت؛ الطبعة: الثالثة؛ 1407 هـ

▪ " مجالس القرآن " لفريد الأنصاري دار السلام، ط: 2، 1437هـ/2016

▪ " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر: دار الكتب العلمية -بيروت؛ ط: 1؛ سنة: 1422 هـ

▪ "معاني القرآن"؛ لأبي زكريا الفراء؛ المحقق: أحمد يوسف النجاشي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشليبي؛ الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة مصر؛ ط: 1، بدون تاريخ

▪ "مفاتيح الغيب" للإمام الرازي، دار إحياء التراث العربي؛ بيروت، ط: 3؛ سنة: 1420 هـ.

▪ "مفردات القرآن. نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية" حميد الدين الفراهي، تحقيق: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط / 1، 2002م

▪ "الموسوعة القرآنية المتخصصة" لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، إعداد وتحرير: د. علي جمعة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1423 هـ/ 2002م

مصادر الحديث الشريف وشروحه

■ "الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان"؛ لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي؛ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ/ 1988 م

■ "تنقيح أحاديث التعليق" ابن عبد الهادي، يوسف بن عبد الهادي الحنبلي، تحقيق أيمن صالح شعبان، بيروت، دار الكتب العلمية

■ "جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم"؛ لابن رجب الحنبلي (ت: 795هـ)؛ المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس؛ مؤسسة الرسالة - بيروت؛ الطبعة: السابعة، 1422هـ - 2001م

■ "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه" أي "صحيح البخاري"؛ لمحمد بن إسماعيل البخاري؛ المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)؛ الطبعة: الأولى، 1422هـ

■ "سنن أبي داود" لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت: 275هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط/ محمّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ / 2009 م

■ "سنن الترمذي" لمحمد بن عيسى الترمذي، (ت: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3)، وإبراهيم عطوة عوض

المدرس في الأزهر الشريف (ج 4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ / 1975 م

■ "سنن النسائي" أبو عبد الرحمن النسائي (ت: 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406 - 1986

■ "شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك" محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت: 1122هـ)، دار الكتب العلمية، ط: 3؛ 2004م

■ "شرح السنة" لأبي محمد الحسين البغوي؛ تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، نشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت؛ ط: 2، سنة: 1403هـ / 1983م

■ "صحيح ابن حبان" لمحمد بن حبان التميمي (ت: 354هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: 739 هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ / 1988 م

■ "صحيح ابن خزيمة": أبو بكر محمد بن خزيمة النيسابوري (ت: 311هـ)، حققه وعلق عليه وخرّج أحاديثه وقَدَّم له: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ / 2003 م

■ "صحيح مسلم": مسلم بن الحجاج (ت: 261هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت

■ "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للحافظ ابن حجر العسقلاني، مصححة على النسخة التي حققها ابن باز، دار الفكر؛ ط: 1؛ 1420 هـ / 2000م

- **" فيض القدير شرح الجامع الصغير "** المناوي القاهري، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر الطبعة: الأولى، 1356هـ
- **" قوت المغتذي على جامع الترمذي "**؛ لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)؛ إعداد الطالب: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، إشراف: الدكتور سعدي الهاشمي؛ رسالة الدكتوراة - جامعة أم القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة؛ عام النشر: 1424 هـ
- **" مختصر صحيح مسلم "** المؤلف: عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنكذري (ت: 656 هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، ط: 6؛ سنة: 1407 هـ / 1987م
- **" مستخرج أبي عوانة "** لأبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، ط: 1؛ السنة: 1419هـ / 1998م
- **" المسند الصحيح المختصر "**؛ لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت؛ دون تاريخ ولا طبعة.
- **" مسند الإمام أحمد بن حنبل "** المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون؛ إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ / 2001 م

■ "مسند الدارمي" المعروف بـ (سنن الدارمي)، الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ / 2000 م

■ "مصنف عبد الرزاق": محمد أحمد عبد القادر الشنقيطي المدني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: الثانية

■ "المعجم الأوسط": سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني (ت: 360هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة

■ "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج" لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: 676هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: 2؛ السنة: 1392 هـ

■ "الموطأ" للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، رواية الليثي، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، نشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ / 2004 م.

■ "النهاية في غريب الحديث والأثر"، لابن الأثير؛ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399 هـ / 1979 م

المعاجم اللغوية والاصطلاحية وكتب اللغة

- "أساس البلاغة" لجار الله الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت؛ لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ / 1998 م
- "تاج العروس من جواهر القاموس"؛ لمحمد بن محمد الزبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين؛ نشر: دار الهداية؛ دون طبعة أو تاريخ
- "التعريفات" للشريف الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1؛ 1403 هـ - 1983 م؛
- "الخصائص" أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة؛ دون سنة للطبع.
- "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت؛ الطبعة: الرابعة 1407 هـ / 1987 م
- "شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك" لابن عقيل الهمداني المصري (ت: 769هـ)؛ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد؛ الناشر: دار التراث - القاهرة؛ ط: 20؛ سنة: 1400 هـ / 1980 م
- "شرح تسهيل الفوائد" لابن مالك؛ المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، نشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط: 1، سنة: 1410 هـ / 1990 م.
- "العين" الفراهيدي، الخليل بن أحمد، تحقيق مهدي المخزومي، دار الرشيد، بغداد، بلا تاريخ

- "الفروق اللغوية" لأبي الهلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر؛ دون طبعة.
- "القاموس المحيط" تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ / 2005 م
- "قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور، إيكه هولتكرانس، ترجمة الجوهري، دار المعارف بمصر، بدون طبعة.
- "كشاف اصطلاحات الفنون" للعلامة التهانوي؛ تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة: الأولى - 1996م.
- "الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبوالبقاء الحنفي، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري؛ مؤسسة الرسالة بيروت، دون سنة للطبع.
- "لسان العرب" لابن منظور نشر: دار صادر؛ بيروت؛ الطبعة: الثالثة - 1414هـ
- "مجمّل اللغة" لابن فارس، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1406 هـ / 1986 م
- "مختار الصحاح" للرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420 هـ / 1999 م

- **"المصباح المنير في غريب الشرح الكبير"** للفيومي، المكتبة العلمية - بيروت؛ دون طبعة أو تاريخ.
- **"المعجم العربي الأساسي"** جماعة من كبار العلماء؛ بدون طبعة وتاريخ.
- **"المعجم الفلسفي"**، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة للنشر والمطابع، القاهرة 1983م.
- **"معجم لغة الفقهاء"**، محمد رواس، دار النفائس، بيروت، ط1، 1996م.
- **"مفتاح النور في مفاهيم رسائل النور"** فريد الأنصاري؛ مركز النور للدراسات استانبول تركيا؛ معهد الدراسات المصطلحية والبحوث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس؛ بدون طبعة.
- **"المنزهر في علوم اللغة وأنواعها"**، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، تحقق: فؤاد علي منصور، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ / 1998م.
- **"مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ"**، د الشاهد البوشيخي، ط: 2، دار القلم بالكويت (1415هـ / 1995م).
- **"معجم محيط المحيط"**، للبستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ط: 1983م
- **"معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم"** للإمام السيوطي؛ تحقيق د محمد إبراهيم عبادة، نشر مكتبة الآداب القاهرة، ط: 1، سنة: 1424 / 2004م.
- **"المعجم الوسيط"**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إشراف (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) بيروت، دار الدعوة، دون طبعة.

▪ "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث - القاهرة
- طبعة سنة 1422هـ / 2001م.

▪ "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر: 1399هـ - 1979م
▪ "المفردات في غريب القرآن" الراغب الأصفهاني؛ المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412هـ؛

▪ "المقابسات" أبو حيان التوحيد، المحقق: حسن السندوي، دار سعاد الصباح، الطبعة: الثانية، 1992م

مؤلفات في الفكر العمراني والحضاري

▪ الاجتهاد والتجديد في الفكر الاسلامي المعاصر دراسة في الاسس المرجعية والمنهجية" لأستاذنا الدكتور سعيد شبار، من اصدارات المعهد العالمي للفكر الاسلامي ط: 1 سنة: 2007م

▪ الإسلام حضارة الغد" الدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، دون طبعة.
▪ "الإسلام والضمان الاجتماعي" الدكتور الفنجري؛ دار ثقيف للنشر، الرياض الطبعة الثانية، 1982

▪ "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، " بديع الزمان النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر إستانبول، 1994م

- "الإصلاح بالإسلام معالم المشروع الحضاري للإمام محمد عبده" لمحمد
عمارة، مؤسسة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 2006م
- "الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن"، د: توفيق علي زبادي دار المقاصد،
ط:1؛ 1437هـ / 2016م
- "الإنسان والحضارة في العصر الصناعي" فؤاد زكريا، مطبعة الاعتماد بمصر
مركز كتب الشرق الأوسط ط 1 / 1957م
- "أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع" لجودت سعيد؛ الطبعة الأولى: 1408
هـ / 1988م، طبع بموافقة الإفتاء العام والتدريس الديني بدمشق رقم 906 تاريخ
1986/10/1
- "الأسماء والصفات"، البيهقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن
محمد الحاشدي، مكتبة السوادني، جدة المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى،
1413 هـ / 1993م
- "أهم ضوابط قبول المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السنة
والجماعة"، سعود بن سعد بن نمر العتيبي، رسالة دكتوراه أجازت في كلية الدعوة وأصول
الدين (قسم العقيدة والأديان) جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1428هـ - 2007م.
- "بلاغ الرسالة القرآنية" لفريد الأنصاري، دار السلام، ط: 1؛ 1430 هـ /
2009م
- "البيئة والإنسان" لعبد المقصود زين الدين، منشأة المعارف بالأسكندرية؛ بدون
طبعة،

- "بناء الإنسان والمجتمع" للدكتور فاروق حمادة، نشر دار القلم، دمشق، ط: 1، 1433هـ / 2012م.
- "تاريخ الحضارات العام" إشراف مورييس كروزيه؛ نقله إلى العربية فريد داغر وفؤاد أبو ريجان؛ منشورات عويدات، بيروت؛ الطبعة الأولى 1964م
- "تاريخ الحضارة الإنسانية" محمد عبد القادر خريسان وآخرون، دار الكندي ومؤسسة حمادة، الأردن، ط 1، دون تاريخ
- "التنمية والبيئة"، شوقي دنيا، رابطة العالم الإسلامي، مكة، 1414هـ
- "الثقافة والعولمة"؛ للدكتور سعيد شبار؛ نشر: دار الإنماء الثقافي؛ ط: 1، سنة 2014م
- "جغرافيا الحضارات" رولان بريتون، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت باريس؛ الطبعة الأولى 1993م.
- "جغرافية التنمية والبيئة" عيسى إبراهيم وأبو راضي، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1 سنة 2004م
- "جمالية الدين" فريد الأنصاري، دار السلام؛ ط1؛ 1430هـ / 2009م
- "حركة التاريخ في القرآن الكريم" عامر الكفيشي، ط1، دار الهادي، بيروت، 1424هـ / 2003م
- "الحضارة الإسلامية" أحمد عبد الرحيم السايح، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - الطبعة العاشرة، ذو الحجة 1397هـ / 1977م

- "الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولحاث من تأثيرها في سائر الأمم"، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي؛ دار القلم؛ دمشق- الطبعة الأولى: 1418هـ-1998م
- "الحضارة العربية الإسلامية". الدكتور طه خضر عبيد؛ ط 1. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، 2012م / 1433هـ.
- " الحضارة العربية الإسلامية"، للدكتور شوقي أبي خليل، دار الفكر، ط: 5؛ سنة: 1439هـ / 2018م،
- "حول تشكيل العقل المسلم" خليل عماد الدين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط"1؛ 1991م،
- "دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية" للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق القاهرة، ط: 4، 2012م.
- "دولة القرآن" لطف عبد الباقي سرور، نشر دار الفكر العربي، بدون طبعة وتاريخ.
- "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" محمد قطب، ط1، الرياض: دار الوطن للنشر، 1411هـ / 1991م
- " الرؤية الكونية الحضارية القرآنية" تأليف د عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام؛ ط: 1، سنة: 1430هـ/2009م
- " الرسول والعلم " للدكتور يوسف القرضاوي؛ دار الصحوة دون طبعة ولا تاريخ

▪ "رعاية البيئة في شريعة الإسلام" د: القرضاوي، دار الشروق، ط: 2،
سنة: 1427هـ / 2006م

▪ "السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية" د. عبد الكريم
زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط: 1، 1413هـ / 1993م،

▪ "السنن الإلهية في السيرة النبوية"، د. رشيد كهوس، دار السلام للطباعة
والنشر، القاهرة - مصر، ط: 1، 1438هـ / 2017م

▪ "السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم.. أصول وضوابط" د. مجدي
محمد محمد عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 3، 1434هـ /
2013م

▪ "السنن في الأفراد والجماعات" للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة
- ناشرون - دون طبعة وتاريخ

▪ "سنن قيام الحضارات وسقوطها قديما وحديثا مقارنة بآراء ابن خلدون"
عبد اللطيف بن محمد بن عبد العزيز الحميدان، نشر مكتبة العبيكان - الرياض - ط: 1؛
سنة: 1438 هـ / 2017 م

▪ "السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم" للأستاذ الدكتور توفيق بن
أحمد الغلبزوري، كلية أصول الدين، جامعة القرويين المملكة المغربية، بدون طبعة.
▪ "سلسلة دراسات إسلامية معاصرة، العلم في الغرب" لأنور الجندي،
منشورات المكتبة العصرية؛ صيدا / بيروت؛ بدون طبعة.

▪ "سلسلة المسلمون بين التحدي والمواجهة؛ من أجل انطلاقة حضارية شاملة"
بقلم أ.د. عبد الكريم بكار، الناشر/ دار القلم دمشق، الطبعة الرابعة 1432هـ / 2011م

- (سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم) د: بكار محمود الحاج جاسم، دار النوادر؛ ط: 1؛ سنة: 1433هـ / 2012م،
- " شجرة الحضارة "؛ رالف لنتون؛ ترجمة أحمد فخري؛ مكتبة الأنجلو مصريّة، دون طبعة
- "شروط النهضة لمالك بن نبي" ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ط: 1979م
- "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" لابن القيم؛ الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: 1/1398هـ/1978م،
- "الشعاعات" بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، إستانبول، 1993م
- الشهود الحضاري للأمة الإسلامية" د: عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط: 2؛ سنة: 1427هـ / 2006م
- "صدام الحضارات"، صامويل هانتنغتون، إصدار مجلة شؤون الأوسط - مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، سنة: 1995م
- "الطبيعة والنفس البشرية" لسعيد الحفار، هيئة الموسوعة البشرية، دمشق، ط: 2002م
- "علم الاجتماع، مقدمة تجاوزية" د. سعيد خالد الحسن، مركز الدراسات والأبحاث مؤسسة خالد الحسن، الرباط المغرب، ط: 1، 2009م.
- " علم العمران الخلدوني" لصالح بن طاهر مشوش الجزائري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا؛ ط: 1؛ 1433هـ/2012م.

■ **"عمارة الأرض في الإسلام"** جميل عبد القادر أكبر؛ طبع هذا الكتاب بدعم من سمو الامير سلطان بن سلمان عبد العزيز وعلى نفقة شركة بن لادن الإسلامية؛ سنة: 1992م

■ **"الفطرية"** لفريد الأنصاري؛ منشورات رسالة القرآن، بدون طبعة

■ **"فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية"** الدكتور إدريس العلمي أطروحة دكتوراه، مرقونة بكلية الآداب جامعة محمد الأول بوجدة

■ **"الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"** الحجوي، مكتبة دار التراث - القاهرة، نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ط: 1396 هـ.

■ **"فلسفة الحضارة"**، ترجمة د. زكي نجيب محمود، ص 34؛ عن د. مقداد يالجن في كتيب: "دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية"، ط دار الشروق أولى 1983 م

■ **"القرآن وشيعة المسلمين"** إبراهيم أبو الخضب، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، دون طبعة أو تاريخ

■ **"قناديل الصلاة مشاهدات في منازل الجمال"** للدكتور فريد الأنصاري، دار السلام، ط: 1؛ 1430هـ/2009م

■ **"الكلمات"** من كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: احسان قاسم الصالح، دار سوزلر للنشر، إستانبول؛ الطبعة الأولى، 1992م.

■ **"الكون الأنيق"** لبراين غرين، ترجمة فتح الله الشيخ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 01، 2005م

- **"كيف نتعامل مع القرآن"** محمد الغزالي، دار النهضة مصر ط: 14 سنة: 2014م
- **"اللمعات"** سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، إستانبول، 1993م
- **"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"** للعلامة الندوي، دار ابن كثير، دمشق؛ ط: 6؛ سنة 1430هـ / 2009م
- **"المبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين"** الآمدي، دار المناهل، بيروت، تحقيق عبد الأمير الأعم، ط1، 1987م
- **"المحاور الخمسة للقرآن الكريم"** محمد الغزالي، دار نهضة مصر، بدون طبعة
- **"المدخل إلى تاريخ الحضارة"** جورج حدّاد؛ مطبعة الجامعة السوريّة: 1958م
- **"مدخل إلى العلوم الاجتماعية"** مهنا حدّاد، دار مجدلاوي، الأردن، ط1 / 1992م
- **"المدرسة القرآنية"**، الصدر، محمد باقر، بيروت، دار التعارف، ط: 1981م
- **"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"** مالك بن نبي؛ إشراف وتقديم: المحامي عمر مسقاوي؛ الناشر: دار الفكر المعاصر؛ بيروت لبنان / دار الفكر-دمشق سورية؛ الطبعة: 1423هـ / 2002م
- **"منظومة القيم العليا"** للدكتور فتحي حسن ملكاوي، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فيرجينيا - ط: 1 سنة: 1434هـ / 2013م
- **"مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال"** د يوسف القرضاوي، دار الشروق ط: 1، سنة: 2010م

- "المقدمة" ابن خلدون؛ دار الفكر بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ / 1988م
- "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"، لمحمد سعيد رمضان البوطي، ط2، دمشق: دار الفكر، 1419هـ / 1998م
- "ميلاد مجتمع" مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق؛ ط: 3 سنة: 1406هـ / 1986م
- "نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة" راجح الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط: 1 سنة 1412هـ / 1992م
- "كيف نتعامل مع القرآن العظيم" الدكتور القرضاوي؛ دار الشروق - القاهرة، ط: 8؛ سنة 2011م
- "كيف نتعامل مع السنة النبوية" الدكتور القرضاوي؛ دار الشروق القاهرة، ط: 5، سنة 2008م.
- "المصطلحات والمفاهيم في الثقافة الإسلامية بين البناء الشرعي والتداول التاريخي" من إصدارات مركز دراسات المعرفة والحضارة ط: 3؛ سنة: 1438 هـ / 2017
- "الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة"، محمد عبد العليم العدوي، دار البيان للطبع والنشر، ط1، القاهرة، 2003م
- "وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية"، بحث مقدم للملتقى الأول للعلماء المسلمين في مكة المكرمة 1427هـ / 2006م

مؤلفات في السياسة الشرعية

- "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" أبو الحسن علي البغدادي الماوردي؛ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده؛ ط 2 - 1386 هـ / 1966 م.
- "بدائع السلك في طبائع الملك" ابن الأزرقي، المحقق: د. علي سامي النشار، الناشر: وزارة الإعلام، العراق، الطبعة: الأولى؛ دون تاريخ
- "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك" للماوردي؛ المحقق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي؛ الناشر: دار النهضة العربية - بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ
- "حسن السلوك الحافظ دولة الملوك" محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان بن عبد العزيز البعلبي شمس الدين، ابن الموصلي؛ المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، دون طبعة.
- "درر السلوك في سياسة الملوك" للماوردي؛ المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن - الرياض؛ دون سنة الطبع
- "سراج الملوك" الطرطوشي؛ الناشر: من أوائل المطبوعات العربية، مصر؛ تاريخ النشر: 1289هـ، 1872م
- "السياسة الشرعية" لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ

- "السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية"، للشيخ عبد الوهاب خلاف، الناشر: دار القلم، الطبعة: 1408 هـ/1988م
- "السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها" للقرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، 1432هـ/2011م.
- "الغيثي غياث الأمم في التياث الظلم" للإمام الجويني، أبو المعالي؛ المحقق: عبد العظيم الديب؛ الناشر: مكتبة إمام الحرمين؛ الطبعة: الثانية، 1401هـ
- "مجموع في السياسة" أبو القاسم الوزير المغربي (المتوفى: 418هـ)، المحقق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، الطبعة: الأولى، دون تاريخ.
- "الخلافة" لمحمد رشيد رضا، الناشر: الزهراء للإعلام العربي - مصر، القاهرة، دون طبعة أو تاريخ.
- "مذكراتي السياسية"؛ السلطان عبد الحميد الثاني؛ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: 5 سنة: 1406هـ
- "النصيحة للراعي والرعية" للتبريزي (المتوفى: 636هـ)، حققه وعلق عليه: أبو الزهراء عبيد الله الأثري، الناشر: دار الصحابة للتراث، طنطا؛ مصر، الطبعة: الأولى، 1411 هـ / 1991م
- "الوحدة الإسلامية"، محمد أبو زهرة، دار الرائد العربي، بيروت، دون طبعة

مؤلفات في علم التصوف والسلوك

- "إحياء علوم الدين" أبو حامد الغزالي، دار المعرفة؛ بيروت، بدون طبعة
- "أدب الدنيا والدين" لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري
البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: 450هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، بدون طبعة،
تاريخ النشر: 1986م
- "الأخلاق الإسلامية وأسسها"، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم،
دمشق، ط: 4؛ 1417هـ/1996م
- "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" لابن تيمية؛ الناشر: وزارة الشؤون
الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية 1؛ ط: 1؛ 1418هـ
- "بهجة المجالس وأنس المجالس" لأبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي (ت:
463هـ)؛ دون طبعة أو تاريخ
- "قواعد التصوف" لأحمد زروق الفاسي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب
العلمية، ط: 2 سنة 1426 هـ / 2005 م
- "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، تحقيق أبو زيد العجمي، ط: 1 نشر دار السلام،
القاهرة، سنة النشر 2007م
- "قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه
بالطريقة"، لأحمد زروق، ضبطه وعلّق عليه محمود بيروتي، دار البيروتي، دمشق سوريا؛
ط: 1؛ سنة: 1424هـ/2004م

- "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" لابن القيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، دون طبعة.
- "منهج التربية الإسلامية" محمد قطب، دار الشروق بيروت، طبعة: 1417هـ / 1997م
- "رسالة العبودية" لابن تيمية، الناشر: المكتب الإسلامي؛ دمشق؛ الطبعة: السابعة المجددة 1426هـ / 2005م.
- "شرح القصيدة النونية" شرح الشيخ محمد خليل هراس. ط: الأولى، دار المكتبة العلمية، بيروت، بدون طبعة.

مؤلفات في الفقه وأصوله ومقاصد الشريعة

- "الإبهاج في شرح المنهاج" للسبكي وابنه، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد جمال الزمزمي - الدكتور نور الدين عبد الجبار صغيري، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، 1424 هـ / 2004م
- "إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول" للإمام الحافظ محمد الشوكاني، تحقيق د: شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، ط: 3؛ 1430هـ / 2009م
- "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، لشمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ / 1991م.

▪ "أنوار البروق في أنواء الفروق"، للقرافي، نشر عالم الكتب؛ بدون طبعة وبدون تاريخ

▪ "البحر المحيط في أصول الفقه" للزركشي، الناشر: دار الكتب؛ الطبعة: الأولى، 1414هـ / 1994م

▪ "حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي"، لعلي بن مكرم الله العدوي، تحقيق أحمد مصطفى الطهطاوي، نشر: دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط: 1، سنة: 1440هـ / 2019م.

▪ "الخراج" لأبي يوسف، الطبعة السلفية، ط: الثالثة، سنة: 1382هـ

▪ "الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" لأحمد ميارة الفاسي؛ دار المعرفة؛ الدار البيضاء المغرب، دون طبعة

▪ "شرح التلويح على التوضيح" لمسعود بن عمر التفتزاني، مكتبة صبيح بمصر، بدون طبعة وبدون تاريخ

▪ "شرح حدود ابن عرفة" للرصاع؛ نشر: المكتبة العلمية، الطبعة: الأولى، 1350هـ

▪ "شرح الفرائد البهية في نظم القواعد الفقهية" للأهدل، شرحها محمد صالح موسى؛ مؤسسة الرسالة ببيروت، ط: 1؛ سنة: 2009م

▪ "شرح القواعد الفقهية" لأحمد الزرقا، نشر دار الغرب الإسلامي ببيروت؛ ط: 1؛ سنة: 1410هـ

▪ "عمدة الطالب لنيل المآرب في الفقه على المذهب الأحمد الأمثل مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل" لمنصور بن يونس البهوتي، حققه: مطلق بن جاسر

بن مطلق الفارس الجاسر، مؤسسة الجديد النافع للنشر والتوزيع، الكويت، ط: 1، 1431هـ / 2010 م.

■ **"فتاوى معاصرة"** د. يوسف القرضاوي؛ نشر: دار القلم، الكويت؛ ط: 3؛ سنة: 1424هـ / 2003م.

■ **"فقه الزكاة"** للقرضاوي، مكتبة وهبة، ط: 25؛ سنة 1427هـ / 2006م

■ **"قاعدة التصرف على الرعية منوط بالمصلحة، دراسة تأصيلية تطبيقية فقهية"**، د: ناصر بن محمد الغامدي، مجلة جامعة أم القرى، العدد: 46؛ سنة: 1430هـ

■ **"قواعد الأحكام في مصالح الأنام"** العز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية؛ القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، 1414 هـ / 1991 م

■ **"قواعد المقاصد"**، د: أحمد الريسوني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي؛ مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، ط: الأولى؛ سنة: 1441 هـ / 2020م

■ **"المبسوط"** لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة بيروت، تاريخ النشر: 1414هـ / 1993م

■ **"مجموع الفتاوى"** لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ / 1995م.

■ **"مختصر العلامة خليل"**؛ لخليل بن إسحاق؛ المحقق: أحمد جاد، دار الحديث/القاهرة؛ ط: 1 سنة: 142هـ / 2005م

- "مذكّرة في أصول الفقه" للشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، 2001م
- "المستصفى" لأبي حامد الغزالي الطوسي (ت: 505هـ)؛ تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1413هـ / 1993م
- "المصطلح الأصولي عند الشاطبي" د فريد الأنصاري، دار السلام، ط: 1، سنة: 1431هـ / 2010م.
- "معجم المصطلحات المقاصدية" تأليف جماعي بإشراف د: أحمد الريسوني، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط: 1، سنة: 1438هـ / 2017م
- "المغني"، لابن قدامة، دار إحياء التراث العربي. ط: 1، سنة النشر: 1985م
- "مقاصد الشريعة الإسلامية"؛ لابن عاشور، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سنة 1425 هـ / 2004 م
- "الموافقات"؛ للشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م
- "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل" للحطاب الرّعيني المالكي، دار الفكر، الطبعة: الثالثة، 1412هـ / 1992م
- موسوعة الفقه الإسلامي المصرية، المصدر: موقع وزارة الأوقاف المصرية، [الكتاب مرقم آليا]، من موقع <http://www.shamela.ws>
- "نثر الورود على مراقبي السّعود"، شرح الشيخ محمد الأمين صاحب "أضواء البيان" تحقيق وإكمال تلميذه الدكتور ولد سيدي ولد الحبيب الشنقيطي، نشر دار ابن حزم بيروت، ط: 3؛ 1423هـ/2002م

▪ "نشر البنود على مراقي السعود"، عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي؛
تقديم: الداوي ولد سيدي بابا - أحمد رمزي: مطبعة فضالة بالمغرب، (بدون طبعة)
(بدون تاريخ)

▪ "نيل السؤل على مرتقى الأصول إلى علم الأصول" للعلامة محمد يحيى
الولائي الموريتاني؛ تحقيق أبي محمد بن محمد الحسن، نشر مكتبة الولائي لإحياء التراث
الإسلامي نواكشوط موريتانيا، ط: 3، 1427 هـ / 2006 م

▪ " الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية"؛ لمحمد بن
قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي، المكتبة العلمية؛ الطبعة: الأولى،
1350هـ

مؤلفات في علم المنطق

▪ "الرد على المنطقيين" ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، لبنان؛ دون تاريخ الطبع

▪ "شرح نظم السلم المنورق" في المنطق للأخضري؛ تأليف الشيخ حسن درويش
القويسني، راجعه أبوظلحة مراد المهرومي، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، طبعة سنة:
1431هـ/2010م

▪ "ضوابط المعرفة" لحنكة الميداني، دار القلم، ط: 21، سنة 1432هـ / 2011م

- " آداب البحث والمناظرة " للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: سعود بن عبد العزيز العريفي؛ دار عالم الفوائد.

مؤلفات في علوم أخرى

- " الاقتصاد في الاعتقاد "؛ للغزالي، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي؛ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: 1، سنة: 1424 هـ / 2004 م
- " أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار " لأبي الوليد محمد بن عبد الله المكي المعروف بالأزرقى تحقيق: رشدي الصالح ملحق، نشر: دار الأندلس للنشر - بيروت دون طبعة أو تاريخ
- " أخلاقيات الحرب في الإسلام " محمد إقبال النائطي الندوي، الطبعة: 1435 هـ / 2014 م
- " البداية والنهاية "، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774 هـ) دار الفكر، سنة: 1407 هـ / 1986 م
- " تاريخ الطبري " لابن جرير (ت 310 هـ)؛ نشر دار التراث - بيروت؛ ط: 2؛ 1387 هـ
- " التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية " لمحمد عبد الحّي بن

عبد الكبير الكتاني (المتوفى: 1382هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، نشر: دار الأرقم، بيروت؛ ط: 2 دون تاريخ.

▪ "جامع الرسائل" لابن تيمية، المجموعة الأولى، تحقيق د. محمد رشاد سالم. مطبعة المدني، القاهرة، ط: 2؛ 1405هـ/1984م

▪ "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، السعادة بجوار محافظة مصر، 1394هـ/1974م

▪ "دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة" لأحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية بيروت؛ الطبعة: الأولى؛ 1405 هـ

▪ "رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي"، لحسن اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، البيضاء، ط: 1؛ 1401 هـ /1981م

▪ "الزمن في القرآن الكريم" إعداد الباحث: عودة عبد الله، إشراف الدكتور عبد الرحيم الزقة، رسالة الماجستير في القرآن وعلومه في كلية الدراسات الفقهية جامعة آل البيت، العراق، نوقشت بتاريخ: 24 / 1 / 1999م

▪ "سير أعلام النبلاء" لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1405 هـ / 1985 م

▪ "سيرة ابن إسحاق" تحقيق: سهيل زكار؛ دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى 1398هـ/1978م

▪ "الشورى في الشريعة الإسلامية"، القاضي حسين بن محمد المهدي؛ تقديم: د. عبدالعزيز المقالح، سجل هذا الكتاب بوزارة الثقافة، بدار الكتاب في 4 / 7 / 2006م

- **"علوم وهندسة الزمن في القرآن والسنة"** للدكتور خالد فائق، سلسلة الدراسات القرآنية، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: 1، سنة: 2011م
- **"فتوح الشام"** للواقدي (ت 207هـ)؛ نشر دار الكتب العلمية، ط: 1؛ 1417هـ / 1997م
- **"فن الذكر والدعاء"** لمحمد الغزالي، ط4، دار الشروق، القاهرة 2006
- **"قيمة الزمن عند العلماء"**، للعلامة عبد الفتاح أبي غدة، بإشراف ابنه سلمان، دار البشائر الإسلامية، ط: 13؛ سنة: 1430هـ / 2009م..
- **"المحاور الخمسة للقرآن الكريم"** محمد الغزالي، دار نهضة مصر، بدون طبعة
- **"مشكلة الفقر وكيف عاجلها الإسلام"** د: يوسف القرضاوي، بدون طبعة
- **"المعين في التربية"**، د: العربي اسليماني، المطبعة والوراقة الوطنية، ط: 8؛ سنة 2015م
- **"مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب"** ابن الجوزي، عبد الرحمن، تحقيق علي محمد عمر، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1417هـ/1997م،
- **"من معالم الهجرة النبوية إنشاء السوق الإسلامية"** إعداد دكتور: حسين شحاتة، الأستاذ بكلية التجارة جامعة الأزهر؛ خبير استشاري في المعاملات المالية الشرعية.. دون تاريخ وطبعة؛ من سلسلة بحوث ودراسات في الفكر الاقتصادي الإسلامي
- **"موسوعة الإدارة المالية في الإسلام"** الزكاة؛ عبد العزيز الخياط: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية

- "نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم"
- عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة، دون تاريخ
- "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي؛ المحقق: إحسان عباس، دار صادر بيروت..

- الوقت في حياة المسلم"، د: القرضاوي، مكتبة وهبة، دون طبعة

مجلات ودوريات ومواقع الكترونية

- جريدة الشروق الإلكترونية. مقال بعنوان: "بورقية والسبسي .. الصيام والمواريث"، ناجح إبراهيم؛ نشر في: الجمعة 25 أغسطس 2017م
- "جريدة المحجة" مقال بعنوان: "العلم و دوره في بناء الحضارة" د: الطيب بن المختار الوزاني؛ في: 02 يناير 2017م.. العدد: 470
- صحيفة المثقف مقال: "مفهوم الحضارة" د . ابراهيم طلبه سلكها؛ العدد: 4773 المصادف: الاثنين 30 - 09 - 2019م
- مجلة أوروك، العدد الثاني، 2017م، مقال: "الدين واليات الضبط الاجتماع"، الدكتور فالح جابر جاسم الغرابي

- "مجلة الحج"، "الحج تلازم بين التوحيد والوحدة" معالي عبد الحميد حمودة؛ السنة الثالثة والخمسون، الجزء السادس، ذو الحجة 1418 هـ/ أبريل 1998م
- "مجلة حراء" (مجلة علمية ثقافية فصلية)، العدد 9، (أكتوبر/ ديسمبر) 2007م
- "مجلة لواء الإسلام"، العدد: 5؛ سنة: 1388هـ
- "مجلة المنار" لمحمد رشيد رضا، ط: 2، 1327هـ
- مجلة نوافذ اتجاهات فكرية مقال حول: " مفهوم الحضارة"؛ د. بدران بن الحسن، الخميس، ذوالقعدة 1424 الموافق 25 ديسمبر 2003
- موقع قصة الإسلام، تحت اشراف الدكتور راغب السرجاني، مقال: "موسوعة الحضارة الإسلامية" لأحمد شلبي، الجزء الأول، 1989 م
- الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>
- موقع belkadi_omar16@yahoo.fr مقال "المصلحة والأخلاق بين الإيمان والكفر"؛ عمر بلقاضي، في: 2019/12/26

فهرس الآيات القرآنية

29	أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.....
33	إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.....
33	إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.....
90, 93	تَتَحَابُّ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ.....
177	فَاعْرِضْ عَنْ مَسِّ تَوَلَّى عَنِ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا.....
292	فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.....
50	فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ.....
43	قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ.....
254	قَالَ فَذُوقْ وَعَلَيْكُمْ مِمَّنْ رَّبَّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ.....
337	السَّارِفُ وَالسَّارِقَةُ فَاظْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا.....
7, 8, 22, 81, 102, 366	وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.....
226	وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ.....
182	يَتَأْتِيهَا ءَامِنُوا الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ.....
98	وَأُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ.....
214	وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْصَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ.....
154	إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا.....
197	إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا.....
192	وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.....
182	خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ.....
30	وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً.....
228	لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.....

- لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْتَمَسْتَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ 77
- يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا 34
- وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْكِبَرِ اللَّهُ وَلَذِكْرُ الْمُنْكَرِ الْفَحْشَاءِ 96, 106
- أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ 30, 224
- وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فِيهَا فَفَسَدُوا 158
- فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ 35
- إِلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ 227
- يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا 69
- قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَايِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلِيمٌ 56
- قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ 57
- وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْفُوءَةٌ 67
- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَابَرَتْ بِأَنْعُمِ
بِأَذَانِهَا اللَّهُ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ 60
- وَلَوْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ 77
- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا بَقْضًا يَجْعَلُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ 51
- فَدَاخِلْ مِنْ تَرْجِيٍّ 75
- وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ 34
- وَلَا تَفُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ 42
- وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ 179
- يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ ءَاثَرُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ 36
- ﴿وَقُلْ إِعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
بِمَا فَعِنِّيْكُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 81
- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ 33

- ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ 34
- ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ 35
- ﴿فَلْهَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا 70
- ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا 30, 37
- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ 69, 310
- ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 47
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ 85
- ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ 74
- ﴿يَنْفِقُوا مِنْهُ لِقَاعًا يُنَفِّسُهَا اللَّهُ فَلَاحِقًا لِّلْآلِافِ 69, 155
- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ 62
- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ 33
- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي 61
- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ 76
- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ 69
- حَنِيطُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى 97
- وَابْتَغُوا الْيَتَمَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ 332
- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا 295
- فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا 310
- وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ بِأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ 232
- وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ 197, 205, 258, 330
- وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِينَ فِيهِ 160

- وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا 274
- إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا 123, 127, 336
- إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ - وَالْيَوْمِ الْآخِرِ 191
- إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ 48
- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ 309
- إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ 205
- بِمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ لِيُظْلِمَهُمْ 70
- مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ 340
- وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 19, 22, 308
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ 74
- وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ 35
- وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ 240
- وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ 60
- وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ 148, 214
- وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا 308
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 17, 19
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ 235, 297
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ 73
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ 185
- فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ 35
- كَسْرَابٍ بِفَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْءَانُ مَاءً حَتَّىٰ 156
- رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ 199, 240

- 237.....أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ
- 337.....وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
- 77, 226.....وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
- 78.....وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
- 83.....فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا
- 226.....لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
- 238.....وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
- 212.....وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
- 97.....فَدَاخِلَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ﴿٩٧﴾ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
- 64, 148.....وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
- 51.....وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرْتَنَةِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنهُ ذِكْرًا
- 232.....تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا
- 225.....إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
- 18, 244.....اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
- 300.....شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا
- 33.....أَلَّا يَعْلَمَ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ
- 100.....وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٠٠﴾
- 105, 159.....لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
- 67.....وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ
- 158.....فَدَخَلَتْ مِّن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَنَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
- 223.....هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ
- 151.....وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا

- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرُجِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ 194
- وَاسْتَكَبَرَهُو وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ 216
- يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ 336
- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا 216
- فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ 27, 36, 46
- أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ 191
- فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ 213
- أَقَمَن يَخْلُقُ كَمَ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ 227
- مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ انشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً 68, 191
- خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ 226
- فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا 212
- كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ 300, 307
- وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ 197
- أَقْتُمُونُوا بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَبَعْضٍ 242
- الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّسْتَهْدُونَ 68
- الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ 192
- يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا 199
- وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا 141, 169, 196
- فَمَنْ أَمْسَ وَأَصْلَحَ - فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ 68
- إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى 102
- فَإِنْ حِبْتُمْ فَجِرَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ 97
- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا - فِي أَنْفُسِهِمْ 211

- ° أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
211.....
- لَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
190.....
- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا
310.....
- وَلَا تَنَزَعُوا فَيَغْشَىٰ لَكُم مِّنَ الشَّيْءِ لَاحِقٌ لَّكُم مِّمَّا تَتَنَزَعُونَ
224, 293, 299, 321.....
- فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ يُؤْلُوا بِفَيْقَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْقَسَادِ
214.....
- فَلَا تُطِيعِ الْجَبَابِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا
274.....
- يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
340.....
- الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ
34.....
- وَأَنَّ هَذِهِ هُمُ الَّذِينَ هَادُوا وَأَنَّا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ
308.....
- إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ
227, 238.....
- إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
25, 170.....
- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
237.....
- إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
96, 106, 109, 181.....
- إِنَّ هَذِهِ هُمُ الَّذِينَ هَادُوا وَأَنَّا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ
308.....
- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
219.....
- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
235, 258, 330.....
- وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
254.....
- وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
33.....
- وَلَا تُطِيعُوا أَصْفَارًا قُلُوبُهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
177.....
- وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
10.....
- وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
33, 178.....
- فَلِإِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ امْرُؤٌ
أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
18.....

- 253..... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ
- 226..... شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ
- 239..... وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ
- 150..... ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ
- 61..... إِنْ أُلْدِيسَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمٌ
- 85..... وَإِنْ أُلْدِيسَ وَوَرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لِمَنْ يُشَكِّ مِنْهُ مُرِيبٌ
- 34..... إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ
- 183..... وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
- 193..... لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى سَمْعٌ وَهُوَ شَهِيدٌ
- 61..... وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا قُلْنَا يُفْعَلْ مِنْهُ
- 191..... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
- 57..... وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ
- 191..... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
- 50..... وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
- 82, 143, 160..... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
- 189..... كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا
- 190..... لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
- 204..... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ
- 22..... وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْيُكْفِرْ بِهِ فَكُفَرُوا بِهِ فَتَقَدَّرَ لَهُمْ

فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
37; 39	ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها.....
217	أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَجِيبٍ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ.....
234	إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك.....
236	إذا وسد الأمر إلى غير أهله.....
99	استقيموا ولن تحصوا، و اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة.....
16	اعْبُدُوا الرَّحْمَنَ وَأَقْسُوا السَّلَامَ وَأَطْعُمُوا الطَّعَامَ.....
334	أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْنُونٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.....
231	ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله.....
153	ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله.....
19	الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة،.....
182	التقوى ها هنا.....
59	الحج عرفة.....
59	الدين النصيحة.....
164	السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل ضعيف.....
95	العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر.....
233	المُسلِّمُ أَخُو المُسلِّمِ لَا يَظْلِمُهُ.....
315	النبي ﷺ نهى عن الغرر.....
303	أمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث.....
38	أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتعلّمتُ له كتاب يهود.....
160, 161	إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها.....
40	إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً.....
38	إنّ الله وملائكته وأهل السماوات والأرض.....
78	إن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.....
338	إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة.....
229	أن النبي ﷺ توضع ثلاثاً، ثلاثاً.....
16	أن أناساً من عبد القيس قدموا على رسول الله.....
48, 104	أن تعبد الله كأنك تراه.....
48	أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.....
94	إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.....
20	إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله.....
200	إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا.....
79	إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة.....

- 161.....إن هذا المال حلو
- 53 أنتم أعلم بدينكم
- 336.....أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم
- 233.....انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا
- 39 إنما الدنيا لأربعة نفر،
- 39 إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم
- 219.....إنما هلك من كان قبلكم، أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع
- 40 أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أني عليم
- 28 أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة
- 303.....أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة
- 267.....بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة
- 161.....بعث إلي النبي صلى الله عليه وسلم فأمرني أن أخذ علي ثيابي وسلاحي
- 15 بَعَثْتُ بُنُو سَعْدِ بْنِ كَعْبٍ ضِمَامَ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَإِنِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
- 95 بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة
- 17 بينما رجل فيمن كان قبلكم، كان في مملكته
- 186.....تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا
- 230.....جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي
- 109.....حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطيب
- 303.....دعانا النبي ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة
- 90, 94 رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة
- 47 رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر
- 197.....رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا
- 16 سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله
- 192.....عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير
- 84 قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض
- 156.....كان خلقه القرآن
- 246, 251 كَانَتْ بُنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ
- 18 كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس
- 326, 349 كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته
- 14 كنت ردف النبي ﷺ، على حمار يقال له عفير
- 217, 233 كيف يقْدَسَ الله أمة لا يأخذُ ضِعْفُهَا حَقَّهُ من قُوَّيْهَا
- 150.....لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب
- 38 لا تقوم الساعة حتى يُقْبِضَ العلم، وتكثرُ الزلازلُ
- 30, 37 لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ

- لا ضرر ولا ضرار 242, 314
- ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لم يجهد لهم وينصح لهم 332
- ما من عبد يستر عليه الله رعية 333
- من جاء مسجدي هذا، لم يأتيه إلا لخير 38
- مَنْ حَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً 266
- من خلع يدا من طاعة لقي الله لا حجة له 266
- مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا 39
- من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله 38
- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ 48
- مَنْ مَاتَ وَلَا بَيْعَةَ عَلَيْهِ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً 266
- من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية 265
- من نزع يده من طاعة، فإنه يأتي يوم القيامة 265
- من ولي من أمور هذه الأمة عملاً فلم يحطها بنصح 334
- هَلْ تَذَرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟ 15
- والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا 76
- وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة 303
- وصلُّوا كما رأيتموني أصلي 47
- وفي بضع أحدكم صدقة 20
- ومن مات ليس في رقبته بيعة 266
- يا أبا بكر إكَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ 335
- يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا 154, 193, 310
- يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، 90, 93
- يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة 83
- يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً 226
- يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن 150, 159
- ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة 2

فهرس القواعد العمرانية

الصفحة	القاعدة
7, 58,59;61; 63, 64; 65,79;92; 101,187; 366;	التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان
88, 111, 115, 195, 367.....	الزكاة فريضة شرعية وضرورة عمرانية
88, 89,90; 92, 97, 99,100;181; 367.....	الصلاة عمود العمران وروحه
315.....	الضرر لا يزال بمثله
315.....	الضرر يدفع بقدر الإمكان
314.....	الضرر يُزال
135, 157, 164, 201, 209, 212, 213, 217, 219, 222, 223, 236, 237, 244, 246, 317, 368	الظلم مؤذن بخراب العمران
27, 30, 170.....	العلم شرط الاستحقاق
7, 26, 27, 28, 41, 53, 56, 57, 366	العلم نقطة الانطلاق
7, 26,31;41;57; 366	العلم نقطة الانطلاق، وشرط الاستحقاق
249, 287, 289, 293, 294, 301, 306, 311, 316,318;321;322; 369	الوحدة والاجتماع قوة للعمران والفرقة ضعف وخراب
249, 322,323; 327, 331,338;340; 346, 351, 352, 369.....	تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة
135, 172, 174, 179, 180, 181, 183, 188, 190, 199, 368	تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران
135, 136, 140, 141, 142, 144, 146, 151, 152, 153, 162, 165, 171, 325, 367	صلاح العمران بصلاح الإنسان
249, 250, 251, 254, 255, 257, 263, 267, 269, 271;276, 281, 286, 302, 316, 322, 323, 331,345; 368	لا عمران إلا بسلطان
268.....	لا عمران بغير سلطان
22, 60.....	لا عمران من دون عبادة
47.....	لا يحل لامرئ أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه
59.....	والشرك والكفر خراب للإنسان
315.....	يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام
9.....	وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

فهرسة الموضوعات:

الباب الثاني: المدخل التطبيقي: قواعد العمرانية وآثارها الاستشرافية في عمران الأمة	1
الفصل الأول: قواعد عمرانية في العقيدة وأصول الدين	6
المبحث الأول: قاعدة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾	8
المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها	9
استنتاج:	12
المطلب الثاني: أدلتها من القرآن والسنة:	14
المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية	18
خلاصة:	22
المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة	23
استنتاج:	24
المبحث الثاني: قاعدة (العلم نقطة الانطلاق، وشرط الاستحقاق)	26
المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها	27
استخلاص:	32
المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية	33
استنتاج:	42
المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية	43
مجال العبادة:	48
مجال السلوك والقيم:	49
مجال الماديات والتجربة:	50
المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة	55
خلاصة:	58
المبحث الثالث: قاعدة (التوحيد والإيمان عمران، والشرك والكفر خراب للإنسان)	60
المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها	61
استنتاج:	65
المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية	66
المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية	73
• المجال الروحي (الإيمان مصدر عمران روح الإنسان):	74
• المجال الاجتماعي (الإيمان يورث المحبة بين المؤمنين):	77
• المجال التطبيقي العملي: (دور الإيمان في مجال العمل الصالح)	80
المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة	82
• الإيمان والتوحيد يعطي دفعة قوية لحركة العمران:	82
• الإيمان يورث الصبر، وهو الزاد لتحمل تكاليف العمران:	84

- 84..... الإيمان يورث الشجاعة لإقامة العمران والحفاظ عليه: •
- 86..... الإيمان سبب السعادة الحقيقية والراحة والطمأنينة: •
- 88..... الفصل الثاني: قواعد عمرانية متعلقة بالعبادات
- 91..... المبحث الأول: قاعدة (الصلاة عمود العمران وروحه).....
- 92..... المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها
- 94..... استنتاج وخلاصة:
- 95..... المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية
- 101..... استنتاج:
- 102..... المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية
- 103..... مجال العقيدة: •
- 105..... المجال الروحي: •
- 106..... المجال التربوي: •
- 108..... استنتاج:
- 109..... المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة
- 111..... استخلاص:
- 112..... المبحث الثاني: قاعدة (الزكاة فريضة شرعية وضرورة عمرانية).....
- 113..... المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها
- 115..... خلاصة:
- 116..... المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية
- 121..... خلاصة:
- 123..... المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية
- 124..... المجال العقدي: •
- 125..... المجال الاجتماعي: •
- 126..... المجال الاقتصادي: •
- 129..... المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة
- 129..... أولاً الزكاة والتوجيه الاقتصادي: •
- 130..... ثانياً: مقصد تحقيق السلم الاجتماعي والألفة
- 131..... ثالثاً: مقصد تحقيق المساواة
- 133..... الفصل الثالث: قواعد عمرانية متعلقة بالتصوف والسلوك
- 136..... المبحث الأول: قاعدة (صلاح العمران بصلاح الإنسان).....
- 137..... المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها
- 144..... المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية
- 151..... استنتاج:
- 152..... المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية
- 152..... المجال العقدي الفكري: •

- المجال السلوكي الأخلاقي: 155
- المجال الاقتصادي: 159
- المجال الاجتماعي: 162
- المجال السياسي: 165
- 166..... خلاصة واستنتاج:
- 167..... المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة
- 171..... المبحث الثاني: قاعدة (تقديم المصالح المعنوية على المصالح المادية واجب في العمران)
- 173..... المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها
- 179..... خلاصة :
- 180..... المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية
- 187..... استنتاج:
- 187..... المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية
- المجال العقدي: 189
- المجال التعبدية: 193
- المجال السلوكي: 195
- المجال الاجتماعي: 196
- 198..... بيان واستنتاج:
- 199..... المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة
- 201..... المبحث الثالث: قاعدة (الظلم مؤذن بخراب العمران)
- 203..... المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها
- 209..... توضيح وبيان:
- 211..... المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية
- 224..... المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية
- المجال العقدي: 226
- المجال التعبدية: 230
- المجال الاجتماعي: 232
- المجال السياسي: 234
- 237..... استنتاج:
- 238..... المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية
- تحقيق حق الخالقية: 238
- توفيق الذات الإنسانية حقها في الرعاية من غير إجحاف ولا طغيان: 241
- الانخراط الإيجابي مع المجتمع في عملية العمران: 242
- تفاعل الإنسان مع الأكوام لإقامة العمران من غير ظلم ولا عدوان: 243
- 246..... الفصل الرابع: قواعد عمرانية في السياسة الشرعية
- 251..... المبحث الأول: قاعدة (لا عمران إلا بسلطان)

253.....	المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها.....
258.....	المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية.....
269.....	المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية.....
270.....	• المجال الديني:.....
274.....	• المجال الدنيوي:.....
279.....	خلاصة واستنتاج:.....
280.....	المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة.....
283.....	استنتاج:.....
284.....	المبحث الثاني: قاعدة (الوحدة والاجتماع قوة للعمران والفرقة ضعف وخراب).....
286.....	المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها.....
292.....	المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية.....
303.....	المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية.....
303.....	• المجال العقدي الفكري:.....
307.....	• مجال العبادات:.....
310.....	• مجال المعاملات:.....
312.....	• المجال السياسي:.....
314.....	خلاصة:.....
315.....	المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة.....
317.....	وأخيرا:.....
319.....	المبحث الثالث: قاعدة (تصرف الراعي على الرعية منوط بالمصلحة).....
321.....	المطلب الأول: مفهوم القاعدة ودلالاتها.....
324.....	خلاصة واستنتاج:.....
325.....	المطلب الثاني: أدلة هذه القاعدة العمرانية.....
334.....	المطلب الثالث: أهمية القاعدة ومجالاتها العمرانية.....
335.....	• المجال الديني:.....
339.....	• المجال الدنيوي:.....
342.....	المطلب الرابع: آثارها الاستشرافية في عمران الأمة.....
345.....	وفي مسك الختام:.....
346.....	خاتمة
351.....	المصادر والمراجع.....
383.....	فهرس الآيات القرآنية.....
391.....	فهرس الأحاديث.....
394.....	فهرس القواعد العمرانية.....
395.....	فهرسة الموضوعات:.....

